اسكندر رياشي

قبل و بعد

و

رؤساء لبنان كما عرفتهم



قدم له: أسامة عجاج المهتار



اسكندر الرياشي

قبل وبعد

رؤساء لبنان
كما عرفتهم

قدم له:

أسامة عجاج المهتار

اسكندر رياشي
الكتاب الأول : قبل وبعد، الطبعة الأولى 1953
الكتاب الثاني: رؤساء لبنان كما عرفتهم، الطبعة الأولى 1961
الطبعة الثانية تموز 2006

الناشر:
أطلس للنشر والتوزيع
شارع العابد - ص. ب. 8084
دمشق – الجمهورية العربية السورية
هاتف: 44685250 11 963+
هاتف: 4421010
فاكس: 44685251 11 963+
بريد إلكتروني: samh@scs-net.org

التوزيع:
الفرات للنشر والتوزيع
حمرا - بناء رسامني
ص. ب. : 6435-113 بيروت – لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+

المقدمة

هذا الكتاب جدير بإدراجه في المواد المقرّرة لتاريخ لبنان المعاصر. ولا أعتقد أنَّ الناشئة في لبنان، لاسيَّما الشباب المراهق سوف يحتجون على ذلك. فإذا كان الطالب في سن المراهقة يجد مادة التاريخ من أنشف المواد إطلاقاً، فإنه سيجد في التاريخ كما يقصُّه اسكندر رياشي مادَّة تثير فضوله واهتمامه وأحلامه الجنسيَّة، وتضحكه قبل أن تبكيه وتشعره بالعار من أجداده.

اسكندر رياشي، «البلاي بوي» الأنيق، سمسار الفرنسيِّين وعميلهم باعترافه، لاعب القمار مع كبار السياسيِّين، والآكل على موائدهم، ومشاركهم في حفلاتهم «الرومانية» الصاخبة وصفقاتهم، والشاهد على فضائحهم الجنسيَّة، كان أفضل مؤرِّخ لتلك الحقبة من تاريخ لبنان الممتدة من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى سنة 1958، وتبوّء الرئيس الراحل فؤاد شهاب سدة الحكم في لبنان. الفرق بين رياشي وسواه من أبناء عصره أنَّه كان حراميا «جنتلمان»، في حين كان معظم أترابه من سياسيِّين وصحافيِّين حراميِّين حاف.

لماذا ننشر اليوم هذا المجلد المتضمن كتابين من مؤلفات المرحوم اسكندر رياشي هما: «قبل وبعد» و«رؤساء لبنان»؟ الجواب بسيط. لأن الطبقة السياسية في لبنان بمختلف أطيافها، وفي مختلف المراحل، تريدنا أن نصدق أن تاريخ الفساد في لبنان يبدأ فقط مع من سبقها في الحكم، وينتهي فور استلامها. اسكندر رياشي يقول العكس. إنه يخبرنا أن الطبقة السياسية في لبنان هي وليدة الفساد وأن فلسفتها السياسية بسيطة جداً: إن وصلت إلى الحكم ولم تسرق، كنت غبيًا جاهلاً.

«عندما اشترى عمَّال فرنسا لبنان للفرنسيِّين»، «قبضوا وقبضنا وقبضايات»، «تمديد لا تجديد»، «كلُّنا بالهوى سوى»، «الحراميَّة الجنتلمان»، «بيوت من زجاج تتراشق بالحجار»، «الطابور الخامس في بيروت الحسناء».

على الرغم من أنَّ العناوين أعلاه تكاد تصف بالحرف الوضع السياسي في لبنان في خضم أحداث 2005 – 2006، والسجالات التي قامت بين من يسمُّون أنفسهم معارضة وموالاة، فإنَّها إنَّما تصف عهد الانتداب الفرنسي، الذي جاء في أعقاب عهد العثمانيِّين. وكم يسهب رياشي في وصف الحفلات الصاخبة التي أقامها أولئك اللبنانيُّون في الحي السرسقي للفرنسيِّين، تمامًا كما كانوا يقيمونها للحاكم التركي حتَّى نهاية الحرب العالميَّة الأولى. فنراه يقول «قد يكون الفرنسيُّون أرادوا أن يحكموا بعدل وإنصاف وتنظيم، ولكن ليس الفرنسيِّين هم الذين أفسدوا كلَّ هذا، بل نحن». ويقول بعد أسطر بكلِّ صدق وصراحة يندى لها الجبين، ما يلي:

«إنَّنا لا نكون مبالغين ولا مختلقين إذا قلنا إنَّ أهالي هذه البلاد ألقوا دروسًا على الأتراك في فن الرشوة والارتشاء والاستثمار. كنَّا نفتِّش عن اكتساب رضى الأتراك بكلِّ ما عندنا من حيل، وبكلِّ ما عندنا من أسباب وطرق للإغراء! ولا أريد أن أقول إنَّ الكثيرات من حسان هذه البلاد كنَّ في رأس ذلك الإغراء – ممَّا يجري دومًا في كلِّ بلاد يدخلها القوي ويحكمها فاتحًا. ولكن ما بالغ فيه أهالي هذه البلاد بالأكثريَّة أثناء الحربين الكبيرتين هو أنَّ العدد الأكبر من مئات الحسان، كنَّ يصلن إلى أسرَّة الأسياد الحاكمين الأتراك، ومن بعدهم الفرنسيِّين والإنجليز والأستراليِّين، عن طريق الحنان الأبوي والبركة الأبويَّة».

هل لنا بـ «حرامي جنتلمان» تكون عنده الجرأة الأدبيَّة فيكتب عن روايات الحسان موديل 1976 – 2005؟!

في كتاب رياشي سخرية مرَّة، ولكن فيه ما يضحك ويلقي بالضوء على مصادر ثروات بعض الكبار من صحافيِّي اليوم. هذا ما نجده في فصل بعنوان: «جورج لطف الله المرشَّح لعرش لبنان». والقصَّة باختصار أنَّ بعض الصحافيِّين زيَّنوا لمثر لبنانيٍّ كبير مقيم في مصر أن يشتري عرش إمارة في لبنان. فلمَّا ركبت القصَّة في رأسه توجَّه إلى فرنسا للحصول على الدعم، ومن ثمَّ إلى لبنان ناثرًا الذهب بين أيدي صحافيِّيه لكي يروِّجوا له. وكان المثري من الحرص أن أجبرهم على التوقيع على بيانات القبض.

فلندع رياشي يتابع القصَّة بعد أن فشل سعي الطامح للإمارة فاشتكى على الصحافيِّين طالبًا منهم ردَّ المال الذي قبضوه منه:

«وهؤلاء الصحافيُّون الذين كان بينهم من يصلِّي بالنهار ويفخر على العالم بتجرُّده ونزاهته، ومع ذلك يبيع نفسه بالليل -هؤلاء لم يكن بإمكانهم أن ينكروا أنَّهم كانوا دعاته المأجورين- وذلك عندما أقام عليهم الأمير الدعوى بعد أن خسر المعركة نهائيا، يطالبهم فيها بإرجاع المال الذي كانوا يأخذونه منه».

ترى كم من صحافي يهلِّل لقيامة لبنان في النهار سنة 2006، وهو مجهول مكان «النوم» في الليل!

نبقى مع الشباب. ذلك أن البعض حاول ويحاول أن يكتب تاريخًا للبنان يبدأ الفساد فيه سنة 1976، فكتب يلوم الدولة اللبنانية التي «لا تهمها التربية ولا الجيل الجديد». وطالب بتعليم الشباب تاريخ لبنان لكي يتمكن «من المقارنة بين الطبقة السياسيَّة القديمة، جيل الرجال الكبار الكبار الذين بذلوا الجهد والنفس من أجل إعطاء لبنان استقلالاً وسيادة وحريَّة وكرامة، وبين رجال دون مستوى من سبقهم فرَّطوا بالاستقلال والسيادة والكرامة الوطنيَّة»[1].

إن هذا الكتاب هو مساهمة منا في الإضاءة على حقيقة تاريخ لبنان فيرى الشباب كم أن لبنان اليوم لا يختلف كثيرًا عن لبنان الأمس، وأن من يحاول البعض تصويرهم «كبارًا كبارًا» لم يكونوا حتى «كبارًا صغارًا».

إنَّ لبنان اليوم هو استمرار للبنان الأمس، ولبنان قبل الطائف لا يختلف في الجوهر عنه بعد الطائف. والجوهر هو النظام الطائفي اللبناني الذي وضعت أسسه سنة 1943، بعد فترة حضانة من مطلع عهد الانتداب.

إننا ننشر هذا الكتاب اليوم لكي لا يصطنع أحدٌ للبنان تاريخًا مزوَّرًا نكاية بتاريخ مغيَّب.

---

(1) راجع مقالة «لبنان الرغيف والحرية» للمغفور له جبران غسان تويني، عدد النهار 16 تشرين أول نوفمبر، 2003.

قبل

1918 - 1941

«من كان منكم بلا خطيئة فليرجم هذه المرأة بحجر»

... وثبت أنه لم يكن بينهم أحد بدون خطيئة، لذلك لم يرجموا تلك المرأة بحجر!

بعد

1942 - 1953

كلام عن المؤلف

قال الريحاني في كتابه قلب لبنان:

«هذا الصحفي اسكندر رياشي لـه فن خاص ظريف لبق مطلع بالكتابة، فهو يقرأ ألف سطر ليكتب سطرا!!».

★ ★ ★

سنة 1948 قال الجنرال كاترو في حفلة للمفوضية العراقية ببيروت ملاطفاً: «هذا الصحافي التائه هو أكبر وأنبه صحافي عرفته في الشرق!».

★ ★ ★

كلف الملك ليوبولد البلجيكي أثناء مروره ببيروت سنة 1936 قنصله العام بزيارة صاحب «الصحافي التائه» حاملاً له رسالة من جلالته تقول:

«ما كتبته جريدتك عني بصدد زيارتي بيروت، فيه من اللباقة والبراعة والخبرة الصحفية ما أدهشني، وذلك لعدم معرفتي أن الصحافة في الشرق بلغت هذا المستوى من اللباقة والحذاقة!».

★ ★ ★

نشر الكاتب الأميركي الكبير المعروف هوارد كابلين في مجلة «البارتزان ريفيو» سنة 1947 يقول:

«عرفت في الشرق الأوسط فولتير جديداً لا يقل عن فولتير الأول براعة ونبوغاً، اسمه اسكندر رياشي وعنده جريدة ممتازة تصدر في لبنان بلاد الأرز».

أسئلة واقعية

سؤال - من عمل الاستقلال؟

جواب – هتلر!

سؤال - لماذا يسمون بيروت شنغاي البحر المتوسط؟

جواب – لأن الفساد والاستغلال والمتاجرات ولدت فيها!.

سؤال - من عمل الانقلاب؟

جواب – المسيو بوسون!

الجواب على الأسئلة

- عمل هتلر الاستقلال عندما احتل باريس.
- كان الفساد نائماً نوعاً ما في شنغاي البحر المتوسط فجاء دي مارتل لا يحترم شيئاً ولا يحرم شيئاً وأيقظه فيها.
- عمل «بوسون» الانقلاب عندما استدعته إدارة البنك لفرنسا، وفصلته عن رئاستها، وسحبت الملايين التي كان قد مول بها المشاريع والتجارات والصناعات في لبنان.

تقدمة هذا الكتاب

.. للسُذَّج المغرورين المخدوعين، للناس الملاح الذين لا يزالون يعتقدون أن في لبنان زعماء سياسة، يحسبون الاستغلال جريمة والنزاهة فضيلة في بلاد كانت ـ على مدى الأجيال ـ تحسب القاتل بطلاً، والمتلاعب نابغة، والذي يمكنه أن ينهب ويسلب ولا يفعل «أهبل»!.

. 1 .

عندما يزول أرز لبنان يزول لبنان!

هكذا كان يقول «أرنست رينان» الفيلسوف الفرنساوي الذي زار لبنان في منتصف القرن الغابر، وكتب عنه أشياء كثيرة شيقة قيمة. وكان ـ بعد فولني ـ أول من عرّف أوروبا بصورة إيجابية على هذا الجبل الذي سماه فولني «جبل الموارنة».

ولأرنست رينان فيه رسائل حب، أثبت فيها ليس عاطفته الغرامية الرقيقة فحسب، بل عبقريته الكتابية وبلاغته اللاذعة المشهورة أيضاً. وهذه الرسائل تبادلها مع حسناء لبنانية اشتهرت في زمانها بحرارة العاطفة وظريف الحديث، وها ما تزال محفوظة في بيروت عند ابنة أخيها الحسناء السيدة روز أبو شعر، التي ورثت عن عمتها ما اشتهرت به في صباها من غنج ودلال.

وكان رينان قد نزل ضيفاً على تلك السيدة ـ واسمها مريم خضرا ـ في بيتها في قرية «القرية» في المتن الأعلى، المعروفة بمعاملها الكبيرة للحرير. وهي معامل يدعونها عادة في القرى الجبلية بالكرخانة (كارخانة).

ومن هنا يومئذ جاءت استعارة اسم «كرخانة» للبيوت العمومية ببيروت، إذ أن معامل الحرير كانت تستوعب دوماً مئات البنات كعاملات مما كان يخلق للرجال جواً من الشبق والشهوات، ويسبب في المعامل بلبلة وأهواء، غالباً ما تنقلب هائجة عاصفة!.

* * *

وإنما يجب القول أن الفضل الأول في تعريف لبنان إلى العالم بأجمعه وأخصه إلى الغرب، كان دوماً للكتاب المقدس، فأي رجل في أي بلد كان، وأية فتاة في نيويورك أو مونتريال مثلاً يأتي اسم لبنان أمامها، ولا تقول لك: أليس هو الجبل المقدس الذي بنى سليمان هيكل أورشليم من أرزه؟.

وهكذا، طالما في رأس الجبل الأرز الخالد طالما لبنان في الوجود.

وما جاء ذكر لبنان في الكتاب المقدس وفي الأساطير القديمة إلا مصحوباً دوماً بكلمة الأرز يرافقه ولا ينفصل عنه ـ كجزء لا يتجزأ منه، وكرمز دائم الاخضرار له.

ثم أنه بعد الفتح الإسلامي، لولا وجود النصارى في جبل لبنان، لما كان لبنان ذا استقلال على مدى الأزمان مهما كان ذلك الاستقلال نسبياً منذ القدم حتى آخر عهد السلطنة العثمانية، ولما كان هناك من داع لجعله منفصلاً عن باقي البلدان التي حوله، إذ لم تكن هناك فواصل جغرافية غير جبال وأنهار - لا يمكنها أن تشكل لوحدها منطقة مستقلة طبيعية.

وكانت أشجار الأرز الرمز اللبناني في البداية، ثم جاءت النصرانية بعد ذلك وطبعت الجبل بالخاتم الماروني، وقد جاء به رجل تقي بار من بلاد ما بين النهرين، ونزل على ينبوع العاصي، في كنف جبل الهرمل، حيث لا تزال مغائر ديره منقورة بالصخور على الربى الشمّاء المرتفعة فوق النهر وحيث انطلق بعد ذلك تلامذته إلى الجبال يتسلقونها ويبشرون عشائرها الملحدة من عباد الأصنام بالمسيحية المبجلة السماوية.

* * *

وكان لبنان قبل المسيح، وبعده بأجيال، وقبل الرومان جبلاً حصيناً مشيداً، يقوم في وسط سهول وصحارى لا أول ولا آخر لها - يعتصم فيه أهله ويعيشون لوحدهم معتكفين إلى آلهتهم - إلى فقرهم من جهة، وإلى فروسيتهم وروحهم المتمردة دوماً من جهة ثانية.

وما كانت الشعوب التي حول جبل لبنان تجد فيه شيئاً من الخيرات والسعة لتطمع فيه وتخاطر بالقتال لأجله، فتحاول اكتساحه وامتلاكه.

إذ أنه كان دوماً جبلاً، ليس فيه مراع لغير الماعز، وليس فيه قطعان غير الدببة والذئاب!.

وما كان الفاتحون الآتون من الغرب للشرق، أو من الشرق للغرب يمرون بسواحله، إلا مرور طريق، وإذا أقاموا فيه، لم يكن ذلك طويلاً. ولم يكونوا بأجمعهم يطمئنون إليه، لا من جهة الإعاشة والسلب، ولا من جهة الطمأنينة من عصاباته المتحصنة في مغاوره، وأغلبها مؤلفة من قطاع طرق، لا يعرفون شريعة ولا شفقة.

كما أنه ولا شك لم تكن مهاجمة الفاتحين للبنانيين في حصونهم بروؤس الجبال شيئاً سهل المنال، في وقت لم يكن فيه البارود في هذا الوجود.

وبعد أن بدأت الحضارة واستقرت في هذا الشرق وتميزت الدول وخرج الناس من شريعة الغاب وحياة المغائر، صار لبنان - أو بالأحرى ما استقر مرة واحدة - إلا

على قاعدة تسويات دولية متتابعة، أخذت تتميز كل يوم عن يوم حتى أصبحت حياته السياسية بأجمعها، بعد القرن الثامن عشر، تتقلب على مختلف التسويات التي مرت به.

* * *

ولا يعرف أحد شيئاً واقعاً ثابتاً عن لبنان وكيانه السياسي قبل بيزنطة، ومن بعدها العهد العثماني.

وجميع المؤرخين، من كبارهم حتى صغارهم، الذين يقولون عكس ذلك والذين كتبوا للبنان تاريخاً قبل المسيح بألف سنة، وبعد المسيح بألف سنة، كانوا مختلقين فلكيين ابتدعوا سيراً وأحداثاً وروايات أملتها عليهم تخيلاتهم وبعض القرائن المبهمة، التي لا يمكن أن تكون قاعدة صحيحة لكتابة التاريخ.

وبدأت التسويات الدولية للبنان بوجه صريح في عهد الأتراك، فكانت هذه التسويات الأولى المسجلة والمعروفة واقعياً بين السلطنة وبين دول الغرب، التي عاش لبنان فيها سحابة أربعماية سنة.

كانت أوروبا - وأخصها فرنسا - تحاسب السلطنة في كل مرة تريد محاسبتها حساباً صارماً على مصالحها، وذلك مقابل تسوية لبنانية جديدة، غايتها إعطاء فرنسا حق حماية النصارى في الشرق.

وكانت حماية النصارى مستوحاة ليس فقط من غيرة الفرنسيين على أبناء دينهم هنا، بل كانت حجة أساسية لتدخل هؤلاء، عندما يشاؤون، في أمور الدولة العثمانية، وذلك في سبيل مصالحهم ومنافعهم.

وكانت التسويات جارية على أساس أنه لا يعيش لبنان جندياً ولا عبداً لبني عثمان - بل ولاية عثمانية اسمياً فقط، تحكم نفسها بنفسها بالطريقة التي تراها الأصلح، ولا تحفظ للسلطات غير الدعاء بالعز والإقبال علناً والدعاء له بالخراب والموت ضمناً.

والتسويات اللبنانية كما قلنا كانت دوماً تتوالى على مدى الأجيال، ومع جميع الفاتحين، وكانت بعد بيزنطة مع بني عثمان، ومن بعدهم مع الفرنسيين سنة 1919، ومن بعد هؤلاء مع الإنكليز سنة 1943، ولكن هذه المرة بطريقة غير مباشرة.

والآن بعد الاستقلال، وجلاء الأجنبي عنه من إنكليز وإفرنسيين، قامت التسوية الفلكية العجيبة الكبرى التي نعيش فيها والتي لا يوجد لها مثيل في التاريخ السياسي. وهي التسوية التي تضمنها الآن بطريقة معنوية جامعة الأمم المتحدة.

والتسويات اللبنانية المختلفة المتنوعة كانت على مدى الأجيال وحتى هذه الساعة، أساس كيانه، ويجب هنا القول كحاشية أن التسوية الأخيرة مع جامعة الأمم المتحدة جعلت لبنان ـ ومعه سوريا التي كانت اشتركت معنا بالانتداب الفرنسي وتحررت منه بعد ذلك ـ هذه التسوية جعلت لبنان وسوريا الدولتين الوحيدتين بين الدول العربية مستقلتين فعلاً وواقعيا.

إذ أنهما بين جميع دول هذا الشرق العربي، ليس لهما أية معاهدة مع دول الغرب الكبرى، كما هي الحال مع مصر والعراق وشرقي الأردن.

قلت إنَّ سوريا ولبنان وحدهما غير مرتبطتين بأية معاهدة، وقد استطاعتا حتى الآن منذ استقلالهما أن تنقذا نفسيهما من مثل هذه المعاهدات.

ومنذ خرجت أوروبا من المجهول إلى عهد الحضارة ودارت وجهها نحو الشرق، تخيلت لبنان ـ كما وصفه لها الكتاب المقدس: أرز الهيكل ومهبط الوحي، وغرام الملائكة، فميزته السماء عن بلدان الشرق الأخرى وحبته طبيعة ممتازة منفصلة ـ معنوياً ـ وجبالاً وطقساً ووديان ومياهاً، عن سهول سوريا وصحارى الجزيرة وأرض كنعان.

وبعد ذلك أخذت تلك الدول الغربية تتدخل في أمور لبنان بحجة حماية حَمَلَة الصليب الذين اعتصموا به واتخذوه حصناً لإيمانهم من أهله الأصليين، وممن جاءه لاجئاً هارباً من المذابح الدينية التي كانت تقوم وراء جباله.

وكانت فرنسا ابنة الكنيسة البكر، وحاملة علم الإيمان قوية وقديرة؛ فأقامت نفسها قبل باقي دول الغرب حامية للبنان، مع أن الفرنسيين ليسوا أول الذين تاجروا معه وحملوا مدنيتهم إليه. بل كان الأولون إيطاليين من دولة البندقية حتى دولة جنوا، ومن بعدها فلورنسا وغيرها، فأقاموا متاجر كبيرة لهم عندنا، وتعاملنا معهم بطريقة قريبة جداً، أدخلت إلى لغتنا كثيراً من الكلمات الإيطالية، نستعملها اليوم كأنها كلمات عربية صرف.

ثم اكتسحت فرنسا مراكز جميع هؤلاء، وجاءتنا متصادقة متوددة، وجعلت لبنان على مر السنين مرآة عنها في مدارسها وبعثاتها العلمية والتجارية والعسكرية وغيرها، التي أرسلتها بكثرة إلينا، والتي كانت أساس الثقافة عندنا.

* * *

ـ 2 ـ

التسوية الأولى بين السماء ولبنان!

والأسطورة الشعرية السماوية، أسطورة الملاك العاشق سيدار، كانت بالأحرى التسوية الأولى للاستقلال النسبي حيناً ـ والكامل أحياناً ـ الذي تمتع به لبنان منذ الوجود.

كان الملائكة بعد الخليقة يهبطون كل مساء فوق أرز لبنان ربوات ربوات، وقد اصطفوه لجماله ولصفائه بين باقي البلدان، وجعلوه المختار من الله والحبيب على قلبه.

كان الملائكة يهبطون من سمائهم يحومون فوق أرز لبنان مهللين مسبحين، يمجدون الله بأناشيدهم الساحرة في جمال هذه الطبيعة بجبال لبنان والتي لم تخلق السماء لها مثيلا.

وذات يوم كانت صبية لبنانية من بنات الجبل العالي ذوات الجمال الساحر والخد الأحمر والعين الكحلاء مسترسلة إلى نوم هنيء، وقد أسندت رأسها الجميل إلى جذع شجرة أرز ضخم قديم، وقد حامت حول ثغرها ابتسامة لطيفة، تنم عن عذوبة قلبها وطهارة عاطفتها.

وكان بين الملائكة ملاك أكثر عاطفة وأرق قلباً من رفاقه.

وكان قد جمع في حيويته حرارة فتيان الأرض وشهواتها!.

وكان اسمه سيدار.

وحالاً عندما شاهد الفتاة بجمالها الجذاب أصابته صاعقة الغرام في قلبه، وشعر بالحب يمتلك جوانحه.

حب ابن السماء لبنت الجبال.

وأخذ يجعل نشيده له أكثر حنواً وعذوبة من أناشيد رفاقه باقي الملائكة.

وأخذ الحب يزداد به حتى أضاع عقله.

وأحس أخيراً أنه صار أقرب للأرض منه للسماء، وإنه لم يبق عنده صبر ولا قوة للانتظار، فرمى بجناحيه في الفضاء، وعاف جنة الله وهبط على الأرض، وجاء جميلاً وضاحاً مستهاماً، يحتضن بلهفة بنت الجبال.

وتلقته الصبية المصطفاة بين ذراعيها.

وكانت له وكان لها!.

ومنهما ولد المردة!.

المردة اللبنانيون الذين كانوا عمالقة الجبال، والذين كما تقول أسطورة تاريخية أخرى، هم أيضاً أجداد المردة في بلاد الألبان!.

وكان أحد الغزاة قد أغرى بعضهم عند مروره بلبنان، فشكلوا فرقة منهم صحبته إلى الغرب حيث قطنوا في جبال ألبانيا، ووجدوها أقل جمالاً وفتنة من باقي الجبال الأخرى التي عرفوها ومروا بها.

* * *

وطبعاً على توالي الأيام توالت الديانات في لبنان، وذلك تبعاً لتنوع الآلهة الذين أنجبتهم هذه البلاد. وكذلك تبعاً للديانات العديدة التي كان يجيء بها الفاتحون الذين مروا به.

ولكن قبل النصرانية وقبل الإسلام - كانت ديانة عشتروت للبنانيين أبهج وأشهى الديانات، واليها كان الأكثرون يجنحون وينزعون.

وأسطورة عشتروت ربة الجمال مع عشيقها أدونيس الجميل انبثقت في هذا المشرق وأخذت بعد ذلك تكتسح وتملأ هذا العالم في هذا الشطر العتيق من المعمورة، فتسكره من عبيرها وجمالها.

نزلت ربة الجمال والحب ذات صباح إلى لبنان، وقد عافت الجنة بعد أن أتعبها غرام الآلهة، وما تلاقيه بين أحضانهم من صلف وتحكُّم، وجاءت تستريح في بقعة ساحرة على ضفاف الغدير في جبل افقه المدعو عند أهله بالفردوس على الأرض.

وشاهدت المعبودة فتى راقداً على بساط الحشيش السندسي، ووجدته أجمل وأكثر فتنة من آلهة الأولمب، وتخيلت ايروس وكوبدون ومارس وجوبتير نفسه رب الأرباب عشاقاً مبتذلين عاديين. وإذا كانت فيهم روح الألوهية فليست فيهم رائحة الجبال وعطورها وما تثيره من شهوات.

وأعطت الربة جسدها الإلهي لأدونيس ابن الأرض، وصارت كل يوم تفر من مملكة جوبتير، لتلاقي عشيقها على ضفاف الغدير، حتى غارايروس عشيقها الإلهي الأفضل

والأكثر جنوناً بها، فقلب نفسه خنزيراً برياً مخيفاً، وجاء النهر ينطح بطن أدونيس وقلبه، عندما كان راقداً سعيداً على ضفافه، وتناثرت دماء ابن الأرض حول الغدير، فانقلبت إلى زهور الشقيق الحمراء التي مازالت مراعي ذلك الغدير تزدان به أبديا.

وعندها بدأت عبادة رب الحب والجمال، وشيد اللبنانيون على رأس كل ينبوع وعلى ضفة كل جدول هيكلاً لعشتروت، التي انتقت غدير افقه لتلقى حبيبها الجميل، فأظهرت هكذا اصطفاءها للينابيع والجداول والأغادير موعداً للغرام.

وكانت عبادة عشتروت تقوم على إعطاء العذارى زهرتهن للكهنة على مطالع الهياكل. فالربة - ربة الجمال والحب - لم تجد قرباناً تقدمه الأرض لها أفضل من أعمال الحب على مطالع الهياكل.

وكانت تقوم هياكل صغيرة لعشتروت، تصطف على طول الشاطئ من صور إلى أنطاكية. وهذه الهياكل الصغيرة (الكابلات) باقية حتى الآن على طول ذلك الشاطئ، ولم يطرأ عليها تبديل في عهد المسيحية غير استبدال تمثال عشتروت الفاسقة بتمثال العذراء الدائمة البتولية والكمال.

* * *

وإذا كانت الآن لا تزال الأجواء تعبق بالشهوات والشبق في أي مكان من جبل لبنان قامت فيه منذ أجيال وأجيال هياكل لعشتروت، فذلك هو البقية الباقية، والأثر الجنسي الخالد الذي تركته عذارى ذلك الزمان في تلك الهياكل، عندما كن يقدمن بتولياتهن ببهجة وغبطة لربّة الجمال والحب وإرواءً لشهواتها السماوية والجنسية!.

ويلاحظ القارئ اليوم أن أفضل ملتقى للعشاق وأهل الغرام كان دوماً، وحتى الآن، في نهر إبراهيم مثلاً حيث كانت تقوم أعظم هياكل لعشتروت، وحيث رائحة الشهوات لا تزال تنضح على ضفاف النهر المقدس الذي سالت فيه دماء العذارى غزيرة حارة، كانت تجعل مياهه - حسب الأسطورة - وحسب ما يخيل للناظر إليها - حمراء اللون.

وهذه ظاهرة يمكن أن نحسبها ناموساً طبيعياً، نجد فيه الحاضر يعيش في الماضي، ليس فقط في تاريخه وتذكاراته، بل أيضاً في أجوائه وهوائه وشهواته.

* * *

لذلك يتخيل العارفون الحكماء أن اللبناني في هذا الوقت لا يُفرَّق عن اللبناني في العهد الصخري والحديدي إلا في اللباس والجلوس على الكراسي والقراءة.

ولكنه في العبادة والأخلاق، وفي حياته الفكرية والجنسية باق كما كان، ويبقى هكذا على مدى الدهور.

وكما أن استقلال جبل لبنان على مدى الأجيال قام على قيم معنوية فقط - فإنما كل لبناني أمس واليوم وغداً يعيش على ماضيه وليس على مستقبله.

لذا ترانا ننظر بالأمر لما كان أكثر مما ننظر لما سيكون. ومن هذا نبتت هذه السياسة الارتجالية التي سيطرت وتسيطر دوماً على حياتنا العامة: سياسة مداواة الحاضر بالحاضر، والتلذذ والتغني والاعتزاز بالماضي وترك الغد لله، يتدبره كما تدبر لنا اليوم الذي نحن فيه.

وهذه السياسة الارتجالية هي التي كانت قاعدة لجميع المخالفات والأعمال الاعتباطية والمفاسد والمخازي التي قامت في عهد الاستقلال بعد سنة 1943 وقبله، حين تركنا الغربيون نحكم نفسنا بنفسنا، وأحاطت المفاسد بصورة خاصة عهد الرئيس السابق الشيخ بشارة الخوري، الذي يدور هذا الكتاب وأحاديثه في فلكه، وهي مفاسد جعلت نور أمجاده في خدمة الاستقلال وعهده الظافر في السيادة الوطنية يتضاءل وينوص.

فإنما هذا الكتاب، الذي سيكون خليطاً ظريفاً وحقيقياً لكل الأحداث التي جرت في لبنان منذ انفصل عن الدولة العثمانية حتى الآن، يجب أن يتلاقى في النهاية مع الشيخ بشارة الخوري في جميع ما يسطره ويقوله.

وليس، ولا شك، أحد ألمَّ بكل الأمور وكل الأشياء وكل الخفايا من حياة لبنان في عهد الانتداب وبعده أكثر من هذا الكاتب الذي يحدثكم الآن، والذي كان له في كل الحوادث والأحداث دورٌ لعبه.

وسيكون حديثه كما يعهد الناس فكهاً ظريفاً لبقاً، ولكنْ واقعياً أكيدا.

* * *

- 3 -

عندما اشترى عمال فرنسا لبنان للفرنسيين

... وكان ذلك طبعاً بالمال، الرب الثاني عند جميع الناس، والرب الأول في بيروت عاصمة لبنان، قاعدة التجارة والمتاجرة منذ أيام الفينيقيين، والمعروفة الآن عند الغربيين بشنغاي الشرق الأوسط، وسوق الذهب في هذه الأيام، وحيث يقوم المقر العام للشيوعية في البلدان العربية، كما تدعي جرائد أميركا وإنكلترا المحافظة المعروفة.

هكذا ابتاعت فرنسا الانتداب عندنا، قبل العاطفة وقبل التقاليد الفرنسية - المارونية، بالجنيهات المصرية، التي كانت عملة الفرنسيين الرسمية عندما وصلوا مع الإنكليز في تشرين الثاني 1918 للبلاد اللبنانية. وكان الجنيه يسوى ليرة إنكليزية ذهبية، وغرشين ذهباً ونصفاً علاوة.

فإنما تلك الجنيهات هي التي جعلت بالأحرى اللبنانيين يخرجون بأكثريتهم من الحيرة التي كانت قد استولت عليهم في الأيام الأولى للاحتلال، وذلك من جراء جهلهم لمصيرهم، حتى اليوم الذي أخذ فيه الجانبان: الجانب الإنكليزي والجانب الفرنسي، يتنازعان ويتزاحمان على وضع يد كل منهما على هذه البلاد[1].

وفي البداية كنا نتساءل حيارى: هل تكون هذه البلاد لملك العرب الحسين بن علي وابنه فيصل الذي كان قد دخل الشام بجيوشه الظافرة، يقف وراءهما الإنكليز ويساندونهما؟.

أم تكون للفرنسيين وقد وصلوا إلى هذه البلاد فرقة صغيرة جداً ضمن الجيش الإنكليزي العرمرم؟.

نعم، كان للإنكليز زبائنهم في جبل لبنان من الدروز والمسلمين، الذين غرتهم عهود لندن بإنشاء إمبراطورية عربية كبرى نواتها عرش الملك حسين بن علي وعروش

---

(1) ظل لبنان، تحت الحكم الفرنسي المباشر من تشرين الأول 1918 إلى أن أعلن الجنرال غورو استقلال دولة لبنان الكبير في أول أيلول 1920، وعلى الأثر ألف لجنة إدارية تمثيلية من 17 عضواً استمرت حتى أيار 1922. وكان تساعد الحاكم الفرنسي على إدارة البلاد. وبعد ذلك جرى انتخاب المجلس النيابي الأول في أيار 1922، وكان مؤلفاً من 30 عضواً، وترأسه حبيب باشا السعد.

أبنائه الموعودة في سوريا والعراق، وغيرهما من البلدان العربية. ولم يكن شرقي الأردن حتى ذلك الوقت ينتظر المفاجأة الكبرى بأن يصبح إمارة ثم مملكة..

وكان للفرنسيين خصوصاً زبائنهم في جبل لبنان من الموارنة والطوائف الكاثوليكية التابعة لروما. وقد أقامت فرنسا نفسها حامية لهم ولنصارى الشرق منذ الجيل الحادي عشر.

وكانت الطوائف المحمدية في عهد الدولة العثمانية توالي بالأكثر الإنكليز وتجعل القنصلية البريطانية العامة ببيروت قاعدتها ومرجعها.

وكان الأرثوذكس، مع سقوط القيصرية الروسية التي كانوا ينتمون إليها قبل الاحتلال، عندما كانت لا تزال إمبراطورية آل رومانوف، قد أضاعوا توازنهم، وحاروا بأمرهم بعد زوال العرش ببطرسبرغ وقيام الشيوعية. وزاد في حيرتهم ما قام دوماً بين الكاثوليك والأرثوذكس من تنافر قديم منذ انفصل هؤلاء عن روما.

لذلك عندما وصل الحلفاء هذه البلاد، وجد الأرثوذكس من الأفضل والأقرب لهم أن يلتفوا حول الإنكليز بدلاً من الالتفاف حول الفرنسيين، أصدقاء منافسيهم بالدين موارنة جبل لبنان.

وجرى لهم ما يجري عادة بين الأقارب عندما يتعادون، إذ تشتد أحقادهم إلى درجة يفتش من ورائها كل جانب عن عدو أقاربه، فيحالفه ويرتمي بين أحضانه.

لهذا كان الأرثوذكس دوماً، حتى في زمن الأتراك، يأخذون جانب المسلمين ويتعاونون معهم أكثر مما يتعاونون مع إخوانهم في الدين، خصوصاً الموارنة.

ولما نادى الموارنة بفرنسا سنة 1919 للحكم في هذه البلاد، نادى الأرثوذكس بالعرب. وكانت كلمة المناداة بالعرب تعني أيضاً المناداة بالإنكليز.

* * *

مع هذه العوامل كلها كان الجنيه الإنكليزي يشتغل.

وكنت في رأس الذين كلفتهم المفوضية الفرنسية في بيروت الممثلة يومذاك، أولاً بالمسيو كولندر، وبعد ذلك بأسابيع قليلة فقط بالمسيو جورج بيكو - قلت، وكنت في رأس الذين كلفتهم المفوضية بما يلي:

أولاً - في الاشتراك بصرف الخمسة ملايين وخمسمئة ألف جنيه، وهي القيمة الباهظة التي خصصها الفرنسيون للدعاية لهم في لبنان.

ثانياً - بجعل الأكثرية في لبنان تقول إنَّها مع فرنسا، وذلك أمام لجنة «كراين» الأميركية، التي أرسلها الرئيس ولسون إلى هذه البلاد تستفتي الأهلين، وذلك عندما اشتدت المزاحمة بين الإنكليز والفرنسيين المحتلين، مما كاد يخلق بين الدولتين خلافاً كبيراً، ومما كان يجعل الحليفتين فرنسا وإنكلترا تتحاربان الواحدة مع الأخرى.

وكان العامل الأول الذي جعل الرئيس ولسون يتشبث بإرسال لجنة كراين لاستفتاء الأهلين في لبنان، ومعرفة ما إذا كانوا يريدون فرنسا أم إنكلترا وصية عليهم، تحميهم وتعلمهم الاستقلال، كان ذلك العامل الأول والأقوى هو تدخل رئيس الجامعة الأميركية في بيروت في ذلك الوقت، المستر بلس، الذي حمل نفسه وذهب إلى باريس يتصل بمجلس الأربعة الكبار الذين كانوا يديرون أعمال العالم بعد نصر 1918، برئاسة الرئيس ولسون.

وكان الفرنسيون - كما أسلفنا - قد اشتغلوا كثيراً قبل الحرب لإعلاء شأن مدارسهم العديدة وبعثاتهم الدينية والعلمية، مما أثار بين المؤسسات الفرنسية الكاثوليكية والجامعة الأميركية الإنجيلية مزاحمة عدائية كبرى، تدوم وتزداد على ممر الأيام.

وعرض رئيس الجامعة الأميركية على مجلس الأربعة رأي فئة من الناس لا تريد الحكم الفرنسي، فتأثر المستر ولسون من كلام مواطنه وأرسل لجنة كراين المشهورة[1].

(1) نزلت لجنة كراين الأميركية إلى يافا في 10 حزيران 1919 ثم زارت دمشق وبيروت وأضنه، ثم عادت إلى باريس في 1 أيلول 1919 ووضعت تقريرها الذي دل على رغبة أكثرية السكان في الاستقلال. ولكن أميركا كانت قد انسحبت، في تلك الأثناء، من تنظيم الصلح في العالم، فخلا الميدان لإنكلترا وفرنسا في الشرق، وطبقتا معاهدة سايكس - بيكو السرية على البلاد العربية، وبموجبها ترك الإنكليز سوريا ولبنان لفرنسا.

- 4 -

المال ضعف الرجال، ولو كانوا أغنياء!

كان الصحفي الفرنسوي الشهير «هنري دي روشفور» يقول: «طبعاً، الذين ليس عندهم مال يستطيعون بكل سهولة أن يكونوا حرامية».

ولكن لماذا بعض الذين عندهم مال لا يتورعون عن السرقة والمتاجرات القذرة؟

وكان كلام دي روشفور مأثوراً، فعلى هذه القاعدة كان أكثر الذين أخذوا المال من الفرنسيين، بعد الاحتلال ثمن الانتداب، من الزعماء الموسرين.

وأكثر الذين لم يقولوا بالانتداب، هم الذين لم يقبضوا!.

وأي من جميع هؤلاء السياسيين، الذين قالوا وزعموا في ما بعد أنهم حاربوا الفرنسيين منذ الساعة الأولى - أي منهم لم نشاهده في مطلع الاحتلال عند الكابتن دام بالمفوضية، أو عند الكولونيل نيجر والمسيو مرسييه في السراي الكبيرة، يقدم خدماته ويعرض خضوعه!.

فإذا ارتضى مادياً ظل على العهد والشكر، وإذا لم يقبض سب وأنكر واستنكر وشتم!.

وكان بين الساسة نفر فيهم مدرك حاذق، ضمن لنفسه السلامة - ولربما الثروة أيضاً - عن طريق مصادقة الجانبين، فإن ربحت فرنسا أو ربحت إنكلترا، يظل هو الرابح!.

وتجلت هذه الظاهرة الكبرى في سنة 1920 عندما جمع فيصل في الشام المؤتمر السوري، واقتضت المصلحة أن تكون جميع أجزاء سوريا الكبرى ممثلة فيه.

ولم يجد الفرنسيون في بيروت، ولا الفيصليون في الشام، مستغرباً ومدهشاً أن يكون مثلاً أسعد بك حيدر عضواً في المؤتمر السوري، وأن يكون نجله عضواً في اللجنة الاستشارية بلبنان.

وبالطريقة نفسها، كان مثلاً يوسف نمور عضواً في المؤتمر السوري، وكان شقيقه موسى بك نمور متربعاً عند الفرنسيين ببيروت، وعاملاً لهم في البقاع.

وكان محمد سعيد حماده، سيد الهرمل، عضواً في المؤتمر السوري وكان حفيده صبري بك حماده يتدبر أموره مع الفرنسيين.

وجاء الإنكليز باسكندر بك عمون على ظهر طراد عاملاً سياسياً لهم في لبنان جعل مقره العام في لوكندة «السنترال» على البرج، وعلى حساب خزينة صاحب الجلالة طبعا.

وجاء الفرنسيون بأخيه داود بك عمون عاملاً سياسياً لهم، جعل مقره العام في لوكندة «نجوم» على الزيتونة، وعلى حساب الجمهورية الفرنسية الحسناء طبعاً. وقس على ذلك عدة زعماء من جبل لبنان أو الجنوب أو الشمال.

وزودت كل من الدولتين عمالها بمبالغ من المال، وتركتهم مطلقي اليد في صرفها كما يريدون: هذا لمجد فرنسا، وذاك لمجد العرب، ومن ورائهم بريطانيا.

* * *

وكان الفرنسيون قد جاؤوا أيضاً على ظهر مدرعة كبرى بالأستاذ اميل اده، وقد اتخذوه مستشاراً محترماً وصادقاً لمفوضيتهم ببيروت، التي كان يقوم بأعمالها المسيو كولندر[1] كوكيل لها بانتظار قدوم المفوض السامي الأصيل المسيو جورج بيكو.

وكان المسيو كولندر أول ممثل فرنساوي دخل هذه البلاد باسم الحماية الفرنسية، التي كانت فرنسا قد فرضتها علينا بطريقة منفردة منذ البداية، وقبل موافقة الحلفاء وجمعية الأمم بجنيف على الانتداب.

ولم يطل وقت المسيو كولندر هنا غير بضعة أسابيع، كان المسيو جورج بيكو قد أتى في خلالها وبصحبته الكابتن «دام» رئيس غرفته السياسية الجديد، والمؤتمن على الخمسة ملايين ونصف المليون جنيه لشراء الانتداب الفرنساوي في هذه البلاد.

ولم يسافر المسيو كولندر قبل أن يرتكب غلطة فرنسا الأولى في هذه البلاد، مع أنه كان رجلاً فهيماً حاذقاً، وقد صار بعد ذلك بسنوات سفيراً ببرلين، ومن أكبر رجال الديبلوماسية الفرنسيين.

ذهب حضرته في عيد الميلاد سنة 1918 يحضر قداساً احتفالياً في كنيسة مار جريس الموارنة ببيروت، أقامه مطران الموارنة على شرف فرنسا.

---

(1) وصل كولندر إلى بيروت في تشرين الثاني 1918.

وكان ذلك في الوقت الذي بدأت فيه الدعاية الفرنسية تشتغل بنشاط كبير عند المسلمين في بيروت وطرابلس، الذين كانوا أظهروا عداء عنيفاً لكل سيطرة افرنسية تفرض عليهم.

ذهب المسيو كولندر ممثل الجمهورية الفرنسية الأول في لبنان الجديد، المنفصل حديثاً عن الدولة العثمانية، ووقف في الجماهير الغفيرة من الموارنة التي جاءت تحيي ممثل فرنسا، وقال إنّ فرنسا تأتي لهذه البلاد خصيصاً إجابة لدعوة أصدقائها الموارنة، وللمحافظة عليهم ولإعلاء شأنهم..

وقامت قيامة الأوساط الإسلامية بعد هذا.

وإذا كانت الخمسة ملايين ونصف المليون جنيه كافية لشراء الانتداب، فبعد هذا التصريح صار من الواجب رصد عشرة ملايين جنيه على الأقل!.

* * *

وقامت قيامة الأرثوذكس أيضاً من هذا التصريح، وهم الذين كانوا يعادون الموارنة التابعين لروما، أكثر مما يعادون المسلمين التابعين لمكة.

وكان بطريرك الأرثوذكس بالشام أكثر عداء للنفوذ الفرنسي من المفتي المسلم فيها.

وتجاه هذا الاتجاه الأرثوذكسي المعادي للفرنسيين، رأى هؤلاء - بعد أن استتب لهم الانتداب في ما بعد - تعيين أول رئيس للجمهورية اللبنانية شارل دباس الأرثوذكسي، على اعتبار أن هذا التعيين يرضي القسم الأكبر من أرثوذكس بيروت، الذين كانوا في ذلك الحين يؤلفون الطبقة الغنية والوجيهة بين المسيحيين في المدينة. وكان بقية أرثوذكس لبنان وسوريا يأخذون العظات والدروس والنزعات السياسية عنهم، ويعملون بها.

- 5 -

رياض الصلح عند جورج بيكو

كان الفرنسيون، في منتصف 1919، في معترك المساومات لاكتساب رضا الأكثرية بالبلاد التي لم يكن مصيرها قد تقرر بعد، عندما حمل نفسه فتى جميل الصورة، براق العينين، ظريف الكلام، زاهي الشعر، يكاد خيال من الشارب يخط خطاً رفيعاً فوق شفته العليا، وجاء إلى قصر جنبلاط يزور المفوض الفرنساوي المسيو جورج بيكو، وذلك بناء على رغبة هذا الأخير، وكان الفرنسيون قد اتخذوا ذلك القصر مقراً عاماً لهم في بداية عهدهم بهذه البلاد.

ذلك الفتى الجميل كان رياض الصلح.

ولعلنا نحن الذين جعلناه يزور الفرنساوي، في وقت كان فيه كبار المسلمين يناصبون فرنسا العداء، ويعتبرون زيارتهم لمثلها نوعاً من الخيانة للقومية العربية وللوحدة التي كانوا يعملون لها تحت تاج الملك حسين. وكان الإنكليز قد وعدوهم وتعهدوا لهم بها.

ولكن رياض الصلح كان شجاعاً وكان متحدياً، وكان يريد أن يهاجم الذئب في عرينه، وكان يريد أن يعرف حقيقة العهود الإنكليزية، بعد أن رأى الفرنسيين لا يحترمون عهود الإنكليز للعرب ولا يقيمون لها وزناً، وبعد أن رأى الإنكليز مع تظاهراتهم مع العرب ووقوفهم علناً في سوريا مع الشريف فيصل، يتراجعون كثيراً أمام الدعاية الفرنسية، ويتجاهلون النتائج الكثيرة التي أخذ الفرنسيون يجنونها من دعايتهم.

وسجل الفرنسيون في تلك الزيارة يومئذ حديثاً عنيفاً للفتى المتحمس المستنير.

مما دعا جورج بيكو أن يقول عندما ودع زائره:

- هذا الفتى سيكون خطراً علينا دوما!.

وخرج رياض الصلح من لدن ممثل فرنسا أكثر عداء لفرنسا مما دخل، إذ أنه وجد عند الفرنسيين عزماً أكيداً على الاحتلال والحماية الكاملين!.

* * *

وأخذ رياض الصلح منذ ذلك الحين يشتغل بجميع الطرق ضد فرنسا، وفي سبيل الوحدة السورية. وبالفعل، بعد أشهر قليلة من ذلك، كان - وهو يومئذ في العشرين من عمره فقط - يضع عشرة من أعضاء مجلس إدارة لبنان الإثني عشر بجيبه، بعد أن استعان على غايته بمبالغ ذهبية طائلة وضعها تحت تصرف القضية الوجيه البيروتي عارف بك النعماني.

هذا المجلس الإداري لمتصرفية جبل لبنان ألغاه العثمانيون في أول الحرب العالمية الكبرى، عندما ألغوا امتيازات الجبل السياسية وضموه إلى إحدى الولايات. ثم بعثه الفرنسيون حياً حال دخولهم البلاد، وذلك في 7 تشرين الأول 1918.

هذا المجلس وضع مضبطته المشهورة بطلب الحماية الفرنسية وسيطرة فرنسا السياسية على البلاد.

وهذا المجلس بعينه هو الذي طبقه رياض الصلح. وهكذا كانت أول عملية قام بها هذا الفتى الجميل أعظم وأدهش ثورة. وهل أعظم وأدهش من أن يشتري مجلساً كاملاً يمثل لبنان، لحساب الشريف فيصل، وأن يقنع ذلك المجلس بالرجوع عن طلب الحماية الفرنسية إلى المطالبة بالوحدة السورية؟.

وكان أربعة على الأقل من أعضاء ذلك المجلس من الموارنة، زبائن فرنسا الأساسيين، وبينهم شقيق البطريرك الحويك نفسه![1].

ولم يرفض هذه الصفقة يومئذ سوى رئيس المجلس حبيب باشا السعد، وعضو زحلة.

---

(1) كان هذا المجلس مؤلفاً من السادة سعد الله الحويك، خليل العقل، سليمان كنعان، محمود جنبلاط، فؤاد عبد الملك، محمد صبرا الأعور، محمد محسن، الياس الشويري، يوسف البريدي، نعوم باخوس، حسين الحجار. وكان يرأسه حبيب باشا السعد. وقد وضع هذا المجلس في أيار 1919 عريضة يطلب بها الحماية الفرنسية على لبنان. ولما انكشفت له نيات الفرنسيين الاستعمارية عاد فاتخذ في 10 تموز 1920 قراراً باستقلال لبنان والاتحاد مع سوريا، وسافر بعض أعضائه قاصدين إلى أوروبا عن طريق دمشق، للسعي إلى تنفيذ ذلك القرار، فاعتقلهم الفرنسيون في 12 تموز وحاكموهم في 17 منه بتهمة الخيانة، ثم نفوهم إلى جزيرة كورسيكا، حيث ظلوا مدة سنة. وكانت هذه العملية في مقدمة الأسباب التي جعلت الجنرال غورو يستعجل الهجوم في تموز 1920 على دمشق واحتلالها.

وكما أن الأستاذ اميل اده المستشار اللبناني الأول للمفوضية الفرنسية كان يرفض قبض المال الذي كانت قد وضعته المفوضية الفرنسية تحت أمرته ليستعمله للدعاية، هكذا أيضاً حبيب باشا السعد رئيس مجلس الإدارة، لم تغره ذهبات الشريف ووعود رياض الصلح.

وكان حبيب باشا السعد - لربما - مع اميل اده، الوحيدين - يومئذ - بين زعماء السياسة في ذلك الوقت، اللذين يساعدان الفرنسيين على ترسيخ أقدامهم بلبنان دون أن يكون لهما أية حصة من الخمسة ملايين ونصف المليون جنيه..

- 6 -

«قبضوا... وقبضنا... وقبضايات!»

طبعاً عندما يكون هناك مال، وعندما تكون هناك وظائف كبرى، يقع أقوى الرجال بالتجربة.

فليس جميع الناس - وأخصهم اللبنانيون - مثل المسيح الذي أخذه الشيطان إلى رأس الجبل، وعرض عليه ما تراه عيناه من سهول ووديان وأنهار وخيرات، فلم يأخذ شيئا.

وعندما عبد اللبنانيون الذهب - لم يكن أحد يعرفه قبل بيروت في الأيام الفينيقية ثم الرومانية ثم البيزنطية ثم العربية، ومن بعد ذلك العثمانية، وأخيراً اللبنانية.

وكانت سيرة المبالغ المالية الكبرى التي أخذ يدفعها الفرنسيون لدعايتهم في لبنان قد جعلت لعاب الكثيرين من الزعماء السياسيين يسيل، فشاهدنا - ورافقنا - عدداً كبيراً لزيارة المفوضية الفرنسية، ورأيناهم يخرجون بعد ذلك من لدنها وقد وقّعوا صك القبول بالحماية الفرنسية، على ذلك السجل الذي كان الكابتن «دام»، سكرتير المفوضية السياسي و«خازندار» الخمسة ملايين ونصف المليون جنيه يقول عنه إنه أغلى سجل في العالم!

إذ أن تواقيع الذين سجلوا تأييدهم لفرنسا عليه كلفت أكبر قيمة ممكنة من الجنيهات في عالم الدعايات، وكان بين أصحاب التواقيع في ذلك السجل بوجه خاص بعض الذين لا يزالون أحياء، والذين ظلوا بالرغم من كل شيء يفتخرون بكل مناسبة بأنهم صدوا الفرنسيين ولم يقبلوا مالهم، ويعتزون بأنهم قاموا على الفرنسيين سنة 1943، حتى أنهم كانوا - ولا يزالون - يتبجحون أمامنا بهذا الادعاء، مع أن وثائقهم لا تزال بين أيدينا، ومع أننا كنا نتقاسم وإياهم أموال المفوضية!

وبالرغم من هذا كله، فهم ينكرون أمامنا ذلك، فيفعلون كالمرأة الوقحة التي تزجر أمام الناس رجلاً كان أمس في فراشها!

ونحن حسبنا نفسنا شريكاً في القسمة، لأننا كنا نعتبر - وعن حق - أننا أفضل وأحق بالمال من هؤلاء الأكارم العظام، المتبجحين بالوطنية، والذين كانوا - وهم يسبون الفرنسيين - يقبضون أموالهم ويتزلفون إليهم ويبيعون وطنيتهم وقوميتهم لهم بالخفاء، ثم يشتمونهم ويسبونهم بالعلن.

وهكذا ما اشترى أحد مسبته بالثمن الغالي الذي اشترى به الفرنسيون!

وبالمناسبة يجب علينا أن نقر للفرنسيين بمكرمة نبيلة، هي أنهم لم يفضحوا الذين انقلبوا عليهم في ما بعد، بل أرسلت المفوضية الفرنسية سنة 1941 أوراقها وسجلاتها تحرقها في أتون النار، في هضاب بيت مري، كي لا تقع بأيدي الذين يأتون بعدها. ومن هذه الأوراق ذلك السجل الذهبي الذي يتضمن أسماء جميع الذين كانوا يخدمونها ويبيعونها البلاد بالخفاء، بينما يتظاهرون أمام الناس بالتجرد والنزاهة والوطنية المستقلة التي لا تقبل انتدابا!

* * *

وطبعاً استخدم الفرنسيون في دعايتهم لكسب البلاد جميع الوسائل التي تحت يدهم، واستخدموا جميع الرجال الذين استطاعوا استخدامهم.

وهكذا استخدم الفرنسيون أكثر القبضايات المعروفين في بيروت، والذين كانوا أسياد الميناء والبلد، وذلك مقابل أجور تدفعها المفوضية لهم. وجاءت حكومة الاستقلال سنة 1943 وقد حفظت الأمثولة عن الفرنسيين سنة 1918 - 1919، واستخدمت أكثر أولئك القبضايات عينهم الذين ساعدوا فرنسا في بداية الاحتلال على تثبيت الانتداب الفرنسي!

وظل أكثر هؤلاء القبضايات في قيد الحياة لكي يقتطفوا الموسم الثاني سنة 1943، عندما نزلوا للشارع يتظاهرون ضد الانتداب ويعملون للاستقلال، ويقبضون أجوراً باهظة مقابل ذلك، قد تكون أغلى أجور قبضها باعة الوطنية ودكنجية السيادة والاستقلال في العالم، ثمناً لاسترضائهم، مع اقطاع الشارع لهم يتحكمون فيه أسياداً مخيفين!

وهكذا الشكوى العامة الدائمة الآن من القبضايات وتحكمهم بالشارع ومسدساتهم، والجزية التي يفرضونها هنا وهناك، وحتى على الحكومة والبلدية - هذه الشكوى منهم يجب بالأحرى أن تكون من الفرنسيين الذين كانوا أول من جاء ببلطجية الميناء إلى ميدان السياسة والتطبيق والتصويت الاعتباطي والتظاهرات السياسية المأجورة والإضرابات المفروضة!

ونحن لا نزال شاهداً حياً على ذلك، إذ أنني كنت في رأس الذين كلفهم الفرنسيون في بداية الاحتلال بجمع أكبر عدد ممكن من القبضايات لخدمة فرنسا والدعوة لها!

وكان القبضايات يطوفون على الناس بعرائض في بيروت ومدن السواحل، يجعلون الأهلين يوقعونها بالسيف، وهي تطلب الحماية الفرنسية!

ولا يزال حياً يُرزق زعيم الشباب الكبير الصديق، الذي استلم من المفوضية الفرنسية عرائض بذلك المعنى، فأعادها بعد ثلاثة أيام فقط وهي تحمل تواقيع عشرة آلاف مسلم، مما كان صعباً ومستحيلاً على غيره أن يعمله!

ويطلب الموقعون على تلك العرائض فصل لبنان عن سوريا تحت الحماية الفرنسية!

وكان ذلك الزعيم غالياً جداً، إذ أنه تقاضى عن كل إمضاء ليرة إنكليزية ذهبا!

ولم يكن يقبض غير الليرات الإنكليزية الذهبية، إذ أنه لم يكن له ثقة بالجنيه المصري الورقي، ولا بغيره من أصناف العملة الورقية في العالم!

* * *

وهكذا ما عملت حكومات الاستقلال سنة 1943 وبعده إلا ما عملته حكومات الانتداب من قبلها، فلا شيء تغير في هذا الحقل. وأيضاً بالرغم من الآمال المعقودة على العهد الجديد، الذي نعيش في ظلاله اليوم، قد لا يتغير أيضاً شيء!

فطالما المسدس والخنجر لا يزالان على الخصر يحملهما البلطجي دون سؤال ولا جواب، وطالما عقلية الناس في الاغتباط والارتياح للبطل الذي يضرب غيره بالرصاص، ولو كان ذلك معتدياً، فستظل كل حكومة مضطرة لاسترضائه وإرضائه!

والقبضاي لا يرضى بقصيدة شعر!

وقد رأيناه مع أعز زعمائه والأكثر تعلقاً بهم، يترك ذلك الزعيم وينساه حالاً عندما ينضب المورد.

رأيناه منذ ثلاثين سنة حتى الآن مع كل رئيس جمهورية ومع كل رئيس وزارة يقاتل ويناضل لأجله حتى يسقط. عندئذ يدير له ظهره ويفتش عن خلف له يؤمن الرزقة التي ذهبت مع الذاهب!

فعلى قدر ما تدفع تُخدَم!

وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

وليس الفرنسيون وحدهم اخترعوا القول القائل: «أعطني فأعطيك!».

- 7 -

دولة «السكرتيرية» وبداية عهد الفوضى

قال لي المسيو لالويه، مفتش القضاء الأعلى في عهد الحاكم ترابو[1] وقد ذهب يحقق في شكاوى تقدمت على المستشار الإداري الفرنسي في زحلة، الذي كنت يومئذ معاوناً له - قال لي المسيو لالويه:

- إنني سأحقق معك!

ولما أجبته وما شأني أنا طالما الشكاوى تقدمت على المستشار نفسه!

قال: لا تحسبني مغفلاً مثل كثيرين من الفرنسيين. فلو كان لبنان منتدباً على فرنسا، وكنت أنت اللبناني مستشاراً من قبل دولتك في مدينة «غرينوبل» وكنت أنا سكرتيرك، فمن يكون القائم الحقيقي بأعمال المستشار؟ أهو الغريب الذي لا يعرف عن لبنان شيئاً أم اللبناني الذي يعرف عن لبنان كل شيء؟ لهذا أقول لك إنّك أنت المسؤول عن جميع الشكاوى التي تقدمت عن هذا المستشار، إذ أنك أنت تقوده أكثر مما يقودك مهما كان نبيها!

وهنا أجبته ذلك الجواب الذي وصل إلى المفوض السامي بسرعة، وكان السبب في فصل ذلك المفتش القضائي الفرنساوي العام عن وظيفته، قلت للمسيو لالويه:

- على هذه الحال، طالما أن السكرتير اللبناني هو الذي يحكم وليس المستشار الفرنساوي، وأنتم تعرفون ذلك، فلماذا تعينون لنا مستشارين نرشدهم بدلاً من أن يرشدونا؟

ونشرت جرائد عديدة، عربية وأجنبية، هذه الواقعة التي كان لها تأثير كبير في زعزعة الموقف الفرنسي حينذاك.

وهي زعزعة تبعتها، كما يذكر الكثيرون، حركات عصابات تحريرية في البقاع والجنوب والشوف.

* * *

---

(1) حكم الكومندان ترابو لبنان من أيلول 1920 حتى أيار 1923.

وكان، ولا شك، المسيو لالويه على حق وصواب،

وليس هناك من شهادة في تثبيت رأيه أفضل من شهادتي، إذ أن الناس ـ خلال الأربع سنوات التي بقيت فيها معاوناً لمستشار البقاع الفرنسي عسكرياً كان أم مدنياً ـ كانوا يراجعونني أنا لقضاء مصالحهم وليس المستشار، اعتباراً منهم أني أنا الذي يحكم فعلاً، وأنني أقود المستشار، وليس المستشار الذي كان يحكم!

وكما كنت أفعل أنا بالبقاع، كان اللبناني معاون المستشار في طرابلس أو في الجنوب يقود رئيسه الفرنسي.

وكان اللبناني سكرتير حاكم بيروت يقود الحاكم الفرنسي بالطريقة نفسها. وكان يتولى هذا المنصب يومئذ الأستاذ جورج حيمري، الذي كان عنده من البراعة والدهاء ما جعله موضع تقدير الحكام والرؤساء في لبنان، بحيث لم يستغن عنه أحد خلال الخمس والعشرين سنة الأخيرة.

وقد ترك الحيمري مرة واحدة ديوان رئاسة الجمهورية مُبعداً، وذلك في أول عهد الاستقلال، سنة 1943، عندما تعاون مع الأستاذ اميل اده، يوم قبل اده الحكم من الفرنسيين، بعد أن اعتقلوا أركان الحكومة الشرعية وأرسلوهم إلى راشيا.

ومع ذلك، ومع أن الحيمري كان متهماً بالتحيز للأستاذ اميل اده، فإنه لم يظل بعيداً غير بضعة أسابيع عن منصبه، واضطر الشيخ بشارة الخوري إلى استدعائه من جديد لاستلام رئاسة ديوانه!

وكان الحيمري خلال ولاية بشارة الخوري واسطة جاه ونفوذ لم يصل إليها أحد غيره. ولما استقال الشيخ بشارة، وجاء رئيس جديد على أكتاف الثورة الشعبية، ظل الحيمري حيث هو، وبالصلاحيات التي كانت له.

وكان قبلاً الأمير جميل شهاب لمدة 18 سنة مديراً للمالية في عهد الانتداب، ولم يستطع أحد زحزحته عنها. وذات يوم سأل أحدهم مستشاره الفرنسي عن سبب خلود الأمير جميل في وظيفته الكبرى، فأجابه المستشار:

ـ هو باق ليس لأنه متخصص في الأمور المالية فحسب، بل لأنه أيضاً رتب إدارة وزارة المالية في لبنان بطريقة لا يفهمها ولا يدركها غيره، فإذا أخرجناه من المديرية نضيع!

والخلاصة، فعلى نفوذ التراجمة وأمناء السر اللبنانيين عند الحكام الفرنسيين، قامت حينئذ دولة السكرتيرية المشهورة، في مطلع عهد الاحتلال الفرنسي.

وأكثر هؤلاء السكرتيرين للحكام والمستشارين والقواد الفرنسيين أخذوا وظائفهم إما عن طريق نسيبة أو شقيقة أو زوجة حسناء ـ وهذا الأمر كان له شأنه الأول مع هؤلاء الاشتهائيين الشبقين الفرنسيين ـ أو عن طريق الأب شنتور رئيس اليسوعيين الذي استطاع في نباهته وعصبيته وتعصبه أن يعطي أكثر وظائف هذه الدولة ـ وأخصها وظائف التراجمة والسكرتيرين ـ لمتخرجي كليته، كلية مار يوسف اليسوعية، وكذلك عن طريق الأب سارلوت رئيس مدرسة عينطورة الذي مثّل الدور ذاته، مما شكّل في البداية سبباً هاماً كما ذكرنا أعلاه من الأسباب الأساسية التي جعلت رئيس الجامعة الأميركية يومذاك ببيروت، يذهب لباريس، ويطلب أمام مجلس الأربعة الكبار جلاء الفرنسيين عن بلاد المشرق، حيث جاؤوا ـ كما يقول ـ لإحياء النعرات الطائفية التي ينتج عنها التذابح والتعادي، ولاستعباد باقي الطوائف.

ولكن الفرنسيين كانوا يعطون جوابهم على مساعيه هذه، له ولغيره من الأميركيين والإنكليز الذين حاربوهم في هذا الميدان، وذلك بالسعي إلى ضم أكبر عدد ممكن من المحمديين إلى جانب المطالبين بالحماية الفرنسية.

وعندما وجد الفرنسيون في بداية الأمر صعوبات كثيرة تحول دون إعلان كبار المسلمين تأييدهم لوضع يد فرنسا على البلاد، داروا بأنظارهم نحو الدروز، الذين كانوا طيلة الدهور جيشاً قوياً عنيفاً يخدم جميع الذين يقدرونه حق قدره، ويرفعون شأنه، ويساعدون في تقوية كيانه كأقلية طائفية بين الأكثريتين المسلمة والمارونية.

وشاهدت بيروت يومئذ، إلى جانب قبضايات الميناء الذين كان الفرنسيون قد ضمنوا تأييد أكثرهم ـ فرسان الدروز يرتدون البرانس البيضاء والحمراء والقفاطين المزركشة، ويحملون السيوف المعكوفة، وقد كحلوا أعينهم بدائرة وسيعة من كحل الصحارى، يأتون يومياً على ظهور خيولهم المطهمة للمفوضية يتطوعون في الفرق المحلية العسكرية التابعة للجيش الفرنسي، لإثبات التأييد. وكان ذلك يجري بمواكب وهاجة هازجة مهللة، تحت قيادة زعماء معروفين من عمال العهد الفرنساوي الجديد في لبنان.

وكان أبرز هؤلاء العمال صديقان نشيطان كبيران، الأستاذ أمين بك حماده والأستاذ شفيق بك الحلبي.

وكانت أروقة السراي الكبيرة تعج يومياً بهؤلاء الفرسان، وخصوصاً أمام باب المسيو مرسييه المستشرق الشهير المكلف حينذاك بقبول التطوع وبدفع الثمن.

وقد بلغت مصاريف هذه المواكب، تأتي لإعلان تأييدها للحماية الفرنسية، ما يفوق المليون ونصف المليون ليرة إنكليزية، أخذها تقريباً ألف فارس «خرج راح»، تعويضاً عن انزعاجهم في المجيء لبيروت من الشوف أو من جبل الدروز.

لكن كان يصادف أن كل فارس كان يأتي أكثر من خمس إلى عشر مرات في المواكب الدرزية المتتابعة، التي ظلت أربعة أشهر تصل لبيروت يومياً بهزيج وتهليل.

ذلك أن المسيو مرسييه كان يكتفي بأن يحصي عدد الفرسان الذين يأتونه دون أن يتبين الوجوه. وكانت أسماء الفرسان تتبدل يومياً، كما كانت الملابس تتبدل، فلا يعرف مرسييه - أو يتجاهل عمداً - أن أكثر الذين جاؤوا بالأمس عادوا اليوم.

وكان يكفي أن يعد المسيو مرسييه عدد الفرسان الذين يصلون لباحة السراي وخيولهم الهائجة التي كانت تحطم بلاط الفناء - حتى يدفع على قدر العدد الذي يكون قد حسبه!

وهكذا، ليس السكرتيرية وحدهم كانوا يضحكون على الفرنسيين ويحكمون بالفعل مكانهم، ومن ورائهم قامت تلك الفوضى في الدوائر، إذ أن معظم السكرتيرية كانوا لا يزالون شبه تلامذة مدارس من يسوعية وعازارية ورهبانية.

ولكن ليس السكرتيرية فقط هم الذين ضحكوا على الفرنسيين وحكموا فعلاً باسمهم، بل أيضاً فعل ذلك وبطريقة أكثر سخرية وهزاراً الفرسان الدروز. وقد كان الواحد منهم يتضاعف مراراً كما قلنا أعلاه كي يقبض مراراً، وذهب بعض المبالغين للقول أن الفرسان الذين جاؤوا في الأسابيع الثلاثة الأولى هم عينهم الذين جاؤوا في الثلاثين أسبوعاً الباقية دون أن يتظاهر الفرنسيون أنهم يعرفون شيئاً مما يجري، مكتفين بأن يعرضوا على أبناء البلد كل يوم هذا العدد المحترم الكبير من فرسان الدروز، ينضمون علناً لفرنسا في استعراضات يومية في بيروت!

* * *

نذكر كل هذا لنقول ولنؤكد - كما يجب أن يقوله ويؤكده المعاصرون لذلك الوقت من كبار السياسيين اللبنانيين، مثل عبد الله بك بيهم ومثل عمر بك بيهم، ومثل جورج

بك ثابت، ومثل الدكتور إبراهيم تلحوق - نذكر كل هذا لنؤكد أن الفرنسيين قد يكونون عندما جاؤوا إلى هذه البلاد أرادوا الحكم فيها بعدل وإنصاف وتنظيم، وقد يكونون أرادوا أن يقوموا برسالة إعدادنا للاستقلال والحريات العامة، كما حددت جامعة الأمم رسالتهم، ولكن ليس هم الذين أفسدوا كل هذا، بل نحن.

فإنما نحن - كما قلنا أعلاه - نحن دولة السكرتيرية، كنا دوماً أكثر فهماً ونباهة وحيلة منهم. وعلى هذا نحن الذين نكون قد حكمنا وأفسدنا الحكم ولربما أفسدنا الفرنسيين معنا!

ولا عجب، فإنما الفساد الذي تريد اليوم الجمهورية الرابعة اللبنانية، جمهورية الرئيس كميل شمعون، استئصاله من البلاد، وهي تتهم العهد الذي سبق بخلقه - فإنما هذا الفساد مستأصل منذ زمن بعيد، منذ عهد الأتراك، عندما كان أهالي هذه البلاد يستعملون كل طرق الإرضاء والتمليق لاكتساب عواطف أسيادهم العثمانيين وبدرجة حاذقة ووسيعة جدا.

حتى أننا لا نكون مبالغين ولا مختلقين إذا قلنا إن أهالي هذه البلاد ألقوا دروساً على الأتراك في فن الرشوة والارتشاء والاستثمار، كما هو شأن كل شعب ضعيف مستعمر يريد الحياة، ولا يجدها إلا في إرضاء أسياده!

وفي خلال الحرب الأولى، عندما حكم العثمانيون جبل لبنان مباشرة بعد أن ألغوا امتيازاته، رأينا هؤلاء الأتراك في جبل لبنان عن كثب، يأتوننا في البداية رجالاً مستقيمين إنسانيين، وينقلبون بعد حين إلى وحوش كاسرة وفاسقين وسارقين حرامية - وذلك عندما كنا نفتش عن اكتساب رضاهم بكل ما عندنا من حيل، وبكل ما عندنا من أسباب وطرق للإغراء!

ولا أريد أن أقول إن الكثيرات من حسان هذه البلاد كن في رأس أنواع ذلك الإغراء - مما يجري دوماً في كل بلاد يدخلها القوي ويحكمها فاتحا.

ولكن ما بالغ فيه أهالي هذه البلاد بالأكثرية أثناء الحربين الكبيرتين، هو أن العدد الأكبر من مئات الحسان، كن يصلن إلى أسرة الأسياد الحاكمين الأتراك ومن بعدهم الفرنسيين والإنكليز والاسترالية، عن طريق الحنان الوالدي والبركة الأبوية.

- 8 -

جمهورية شارل دباس: جمهورية التجربة

وبعد الحكام الفرنسيين الذين تولوا الحكم مباشرة في البداية[1] جاءت الجمهورية الأولى، جمهورية شارل دباس... التي يمكن تسميتها جمهورية التجربة[2].

وكان من مزايا شارل دباس الأولية أنه:

أولاً - عاش بباريس، وكان يتكلم الفرنساوية جيداً ويكتب فيها من أعلى طبقة، كما أن زوجته فرنسية.

ثانياً - من أبناء الحي السرسقي. وكان الحي السرسقي بنظر الفرنسيين - كما كان بنظر الأتراك من قبل - الوسط الذي يجب أن يرضى، لأنه بماله الكثير وبحياته العالية، يمكنه أن ينزل الضرر بالذين لا يرضى عنهم. وكانت قصور السراسقة الملقبين بملوك الشرق في عهد الأتراك، وفي بداية عهد الفرنسيين - كانت قصورهم دور ضيافة كريمة ووسيعة ومبهجة للحكام. ولم يكن ملوك وأمراء البلدان الأجنبية الذين يزورون بلادنا ينزلون ضيوفاً على الحكومات، بل كانت تلك الحكومات تطلب رسمياً من قصور السراسقة دعوة ضيوفها، حيث كان كل ملك أو أمير يجد من العظمة والفخفخة ما قد لا يجده في قصور بلاده، وحيث كانت تقام ولائم وحفلات ومراقص لا مثيل لها في كرمها وسخائها.

ثالثاً - كما قلنا سابقاً، كان الدباس أرثوذكسياً.

---

(1) منذ إعلان استقلال «لبنان الكبير» في أيلول 1920 حتى إعلان الجمهورية الأولى، تعاقب على الدولة الجديدة أربعة حكام مباشرين فرنسيين، هم الكومندان ترابو (أيلول 1920 - أيار 1923)، السيد أوبوار (أيار 1923 - حزيران 1925)، الجنرال فندنبرغ (حزيران 1924 - كانون الثاني 1925)، السيد كايلا (كانون الثاني 1925 - أيار 1926).

(2) تحت ضغط الأحداث الناشئة عن الثورة السورية سنة 1925، قرر الفرنسيون إنهاء الحكم المباشر في لبنان، وإقامة حكم جمهوري نيابي. وقد وضعوا يومئذ دستوراً للبلاد على هواهم، وأجروا انتخابات انبثق عنها في تموز 1925 مجلس مؤلف من 30 نائباً. وهو المجلس الذي انتخب في أيار 1926 شارل دباس رئيساً للجمهورية. وظل الدباس رئيساً حتى كانون الثاني 1934.

إذ أن القاعدة الأساسية التي كان الفرنسيون يستندون إليها في مطالبتهم بحماية هذه البلاد، هي زعمهم أن نصارى الشرق بأجمعهم يطلبون تلك الحماية. لذلك تعمَّدوا اختيار الدباس الأرثوذكسي، لإقناع الأرثوذكس بالرجوع عن موقفهم السلبي، وقبول الحماية الفرنسية.

... في حين كان ينبغي أن تحمل رئاسة الجمهورية أساساً، في عهد الفرنسيين، الخاتم الماروني.

ولا شك أن الفرنسيين عندما انتقوا شارل دباس رئيساً للجمهورية اللبنانية الأولى، لم يكونوا يعرفون تماماً دهاء هذا الرجل ومقدرته.

وليس الفرنسيون وحدهم كانوا يجهلون ذلك، بل أهل البلاد أنفسهم، بدليل أننا بأجمعنا، وجدنا في تعيين الدباس رئيساً، بعد أن كان مديراً للعدلية أثناء الحكم الفرنساوي المباشر، شيئاً مستهجناً، ومفاجأة غير منتظرة، إذ أن الناس كانوا يعرفونه قليلاً جداً، وذلك لأنه كان منذ نعومة أظفاره غائباً عن هذه البلاد، يتنقل بين استنبول وباريس، وهو منشغل وغارق بمغامرات ومتاجرات سياسية وغير سياسية، كانت دأب كل متمرد في عهد العثمانيين.

* * *

عندما اعتلى الدباس رئاسة الجمهورية في أيار 1926، بدأ بطريقة ليس فيها أقل إبهام عهد استقرار الانتداب، الذي كان حتى ذلك الوقت متردداً وخائفاً وغير واضح.

وطبعاً لما استقر الانتداب، وعرف الناس أنه أصبح أمراً واقعاً، كشف السياسيون عن وجوههم بجلاء - انتهازيين كانوا أم محترفين، غواة لاهين أو مخلصين لفرنسا، صادقين الود لها أم مخاتلين.

ورأينا الشيخ محمد الجسر[1] يعتلي في الأفق بسرعة مدهشة، يمثل المسلمين عند الفرنسيين، بالرغم عن إرادة أكثر المسلمين، الذين ما كانوا يريدون لهم عند الفرنسيين تمثيلا.

---

(1) بدأ الشيخ محمد الجسر حياته السياسية في عهد الانتداب رئيساً لمحكمة الجنايات ثم أصبح مديراً للداخلية، ثم دخل المجلس النيابي المنتخب في تموز 1925 وقد ترأسه في السنة الأولى المرحوم موسى نمور، ثم خلفه محمد الجسر، كما ظل الجسر رئيساً لما أدغم الفرنسيون مجلس الشيوخ بمجلس النواب في سنة 1927.

كان يمثل المسلمين بنباهة مدهشة وبمقدرة كاملة، وبشجاعة جعلته يجابه باقي رجال طائفته دون وجل، ويتعاون مع الفرنسيين تعاوناً مخلصاً قوياً، لم يكن منتظراً - مهما كان الثمن غالياً - أنْ يُقدِّم مسلم آخر تعاوناً صادقاً أكيداً مثله.

وجلس الشيخ محمد في صدر الديوان في رئاسة أول مجلس نيابي بلبنان، وهو مجلس انبثق طبعاً عن انتخابات عملها المستشارون - وخصوصاً سكرتارية المستشارين - كما يريدون ويرغبون، وكانت أول تدشين فاضح علني للشراء والبيع في الأصوات الانتخابية.

جلس الشيخ محمد في صدر الرئاسة، وله من ظرفه وجمال طلعته ولطف حديثه، وتقربه للنصارى ومصادقته لهم، ما جعل زعماء هؤلاء يناصرونه في كل مواقفه، ويقفون بجانبه أكثر مما كان يفعله المسلمون.

وكان بين ساسة الموارنة في ذلك الحين «الثلاثة الكبار» في المجلس والدولة تتجه إليهم أنظار الناس بوجه خاص. ولم يكن الرجل الرابع قد ظهر بعد[1]...

كان حبيب باشا السعد في شخصيته البارزة، ومكانته العالية ومرونته السياسية التي اقتبسها جيداً عن الأتراك، يمثل الجبل - جبل لبنان القديم بأجمعه. وكانت دماثة أخلاقه وإخلاصه للفرنسيين وحنكته ترفعه على الجميع.

وكان جورج ثابت واميل اده وجه الطائفة في بيروت، يجلسان في واجهتها، لهما فيها مكانة خاصة ومنزلة مرموقة. وكانا فضلاً عن ذلك على جانب كبير من السعة، وعضوين منظورين كبيرين بين كبار الحي السرسقي، الذي كانت الدول، كما أسلفنا، تخطب وده.

وكانت وجاهة هذين الرجلين الكبيرين المارونيين ببيروت تتلاقى كثيراً، وتتصادم دوماً. وقد ازدادت اصطداماً وتزاحماً عندما جاء الفرنسيون ينتقون بين الموارنة الزعماء الذين يرشحونهم للنيابة وللأحكام..

وطبعاً كانت تأتي أوقات تستظهر فيها وجاهة الواحد على الآخر.

ولم يكن جورج بك ثابت، الفتى الظريف المرح المحب للحياة، يضع جهوده بأجمعها في السياسة، كما كان يفعل الأستاذ اميل اده، الذي كانت السياسة غرامه

---

(1) يُقصد بالرجل الرابع الشيخ بشارة الخوري.

الأكبر، ولا نقول الأوحد. وقد كان يفرغ لها معظم أوقاته، ويضحي بأشغاله كمحامٍ كبير جداً لأجلها.

وتزاحم الرجلان مراراً عديدة في الانتخابات المتوالية، وفي السباقات السياسية المتعددة، وكان هذا يربح تارة على مزاحمه، وطوراً ذاك يربح، إلى أن خطا الأستاذ اميل اده في السياسة خطوات جعلته ينظر إلى أبعد مما كان الفرنسيون يريدون منه أن ينظر...

ولكن أين كان الرجل الرابع في ذلك الوقت؟

...الرجل الماروني الرابع، الذي سبق كثيراً، بعد حين، الثلاثة الأولين في معارج العز والسلطان في بيروت والجبل، في وقت غير منتظر، واستخلص لنفسه سؤدد وجبروت حبيب السعد واميل اده وجورج ثابت؟.

لم يكن هناك شيء يدل عليه ويشير إليه. وما كان أحد ينتظره. ولم يكن هناك أقل دليل على أن هذا المحامي الحديث السن، المتمرن الوديع المحتشم في مكتب المحامي الكبير اميل اده، ثم السكرتير العام لحاكم بعبدا الفرنساوي، سيكون هو الرجل الرابع الذي ستدور في فلكه حوادث ربع قرن من حياة لبنان السياسية...

وعندما يأتي الوقت سيطالع القرّاء في سياق هذا الكتاب أشياء جديدة وخفايا كثيرة عن أيامه وعهده وشخصيته.

كان يمثل المسلمين بنباهة مدهشة وبمقدرة كاملة، وبشجاعة جعلته يجابه باقي رجال طائفته دون وجل، ويتعاون مع الفرنسيين تعاوناً مخلصاً قوياً، لم يكن منتظراً - مهما كان الثمن غالياً - أنْ يُقدِّم مسلم آخر تعاوناً صادقاً أكيداً مثله.

وجلس الشيخ محمد في صدر الديوان في رئاسة أول مجلس نيابي بلبنان، وهو مجلس انبثق طبعاً عن انتخابات عملها المستشارون - وخصوصاً سكرتارية المستشارين - كما يريدون ويرغبون، وكانت أول تدشين فاضح علني للشراء والبيع في الأصوات الانتخابية.

جلس الشيخ محمد في صدر الرئاسة، وله من ظرفه وجمال طلعته ولطف حديثه، وتقربه للنصارى ومصادقته لهم، ما جعل زعماء هؤلاء يناصرونه في كل مواقفه، ويقفون بجانبه أكثر مما كان يفعله المسلمون.

وكان بين ساسة الموارنة في ذلك الحين «الثلاثة الكبار» في المجلس والدولة تتجه إليهم أنظار الناس بوجه خاص. ولم يكن الرجل الرابع قد ظهر بعد[1]...

كان حبيب باشا السعد في شخصيته البارزة، ومكانته العالية ومرونته السياسية التي اقتبسها جيداً عن الأتراك، يمثل الجبل - جبل لبنان القديم بأجمعه. وكانت دماثة أخلاقه وإخلاصه للفرنسيين وحنكته ترفعه على الجميع.

وكان جورج ثابت واميل اده وجه الطائفة في بيروت، يجلسان في واجهتها، لهما فيها مكانة خاصة ومنزلة مرموقة. وكانا فضلاً عن ذلك على جانب كبير من السعة، وعضوين منظورين كبيرين بين كبار الحي السرسقي، الذي كانت الدول، كما أسلفنا، تخطب وده.

وكانت وجاهة هذين الرجلين الكبيرين المارونيين ببيروت تتلاقى كثيراً، وتتصادم دوماً. وقد ازدادت اصطداماً وتزاحماً عندما جاء الفرنسيون ينتقون بين الموارنة الزعماء الذين يرشحونهم للنيابة وللأحكام..

وطبعاً كانت تأتي أوقات تستظهر فيها وجاهة الواحد على الآخر.

ولم يكن جورج بك ثابت، الفتى الظريف المرح المحب للحياة، يضع جهوده بأجمعها في السياسة، كما كان يفعل الأستاذ اميل اده، الذي كانت السياسة غرامه

(1) يُقصد بالرجل الرابع الشيخ بشارة الخوري.

الأكبر، ولا نقول الأوحد. وقد كان يفرغ لها معظم أوقاته، ويضحي بأشغاله كمحامٍ كبير جداً لأجلها.

وتزاحم الرجلان مراراً عديدة في الانتخابات المتوالية، وفي السباقات السياسية المتعددة، وكان هذا يربح تارة على مزاحمه، وطوراً ذاك يربح، إلى أن خطا الأستاذ اميل اده في السياسة خطوات جعلته ينظر إلى أبعد مما كان الفرنسيون يريدون منه أن ينظر...

ولكن أين كان الرجل الرابع في ذلك الوقت؟

...الرجل الماروني الرابع، الذي سبق كثيراً، بعد حين، الثلاثة الأولين في معارج العز والسلطان في بيروت والجبل، في وقت غير منتظر، واستخلص لنفسه سؤدد وجبروت حبيب السعد واميل اده وجورج ثابت؟

لم يكن هناك شيء يدل عليه ويشير إليه. وما كان أحد ينتظره. ولم يكن هناك أقل دليل على أن هذا المحامي الحديث السن، المتمرن الوديع المحتشم في مكتب المحامي الكبير اميل اده، ثم السكرتير العام لحاكم بعبدا الفرنساوي، سيكون هو الرجل الرابع الذي ستدور في فلكه حوادث ربع قرن من حياة لبنان السياسية...

وعندما يأتي الوقت سيطالع القرّاء في سياق هذا الكتاب أشياء جديدة وخفايا كثيرة عن أيامه وعهده وشخصيته.

- 9 -

ثورة اميل اده الأولى على الفرنسيين

ولكن من هو المغامر الماروني الأول الذي قام بوجه الفرنسيين قبل جميع الذين قاموا في وجههم بعد ذلك؟.

هذا للتاريخ، وهذا واجب يجب أن يقال.

هو الرجل الذي كان معروفاً أنه قبل الجميع صديق الفرنسيين.

هو الرجل الذي اتخذوه مستشاراً أولياً لهم يوم نزولهم في هذه البلاد.

هو الذي جاؤوا به يوم الاحتلال على ظهر مدرعة حربية من فرنسا لبيروت، محفوفاً بمجالي التكريم والتعظيم.

وهو الذي استندوا إلى مكانته ونفوذه وإمكانياته السياسية والمسيحية الكبيرة في هذه البلاد.

ولكنه كان أول من وقف بوجه الفرنسيين فكانت لهم يومئذ أول مفاجأة.

كانت دهشتهم كبيرة عندما رأوا لأول مرة رجلاً مسيحياً مارونياً معروفاً بانتمائه لهم، وقد جاؤوا به ليكون ساعدهم الأول، يقف بوجههم ويتحداهم، وذلك عندما أظهروا رغبتهم، بعد أن وضعوا دستوراً أولياً للبلاد بواسطة استفتاء كتابي، اختصر على مشورة بضعة كتّاب وسياسيين، قلنا عندما أظهروا رغبتهم في جعل المجلس المنبثق عن ذلك الدستور[1] ينتخب فرنسياً من رجال المفوضية حاكماً للجمهورية اللبنانية شبه البرلمانية!.

وهذا الرجل كان اميل اده، أول الثائرين.

كان يطلب الحاكمية للبناني.

---

(1) هو المجلس المنتخب في تموز 1925، وقد أراده الفرنسيون يومئذ أن ينتخب حاكماً فرنسياً رئيساً للجمهورية، فوقعت مشادة أدت إلى تعليق المجلس وتعيين السيد كايلا، الحاكم الفرنسي بالوكالة، حاكماً أصيلاً للبلاد. وظلت الحال هكذا إلى أن وافق الفرنسيون على انتخاب رئيس جمهورية لبناني، فعاد المجلس واختار شارل دباس في أيار 1926.

واتهم في تلك المناسبة الفرنسيين علناً بالاستعمار والديكتاتورية، وقال إنهم يريدون فرض حاكم فرنسي على هذه البلاد.

وهم ليسوا إلا منتدبين من جمعية الأمم بصك، يقضي عليهم أن يتركوا البلاد تحكم نفسها بنفسها تحت إشرافهم ومشورتهم فقط.

وكان ينادي عالياً، بقوله عن الفرنسيين: «جاؤوا يرشدوننا للاستقلال، وليس ليتحكموا بنا. والحق في الحكم لوطني لبناني!».

ولعله كان يعني نفسه عندما يطلب الحكم لوطني لبناني.

وكان الرجل الرابع، الفتى الوديع الأديب الهادئ المتمرن يصفق وتظهر عليه إمارات الاغتباط من موقف رئيس مكتبه الأستاذ اميل اده، الذي قفز فجأة - بوقوفه بوجه الفرنسيين - من خصم عنيد مكروه عند المسلمين، الذين كانوا يعتبرونه من صنيعة الفرنسيين، إلى ثائر يستميت للكرامة الوطنية!.

ورأينا حينئذ العُمَرَيْن - عمر بيهم وعمر الداعوق - اللذين كانا يومئذ نائبين بالمجلس، ويجلسان في واجهة السياسة والوجاهة للمسلمين ببيروت - رأينا العمرين يقفان بجانب الأستاذ اميل اده، ويماشيانه بعنف وشدة، وقد نسيا العبارة المنسوبة إلى اميل اده سابقاً، تلك العبارة التي أغضبت المسلمين بلبنان، وجعلتهم يعتبرون صاحبها عدواً لهم..

ففي الوقت الذي كانت الهيئات الإسلامية السياسية ببيروت توجه الدعوة لمؤتمر تطلب فيه الانفصال عن جبل لبنان، والوحدة مع سوريا، قال اميل اده: «نحن هنا بيروت والجبل واحد، والذي لا يعجبه عليه أن يعود للصحراء..».

وطبعاً، يتصور القارئ أي غضب وصخب استحوذ على المسلمين عندما قيل لهم إن هذا الماروني المسيحي، عميل فرنسا الأول في البلاد، هو الذي قال هذا القول - هو الذي يريد أن يَرْجِعَ المسلمون إلى الصحراء، من حيث يزعم أنهم أتوا عند الفتح الإسلامي.

وحدثت طبعاً مناقشات عديدة يومذاك حول هذا القول. وادعى بعضهم - ولكن بدون جدوى - أن الأستاذ اميل اده لم يقله، وأن خصومه هم الذين اخترعوا عن لسانه كي يجعلوا المسلمين يقومون عليه ويعادونه.

ولكن اميل اده محا ـ كما أوردنا أعلاه ـ هذه الصفحة السوداء، عندما قام لوحده بين الزعماء الموارنة يقف بوجه الفرنسيين ويحاربهم في رغبتهم بتعيين حاكم فرنسي بعد وضع الدستور وإعلان الحكم الوطني، ولا يجد في رغبتهم هذه مجداً لمار مارون..

* * *

وقيل يومئذ إن الرجل الرابع، ذلك الذي كان ينتظر ساعته، وقد بدأ يخرج من عزلته خطوة خطوة وبطريقة مدروسة، منظمة محكمة، هو الذي دفع، بطرقه الخاصة النابهة الساكنة ـ التي كانوا يسمونها طرقاً «جزويتية» ـ اميل اده للثورة على الفرنسيين، أصدقاء الموارنة التقليدين.

وإنّها لثورة جريئة على المفوض السامي، ذي الصلاحيات التي لم يملك مثلها حكام الأرض جمعاء، فقد كان يقبض على مقدرات البلاد وأهلها بيد واحدة، وله من القوة في الحكم ما لم يكن لقناصل الرومان في مستعمراتهم، وما لم يكن للمتصرفين في جبل لبنان عندما كان مستقلاً استقلالاً ذاتياً ضمن السلطنة العثمانية!.

ولقد جرت ثورة اده في وقت كان قد وصل فيه إلى البلاد الجنرال ساراي مفوضاً سامياً، والسيد كايلا حاكماً بالوكالة، وكلاهما علمانيان، فتحوّل الحكم الفرنسي إلى حكم علماني معادٍ للأكليروس.

وما زلنا نذكر يوم استقبل الجنرال ساراي الصحفيين، واستلفت نظره راهبٌ بينهم، هو الخوري لويس الخازن، ذو الشاربين المعقوفين الكثيفين، واللحية السوداء العريضة، والعينين البراقتين تحت حاجبين رهيبين، فانتهره الجنرال بصوته الجهوري قائلاً:

ـ وأنت ماذا تريد؟ ولماذا تلبس مثل هذا الثوب الحزين، ولك هذه اللحية البشعة، وهذان الشاربان المخيفان؟.

وقال الخوري لويس بجرأة كانت تحدياً للجنرال المتحكم:

ـ أنا خوري ماروني، ولي الشرف بذلك!.

فقال له ساراي بسخرية: تشرفنا.. ولكن لماذا ترتدي لباساً يجعلك بشع المنظر هكذا؟ وماذا تريد؟.

قال الخوري لويس: أريد أن اسألك لماذا لم تزر غبطة البطريرك، كما كان يفعل أسلافك المفوضون الساميون الثلاثة الذين سبقوك؟

أجاب ساراي مستهزئاً: ولكن أي بطريرك منهم؟ ففي البلاد 36 بطريركاً.. وهل تتصور أن ليس عندي شغل غير زيارة البطاركة والرهابين غربان هذا الجبل.. (كذا حرفيا).

وهنا ـ كما يذكر كثيرون من الزملاء ـ شد السكرتير العام للمفوضية المسيو لابورد ـ وكان جالساً خلف المفوض السامي ـ بسترة الجنرال داعياً إياه للسكوت!.

وسكت الجنرال ساراي فجأة. سكت لأن السكرتير يمثل وزارة الخارجية الفرنسية في هذه المفوضية العسكرية..

ولكن اميل اده، الذي أقام نفسه يومئذ ـ وعن حق ـ حامي الدين المسيحي وأديرته ورهابينه، لم يسكت.

وكانت عنده تلك الجرأة الخطرة جداً التي جعلته يحمل على المفوضية الفرنسية القائمة في جريدة «الاوريان». وكانت الجريدة يومئذ تمشي بمشورته وقوله، وكان لها الشأن الأول في تسيير سياسة البلاد، لأنها تصدر بالافرنسية، ولأن الفرنسيين يطالعونها، ولأن كاتبيها الناشئين يومئذ، كانوا على مقدرة مرموقة في الكتابة والثقافة والشجاعة في القول، مما جعل تلك الجريدة في ذلك الحين تحمل بين أعمدتها صواعق جوبتير..

وكان جورج النقاش ـ ولا يزال ـ من أقدر الصحافيين في هذه البلاد، ولم يكن قد وصل بعد لهذا الكسل المخجل الذي يعيش فيه اليوم. ولم يكن قد تحرر ـ كما هي حاله اليوم ـ من كل لون سياسي ووطني.

كان يكتب يومياً تلك المقالات العنيفة التي كانت تنتقل بسرعة البرق إلى جميع الأوساط. وكان فيها دوماً روح اميل اده وآراؤه. وهي كتابات كان لها بوجه أولي الفضل في استدعاء وزارة الخارجية للجنرال ساراي وزمرته العلمانية، التي خالفت وكادت تقضي على سياسة فرنسا التقليدية في الشرق ـ وهي السياسة التي ترتكز فيه على تعزيز النصرانية.

والنصارى في جبل لبنان هم قبل كل شيء مئات الأديرة وآلاف الرهابين المنتشرين في أعالي الهضاب، وفي مراعي الوديان المعطرة!.

- 10 -

الرجل الرابع.. يحمل غصن الزيتون في طرابلس!

كان الرجل الرابع قد خرج من وراء مكتبته الصغيرة القائمة في زاوية إحدى غرف مكتب اده الوسيع، وأخذ يخلق له صداقات في المندوبية الفرنسية لدى حكومة لبنان.

وفي المفوضية السامية نفسها.

وأول صديق سياسي عند الفرنسيين، وضع الرجل الرابع يده عليه كان الأستاذ موسى مبارك، يومئذ سكرتير مندوب المفوض السامي لدى الحكومة اللبنانية. وكان لدى هذا السكرتير من النفوذ والقوة ما كان لكل سكرتير فهيم عند كل فرنساوي كبير.

وكان الشيخ يوسف الخازن، النائب العلاّمة الظريف يقول، عن المندوب الفرنساوي وسكرتيره عندما يراهما قادمين للمجلس، الواحد وراء الآخر:

- جاء مار روكز وكلبه...

ولكن موسى مبارك بنظر الشيخ يوسف كان مار روكز...

* * *

قلنا وبدأ الرجل الرابع في وضع يده على سكرتير المندوب السامي، وهو الذي عرف قبل الجميع أن صداقة السكرتير أنفع من صداقة المندوب!.

وكم كان عمر الرجل الرابع يومئذ؟ لم يكن بلغ الثلاثين..

ولكنه كان قد بدأ يضمن لنفسه دائرة نفوذ افرنسية كبرى تماشيه وتجد فيه رجل المستقبل!.

وقد توصل إلى هذا من وراء مقابلاته الخاصة الخفيفة مع المندوب المستشار، أو بالأحرى من وراء ما كان سكرتير المستشار يقوله عن الرجل الرابع للمندوب المستشار.

وبلغ على مدى الأيام من صداقة الرجل الرابع لسكرتير المستشار، أن الناس أصبحوا يحسبون هذا صنيعة لذاك، غير عارفين أن السكرتير كان يلعب تماماً اللعبة التي اتفق مع رئيسه الفرنساوي ومع المفوضية عليها: أن يكون بخدمة الرجل الرابع وبمن يحوم حوله من الأنصار....

.. بينما يكون غيره من عمال الفرنسيين يصادق ويخطب ود الأستاذ اده ومن يحوم حوله من الأنصار!.

وهكذا يضمن الفرنسيون معرفة أعمال كل من الرجلين، اللذين كان من المنتظر بعد ظهور الرجل الرابع بقوة وشدة أن يشكلا جبهتي قتال قد تكون لهما أكبر النتائج وأسوأها عليهم.

لا نريد هنا القول أن الأستاذ موسى مبارك كان يلعب دوراً لا يليق بكرامته، بل بالعكس كان يلعب الدور الذي يمليه عليه واجبه كموظف أمين للوظيفة الهامة التي يقوم بها، والتي كانت تقضي عليه أن يتظاهر بمصادقة الشيخ بشارة، تكملة لسياسة المفوضية، التي كانت تريد ألاّ يتوهم أحد أنها مع اميل اده وحده.

ثم أن سياسة المندوب يومئذ - وهي سياسة تقليدية في هذه البلاد - كانت تقضي بتقوية رجل ماروني جديد، يكون قديراً وفهيماً، ليجلس في كفة الميزان الثانية مقابل الكفة الراجحة التي يجلس فيها الأستاذ اميل اده.

ولا نتكلم هنا عن الرجل الأول حبيب باشا السعد مع أنه كان يتمتع بزعامة ونفوذ كبيرين، دعياه بعد الدباس للتربع برئاسة الجمهورية الثانية.

ولكن في سياق الحديث نعرض أن إمكانيات حبيب باشا وأمانيه كانت تنحصر بالأكثر في سياسة جبل لبنان، لا في سياسة لبنان الكبير العامة، ولم يكن يهتم لسياسة بيروت، التي كان الفرنسيون يريدونها أن تتخذ وجهاً مسيحياً، يقف أمام الوجه المسلم الذي كانت المدينة معروفة به في تلك الأيام.

وقلنا إنّ جورج ثابت كان يشتغل في السياسة دوماً كهاوٍ، وليس كمحترف.

وكان أول وجه مليح يراه، يجعله ينسى النيابة والوزارة والسياسة ويدير قفاه للمفوضية السامية!.

لم يبق إذاً للفرنسيين غير اميل اده في واجهة الموارنة، وهم لا يريدونه أن يكون وحده فيها.

وهنا ظهر الرجل الرابع!.

وكما وجد الرجل الرابع موسى مبارك مفتاحاً ليناً نافعاً للدخول إلى قلب المفوضية السامية، كذلك وجد موسى مبارك الرجل الرابع الماروني المنتظر، الذي يجب أن يقف بوجه مطامع الأستاذ اميل اده وجشعه!.

ولم يكن الفرنسيون قد نسوا ثورة اميل اده عليهم يوم أراد الرئاسة لمواطنيه، وهي ثورة جاءت من صديق مخلص لفرنسا، مما قد يشجع الكثيرين على أن يطمعوا بفرنسا ويرفعوا الرأس أمامها.

ومن طرائف الزمان أن الرجل الذي كان الفرنسيون يفتشون عنه ليضعوه في كفة الميزان الثانية مقابل اميل اده، جاؤوا به تقريباً من مكتب اميل اده، إذ لم يكن قد مضى عندئذ وقت طويل على خروج الرجل الرابع من مكتب اده حيث كان يتمرن..

..أو أن الرجل الرابع، هو الذي دلهم على نفسه، وبالطرق النابهة التي اشتهر بها بعد ذلك كثيرا!.

وهكذا، مع موسى مبارك في المندوبية الفرنسية لدى حكومة لبنان، ظهر رجل العشرين سنة الأخيرة: الشيخ بشارة الخوري.

* * *

في ذلك الزمان، كان في الدولة وجيهان زعيمان مسلمان تساويا وتشابها بأشياء عديدة، واختلفا ولم يتشابها في شيء واحد.

تساويا أولاً، في أن مسقط رأسهما طرابلس.

وثانياً، في مكانتهما الدينية ووجاهتهما السياسية: عبد الحميد كرامه مفتي طرابلس، والشيخ محمد الجسر: سياسي ورجل دين، ونائب سابق في مجلس «المبعوثان» العثماني.

وثالثاً، في نباهتهما الكاملة، وقد كانا معدودين من أبرز الوجوه الإسلامية في لبنان الجديد.

لبنان الذي دخلت إليه طرابلس غير مختارة وغير مرغمة. دخلت إليه وقبلت به، لا بإرادتها ولا بالرغم عن إرادتها - بل تقريباً بدون انتباه.. وبدون تفكير!.

وما زالت طرابلس منذ دخلت لبنان سنة 1919، وصارت جزءاً منه، تضرب الرقم القياسي في عدد المرات التي هددت فيه لبنان بالانفصال عنه، مما أعطاها سلاحاً خاصاً للمساومة مع الحكومات المتعاقبة، استطاعت بفضله أن تكون هي دوماً الرابحة!.

إذ من يستطيع أن ينال من طرابلس؟ أو يقاصص أو يجازي طرابلس؟

إذ أن طرابلس بعبع الجمهورية، وساقها الحساس، والجانب الثائر فيها..

وكان عبد الحميد كرامه ذات وقت - خصوصاً في السنوات الأولى للانتداب - يعمل بطرابلس تقريباً كما يريد، وذلك بمناوأة الفرنسيين والوقوف بوجههم، بالرغم أن الفرنسيين كانوا على مر الأيام يزيدون من ابن طرابلس الآخر الشيخ محمد الجسر وجاهة وسطوة.

وقد استطاع الشيخ محمد الجسر، بالنفوذ الذي أعطاه إياه الفرنسيون - وكانوا قد جعلوه أولاً ناظراً للداخلية ثم رئيساً للمجلس النيابي - وبالقوة الذاتية التي له، وبشخصيته البارزة ووجاهته بطرابلس، أن يخفف كثيراً من نتائج معارضة عبد الحميد كرامه للفرنسيين والمطالبة بإلحاق طرابلس بسوريا.

وكان في طرابلس شخص ثالث يتمتع بمركز كبير متزايد، هو المرحوم الدكتور عبد اللطيف البيسار. وكان في استطاعته - بالنفوذ الذي كونته له مهارته في مهنته، وبالأموال التي تدفقت عليه منها - أن يلعب دوراً كبيراً في قيادة البلد. ولكنه آثر أن يبقى في عالم مستشفاه، تاركاً قيادة المدينة لعبد الحميد كرامه وحده، متعاوناً معه في مخاصمة الفرنسيين، داعماً الحركة بأمواله.

هكذا استمرت طرابلس تناهض الكيان اللبناني، وظل عبد الحميد كرامه يجلس في واجهتها بلا هوادة. وجميع الساسة المناهضين لفرنسا في البداية لانوا مع استقرار الانتداب، إلا عبد الحميد كرامه. وما حمل عبد الحميد كرامه راية لبنان إلا في اليوم الذي حمل فيه الفرنسيون حقائبهم وَعَلَمَهُم وجلوا عن البلاد.

ولكن، عندما كان عبد الحميد كرامه يقاتل الفرنسيين، وعندما كان الشيخ محمد الجسر يتلقى الضربات عنهم، ويشتغل لمنع طرابلس من الثورة.. من كان ذلك الفتى المورد الخدين، الأزرق العينين، اللطيف الكلام، الهادئ الأعصاب، الذي وقف بين الكبيرين المسلمين المتخاصمين، منتهزاً حقد الأول على الفرنسيين، ومحاربته إياهم، وخضوع الثاني وخدماته لهم، فيحمل غصن الزيتون ويدخل بين الزعيمين، عاملاً عند الأول لتخفيف حنقه على الانتداب، وعاملاً عند الثاني لتخفيف خضوعه للانتداب، ففتح هكذا باباً لهدنة إسلامية طويلة في طرابلس بين المفتي والشيخ؟.

ولقد وقع الشيء فعلاً وعملياً، ووقفت نوعاً ما في الفيحاء الجميلة الثورة البيضاء، والإضرابات والتظاهرات التي كانت تتابع يومياً ضد لبنان ـ مما جعل الفرنسيين يلاحظون أكثر وأكثر هذا الرسول للسلام الفتى اليافع السياسي الذي كان لا يزال هاوياً وليس محترفا.

وكان هو، هو الرجل الرابع!.

. 11 .

عهد الدباس: عهد الجبابرة بالأسماء فقط!

وبينما نترك الشيخ بشارة الخوري يمشي بخطى وسيعة نحو الأدوار الرئيسية التي سيلعبها سحابة عشرين سنة على الأقل، تذهب بنا الأهواء نحو ضآلة الجمهورية الأولى، جمهورية شارل دباس[1]، ونحو ضعف الرجال الأقوياء الجبابرة الذين كانوا فيها، والذين لم يجمع لبنان بوقت واحد مجموعة براقة جذابة مثل مجموعتهم.

وكانت جمهورية الدباس، ولا ريب، القاعدة التي انطلقت منها حياتنا البرلمانية الجديدة.

ولكن أعمالها ـ التي لم تكن كبيرة ولا عظيمة ـ ليست هي التي خلقت لها هذا الصيت الكبير المستأصل عند الناس حتى الآن، بأنها كانت جمهورية طمأنينة وعدالة وهيبة.

فإنما جمهورية الدباس لم تكن براقة وباهرة بأعمالها ـ كما يتوهم الكثيرون ـ بل كانت براقة وباهرة برجالها!.

فكما قلناه أعلاه، ما اجتمعت مجموعة من كبار السياسيين مرة واحدة وبعدد وافر في لبنان، ولمدة قصيرة، في غير ذلك العهد. وكان رجالها يشكلون حول الدباس هالة جعلت لعهده ذلك الشعاع الذي لا نزال نذكره حتى الآن بإعجاب، وهو عهد بدأ وعاش كبيراً في البداية، ثم انتهى كما نذكر صغيراً وزريا!.

فإنما عندما يكون هناك رئيس جمهورية راجح العقل، تسانده بعساكرها وأموالها دولة حامية كبرى، وحوله عدد كبير من السياسيين لكل منهم شخصية بارزة ودهاء متمايز وزعامة سياسية راسخة، لا يمكن أن لا يقال عن عهده إنه كان أبهى عهود لبنان بعد انفصاله عن الدولة العثمانية.

وكانت هناك جمهرة من أهل السياسة فاقت بدهائها وعبقرياتها جميع ما جمعته السرايات والمجالس النيابية من بعد.

---

(1) بدأت جمهورية الدباس في سنة 1926 وانتهت في سنة 1934.

كانت جمهورية الدباس غنية حقاً بالرجال. كان فيها حبيب السعد والعُمَران، عمر بيهم وعمر الداعوق، وكان أيوب ثابت، وعبد الله بيهم وموسى نمور. وكان اميل اده، وجورج ثابت، والشيخ محمد الجسر، وميشال شيحا والأمير فؤاد أرسلان، وشقيقه الأمير توفيق، وكان بترو طراد والأمير خالد شهاب وشبل دموس والشيخ يوسف الخازن. وكان أوغست أديب وعبد الله أبو خاطر. وكان ميرزا ويوسف افتيموس، وعدد كبير من الشخصيات البارزة.

هؤلاء جميعاً اجتمعوا في المجلس والحكومة في وقت واحد، مما لم يجتمع مثله بوقت واحد في عهود الجمهوريات الثلاث التي جاءت بعد جمهورية الدباس.

وكان كل واحد من هؤلاء يشكل شخصية محترمة معروفة ممتازة.

وكان كل منهم تقريباً خطيباً كبيراً ومتحدثاً فهيماً، ومشاغباً حاذقاً، وصاحب أطماع في الأعالي، طويل الحدود، وكانت هذه الأطماع هي الدافع الأول والأخير للتعاون مع الجمهورية الأولى ورئيسها - ومع الفرنسيين المشرفين عليها!.

ذلك أنه لم تكن هناك خدمة وطنية كامنة وراء نشاط هؤلاء السياسيين كما يزعم التاريخ العادي المبتذل - والمزيف دائما.

بل كانت الأطماع السياسية هي التي تحرك نشاطهم، في وقت كان الفرنسيون قد فتحوا فيه للجميع باب الدخول إلى أحضان الدولة والسير فيها نحو الشهرة والسلطان، بعد أن كانت تركيا ضيقت لدرجة تامة ميدان العمل السياسي بوجه السياسيين اللبنانيين خاصة والعرب عامة.

وكانت تظهر هذه الأطماع عند الجميع - عند الذين ذكرنا والذين لم نذكر. فإنما جاء لبنان الجديد كالهجرة لأميركا، يفتح أبواباً للرزق وللمعالي لم تكن تخطر على بال!.

كانت أطماع هؤلاء الرجال تظهر قبل كل شيء، وفي وجه كل شيء، وخصوصاً بالتزاحم على اكتساب رضا المفوضية الافرنسية أولاً - وعلى تأمين الحظ عند الدباس ثانيا!.

وجاءت الجمهوريات الباقية تحت الانتداب. وكان السياسيون فيها جميعها يعملون فقط لإرضاء المفوضية السامية، واكتساب حمايتها، ويزدادون استعباداً لها، على اعتبار أنها وحدها صاحبة القول الفصل. أما في عهد الدباس فقد كان الساسة

يسعون لاكتساب المفوضية السامية واكتساب رضا الدباس في الوقت نفسه. إذ أن هذا الرجل الذي بدأ كبيراً ولم ينته كبيراً، كان أثناء رئاسته للجمهورية دوماً على أتم وفاق مع الفرنسيين.

وقد كانت عنده تلك المقدرة التي عجز عنها كل رئيس جمهورية بعده، من أنه كان يعرف كيف يرضي أسياده في المفوضية السامية، كما يرضي نوابه ووزراءَه وسياسييه من اللبنانيين في آن واحد!.

وتلك السياسة التي اتصف بها طيلة رئاسته جعلته وحده، دون باقي الذين جاؤوا بعده، يقضي مدته الطويلة دون أن يقع بينه وبين الفرنسيين خلاف واحد، كالخلافات التي كانت تقع بين الرؤساء الذين جاؤوا بعده وبين الفرنسيين، مما كان ينشر الفوضى في البلاد، ويجعل الفرنسيين يلجأون إلى الحكم مباشرة، فيعزلون الرؤساء بسطر واحد، ويحلُّون المجالس بربع سطر، ويعينون رؤساء جدداً في جمهورية برلمانية بمرسوم اعتباطي!.

وإذا كان الدباس في عهد الانتداب قد بقي رئيس جمهورية لبنان مدة ثماني سنوات، أي أطول من جميع الذين جاؤوا بعده في ذلك العهد، فذلك للأسباب التالية:

أولاً - لأن الفرنسيين كانوا لا يزالون في بداية عهدهم بالانتداب، ولا يريدون أن يجعلوه علناً بطريقة مفضوحة حكماً مباشراً يتحدى الرئاسة الوطنية ويرمي بها من نافذة السراي أية ساعة أراد.

وثانياً - لأن الدباس كان وحده الذي يعرف كيف يُوفِّق بين كرامة الرئاسة ويجعل لها مكانة معنوية، وبين ديكتاتورية المفوض السامي.

وثالثاً - وهنا الأهم، لأن الدباس كان يملك الشجاعة على الادعاء بأنه يتحمل مسؤوليات جميع أخطاء الحكم الفرنساوي غير المباشر بالاسم، المباشر بالفعل، وذلك دون أن ينتظر أن يطلب منه الفرنسيون حمل تلك المسؤوليات.

وإذا كان الناس لم يصدقوا دعواه - كما كان الواقع - فإنَّهم لم يكونوا يكذبونه - طالما أنه كان يصرح في كل مكان أنه هو وحده المسؤول عن كل ما يجري، وطالما أنه لم يعمل مرة واحدة ما كان يعمله الرؤساء والحكام الذين جاؤوا من بعده، عندما كانوا يجيبون كل محتج على عمل خاطئ ومجحف: لست أنا الذي أحكم، بل الفرنساوي!.

ـ 12 ـ

جمهورية.. معلّقة على شفتي رجل..

صار لبنان فجأة جمهورية، ومستقلاً استقلالاً نسبياً، بالنسبة للسلطان الذي كان يتمتع به أسياده الفرنسيون. ولكنه على كل حال صار جمهورية، والكلمة لذيذة على الأسماع تجعل صاحبها يعتز بها!.

ولكن هل كان جدي الشيخ يعقوب الرياشي ـ مع كل ما كان عنده من نباهة وبعد نظر ـ هل كان يفتكر مرة واحدة قبل الحرب العامة الأولى، وهو يدير أعمال معامله للحرير في قريتنا الخضراء «الخنشارة»، أنه سيأتي يوم يصبح فيه لبنان جمهورية ودولة، مما اعتبرناه أعجوبة الزمان، ومما اغتبطنا له كثيراً، مع أن جبل لبنان فقد بهذا الوضع الجديد تلك النعمة التي كانت دول العالم تحسده عليها بأجمعها...

يوم كان يصدق القول العامي: «يا حظ من له مرقد عنزة في هذا الجبل!».

يوم كان أمان واطمئنان، وكان المكلف يدفع ربع مجيدي ضريبة عامة سنوياً، أي ليرة لبنانية تقريباً. وكان بأربع مجيديات وخمسة بشالك يموّن البيت للشتاء ويعيش مع عياله بطمأنينة!.

يوم كان ابن الجبل يمشي ببطء وهدوء على قدميه، وإذا أراد البذخ يركب الحنتور على الأكثر!.

يوم كان مجلس إدارته المؤلف من اثني عشر عضواً ـ يعمل أكثر بكثير، لخدمة لبنان، مما عملته جميع المجالس النيابية التي جاءت بعد الاستقلال، مع أن الاثني عشر كانوا غالباً شيوخاً طاعنين في السن، لا يزينهم العلم الكامل ولا نظم الشعر، بل يمتازون فقط بحب البلاد وإخلاصهم لها، ويمتازون أيضاً في شيء خاص مضحك ومهيب معاً، وهو إجماعهم على صبغ شعرهم الأبيض بصباغ أسود رخيص الثمن، يسيل أكثر الأحيان في أيام الصيف من شدة الحر على وجوههم وقمصانهم البيضاء، فلا يعودون معروفين!.

ومع ذلك كانوا يعملون عملاً مجدياً، ضمن صلاحياتهم الواسعة، إذ أن كلاً منهم كان لا ينظر إلى أبعد من منطقته فيحصر جهوده في خدمتها على أفضل وجه ممكن، في الوقت الذي يعمل فيه كل من رفاقه الشيء نفسه في منطقته أيضا.

وهذا هو بالأحرى الدليل الأكبر على حسنات الدائرة الفردية، في الوقت الذي أكتب فيه هذا الكتاب، وفي الوقت الذي تصدر فيه الحكومة قانون الانتخاب الجديد على أساس الدائرة والدائرتين تلبية لرغبات الشعب.

وكان مجلس إدارة لبنان دليلاً قاطعاً على أن النائب إذا جاء للمجلس ممثلاً لمنطقته لوحده، عرف حدود دائرته وحقوقه فيها وواجباته نحوها واشتغل لأجلها.

وعلى ذكر مجلس الإدارة والانتخابات، نذكر أن شيوخ كل قضاء ـ المدعوين اليوم بالمخاتير ـ كان ينتخبون أعضاء ذلك المجلس، ما عدا بلدة زحلة، فإنها سبقت منذ ذلك الحين جميع الديمقراطيات البرلمانية في الشرق، إذ كانت تنتخب عضوها بالانتخاب المباشر، ما يثبت أن زحلة عاشت بامتيازات خاصة ضمن استقلال جبل لبنان.

* * *

لما قامت الجمهورية في لبنان سنة 1926، واستقبلنا إعلانها من لدن الفرنسيين بحماسة كبيرة، لم نكن نعرف أن لها صوراً متعددة، دستورية وغير دستورية، وأنها ستكون مثل المرأة المستهترة أو تتعشق كل يوم رجلاً جديداً، وأنها ستكون معلّقة على شفاه الدكتاتور الفرنساوي الذي كان اسمه المفوض السامي، والذي كان يكفيه أن يقول كلمة واحدة حتى يقلبها رأساً على عقب!.

ومنذ عهد جوستينيانوس، القنصل الروماني الذي أرسله أغسطس قيصر لبيروت قنصلاً عليها، وذلك بعد أن زوّجه ابنته الحسناء جوليا فليكس، التي ابتنت هياكل لعشتروت وقصراً صيفياً لها في هضاب الآلهة، المعروفة الآن بهضاب دير القلعة من خراج بيت مري، حيث نشيد اليوم بيتاً جميلاً عالياً لنا، وذلك على أنقاض هيكل ربة الحب والجمال، فنكون هكذا قد بعثنا عادتها من جديد، بالعيش حيث كانت العذارى تأتي لتعبدها، وتقدم لها بتولياتها قربانا..

قلنا، ومنذ عهد جوستينيانوس الذي أسس مدرسة الآداب الأولى في بيروت، وفي الشرق بأجمعه، عرفنا على مر الأزمان أسياداً كثيرين، ليس وطنيين لبنانيين فقط بل من جميع الملل والشعوب تقريباً. ولكننا ما عرفنا بعد عهد القنصل الروماني جوستينيانوس غير المفوضين الساميين الفرنساويين يأتون إلى هذه البلاد؛ ولهم ما كان له من سلطة وسلطان.

كان المفوضون الساميون يحتكرون لأنفسهم الكلمة الأخيرة في كل شيء وفي كل الأمور.

وكنا نقول دوماً، عندما ينزل بنا هنا وهناك بعض الحيف من الفرنسيين: نشكر الله الذي نجّانا من أعظم، لأنهم على كل شيء قديرون!.

لهذا كانوا يعملون بهذه الجمهورية ما يريدون تماما.

حتى أن هذه الجمهورية كانت تبدل اسمها من وقت لآخر حسب ما يخطر على بال «البروقنصل» العظيم، كما كانت السراي تغير رجالها حسب أهوائه، كما تغير المرأة الحسناء قمصانها!.

وكان رئيس جمهوريتنا يترك الرئاسة فجأة إذا كان حضرة المفوض السامي قد تغلظ خاطره عليه!.

ورأينا يوماً، كما سيأتي الحديث، أحد المفوضين الساميين - الكونت دي مارتل - يقاطع رئيس جمهورية كان قد ساعده قبل يوم واحد ليفوز بالرئاسة - لأن ذلك الرئيس الجديد أهمل دعوة عشيقة المفوض السامي - زوجة أحد الديبلوماسيين الأجانب - للغداء الرسمي الذي أقيم احتفاء بصعوده إلى منصة الرئاسة!.

وبأجمعنا، لم ننس كيف أن المفوض السامي يومذاك انتهى إلى إرغام ذلك الرئيس - اميل اده - على أن يترك السراي التي كان قد جعلها مكتبه، وينزوي إلى بيته، لا يستطيع أن يعمل شيئاً إلا بأمر البروقنصل.

وأيضاً ولا شك أن دستورنا ضرب المقياس العالمي، ليس فقط بالتعديلات المتواصلة التي كان يدخلها عليه المفوضون الساميون في كل مرة كانوا يجدون هذه المادة أو تلك المادة لا تنطبق على سياسة ارتجالية خطرت جديداً على بالهم.

كما وأن دستورنا ضرب الرقم القياسي في المرات العديدة التي علّقه فيها الفرنسيون كاملاً أو جزئياً، وعلّقوا معه رئاسة الجمهورية والمجلس النيابي.

وكنا ننام مساء عندنا رئيس جمهورية ومجلس نيابي، فإذا بنا نستيقظ في اليوم التالي لنجد كل هذا قد أُلغي تماماً، أو قد عُلّق إلى زمن غير معين!.

وعندئذ بدلاً من ذلك العدد الكبير من كبار الرجال الذين كانوا يشكلون الرئاسة والوزارة والمجلس، كان يأتينا حاكم فرد - لبناني على الغالب - يقوم بأعمال رئيس

الجمهورية ووزرائه ونوابه المعلّقين بأجمعهم. وكان هذا الشيء يستلفت النظر، ويدل على أن ليس العبرة بكثرة الرجال وبالوظائف المعظمة العالية، وأن حاكماً واحداً يمكنه أن يحكم الدولة بأفضل من عشرات الرؤساء والوزراء الذين يحكمونها في أيام الدستور.

وقد رأينا بعد ذلك - حتى في أيام الاستقلال بعد جلاء الفرنسيين - رأينا وزارات من ثلاثة أو أربعة وزراء يحكمون إن لم يكن أفضل، فعلى الأقل مثل وزارات الثمانية والعشرة التي جاءت بعد ذلك، والتي كانوا يدعونها غالباً وزارات الجبابرة!.

ولكن أين هم الجبابرة في لبنان؟

لقد كانوا ولا شك قبل أن جئنا إلى هذا العالم..

إذ أننا حضرنا آخرة جميع الذين أسميناهم جبابرة في عهدنا. فكانت آخرتهم مسكينة زرية.. آخرة أقزام!.

* * *

وبينما كانت جمهورية دباس تجتاز عهدها، لكي تقتطع ثماني سنوات من حياة لبنان السياسية، كان الفرنسيون يمطرون البلاد بالقرارات والصحف والمجلات الباريسية والجندرمة الملقبين - وعن ظرافة - بالبندورا، وكانوا يُغرقون البلد بالصور المزلطة وبنسائهم وعائلاتهم، الذين كان الانتداب يستقدمهم من فرنسا بكثرة عجيبة، والذين كل منهم يتقاضى معاش أربعة أضعاف ما كان يتقاضاه أكبر موظف وطني في الدولة!.

فقد كان مثلاً، معاون المستشار يتقاضى معاشات وتعويضات تفوق معاش وتعويضات رئيس الوزارة، مما يجعلنا نقول أيضاً إنّ معاش المستشار وتعويضاته كانت تفوق - ربما - معاش رئيس الجمهورية وتعويضاته!.

وكانت العملة غالية في تلك الأيام.

وكان الرئيس الدباس لا يعيش معيشة بذخ ولا مكارم.

ومع أنه كان قنوعاً وبغير حاجة كبرى للمال، فهذا لم يمنعه بعد أن ترك الرئاسة سنة 1934 أن يسعى لأن يكون رئيساً للنواب. وبعد أن فاز بما أراد، جعل المجلس يقرر له تعويضاً قدره 18 ألف ليرة عن وظيفته السابقة قبل الرئاسة كمدير العدلية،

مما جعل صحف البلاد وأنديتها السياسية تقوم على الدباس وتتنكر له بعد أن رفعته كثيراً يوم كان رئيساً للجمهورية.

كما وأنه كان قد أضاع كل مكانة وهيبة، عندما ترك الرئاسة غاضباً حانقاً متأثراً جداً ـ مما دل وأثبت أن عنده أيضاً ذلك الضعف الغريب الذي رأيناه دوماً بعد ذلك برؤسائنا ووزرائنا منذ قامت هذه الجمهورية، فلم يعرف واحد منهم كيف يخرج من الوظيفة مع كرامته!.

بل كان كل منهم يخرج ذليلاً غاضباً، ضائع التوازن!.

ـ 13 ـ

الرجل الرابع يؤلف الوزارة.. وفي فلكه فرعون وشيحا

في مطلع عهد الدباس، وقعت تلك الحادثة التي كانت نقطة البداية في ذلك الصراع العنيف الذي ساد حياتنا السياسية عشرين سنة، ولما ينته!

على أثر انتخاب الدباس رئيساً، ألّف أوغست باشا أديب أول وزارة لبنانية[1].

وكان «الرجل الرابع» قد قطع شوطاً كبيراً في بلوغ الحظوة عند الفرنسيين، فإذا به يتولى وزارة الداخلية في تلك الوزارة.

دخل حضرته وزارة الداخلية وديعاً كالحمل، ولطيفاً وقريباً جداً للناس.

ولكنه ما كاد يدخل السراي حتى أخذ يثبت وجوده بسرعة مدهشة. وأخذت وزارة الداخلية التي كانت صلاحياتها في السابق محصورة بالمندوب الفرنساوي، يتحكم فيها كما يشاء، وما وزيرها غير منفّذ طائع لتعليماته وأوامره ـ أخذت وزارة الداخلية تعمل لنفسها مقاماً ومكانة بطريقة مرنة وساكتة مطمئنة، كان الوزير الجديد لا يخشى من جانب المندوب ملامة وغضباً. ولربما جرى ذلك بالنسبة للصداقة والتفاهم اللذين كان قد أوثق رباطهما مع المندوب وسكرتيره. ولعل هذين هما اللذان تركاه يأخذ هذه المكانة المرموقة التي كان بدأ يتمتع بها، فكان هذا أول وزير في الجمهورية اللبنانية استقل نوعاً ما بأعمال وزارته وعمل لها كياناً خاصاً.

وحكمت وزارة الباشا أديب ـ التي كانت مؤلفة من رجال أغلبهم ضعفاء ـ مدة قصيرة، وذلك إلى اليوم الذي اضطر فيه رئيس الوزارة للسفر إلى باريس للاشتراك بمؤتمر الديون العمومية التي كانت تركيا مرتبطة بها مع أوروبا، وأخصها فرنسا، وكان على لبنان الجديد، بعد ضم ولاية بيروت إليه، وقسم من ولاية سوريا، أن يؤدي حساباً عما يلحقه من تلك الديون.

وفجأة، بعد أيام من سفر أديب باشا، وبينما كان هذا منشغلاً في باريس في المؤتمر، عاملاً لتحميل الجمهورية اللبنانية أقل ديون ممكنة أسقط المجلس النيابي

---

(1) ألّف أوغست أديب هذه الوزارة في 31 أيار 1926 واستمرت حتى 5 أيار 1927.

وزارتـه، ودعـا الدبـاس وزير الداخليـة الشـيخ بشـارة الخـوري ـ وطبعـاً بالاتفـاق مـع المفوضية السامية ـ لتأليف الوزارة الجديدة، مما لم يكلفه كثير عناء لما كان عنده من حيلة ومقدرة[1].

وهكذا فجأة، وبطريقة غير منتظرة، صعد الرجل الرابع إلى ذروة الحكم بسرعة مدهشة، وفقط بعد أشهر قليلة من دخوله السراي!.

وعلـق كثيرون يومئذ تعليقـات متنوعـة علـى موقـف الشـيخ بشـارة الخـوري مـن رئيسه الغائب أوغست باشا أديب.

وذهب العذال للقول إنه طعنـه بظهره، وانتهز مناسـبة سـفره ليسـقطه وليجلس مكانه.

ولم يكن هناك ـ والحق يقال ـ أقـل دليل علـى ذلك، وهـذا مـا كـان يدعـو بشـارة الخـوري للقـول إنـه مظلـوم وبريء مـن دم ذلك الصديـق. وكـان يقـول أيضـاً بمرونتـه المشهورة، وابتسامته الساكنة الهادئة:

ـ لست أنا الذي اضطرته للاستقالة، وطالمـا أنـه اسـتقال، وكان مـن الـلازم أن يؤلف غيره الوزارة، فلماذا يستغرب الناس تكليفي بتشكيل الوزارة الجديدة؟.

* * *

ولكن، كان ولا شك من الضـروري الزعـم أن بشـارة الخـوري هـو الـذي سـحب الكرسي من تحت الباشا أديب، في بلاد ترى دوماً الشر والحيلة والخداع في كل عمل يقوم به الرجال العموميون وينجحون فيه!.

وأول القائلين، وأكثرهم انتقاداً لموقف الشيخ بشارة الخوري المزعوم، كان طبعـاً الأستاذ اميل اده نائب بيروت، ووجه النواب يومئذ.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الصراع الكبير: صراع الجبارين.

هو الصراع الذي عاشـت هـذه البـلاد عشـرين سـنة ضمـن دائرتـه، وكـان دومـاً السبب في مشاحناتها ومشاداتها وانقلاباتها السياسية.

---

(1) ألَّف الشيخ بشارة الخوري وزارته الأولى في 5 أيار 1927 وعاشت حتى 5 آب 1928. وترأس وزارته الثانية من 10 أيار 1929. وبعد ذلك لم يعد إلى الحكم إلاّ سنة 1942.

هو الصراع الذي غالباً ما كان يحول قوة وعبقرية الرجلين الكبيرين عما كان يمكنهما أن يقومـا بـه مـن خدمـات للبـلاد، إلـى تقـاتل حزبـي، وإلـى تسـخير ميزاتـهما الكبيرة لخدمة أحقادهما الواحد ضد الآخر.

وضرب مرض الانشقاق والتفرقة والتشاكس ليس فقط بـين أنصـار الرجلـين فـي المدن والقرى، بل أيضاً في السرايات، حيث اتخذ كل موظف تقريبـاً موقفاً حزبياً مـع أحد المتصارعين، وكان ذلك في دوائر الحكومة بداية تلك الفوضى التي أوصلت الحكـم إلى حالته المعروفة التي انتهت إليها أخيراً، إذ أن التعـاون بـين الموظفين زال من جـرَّاء الحزبية، وما تولده من تنافر وخصام، وأخذ كل فريق منهم يخدم مصلحة حزبه دون سواها، ويعمل للضرر بمصلحة الحزب الآخر.

وبـدأت مـع هـذا الصـراع حملـة التشـهير فـي الصحـف والأنديـة السياسـية والاجتماعية. وأخذ كل من الجانبين يتهم الآخر بكل الأقذار ويحاول جرَّه إلـى الشـارع ليرميه بالوحول.

وأخذت البلاد تعيش سياسياً على قواعد التنافر والتزاحم الحزبي بين اميل اده وبين بشارة الخوري.

وما جرت بعد ذلك أحـداث، ولا قـامت انتخابـات ومسـاومات وحركـات سياسـية ومشادات عامة، إلا وكانت متصلـة بـالصراع بـين الخـوري واده، واده والخـوري. كمـا سيراه القـراء فـي سـياق هـذا الحديـث الـذي قـد يكـون فيـه الكثير مـن الصـور الفكهـة والطريفـة، ولكن فيه أيضـاً وبـالأكثر كل الحقـائق، وفيـه الروايـة الجريئـة الصريحـة للأحداث التي كان دوماً لنا اختلاط بها، والتي حضرناها واشتركنا فعلاً بمعظمها.

* * *

وكان من الطبيعي ألاّ يرى بسرور اميل اده الماروني، مارونياً آخر يلمـع نجمـه، ومنافسته له تقوى وتكبر.

ولا شك أن ذلك السياسي الجديد الشاب، الشيخ بشـارة الخـوري، الـذي دخـل السراي من بابها الكبير، كان قد امتعض لو أن الأستاذ اميل اده أخذ رئاسة الوزارة، وكان أعلنها حرباً شعواء على ذلك الرجل الكبير الذي كـان لوقت مـا معلِّمَـه فـي مكتبـه الشهير للمحاماة!.

وزاد في حفيظة اميل اده التفاف فئة مـن وجـهاء بـيروت حـول بشـارة الخـوري، «هذا الدخيل الجبلي»، على قول أهل الحي السرسقي يومئذ، وهو الحـي الـذي ينتمـي الأستاذ اده إليه، فهو زوج إحدى كريمات ذلك الحي، من السيدات الكاملات الأوصاف والمزايا في هذه البلاد.

نريد أن نقول: وأحاط ميشال شيحا العالم العلاّمة ومدير البنك المحترم والكاتب الألمعي بشارة الخوري من اليمين، وأحاطه مـن اليسـار هـنري فرعـون وجيـه الكاثوليك بالبلاد، المليونير الجريء المعروف، وصاحب المكانـة فـي عـالم الرياضـة وحيـاة الأنديـة الاجتماعية العالية، والأوساط القنصلية والشركات الكبرى، وما وراءه ووراء بنك شيحا من عناصر وأنصار وإمكانات قوية تجارية معروفة.

وفي مقدمة رجال الأعمـال الذيـن أحـاطوا ببشـارة الخـوري منذ السـاعة الأولـى أيضـاً آل كتانـة وفريـد شـقير المليونير المشـهور والفتـال، وعـدد كبـير مـن رجـال المـال والأعمال، وأخذوا يدورون بفلكه ويستبشرون ويرون فيه الشمس الطالعة!.

وكان هناك أيضاً أصـهار وأقـارب وأنسـاب آل شـيحا، الكثـيرون المعروفـون فـي عالم الوجاهة والقوة المالية، وغيرهم ممن تنتسب إليهم السيدة عقيلـة بشـارة الخـوري، مما جعل يومذاك لرئيس الوزارة الشاب هيئة أركان حرب قوية غنية وجيهة.

هذه الهيئة كان اميل اده وأوساطه منذ الأساس، ولتزاحم في الوجاهة، وقبل أن يصل الشيخ بشارة الخوري إلى الحكـم، لا يحبونـها ويتجنبونـها. إذ أن عـالم الأسـتاذ اده الاجتماعي كان بالأحرى عـالم طبقـة العـائلات الكبرى فـي الحـي السرسـقي، ذات الثراء الموروث، تتمتع عائلاته الكبيرة الاسم بثرواتها وتعيش بمعزل من هـذه الأمـة فـي حياة ترف وبذخ ومباهج، في الوقت الذي كان فيه عالم فرعـون وشـيحا وشـقير وكتانـة عالم الصناعة والتجارة والمصارف والشركات، وهدفه الرئيسي هو المتاجرات والسـباق في حلبة الأشغال.

وكـان هـذا العـالم ـ عـالم الأعمـال ـ الـذي أخـذ يحيـط ببشـارة الخـوري، النقطـة الحساسة التي جعلها الأستاذ اده في محاربة بشارة الخـوري نقطة الضعـف فـي هـذا الأخير، فأخذ أنصار الأستاذ اده في حملتهم التشهيرية على بشـارة الخـوري يسـمُّون عالمه بـ «الكونسرسيوم» المخيف، ناسبين إلى هذا الكونسرسيوم المتاجرة بالنفوذ.

وظل حزب اميل اده 25 سـنة بعـد ذلـك يلاحـق بشـارة الخـوري باتهاماتـه هـذه، حتى انقلبت الأيام أخيراً، واعتزل بشارة الخوري الحكم، وعاد إلى بيته.

وكان أول هجوم يومذاك على الشيخ بشارة الخوري كرئيس وزارة اتهامه يومئذ بأنه اسـتثمر مركـزه وسـهّل للسـادة فرعـون وشـيحا وشـقير ـ الأنسـباء الثلاثـة ـ شـراء أرض الحكومة المعروفة بأرض سكة الحجـاز علـى سـاحة البـرج، وذلـك بشـروط مفيـدة للكونسرسيوم، منها تشييدهم البناية التي ابتنوها فـوق تلـك الأرض، والتـي كـانت فـي وقتها أكبر بنايات بيروت، واستثمار هذه البناية لمدة مئة سـنة وأكثر، علـى أن ترجـع ـ لربما! ـ للحكومة بعد ذلك...

ـ 14 ـ

بين العروبة والفينيقية

خلال خمس وعشرين سنة تقريباً، عاش لبنان في سياسته ضمن إطار لرجلين، اميل اده وبشارة الخوري، وقد جعله صراعهما المتواصل ميدان قتال ومشادات أشغلت الأندية والسرايات والأوساط السياسية بأجمعها.

ولم يكن الأستاذ اده يريد أن يتصور أن هذا الشاب الهادئ الوديع الذي تمرن بمكتبه، هذا الجبلي «الغشيم» الذي لم يعش في ظلال الحي السرسقي، يمكنه أن يكون الأول بروما، وذلك في الوقت الذي كان فيه بشارة الخوري يعتبر أنه بعائلته المشهورة الكبيرة بين العائلات الجبلية، وبعلمه الوفير وأدبه الغزير، يمكنه أن يعتلي في بيروت إلى أعلى القمة، خصوصاً وحوله تلك المجموعة من الأنصار بين رجال الأعمال البيروتيين.

وفعلاً، ما تولى الشيخ بشارة رئاسة الوزارة في أيار 1927، حتى ظهرت فيه صفات كانت مجهولة قبلاً، بالنظر لطبيعته المتكتمة، ولميزة السكوت التي كانت تلازمه.

وأخذ يأتي إلى المجلس النيابي - في أشد الأزمات - هادئاً رصيناً يقبل برحابة صدر وبصبر غريب جميع تهجمات وحملات بعض النواب عليه، وأخصها التي كانت تأتي من جانب المصارع الآخر اميل اده.

وكان يظل ساكتاً، دون أن يبدو عليه التأثر، حتى تمر أمامه فرصة مؤاتية، فينتهزها، ويقول كلمة محكمة تكون فصل الخطاب، وهكذا كان يخرج من المجلس منتصراً في أغلب الأحيان.

وكان الشيخ محمد الجسر أول من عرف في هذا السياسي الناشئ رجل المستقبل. وقال مرة للأستاذ اده بعد جلسة نيابية أظهر فيها بشارة الخوري سعة صدر غريبة:

- أرى هذا الجبلي القروي يطلع على السطح بعجلة وسرعة.. وأخشى أن يصعب علينا كسر السلم قبل أن يسد علينا باب السطح.

ولا أعرف إذا كان الشيخ محمد الجسر - هو الآخر - يخشى من صعود بشارة الخوري، أو أنه يقول ذلك للأستاذ اميل اده توددأ إليه فقط.

ولكن الذي أعرفه أن الشيخ محمد الجسر كان يميل للأستاذ اده أكثر من ميله لبشارة الخوري، وظل هكذا حتى الساعة الأخيرة، وقد يكون ذلك لأن الأستاذ اميل اده كان صديقه وعشير صباه.

وكان سماحته يحاول أن يجعل لكلمة الأستاذ اده في المجلس مكانة أكبر من كلمة الشيخ بشارة الخوري، غير أن بشارة الخوري كان في رئاسته للوزارة[1]، يعرف كيف يجعل سياسته تتجانس وتتناسق مع سياسة المفوضية السامية، ومع سياسة رئيس الجمهورية، بطريقة استطاع بها أن يتحاشى كل خلاف يمكنه أن يقع بينها وبين ذينك المرجعين الرئيسيين.

في حين أن رئاسة اميل اده للوزارة، جعلته يسارع منذ استلامه الحكم إلى استفزاز غضب المفوضية ورئاسة الجمهورية معاً. ويرجع ذلك إلى الروح العاصية والإرادة الجامحة اللتين كان الأستاذ اميل اده يتحلى بهما.

والواقع أنه لما تولى اميل اده رئاسة الوزارة، بدأت المشاحنات حالاً بينه وبين المفوضية ورئاسة الجمهورية، إذ أراد حضرته أن يقلب الأوضاع رأساً على عقب.. وقد أحدث ضجة بعزل عدد كبير من الموظفين، وفي تعديل مناهج التعليم في وزارة المعارف لصالح البعثات الدينية الأجنبية المسيحية، وفي استبعاد سياسة الدولة عن العرب والعروبة، إذ أن اميل اده كان يفهم لبنانيته مستقلة متعصبة، لا يريد لها نسيباً ولا قريباً!

وكان اميل اده يتكلم علناً ضد عروبة لبنان، بينما كان الرجل الرابع، بفضل دهائه السياسي ونفسه الكتومة، يتحاشى دوماً الخوض في موضوع موقف لبنان من البلدان العربية. وإذا اضطرته الظروف لخوض الموضوع، فإنه كان يقول أشياء تناسب نزعات الحضور الذين يسمعونه وترضي المقام الديني الذي ينتمي إليه سامعوه. وهكذا كان الشيخ بشارة دوماً يتجنب الجزم في الموضوع، فلا يتحدى النصراني ولا يتحدى المسلم، بينما كان اميل اده يقول رأيه بصورة كاسرة.

---

(1) تحت ضغط المعارضة التي يقودها الأستاذ اميل اده، استقالت وزارة الشيخ بشارة الخوري الثانية في 11 تشرين الأول سنة 1929، فخلفتها وزارة برئاسة الأستاذ اميل اده، ظلت في الحكم من 12 تشرين الأول سنة 1929 إلى 20 شباط 1930.

وهذا ما جعل المسلمين في لبنان والبلدان العربية يطمئنون إلى الشيخ بشارة أكثر من اطمئنانهم إلى أي ماروني غيره، خصوصاً وأنه لم يكن بإمكانهم أن يطمئنوا إلى الأستاذ اده، وهو أول من خرج على الناس بأسطورة الأصل الفينيقي للبنانيين، زاعماً أنهم ما كانوا، ولا مرة، عرباً ولا مستعربين.

وكان يأتي بأدلة مستندة على قدر ما يمكن للتاريخ - خصوصاً القديم منه - إثباته من أقواله، وراح يتعاون مع مجلة «فينيقيا» التي أنشأها الشاعر المعروف باللغة بالفرنسية شارل القرم، وراحت تبث الدعاية لنشر النظرية الفينيقية بين اللبنانيين.

وحاول الكثيرون من القائلين بالعروبة يومئذٍ دحض انتماء اللبنانيين للفينيقية. وكان أول من اهتم للقضية ذاك السياسي الشاب الآخر رياض الصلح. وهو الذي اكتشف بالمناسبة في دائرة معارف «لاروس» الفرنسية، أن الفينيقيين عرب أقحاح، جاؤوا من نجد في الجزيرة العربية، واستوطنوا شواطئ البحر الأبيض المتوسط وسموا أنفسهم فينيقيين، وأقاموا لأنفسهم مملكة كبيرة، فتحت البحار وغزت شمالي أفريقية وابتنت قرطجنة واخترعت الألف باء، والأرجوان.

وفي وسط هذا الخصام بين الجانبين، لم يسوِّد الشيخ بشارة الخوري وجهه ولا مرة بالقول مع المسلمين إنّ لبنان غير عربي، كما وأنه لم يفضح نفسه أمام الكنائس والأديرة بالقول إنّ لبنان عربي محض.

* * *

وعندما كان الأستاذ اميل اده رئيس وزارة جعلت بعض أعماله تثبت للمسلمين في لبنان أنه يعمل سياسة لبنانية اعتزالية محضة. ومعنى السياسة اللبنانية المحضة جعل الحكومة اللبنانية ترتدي الطقم الفرنجي المسيحي أكثر من ارتداء العباءة العربية.

وذات صباح اجتمع المجلس النيابي، وأظهر عدم رضاه عن سياسة رئيس الوزارة الانعزالية، التي تغضب المسلمين وحلفاءهم الأرثوذكس، كما تغضب عدداً من الموارنة من غير أنصاره.

وأحس الناس حالاً أن الرجل الرابع يشتغل من وراء الستار، مع تظاهره بالتزام الحياد، منذ اليوم الذي صار فيه الأستاذ اده رئيس وزارة، وأنه هو الذي يثير عليه الآن العناصر الإسلامية في المجلس، يضمها إلى بعض النواب الموارنة الذين يماشونه.

وكان بشارة الخوري قد ترك حماس اده للبنانية الانعزالية يتزايد ويقوى حتى جعله أخيراً يخرب ويهدم رئاسته بيده.

* * *

وجاء الوقت الذي وجد فيه رئيس الوزارة أكثريته في المجلس تنقلب إلى أقلية[1].

فاعتزل، ولكنه اعتزل غاضباً حانقاً، بعكس الرجل الرابع الذي ترك الوزارة مبتسماً ساكناً..

وغضبُ وحنقُ الأستاذ اده، هما اللذان جعلا الناس الذين كانوا يعتبرون - ولا يزالون يعتبرون - الأستاذ اده من أكبر الرجال، ينسبون إليه أيضاً المرض الذي أصاب الدباس، وأصاب من بعده كل رئيس وزارة أو رئيس جمهورية في هذه البلاد: وهو مرض عدم معرفة الذهاب بابتسامة وسكون.

* * *

وقامت يومئذٍ ظاهرة كان لها معناها الكبير في هذه المناسبة التي كانت قائمة.

ذلك أن رئيس الجمهورية الدباس كلف الأستاذ اده بعد استقالته بتأليف الوزارة عن جديد - كما يقتضيه العرف والعادة. ولكن استعصى الأمر على ذلك الرجل الكبير، مما جعله يحاول استعمال شتى الطرق لتشكيل وزارة جديدة، بأية طريقة كانت، وبأي عدد كان نكاية بخصمه.

واستعصى عليه الأمر جداً: فحاول أن يؤلف وزارة من 14 و16 وزيراً، من مجلس لم يكن فيه أكثر من أربعين نائباً، وذلك ليرضي أكبر عدد من النواب، ومع ذلك لم ينجح[2].

وفي تلك الأيام، لم يكن أحد يجسر في بلد ناشئ عدد سكانه مليون، وكان بالأمس متصرفية صغيرة من الدولة العثمانية، أن يؤلف وزارة تزيد عن الأربعة أو الخمسة وزراء...

---

(1) خذل المجلس النيابي وزارة اده في 20 شباط 1930، فاضطرت إلى الاستقالة.

(2) ظلت الأزمة الوزارية مفتوحة مدة أسبوعين في جو مكفهر، فلما فشل اده في تأليف الوزارة من جديد، ألفها أوغست باشا أديب في 5 آذار 1930.

- 15 -

جورج لطف الله: المرشح لعرش لبنان!

مضت رئاسة الدباس الأولى بسلام، من سنة 1926 إلى 1929. ولعلها الرئاسة الوحيدة التي لم يكن لها قصة - اللهم إذا حسبنا قصة الأمير جورج لطف الله قصة!

وإنها لقصة طريفة، وغنية، ومضحكة. وكان يغذيها نهر من الجنيهات.

وعند الفرنسيين مثل مأثور يقول: «هناك رب للفقراء!».

ونقول بالمناسبة: هناك رب للصحافيين والسياسيين!

وهو ذاك الرب الذي جاء بالأمير جورج لطف الله إلى هذه البلاد، يطلب رئاسة، ثم عرشا!

كان ذلك قبل نهاية ولاية الدباس الأولى بأشهر، ولم يكن حتى ذلك الوقت، أحد يقول بترشيح نفسه للرئاسة.

إذ أن الرئاسة كانت ملكاً للمفوض السامي، يعطيها لمن يشاء. وكان المجلس النيابي ينتخب الرئيس اسمياً، ولكن المفوض السامي كان يحكم بالمجلس النيابي كما يريد ويشاء، ما دام يستطيع، ليس فقط أن يوقف قرارات المجلس، بل أن يرسله إلى بيته بدون أن يكون مجبوراً أن يعين سبباً لذلك!

ولم يكن أحد قد تكلم عن الملكية في لبنان، قبل ذلك بطريقة صريحة، منذ انفصاله عن تركيا، غير رجل مستنير مؤمن بما كان يقول، هو الأستاذ حبيب البستاني، الذي كان عنده نشاط وشغب وعنف ابن عمه معاصرنا الآن النائب اميل البستاني، ولكن لم يكن عنده ملايينه!

وكان يقول إنه أنشأ حزباً بالبلاد يطالب بملكية بلبنان لا جمهوريته، يكون الملك فيها أجنبياً مسيحياً - كما كان متصرف جبل لبنان يوم كان لا يزال ولاية تابعة للسيادة العثمانية!

ولكن تبين بعد ذلك أن ذاك الحزب الملكي كان مؤلفاً فقط من صاحبه كرئيس وكنائب رئيس وكأعضاء...

ومات حبيب البستاني، وأخذ حزبه معه، وما عاد أحد تكلم عن الملكية في لبنان بعد ذلك حتى أظهر ذات يوم الخديوي عباس، وقد كان لاجئاً في سويسرا، بعد أن أخرجه الإنكليز من مصر أنه يريد شراء عرش بلبنان!

وجاء عمال له يتحدثون عن الأموال التي سيصرفها عندنا في هذا السبيل.

ولقد عرضوا علينا المشروع، وعرضوا منافعه وميزات مكانة سمو الخديوي، واستعداداته الطيبة للدفع. ولكنهم لم يعرضوا فعلاً شيئاً من جنيهاته، مما جعل الناس يعرضون بسرعة عنه وعن مشروعه.

وهنا يجب أن نروي قصة الأمير...

القصة التي أضحكت البلد زمناً وأغنت عدداً كبيراً من المشتغلين بالسياسة. وقد كانت قصة ذهبية لما رمى فيها الأمير جورج لطف الله من مال!

... ولما حام حولها من شبهات وطرائف، ولما ظهر فيها عند أكثر السياسيين من جشع، وكذلك لما أظهره الشيخ محمد الجسر وبعض نوابه من الاستخفاف بالمال.

ولكن كيف كانت حكاية ترشيح الأمير جورج لطف الله لرئاسة الجمهورية، وقد كان يقول عنها:

- طبعاً سأعمل مثل نابوليون الثالث: الرئاسة ستكون عندي طريق العرش!

* * *

في هذه القصة أشياء تكاد لا تصدق. وفيها مشاهد من حكايات ألف ليلة وليلة، مال وحسان، ومبارزات، وليال رومانية، وأنهر من اللآلىء والذهب، ودسائس ومشاغبات... وتزوير في وزارة الخارجية بباريس، وشيخ معمم رئيس مجلس نيابي بلبنان، يضيع أكبر فرصة للإثراء والسعة، في الوقت الذي كان فيه أكثر زعماء السياسة بلبنان يتصدون لانتهاز الفرصة الصحيحة، وللتعرف إلى كنوز هذا الأمير الذي ترسله السماء إلينا!

* * *

اجتمع ذات مساء، في مطلع العام 1929، بعض الصحافيين ورجال السياسة اللبنانيين، من أهل المتاجرة والتملق، حول مائدة سخية في قصر الجزيرة بالقاهرة. وكان صاحب القصر الأمير جورج لطف الله يرأسها.

جاؤوا كالعادة، يرسلون المدائح والإطراء لصاحب القصر، الذي كان حساساً كثيراً من هذا الجانب، مما كان يجعله يغدق النعم على هؤلاء الأساتذة في فن الكلام!

كان ضعيفاً جداً أمام التمداح والثناء، مع أنه كان جباراً ومغرياً بعضلاته القوية، ذا شعر مبعثر حالك السواد، ولون أسمر حادق.

وكان مليونيراً كبيراً، من وراء ثروة كان والده قد وضع قاعدتها عندما هاجر من لبنان لمصر، حيث استطاع أن يربط مصيره بمصير الخديوي عباس المالك يومذاك...

وعندما كبرت ثروة الرجل، وكان مصاباً بمرض العظمة - وهو مرض أصاب أنجاله من بعده بطريقة أقوى وأشد - قلنا وعندما كبرت ثروته، ابتاع القصر التاريخي الجميل المدعو بقصر الجزيرة في ضواحي مصر، وجعله مقراً لسكناه ومنزلاً لضيافة عظماء الأرض وكبارهم.

وكان الخديوي إسماعيل قد ابتنى هذا القصر بسرعة وبكرم عظيمين لتنزل فيه الإمبراطورة أوجيني الحسناء عندما تأتي لمصر مع ملوك أوروبا، تدشن افتتاح قناة السويس، فلا يتبدل عليها شيء، في قصر الجزيرة مما هو في قصر التويلري بباريس، حتى الفراش والشراشف والمرايات وأواني الزينة وباقي مفروشات القصر.

ويقال بالمناسبة إن الخديوي إسماعيل جعل في جدران غرفة نوم الإمبراطورة وحمّامها ثقوباً خفية، يستطيع أن يمتع أنظاره بعري أوجيني دي مونتجو، الساحرة الجذابة.

وعاش مواطننا المهاجر الثري في ذلك القصر مع أنجاله الأربعة، ذوي القامات الجبارة، يتنشقون في جنباته هواء العظمة والجاه، وهو الهواء الذي كان يسكرهم ويضيع توازنهم ويجعلهم يحلمون بالعروش.

وتلك الليلة، حول تلك المائدة الفاخرة كان جماعة المتملقين النبهاء من ساسة وصحافيين - وأكثرهم لبنانيون - يحيطون بالأمير جورج لطف الله.

وكانت الإمارة قد أخذها والده من الملك حسين بن علي، عندما اعتلى هذا الأخير عرش الحجاز في الحرب الكونية الأولى، فانضم حبيب لطف الله الكبير مع أولاده إليه، ينادون بالعروبة ويجاهدون بجانبه حاملين له هدايا ثمينة وأموالاً طائلة وضعوها في خدمة عرشه، مما جعله يقربهم إليه ويعطيهم لقب الإمارة.

وكان الحديث على المائدة طريفاً وظريفاً، وكل من الحضور يفتش عن أفضل الطرائف يقولها لسيد المكان حتى خطر فجأة خاطر جديد لأحدهم، هو المرحوم أنطون الجميل، رئيس تحرير «الأهرام» يومئذٍ، وقال بمناسبة الحديث عن الجمهورية اللبنانية الجديدة، وقيامها بالطريقة الارتجالية التي جرت:

- ولماذا لا يتكلمون في بلادنا لبنان عن عرش وملك؟ فإنما كل أيامنا عندنا عرش وإمارة...

ولمعت عينا الأمير، وظهرت على فمه ابتسامة عريضة، وضرب بقبضته القوية على المائدة، فاهتزت الأطباق والملاعق وطار الديك الرومي في الفضاء، وقال:

- إذا كان ليس هناك أحد في لبنان يتكلم عن عرش وإمارة فأنا سأتكلم عنهما!

وعندئذٍ انتهز المدعوون، الذين كانوا قد احتسوا الخمور الفاخرة النادرة، فرصة ما أثاره هذا الحديث عند الأمير من أطماع، فراحوا يباحثونه فيه ويؤكدون له إمكان تحقيق تلك الأمنية، وأنه الوحيد الذي يليق به العرش، وليس غيره أهلاً لأن يكون أميراً بلبنان!

وما انتهت الهيئة، إلا وكان الأمير جورج لطف الله يعتبر نهائياً أنه صار أميراً أو ملكاً بلبنان. وكان إيمانه بذلك مطلقاً؛ لدرجة قيل إنه في اليوم الثاني أرسل يستحضر رسوماً عن صور تيجان الملوك وصولجاناتهم وعروشهم، ليوصي على أفضل تاج وصولجان وعرش للمملكة المنشودة!

وبعد أيام من ذلك، صار قصر الجزيرة ملتقى تجار السياسة وأهل الدعايات والمغامرات، فضلاً عن جيش من الصحافيين العاملين في أسواق الاستثمارات السياسية، يقومون بالبروبغندا اللازمة للأمير.

وبالغت الدعوة له مبالغات مستغربة، حتى أن بعضهم - وبمذكرات مطبوعة - أرجع الأمير جورج لطف الله عشرة أجيال إلى الوراء، ووجد له محتداً ملكياً قديماً جداً، وجعله سليل بيت مالك عظيم في بلاد المشرق، وصوره للناس داهية وعبقرياً في العلم والسياسة والأدب، وأميراً من أمراء ألف ليلة وليلة، بلغت مكارمه الحد الأعلى في المنح والعطاءات والهدايا التي يقدمها، حتى أنه أغرق مئات الحسان بأنهر من الماس والجواهر!

وطبعاً، كما قلنا أعلاه، كان مرض العظمة والتفشير قديماً جداً في أشقائه أيضاً. فكان كل منهم له جنون جديد يشابه جنون أخيه، اللهم إلا واحداً منهم، هو الأمير ميشال.

وأذكر أن أحدهم - وقد كان في البداية وزيراً للملك حسين في روما - أنعم ذات مساء على نفسه بلقب مارشال، فارتدى بزة عسكرية مذهبة ذات نجوم وسيوف عديدة، وأخذ يعرض خدماته على حكومة بولندا، التي كانت يومئذٍ في خصام مع روسيا البولشفية!

وأكد أنه مستعد أن يقدم لها فرقة الخيالة الصحراوية البالغة مائة ألف فارس، التي أنشأها في الجزيرة العربية، وهو قائدها الأعلى!

* * *

وبدأ الأمير جورج لطف الله حالاً اتصالاته بوزارة الخارجية الفرنسية، مدركاً أن هذه الوزارة هي التي يمكنها أن تعمله رئيساً للجمهورية عن طريق مفوضيتها السامية ببيروت، ثم بعد ذلك يبقى يمشي وحده نحو الإمارة، ومن بعدها نحو الملكية!

وسافر الأمير إلى باريس قبل أن يأتي لبيروت!

وهناك في وليمة كبرى أقامها على شرف سكرتير وزارة الخارجية أخفى عقداً من اللؤلؤ، نادر المثال، ثميناً جداً، ضمن منشفة السفرة فوق طبق الطعام المعد لزوجة السكرتير العام.

وكانت دهشة السيدة عظيمة جداً عندما جلست إلى المائدة، واكتشفت هذا الكنز الثمين، ولم تستطع إخفاءه بالرشاقة اللازمة، مما جعل أكثر الصحافيين الحاضرين يتحدثون في اليوم الثاني عن ذلك العقد.

وطبعاً عدا عن العقد دفع الأمير بباريس لسماسرة العروش ما دفع، ومنها الثلاثين ألف جنيه التي أعطاها لموظف كبير في وزارة الخارجية، مقابل كتاب حمله من باريس عليه توقيع سكرتير الوزارة العام، يطلب فيه السكرتير العام باسم الوزارة، إلى المفوض السامي الفرنسي ببيروت، مساعدة الأمير جورج لطف الله ليكون رئيساً للجمهورية اللبنانية!

وطبعاً، اتضح بعد ذلك أن الكتاب كان مزوراً، وأن الموظف الكبير في وزارة الخارجية الفرنسية ضحك على الأمير وأخذ المال، وأعطاه ذلك الكتاب بعد أن مهره

بخاتم الوزارة فقط... مما هو سهل عمله على كل موظف فيها، يستطيع دخول مكتب السكرتير العام.

وكان المفوض السامي قد عرف حالاً بالتزوير، ولم يفضح الأمر محافظة على سمعة وزارته بباريس. ولكن الأمير ظل حتى الساعة الأخيرة لا يعرف أن الكتاب كان مزوراً، لهذا كان مدهوشاً جداً من موقف المفوض السامي ضده بعد ذلك، ومتابعته مساعدته للدباس على تجديد رئاسته!

* * *

قلنا، حمل الأمير جورج لطف الله كتاب وزارة الخارجية، وقد تخيل أنه المصعد الذي سيصعد به إلى الرئاسة ثم العرش، وجاء لبيروت بطبل وزمر، تتقدمه حاشية من السكرتيرية والخدم السود والدعاة والصحافيين، وذلك بعد أن نظم عماله له هنا مهرجان استقبال عظيما.

ونزل في قصر سرسقي استأجره بأغلى الأثمان، وكان أول ما اعتنى به ساعة وصوله أنه سحب من المصارف، وبطريقة علم بها الناس، أموالاً كبيرة. ثم استخدم عنده أمهر وأحذق طباخ في ذلك الزمان، طانيوس الشمالي، الأستاذ الأكبر في علم الطعام بالأمس، وصاحب محلات وفنادق طانيوس الشهيرة الآن.

وكان الأمير يعرف - عن حق - أن هناك شيئين أساسيين يمكن بهما جلب الناس إليه: بطنهم وجيبهم، أي الطعام الشهي والذهب.

وفتح أبواب القصر على مصراعيه، يدخله الناس بين سياجين من الخدم الزنوج، المرتدين الأثواب المزركشة، ذات الألوان الصارخة، واتخذ له ديواناً في إحدى غرف القصر، حيث وضع مقابل المكان الذي يجلس فيه الزائرون صندوقاً حديدياً عظيماً، يفتحه دوماً وبطريقة حاذقة - عند المناسبات، فيشاهد زواره أكداساً من الذهب والجواهر، ليس لها مثيل حتى في أفلام السينما..، فيسيل لعابهم وتضعف نزاهتهم.

وهاتوا أخباراً حسنة ووعوداً جميلة عن الرئاسة لسُمُوِّه وخذوا جنيهات...

وكنت أنا شخصياً قد أعطيت الأمير ألقاباً كبيرة جداً، ومنها لقب «مونسنيور»، ولقب المونسنيور - سياسياً - يعطى فقط للأمراء المالكين، أو المنحدرين من أصل ملكي.

ويتساءل القارئ طبعاً كم كلف هذا اللقب، وكم دفع الأمير ثمنه؟

ولكن لم يكن هناك بيننا وبين سموه كلفة في هـذا المعنى، فقد كان كريماً وكنا نستاهل!

لقد كان كريماً معنا ـ كما كان كريماً مع جميع الصحافيين الكبار في هذه البلاد، الذين كانوا يجتمعون كل ليلة على مائدته الشهية، ويعللونه بالآمال، حتى في الأوقات التي تكون الآمال برئاسته قد ماتت تماما!

وهؤلاء الصحافيون الذين كان بينهم من يصلي بالنهار ويفخر على العالم بتجرده ونزاهته، ومع ذلك يبيع نفسه بالليل ـ هؤلاء لم يكن بإمكانهم بعد أن انتهت حكاية الأمير، أن ينكروا أنهم كانوا دعاته المأجورين ـ وذلك عندما أقام عليهم الأمير الدعوى بعد أن خسر المعركة نهائياً، يطالبهم فيها بإرجاع المال الذي كانوا يأخذونه منه. ونذكر من هؤلاء الزملاء جبران التويني، خليل كسيب، جبرايل خباز، خير الدين الأحدب، محمد اليافي، نحن وغيرنا.

ويجب القول إن كل واحد منا مدين بوقف الملاحقة القضائية ضده للرجل نفسه الذي كان جورج لطف الله قد كلفه بإقامة الدعوى، وهو الأستاذ الكبير عبد الله اليافي، الذي اكتسب منذ ذلك الحين صداقة الصحافيين، ومن هذا تبين له ـ كما كان يقول دوماً ـ أن صداقة الصحافيين لا تأتي أبداً مجانا!

وكان ديوان الشيخ محمد الجسر في ذلك الحين أظرف ديوان وألبقه، يجتمع فيه كل صباح أهل الروح من ساسة وصحافيين، يتناولون الطرائف والظرائف ومعظمها عن الأمير جورج لطف الله وأخباره المبجلة ومغامراته السياسية والعاطفية، التي كانت تلعب فيها حسان معروفات أدواراً مغرية، مقابل أجور باهظة وهدايا ثمينة، عدا عن أن الأمير ـ وقد كان جواداً جموحاً قوياً ـ كان كذلك الأمير يفتش بين نصيراته كثيراً عن إرواء غليله من محاسنهن.

وكان ذات يوم ديوان الشيخ محمد يغص بالنواب وأهل السياسة واللطافة، وبينهم الأستاذ اميل اده الذي اتصف دوماً بفكاهة لسانه وظريف حديثه. وسألنا حضرته، وكنا نفراً من الصحافيين، كيف أننا أمضينا أوراقاً مقابل المال الذي كنا نأخذه من جورج لطف الله. واستأذنا بالجواب من الرفاق الأكارم ـ ولا ننسى لا الخباز ولا كسيب ولا التويني، ولا بشارة الخوري الشاعر ولا شبلي الملاط، ولا باقي أسياد الصحافة الذين كانوا حضوراً، وقُلنا:

ـ ولكن الحساب بيننا وبين الأمير سددناه ألقاباً وتمداحاً وأشعاراً وبروبغندا.

ومع ذلك، ماذا يمكنه أن يسترجع منا غير الذي أورثنا إياه الوالد؟

وكان هذا الكلام بعد أن غادر الأمير البلاد طبعا.

ولا شك أن رئاسته كادت تتحقق، لكثرة ما اشترى الأمير رجالاً ودعاةً، لو أن الشيخ محمد الجسر ـ الذي كان خصم الأمير ـ رضي بالثلاثين ألف جنيه، التي حملناها له نقداً وعداً، من أوراق المئة جنيه المصرية ـ حملناها أنا وسكرتير الأمير، المدعو جورج خوري، في الهزيع الأول من ذات ليلة، ورفضها الشيخ رفضاً باتا!

ولكن لماذا؟

لأنه كان وحده لا يزال في هذه الجمهورية السعيدة يؤمن أولاً بالنزاهة، ثم يؤمن ثانياً بالمفوض السامي، الذي كان قد طلب منه منع المجلس من انتخاب جورج لطف الله رئيساً. وتأمين تجديد الرئاسة للدباس.

والآن، لا يجب أن يتساءل القراء إذا كنا أنا وجورج، قد أرجعنا الثلاثين ألف جنيه، كاملة كما أخذناها!

هكذا انتهت مغامرة أمير قصر الجزيرة. ولكننا أثناءها عرفنا أن الكثيرين من كبار زعماء السياسة وأركانها العالية، وبينهم أحبار من أمراء الدين في البلد، الذين كانوا يفتخرون أمامنا بالتجرد والنزاهة والكرامة، كانوا قد تعرفوا كثيراً على صناديق جورج لطف الله. ولكنهم لم يكونوا صريحين كما كنا نحن، بل كان عندهم الوقاحة لأن ينكروا كل ما كانوا يعرفون أننا نعرفه عنهم!

أسهبنا في هذا الحديث لنقول تماماً للجيل الحاضر، ولأصحاب الانقلاب الأخير بلبنان، الذين يدَّعون أن الفساد وُلِد بعد الاستقلال ـ أسهبنا لنقول لهم إنَّ الفساد قديم جداً، وقد كان في عهد الجمهورية الأولى، كما كان ـ وكما هو ـ في عهد الجمهوريات الثلاث التي تبعت. وسيبقى هكذا في الجمهوريات الأخرى التي ستتبع طالما أن بيروت هي بيروت، والجبل هو الجبل...

وجل ما هناك أن الأشياء كانت تجري في السابق بنوع من الظرف والكتمان، ولم تكن العين قد وصلت للوقاحة التي هي فيها الآن!

- 16 -

الثالوث العربي ومؤتمر الساحل

كان في ذلك الزمان، ثلاثة من أزهى وأقوى وأذكى فتيان المسلمين ببيروت يجتمعون اجتماعات متواصلة في إدارة الصحيفة التي كانوا يتعاونون على إصدارها.

وكان رياض الصلح أحدهم وقد عاد حديثاً من المنفى الذي اضطره الفرنسيون للذهاب إليه كما أنهم اضطروه بعد ذلك للذهاب إلى المنفى مراراً عديدة.

وكان رياض الصلح بعد عودته من منفاه الأول، قد عقد هدنة مع الفرنسيين على أن لا يشتغل بالسياسة.

وأين كان منفاه بالأكثر، في كل مرة أبعده فيها الفرنسيون عن بلاده؟ كان منفاه باريس!

كان يهرب من مطاردة الفرنسيين في بيروت وينزل عليهم ضيفاً في عاصمتهم!

وكان رياض الصلح، وهو بباريس يغتنم دوماً المناسبات ليتعرَّف إلى كبار السياسيين الفرنسيين، وليخلق بينهم أصدقاء - إن لم يكن للقضية التي كان يشتغل لها - فعلى الأقل لنفسه، ولشخصيته الفذة التي كان لها - بنظر الفرنسيين - ذلك الرأسمال الأكبر للرجال السياسيين، وهي الظرافة وفكاهة الكلام. فإنما دوماً في فرنسا كان الرجل الظريف يشق طريقه ويسبق كل رجل آخر مهما كان عبقريا.

وكان رياض الصلح يتحلى بتلك الميزة، مقرونة بالنباهة وجمال الطلعة والاعتماد على النفس.

ومرة، بينما كان رياض الصلح منفياً - وبباريس كالعادة - وذلك لأنه كان يعمل ضد الفرنسيين في بيروت ودمشق، وقد أقسم المفوض السامي هنا أن يقطع رأسه - كان حضرته يتفق مع وزارة الخارجية الفرنسية لتقريب وجهات النظر بينها وبين الوطنيين التونسيين القائمين على الحماية الفرنسية يومذاك!

فهذا شيء وذاك شيء.

وكان اسم رياض الصلح أخذ يشع في العالم العربي، ويأخذ يوماً عن آخر اتساعاً أكبر وأقوى.

* * *

وعندما عاد تلك المرة لبيروت، اتخذ له مقراً إدارة تلك الجريدة - جريدة «العهد الجديد» - لصاحبها ذاك الذي كان أيضاً مكتوباً له أن يصبح فجأة داهية من الدهاة اللبنانيين، ورئيس وزارة من أقوى رؤساء الوزارات الذين عرفناهم.

هو خير الدين الأحدب.

خير الدين الأحدب الذي كان في جريدته «العهد الجديد» يشكو من شيئين:

أولاً - من التزاحم الذي قام بينه وبين رياض الصلح في عالم السياسة وزعامة الأحياء واكتساب القبضايات ببيروت، مع بقائهما صديقين حميمين. وكان رياض الصلح قد سبقه كثيراً في هذا المضمار.

ثانياً - من الضائقة المالية التي كان دوماً يشكو منها، وذلك من وراء إسرافه وسخائه واشتغاله المستديم بالسياسة، ودعوته للوحدة العربية، التي كانت يومذاك مع رياض الصلح، ومع الرفيق الثالث صلاح عثمان بيهم يحملون لواءها، ويزاحمون فيها جماعة مؤتمر الساحل المعروف الذي كان يترأسه الوجيه الكبير سليم علي سلام.

وكان المؤتمر مؤلفاً من وجهاء بيروت للمسلمين الأصليين الذين أخذوا يهولون بمؤتمرهم على الفرنسيين، ويقولون بضم طرابلس وجبل عامل ونصف البقاع لسوريا.

وهكذا كانت سياسة رياض الصلح ورفيقَيه الآخرَيْن أوسع من سياسة مؤتمر الساحل بكثير.

كانت سياستهم عربية شاملة تقول بإمبراطورية تبدأ من حدود طهران وتنتهي في عريش مصر.

* * *

ووجهاء بيروت المسلمون كانوا دوماً، وبنوع خاص، يتأثرون من كل وجاهة أو سيادة تدخل عليهم في بيروت وتقاسمهم النفوذ، وليس من جبل لبنان فقط، بل حتى من طرابلس أو صيدا أو غيرها من المدن الإسلامية اللبنانية.

فإنما عندما جاء الصلحيون من صيدا لبيروت، اقتطعوا لنفسهم وجاهة أخذت تزداد اتساعاً وتوسعاً يوماً بعد يوم بازدياد عدد المتعلمين بينهم، تساعدهم في السير إلى الأمام فطرتهم الذكية التي تفرَّدوا بها كمجموع، وكأنهم بأجمعهم اتخذوا لهم السياسة مهنة وتوجيهاً، فانصرفوا إليها يجدون فيها مجالاً وسيعاً للظهور، في وقت كانت تمر فيه الأسر الإسلامية البيروتية مرور عدم الاكتراث بالأمور العامة.

... وهكذا أخذوا في تحقيق الكثير من أطماعهم ومشاغباتهم - قلنا «ومشاغباتهم»، إذ تتساوى عندهم الروح الوطنية مع الروح الثائرة التي لها نشاط غريب ولذة قوية في خلق المشاكل وفتح الأبواب الخطرة. وعلى هذا النسق كان لابد لهؤلاء الدخلاء الكبراء أن يزعجوا الأسر الوجيهة الإسلامية الكبرى ببيروت، التي استمرت مدى عشرات السنين وحدها بالزعامة، مما جعلها تأخذ في التذمر من طغيان آل الصلح، وتشييدهم - هكذا وبسرعة - مكانة مرموقة في المدينة، مما هو ولا شك افتئات على وجاهة وزعامة تلك الأسر، ومما كان من شأنه أن يزيد التنافس الذي كان قد بدأ فعلاً مع ظهور رياض الصلح في عالم السياسة سنة 1920، عندما كان لا يزال في أوائل العمر شاباً جميلاً، يتصور الناظرون إليه أنه بالأكثر مُعَدٌّ لأن يشتغل في سبي الحسان، أو الظهور بطلاً في الأفلام، أكثر مما هو مُعَدٌّ ليشتغل في المشاكل السياسية والقضايا العامة.

وعلى هذا منذ ذلك الحين، أي منذ 25 سنة، وهذا التنافس يزداد خصوصاً والصلحيون ظلوا وما يزالون - حتى بعد مصرع زعيمهم الجميل رياض الصلح - لا يرتدعون ولا يرجعون خطوة إلى الوراء، ويقفون في وسط الطريق، يحاولون - وبعض الأحيان بنجاح - منع الماشين نحو الأمام من الوصول!

وهكذا تبقى الأسر البيروتية الأصلية يزعجها طغيان الصلحيين عليها، وإذا لم تظهر ذلك كثيراً، احتراماً لنفسها، فهي على الأقل بين بعضها البعض تشكو اغتصاب هؤلاء للوجاهة في السراي وفي المدينة.

وكانت هذه الأسر قد أخذت - من وراء هذا - تجد الأفضل لها الاعتزال في بيوتها، كيما لا تتلاقى كثيراً في الميدان العام مع هذه الجمهرة من أبناء الصلح، الذين جاؤوا لبيروت بطبل وزمر وبعقول راجحة وثقافة ممتازة ومبادئ ثورية وطنية وروح مغامرة لا يخيفها شيء، وجاؤوا خصوصاً بالقضية العربية التي أقاموا أنفسهم في لبنان حماة لها، وحاولوا احتكار الجهاد فيها، واستثمروها - إن لم يكن مادياً - فعلى الأقل سياسياً ووجاهةً حتى النهاية.

وقد ارتفع ذات يوم صوت التذمر من طغيان الصلحيين في مجلس ظريف لبعض أهل السياسة، بحضور الأمير مجيد أرسلان، وكان حضرته من المعجبين الدائمين

بالصلحيين - وذلك بمناسبة اشتداد وطأة هؤلاء في بيروت بعد الاستقلال، وإشادة الهياكل لرياض الصلح وصحبه، وتوجيه الصلحيين لأنفسهم وتوجيه الشيخ بشارة الخوري لهم إلى صدر المقام. وكان قد برز منهم في ميدان السياسة كذلك الأمر جمهرة جديدة كان أفرادها بالأمس تلامذة صغاراً في المدارس، وكان أيضاً سامي بك الصلح وقد ركب حصانه يوم راشيا، ونزل فارساً صنديداً يفتح بالقوة البرلمان الذي كان الفرنسيون قد أقفلوه. وكان تقي الدين الصلح قد وجد الميدان الفسيح لملاعيبه ومشاغباته وطرائفه ومغامراته، يحيط به الأخوان كاظم وعادل وعماد وأعمامهم وأبناء أعمامهم، وبأجمعهم جهابذة أقوياء، مما هو عدد كبير ونادر في أسرة واحدة بأجمعها تشتغل بالسياسة، مما جعل أيضاً الظرفاء يقولون هازلين: إنَّ كل غريب يصل للبلد ويكون حسن الهندام، برّاق العينين، ظريف الكلام، فشاراً متلاعباً جريئاً ومغامراً، يجب أن يكون من أبناء الصلح!

وكان عطوفة الأمير قد بلغ من حبه لآل الصلح وإعجابه بهم درجة جعلته داعية كبرى لهم، يمشي مع رياض حتى النهاية، ويكون عند مصرعه المفجوع الأكبر في هذه البلاد، حتى قيل وثبت أن الدموع التي ذرفها الأمير مجيد أرسلان على رياض الصلح تساوي في كميتها الدموع التي ذرفها باقي الناس عليه رحمه الله.

... وقال الأمير بمناسبة الشكوى من الطغيان الصلحي على السياسة ببيروت:

- وماذا نعمل في أصدقائنا كبار المدينة، إذا كانوا يقبعون مع وجاهتهم ضمن بيوتهم حردانين؟ وماذا نعمل إذا كان فرسان آل الصلح يرابطون بالشوارع والمجلس والسراي، يقطعون الطرقات بنباهتهم ونشاطهم على باقي الناس؟

- 17 -

عندما اكتشف الشيخ محمد عنتر خلده

ولكن، على ذكر الأمير مجيد أرسلان، متى دخل الأمير مجيد إلى ميدان السياسة والسراي، وجاء الناس يرددون أقواله؟

إن الأمير مجيد أرسلان صورة لبنانية مدهشة فريدة في بابها يجب أن تكون - كما كان يقول الجنرال سبيرز - صورة طبق الأصل عن الدروز الأولين الذين استوطنوا لبنان، واستطاعوا بالتهويل والسيف والترس والشوارب العالية والأسماء المطنطنة والتكاتف المذهبي، السيطرة على هذه الجبال، التي كانت دوماً عاصية.

وهل يجب أن نسبق مجرى هذا الكتاب، ونقول إننا الآن، في الزمن الذي وصلنا فيه في سياق هذا الحديث، أي في الوقت الذي كان الشيخ محمد الجسر برئاسة المجلس النيابي قد وصل لـلأوج في أمجاده حول سنة 1933 ويوم كان الدباس لا يـزال رئيساً للجمهورية - هبط من جبل لبنـان فتى يـافع، طويل القامة، قوي البنية، يكاد الشعر يخط شاربيه، اللذين اشتهرا بعد ذلك كثيراً عندما أخذا يرتفعان إلى الأعالي متحديين السماء وملائكتها - هبط هذا الفتي الصغير السن، الكبير القلب، إلى بيروت فجأة فاكتسح ساحة البرج وجعلها ميداناً له يتمشى على مصاطبه، ترافقه جمهرة من زله: بضعة فتيان أشداء من بني معروف، تقدح عيونهم شرراً وتنظر شزراً، تتسلى أيديهم بالتلاعب بقبضات مسدساتهم، يسيرون على بضع خطوات من أميرهم، والناس حولهم ينظرون إليه وإليهم باستغراب ودهشة، وقد اكتملت فيه هو جميع معالم البأس، حتى أن بدانته الطبيعية كانت أيضاً في هذه البلاد مظهراً من مظاهر قوة البأس، وشرطاً من شروطها.

وكان يزيد في جسامة جسده، المسدسات العديدة التي اعتاد على حملها، وله ذوق خاص بها، يحاول دوماً - في الظاهر - أن يخفيها عن العيان بوداعة، وذلك تحت بزته الحسنة الهندام، ولكنه في الوقت نفسه يعمل على استلفات نظر الناس إليها!

ويمكن القول إن الأمير مجيد أرسلان يملك الآن أجمل مجموعة مسدسات، و«تومي غن» وخناجر وسيوف بين الأفراد، جاءت أكثرها هدايا من الأصدقاء والسياسيين اللبنانيين الذين يسوحون في أوروبا وأميركا، وكل واحد منهم يرى من

واجبه أن يعود بهدية للأمير مجيد.. ولم يكن يحتار كثيراً في أية هدية ينتقيها، بل حالاً كان يبتاع مسدساً أو بندقية أو أي سلاح ناري، من طراز جديد، مما يشكل اليوم أكبر «جبخانة» خصوصية في هذه البلاد!

وهكذا نجد في قصر الأمير بعاليه، وفي قصر خلده غرفة للسلاح، جدرانها ترزح تحت أثقال البنادق والمسدسات المعلقة عليها.

* * *

وكثيراً ما كان الأمير يظهر في بيروت - تكملة للعدة الحربية التي كان يحملها - متجزماً جزمة طويلة الساقين، لماعة براقة دوماً، ومرتدياً سروالاً حرائرياً وسيعاً، وعلى رأسه الكبير كوفية وعقال مذهبان، وهو لباس يليق به كفارس مغوار. ويقول دوماً للذين يستغربون شواربه المناطحة للسموات، وهذه الأسلحة المتعددة التي يتمنطق بها، وهذه الأثواب المستغربة في بلد زعماؤه ووجهاؤه متفرنجو اللباس - يقول دوماً مشيراً إلى هندامه المدهش الذي يشبه ألبسة عنتر والزير، كما نراهما في الرسوم الخنفشارية الشرقية المعلقة في دكاكين الحكاواتية والحلاقين:

- بهذه الشوارب وهذه القيافة، وهذا السلاح أخاطب الدروز بلغتهم، وفي اليوم الذي أحلق فيه شواربي وأرمي أسلحتي وأحتذي بوطاً إفرنجياً قد أفقد إعجابهم، فلا يعودون يتبعونني للمعارك!

ولكن أية معارك؟

وهل أُتيحَت للأمير معركة دموية ربما كان أُتيح له أن يُظهر بطولته فيها؟

لم نر الأمير يخوض أية معارك، ما عدا تلك المعركة «الدونكيشوتية»، في تلك الصورة الزيتية المعروفة الكبيرة التي كان يُعلِّقها بارتياح كامل، على جدار قاعة الاستقبال في مصيفه بعاليه. نشاهده في تلك الصورة داخلاً إلى المعركة - معركة مجهولة - يمتطي جواداً تقدح عيناه الشرر، وقد وقف شعر عنقه مثل المسلات، ورفع رأسه حتى قارب الأجواء، يمتطيه الأمير غاضباً حرداناً، متمنطقاً بالسلاح من رأسه حتى أخمص قدميه، وقد أعتلى شارباه حتى كادا يضيعان في الغيوم، يتجاهل تلك السباع - بحجم البسينات - المتمرغة بين أقدام الجواد الأبجر المخيف، تظهر عليها دلائل الخوف العظيم، وتنظر إلى الأمير مذعورة وهي ترتجف هلعاً وخوفا!

وكان عدد كبير من الفتيان الأشاوس المعجبين بالأمير يعلّقون في بيوتهم بإكرام وإجلال نسخاً عن هذه الصورة.

ووصل خبرها في أيام الاستقلال، عندما أصبح الأمير بطل بشامون، إلى الجنرال سبيرز وزير بريطانيا المفوض في بيروت، وكان له لذة خاصة بكل ما يعمله صديقه الأمير، فذهب خصيصاً لمشاهدة الصورة وأخذ عنها نسخاً فوتوغرافية أرسلها لأصدقائه من كبار السياسيين والقواد العسكريين في إنكلترا، حيث لاقت ترحاباً ظريفاً جداً. وقيل يومئذٍ إنَّ ملك الإنكليز السابق نفسه رغب إلى الجنرال سبيرز أن يهديه نسخة عن هذه الصورة التي لابد أن تكون وجدت عند جلالته مرحاً كبيراً، وقد يكون علّقها في قاعات التصاوير الشرقية المستغربة في قصر بوكنغهام!

* * *

كان المارُون أمام قهوة النجار في تلك الأيام يتلاقون بالفارس المغوار الذي كان قد اتخذ مقراً (سنة 1934) عاماً هناك في جوار سراي البرج بعد إعلان ترشيحه للنيابة يترقب الأخبار، ويجلس على ثلاثة أو أربعة كراسٍ مرة واحدة، عملاً بتقاليد القبضايات الكبار، زعماء الشباب ببيروت!

إذ أنه كان من مستلزمات الزعامة المسلحة في ذلك الزمان أن لا يجلس الزعيم على كرسي واحد!

فالكرسي الواحد مقعد العامة العاديين المسالمين الضعفاء، ذوي الأقفية الهزيلة، من الذين لا يحملون سلاحاً، خوفاً من أن يجرحوا أنفسهم!

كان الأمير مجيد قبل البحث بترشيحه لا يأتي لبيروت، ولم يكن يحيط نفسه هكذا بذاك الموكب البهج من الفتيان الأشاوس، يمشون في ركابه، ولم يكن قبل ذلك أيضاً يعرض في المدينة - بهذه الضجة - فروسيته للناس، ويعرض معها شبابه الغض الحسان. ولكن أخذ يفعل ذلك للدعاية بعد إعلان ترشيحه للنيابة خلفاً لعمه الأمير فؤاد أرسلان، الذي كان نائباً ممتازاً بالمجلس، وصاحب شخصية مرموقة في الأوساط السياسية وأخصها الأجنبية، جعلت كلمته مسموعة ونفوذه السياسي ممتداً وقويا.

ويشاهد المارُون كل يوم تمثال الأمير فؤاد يقوم في مفرق الطرقات على شاطئ خلده، حيث يُخَيَّل للملاحظ أنه يقود الناس نحو السبيل السوي.

وقد كانت حياته أيضاً هكذا تتمشى على السبيل السوي، وهو الذي جعل للفرع الأرسلاني الذي ينتسب إليه المكانة المرموقة التي أخذها، بعد أن كانت وجاهة الأرسلانيين الكبرى تنحصر في الفرع الآخِر، فرع الأمير مصطفى.

وكان الأمير فؤاد رجلاً فناناً حلو الحديث كريم الشمائل له سمرة جذابة، جعلته أمير المجالس وحبيب الحسان أيضا.

وكان رجلاً اجتماعياً من طراز أعلى، له مكانته في القصور والبيوتات الأرستقراطية الكبرى ببيروت، وعلى الأخص المسيحية منها، حيث كان يحتل منزلة الصديق والفارس المنشود، تتفتح أمامه ليس فقط أبواب صالونات الاستقبالات، بل أبواب خدود الجميلات.

وقد جعلته هذه الشروط والمزايا العالية أول سيد غير مسيحي يُوفِّق فطرياً، وبدون خطة مقصودة، بين النصارى والدروز، ويجعل مجتمعاتهم متجانسة وحفلاتهم متوافقة، وذلك في الوقت الذي كان فيه النفور الطائفي على أشده من جَرَّاء خروج المسيحيين بعد انتداب الفرنسيين إلى الميدان السياسي العام بطريقة وسيعة، أخذ يعتقدها الدروز نوعاً من التحدي.

وكان من الأسباب الأولية التي جعلت الأمير فؤاد يجد عند ربات القصور تلك الحظوة المعروفة، هي أنه كان بين الأسياد اللبنانيين الأرستقراطي الأوحد الذي تحلى بميزات «الجنتلمن» وبذلك الاسمرار - كما قلنا أعلاه - غير المألوف الذي يجتذب بنوع خاص ناشدات الجديد والعلاقات المستغربة، وهن اللائي يجدن ارتياحاً في الخروج بمغامراتهن على كل التقاليد ويأبين أن يعرفن للمغامرات العاطفية ديناً ولا لونا!

وكان الشيخ محمد الجسر يصادق الأمير فؤاد مصادقة قوية جداً، جعلته بعد وفاته يفتش عن أقرب الناس إليه، يعطيه مقعده في النيابة.

وحالاً ذكر الشيخ محمد، طبعاً، أن الأمير فؤاد كان دوماً يظهر عطفاً خاصاً من بين الأمراء الأرسلانيين على ابن أخيه الصغير الأمير مجيد، وكان يقول ويتكهن عنه - وهو يداعبه ويلاعبه - أنه قد يصبح رجل المستقبل للأرسلانيين، لما كان يراه فيه من جرأة وروحٍ فياضة.

وكان الأمير فؤاد في المجلس النيابي صاحب كلمة عالية وقول جريء، يحمل على المنتدبين حملات كبرى، ولكن بالعبارات اللبقة المرنة، ذات الصور الجميلة التي اتصف بها عقّال ونبهاء الدروز في مناقشاتهم السياسية والاجتماعية.

وكان في المجلس عندما يهاجم الانتداب، يرافق هجومه باعترافه لفرنسا برسالتها التمدُّنية والتحريرية في العالم، ومع إعلاء شأن أبطالها، مما كان يدعو مندوب المفوض السامي للحيرة عندما يسمعه، ويتساءل إذا كان من الواجب أن يعتب عليه لأنه يلعن الانتداب، أو يشكره لأنه يثني على فرنسا!

ولا ننسى يوم قام يؤكد بالمجلس، وبطريقة فجائية، حب اللبنانيين لفرنسا، على أن تبقى ببلادها، مما دعا يومذاك المسيو سالومياك مندوب المفوض السامي لإظهار امتعاضه بقوله:

- لا نريد منك أن تحب فرنسا لا هنا ولا هناك!

وانسحب المندوب من الجلسة، وكانت يومئذٍ بداية الخصومة الشديدة التي قامت بين الأمير صديق فرنسا وعدو الانتداب وبين المنتدبين، وهي خصومة كان من المنتظر أن تسفر عنها نتائج كبيرة، ولكنها ما كادت تتجلى حتى توفيَّ الأمير فؤاد فجأة.

وقيل يومذاك - عن خطأ طبعاً - في بعض الأندية المعادية لفرنسا والتي امتازت بسوء الظن بالفرنسيين وباختلاق أخبار السوء عنهم، إنهم هم الذين تدبَّروا للأمير فؤاد حتفه، وعملوا بطريقة خفية لموته، وهو اتهام خنفشاري لم يعره أحد انتباهه، حتى ولا الأمراء أنفسهم.

وطبعاً، كان الذين أذاعوا تلك الشائعة، يريدون بأية طريقة كانت أن يُسوِّدوا صحيفة الفرنسيين وأن يصوروهم مغتالين مجرمين وأن يثيروا حفيظة أصدقائهم الدروز عليهم، في حين أن من واجبنا دوماً الاعتراف أن الفرنسيين خلال سنوات انتدابهم على هذه البلاد كانوا يخطئون كثيراً، وكانوا يظهرون سذاجات عديدة، ويبالغون جداً في المتاجرات والاستثمارات، ولكننا لم نسجل لهم ولا مرة مثل هذا العمل الذي نسبه بعضهم إليهم، في وفاة الأمير فؤاد أرسلان.

وعندما مات رحمه الله، وقامت البلاد تمشي في موكبه الأخير، لاحظ الملاحظون أنه - وهو مسجى في تابوته - كان أيضاً يجر وراءه جمهرة عديدة من غادات بيروت المعروفات حزانى حيارى!

ولم يكن الأمير فؤاد رودولف فالنتينو، ولكنه كان لبقاً وحلو اللسان كثير الأدب والظرف، وكان من الجبل، درزياً وأميراً، مما كان شيئاً مستحلياً مرغوباً بنظر طالبات الجديد. وكان هذا كله يجتذبهن ويزيدهن إعجاباً بالرجل وهو في قيد الحياة، وقد زادهن دموعاً عليه يوم وفاته.

* * *

وكما قلنا لم تكن قد اكتملت حينئذٍ بشيخ الشباب الأمير مجيد السن القانونية (الخامسة والعشرين) التي ينص عنها القانون كشرط للنيابة.

وكان لقب شيخ الشباب هذا، أول لقب من الألقاب العديدة التي حملها الأمير مجيد. ومنها بعد ذلك تلك التي أطلقناها عليه في المناسبات المؤاتية، فصار الناس يعرفونه مثلاً بلقب القائد العام لثورة الباروك - بمناسبة الثورة التي أعلنها بعد سنوات من ذلك، على حكومة خير الدين الأحدب، مما سنأتي على تفاصيله في وقته، وكان الرجل الرابع زعيمها السياسي.

ومن تلك الألقاب أيضاً التي لبست الأمير، لقب عنتر خلده. وخلده هي «البلاج» الجميل الفتان الذي يملكه الأمير مجيد على شاطئ بحر الروم، ويقوم على جانبه الآن المطار الدولي العظيم المعروف باسم مطار خلده، وقد ابتنى الأمير مؤخراً هناك - على يد المهندس الأنيق نديم مجدلاني - قصره العربي الجميل الذي يتراءى من بعيد كأنه أحد قصور ألف ليلة وليلة، وهو صورة عن قصر بيت الدين التاريخي، ولكن أفضل وأجمل!

* * *

وأدخل الشيخ محمد الأمير مجيد أرسلان للمجلس بالتزوير. ليس بتزوير الأصوات، مما كان له سوق كبيرة، ومما أخذت ظواهره تلوح حتى في ذلك الوقت، بل بتزوير السن وزيادة عمر الأمير أربع أو خمس سنوات، حتى يصبح 25 سنة!.

- 18 -

الأمير مجيد وقصر المختارة

لم يكن التزوير في ذلك الوقت شيئاً جديداً في السرايات والمجالس والمعاملات العامة والخاصة، فإنما التزوير قديم مثل الخبز، في بلاد زوّرت دوماً على مختلف العصور، حتى أنها بدأت في التزوير على السماء قبل أن أخذت تُزوِّر على الناس، وذلك في مختلف الديانات الكاذبة التي خلقتها قبل ديانات التوحيد، والتي كان كهانها يزوِّرون لها العجائب كيما يؤمن الناس بها، وعلى شرط أن عباد تلك الآلهة كانوا يعرفون بتزويرها ويسكتون عنها - كما سكتنا عن التزويرات المتواصلة التي عملناها دوماً وتجاهلنا ما فيها من عار وعيب، مما دعا لانتشار التزوير في النهاية وامتداده إلى جميع المرافق والحياة السياسية والاجتماعية بأجمعها!

ولهذا السبب، عندما تكاثفت الجمهورية اللبنانية الثانية بأجمعها للتزوير في عمر الأمير مجيد، لم يجد الحكماء والعارفون شيئاً جديداً بالأمر حتى أنهم ما استغربوا، ولا شك، الشكوى من كل تزوير قام بعد ذلك وفي كل وقت، حتى في هذا الوقت الذي عملنا فيه انقلاباً على التزوير، فأي شيء في العالم ليس فيه تزوير حتى في الأمور المجرَّدة النزيهة؟

ويتراءى أننا نحن في لبنان، نريد أن نجعل للتزوير طابعاً في كل الأشياء كيما لا يقال إنه جرى شيء عندنا كامل الأوصاف والمزايا!

وكان الأمير مجيد قبل ذلك، رغماً عن انشغاله الدائم بأسلحته من مسدسات وخناجر وقنابل ومتراليوزات، ومن تخصيص ساعات عديدة من أوقاته لاستماع سير أبطال الأساطير، ورغم انشغاله في تدريب أكثر التلامذة رفاقه في مدرسة الفرير على الأعمال الحربية وتوزيعهم فرقاً تهاجم بعضها بعضاً، كما كان يفعله مثلاً نابوليون عندما كان يتمرن على الفن العسكري في مدرسة بريين - رغم كل هذا كان الأمير قد تعلم أيضاً في تلك المدرسة قسطاً من الكتابة والقراءة، وكان بالمناسبة سبَّاقاً بالعربي ولم يكن دوماً ناجحاً بالفرنساوي، بالعكس عما جرى له بعد ذلك عندما كبر بالعمر...

أجل لم يكن الأمير نابغة في صفوفه، ولكنه كان نابغة في خلق المشاكل بالمدرسة وبين التلامذة. وكان عنده تلك الميزة التي تختص السماء بها بعض التلامذة الذين يحفظون القراءة والكتابة، دون أن يفتحوا الكتاب كثيراً، ودون أن يكتبوا على الورق كثيرا...

وكما قلنا أعلاه، تلقى الناس بأجمعهم خبر تكبير عمر الأمير ليصح أن يكون نائباً بكل هدوء، ولم يقم أحد يحتج على هذا التزوير، وهي حكاية لم تشكل جرماً كبيراً حتى في ذلك الوقت، مما يدل على أن وجدان ذلك الزمان عند السياسيين لم يكن ضيقاً قدر ما صار اليوم بعد الانقلاب في لبنان. مما فيه متاجرة جديدة لُمدَّعِي التجرد والنزاهة!

وكان الفرنسيون طبعاً راضين عن تدبيرات الشيخ محمد الجسر، إذ أنهم لم يكونوا قد نسوا - على قصر الوقت - أن الأمير توفيق أرسلان والد الأمير مجيد وقف في تأييده للفرنسيين في صدر الاحتلال بوجه الأمراء الباقين الذين كانوا يوالون الشريف ويعملون بسياسته. وسجل الأمير توفيق مناصرته للفرنسيين في الصف الأول، مما جعلهم عندما جاءت الفرصة لا يجدون حيفاً في إعطاء نجله خمس سنوات زيادة على عمره كيما يصير نائبا!

وكان الأمير مجيد يومئذٍ كبيراً بعقله وبجسمه، مما جعل الناس لا يتميزون أنه يوم جاء نائباً كان قاصراً، لم يبلغ سن الرشد بعد!

وكان الفرنسيون بهذه المناسبة أيضاً يتابعون سياسة المتصرفين في جبل لبنان في عهد الأتراك، الذين كانوا يقيمون دوماً شبه توازن بين الأسرتين الدرزيتين المتزعمتين: الأمراء الأرسلانيين والمشايخ الجنبلاطيين، فلا يُوجِّهون الواحدة على الأخرى كثيراً، حتى لا يجعلوا التنافس على الزعامة بين الأسرتين المتزاحمتين يدخل في طور العنف والتقاتل.

وهذه السياسة الحكيمة نجحت - إلى حد ما - مع الفرنسيين في أوائل عهدهم، كما نجحت مع الأتراك قبلهم، ولكن عهد الاستقلال بعد نهاية الانتداب لم يَرعَها تماماً، وهذا ما جعل - كما سيراه القراء في سياق هذا الحديث - المختارة تقوم وتشترك ذاك الاشتراك الفعال على الجمهورية الرابعة - جمهورية بشارة الخوري - في

الانقلاب الأخير الذي أطاح برجل الاستقلال من رئاسة الجمهورية، بطريقة فجائية لم يكن أحد ينتظرها.

* * *

وكل التفات يرعى الأمير مجيد في عهد الانتداب وبعده، يجب من الطبيعي أن يزعج قصر المختارة، ولكن الست سيدة المختارة يومئذٍ، المسالمة الفهيمة، التي درست أصول السياسة على الأتراك، فكانت تداري - حتى في أشد الأوقات حراجة - جانب الانتداب وتأخذه هكذا بطرقها المرنة اللبقة أحياناً كثيرة إلى جانبها، كانت في كبرها وفي احترامها لنفسها لا تظهر أمام الناس انزعاجها مطلقاً من رعاية الفرنسيين في بعض المناسبات للأمراء الأرسلانيين خصوم المختارة، الدائمين، لهذا رآها الناس لا تظهر أقل امتعاض من موافقة الفرنسيين على تبديل أمير أرسلاني في المجلس بابن أخيه، ولو لزم لذلك تكبير عمر هذا الأخير.

وهو هذا التوازن الذي أهمل الرجل الرابع الشيخ بشارة الخوري متابعته أو بعثه عن جديد. ولربما فعل الشيء مرغماً، بعد أن صار رئيس جمهورية الاستقلال.

أو أنه لربما لم ير من قصر المختارة - رغم سياسة الست المرنة المتوددة معه - ما كان يجعله يعيد ذلك التوازن، ويقف عند تكبير الأمير مجيد وتوجيهه في وجه قصر المختارة.

ولربما أيضاً لأن الشيخ بشارة الخوري يذكر في المناسبة أن الأمير مجيد رافقه دوماً وفي الضراء أكثر من السراء، ومشى بجانبه منذ الساعة الأولى في حياته السياسية. وكان العنصر الدرزي القوي الذي لابد منه لكل حزب سياسي بلبنان يريد أن يكون مكتمل العوامل والحظ في النجاح، وكذلك لمواقف الأمير مجيد في الرجولة ومجابهته الأخطار التي كانت تواجه بشارة الخوري في عراكه السياسي الدائم، ومن هذه المواقف موقف بشامون، وهو موقف سينمائي فريد في بابه، سنأتي على ذكر ما ترتب عليه من نتائج طيبة للاستقلال، مع أن الأمير ببشامون لم يفقس بارودة، ولم يقتل أحداً، ومع أن حرب بشامون بأجمعها كانت معنوية من نوع حرب النظارات، فخلق لها الأمير بمراجله وحبيب أبو شهلا بحيله ومناوراته أسطورة جميلة أضحكت العالم وأعجبته وأطربته كثيرا.

- 19 -

الست نظيرة، سيدة القصر: قصر المختارة

كانت المختارة منذ نشأتها حتى آخر أيام الست تتمشى على سياسة تقليدية لا تتبدل، تقضي دوماً في العمل للتقرب من الحكام واكتساب صداقاتهم وعدم الاصطدام بهم مباشرة، اعتباراً أن الشيء الذي لا تأخذه باللطف وحسن الكلام، لا تستطيع أخذه بالزجر والقوة. وهي سياسة جميلة تتفق مع ما ازدان به الدروز من أدب خالص ومجاملات ولباقات ورثتها الست ومشت عليها حتى آخر أيامها.

وحتى في أشد الأزمات التي كانت بين نجلها الثائر الدائم الشاب زعيم الحزب التقدمي الاشتراكي اليوم، والذي كان قد أخذ على نفسه منذ الساعة الأولى التي خرج منها إلى العالم السياسي، مناوأة الحكام، ومعارضة الدولة، فكانت الست قبل وفاتها في كل مرة تشتد فيها معارضة نجلها للدولة تزداد تودداً وتقرُّباً من السلطات، لتخفف كثيراً من الأزمات التي تكون قد قامت.

وجدير القول هنا، ولو كانت المناسبة لم تأت بعد - أن الشيخ بشارة الخوري، الذي لم يكن في ذلك الوقت قد احتل المقام المرموق في عالم السياسة، يوم مصرع فؤاد بك جنبلاط شيخ المختارة الذي اغتاله الجناة بطريقة مفاجئة - جدير القول أن الشيخ بشارة الخوري اعتبر منذ الصغر أن من واجبه وواجب أشقائه مشايخ آل الخوري الوقوف بالأحرى دوماً بجانب الأمراء الأرسلانيين. وقد كانوا منذ الزمن القديم على تحالف معهم، ينتسبون وإياهم إلى الحزب اليزبكي، والأرسلانيون من زعمائه الأولين.

وهناك، فضلاً عن ذلك، دَيْن حديث ظل دوماً بشارة الخوري يذكره بالخير ويريد تسديده بكل الحسنات، وهو يشكل عنده ذكرى عزيزة جداً على قلبه، تقول إنَّ مشائخ آل الخوري مديونون بحياة والدهم إلى الأرسلانيين. وكان ذلك في بداية الحرب الكونية الأولى عندما أبعد جمال باشا خليل بك الخوري، والد الشيخ بشارة عن لبنان، معتزماً التخلص منه في منفاه. وكان الشيخ خليل الخوري قد وصل في رحلته للمنفى

إلى منتصف الطريق، عندما تصدى الأمير شكيب أرسلان لجمال باشا ـ وكان له عنده حظوة كبرى ـ واستطاع إنقاذ الشيخ خليل الخوري من الإبعاد الذي كان سينتهي حتماً بإعدامه، كما كان الشيء معروفا.

وحفظ أنجال خليل بك الخوري هذا المعروف للأمير شكيب في قرارة نفوسهم. وقد نكون رأيناهم لهذا السبب هَبُّوا للتعاون مع الشيخ محمد الجسر في مساعدة الأمير مجيد يأتي نائباً للشوف بدلاً عن عمه المتوفي ـ كما ورد أعلاه ـ حافظين الجميل أولاً، ومحافظين ثانياً على تقاليدهم الحزبية مع الأمراء.

وهذا بأجمعه كانت المختارة في أيام الست ـ لربما ـ تمتعض منه، ولكنها لا تجعل الشيء يظهر مطلقاً، لا بل بالعكس تظهر ارتياحها له.

إذ أنها في رصانتها واحتفاظها بسكونها وهدوئها، لم تكن تدع مجالاً لأحد ينسب إليها وللمختارة الحسد والغضب. حتى أنها كانت تذهب إلى أكثر من الارتياح، وتحاول أن تظهر أمام الأمير مجيد بمظهر الأم التي تحتضن ولداً محبوباً وتتظاهر ـ ولربما ـ تعمل بالحقيقة لمساعدته.

ويمكننا بالمناسبة أن نذهب إلى أكثر من ذلك، ونردد هنا قولاً كانت الست قد أسرَّته لنا في زمن مضى، وهو أنها كانت تسعى دوماً عند أصدقائها الفرنسيين ـ الذين كانت حملات الأميرين شكيب وعادل عليهم تزعجهم ـ لإعطاء الأمراء حصتهم كحصة الجنبلاطيين في السراي والمجلس اعتباراً أنها هكذا تحفظ التوازن ولا تجعل الأرسلانيين يمتعضون ويخلقون المشاكل والمشاجرات بين الدروز.

وقبل أن يأخذ الأمير مجيد النيابة، لم يكن مضى وقت طويل على مصرع سيد المختارة الشيخ فؤاد جنبلاط، وهو مصرع سَجَّلَ بلبنان في ذلك الحين أول اغتيال سياسي في بلاد كانت فيها الخصومات السياسية تبلغ عنفاً كبيراً، ولكنها خصومات قليلاً ما كانت تصل إلى حد الاغتيالات.

وظهرت الست بعد مقتل زوجها فجأة وبطريقة غير منتظرة، تحمل لواء المختارة، وتخرج لميدان السياسة علناً، بعد أن كانت قبل ذلك تتدبر سياسة المختارة من وراء ستائر خدرها، وبتكتم واعتزال كاملين، مما كان يجعل معظم أهل البلاد لا يعرفون عن قوة شخصيتها ومقدرتها غير الشيء القليل.

ظهرت فجأة، وحملت سيف النقمة ضد الذين اغتالوا زوجها، وخرجت. وفي خروجها من خدرها خرجت هكذا على التقاليد التي كانت تقضي بتحجُّبِها، ولكنها أحاطت عملها هذا بالشيء الكثير من النبالة والكبر والجرأة الجميلة التي يحبها الدروز كثيراً، مما جعل الناس ـ حتى أشد رجال المذهب الدرزي تمسكاً بالتقاليد ـ يجدون في ظهورها كرامةً واعتزازاً لا عصياناً وتحرراً، غير متجنين على العادات والحياة الدرزية.

قامت الست تحافظ على تراث الأمجاد للجنبلاطيين، لتعطيه بدورها إلى نجلها كمال بك جنبلاط، الذي كان قد أخذ أيضاً بعد وفاة والده، وبالرغم عن حداثة سنه، يظهر بكل مناسبة خوفه على عز المختارة وزعامتها الكبيرة من بعد مصرع سيدها، ومن كل شيء فيه توجيه للأمراء الأرسلانيين، وهو توجيه كان الجنبلاطيون يريدون دوماً مثله للمختارة، حتى أن بعضهم كان يريده للمختارة بأجمعها، ويلومون الست بعد أن ماشت الفرنسيين وصار لها تلك المكانة الكبرى عندهم ـ لأنها لم تعمل معهم لتخصيص المختارة بميزات لا يكون للأرسلانيين مثلها.

وكانت الست تقول إنها بحاجة للخروج من خدرها، حتى تتولى الزعامة السياسية للجنبلاطيين، لبينما يكبر ابنها فتسلِّمه الأمانة كاملة قوية.

وقد كان يومئذٍ حكمت بك جنبلاط ابن أخ الزعيم الصريع وزوج ابنته، لم يشترك بعد بالحياة السياسية التي امتاز بها بعد ذلك، ولكن لمدة قليلة، لأنه لم يعش طويلاً. وكان قد أعتنق في حياته السياسية القصيرة خطة الست المسالمة، وهي الخطة التي قادته أخيراً، وقبل وفاته المفاجئة، لأن يمد يداً صريحة جلية مخلصة للأرسلانيين ويتعاون معهم ويشاركهم ويشاركوه في سياستهم العامة ـ مما كان فتحاً جديداً في سلسلة الخصومات المتواصلة التي قامت في خلال القرنين السابقين بين الأسرتين الزعيمتين للدروز.

ولا شك أن سياسة الست مع الفرنسيين كانت قد بلغت في ذلك الحين شأواً كبيراً وأوجاً عالياً، إذ أن المنتدبين كانوا قد وجدوا من المختارة تعاوناً صادقاً، فأخذوا يرفعون من شأنها ويزيدون من نفوذها مما جعلها تفرض إرادتها على القرى التابعة لإقطاعيتها، وهي إرادة توجهت بالأكثر نحو الخير والإخلاص للبنان ولفرنسا ـ ومع ذلك الفارق عن المشائخ الجنبلاطيين السابقين بأن الست كانت تفرض إرادتها بطريقة

صديقة ودية، لدرجة خلقت تقرباً حبياً بين الجانبين، مما جعل الأهالي يعتبرون أن الست زعيمة صديقة مُحبَّة لهم، لا أميرة مطلقة عليهم. وكان هذا أيضاً من الأسباب التي حدت للاغتفار لها تركها تقاليد التحجب والاشتغال بالأمور العامة التي هي من شأن الرجال. وللدروز على مدى الدهور إعجاب بالشجاعة عن أية طريق أتت، ووجدوا الشجاعة مجسمة في تلك السيدة وسمُّوها أخت الرجال، ورفعوا شأنها أكثر وأكثر وأحبوها، وسلموها القيادة، مما كان خارجاً عن عاداتهم. ولكنهم كانوا قد توسموا فيها إخلاصاً وكرامة، جعلتهم يجدون كل ما تعمله حسناً وفاضلا.

ولم يكن أحد من الذين عرفوا الست في حياة زوجها خجولة حيية جميلة وديعة، تعيش منفردة مبتعدة وراء جدران قصر المختارة - وهو أشبه بالأكثر بقلعة متهدمة، مبعثرة الأبراج، مختلفة الطراز، منه بقصر منتظم يشبه باقي القصور - لم يكن أحد يفترض في ذلك الحين أن الست ستكون مدعوة لأن تلعب دوراً كبيراً، ولأن تتمتع في حياتها بسلطان سياسي لم يصل إليه أحد من المشائخ الجنبلاطيين قبلها مع كل عظمتهم وتراثهم وأمجادهم.

كان الناس يُسمُّونَها الست، وأطلق الافرنسيون عليها لقب «سيدة القصر في لبنان». وكانوا في تقاريرهم لوزارة الخارجية يلقبونها هكذا، وهذا اللقب هو غير الذي أعطاه الكاتب الفرنسي بيير بينوا لروايته المعروفة بذلك الاسم. وهي الرواية التي بطلتها حسناء لبنانية مسيحية، جعلت قصرها مسرحاً لمغامرات سياسية وغرامية وعيناً ساهرة لخدمة لندن في لبنان، وقد ابتدع الكاتب الفرنسي هذه الحكاية وجعلها صاحبة فضاحة، وجاء فيها على معلومات ووقائع معينة جعلت كل حسناء لبنانية ابنة بيت معروف كبير، ولها أية علاقة مع الأوساط البريطانية، تخشى أن يفترض قرَّاءُ رواية بيير بينوا أنها هي بطلة تلك الرواية. ذلك أن الرواية غائصة في بحور الحب والليالي الرومانية والمشاغبات الحزبية والجاسوسية السياسية.

وبطبيعة الحال، وعلى المنوال الذي تكلمنا عنه، أصبح قصر المختارة في عهد الست ملتقى كبار رجال السياسة المحليين والأجانب، وفي مقدمتهم الصحافيون الأميركان والإنكليز والفرنسيون الذين أخذوا يفدون على هذه البلاد بكثرة، ويجدون أن الذي يزور لبنان، ولا يزور بكركي والمختارة يكون مثل الذي يذهب لروما ولا يزور البابا.

وكان الصحافيون الأجانب يجدون أنفسهم أمام سيدة حسناء كاملة الرصانة والحكمة، ذات لغة عذبة وابتسامة لطيفة، ونظرات وديعة هادئة، لا تنم مطلقاً عن النباهة التي وراءها، وكتب مراسل جريدة «شيكاغو تربيون» بعد زيارته للمختارة في ذلك الحين: «كان ولا شك من المؤسف لو كانت سيدة كبيرة ذات نباهة وحديث جميل - كهذه السيدة - تحتجب وراء جدران هذه القلعة الحربية، فلا يسمع الناس كلامها الظريف ويشاهدون جمالها الوقور الذي يوحي التجلة والتقدير».

وكانت الست نظيرة في كل أعمالها تجعل الناس يشعرون ويفهمون أنها تتابع حرفاً حرفاً الرسالة التي حملتها عندما خرجت للميدان السياسي مما جعل المختارة تبقى ولا تموت.

تبقى زعيمة كبرى في جبل لبنان، تحافظ على أمجاد الجنبلاطيين الذين ظلوا مئات السنين من أركان لبنان في هذا الجيل.

* * *

يتساءل الغريب الذي يَطَّلِعُ على سياسة لبنان كيف أن الدروز، لهم فيه هذه المكانة القوية، مع أنهم يؤلفون أقلية مطلقة بالنسبة للطائفتين الكبيرتين المارونية والمسلمة.

والجواب على ذلك ليس فيه تردد ولا إبهام.

ولو كان فيه ما يمس بادعاء غير الدروز للبطولة والشجاعة.

والجواب أن الدروز رجال سيف وحربجية، وعندهم تتجلى روح المغامرات والمخاطرة، كأنهم لا يخافون الموت.

وقد يعود ذلك لربما لاعتقادهم بالتقمُّص لحياة أخرى أفضل وأحسن.

على كل حال، هذه الشجاعة التي عندهم، وهذا السيف الذي يحملونه دائماً، جعل الطوائف المسالمة الأخرى تحسب لهم حساباً كبيراً يعطيهم أكثر الأحيان في الأمور العامة حصة الأسد، وهي حصة مضاعفة بالنسبة للحصة التي تأخذها طوائف الأقلية المشابهة للطائفة الدرزية بعددها.

ـ 20 ـ

الست تنقل الثورة من لبنان إلى سوريا

كانت المفوضية السامية قد دعتني يوم قيام الثورة بسوريا على الفرنسيين سنة 1925، وهي الثورة التي بدأ بها دروز حوران، واشترك فيها بعد ذلك بطريقة جزئية دروز جبل لبنان ـ دعتني المفوضية السامية التي كانت ولا شك تُقَدِّر في بعض المزايا السياسية ـ للذهاب للمختارة أكون بينها وبين الفرنسيين صلة اتصال، وذلك في مناسبة الهياج القائم عند الدروز يومئذٍ.

وكانت الست طبعاً تلعب دور السلام بين القرى المهتاجة في جبل لبنان، التي كانت تستعد لمشاركة السوريين في ثورتهم، وبين المفوضية السامية، وتعمل على تهدئة الخواطر وإقناع الفرنسيين بقبول الشيء الكثير من مطالب الثوار العامة.

كما وأنها كانت من جانب آخر تخفف من الدعوة للثورة في القرى الدرزية اللبنانية، وتطلب منها الكف عن حرب العصابات التي كانت قد بدأت بها هنا وهناك ضمن الأراضي اللبنانية. وهي عصابات كان فتيان الشوف قد شكلوها كثيرة متعددة، وكانت بدأت تعبث بالأمن وتعمل على عرقلة أعمال السلطات العسكرية.

وكانت الست في نباهتها لا تردع هذه العصابات عن مهاجمة الفرنسيين ـ خوفاً من اتهامها بالتعاون مع فرنسا ضد أبناء طائفتها ـ بل تطلب من تلك العصابات الذهاب إلى جبل الدروز وغوطة دمشق حيث تشترك مع الثوار السوريين ودروز حوران في القتال الذي كانت رحاه تدور بشدة، بدلاً من أن تُعرِّض لبنان لمجزرة طائفية إذا احتكّت هذه العصابات بالقرى المسيحية، مما يجعلها بدون شك تصطدم بالموارنة فتقع الكارثة التي ما زال اللبنانيون العقلاء يخافونها ويعملون على استدراكها وتلافيها منذ مذابح الدروز والنصارى سنة 1860.

وساعد تدخل الست هذا كثيراً على تخفيف شر العصابات ضمن لبنان، وعلى تحويل هذه العصابات للحرب في سوريا فقط، وهو شيء خدمت به حضرتها الأمان والسكون بلبنان كثيراً، مما كان له تقدير كبير عند الفرنسيين الذين رفعوها يومئذٍ إلى المرتبة العليا واعتبروها صديقة فرنسا الكبرى، وأنشأوا في قصر المختارة مخفراً يكون

في خدمتها، وبعثوا لها بضابط كبير يحكم الشوف عسكرياً، ويمشي بآرائها وحسب مشورتها.

* * *

وهكذا ـ قصر المختارة ـ كما جاء بعد ذلك في مقال لصديقي الكاتب الأميركي هارولد كابلين في مجلة «البارتزان ريفيو» عن رحلته الاستكشافية للبنان سنة 1948، إذ قال: «وهكذا قصر المختارة، الذي كان في عهد الأتراك حصن النفوذ الإنكليزي بلبنان من جرّاء انتساب الدروز في ذلك الوقت إلى إنكلترا، مقابل انتساب الموارنة لفرنسا والأرثوذكس لروسيا..» إذ أن في هذا من الواجب أيضاً أن تنطبق القاعدة اللبنانية السياسية الارتجالية الدائمة التي تجعل الماروني يكون إنكليزياً إذا كان الدرزي افرنسياً، وهذا ما كان يجعل لكل قنصلية من قنصليات هذه الدول الثلاث الكبرى مرجعاً سياسياً لكل طائفة من الطوائف المذكورة.

قال هارولد كابلين: «وهكذا رأينا قصر المختارة الذي كان قبل الانتداب الفرنساوي بيت إنكلترا في الشرق، يصبح بيت فرنسا، مما يدل على أن الدروز ـ تمشياً على سياستهم التقليدية منذ القدم ـ يمشون للأمام بسيوف مرهفة وقلوب مغامرة، بعد أن يضمنوا دوماً دولة كبرى وراءهم تحمي ظهورهم. لذلك بعد أن تخلت إنكلترا عن حمايتهم بقبولها مختارة أو مكرهة الانتداب الفرنساوي، فإنهم كانوا ولا شك يلومون أنفسهم ويزدرون بنباهتهم، إذا كانوا تركوا للموارنة وحدهم استثمار وجود الفرنسيين في لبنان منتدبين وحكاماً. ولهذا السبب خصوصاً، وتمشياً على هذه القاعدة، نال الدروز من الفرنسيين حصة الأسد، وتربعوا في أيامهم بعزٍ ما عرفوه إلا منذ مائتي سنة، عندما كان جبل لبنان ملقباً باسمهم: جبل الدروز!».

إنما الدروز في التسوية غير المقصودة التي عملوها مع فرنسا عن طريق المختارة يومذاك، وخصوصاً بعد ثورتهم عليها في سوريا، جعلوا فرنسا تحسب لهم دوماً الحساب الأكبر وتقف بجانبهم وتغدق عليهم النعم.

ثم أمنت جانبهم بعد ذلك، لدرجة جعلتها تعتبرهم حصنها الحصين في انتدابها في لبنان.

ولكن لماذا يجرنا الحديث إلى مدى أوسع من المدى الذي نريد أن لا نتعداه في مباحث هذا الكتاب؟

إنما علينا أن نقول كيف أن الدروز - وفي مقدمتهم قصر المختارة - تحالفوا مع الفرنسيين في ذلك الحين، قدر وأكثر مما كان الموارنة تحالفوا معهم، بوصفهم زبائن فرنسا الأصليين في هذا الشرق، وهكذا أثبتت سياسة الست - يعاونها في ذلك بعض الأمراء الأرسلانيين والحكماء من الدروز - أن الأقلية في لبنان يمكن أن يصبح لها عند الفرنسيين شأن الأكثرية وأكثر.

وكان الكونت دي جوفنيل المفوض السامي قبل نهاية الثورة هو الذي اكتشف قبل اللبنانيين أنفسهم عبقرية الست السياسية، عندما رآها تخرج من خدرها بجرأة غريبة وتستلم زعامة المختارة.

وكان في ثقته وإيمانه بها أنه انتقاها من بين جميع كبار الرجال الذين كانوا يعرضون أنفسهم للخدمة، لتكون وسيطة بينه وبين الثوار، عندما رأى أن يهادنهم ويكف شرهم عن الافرنسيين.

وكان قد فعل ذلك متراجعاً، إذ أن دي جوفنيل تراجع كثيراً، كما هو شأن الفرنسيين دوماً، الذين لم تستطع الحروب ولا الأجيال أن تُغيِّر طبيعتهم المتقلبة، وتجعل لهم شأناً وتتبعاً في القول والرأي.

فإنما دي جوفنيل هو الذي أعلن أول ما وطأت قدماه رصيف ميناء بيروت سنة 1926، ليخلف الجنرال ساراي، قوله المعروف، الذي ظللنا نردده من بعده كثيراً بمثابة محط للكلام، عندما وقف على شرفة سراي البرج وخطب متوعداً ومنذراً الثوار يقول:

- الحرب لمن يريد الحرب، والسلم لمن يريد السلم!

- 21 -

الصحافة تدخل السياسة والسراي

كان الكونت دي جوفنيل سياسياً مدعياً لاهياً، وصحفياً ممتازاً، يهتم بالأكثر لمجالس المجون والظرافة، ولمغازلة الحسان اللواتي يأخذن بالأحرى القسم الكبير من وقته!

وكان مداعباً كبيراً، متلاعباً في الحديث، فكه اللسان فائشاً جداً لدرجة يفشي معها بكل سهولة وبدون اكتراث أسرار مفوضيته، ويعرض فضائحها على الطرقات، وخصوصاً في جريدة «الأوريان» التي كان قد أولاها كل عطفه، واختار صاحبَيْها النقاش والخباز صديقَيْن له يجد فيهما - كما كان يقول - لطفاً وظرفاً، مقرونَيْن بالجشع وحب الكسب، واستسلم بكلِّيَته تقريباً لهما وجعلهما مستشاريه في الأمور العامة والخاصة.

وطبعاً كانت استشارتهما تكلف صندوق المفوضية كثيراً، لأنهما كانا يومئذٍ أغلى صحافيين في هذه البلاد، مما جعل كلامهما دوماً من ذهب.

وبالمناسبة يجب القول أنهما بين الصحافيين كان عندهما تلك الميزة التي يعتبرها بعضهم نقيصة، وهي ميزة عرفها الناس فينا كثيراً. أنهما لم يكونا مثل الحسناء المتراوغة الكاذبة التي تصلي بالنهار أمام الناس، وتخطئ مع عشاقها لوحدها بالليل!

نقول هكذا، لأننا نتمثل الصحافة ليس عندنا فقط، بل في العالم أجمع، بضاعة للبيع. ولكنها في بلاد صغيرة مثل بلادنا - عندما تبيع نفسها لهذا ولذاك، فهي مهما تكتمت وفتشت عن السترة، لابد في النهاية أن تنفضح!

وصاحبا «الأوريان» المستشاران الغاويان، استطاعا بعض الزمن أن يقودا دي جوفنيل بقرنيه نحو السياسة المسيحية المحضة، فيتمشى عليها بالبداية، حتى اليوم الذي أزعجت فيه المسلمين والدروز كثيراً.

وطال الأمر هكذا، ودي جوفنيل، يدير أذنيه لذينك الصحافيين الهازلين، مما كان يزيد من ضغائن المحمدين نحو الافرنسيين، حتى أتيح لنا التقرب منه أخيراً، وجعله يسمع لنا، وعندئذٍ أخذ يلجأ إلى سياسة التقرب من المسلمين، وعلى الأخص التقرب من

الدروز في جبل لبنان، وفي المختارة بنوع خاص، وكان التوفيق حليفه مما كانت نتائجه في ذلك الوقت العصيب - والثورة قائمة في كل مكان - أن دي جوفنيل اكتسب مساعدة الست، وبعض الأمراء الأرسلانيين، والزعماء الدروز في نقل أعمال العصابات الدرزية التي كادت تملأ جبل لبنان إلى سوريا، فكسر هكذا من حدة الثورة.

ولكننا كنا مشينا كثيراً في الفصول السابقة إلى ما بعد أيام دي جوفنيل، وما تحدثنا عنه الآن وعن سياسته مع دروز لبنان ومع ست المختارة، إلا لأن مجيء الأمير مجيد أرسلان للمجلس بعد تزوير سنّه، جعلنا بطبيعة الحال نتطرّق إلى هذه التفصيلات التي هي مقدمة، ولا شك، للدور الرئيسي الذي لعبه بعد ذلك كمال جنبلاط ابن الست، والأمير مجيد أرسلان، في جميع الأحداث السياسية التي مرت على هذه البلاد، وأخصها أحداث الانقلاب الأخير الذي أطاح به بالجمهورية الرابعة - جمهورية الشيخ بشارة الخوري، المدعوة عن حق - عند الذين ينظرون إلى الأمور من الجانب الوطني والسيادة اللبنانية - بجمهورية الاستقلال، والمدعوة من جهة ثانية - ولربما عن حق أيضاً - عند الأحزاب المعارضة المعادية لبشارة الخوري بجمهورية الفساد!

* * *

ورغم ما كان عليه صاحبا «الأوريان» في عهد جوفنيل وقبله من مكانة وسلطان، مما كان يجعلنا نتعثر في أروقة إدارة «الأوريان» بالعدد الكبير من المستوظفين والمستوزرين، يأتون يتوسطون الجريدة الكبيرة تسعى لهم وتساعدهم للوصول - رغماً عن هذا، فإن الأستاذ جبران التويني هو الصحافي الأول الذي جاء بالصحافة للسراي، تدخلها من بابها الكبير وتأخذ وزارة.

وقد كانت الصحافة تدخل السراي قبل ذلك خائفة وجلة مستعطية لاستقصاء الأخبار من جهة وللاشتراك بمجلس الشيخ محمد الظريف من جهة أخرى. وقد كان مجلسه مجتمعاً صحافياً سياسياً، يأتيه رواده يومياً يحمل كل منهم الأخبار السياسية التي يكون قد استطاع الوصول إليها والطرائف الجميلة التي يكون قد اخترعها. وهو مجلس كان يخلع على سراي البرج ثوباً من الفكاهة والظرافة، وسرعان ما انقلبت إلى ثوب من الهزل والسخرية، تعدى مجلس الشيخ محمد إلى الوزارات ومصالح الدولة، فسيطرت روح المجون في كل شيء، وحتى في الأشياء الجدية جداً، التي أخذ ذلك

الهزل يخفف من قيمتها ويلبسها رداءً من السخرية، فانتشرت هذه الروح وطغت على المناقشات العامة والمباحثات الهامة، وخصوصاً في المجلس النيابي حيث لم يعد أحد من النواب يتورع في قول الكلمة الهزلية المضحكة التي تخطر على باله، ولو كان في ذلك جعل المناقشات العامة القائمة تضيع وتصبح موضوع سخرية.

واستأصلت العادة حتى أصبحت طبيعية، مما جعل النواب والوزراء وأهل السياسة يفتشون بالأحرى عن الكلمة الفكهة يقولونها، ولو كانت تخلق جواً من الهزل في مجلس ومقامات مطلوب منها الجد والرصانة.

وأخذت هذه الروح الهزلية - كما قلنا - تتسرب وتمتد حتى عمّت جميع دوائر الدولة، فلم يعد هناك من احترام وحفظ حرمة لشيء، مع الفارق الأكبر أن طرائف مجالس الشيخ محمد ومجتمعاته كانت تمتاز بإتقان فن المجون، ولم تتبدل كثيراً، وبالقدر الذي تبدلت فيه بعد ذلك طرائف المجالس والمجتمعات التي ظلت تتابع حتى يومنا هذا.

وكان ذلك بالطبع لأنه - كما قلنا أعلاه - كان قد اجتمع في ذلك الزمان في المجلس والحكومة رجال من أهل المقام والروح، وجاءت الظرافة إليهم طبيعية جميلة، يقولونها ويبقون على مكانتهم بين الناس، ويظل الناس يحترمونهم.

وقف مثلاً جورج بك زوين، أعتق نائب بهذه الجمهورية، الملقب بالأسد اللبناني - فهو في عهد الأتراك عندما كان عضواً بمجلس الإدارة ببعدا، حاول اقتحام باب المتصرفية بالقوة - مما كان يستوجب شجاعة نادرة المثال في ذلك الحين الذي كان فيه المتصرف سيد الحياة والموت.

قلنا، وقف جورج بك زوين بالمجلس يشكو من الحكومة أنها تسرف بأموال الخزينة وترمي الفلوس من الشباك.

وجاء تأكيداً لقوله بأدلة تثبت التلاعب كادت تطيح بالوزارة، وأجاب الشيخ يوسف الخازن صديق تلك الوزارة، وهو الأديب الصحفي الألمعي الذي لم تكن حاضرته تخونه مطلقاً، والذي ساعد أكثر من الجميع، ومن غير قصد سيئ طبعاً، على جعل المجالس التي اشتهر فيها مجالس مستهزئين، مما أبعد كل روح جدية عنها - أجاب الشيخ يوسف الخازن:

- طالما أن الوزارة ترمي الفلوس من الشباك فماذا تنتظر حتى تقف تحت الشباك؟

وانقلب استجواب جورج زوين من وراء هذا إلى عاصفة من الضحك والاستهتار.

* * *

قلنا أعلاه، دخلت الصحافة السراي من الباب الكبير مع جبران التويني، عندما جاء وزيراً للمعارف (في وزارة أوغست أديب 1930).

وكانت الصحافة دوماً - وخصوصاً الصحافة الكبرى - في هذه السراي السمسارة رقم أول لصاحب المصلحة الذي يلزمه وساطة، وللمرشح الذي يطلب نيابة، أو وظيفة، وللوزير الذي يحب التوجيه والدعاية، وللنائب الذي يطمع بالوزارة، وللتاجر الذي يفتش عن صفقات يربح فيها ويجعل غيره يربح.

كل هذا شيء عادي مع الصحافيين في السراي، مما لا ينتهي مطلقاً، مهما قامت انقلابات ومهما جاءت حكومات شجاعة تقيم نفسها حارسة الطهارة والعفة والاستقامة، كحكومة هذا الزمان، أو حكومات خائفة مضطربة لا تعرف كيف تدافع عن نفسها.

فإنما يجب أن نعترف، ويعترف الزملاء، أن الصحف التي تتكل في هذه البلاد على مشتركيها وبيع أعدادها لا تعيش طويلا.

لا شك أن كلامي هذا يثير غضب بعض الصحافيين المتبجحين عن كذب ورياء بالتجرد والابتعاد عن الكسب. ولكنني عرفت دوماً أن الصحافيين الذين يغضبون كثيراً ويصخبون علناً لاتهام الصحافة بعدم التجرد والنزاهة هم بالأكثر الذين قاموا بأكبر المتاجرات وقد يظنونها خافية عن الناس. والناس مهما عملنا لهم، ومهما تخفينا أمامهم، فهم يصلون دوماً إلى وقت لا يمكنهم فيه أن يؤمنوا مطلقاً بتجرد ونزاهة بعض الصحافيين.

ونذكر بهذه المناسبة أننا كنا دوماً نحترم ونحب الصحافيين الذين ليس عندهم الوقاحة لأن يفخروا علينا وعلى غيرنا بنزاهتهم وتجردهم، وهماً بالفم فقط، وكانت الصحافة في تلك الأيام أقل شأناً وأقل مهارة وفناً، وخصوصاً أقل عدداً مما هي اليوم.

ولكن كان أيضاً لها فارق آخر، وهو فارق محمود، له شأنه. كانت الصحافة تعرف بأجمعها تقريباً، وعلى قدر الإمكان، القراءة والكتابة، بالعكس عما هي الحال الآن، حيث مقابل عدد من الصحافيين يعرفون الكتابة نجد عدداً آخر منهم يمكننا أن نسمي قسماً منه نصف أمي، والقسم الآخر أمياً تماما!

ولكن ما جئنا هنا نلقي درساً وعظات بالصحافة، مع أننا قد نكون مدعوين قبل الجميع لمثل هذه المهمة، وذلك لما يقوله الناس عنا من معرفة وخبرة بهذه المهنة، ولأننا نعرف أكثر من غيرنا أن الصحافة اقتباس وقراءة، وأن الذي لا يقرأ كثيراً لا يعرف أن يكتب جيدا.

وقد قال عنا الريحاني منذ عشرين سنة، في كتابه قلب لبنان، وقد كان من أسياد الصحافة الدوليين - قال عنا:

- هذا صحافي يعرف أن يكتب، لأنه يقرأ ألف سطر ليكتب سطرا!

* * *

دخلت الصحافة للسراي بجبران التويني، وكان حضرته قد اقتطع له مكانة قوية في عالم الكتابة بجريدة «الأحرار» التي كانت أكثر انتشاراً وقوة في ذلك الوقت من جميع الصحف العربية بلبنان، فأخذت من وراء ذلك مكانة سياسية ونفوذاً كبيراً، جعلا كبار السياسيين يفتشون عن صداقتها، وفي رأسهم الشيخ محمد الجسر، الذي ذهب في سعيه لاكتساب جريدة «الأحرار»، أنه دعا أخيراً التويني أحد أصحابها الثلاثة ليكون وزيرا.

وذلك بمجرد أنه صحافي فقط، مع الاعتراف أنه كان متحلياً بميزات عديدة.

وجبران التويني صار وزيراً للمعارف، ثم في عهد الاستقلال في سنة 1946 وزيراً مفوضاً في الأرجنتين، وفي كلا المرتين كانت حملاته على الحكومة تجعلها تسرع لاسترضائه بالمناصب العالية.

وانتقى الشيخ محمد التويني وزيراً لأنه لم يكن يستطيع أخذ غيره وزيراً من الشركاء الثلاثة بجريدة «الأحرار» التي يريد اكتسابها: سعيد صباغه، خليل كسيب، جبران التويني،

فإنما جبران التويني كان روح الجريدة والمفكر الكبير بين شريكيه.

وهكذا كان هو محرر الجريدة والمشرف على سياستها، بالرغم عن مقالات كان يسمح من وقت لآخر لأحد شريكيه أن يوقعها بإمضائه.

دخل التويني الوزارة، فأيقظ حالاً أطماع باقي أساطنة الصحافة، فأخذوا ينشطون في صحفهم ويتزاحمون على تحسينها وتجميل كتابتها وجعلها قوية، طالما أن الصحافة توصل للوزارة.

وكان ذلك النشاط الذي أوحاه التزاحم والطمع بدخول السراي، سبب النهضة الجديدة الأولى للصحافة اللبنانية، والباب المفتوح لخروج أكثر الصحف من عقمها التقليدي بنشر مقالة افتتاحية طويلة مملة يومية، وفي تكليف المقص بعد ذلك بتحرير ما تبقى من العدد. وقد دشنت هذه النهضة طرازاً جديداً من الكتابة، يتفق مع هذا السباق بين الصحافيين على جعل جرائدهم تفتح أمامهم أبواب السراي، كما فتحت جريدة «الأحرار» تلك الأبواب أمام جبران التويني.

وهكذا من وراء هذا النشاط الصحفي وإقبال الجرائد على التحسين، بدأت قوة الصحافة ونفوذها يظهران، يساعدها يومئذٍ الشيخ محمد الجسر، بنوع خاص وبطرق عديدة. وكانت مساعدته المفضلة الناجعة في فرضه ضريبة على النواب والوزراء الأغنياء، يدفعونها هنا وهناك، وطبعاً بطريقة كتومة للصحافيين الذين كان سماحته يعمل لتشجيعهم واكتسابهم.

وكان للشيخ محمد الجسر فن مستطاب في جعل الصناديق المقفلة جداً تتفتح أمام أصدقائه، مثلاً، صندوقا النائبين المحترمين المليونيرين الأكبرين يومئذٍ، اميل ثابت وعبود عبد الرزاق، وقد اضطرهما الشيخ محمد مراراً عديدة للاشتراك فعلاً، وبطريقة وسيعة، لا تتفق مع يدهما الماسكة، في المساعدات المالية التي كان سماحته يتدبرها لأصدقائه، والتي جعلت مثلاً الشاعر الألعي الكبير بشارة الخوري صاحب جريدة «البيرق» حينذاك، يعاتب اميل ثابت ذات يوم، لأنه كان يثني بإحدى المناسبات وفي مجلس من النواب على تجرده، ويقول إنه عرض عليه مالاً فرفضه.

وجاء بشارة الخوري لإميل ثابت معاتباً يقول له:

- ماذا عملت معك حتى تخلق لي هذا الصيت، فتقطع رزقي هكذا؟ هل تتصور أنني بعد كلامك هذا سأمزق كتاب المفوضية الذي أحمله إليك منها؟

قلنا إن الصحافة خطت في دخول جبران التويني للوزارة خطوة كبيرة، ومن وراء ذلك وضع أكثرها نفسه في خدمة سماحته، طالما أنه هو الذي يدخل الصحافيين للوزارات، وطالما هو الذي يتدبر مساعدة الصحافة، مما كان سبباً أولياً لوقوفها بجانبه عندما انتهت مدة الدباس الثانية سنة 1934، وقال الفرنسيون بوجوب انتخاب رئيس جمهورية جديد.

- 22 -

بحارة الميناء في السراي

وتبعاً لذاك النشاط الصحفي الجديد، ظهرت جريدة «الليجور» الفرنسية سنة 1933 تغذيها أموال بنك فرعون شيحا ويوحي أقوالها وكتاباتها الرجل الرابع.

ظهرت جريدة «الليجور»، طالما كانت هناك جريدة «الأوريان» تقول قول الأستاذ اميل اده، فمن الطبيعي إنشاء جريدة باللغة الافرنسية تنتمي إلى بشارة الخوري.

وطبعاً، كان في تلك الأيام للجرائد الصادرة بالافرنسية مكانة أقوى جداً من جميع الجرائد العربية بالنسبة للمنتدبين، الذين يقرأون «الأوريان» و«الليجور» مباشرة باللغة الفرنسية، ولا ينتظرون ترجمات الجرائد العربية بطريقة غالباً ما تكون مزيفة ومقتضبة، فيضيع في ذلك الكثير من قوتها ومعناها.

ظهرت جريدة «الليجور» وظهر معها شيئان جديدان: ترشيح الرجل الرابع الشيخ بشارة الخوري لرئاسة الجمهورية، ونزول نسيبه وصديقه هنري فرعون المليونير ووجيه الكاثوليك الأول للميدان السياسي.

ولم يكن أحد يعرف حينذاك أن في رأس الشيخ محمد موالاً يريد أن يغنيه، ولا يتوافق مطلقاً مع دهائه وخبرته السياسية، لهذا تلقى الناس يومئذٍ بدهشة إعلان سماحته ترشيحه أيضاً لرئاسة الجمهورية مزاحماً بشارة الخوري صديقه وزميله،

ولم يكن هناك مانع دستوري يمنع هذا الترشيح. فمع اعتقاد الناس أن الرئاسة في لبنان يجب أن تكون مسيحية، ليس هناك مادة في الدستور تعين طائفة معينة لتلك الرئاسة.

ولكن تجاهل الشيخ محمد - عندما أعلن ترشيحه - الحقيقة السياسية المعلومة، والتي كان هو نفسه يقولها في كل مناسبة، من أن لبنان ليس منفصلاً عن باقي البلدان العربية إلا لأن له طابعاً مسيحياً دولياً معروفاً، مما يقضي أن يكون رئيس جمهوريته ممهوراً بهذا الطابع، وخصوصاً في ظل انتداب افرنسي جاء إلى هذه البلاد مرتكزاً

على أساس تقاليد وصداقات فرنسا التاريخية مع نصارى الشرق، وقد أقامت فرنسا نفسها منذ أجيال حامية لهم،

لهذا اصطدم ترشيح الشيخ المسلم لرئاسة الجمهورية بالفرنسيين قبل الجميع. وبعد ذلك اصطدم بالانعزاليين اللبنانيين الذين يريدون لبنان دوماً مصطبغاً بالصبغة المسيحية مهما كثر عدد غيرهم فيه.

ومع هذه الحالة، ومع أن اميل اده كان من أركان الانعزاليين الأشد عنفاً، فقد رأيناه يأخذ جانب ترشيح الشيخ محمد، ويحاول إقناع الفرنسيين بقبول ترشيحه ويسانده في الصحف والأندية السياسية التي كان يسيطر عليها وأخذ يعمل كل شيء في هذا السبيل، وإذا لم ينجح في ذلك فلا يكون الخطأ منه مطلقا.

وتبارت أقلام الكتّاب في جدال عنيف، وقامت الجريدتان الافرنسيتان: «ليجور» التي تساند الشيخ بشارة الخوري، و«الأوريان» المعروفة بانتسابها للأستاذ اده، بحملات صحفية عنيفة، الواحدة ضد الأخرى، خرجتا فيها عن التحفظ التقليدي الذي كان مألوفاً في الصحف حتى ذلك الوقت، مما دشن عهد التشهير الصحفي الذي تتابع منذ ذلك الحين. وفتحت الجريدتان بالمناسبة قاموس المسبات والشتائم والاتهامات الفظيعة، هذه ترسلها للشيخ بشارة الخوري وتلك ترسلها لاميل اده.

وكانت ولاشك حملات الخباز والنقاش أبعد مدى وأكثر جرأة، لمعرفتهما أن المفوضية السامية لم تكن تنظر إلى ترشيح الشيخ بشارة الخوري بعين راضية.

وطبعاً، أزعجت هذه الحملات في البداية الكثيرين من أهل الرصانة والتعقل والمسالمة، ولكنها على طول الزمن، ومن وراء ترديد تهمها يومياً حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من كتابات الصحف، اعتاد الناس عليها، وما عادوا يجدون فيها أشياء جديدة جذابة.

واتضح بهذا المعنى، ومن الوجهة الصحفية، أن فن السب والشتم والتحامل على كبار الرجال تسهل الكتابة فيه جداً، فهو النوع من الكتابة يهضمه القارئ ويلتذ به ويقبل على شراء الجرائد لأجله.

وفي ذلك الزمن بدأت السوق الصحفية العاهرة، كسوق بنات الهوى، التي وصلنا إليها في هذه الأيام، والتي تجعل كل جريدة لا تتورع، عندما تكون هناك مناسبة، من سَبِّ السماء نفسها واتهام القديسين الأبرار بكل الموبقات.

فإنما وصلت الحال بالكاتب اليوم في حملاته التشهيرية على الناس، أنه عندما تضيق قريحته، يستعير حتى لغة البحارة على الميناء، أو لغة أهالي زحلة على البردوني، يَسُبُّ بها ويشتم!

* * *

في ذلك الوقت بدأت الحرب الصحفية في الأوريان ضد بشارة الخوري، وفي اللبيجور ضد اميل اده، وهي الحرب التي عاشت عشرين سنة، وظلت في قيد الحياة حتى بعد وفاة اميل اده، أي حتى اليوم الذي لبست فيه «الأوريان» في سنة 1948 ثوب الوقار، وصار رئيس تحريرها النقاش رجل أعمال وتجارة أكثر مما هو رجل قلم وكتابة.

- 23 -

الجمهورية الثانية ونشأة الكتلة الدستورية

اشتدت المعركة للرئاسة بين الشيخ محمد الجسر والشيخ بشارة الخوري لدرجة كادت تخلق نزاعاً طائفياً خطراً، مع أن الكثيرين من النواب الموارنة كانوا يؤيدون الشيخ محمد.

واستدرك الفرنسيون الأمر، وكانوا غير راضين عن الترشيحين. وقد يكونون هم الذين جعلوا اميل اده لا يرشح نفسه يومئذٍ، وذلك بالاتفاق معه، باعتبار أنهم كانوا مزمعين على عمل تحكمي تقتضيه الظروف. ووجدوا في ترشيح الشيخ محمد حجة لتحقيقه، وذلك في الحل الذي وجدوه مناسباً، إذ أوقفوا فجأة وبدون سابق إنذار مفعول الدستور والحياة البرلمانية، وعينوا في 30 كانون الثاني 1934، بقرار من المفوض السامي، حبيب باشا السعد رئيساً للجمهورية الثانية وذلك لمدة سنة واحدة جددوها سنة أخرى بعد ذلك.

وهكذا استيقظ المرشحان الكبيران في الصباح فوجدا ترشيحهما غارقاً في البحر.

وذهب كل منهما إلى بيته، وهو باق صديق الآخر.

إذ أنهما ظلا مدة ترشيحهما على أفضل الصلات، ولم يلجأ أحدهما للتشنيع بالآخر، بل أظهرا روحاً رياضية ارتاح لها الناس بأجمعهم.

ولم يكن قد جاء، بعد، الزمن الذي أخذ فيه المتزاحمون يخرجون في المعارك السياسية عن عقولهم وتوازنهم، ويجعلون الضغائن والأحقاد تتآكل قلوبهم، متخذين التباغض قاعدة لأعمالهم بعضهم ضد البعض الآخر.

* * *

جاءت الجمهورية الثانية عجوزاً متعثرة برجالها الكبار بالخبرة والقدر والسن.

حبيب باشا رئيس جمهورية، عبد الله بيهم سكرتيراً عاماً، بترو طراد رئيس المجلس، الأمير فائق شهاب رئيس الديوان.

وكل واحد من هؤلاء من عمر الخبز، ولكن مع ادعاء صارخ مبالغ به جداً بالفتوة الدائمة، وبالقدرة على اجتذاب الحسان. وهو ادعاء دعا جريدة معروفة أن تقول ذات يوم جواباً على تصريح لحبيب باشا السعد كان قال فيه إن حكومته جاءت لتقوِّم ما اعوجَّ في هذه السراي، فكتبت الجريدة تقول:

ـ كيف يمكن لهذه الدولة أن تقوِّم ما التوى، وهي لا يقوم معها شيء!

وأخذت هذه الكتابة تأثيراً سيئاً وغضباً بالسراي لأن هذا القول عن وهن رجالها أصاب في الصميم أولئك «الكازانوفيين» العتق، عندما وضعتهم الجريدة في عداد «جمعية عدم الإمكان» المؤسسة القديمة في جبل لبنان، التي كان أعضاء مجلس الإدارة قد شكلوها في ساعة مجون في أواخر عهد الأتراك، وذلك بالنسبة لدزينة الاختيارية العاجزين الذين كان يضمهم ذلك المجلس، وكانوا يعملون على إيهام الحسان أنهم ما زالوا أُسُودا.

وكان قد انطفأ ذكر هذه الجمعية منذ زمن بعيد واختفى أثرها عند الناس، إلى أن قامت في الآونة الأخيرة، وفي ساعة رضا الراقصة الشهيرة الفنانة تحية كاريوكا تبعث تلك الجمعية من قبرها، وتدخل عليها تعديلات وتنظيمات تتناسب مع رجال حكومات الاستقلال بعد راشيا وبشامون الذين التفوا حولها وفي رأسهم حبيب أبو شهلا وجبران النحاس وجبرائيل المر ـ وراحوا يطاردونها في كل مكان، فتتعب أخيراً منهم، وتهزأ بهم، وتلقبهم من جديد بأنهم من «جمعية عدم الإمكان»!

وكان غضب الباشا في ذلك الحين أقوى من غضب رفاقه الآخرين بالسراي، إذ كانت نفسه دوماً خضراء ولا يريد أن يعترف أن صبوته أصيبت بأي هزال، كما وأن رئيس المجلس النيابي الظريف اللبق الأستاذ بترو طراد كان أيضاً يغار كثيراً على شهرته كدون جوان!

وكان معروفاً بميزات عديدة حسنة، منها لباقته واجتهاداته التاريخية واستقامته وحفظه قصائد العرب على ظهر قلبه وعداؤه للنوم باكراً، وسهره الليالي في مجالس الأنس والأندية العالية. وكان معروفاً فوق هذا بجمهرة الخادمات الجميلات المستخدمات عنده دوماً الحاكمات حكماً عنترياً في دارته، مما كان يجعله يقول في ظرف جميل:

ـ طالما يلزمك خادمات فلماذا لا تأخذهن حلوات، ولو كن أغلى من البشعات؟

* * *

إذا ذكرنا عهد سكون وراحة وأعمال إصلاحية عادية، ليس فيها الشيء العبقري الكثير ولا الشيء السيئ الكثير، يجب أن نذكر الجمهورية الثانية ـ جمهورية حبيب باشا السعد ومعاونيه الأجلاء المحترمين.

وأخذت تمضي أيام هؤلاء الشيوخ الحاكمين بالسراي عادية هادئة، تمشياً على القاعدة المأثورة القائلة: «حكمة الحكم هي في ترك الأمور تدبر نفسها بنفسها، وفي ترك الأبواب المقفلة على حالها، فإنما في السياسة عندما تفتح باباً تعرف كيف تدخل فيه ـ ولكن لا تعرف غالباً كيف تخرج منه!».

وكانت حكومة الاختيارية، الحكومة الأقل فضائح ومتاجرات من جميع الحكومات التي عرفناها، أولاً لأن رجالها لم يكن عندهم النشاط اللازم والدم الحار وروح الاستثمار الجامح، وثانياً لأن الفرنسيين الذين كانوا يحكمون مباشرة بواسطة تلك الحكومة، أرادوا هذه المرة أن يُكذِّبوا أعداء الانتداب والنبهاء من الناس الذين كانوا ينكرون عليهم الخبرة والحكمة في الحكم.

وكانت حكومة الاختيارية من جانب آخر حكومة انتقال، جاء بها الفرنسيون طبعاً ـ كما قلنا ـ ليَفُضُّوا مشكلة ترشيح الشيخ محمد والشيخ بشارة لرئاسة الجمهورية، على أن يعودوا عندما تأتي المناسبة لترشيح جديد.

وكان الملاحظون الذين اعتادوا ارتياد السراي يشعرون أن طرق الإدارة التركية عادت لسراي البرج برجال لبنانيين كانوا موظفين كباراً بأيامها وأخذوا عنها أمثولات حكيمة في فن الحكم، ساعدت كثيراً جمهورية الاختيارية على تدبير أمورها وأمور الناس دون ضجة ولا مشاكل وبطريقة بطيئة تتفق مع أعمار أولئك الحكام المحترمين!

وإذا كان الشيخ محمد بعد توقيف الحياة البرلمانية ومجيء حبيب باشا رئيساً معيناً للجمهورية اعتزل في مصيفه في بحر صاف مثقلاً بالأمجاد والتعب، وحيث لم تمض عليه أشهر قليلة حتى استدعاه ربه إليه، فإن بشارة الخوري ظل في الوقت الذي سقط فيه ترشيحه محافظاً على نشاطه، فلم يأخذ أية هدنة للاستراحة واستقبل الفشل الأول برباطة الجأش التي تَفرَّد بها والتي استقبل بها كل فشل أصابه بعد ذلك، خلال الثماني عشرة سنة التي ظل يكافح ويخسر.

وحالاً، وبدون إبطاء، أخذ من جديد يجمع حوله أكبر عدد ممكن من محترفي السياسة الجبليين، الذين أتقنوا الفن أكثر بكثير من محترفي السياسة في المدينة، وذلك لأن التجارة والأعمال والحياة اللاهية العابثة في بيروت لا تترك لأبنائها وقتاً طويلاً للاشتغال بالسياسة واحترافها بطريقة متواصلة، في حين أن البطالة الدائمة في الجبل وفقدان أسباب اللهو والمسرات، جعلا أهاليه يعملون من السياسة والحزبيات والأشياء العامة مهنة حقيقية وتسلية دائمة، تعطيهم خبرة وسيعة وعارضة قوية، مما جعلهم، بعد انفصال لبنان عن تركيا وضم بيروت وأجزاء أخرى إلى جبل لبنان، أن يكونوا أساتذة السياسة في السراي والمجلس.

وفي ذلك الوقت دل تعطيل الفرنسيين لأعمال الدستور وتوقيفهم الانتخابات لرئاسة الجمهورية، ومجيئهم برئيس جمهورية مُعَيَّن، بطريقة تحكمية فجائية، على أنهم اعتبروا الحكم البرلماني الذي أعلنوه لعبة يتلهون بها، يحيونها متى كانت لهم مصلحة أو هوى فيها، ويعطلونها حين لا تكون فيه نافعة لهم!

في ذلك الوقت تنادى الشيخ بشارة الخوري مع كبار السياسيين المنتصرين له، والذين ماشوه في ترشيحه، يتعاونون معه ويؤلفون حزباً قاعدته حماية الدستور والحياة البرلمانية في البلاد ومحاربة الذين يعملون على المس بها، والحد من استئثار الفرنسيين في التلاعب هكذا بالنظام البرلماني وبالحياة الدستورية.

وكان من جراء ذلك أن اجتمعت الجمهرة المعلومة التي اتخذت - بتلك المناسبة - اسم «الكتلة الدستورية» وأقامت نفسها حارسة على الدستور والعمل على تثبيته، فلا يكون عرضة للأخطار، على هذا النحو، حسب أهواء المنتدبين المتقلبة غالبا.

وما كادت الكتلة الدستورية تتألف، حتى أجمعت على إعطاء قيادتها للرجل الرابع، وانبثقت عنها هيئة أركان حرب الحزب، تجمع في صفوفها رجالاً أقوياء، معظمهم من النواب الجبليين، تدفعهم روح المغامرات السياسية، والمطامع لاكتساب الشعبية والمناصب معا.

وهنا نتساءل - بكل سذاجة طبعاً - : هل كانت الكتلة الدستورية تقاوم الفرنسيين كما بدت حالاً تفعل عند تأليفها - لو كانت هي في السراي وكان خصومها الذين في السراي خارجها؟

* * *

نشأت الكتلة الدستورية وارتكزت منذ الساعة الأولى على بضعة سياسيين أقوياء نبهاء، مستعدين لمجابهة الأحداث بجرأة كبيرة، وقد اعتزموا أن يشقوا لهم طريقاً توصلهم للسراي والمجلس حيث أخذ خصومهم يتربعون.

وكانت هيئة أركان الحرب مؤلفة أولاً من كميل شمعون، الفتى الجميل، المحامي الجديد اللامع، والمثالي المتعصب في الوطنية اللبنانية والصديق يومئذٍ للمستر فورلنغ مستشار القنصلية الإنكليزية العامة في بيروت الذي أصبح بعد ذلك مستشار الشؤون الشرقية في حكومة لندن، وهي صداقة كانت بنظر الناس سنداً قوياً للذي يحملها.

ومنذ الساعة الأولى أخذ كميل شمعون يلعب دوراً رئيسياً في الكتلة الدستورية، فاقتطع حالاً لنفسه مكانة منظورة، وجعل نفسه حجة في تدبير أمور المقاومة وتنظيم الحزب.

ولقد اختصت الكتلة كلاً من أركان حربها برسالة معينة تقريباً، كان تصنيفها الحقيقي الواقعي كما يأتي: ناس للسياسة وناس للرئاسة!

وكانت رسالة كميل شمعون من جهة السياسة الخارجية والمحلية والبروبغندا والدعاية، خصوصاً عند القنصليات الأجنبية. ومن جهة ثانية كان عليه واجب تدبير الانتخابات والاستعداد لها، واكتساب الناخبين، وهو فن أتقنه كميل شمعون كثيراً، مما جعله يكون الحركة الدائمة لجميع الانتخابات التي جرت فيخوضها الدستوريون متحدين منظمين تماما.

وكان على المرحوم الشيخ فريد الخازن مهمات متنوعة في الحزب، فقد كان وزيراً مفوضاً للكتلة تجاه البطريركية المارونية، حيث يتمتع بنفوذ كبير، خصوصاً بعد انتخاب عريضة بطريركاً، كما أنه كان عليه أن يحمي خزينة الحزب - لا من الانهيار فقط، بل من نفسه أيضاً - فقد كان رحمه الله يحب المصاري ولكنه كان كساباً وهاباً، يأخذ مال الكنيسة، يهبه لجميع هؤلاء «الباش بوزق» واالبلطجية والقبضايات الذين كان يجرهم وراءه في كل مكان.

وقد كان عليه أن يجمع أنصاراً للكتلة الدستورية الجديدة، يحاربون لأجلها ويجعلون الناس تخشاها في القرى والدساكر، خوفاً من بطشهم وتعدياتهم.

وكان الشيخ فريد الخازن يختلط بالقبضايات ورجال السيف والمسدسات كثيراً، لأنهم يحبونه ويماشونه ويؤلفون حوله حصناً قوياً جريئاً يتكل على مسدساتهم ومختلف أسلحتهم وأجناسهم، ومنهم العدد الوفير من قرصان البحر المعروفين في شواطئ جونيه والفتوح والبترون، ثم أنه كان بطبعه يحسب نفسه من الأهالي، ويترك لباقي المشائخ الخازنيين أن يتبعوا تقاليدهم في الابتعاد عن العامة، يعتزلون وراء أرستقراطيتهم الفقيرة كثيراً، ويتنكرون له، فيذهبون للقول عندما كانوا يرونه يتعاون ويتوافق بدون كلفة مع الأهالي، أكثر مما يتعاون ويتوافق مع المشائخ:

- لا عجب في ذلك فإنه من الأهالي!

قلنا، كان يحب المصاري كثيراً، وأكثر من اللازم، يأخذها حيث يجدها، ولكن كيما يصرفها ويوزعها دون أن يقيم لها وزناً، وهذا ما دعا الشيخ بشارة الخوري للقول:

- للشيخ فريد الخازن يدان وسيعتان، الواحدة منهما أسرع من الأخرى، فلا يكاد يأخذ باليمنى مثلاً حتى يعطي باليسرى، على أن لا يبقى شيء له!

وكان سليم تقلا مستشار الكتلة بالأمور الداخلية وتنظيم الحزب، احتضنه بشارة الخوري منذ الساعة الأولى وأخذ يقذف به إلى الأمام. وكان سليم تقلا قد تدرب في الإدارة حتى وصل إلى مديرية الداخلية ثم إلى محافظة بيروت ورئاسة بلديتها. وهو منذ البداية، في نباهته ومقدرته ربط مصيره السياسي بمصير الشيخ بشارة الخوري يتعاون معه في كل الظروف والأوقات، مما حدا برئيس الكتلة الدستورية إلى أن يضمن له نيابة الكاثوليك عن الجبل ويجعلها وقفاً عليه ومن بعده وقفاً على أخيه.

فحين توفي سليم تقلا، وكان بعد فوق التراب، نادى بشارة الخوري بفيليب تقلا خلفاً له.

وجاء الخلف أهلاً للسلف، مما جعل الناس يتساءلون أي الشقيقين - الراحل أم القادم - هو الأكثر حنكة ونباهة!

وكان ميشال زكور الصحافي المجدد، صاحب مجلة «المعرض»، النائب عن الساحل، يمثل في الكتلة الدستورية الصحافة القوية، ويلعب سياسياً دور الثائر. فقد كان مثل «مارات» في عنفه وتَحزُّبه الصميم، وتعصبه للكتلة ولرئيسها مما جعله عضواً

بارزاً في الحزب، يضمن له صداقة أكثر الصحافيين، ومما جعله يجابه السلطات المنتدبة بجرأة غريبة عند الاصطدامات المتعددة التي أخذ يصطدم بها الدستوريون مع الفرنسيين حتى سَمَّاه هؤلاء بالولد المخيف.

وكانت له ألقاب أخرى طريفة عرفه الناس بها في المناسبات المؤاتية، مثلاً «سبع الشياح» مسقط رأسه، ومن حيث كان يرسل بقوة وجرأة غريبتين تهديداته للخصوم وللمنتدبين. وكانوا يلقبونه أيضاً بروميو زكور.

وكان ظريفاً يحب المجون، ويبقى صديقك مهما أسأت إليه، إنما إلى أن تنكر عليه الجاذبية التي يفترضها بنفسه - وقد تَوَهَّم أنها تسبي الحسان حتما!

ومات ميشال زكور في جبهة القتال، على مقعد وزارة الداخلية في حكومة ائتلافية كان يمثل فيها الكتلة الدستورية متحدياً يومياً رئاسة الجمهورية مع أنه أحد وزرائها.

وهو الوحيد بين الدستوريين الذي اشترك بوزارات اده الائتلافية، وظل عدوه لا يأتلف ولا يتجانس معه!

* * *

وكان الأمير خالد شهاب العنصر المسلم الأول الذي انخرط في حزب الدستوريين.

وبهذه الصفة اشترك حضرته دوماً في الحكومة الائتلافية التي كان الفرنسيون يفرضونها عند الحاجة، عندما كانوا يرون أن يضعفوا رئيس الجمهورية ساعة يشعرون أنه أخذ يستقوي عليهم.

والأمير خالد عاش دوماً مرناً وديعاً يتبع سياسة واقعية، لا يزينها شيء من العبقرية، كما لا يعيبها شيء من السذاجة والسماجة!

وكانت سياسته في الوزارة الائتلافية الأولى التي فرضها دي مارتل وجاء الأمير خالد فيها ممثلاً للكتلة الدستورية - مسالمة لدرجة جعلته يتعاون مع الرئيس اده خصم كتلته رقم أول، تعاوناً بعيداً، جعل حزبه يشتبه بإخلاصه ويرغب إليه الاستقالة!

وتمرد الأمير خالد على الحزب وقرر البقاء (سنة 1938)، وليس كل يوم يمكن للإنسان أن يكون رئيس وزارة!

وتجاه هذا التمرد غير المنتظر من الرجل الوديع الحمل، من الأمير خالد شهاب، تراجع الدستوريون عن إنذارهم له، وتغاضوا عن تعاونه مع الرئيس اده، خوفاً من عصيان الأمير خالد الذي قد يجعل الناس يعتبرون أن الكتلة مفككة الأوصال، فلا يعودون يحسبون لها حساباً، إنما على أن يخفف الأمير خالد من تعاونه مع الأستاذ اميل اده، وإن كان الدستوريون - كما يقول الشيخ فريد الخازن - لا يجدون خطراً كبيراً عليهم، يمكنه أن يأتي من أي سلوك سياسي يقوم به رجل من الناس الملاح، مثل الأمير خالد.

وهو ذات الأمير خالد شهاب الذي حمّله الانقلاب الجديد في تشرين الأول 1952 مسؤوليات الحكم ومقدرات الثورة، وظل الآن كما بالأمس، السياسي العادي المسالم الواقعي - الذي لا يمكنه أن يضر كثيراً ولا يمكنه أن ينفع كثيراً. والذي لم يكن يجد في حزبيته ما يمنعه أن يكون أقرب الناس للأحزاب الباقية المعادية للدستوريين، وعلى الأخص الرئيس اميل اده عندما ألّف وزارته الائتلافية في أيام رئاسته.

وكان اميل اده يقول في المناسبة:

- لا شك أن بشارة الخوري ليس حقوداً ولا يكرهنا للدرجة التي نتصورها، فهو لو كان كذلك لأرسل لنا ممثلاً عن الكتلة الدستورية في الوزارة الائتلافية رجلاً أقل مسالمة ووداعة وحباً للتعاون والسلام من الأمير خالد!

وهذه السياسة التي اتبعها الأمير خالد في الوزارة الائتلافية دعت طبعاً الكثيرين للاشتباه به، وللزعم أنه كان يتلاعب بدستوريته ويُسَلِّم أموره لرئيس الجمهورية اميل اده، مستضعفاً أمامه، مما كان فيه بعض حق، ومما كان للأمير خالد فيه بعض العذر، وذلك لما كانت توحيه شخصية اميل اده النابهة من هيبة وخشية، ومن لباقة في معرفة اكتساب الرجال الذين كانوا يقتربون منه مهما كانوا يضمرون له من خصومة.

وقد رأينا بعد ذلك كل دستوري حتى أشدهم عداءً لاميل اده، لا يكاد يدخل في وزارة ائتلافية في عهده إلا ويتجانس نوعاً ما معه.

هكذا جرى مثلاً للأستاذ كميل شمعون، وللأستاذ حميد فرنجية، الشخصيتين الأكثر بروزاً بين السياسيين المعارضين، عندما كانت سياسة الفرنسيين «السويعتية» تجعلهم يجمعون الخصوم في وزارة واحدة.

ومع أن ميدان العمل السياسي للكتلة الدستورية كان بالأحرى جبل لبنان حيث الأهالي، تبعاً دائماً لميلهم الفطري للاشتغال بالسياسة، أخذوا ينضمون بطريقة منظمة للأحزاب التي تقوم، وهذا بالعكس - كما قلنا سابقاً - عن باقي المناطق والمدن الساحلية، التي أمامها ميدان الأعمال تجول فيه وتصول، وتنشغل فيه عن السياسة وأحزابها، وهذا كان السبب أنها حتى الآن لا تعرف التنظيم الحزبي الذي يعرفه جبل لبنان، وتبعاً لهذا رأينا الأحزاب السياسية التي تقوم بالجمهورية اللبنانية - ومنها الأحزاب المنظمة تنظيماً كاملاً - تولد وتتنظم وتتثبت في جبل لبنان.

يرجع ذلك - كما قلنا أعلاه - قبل كل شيء للبطالة الدائمة في القرى والدساكر، وهي بطالة مدهشة تجعل الأهالي دوماً في إفلاس وطفر، ولكن دوماً بأعجوبة غريبة لا يحتاجون ولا يجوعون ويشبعون بأعجوبة، كانت دوماً موضوع دهشة الملاحظين، يغذيهم خصوصاً شغف كبير بالسياسة يكاد يكون نوعاً من المرض.

فالسياسة عندهم مثل حب النسوان ومثل القمار ومثل الإدمان على الحشيش.

قلنا، مع أن الكتلة الدستورية اتخذت جبل لبنان حقلاً لنشاطها السياسي الحزبي، فهناك عناصر قوية انضمت إليها من غير جبل لبنان أيضاً، مثل الأمير خالد شهاب نائب الجنوب يومئذٍ، ومثل محمد العبود نائب عكار الذي جاء للحزب يحمل أسطورة ملايين والده عبود بك العبود - ويحمل معها أطماعه الأستوزارية - وعاطفته القوية نحو بشارة الخوري.

وكان والده عبود بك العبود يساعده ويسانده بالأكثر ليس في ماله - لأن عبود بك لا يحب كثيراً صرف المال - بل في حذاقته ودهائه اللذين جعلاه يملك ثلاثة أرباع سهول عكار.

وكان صبري بك حماده رسول الشيعة عنصراً قوياً في الكتلة يحمل لها تأييد عشائر الدنادشة وجعفر والحماديين، أسياد الجبال والمغائر في بلاد بعلبك والهرمل، ويحمل إليها أيضاً نشاطه السياسي القوي الذي تحدى به أخواله مشائخ الهرمل الأولين في الانتخابات التي ربحها، وجاء للكتلة يحمل معه كذلك رائحة الحشيش، وهي الرائحة التي رافقت - عن خطأ أو صواب - حياته السياسية بأجمعها، وكان خصومه دوماً يشمونها أكثر من غيرهم بكثير، فيحاربونه بها. وبطريقة متواصلة يخترعون

الروايات والحكايات المختلفة عن متاجراته بالحشيش، مما جعل أسطورة الحشيش ترافق رئاسته الطويلة القوية للمجلس النيابي، حيث جاء وقت كان حضرته في تلك الرئاسة يسيطر سيطرة كاملة على المجالس التي يترأسها.

ولكن أي زعيم في بلاد البقاع ـ ومن بعدها في بلاد عكار ـ يحترم نفسه ويملك حقولاً، ولا يزرع فيها الحشيش، مما كان وقد لا يزال شيئاً عاماً، وفيه الكثير من الأرباح والبطولة أيضا؟

فإنما عمت زراعة الحشيش دوماً ومنذ عهد الأتراك سهول البقاع وبعلبك بالرغم من مطاردة الحكومات، مما جعل الذي عنده حقل ولا يزرع الحشيش فيه يعتبره الناس جباناً خائفا!

وصار اتهام السياسيين بعضهم بعضاً في هذه البلاد بزراعة الحشيش وتهريبه طريقة للانتقام من بعضهم بعضاً، ولم يوفر غير العدد القليل منهم.

فإنما هو اتهام يلصقه غالباً الناس هنا بخصومهم لتسويد صحائف هؤلاء، وللنيل منهم كما لو كنا رجعنا لعهد الأتراك عندما كان الواحد منا يتهم عدوه بمسبة السلطان، وكما انتهت الحال الآن باتهامنا بالشيوعية، أي رجل نريد له شرا.

ونحن نبحث بالحشيش الآن من هذه الوجهة، فإنما إذا كان خصوم الدستوريين اتهموا صبري بك حماده وغيره من رفاقه بتهمة زرع الحشيش وتهريبه، فإن الدستوريين يساعدهم يومئذٍ بذلك مدير الأمن العام المسيو كولباني، وصلوا إلى اتهام الأستاذ اده نفسه بزراعة الحشيش بقرية «عانا» مزرعته في البقاع. ولحسن الحظ أنهم اتهموه بزراعة الحشيش فقط، ولم يصلوا لاتهامه بتهريبه...

ونذكر بأجمعنا عندما أراد مدير الأمن العام المسيو كولباني أن يخلق للرئيس اده المشاكل، بعد أن سلَّطه دي مارتل عليه، فذهب يفتش بطريقة علنية عن الحشيش في مزرعة رئيس الجمهورية اللبنانية.

ولا شك أن هذا العمل أضحك دي مارتل كثيراً، وهو الذي لم يكن يتورع عن شيء للنيل من اميل اده، بعد أن ساعده لأن يكون رئيس الجمهورية وبصوت واحد، فكان هكذا يستعمل كل الطرق لإخجاله وتصغيره!

وكان اميل اده يظهر سخطه بطريقة ماضية لهذه التهمة، ويدفعها عنه ويذهب إلى مطاردة الحشيش وزراعته وتهريبه في كل مكان، كيما يثبت أنه فعلاً عدو هذا المخدر المخيف واللذيذ معا.

وكان اتهام اده بزراعة الحشيش كاذباً طبعاً، ولكنه عمل ضجة كبرى في صحف فرنسا وغيرها، إذ ليتصور القارئ دهشة الفرنسيين ودهشة لندن ونيويورك وبرلين وغيرها، عندما تقول الجرائد إن هناك في الشرق أحد رؤساء الجمهوريات يزرع المخدرات ويتاجر بها.

ومنذ ذلك الحين امتدت وتوسعت تهمة وسعاية السياسيين بعضهم بعضاً بالمتاجرة بالحشيش، وصارت التهمة عادية ـ صحيحة أو مخطئة ـ حتى بلغت المبالغات الكبرى، خصوصاً عندما وصلت إلى القطار الملكي الذي أرسلته الحكومة المصرية لبيروت قبل حرب فلسطين، يحمل الوفد اللبناني الذاهب لمصر بعد استقلال البلاد للاشتراك بالاجتماع الأول للجامعة العربية. وكانت السيدة المبجلة عقيلة رئيس الجمهورية اللبنانية قد سافرت يومئذٍ في ذلك القطار ترويحاً للنفس.

وبلغت الخصومة بين الاديين، وبين بشارة الخوري، أنهم قالوا إن ذلك القطار كان يحمل كمية كبيرة من الحشيش يُهرِّبها الخوريون لمصر، تحت حماية الحصانة الدبلوماسية، وأنه ليس أعضاء الوفد هم مهربوه فقط، بل تشترك معهم أيضاً السيدة عقيلة رئيس الجمهورية نفسها، وهي تذهب لمصر لتحرس ولترافق الحشيش الذي تأخذه معها!

* * *

ولم ينخرط حميد فرنجية في الكتلة الدستورية إلا بعد وفاة والده قبلان بك فرنجية الذي كان في نيابته صديقاً ومناصراً للشيخ بشارة الخوري، ولذلك عندما جاء ابنه نائباً خلفاً له ارتبط حالاً بالشيخ بشارة الخوري وأصبح من مناصريه الأوَّلين ورفيقه السياسي المعزز.

ومنذ البداية ظهرت شخصية حميد فرنجية قوية متعصبة، تأخذ الأمور بأجمعها بطريقة جدية لا تقبل في أمور الدولة والمجلس استهتاراً ولا مجوناً، بل تريد للدولة هيبة كانت هذه الأخيرة تضيعها لتقول نكتة ظريفة، أو لتقوم بعمل ارتجالي فيه الهزل والمسخرة.

* * *

قلنا تألفت الكتلة الدستورية من جانب.

وطبعاً تنظمت مقابلها من الجانب الآخر كتلة اميل اده، ودعي رجالها في ذلك الحين بالاديين - إذ أن الكتلة الوطنية الحالية لم تكن رأت النور، وقامت مزاحمة شديدة بين الكتلة الدستورية وبين الاديين، على اكتساب أنصار من الزعماء المسلمين، وحضرنا حينذاك سباقاً غريباً نشيطاً لا يكل ولا يتعب في هذا السبيل، فإنما كل حزب يقوم ولا يكون فيه زعماء مسلمون لا يمكنه أن يُلَقِّبَ نفسه ممثلاً سياسياً للبلاد، بل كنا نعتبره ممثلاً طائفياً فقط. وهنا يجب القول إن بشارة الخوري، مع أنه يجمع في حزبه أكبر العناصر المارونية، استطاع أن يجمع أيضاً عدداً من السياسيين المسلمين الكبار.

ومع أن وجهاء بيروت كانوا محسوبين على اميل اده، مع اعترافهم بتعصُّبه المسيحي، فإنهم كانوا يعتبرونه ابن البلد وكان يعرفهم ويعرفونه منذ الحداثة.

وكان لحزب الاديين - كعنصر ماروني شديد المراس - روكز أبو ناضر، الملقب بضبع صنين. كان رئيس أركان حرب الحزب، يدير الأمور بحنكة وبرأس كبير جداً، ولا يتورع من النزول وحده للميدان ينازل الدستوريين بأجمعهم.

وكان الرجل مستهتراً أيضاً وظريفاً، وليس عنده شيء من الصلف، مما جعل خصومه يتهمونه أيضاً بحب المال والمتاجرات والإثراء من وراء صفقات متنوعة، حتى من وراء بيع مقابر سن الفيل الأرمنية المشهورة!

وكان الناس على كثرة ما قيل عنه بهذا الصدد يصدقونه فيه، حتى اليوم الذي دخل فيه الوزارة مع خير الدين الأحدب، وأثبت فيها تَجرُّداً واستقامة لم يكونوا منتظرين من رجل له ذلك الصيت العاطل الفظيع.

وفي جو مضطرب خلقته الحرب القائمة بين الرجلين الكبيرين بدأت معركة الرئاسة للجمهورية الثالثة (سنة 1936)، وكانت المفوضية السامية قد فتحت بابها يومئذٍ. وهي المعركة التي تتابعت بعد ذلك وظلت، كما قلنا سابقاً، هائجة صاخبة خلال الثماني عشرة سنة الأخيرة، وهي التي شطرت البلاد إلى شطرين سياسيين تسيطر على كل جانب سياسة الأحقاد والضغائن، ويعمل كل منهما ليس فقط لكسب خصمه، بل لتحطيمه نهائياً، وبأية وسيلة كانت.

ومع أن تلك المعركة هدأت نوعاً ما في هذا الوقت الذي نكتب فيه هذه المذكرات، بعد اعتزال الشيخ بشارة للرئاسة - ولكن من يعرف، فقد تبعثها الأيام عن جديد، طالما أن نجلي الأستاذ اده ورثا عن والدهما الروح السياسية الحزبية التي كانت تحارب بشارة الخوري بدون هوادة وبدون شفقة، وطالما أنهما أقسما على ضريح والدهما ألا يتركا سياسة الانتقام أبداً، وخصوصاً أن بعض السياسيين يقولون إن عزلة بشارة الخوري، بعد الانقلاب الجديد، ليس فيها شيء يدل أنها عزلة نهائية.

وفي هذه البلاد ليس من أحد يعرف ما إذا كان هذا الصواب الذي يراه اليوم لا يراه غداً خطأ.

وكما رأينا بعض أعداء الفرنسيين أيام الانتداب ينقلبون إلى أصدقاء فرنسا بعد الانتداب!

وكما رأينا مثلاً، كمال جنبلاط، يتهم الأستاذ اميل اده وجماعته بالخيانة العظمى يوم راشيا ويتحالف معه بعد ذلك ويحالف من بعده نجليه يوم الانقلاب، ثم يتعادى الفريقان عن جديد في انتخاب الشوف الفرعي للمقعد الذي تركه الأستاذ كميل شمعون عندما صار رئيس الجمهورية اللبنانية (سنة 1952)، كذلك نرى الكثيرين من أعداء وخصوم بشارة الخوري يذهبون اليوم لقصر «الكسليك» يستشيرون ويصادقون!

ـ 24 ـ

قصر المفوض الطاهي الصامت بونسو

وكان في ذلك الزمان قد وصل إلى هذه البلاد مفوض سام جديد يخلف المسيو بونسو المفوض السامي الذي كان ملقباً بالطاهي، وكان معروفاً بالرصانة والسكوت وابتعاده عن المجتمعات والحياة العامة المحلية، مما كان موضوع مجادلات ومناقشات عديدة في ذلك الحين.

ولم يتفق الناس إذا كانت هذه الصفات بالمسيو بونسو تأتيه عن نباهة ودهاء، أو عن طبيعة متقاعسة متراخية كسولة، وكان بعضهم قد أطلق عليه لقب المفوض الطاهي لما كان يظهره من شغف بطبخ طعامه بنفسه، ولتردده في هذا السبيل على مطعم أبو عفيف المشهور حينئذٍ في ذلك الوقت، يتعلم على طهاته فن شوي الشاورما، وصنع الحمص والفول بالطراز اللذيذ الذي عرفناه في ذلك المطعم!

وقال كثيرون يومئذٍ بالمناسبة عن هذا المفوض السامي إن الرجل الذي يحب بطنه يطلسم عقله!

وحفظ المسيو بونسو فن شوي الشاورما وعمل الحمص والفول جيداً، وكان في أكثر أوقاته يعتزل إلى المطبخ بقصر الصنوبر، يتدبر بيده لغذائه الألوان اللبنانية الجديدة، وكان يقول إنه سيحمل مذكرة عن طريقة طبخ هذه الألوان لفرنسا، ويجعلها تروج عند الفرنسيين، مما يعمل بواسطتها دعاية للبنان وتعريفاً إليه عن طريق البطن، الذي هو أفضل طريق للبروبغندا بالعالم.

وكان يتكلم بلذة عن مهارته في الطبخ، مما كان يجعل مدعويه يتملقونه كثيراً، وينالون حظوة عنده عندما كانوا يظهرون إعجابهم بطبخه، ويُظهِرون رغبتهم في تناول الألوان التي يعملها بيده.

وكانت حياة المسيو بونسو المنزلية حياة هادئة ساكنة جعلت قصر الصنوبر أشبه بالأديرة. ولم يعرف الانتداب أياماً هادئة ساكتة أكثر من الأيام التي قضاها هنا، والتي لم يتخللها من القضايا والمشاكل غير قضية الأمير لطف الله التي رويناها سابقا.

وظل قصر الصنوبر مثل الدير، حتى جاء الكونت دي مارتل خلفاً للمسيو بونسو (سنة 1935)، وما كاد هذا الأخير يستقر في القصر حتى أخذ ذلك القصر يستصرخ السماء من اليقظة الفظيعة التي أيقظه إياها المفوض السامي الجديد، وقد جعله حالاً ـ بعد ذلك السكون الرهيب الكامل ـ عاصفة هوجاء للولائم والحفلات والأعياد الصاخبة حتى الرومانية منها، وللاجتماعات السياسية وللفضائح المتتابعة!

* * *

وكانت وزارة الخارجية الفرنسية قد قدمت لنا مفوضها الجديد بسوريا ولبنان الكونت دي مارتل ببيان رسمي أصدرته يوم تعيينه، فصوَّرته كمستشرق سياسي كبير عارف بأمور بلادنا، وذلك ـ على زعمها ـ لاختباراته العديدة المختلفة التي اكتسبها في البلدان الصينية، إذ كان سفيراً لفرنسا ببكين، ولهذا السبب رأت وزارة الخارجية الفرنسية أنه يجب أن يكون قد أصبح خبيراً بأمور لبنان وسوريا كما لو أن بكين على مرمى حجر من بيروت ودمشق!

وهذا البيان دعا يومئذٍ الأمير مجيد أرسلان، الذي كان قد بدأ يظهر الكثير من الظرافة وخفة الروح، للقول:

ـ يجب أن يكون دي مارتل تَعرَّف على إخواننا الدروز هناك...

قال الأمير مجيد هذا إشارة إلى الأسطورة القائلة بتقمص الدروز في الصين بعد الممات.

وبعد أن كان سلفه المسيو بونسو يتجاهل كثيراً تلك المشادة الحزبية القائمة بين اده وبين الشيخ بشارة الخوري قاصداً بذلك أن لا يجعل لها شأناً كبيراً أمام الناس فلا يتخيلونها شيئاً حيوياً في حياة البلد السياسية، رأينا الكونت دي مارتل يتبنى تلك المشادة حالاً وبحماس غريب، وذلك في اليوم الأول لوصوله إلى هذه البلاد، ويأخذ في إذكاء نيرانها بجميع الطرق، ناصباً شباكه حولها، متجاذباً الرجلين الكبيرين بتلك الخيوط غير المنظورة التي تَفَرَّد بها، وهذا حسب أهوائه وساعات الغضب أو الرضا عنده، مما جعل الناس يتخيلون ـ والحقيقة هكذا ـ أن الكونت دي مارتل كان يجد في مشادة السياسيين المتزاحمين موضوع لهو وسلوى من جهة، وموضوع سخرية وتلاعب بسياسة البلاد وبرجالها من جهة ثانية، محاولاً

ـ كما اتضحت نواياه بعد ذلك ـ جعل كل سياسي في لبنان موضوع هزء من جانب الأهالي، ودمية يلعب فيها كما يشاء!

فالمسيو دي مارتل كان ذكياً، وكان ساخراً، ثم ـ وقبل كل شيء ـ كان ملتهياً لاهياً، يلعب ويتلاعب بكل الأمور، ولا يحترم شيئاً ولا يُحَرِّم شيئا.

لقد كان الأستاذ الأكبر في مدرسة المستهزئين، وهي مدرسة فتحها كبيرة وسيعة في السرايات بهذه البلاد!..

ومع ذلك بين المفوضين الساميين الذين تعاقبوا علينا، لم يمارس مفوض سام صلاحياته الكبرى الديكتاتورية بطريقة هازئة ساخرة ونابهة أيضاً مثلما فعل المسيو دي مارتل!

لقد كان دأبه أن يجعل كل شيء موضوع عبث وسخرية، وبين المفوضين الساميين الذين تعاقبوا علينا لم يحاول أحد حتى الجنرال ساراي نفسه إخجال أهل السياسة وتصغيرهم وتحقيرهم أكثر مما فعل دي مارتل!

وكان يكتب كل ما يجول في رأسه إلى صديقته الحسناء، مدام دي كاركوف، وكان قد انتقاها بين سيدات السلك الديبلوماسي، ومع كل ما كان له من سلطان على الناس، كان لها هي من سلطان عليه، وكانت شقراء وصبية وجشعة ومغامرة، جاء بها زوجها من بلاد الروس، واصطفاها دي مارتل، وجعلها تلعب تجاهه دور «البومبادور» تتدخل في السياسة وتبيع رجالها بالمزاد العلني، ولا يعمل الصديق شيئاً بدون مشورتها ورضاها، وهي تحيط نفسها بصفوة من أهل المتاجرات والاستثمارات، لا يحرِّمون شيئاً فيها.

ومع أن الصديقين كانا يتلاقيان يومياً، وفي كل مكان، خصوصاً في البيوتات الكبرى التي كانت تُسهِّل للديكتاتور اجتماعاته إليها، فقد كانا أيضاً يومياً يتبادلان الرسائل، وهي رسائل كان يضمنها الصديق كل أسرار الدولة وخفاياها، وكان قد كتب لها بالصدد الذي نتحدث عنه الآن يقول:

«يكفيني أن ابتسم لهذا السياسي، كيما أرى سحنة خصمه تنقلب إلى سحنة شيطان مرتعد، مما يجعلني أعرف مقدار ما يجعل الحسد صاحبه بشعاً قبيح المنظر!»

وكانت له روح عابثة، ولربما شريرة تتلذذ في خلق المشاكل والمشادات والمنازعات، ليس بين أهل السياسة فقط، بل أيضاً في كل الحقول.

وعلى وجه الخاص كان يتدخل في أمور الأزواج والعشاق، ويجد لذة خاصة في كشف الستر عن الحسان، وخلق الفضائح لهن، حتى قيل إنه كان يشي ببعض الزوجات لأزواجهن، فقط ليثير الفضائح، ويلتذ ويغتبط لحكاياتها، كما وأنه كان رسول التفرقة والتعصب في الأوساط الاجتماعية العالية التي فتح لها باب قصره على مصراعيه، ترتاده جماعات مختلفة منها، وذلك بعد أن كان ذلك الباب مقفلاً محترماً بأيام سلفه، كأنه باب «السكرستيا»!

ووصل به حب الشر أنه كان يغذي بعض الصحف من الجانبين، كيما تتهاجم وتتشاتم وتتضارب بعضها مع بعض!

ثم لا نبالغ أيضاً عندما نقول إنه في عبثه بأمور أصدقائه البيتية أفسد الحياة الاجتماعية بالبلد، خصوصاً بعد أن جعل قصر الصنوبر ملتقى أهل المغامرات وسيدات الحب والغرام.

وكانت تلك البيئة التي فتح لها بابه وجدت في ذلك القصر من المغريات وطرق العبث ما جعلها تعيش في جو حافل بالرزايا.

وكانت له لغة هازلة ساخرة ضاحكة دوماً حتى في الأمور الخطيرة جدا.

وفي كل صباح حالاً عندما كان يدخل مكتبه كان أول سؤال يلقيه على أول موظف يمتثل أمامه:

ـ هل من جديد بين بشارة واميل؟

وفي اليوم الذي لا يكون فيه جديد بين بشارة واميل، كان دي مارتل يغضب أولاً، ثم يخلق بينهما خلافاً جديدا.

كان يحتضن ـ على الأقل ـ الأستاذ اده جهاراً، ولكنه كان يُسلِّط عليه في الخفاء صنيعته كولباني مدير الأمن العام المخيف، الذي أرسلته باريس لهذه البلاد على أثر فضيحة ستافسكي، وكان قد لعب فيها دوراً مشبوهاً، قيل من ورائه إنه هو الذي دفع المحتال الشهير للانتحار، بعد أن سلمه بيده المسدس ليقتل نفسه أمامه، وذلك كيما

لا يبوح بأسماء الرجال العظام الذين كانوا شركاءه في أعمال النصب العظيمة التي كان يقوم بها!..

وكان دي مارتل يبعد بشارة الخوري عن القصر، ولكن يرميه بين أحضان مندوبه في الحكومة اللبنانية...

مع هذا الفارق: أن بشارة الخوري في نباهته لم يكن يستسلم بكامله لأحد، وكان دوماً، في محالفاته واتفاقاته مع الفرنسيين والسياسيين اللبنانيين في أيام الانتداب - ومع كبار الساسة والملوك والرؤساء بالبلدان العربية - يترك جزءاً كبيراً من نفسه ملكاً خاصاً له.

- 25 -

الكونت دي مارتل مجموعة متناقضات

وعمل دي مارتل انتخابات مجلس الخمسة والعشرين (في كانون الثاني 1934) فكان يجد مجالاً عظيماً محبوباً للاغتباط والتلذذ في تلك الانتخابات، عندما كان يحاور ويداور ويتآمر على المرشحين، ويجعل ترشيح كلٍ منهم يكلفه ثروته وثروة غيره، فلا يصل للمجلس إلا منتوفاً ليس عليه ريش!

وأثناء انتخاب مجلس الخمسة والعشرين، أُجيز لمدير الداخلية يومئذٍ الأستاذ صبحي أبو النصر - الذي كان رئيس مكتب الاقتراع ببعبدا، حيث كان لدى مارتل مرشحون خصوصيون - بقراءة أوراق التصويت كما يشاء، فكان مثلاً يقرأ اسم روكز أبو ناضر في الأوراق التي عليها اسم اميل لحود، وهكذا دواليك!

وهذا ما دعا اميل لحود في اليوم الثاني، عندما جاء لقصر العدلية، أن لا يجيب الشخص الذي كان يناديه كيما يحضر جلسة هو محام فيها. ولما نبهه بعضهم لذلك، قال:

- ولكن أنا اسمي روكز أبو ناضر... هل تعرفون باسم الناس أكثر من صبحي أبو النصر؟

ولكن في انتخابات مجلس الخمسة وخمسين، التي تلت انتخابات مجلس الخمسة وعشرين، كان دي مارتل أول من أفسد الانتخابات والناخبين بوجه عام وبطريقة علنية، عندما جعل الأصوات تُشرى وتُباع في الأسواق على عينك يا تاجر. وهو الذي كان يجعل كل مرشح يعمل هكذا، بعد أن يفرض عليه مبلغاً كبيراً من المال يصرفه في شراء الناخبين، فيشجع على المتاجرة بالأصوات. وهو الذي كتب ذات يوم بهذا الصدد لصديقته الحسناء ساخراً هازئاً، يقول: «إنني أعمل عملاً إنسانياً، فليس هناك من وسيلة لعبود عبد الرزاق ولإميل ثابت وغيرهما من المرشحين الأغنياء - تتفتح فيها الصناديق وتجعل الناخبين المساكين والصحافيين المفلسين يستفيدون إلا هذه الوسيلة. كما وأنه يجب أن تعلمي أن حصتك في كل هذا دوماً مسوكرة وقد ضمنتها لك منذ الساعة الأولى!».

وكان يبتهج جداً عندما كان يعرف أن اميل ثابت مثلاً فتح صناديقه وذلك لما كان يعرفه فيه من يد ماسكة.

وكان من جهة أخرى، بالرغم عن سياسته الهازئة في حياته الهزيلة وحكمه الساخر، يشتغل كثيراً ويحقق المشاريع الكبرى التي لم يسبق لغيره من المفوضين الساميين الافتكار بها.

وجعل نفسه في سياسته محور الدائرة ومصدر السلطات، أكثر بكثير مما كان يفعله المفوضون الساميون الذين قبله، حتى العسكريون منهم، كالجنرال غورو والجنرال ويغان والجنرال ساراي الذين كان عندهم على الأقل بعض الاحترام لبعض الأشياء.

ولكن دي مارتل لم يكن يحترم شيئاً، حتى ولا حرمة قصره، حيث ترك ذات يوم نجله الطائش يحيي حفلة سباحة في بحيرة ذلك القصر، سكب فيها كمية كبيرة من اكسير «الكانتاريد» الذي يثير الشبق، فما كاد السابحون والسابحات يستقرون في مياه البحيرة المعطرة المهتاجة، حتى أخذوا يشعرون بالشهوات تتآكلهم وتفقدهم عقولهم... يتبع ذلك مشاهد وروايات تهتكية يجد دي مارتل بمشاهدته لها اللذة التي يجدها كل كهل فاسق أمام مشاهد كهذه، ويلهو هذا النيرون الجديد ويغتبط وقد جلس على مقعده الوثير، ينظر إلى هذه الخلاعة مقهقهاً، وعيناه تزدادن بريقاً واشتهاء!

ومع هذه الغمرة من الأعياد والحفلات والمغامرات المتتابعة، كان دي مارتل يظهر نشاطاً سياسياً وإدارياً وعمرانياً كبيراً، لو وَجَهَّه نحو الخير لكان جعل للانتداب استقراراً أقوى ولفرنسا مكانة أعلى.

وكان ذلك النشاط يتناول المرافق العديدة ومواضيع كثيرة جدية، وكان من جهة مثلاً، يحكم بقوة وسيادة، ومن جهة أخرى يفسد ويخدع ويهزل!

هنا يوسع ميناء بيروت ويجعله ميناءً عصرياً، ويمد سكة حديد الجزيرة، وينشئ أول مطار في هذه البلاد، ويفتح الشوارع بالمدينة، ويساعد من الأموال المشتركة المشاريع الوطنية الكبرى.

ومن هناك يذكي نار البغضاء والأحقاد بين الرجال السياسيين الوطنيين المتزاحمين، وبين الأحزاب المتخاصمة.

ثم فجأة يرمي إلى الحضيض الرجال الذين يكون قد رفعهم بالأمس، ويعود بعد حين يرفعهم ليرمي الذين رفعهم قبلهم ويرميهم اليوم.

قال في رسائله لصديقته الحسناء: «لا يجب أن يرتفع أي رجل في هذه البلاد فَيَصِل إلى أكثر من زناري».

وهذه السياسة الاستهتارية الهزيلة التي تتبعها الكونت دي مارتل، جعلت الفرنسيين يفقدون كل هيبة، مما جعل الناس يخطون الخطوات الأولية الصعبة عادياً - نحو الوقوف بوجه السلطات الحاكمة فيهم، فأخذوا يتطاولون على الفرنسيين، ويجابهونهم بمعارضات سياسية لم يكن يجسر عليها أحد قبل ذلك، وهي معارضات كان الرجل الرابع يقودها ويضع خططها.

ومع أن المفوض السامي الجديد المسيو دي مارتل كان متحكماً وقوياً، فإنه كان أيضاً - عن عدم اكتراث بالأكثر وليس عن نفس حرة ولا عن جبانة - يتقبل ولا يقف بوجه العناصر الغاضبة الثائرة، اعتباراً منه أن الانتداب أقوى منها، ويستطيع وقت الخطر أن يظفر بها، فلماذا يعمل لها أهمية بملاحقته إياها ويجعل رجالها أبطالا؟

فالكونت دي مارتل كان قبل كل شيء يكره الأبطال، ولا يريد في هذه البلاد خلق أحد منهم.

وكان دي مارتل في روح المغامرة السياسية التي اتصف بها وفي عدم خوفه من طغيان الوطنية على الانتداب أول من شجع الوطنيين في سوريا ولبنان عندما طلب عقد معاهدة بينهما وبين فرنسا.

وكانت طبعاً المعاهدة تقضي بزوال الكثير من امتيازات وتحكُّم الفرنسيين في هذه البلاد.

ومع ذلك فإن دي مارتل - وليس الوطنيون السوريون - أول من قال بالمعاهدة، وأول من شجع الوفد السوري للذهاب لباريس ومفاوضة وزارة الخارجية فيها، ولم يكن الناس هنا قبل ذلك يأملون أنهم يصلون في يوم قريب إلى مفاوضة فرنسا - السيدة الحاكمة فيهم - بعقد معاهدة معها، تقول بالاستقلال مهما كان نوعه.

. 26 .

«لا إله إلا الله، والبطريرك عريضة حبيب الله»!

لم يكن أحد في هذه البلاد - خصوصاً بين السياسيين المسلمين بسوريا ولبنان - يعتبر أن سياسة دي مارتل المستهترة الهازئة، ستجعل بكركي صديقة فرنسا الأولى وقاعدة نفوذها في هذا الشرق منذ تسعمائة سنة، تصل لأن تدير وجهها نحو دمشق، ونحو زعمائها الوطنيين، أعداء فرنسا اللدودين، العاملين دوماً لطردها ورميها بالبحر!

ويأتي شكري القوتلي وجميل مردم وفخري البارودي والدكتور شيشكلي ولطفي الحفار ونسيب البكري وغيرهم وغيرهم من بطارقة الوطنية وزعماء الثورة السورية - يقودهم رياض الصلح، الذي كان قد أصبح يومئذٍ «غوبلز» القضية العربية وحامل أختامها - يأتون لبكركي يوم عيد البطريرك، ويقلبون ذلك العيد المفروض فيه السكون والسلام، إلى مهرجان صاخب وطني «كزونوفوبي» معاد لفرنسا، متحدياً انتدابها طالباً استقلالاً ناجزاً، جاعلاً بكركي تتنكر فيه رسمياً لـلأم الحنون، مع أنها كانت تربطها بها تقاليد ومصالح وصداقة الأجيال.

ويحمل يومئذٍ البطريرك عكازه وينادي بخروج بكركي على فرنسا، وبتعاونها الكامل المطلق السياسي والوطني مع الوطنيين السوريين، وتعلن بكركي استنكارها للمنتدبين، والمطالبة بجلائهم عن هذه البلاد!

* * *

أما سبب هذا المهرجان، وارتماء بكركي يومئذٍ بين أحضان الوطنيين السوريين خصوم الانتداب الفرنسي، فهو قرار الكونت دي مارتل - بالرغم من معارضة بكركي الشديدة وأهالي البلاد - بحصر الدخان، وإقامة ريجي عليه، واحتكار شركة الريجي وحدها صنعه والمتاجرة به وتحديد زراعته في البلاد.

وقد ثار البطريرك عريضة على هذا القرار دفاعاً عن حرية زراعة وتجارة الدخان للناس عامة، وبنوع خاص للرهبانيات التي تملك حقولاً وسيعة لهذه الزراعة أيضاً.

واشتد الخلاف بين بكركي ودي مارتل في هذا الصدد فخلق عداءً بينهما قوياً لدرجة أهابت ببكركي لإعلان الحرب على الانتداب، مما لم يكن أحد يعتبره ممكناً قبل

ذلك، ومما جعل رياض الصلح والوطنيين السوريين يجدون في هذا فرصة غالية غير منتظرة يجب انتهازها، يساعدهم بذلك ذاك المغامر المخيف خليل معتوق رجل البطريرك الأقرب، الذي أسماه بعضهم «راسبوتين» بكركي، فيأتون للبطريرك في عيده، ويقيمون له ذلك المهرجان التاريخي الذي رمى ببكركي بين أحضان السوريين - ولكن إلى حين طبعاً!

فإنما غبطته في وطنيته الصحيحة الكاملة كان معتاداً دوماً أنه يجعل سياسته تتطور مع تطور الحوادث، تجاه المصلحة اللبنانية قبل كل شيء، كما يفهمها هو.

وفي المناسبة، وكيما لا نترك شيئاً لا نقوله في هذه المذكرات، يجب أن نذكر أن غبطته وجد في حدث جميل قام قبل ذلك بدمشق تكريماً له، سبباً جعله يتعاون مع السوريين بطريقة صاخبة غاضبة.

وهذا الحدث، هو الذي كان المقدمة لمهرجان بكركي، وهو حدث لم يسبق له مثيل في تاريخ النصرانية بهذا الشرق، اغتبط له صاحب الغبطة لدرجة جعلته يفتح ذراعيه للسوريين، ويوافق بسرعة على سياستهم الوطنية الاستقلالية المعادية لفرنسا ولانتدابها.

كان البطريرك في محاربته للمسيو دي مارتل قد حمل على المجلس النيابي اللبناني يومئذٍ حملة شعواء، عندما أقر ذلك المجلس مشروع الريجي، ولم يخالفه غير نواب مسلمين، وصرَّح غبطته على أثر ذلك لصاحب هذا الكتاب أنه ليس غير المسلمين عندهم وطنية، وليسوا عبيداً للفرنسيين، كما هم النواب المسيحيون بالمجلس بلبنان.

وحمل فخري البارودي هذا التصريح بحماس غريب، وهو يجد فيه سلاحاً يحارب به الوطنيون الفرنسيين - إذ أن هؤلاء هذه المرة من بيت أبيهم ضُرِبُوا - حمل فخري التصريح وذهب للجامع الأموي يتلوه في صلاة الجمعة، فتحمس المؤمنون المصلون، ودعوا للبطريرك وهللوا وكبروا، وأخذوا يهتفون بالمسجد وفي الأسواق، بعد أن تجمعوا بهيئة تظاهرة وطنية «لا إله إلا الله، والبطريرك عريضة حبيب الله!».

وكان بعضهم يزيد على هذا الهتاف بقوله:

- والشيخ تاج الدين عدو الله!

وكان الشيخ تاج الدين رئيس الدولة السورية يومئذٍ، وقد انفصل عن الوطنيين وعاداهم، وأخذ يحكم باسم الانتداب ولمصلحته..

قلنا، اغتبط غبطته لهتافات وأدعية المصلين في الجامع، فكان من الطبيعي أن يجعله ذلك أيضاً يُقبِل بحماس على التعاون مع الوطنيين المسلمين ضد فرنسا، وقد جعله المسلمون في الجامع الكبير «حبيب الله»، مما يجب أن نحسبه أكبر وأسمى ثناء واعتراف عرفه رئيس ديني مسيحي من المسلمين!

* * *

ولكن ماذا كان موقف الزعماء السياسيين الموارنة من مهرجان بكركي، وأخصهم الفارسان الأغبران اده والخوري؟

لم يكن اده ببكركي ولا أحد من أنصاره، هذا إذا لم نحسب منهم صديقاً جديداً له، كان لا يمكنه بالنسبة لروحه التواقة لكل جديد، ولدخوله القريب في الميدان السياسي، وللنزعات المتخالفة التي كانت تساوره، والتي كان يعمل على توفيقها بعضها ببعض، مهما قد تكون عليه من تناقض وتعاكس، وللأطماع الكبيرة التي أخذت تتملكه وتقود أعماله...

كان هناك رفيق الأستاذ اده الجديد، الذي سيكون بعد الآن في هذا الكتاب ما أسماه اللبنانيون «مكيافيلي» لبنان: حبيب أبو شهلا.

لم يكن مضى زمن طويل على تعيين الأستاذ الدكتور بالحقوق الشاب الوردي حبيب أبو شهلا عضواً ببلدية بيروت، حيث أثبت حالاً شخصية قوية متلاعبة، تكهن لها العارفون أنها ستصل ليوم تتمكن فيه من جعل الأسود أبيض والأبيض أسود، كما ظهرت منها بسرعة بوادر كثيرة من الحذاقة واللباقة يساعدها بذلك شخصية تفرض نفسها بالطرق المختلفة - حيث تريد أن تكون - مع فتوة ناضرة ووجه جميل وكلام ظريف لبق وبد مبسوطة ومغامرات غرامية، تجتذب رواياتها دوماً الناس نحو أبطالها.

هو وحده من أصدقاء وأنصار اده كان ببكركي يوم المهرجان.

ولم يكن يستطيع أن يفعل غير ذلك، طالما أنه ومنذ ذلك الحين، كان يفرض على نفسه أن يكون من جميع العقائد الوطنية، ومن جميع الأحزاب السياسية، انتدابياً في المفوضية، ولبنانياً في سراي البرج، عربياً في دمشق، ليس صديقاً كبيراً للموارنة عند المسلمين، وليس صديقاً كبيراً للمسلمين عند النصارى..

وكانت الكتلة الوطنية السورية في ذلك الزمان تقوى وتشتد. وكان قد أصبح من المعروف أن الفرنسيين أخذوا يتصلون بها، وأن مهرجان بكركي قد يكون فوزاً لها، فكيف يمكن لهذا الانتهازي النابه الفهيم أن يترك فرصة مثل هذه تفوت، وهو الشمام رقم أول الذي يعرف ما سيصير بالمستقبل؟

لذلك جاء كما قلنا أعلاه إلى مهرجان بكركي، ولاحظ الناس أنه وحده بين أنصار الأستاذ اده اشترك في هذا المهرجان، ولكن بطريقة لطيفة ومتحفظة معاً.

إذ قد لا ينجح مهرجان بكركي.

والسياسي الفهيم، هو الذي لا يتظاهر مع سياسة قد لا يكون أكيداً من نجاحها!

ولكن إذا لم يكن هنا في مهرجان بكركي غير الأستاذ أبو شهلا يحمل شارة صديقه الرئيس اده، فقد كان هناك الدستوريون بأجمعهم، وقد وقفوا في الجبهة في مقدمة المتحمسين والخطباء، وذهب كل منهم إلى أبعد مدى في إظهار اغتباطه وتأييده لهذا التعاون السوري المسلم - اللبناني النصراني - الوطني المعادي للفرنسيين.

وقد بلغ الحماس في الدستوريين مبلغاً بعيداً جعلهم يقومون بمظاهرات عدائية كبيرة للفرنسيين، تشجّعهم بذلك ابتسامة زعيمهم بشارة الخوري، ولكن من بعيد جداً من زاوية قصية اعتزل إليها في قاعة الديوان البطريركي!

فإنما الرجل عرف دوماً أن يكون معتدلاً، وأن يحسب حساب الخير كما يحسب حساب الشر.

وكان دوماً أبعد نظراً من غيره، لا يقول اليوم كلاماً يعرف أنه في اليوم الثاني قد يضطر إلى إنكاره أو أن يقول عكسه...

وقد كان يعرف أن هذا التعاون بين أعداء الفرنسيين الدائمين وبين بكركي عدوتهم المؤقتة المرتجلة لن يدوم كثيراً، لذلك، أخذ بشارة الخوري في مهرجان بكركي جانب المستمع المحبذ الساكن، بدون إبداء أي مجهود، وهو يتبع بذلك سياسة الحكماء القائلة «انتظر ثم انظر!».

وفي مساء ذلك اليوم، عندما عاد البكركيون - كما أسميناهم يومئذٍ - إلى بيروت ودمشق، ذهب المسيو دي مارتل إلى مَرْبَع «الكيت كات» ترافقه صديقته الحسناء، وأخذ يسكر ويرقص ويهزل ويقوم بظاهرات صاخبة يريد من ورائها إفهام الناس الذين

- لربما - قد كانوا يتصورون أن مهرجان بكركي أزعجه وأغضبه، أن ذلك المهرجان لا أهمية له عنده، ولا ليسأل عنه!.

وفي مناسبة إدمانه على الخمرة في تلك الليلة، أخذت صديقته تتململ علناً، وتشكو من حركاته وهياجه وعربدته، فغضب عليها ونعتها عالياً أمام الحضور بالمرأة العمومية، وقال لها ختاماً لشتائمه:

- إني لا أسأل عنك كما لا أسأل عن البكركيين!.

ولكن الحقيقة - كما يُخَيَّل للملاحظين - أن البكركيين كانوا هاجسه في تلك الليلة، مما جعله يشرب كثيراً ويخرج - وهو ممثل فرنسا في هذه البلاد - عن كل رصانة، ويتشاجر علناً مع صديقته، التي انتهت أخيراً بأن صرخت بوجهه على مسمع من الحضور:

- كم يجب أن يكون صاحب الفخامة أزعر وقليل الأدب!

- 27 -

الرجل الذي جاء بكنوز كسرى

وإذا فرضنا ولم يكن دي مارتل أزعر كما نعتته صديقته، فقد كان هناك فارس للمغامرات، جريء مخيف، كان قد عاد مؤخراً من بلاد العجم يحمل كنوز كسرى التي وصلت إليه بطرق غريبة، ومن وراء مغامرات تشبه مغامرات علي الزيبق - كان هذا الرجل قد أخذ على نفسه أن يتولى تعريف الكونت دي مارتل كأزعر و«كانغستر» فأحاطه هنا وبباريس بعد خلافه معه بفضائح لا نهاية لها، وظل يلاحقه ويطارده حتى شهره بين البشر، وجعله يموت حسرة.

كان ذلك المغامر من محترفي السياسة المتلاعبين الأذكياء، ومن القائلين بالوطنية والنزاهة عندما تكون هناك أسباب مناسبة تدعو لهذا القول. وكان من المشاغبين الأولين، تستلفت شخصيته الأبصار وكان محباً للظهور لدرجة متناهية، يعرف كيف يحيط نفسه بهالة من الفخفخة والجاه والأموال والجواهر يرميها في وجه الذين يريد منهم أن يعظموه ويمجدوه، وخصوصاً بوجه الذين يريد منهم أن يزيدوا ثروته ويرفعوا شأنه، إذ أنه كان ضعيفاً جداً أمام المديح والإطراء.

وكان دي مارتل قد أسماه «الناباب» وهو اسم هندي يعطونه للمهرجاه الكريم السخي، الذي يرمي بالجواهر والمال على الطرقات، أسماه دي مارتل «الناباب» بالنسبة لتلك الثروة التي كان يتمتع بها ولجمهرة الحسان اللائي جمعهن حوله يقلدهن الحلي والعقود والهدايا الجميلة، والفساتين الثمينة، والجوارب الحرائرية النادرة المثال، وصناديق الحلويات، والشوكولاته الفخمة جداً التي كانت تصله من باريس أسبوعياً مع رسل مخصوصين.

وكان «الناباب» - قد جاء يحمل من إيران، عدا عن كنوز كسرى، ستة وثلاثين ألف كيس تنباك عجمي أصلي، كان يريد أن يبيعها هنا بالسعر الذي يوافقه، مما كان يجعله - لو استطاع - أن يزيد على مجموعة الحسان اللواتي أحطن به من كل جانب، مئة حسناء وحسناء جديدة، دون أن يعرضهن كثيراً للخطر، لأنه كان أيضاً من أركان «جمعية عدم الإمكان»!.

وممـا كـان يجعلـه يزيـد علـى عـدد الصحـافيين والسياسـيين الحـاملين لـواءه، الناشدين سجاياه ومكارمه مائة ألف داعية جديدة. وممـا كـان يجعلـه أيضـاً، وفـي كل ساعة، يحقق ما قاله عنه شاعر الأرز المعروف شبلي الملاط:

الواهـــــب المئـــــة الصفـــــراء معتـــــذراً

كمـــا رووا عـــن الملــوك منـــذ أزمـــان!

قلنا وكان «الناباب» يريد بيع تنباكه بالثمن الذي يوافقه، معتمداً على مصادقة الكونت دي مارتل، إذ لا يمكن لرجل لذات وبهجات وعبث وهزار مثل دي مـارتل أن لا يصادق مغامراً فظيعاً كريماً وقحاً سخياً متلاعباً مشاغباً تحيط به مئات الجميلات مثل خليل معتوق.

قلنا، وكان «الناباب»، أو بالحري راسبوتين لبنان، يريد بيع تنباكـه كمـا يشـاء، ولكن دي مارتل قفل أمامه هـذا البـاب، وذلك عندمـا أنشـأ بـالرغم عن الأهـالي شـركة احتكار الريجي الفرنسـية بـالأصل، والتي رفضـت حـالاً شـراء أي تنباك لمعتوق. أولاً لأسعاره الغالية، وثانياً لسياسته المعادية لفرنسا في ذلـك الحـين، مـع أنـها عـادت بعد زمن طويل فقبلت شراء جزء صغير من التنباك بثمن زهيد هي التي حددتـه، وذلك بعد أن عاد معتوق - إنما لمدة قليلة - إلى الفرنسيين تائبا!

وهكذا لم يفعل الكونت دي مارتل شيئاً يساعد صديقه بهذا المعنى، بل بـالعكس حاربه في تنباكه.

ولـم يسـتطع صديـق معتـوق، حبيب باشـا السـعد - وهـو الرجـل الوحيـد الـذي أخلص لـه معتوق حقيقة وظل على وفائه وأمانته لـه - لـم يسـتطع حبيب باشـا أن يعمـل شيئاً يساعد به صديقه في قضية التنباك.

حينئذٍ غضب «الناباب»..

غضب بالجرأة والمكارم التي غضب فيها بإيران، وقت حمـل ثروتـه وثـروة صديقـه السـردار أسـعد، وصديقـه الآخـر تمورتـاش وزيـر الماليـة عندمـا غضـب عليـهما الشـاه واعتقلهما وقرر إعدامهما - فدبر معتوق مؤامرة لانقادهما، كلفته مالاً كثيراً، أخذه طبعاً من كنوز السياسيين الكبيرين، اللذين كانا قد سلماه ثروتيهما أمانة لهما، يحفظهما لديه لبينما يخرجان من السجن، أو أنه يسلمهما لأهلهما إذا وقع الأجل المحتوم بهما.

وافتضحت المؤامرة ومات السردار وتيمورتاش بالسجن بـأمر مـن الشـاه طبعـاً، وهرب معتوق مع ما تبقى معه من كنوزه وكنوز غيره!

وجاء إلى دمشق ثم لبنان بجاه وفخفخة، تتبعه قافلة تحمل أخراج الذهب وأكياس الأحجار الكريمة، وتحمل أيضاً أسطورة «الناباب» العائد لـهذه البـلاد، يحمـل النجـوم والعجائب من السند والهند وبلاد فارس.

* * *

وطارد معتوق دي مارتل هنا وبباريس، تلك المطاردة المتتابعة المخيفة التي جعلته يصرف مئات الألوف في سبيل تقوية أعداء المفوض السامي في سوريا ولبنان.

ودفعته الحيلة لشراء صداقة وضمير صديقة دي مارتل، وهمـا صداقـة وضمـير كلفاه مبالغ كبيرة، وجزءاً محترماً من جواهره أهداها إياهـا، وانتـهى معـها بمسـاومة دنيئة جعلتها تبيعه رسائل دي مارتل لها - وفيها ذكر الفضائح السياسية التي تعرفها - وقد نشر منها معتوق بعد ذلك العدد الأوفر في جرائد باريس، عندمـا ذهـب إليـها يثـير الأوساط السياسية والوزارية والصحافية الباريسية على دي مارتل.

وكان هذا الأخير يأتي في رسائله من هنا وهناك غالباً علـى ذكـر أمـور سياسـية فضاحة، تدل علـى نزعـة ذاك الرجـل نحـو التجـني علـى الوطنيـين، والسـعي المسـتديم لتحقيرهم وجعلهم صغاراً أمام الناس.

كتب لها مثلاً بعد مـهرجان بكركـي الاسـتقلالي يقـول: «ألـم أقـل لـك إن فرنسـا مخطئة في سياستها السابقة بتقوية البطريرك الماروني لدوام نفوذها فـي هـذا الشـرق، وفي اعتبارها أنه إذا تخلى عن هذه الصداقة أضاعت ذلك النفوذ؟»

«والآن بعد اجتماع بكركي وخروج البطريرك علينا، نرى فرنسا قد بقيت سـيدة البلاد، وبقي الموارنة أصدقاءها».

وكتب لها في رسالة أخـرى: «إذا لـم أضـع اده ضـد بشـارة الخـوري، وبشـارة الخوري ضد اده، وأذكي فيهما نار البغضاء والتزاحم، فقد يفعلان ذلك بدوني!»

وكتب في رسالة ثالثة: «خذي من صديقك راسبوتين (أي خليل معتوق) كـل مـا تستطيعين، ولكن بسرعة، لأننـي قـررت أن أتخلـص منـه، فـهو وقـح جـداً، وخـرج عـن الدور الهزلي الذي طلبت منه أن يلعبه مع الوطنيين السوريين».

«كنت دوماً تقولين إن صداقتي لك يجب أن تجعلك صاحبة ملايين، والآن إني أعرف أنك جمعت بعضاً من هذه الملايين، ولكن يجب أن نجد لك طريقة تضاعفين فيها ثروتك، لهذا سأجعل الانتخابات النيابية القادمة باباً جديداً تكسبين فيها ما تريدين، فلا يصل نائب للمجلس إلا بعد أن يكون زارك وعمل واجبه. ومن هذا ترين كم أنا أحبك!»

وكتب لها أيضاً تلك الرسالة التي كان نصها السبب الرئيسي لاستدعاء الوزارة الفرنسية للمسيو دي مارتل من بيروت. كتب لها - قبيل انتخابات رئاسة الجمهورية اللبنانية (سنة 1936) بيومين يقول: «سأجعل المرشحَيْن لا يصلان ليوم الانتخابات إلا وكل منهما يكون فقد عقله أو فقد ماله، أو فقد الإثنين معاً. وإني أؤكد لك أن هذه هي الفرصة المناسبة جداً التي يجب أن تنتهزيها لتصبحي كثيرة الملايين!».

هذه رسائل مستغربة هازلة محتقرة، جميلة وقبيحة معاً، لو كنا نستطيع الوصول إلى نصوصها كاملة لكانت تؤلف لوحدها صوراً مستغربة مدهشة لحياتنا السياسية في ذلك الوقت، ولما كانت عليه الشخصيات الكبيرة في هذه البلاد من مدهشات، ومن نفوس مجهولة صغيرة لم نكن نعرف عنها شيئاً تاماً، وكنا ننخدع بظواهرها البراقة والجبروت التي يُخَيَّل لنا أنها تحمل صولجانه.

وقد ظهر دي مارتل في تلك الرسائل - كما هو بالحقيقة - رجلاً مخيفاً فظيعاً، لم يراع لا الشر ولا الخير، ولا الحسن ولا السيئ، مما جعل الناس في هذه البلاد يحارون بأمورهم، ويتساءلون إذا كانت فرنسا فقدت عقلها كيما ترسل إلى هذه البلاد ممثلاً لها رجلاً مستغرباً كالكونت دي مارتل.

والناس عندنا، بالنسبة لماضي المتاجرة والخداع والغش السياسي بينهم وبين الأتراك، أو أنهم مفسودون نهائياً، أو أن عندهم استعدادات كاملة كيما يَتَعمَّدوا ويقترنوا بالفساد.

وجاء هذا الرجل الساحر يحكم فيهم ويبيح لهم كل شيء فتبعوه.

ولقد انتهى معتوق نهاية لم تكن منتظرة من رجل جابه دوماً الحقائق في حياته، فقد وصل ذات يوم أخيراً لأن يكون من أتباع داهش الساحر المشهور الذي خلق في بيروت جماعة جديدة تتبعه كرجل فوق العادة، وتقول معه بالمذهب الداهشي الجديد، الذي يرتكز على أعمال السيما والسحر وقراءة الغيب، قلنا وصل معتوق ذات يوم لأن

يكون من أتباع داهش، وكان قد ذهب إليه مؤمناً به طالباً منه أن يعيده إلى الشباب يتمتع أيضاً بحب النساء، ذلك الحب الذي كان ربه المعبود، وقد كرس حياته بأجمعها تقريباً لملذاته وشهواته!.

وأخذ من الساحر العظيم بعض العقاقير تعيده إلى صباه، ويظهر أنه أَكْثَرَ من تناولها فأصابته ذات ليلة نوبة قلبية ذهبت به وحيداً منفرداً في إحدى غرف فندق سان جورج، ليس بقربه أحد!.

وانتهى هكذا معتوق، وانتهت ثروته التي ضاعت بعد موته بين الذين تراكضوا من كل جانب يتخاطفونها.

- 28 -

الرجل الثالث عشر: الياس السكاف

تجلت أكبر ظاهرة لاستهتار وسخرية الكونت دي مارتل للجمهورية اللبنانية ولكرامتها في انتخابات الرئاسة لاميل اده (كانون الثاني 1936).

ففي الجو المتاجر المتلاعب المشاغب الهازل، الذي خلقه دي مارتل، وذلك في أقصر وقت ممكن بعد وصوله لبيروت، جاءت انتخابات الرئاسة.

وكانت انتهت مدة حبيب باشا السعد المعينة، وجرت في مطلع كانون الثاني 1936 انتخابات شكلية للمجلس الذي تكلمنا عنه سابقاً، والذي كان مؤلفاً من 25 نائباً، جاء أكثرهم عن الطريق المختصرة الناجعة التي توصل للنيابة دوماً، والتي جعلها دي مارتل عامة ورائجة وعلنية، وهي طريق المال.

ولم تكن النيابة يومئذٍ تُكلِّف صاحبها ثلاثمائة أو أربعمائة ألف ليرة كما اعتلت سوقها في أيامنا هذه.

ولكنها على كل حال كانت أيضاً غالية.

فإنما، كما يعمل العصفور عشه ويكبر رويداً رويداً، كان النواب يعملون صفقاتهم رويداً رويداً، فبدأت صغيرة ثم أخذت تكبر على مر السنين حتى صارت بالملايين، مما صار يجعل أهل الطمع يدفعون مئات الألوف ليصيروا نوابا.

فإنما كل مرشح دفع ثمن نيابته، اعتبر القيمة التي دفعها رأسمالاً يضعه في تجارة مسوكرة، ستضاعف مراراً ذلك الرأسمال. ولا يمكن لنا بوجه من الوجوه - ونحن نعرف شمس بلادنا من أين تطلع - أن نقول إن هذا المرشح الذي صار نائباً بعد أن دفع مئتين وثلاثمئة ألف ليرة لم يفكر أنه في النيابة سيعمل كل الصفقات ويحاول إعادة ماله أضعاف الألوف!

وكان النائب الظريف المفلس أديب الفرزلي في مجلس الاستقلال يقول «إنه ذاهب لأميركا» عندما كان يذهب للمجلس، اعتباراً أن النيابة طريق للثروة، كما كانت الهجرة الموفقة لبلاد العم سام!

وعندما يأتي الوقت، سنأتي على ذكر تلك الصفقات الكبرى المشهورة، والتي عمل بعض النواب ثروات كبرى من ورائها.

وسنأتي على ذكر بعض الرجال الذين صاروا نواباً عن مقاطعة لا يعرفونها، وكفاهم لذلك أن ابتاعوا ورقة السفر إليها غالية جداً، طبعاً على قول الصديق النائب المحترم الياس الطرابلسي الذي اشترى تذكرة نيابته بقطار الجنوب، بالمبلغ الذي نعرف!

* * *

قلنا جاء مجلس الخمسة وعشرين بعد الجمهورية الثانية، جمهورية حبيب باشا السعد المعينة (من كانون الثاني 1934 إلى كانون الثاني 1936). وكما أنه ليس في العالم دولة بَدَّلَتْ وأوقفتْ وعَدَّلَتْ وغَيَّرَتْ دستورها قدر ما فعلت الجمهورية اللبنانية خلال هذه الخمس وعشرين سنة التي عاشت فيها حتى الآن، كذلك أيضاً ليس في العالم مجلس نيابي تبدل عدد نوابه على معدل كل سنة أو سنتين، وكل مرة كان ينتقل فجأة وبدون أية قاعدة من العدد الأدنى إلى العدد الأقصى، والعكس بالعكس، على أن يصبح العدد لربما بعد سنة 24 أو مائة وعشرين، فلا أساس معروفاً ولا نظام مكشوفا!.

وكل هذا يعود لسياسة الارتجال التي تمشينا دوماً عليها، وللتسويات اليومية، والحلول الاعتباطية التي عالجنا فيها أمورنا دوماً. فيوماً مجلس من أربعين، ويوماً آخر مجلس من 25، وبعدها مجلس من 45، وبعدها مجلس من 63، وبعدها مجلس من 77، ثم نعود في آخر مرة إلى الوراء فجأة ونقرر مجلساً من 44. وطبعاً ليس هذا العدد هو العدد النهائي، فقد يكون عندنا مجلس بعد حين من 150 أو من 30، لا فرق في ذلك، فهذا شيء يعود إلى أهواء الحاكمين في الظروف والمناسبات التي يكونون فيها!

وفي هذا لم نتساءل مرة واحدة: أي عدد يكون الأفضل والأنفع، للمصلحة العامة، الكثرة في عدد النواب أو القلة؟

وهذا يثبت أيضاً أن الدهشة التي أصابتنا يوم رأينا نفسنا - بعد حكم الأتراك - دولة مستقلة، لا تزال تسيطر علينا، ولا نزال ضائعين فيها.

جاء مجلس الخمسة وعشرين ينتخب رئيس الجمهورية الثالثة التي أخذت يومئذٍ اسم جمهورية الرجل الثالث عشر، إذ أن الكونت دي مارتل كتب يومئذٍ لصديقته رسالة هي، ولا شك، أكثر رسائله فضيحة وسخرية وشراً، قال فيها:

«رميت بالفارسين في الميدان: اميل اده وبشارة الخوري، وليس بينهما ثالث يرشح نفسه، وتركتهما يتصارعان، أشد بهذا حيناً وأشد بذاك حيناً آخر، فلا ينام واحد منهما ليلة مطمئنة، وعندئذٍ ساعة رأيت أن كلاً منهما أمَّنَ لنفسه 12 نائباً، فتساوت هكذا الأصوات بينهما، جئت بالرجل الثالث عشر الذي كنت أحتفظ به للساعة الأخيرة وأعطيته لصديقنا اميل اده. وهكذا صار اميل اده رئيس جمهورية بصوت واحد زيادة، مما يجعل رئاسته هزيلة وتحت رحمتي ورحمة خصومه!»

ويقول دي مارتل في رسالة أخرى لصديقته تعليقاً على رسالته الأولى: «لا أريد أن أجعلك تتعبين نفسك وتتساءلين لماذا أعطيت الرجل الثالث عشر لاميل اده ولم أعطه لبشارة الخوري؟ يجب أن أعترف لك أنني لا أكره بشارة الخوري، ولكني لا أحب حياته المتقشفة المطمئنة، وأكره هيئة أركان حربه المؤلفة من جماعة من الفشارين الوقحين، يتكلمون عالياً، ويتحدون المفوضية يومياً، كما وأنني ما أحببت جماعة جريدة ليجور، والحبر الجليل الذي وراءها، (أي الأستاذ ميشال شيحا) الذي يتكلم مثلما يتكلم الكرادلة، ويلقي في جريدته بطريقة غير مباشرة طبعاً - ولكن مفهومة جداً - دروساً في الحشمة وحسن السلوك، فإنما الأستاذ ميشال شيحا والمتجزوتون الذين حوله، يُصَلُّون كثيراً، ويحتشمون أكثر من اللازم مما يدعو للاشتباه في إيمانهم!»

وطبعاً من جميع رسائل دي مارتل لصديقته أعطتنا هذه الرسالة التي تُعَبِّر عن روح الرجل صورة حقيقية تجمع بين الصراحة والشؤم، وبين محبته للحقيقة العارية، حتى ولو كانت فاسقة وكريهة!

كما وأن هذه الرسالة تجعلنا نلمس روح الاستهتار عند ذاك الرجل، الكونت دي مارتل، التي هي طبيعية فيه، وليست مؤامرة تدبرها ضد الهيئة اللبنانية وضد كرامة المرشحين الكبيرين، اللذين كانت البلاد قد انقسمت شطرين متقاتلين في سبيلهما، وقد عَلَّقَ كل شطر مصيره ومقدراته على مرشحه منهما.

وكان النائب المحترم المرحوم الياس السكاف ذاك الرجل الثالث عشر الذي احتفظ به دي مارتل حتى النهاية.

ظل حتى الساعة الأخيرة ينتظر ولا يقول كلمته،

فضلاً عن أنه كانت هناك مشكلة «عميق»: المزرعة الكبرى، وهي مشكلة يجب حلها حالاً، وإعطاء الياس السكاف حقه فيها. وكانت الحكومة تتأخر كثيراً في إنصافه، فظل صامتاً ساكتاً ينتظر، بينما كان زملاؤه الباقون قد انتقى كل منهم جبهته واصطف فيها، وذلك طبعاً بعد أن أخذ أولئك الذين يأخذون، ما أخذوه.

فإنما سوق الحراج كانت بالمزايدة العلنية، في وسط القهاوي والمنتديات العامة!

وكانت المساومات المالية تجري في دوائر المفوضية نفسها، فتخلق الفضيحة وراء الفضيحة.

وكان يساعد على التشهير قلة عدد نواب مجلس ذلك الزمان، مما جعل سوق الحراج ضيقة ومنظورة جدا.

وساعد دي مارتل أيضاً مالياً، عندما جعل صندوق المصالح المشتركة يشترك في شراء بعض الأصوات بمبالغ محترمة، كان النواب الذين أخذوها يقتطعون منها - قبل كل شيء - حصة الصديقة الحسناء، وذلك بمعرفة - ولربما بتوصية - الكونت دي مارتل نفسه، الذي لم يكن يتورع من إظهار غيرته على الصديقة بشتى الطرق والمناسبات!

وظل الرجل الثالث عشر ينتظر حتى آخر ساعة، حتى صباح يوم الانتخابات. عندئذٍ أعلن اقتناعه وكشف قناعه وقال بإعطاء صوته للأستاذ اده.

ومما ذُكِرَ بصدد ذلك - غالباً على سبيل الفكاهة وقول الحق - الأستاذ جبرائيل المر الوزير النائب السابق المعروف، أنه في ليلة الانتخابات لتلك الرئاسة، رن التلفون في مكتبه بسينما روكسي، وأخذ السماعة ظناً منه أن أحداً يريد التحدث إليه، فتبيَّن أن الرنين جاء بالغلط، وأن حديثاً يدور على الهاتف بين شخصين، عرف في أحدهما صوت صاحب هذه المذكرات، وسمعه يتحدث من غرفة قطع التذاكر بسينما روكسي مع المرحوم الياس السكاف بلوكندة أميركا. وقد كان موظف غرفة قطع التذاكر بالسينما قد ترك الخط متصلاً أيضاً بمكتب الأستاذ المر، مما كان يجعل هذا الأخير يسمع المحادثات التي تجري بين مكتب قطع التذاكر وبين الخارج. ويروي الأستاذ المر أنه سمعنا نقول للياس بك السكاف:

- معتوق ينتظرك، والكونت دي مارتل أنهى معه قضية «عميق»، فلم يبق عليك إلا أن تذهب لبيت الأستاذ اده!

وقع المقدر وكان ما أراده دي مارتل.

وصل المرحوم الياس السكاف لبيت الأستاذ اده، حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، حيث كان الإثنا عشر المعروفون مجتمعين، أو بالحري الأحد عشر، لأن الأستاذ بترو طراد، الذي كان في النادي يتسلى باللعب - كما كانت عادته التي لم تتغير أبداً - كان قد أرسل برنيطته ذات الشكل البطيخي (الميلون)، التي كان معروفاً بها عن بعد ألف متر وكان يتفرَّد بلبسها - أرسلها يعرضها في العلاَّقة القائمة بوسط الدار، فكان كل من يدخل يراها وجهاً لوجه ويخيل له أن الأستاذ بترو طراد هو في إحدى الغرف يستريح!.

وهكذا يطمئن أيضاً، لأن الأستاذ بترو طراد كان مشهوراً عنه في انتخابات الخمسة وعشرين للرئاسة أنه يُعبِّر عن رأي المفوض السامي، وذلك بوصفه رئيس المجلس النيابي الأقرب للمفوضية.

قلنا، وعندما وصل الأستاذ الياس السكاف، تأكد الأستاذ اميل اده حالاً من الانتصار وأخذ يتقبل التهاني وهو في فراشه مريضٌ تَعِب، بعد تلك المعركة المخيفة التي كان فيها دي مارتل مدة شهرين كاملين يتلاعب بالمرشحين الكبيرين، ويلعب معهما لعباً فظيعاً، فلا يقوم بظاهرة تدل على تأييد اده مثلاً، حتى يهب حالاً ويقوم بمظاهرة أخرى تدل على تأييد بشارة الخوري، مما كان من شأنه أن يجعل عقل كل منهما يضيع، وصحة كل منهما تنحرف.

كان ولا شك له لذة في أن لا يجعل أحدهما ينام لا هو ولا رجاله ليلة واحدة براحة!

وفي اليوم الثاني بعد أن جرت عملية الانتخابات وأُعلِنَتْ رئاسة اده رسمياً، كان معتوق يعرض على أصدقائه رسالة جديدة من دي مارتل لصديقته أرسلها لها حالاً بعد فوز مرشحه يقول لها:

«وهكذا يا صديقتي العزيزة أوصلت الجوادين إلى العامود منهوكي القوى خاليي الوفاض، لم أترك لهما منذ أسابيع وأسابيع دقيقة طمأنينة واحدة وانتهيت أن عملت للجمهورية اللبنانية رئيساً بأكثرية صوت واحد مما يجعله دوماً يذكر فضلي ويذكر مساعدتك، ومما يجعل كرسيه دوماً مهتزة مرتجة».

ولكن بعد 48 ساعة من ذلك قام الأستاذ الرئيس الجديد بعمل لم يعترف فيه مطلقاً بالفضل الذي يَدَّعي دي مارتل أنه عمله له، وذلك عندما أقام تلك الوليمة الرسمية بمناسبة انتخابه رئيساً للجمهورية، ودعا إليها المفوض السامي والوزراء والقناصل العامين والنواب وزوجات الجميع وتجاهل صديقة الكونت دي مارتل، مع أنه لأيام قليلة جداً مضت، كان لا يفارق صالونها، حيث كان يحاول أن يتلاقى مع دي مارتل عندها، ويتدبر انتخابات رئاسته بحضورها وبموافقتها!

وهكذا لم يدع اده صديقة دي مارتل للوليمة الرسمية كما دعا زميلاتها زوجات الرجال الديبلوماسيين، مع أنها زوجة قنصل أجنبي.

وعندها وعند دي مارتل، هاتوا بيت الله لنهدمه.

وهكذا، بعد 48 ساعة فقط من إعطاء دي مارتل صوت الرجل الثالث عشر للأستاذ اده يوجه فخامته للمفوض السامي إهانة عدها هذا الأخير من أكبر الإهانات، واعتبر أن الأستاذ الرئيس الجديد قصد بها إظهار ازدرائه لصديقته، وأنه يتورع عن دعوتها - بالرغم من مكانتها الديبلوماسية - ولا يريدها أن تجلس على مائدته، وهي التي كان الأستاذ معتوق صديق الرئيس الجديد والعامل الأكبر في نجاحه، قد ابتاع مساعدتها وحسن توسطها لخدمة مرشحه اده، وذلك مقابل كل ما كان عند برانجه والكف الأحمر في سوق الطويلة من روائح عطرية وماركات شوكولاته وكلسات حرائرية وألبسة تحتانية ممتازة، مرفوقة من حين لآخر بشيك محترم، أو بجوهرة غالية، ودوماً يومياً طاقة أزهار جبارة من شأنها، أن تُذَكِّرَهَا بالغرض الذي يدعو مرسلها لإرسالها!

وهذه الحسناء قد تكون - كما كان معتوق يؤكد بدهشة - هي التي جعلت دي مارتل يأتي بالرجل الثالث عشر لاده، وأهمل رئيس الجمهورية دعوتها لوليمته، مع اعتبار أنه لم يكن يزدري بها مطلقاً عندما كان يدلعها ويدللها قبل الانتخابات، ويدعو صديقه معتوق لإغداق هداياه الثمينة عليها!

كما وأن دي مارتل اعتبر حالاً - كما قال ذلك لمدير الأمن العام صنيعته الخاص المسيو كولباني - أن رئيس أكثرية الصوت الواحد أراد اكتساب بُتُولِيَّة جديدة واكتساب شعبية لنفسه في إظهار تمرده عليه بهذه الطريقة العلنية، وأراد إيهام الشعب أنه ليس مديوناً لأحد بالرئاسة التي أخذها، كما وأنه أراد إظهار احتقاره للصديقة الحسناء!

وقد كان الشيء مؤكداً هكذا، إذ لم يكن بالإمكان تجاهل هذه السيدة، التي كانت في مقام ديبلوماسي يجعل من الطبيعي دعوتها لوليمة يحضرها الديبلوماسيون وزوجاتهم.

وغضبت الحسناء وغضب معتوق متضامناً معها، مدعياً أنه هو الذي أقنعها واشتراها لتكون بجانب الأستاذ اده تأخذ جانبه، وليس جانب الخوري، وتقنع الكونت دي مارتل بمناصرته.

ووجد معتوق في عمل صديقه الكبير إهانة له أيضا.

وأخذ معتوق جانب الحسناء حالاً، مما كان سبباً لعودة الصداقة بينه وبين دي مارتل، إنما إلى وقت قصير، إذ أن معتوق عاد بعد ذلك يطالب ببيع تنباكه للريجي بالأسعار التي يريدها، وعاد دي مارتل يرفض!

وكان معتوق أثناء انتخابات الرئاسة يلعب بالذهب لعباً، فلا يدخل أحد إلى غرفته إلا ويجد أكداساً من الليرات الذهبية أمامه، كأن حضرته يريد بذلك إغراء الذين يزورونه من النواب.

وكان جميع الناس يتصورون أنه دفع كثيراً في تلك الانتخابات للنواب ولأهل السياسة والصحافة، كيما يماشوا مرشحه.

ولكن دي مارتل كان أعرف بمعتوق أكثر من جميع الناس وكان «زيلعيا» مثله، يفهم بلغته ويعرف بتفشيره، لهذا لم يكن يصدق الشيء الكثير عن مكارمه!

وكان يقول ذلك القول الذي ضحكت له بيروت يومئذٍ: «معتوق عندما يعطي كيسه يربطه بخيط مطاط، فلا يكاد الكيس يستقر في جيب الذي يأخذه حتى يجذب معتوق الخيط فيعود الكيس إليه كما هو، وبعض الأحيان مع ما يكون في جيب الرجل الآخر من مال أيضا!».

* * *

وهكذا في اليوم الثاني لانتخاب الأستاذ اميل اده رئيساً للجمهورية اللبنانية، وجد حضرته نفسه مضطراً أن يجابه الأشياء العدوة الثلاثة الآتية:

1 ـ محاولات دي مارتل حالاً، وبعد انتخابه بيوم واحد، تصغيره وإخجاله، والحط من هيبة رئاسته، وتسليط مدير الأمن العام الشهير كولباني عليه، وزعمه على

مسامع الكثيرين أن السيدة التي استنكف الأستاذ اده عن دعوتها لوليمته الرسمية التي يدشن بها رئاسته، هي ذات السيدة التي كان يتوسطها ويقضي أوقاته عندها، طالباً مساعدتها لدى المفوضية لأجل الرئاسة.

2 ـ غضبت السيدة على اميل اده طبعاً، وأخذت تضع كثيراً فمها الجميل وبطريقة متواصلة، في أذن المسيو دي مارتل، تثير حفيظته على اده، عاملة للانتقام منه للإهانة التي وجهها إليها أمام الهيئة الديبلوماسية التي هي منها، وهي إهانة يجب أن يعدها دي مارتل موجهة إليه أيضاً. أليست هي ـ بمعرفة جميع الناس ـ صديقته المعبودة؟

3 ـ الحرب الجديدة الشعواء التي أسرع طبعاً الشيخ بشارة الخوري وأعلنها على الأستاذ اده الذي شلّحه الرئاسة بصوت واحد، مما يكفي الافتكار فيه ليجعل الدم يفور ويثور.

وهنا يجب أيضاً بالمناسبة أن نذكر شيئاً عن موقف الرجل الرابع، فإنه لم يحاول التعاون مع صديقة المفوض السامي قبل الانتخابات، ولا سيما وأنه لم يكن بإمكانه أن يشتريها بالمبالغ التي اشتراها بها معتوق. وذلك لأنه كان دوماً في ضائقة مالية، ولم يكن له ثروة خاصة يستعين بها، ولم يكن أخوه الشيخ فؤاد الخوري ـ سنده المالي الدائم بعد ذلك ـ قد تزوج بأغنى وارثة في لبنان (ابنه المرحوم اسكندر الحداد) واستلم أكبر محل تجاري في بيروت. وبعد فوز الأستاذ اده، دعت هي الشيخ بشارة الخوري للاشتراك معها في محاربته فرفض، إذ أن بشارة الخوري لم يرض يومئذٍ أن يلجأ في أغراضه السياسية إلى سيدة تستمد قوتها من فراشها!

ونذكر أيضاً رحابة ذلك الصدر عند بشارة الخوري، واستقباله الرزايا بسكون غريب، وهي ميزات أسماها يومذاك المستهترون من أصدقائه عدم إحساس، وجلد تمساح. ولكن رحابة ذلك الصدر الغريبة العجيبة التي استقبل فيها فشله بالرئاسة بصوت واحد، ومعرفته ما كان يدبره له دي مارتل من أشراك جعلته لا يشكو ولا يتذمر أمام أحد، دون أن يفقد الابتسامة الصامتة التي عرفناها عنده مع كل ما كان يتلقاه من ضربات وكوارث.

وذهبنا في اليوم التالي لفشله في انتخابات الرئاسة، زيادة في حشريتنا لكي نرى وجه ذلك الرجل، ولكن عبثاً حاولنا أن نقرأ على وجهه شيئاً من التأثر أو العتب أو العنف وآثار الفشل عليه.

وعلى مدى الأيام والسنين لا نذكر أننا شاهدنا مرة واحدة هذا الرجل في غير الهدوء والسكينة اللذين كانا من أمضى سلاحه.

* * *

ومن الطبيعي أن لا يكون الأستاذ اده في هذه الحالة - وبعد أن أخذ المفوض السامي يقطع عليه الطرقات ويثير عليه الحفائظ ويخلق له المشاغب - ومن الطبيعي أن لا يكون حقق الآمال التي كان الكثيرون يعقدونها عليه من إصلاحات ومشاريع كبيرة بالدولة.

ولم يكن اميل اده في جرأته المعلومة يخفي شكواه من أعمال المفوض السامي، معه، مما كان أيضاً يزيد من مشاغبة الكونت دي مارتل عليه.

ومن الطبيعي أن يكون الرجل الرابع وكتلته الدستورية قد استفادا من المناسبات، وأخذت تقوى وتشتد، يساعدهما بذلك بطريقة كتومة غير مباشرة معاونو دي مارتل - أصدقاؤها، فتجد الكتلة الدستورية بذلك ما يشدها ويزيد سلطانها، ويدعوها للقيام بظاهرات مختلفة جريئة وشديدة، ضد الحكومة القائمة، كانت لربما لا تقوم بمثلها لو كان دي مارتل - وهو صاحب السلطان - راضياً عن الرئيس الجديد.

ويجب أن يكون دي مارتل قد شجع بطرقه الخاصة جماعة الكتلة الدستورية، قبل سفره بمهمة جديدة لفرنسا، للعمل لإزعاج الأستاذ اده وحكومته، مما حدا بهؤلاء أثناء غيابه لإعلان ثورتهم المقاتلة العاملة والتي دعوها ثورة أحراش الباروك، التي اتخذوها مقراً عاماً للثورة يعتصمون فيها، وتوافيهم إليها يومياً عصابات مسلحة يتولى تدريبها طبعاً الرجل العسكري الوحيد بين زعماء الثورة الأمير مجيد أرسلان، وذلك في سنة 1937.

وتولى حضرته تدريبها وتدريب نفسه أيضاً استعداداً لتلك الثورة التي كانت منتظرة وتحت الحساب، وأخذ عطوفته لنفسه لقب القائد العام لثورة الباروك، وهي الثورة التي صارت معروفة بعد ذلك باسم الثورة البيضاء - كما سيراه القارئ في سياق هذه المذكرات - وذلك لأنها انقضت بدون دماء، وهو شيء كان القائد العام في روحه الحربية يظهر امتعاضه منه!

- 29 -

الثورة البيضاء في الباروك

كانت الحكومة الافرنسية استدعت مفوضها السامي الكونت دي مارتل إلى باريس، كما كانت تفعل من وقت لآخر عندما تستدعي الحالة، وذلك لتتفاوض معه وتدرس معه أمور البلدان التي تحت الانتداب، وذلك بمناسبة المشادات التي كانت قائمة وبمناسبة خلافات دي مارتل مع الزعماء من الجانبين، وقيل يومئذٍ إنه يذهب ولن يرجع.

وطبعاً ادَّعتْ جماعة الرئيس الأستاذ اميل اده أن خلاف دي مارتل معه، وحياته المستهترة في تلك البيئة المفسودة التي تحيط به، قد يكون السبب الذي جعل الوزارة بباريس تستدعيه إليها لتقيله من منصبه.

ولكن الكونت دي مارتل رجع أيضاً هذه المرة. رجع أكثر عنفاً، رجع في اليوم الذي كانت فيه حكومة الأستاذ اميل اده - والتي كان يرأسها ذلك السياسي المرن العنيف خير الدين الأحدب - تتخذ قرارات لوضع حد لعنف وتهجمات الكتلة الدستورية وأصدقائها ولملاحقة زعمائها ملاحقات بوليسية!

رجع ليجد بشارة الخوري مع هيئة أركان حربه، وعلى رأسها الأمير مجيد قائد القوات المسلحة، وكميل شمعون مستشار الحزب السياسي وأمين سره الأعلى قد أعلنوا الثورة على الحكومة القائمة.

وكان في الباروك أيضاً هنري فرعون ممول الحزب - على ما كانوا يقولون - ومما لم تثبته الأيام بعد ذلك، بالرغم من ادعاء أصدقاء بنك فرعون وشيحا أنه هو الذي ساند الكتلة الدستورية ورئيسها مالياً منذ البداية، وأنه هو الذي تَحَمَّل مصاريفها، وهو في مناسبة ثورتها بالباروك حمل جميع أعبائها.

وهناك أيضاً كان سليم تقلا، ذلك الأستاذ في النباهة والتدبيرات، وكانت حكومة الأستاذ اميل اده الجديدة قد عزلته من محافظة بيروت، لا لسبب غير انتمائه لحزب بشارة الخوري. وكان ميشال زكور الذي كان قد شق لنفسه في عالم الصحافة مكانة مرموقة قادته إلى الوجاهة السياسية وجعلته ركناً من أركان الدستوريين.

وكان الشيخ فريد الخازن يحمل ما عنده من جرأة وفكاهات، ويحمل أيضاً بوصفه من عشاق «بنت البستوني» دزينات من ورق اللعب، مع كميات من الفيش يقامر مع الزعماء تحت ظلال الأشجار بينما تقع المعركة.

ولا شك أن الشيخ فريد الخازن كان أكثر الدستوريين ظرفاً ومنطقاً، يقرن الوطنية اللبنانية الصحيحة بليالي الميسر الجميلة، وبحماية أندية القمار الكبرى، يتطوع في خدمة الشريف أيام الحرب العامة الأولى، ويدخل لبنان بعد انتصار الحلفاء على رأس فرقة من الخيالة الفيصليين ووراؤه قافلة من البغال تحمل الحنطة هدية من الشريف للموارنة بكسروان ويحمل بعضها أكياساً من الذهب قيمة ما جمعه وربحه وسباه الشيخ فريد في الصحراء باسم الجهاد واسم العروبة، وقيمة ما أخذه من أموال الكولونيل لورانس صديقه ورفيقه في حرب الصحراء.

وكان فيصل في بداية الثورة العربية، قد اهتم كثيراً بأن يحيط نفسه برجال من جميع الطوائف، وأخصها من الموارنة المسيحيين، أملاً منه بدخول لبنان وضمه للدولة العربية بمكة عامة وللدولة الشريفية بدمشق خاصة ـ تلك الدولة التي كان يشتغل لها عندما ثار تحت قيادة والده الحسين بن علي في الصحراء.

وكان قد وجد في الشيخ فريد الخازن الذي اتخذه مرافقاً له، شخصية لبنانية مارونية محبوبة لها مكانتها في جميع الأوساط، وسليلة بيت أرستقراطي ماروني كبير يحترمه اللبنانيون ويجلونه، فاعتبر فيه أفضل ممثل للموارنة في الجيش العربي محرر البلاد فيكتسب عن طريقه صداقة الموارنة وانضمامهم إليه.

وطبعاً طالما ثورة الصحراء هي ثورة عربية، فقد كان من الطبيعي أن يعلن الشيخ فريد نفسه ـ عندما التحق بالشريف ـ أنه الماروني العربي الأول.

وكانت تلك أول مرة ـ بطريقة عملية وواقعية ـ يعلن فيها ماروني أنه عربي، غايته وحدة لبنان والجزيرة، وقيام إمبراطورية عربية تكون بلاد الأرز ولاية منها.

ولكن الشيخ فريد الماروني العربي الأول ترك عروبته وتناساها تماماً بعد عودته للبنان، مما كان متوقعاً منذ الساعة الأولى عند رجل نبيه فهيم، يماشي الظروف ويعتنق الجنسيات حيثما تكون خدمة بلده وخدمته الخاصة.

وكان يقول ـ ولو كان الموضوع هنا في غير محله ـ للذين قاموا عليه يومئذٍ من رهابين وانعزاليين في هذا الجبل: «إن السياسة الحقة الصحيحة هي أن تخدم نفسك وتخدم بلدك، ولو كان ذلك عن طريق خيانتهما، إذا لزمت الحال».

وإن لم يكن الشيخ فريد خدم بعروبته كسروان إلا بقوافل القمح وأكياس الذهب التي وزعها على أهاليه باسم الشريف لكان ذلك كافياً لأن نقول إنه في عروبته كان لبنانياً أكثر من اللبنانيين القائمين عليه، والذين لم يخدموا لبنان بغير الكلام والتفشير والتعصب الذميم!

* * *

كنا أعلاه نعدد أسماء بعض جماعة أركان الحرب في ثورة الباروك، وقد تحصن رجالها في هضابها المشجرة، بينما الرئيس اميل اده ورئيس حكومته خير الدين الأحدب يحشدان جندرمتها وبوليسهما في عاليه والمديرج، لمهاجمة الثائرين، وقد استفحلت الحالة وخَيَّم على لبنان جو من الخشية والروعة، فهي المرة الأولى التي تقوم فيها فئة سياسية معروفة بحمل السلاح بوجه الدولة. وقد كثر عدد رجالها المسلحين وسادت روح حربية عند جميع الثائرين من سياسيين وغير سياسيين، حتى أن هنري فرعون وسليم تقلا وميشال زكور حملوا السلاح أيضاً، وكان الشيخ فريد بهذه المناسبة يقول لهنري فرعون وهو يشير إلى المسدس الذي كان يحمله وجيه الكاثوليك:

ـ الأفضل أن تحمل يا هنري بك أوراق المئة ليرة فهي تصيب أحسن.

وكان هؤلاء غالباً يتفركشون في سيرهم لثقل البنادق الحربية التي كانوا يتمنطقون بها، ولربما لا يعرفون أن يطلقوا رصاصها!

ولكن لا بنادقهم، ولا بنادق الثوار بأجمعهم، أطلقت رصاصها، فلم نختبر هكذا إلى أي مدى كانت قد وصلت معرفة فرسان الباروك في فن الحرب، إذ أن دي مارتل ـ الذي كان الاديّون يؤكدون أنه لن يرجع ـ كان قد أسرع في الرجوع عندما عرف بما يجري، وبعد أن أرسل يطلب من الحكومة أيضاً التوقف عن أية مطاردة للثوار!

رجع في الوقت الذي كان الباروكيون قد ازدادوا عدة وتحصيناً، وفي اليوم نفسه الذي كان فيه اميل اده ورئيس حكومته خير الدين الأحدب اعتمدا مهاجمة الثورة بعد أن حشدا كل قوى الدولة.

وتساءل طبعاً كل من الفريقين: إلى أي جانب من الجانبين سينحاز دي مارتل؟

تساءل الجميع هذا السؤال ما عدا الشيخ بشارة الخوري الذي كان يعرف الحقيقة وحده، عندما كان قبل ذلك وهو في باريس قد اتفق سراً مع الكونت دي مارتل على ما سيكون، وكتم الاتفاق عن الجميع، وكان يضحك في سره عندما كان يسمع الاديين يهددون جماعة الباروك بقرب عودة مارتل، وتجريد حملة عسكرية عليهم تربيهم وتؤدبهم!

وكانت المرة الأولى التي فيها يقوم عصيان في البلد، ولا يتدخل الجيش الفرنسي حالاً لقمعه، مما فهم منه الاديون بعد ذلك أن دي مارتل يريد إذلالهم. ولكن طبعاً من المنتظر عادياً وبالأكثر أن يأخذ دي مارتل جانب الحكومة، مع ما كان عليه من قطيعة مع رئيس جمهوريتها، وأن يأمر عند وصوله عساكر السنغالية بالمشي على الباروك، مما كان يجعل العصاة طبعاً، وفي رأسهم قائدهم العام الأمير مجيد أرسلان، يفكرون برفع الراية البيضاء.

ولكن دي مارتل كعادته أخذ المسألة بالطريقة اللعوبة الضاحكة الساخرة التي اعتاد عليها، فكان أول شيء عمله أنه بدلاً من أن يفاوض رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه، أرسل يفاوض العصاة ولصالحهم أيضاً حتى إذا تمت مفاوضته معهم، وبعد أن أخجل الرئيس اميل اده وخير الدين الأحدب قفز من فوق رأسيهما وأعلن قراره الشهير في فرض الائتلاف بين الجانبين لانتخابات عمومية لمجلس من واحد وستين نائباً، فقفز بعد ذلك إلى الثلاثة والستين، على أن يكون فيه للأستاذ اده 37 نائباً ويكون فيه للشيخ بشارة الخوري 26 نائباً على أن ينتقي كل من الفريقين المرشحين الذين له، دون أن يكون لأي فريق حق «الفيتو» على أي مرشح من مرشحي الفريق الآخر، ويجب أن يجري ذلك تحت إشراف المفوض السامي طبعاً وبموافقته وحده. وكان هذا القرار أكبر وأفظع تزوير انتخابي في تاريخ هذه البلاد. وليس تزوير 25 أيار 1947 المشهور الذي جاء بعد ثلاث عشرة سنة من ذلك ـ شيئاً بالنسبة للتزوير الذي أنهى دي مارتل ثورة الباروك بتلك التسوية المستغربة الهازئة، تلك التسوية بين السراي الادية والدستوريين الخوريين.

وكان كما قلنا أعلاه على بشارة الخوري أن يقدم 26 مرشحاً يتفق مع أصدقائه عليهم ويفرضهم فرضاً ـ طبعاً مع موافقة دي مارتل الكتومة.

ويفعل الرئيس اده الشيء ذاته في حصته البالغة سبعة وثلاثين مرشحاً.

وبأجمعنا كنا نعرف خير الدين الأحدب بالأمس العربي القح، وأحد كبار دعاة الحركة الثورية العربية الثلاثة العاملين ببيروت بشدة وعنف وجرأة لخدمة الوحدة: رياض الصلح، خير الدين الأحدب، صلاح بيهم.

وكنا نسميهم يومئذٍ فرسان «العهد الجديد» بالنسبة لجريدة خير الدين الأحدب التي كانت تحمل هذا الاسم المأنوس، وكان يجتمع الفرسان الثلاثة يومياً في إدارتها بشارع فخري بك، وكانت تلك الإدارة تحت المراقبة الدائمة من جانب الأمن العام الفرنسي وكان هناك رجال الأمن أيضاً يتعقبون كلاً من الثلاثة الكبار ليل نهار، بطريقة يظنونها سرية. ولكن أي شيء كان يخفى على رياض الصلح؟

لقد كان يعرف وينظر إلى هذه المراقبة بهزء ومجون، حتى أنه طلع على باله ذات يوم أن يثبت للبوليس السري الذي يتعقبه أنه يعرف أمره تماماً، فدعاه للركوب معه بالسيارة قائلاً:

ـ الأفضل أن نتقاسم أجرة هذه السيارة بدلاً من أن يأخذ كل واحد منا سيارة لوحده!

ولم تكن جريدة «العهد الجديد» في عهد عدائها للفرنسيين تستطيع أن تصدر كل يوم بطريقة منتظمة، كما كان أصحابها يتمنون وكما هو مطلوب منها، وذلك لأن موازنة خير الدين ورفيقيه السيدين بالوطنية لم تكن تسمح بإصدار الجريدة إلا بطريقة متقطعة.

وبالمناسبة يجب أن نلاحظ أنه لم تقم في هذه البلاد قضية معروفة أو أحزاب سياسية إلا ووجدت ـ عن حق أو بدون حق ـ أنصاراً كرماء يمولونها على قدر الإمكان، ما عدا قضية الوحدة العربية التي لم تستطع أن تتدبر مرة واحدة مالاً يساعدها، مع أن القائلين بها كانوا دوماً أكبر زعماء العرب ـ باستثناء عارف بك النعماني الذي قدم أموالاً طائلة بسخاءٍ عظيم لهذه القضية وكان بعض زعمائها يأكلونها.

* * *

قلنا أعلاه إننا كنا بأجمعنا نعرف خير الدين الأحدب العربي في جريدة «العهد الجديد».

وإذا بالأستاذ اميل اده يكتشف فجأة أن هناك أيضاً خير الدين الأحدب اللبناني الانفصالي، عندما كلفه بتأليف وزارته الأولى في كانون الثاني 1936.

كيف جرى ذلك، وكيف خرج خير الدين على رفيـقَيْه وعلى قضية الوحدة التي كان يشتغل معهما لأجلها؟

هذا شيء يمكن تفسيره عندما نقول أولاً إن خير الدين الأحدب كان يعرف أنه يشتغل لقضية ليست رابحة. وكان يعرف من جهة ثانية أنه، وهو عربي في لبنان، فالسراي تبقى مقفلة أبوابها في وجهه. وكان يقول في فطنته الغريبة، إذا قرر العرب الوحدة، فليس وجودي بسراي لبنان يمنعهم من تحقيقها، كما وأنني سأجد سبيلاً لأن أعود عربياً عند ذاك!

وكما كانت باريس تسوى قداساً، فإن النيابة في لبنان ورئاسة الحكومة من بعدها تسوى التنكر للصحراء.

وذات صباح، ودون أن يكون الشيء منتظراً، جاء خير الدين فجأة للسراي يستند على ذراع الرئيس اميل اده، ليستلم الحكم ويؤلف وزارة لبنانية تتفق آراؤها الانعزالية مع مبادئ ووضعية رئيس الجمهورية زعيم الانعزاليين رقم أول!.

- 30 -

خير الدين اللبناني

وبدأ عندئذٍ العهد الذهبي لأهل السراي: عهد الأعياد والسعة والليالي الحسان، وألاعيب السحر الطريفة والمال، والظرافة واللباقة في الألعاب السياسية الجميلة.. وخلق رئيس الحكومة الجديد بلاطاً له، جمع فيه أظرف الفكهاء وألطف الحسان، وأخذ يجاري المفوض السامي على عقله وفكره وطريقة حياته، وصادق الصديقة الحسناء، وأصبح في نظر المفوضية الزعيم المسلم الذي سيجعل الراية اللبنانية - الفرنسية ترتفع على البسطة. وكانت البسطة عاصية دوماً - إن لم يكن واقعياً فمعنوياً..

واكتسب خير الدين في أيام قلائل عطف ورعاية المفوضية لما كان يبديه من استعدادات للخدمة، ولما كان عنده من حيلة ومقدرة. وكان له تلك الميزة النادرة المثال، أنه عندما تزول الضائقة المالية عنه تتضاعف قواه العقلية ويكبر قلبه ويصبح عبقرياً وداهية دهماء. وإذا كان لم يستطع أن يظهر في السابق الحقيقة الكاملة الكامنة فيه، فذلك لأنه كان يتخبط في إفلاس دائم من وراء إسرافه وكرمه وحياته الصاخبة.

وسلَّمَ الكونت دي مارتل قيادة الانتخابات الصورية التي أرادها ائتلافية إلى الرجل الذي جاء به الأستاذ اده بطريقة غير منتظرة لرئاسة الوزارة، متحدياً به كبار البيروتيين المسلمين. وصادف أنه كان عند ذاك الرجل رجاحة عقل وقوة عارضة وإرادة قوية، جعلته حالاً يفرض نفسه على البلاد، وخصوصاً على المجتمع الإسلامي الوجيه الذي كان قبل ذلك يشجب استدعاءه لرئاسة الوزارة يمثل المسلمين في هذه الدولة، مع أنه من أسرة يمكن حسبانها من أكبر الأسر المسلمة البيروتية الوجيهة.

ولكن اميل اده الذي اكتشفه لم يكن يتراجع، وذلك لمعرفته قيمة هذا الرجل الذي كان قد تعاون تعاوناً حاذقاً جداً في انتخابات الرئاسة، وأثبت في وقوفه الحازم بجانبه إخلاصاً كاملاً ودهاءً عجيباً في التدابير والمناورات السياسية التي قام بها.

وكما قلنا أعلاه لم يكد خير الدين يدخل السراي وقد زال العسر عنه وجاء اليسر حتى ظهر فجأة - وأمام دهشة الجميع - جباراً مثبتاً قوة عارضة وحنكة كبيرة

مؤكداً مقدرة سياسية كاملة تتحدى جميع وجهاء هذا البلد. وقد كان حسابه تافهاً جداً عندهم قبل أن يجلس في الرئاسة ويتسلم مقدراتها.

وكانت هي المرة الأولى التي يتسلم فيها مسلم رئاسة الوزارة في لبنان، وصادف أن الرئيس الماروني الذي استدعى هذا المسلم لاستلام الحكم هو الرئيس الانعزالي الذي حاول دوماً أن يصبغ لبنان بصبغة مسيحية أكبر وأوسع من الصبغة التي هي له بالحقيقة!

وكان هكذا اميل اده، هو الذي دشن هذه التقاليد التي جعلت رئاسة الوزارة في لبنان بعد ذلك للمسلمين، يعدونها حقاً صريحاً لهم، ولا يجسر سياسي واحد - حتى ولا مكيافيلي لبنان الجديد - مساومتهم عليها، مع أن هذا الأخير، أي الأستاذ حبيب أبو شهلا، كان ولا يزال المدعو الأكبر والأفضل لاستلامها، ومع أن عدداً كبيراً من المسلمين الوجهاء رغبوا به، فهو مع كل وقاحته السياسية تَهَرَّبَ وخَشِيَ امتعاض المسلمين ضمناً إذا قبل!

وجاءت مناسبات كثيرة بعد ذلك كان من الأمور الضرورية الوطنية تكليف غير مسلم لتشكيل الحكومة المناسبة، ولكن لا السراي تجاسرت على هذا العمل، ولا المسلمون أظهروا أي تساهل أمامه!

قلنا، أثبت خير الدين الأحدب وجوده في السراي حالا.

وكان له ما لم يكن بالحسبان أيضاً، إذ أنه جمع حوله بطريقة مدهشة وبسرعة غريبة، جمهرة من الأنصار الأقوياء من السياسيين وزعماء الأحياء وكبار القبضايات، يماشونه ويقولون قوله، ويخلقون له في المدينة قوة كبرى يستند عليها في الوقت الذي كان فيه الناس قبل دخوله السراي، وعلى رأسهم أبناء عائلته الكبيرة الوجيهة ببيروت، يتنكرون له!

ولكن عندما جلس في صدر المقام، وجد الناس أنفسهم حالاً أمام رجل تجلَّت فيه فجأة ودون سابق انتظار، زعامة سياسية تفرض نفسها على السراي وعلى البلد.

وهي زعامة زادتها قوة وسؤدداً أموال المفوضية والخزينة التي أخذت تتدفق على خير الدين بك الأحدب من جميع الجوانب، مما أخرجه أولاً من الضائقة المزمنة التي كانت تسيطر عليه، ومما جعله يغذي بسخاء غريب أنصاره وقبضاياته وزعماء أحيائه. وقد استباحت السراي أموال الخزينة وصفقات البلدية لخدمتهم، اعتباراً منها أن المال

- ولو كان من مال الحكومة - لا يجب أن ينام بالصناديق طالما أن رجال تلك الحكومة وزلمهم يحتاجونه!

وكان خير الدين، كرجل يعرف الفضل، ويعرف صالحه ويعرف من أين تؤكل الكتف، قد وضع في البداية كل قوته في خدمة الرجل الذي اكتشفه وجاء به لرئاسة الوزارة: الأستاذ اميل اده.

وعرف خير الدين الأحدب بالوقت نفسه - وهو المعاون الأمين لرئيس الجمهورية - عرف في البداية ولأشهر قليلة - أن يوقف نوعاً ما ويزيل الكثير من التوتر بين هذا الأخير وبين المفوضية السامية، أو بالحري بين الكونت دي مارتل، الذي كان قد أصبح معجباً بخير الدين بعد أن كان قد عارض في البداية استدعاءه للحكم، إنما بعد التجربة أَكْرَمَ الرجل وقَدَّرَهُ وَوَجَد فيه كل ما يفتش عنه كل حاكم مغامر مخيف وجديد: الرجل الذي يمكن الاتكال عليه بكل المهمات فوق العادية والمستغربة، التي كان دي مارتل يريدها. وكان يقول عن خير الدين إنه وحده يفهمه، وإنه صورة طبق الأصل عن السياسي الشيطان «سافانارول».

وقال الكونت دي مارتل لبشارة الخوري بعد تسوية الباروك، عندما دعاه للاتصال مباشرة مع رئيس الوزارة خير الدين الأحدب للاتفاق على أسماء المرشحين المؤتلفين:

- ولكن احذر خير الدين الأحدب، فلا تدعه يبلفك، فهو يحمل في جرابه أكثر من حيلة!

وأخذنا نشهد بإعجاب تلك المبارزة التي قامت بين الأستاذين الألمعين بشارة الخوري وخير الدين الأحدب في اجتماعاتهما المتوالية، بمكتب مدير المكتب السياسي في المفوضية، الذي وضعه دي مارتل تحت أمرتهما، وذلك ليتدبر كل منهما أسماء المرشحين الذين يخصونه: 26 لبشارة الخوري و37 لاميل اده، فكانت تلك المبارزة نوعاً من التسابق في العبقرية والنباهة، يأخذ عنها السياسيون أمثولات وعظات في الدهاء والتخادع!

ولا شك أن رئيس الدستوريين هو الذي فاز في تلك المبارزة الفريدة من نوعها، إذ أنه استطاع أن يفرض الستة والعشرين مرشحاً المحسوبين عليه، بأجمعهم من

مؤيديه ورفاقه، غير تارك مجالاً لأية مساومات، ولا لحيلة خير الدين، ولا لرغبة المفوض السامي، ولا لاهتمامات الرئيس اده.

كان لا يلين، وكان يجعل الجانب الآخر مضطراً لإقصاء عدد من أصدقائه عن حصته في ترشيح السبعة والثلاثين التي له.

وهكذا اضطر جانب الرئيس اده أن يتخلى عن صاحب هذه المذكرات، وكان قد أعلن ترشيحه بين السبعة والثلاثين بطريقة فريدة باهرة، يوم استدعاه لوليمة أقامها في فندق الجبيلي بعاليه، وأعلن أمام الحضور من مندوب المفوض السامي لرجال الحكومة، للزعماء السياسيين ترشيح إسكندر الرياشي تحت رعايته وباسمه!

ودعاه بعد ذلك، تثبتاً لقوله، لمرافقة رئيس الوزارة خير الدين الأحدب في دورته الانتخابية بجبل لبنان، حيث كان يقدمنا كالمرشح المفضل للنيابة.

ولكن جاءت بعد ذلك تسوية دي مارتل.

وتمسك بشارة الخوري بصديقه الأستاذ سليم تقلا، يريده مرشحاً عن الكاثوليك في جبل لبنان الذي كان الأستاذ اده وخير الدين بك الأحدب - خلقاه بقانون خاص ليعطيانا إياه. إذ أنه حتى ذلك الوقت لم يكن في جبل لبنان نائب للكاثوليك.

وكان معلوماً - كما ذكرنا أعلاه - أن الأستاذ اده، عندما استلم رئاسة الجمهورية قد عزل الأستاذ سليم تقلا من محافظة بيروت، لا لسبب غير أنه من أنصار الشيخ بشارة الأولين.

وعمل الشيخ بشارة ما اعتاد دوماً عمله في التمسك بأصدقائه حتى النهاية.

وهذا ما دعانا في ذلك الحين، لتقدير هذه الميزة بالرجل ولعدم الصخب عليه، مع أنه شَلَّحَنَا هكذا نيابة كانت مضمونة لنا. وكان الأستاذ اميل اده يتنبأ عنها أنها ستكون أنبه وأطرف نيابة تعرفها المجالس في لبنان.

وفي اليوم الذي بدأت معركة تلك الانتخابات الائتلافية، ظهر خير الدين الأحدب يحمل ليس فقط نباهته ودهاءه، بل أيضاً مئات ألوف الليرات، جاءت أولاً من المبالغ التي كان دي مارتل يسلمه إياها من أموال المصالح المشتركة، وأيضاً من المبالغ التي أطلق دي مارتل يد خير الدين لاستلامها من الشركات الكبيرة، فإنما هذا الأخير، كان

عندما يريد أن يعمل شيئاً يعمله كبيراً، ولا يسأل عن مصادره في سبيل ذلك. وكان الكونت دي مارتل أيضاً بالمناسبة يريد أن يكون أكبر عدد من النواب مدنين لخير الدين الأحدب في وصولهم للمجلس.

وهكذا لا يكونون تماماً للأستاذ الرئيس اميل اده، بل يكونون بطريق غير مباشرة للمفوض السامي، طالما كان الناس أخذوا يعتبرون أن خير الدين الأحدب أقرب له من رئيس الجمهورية الأستاذ اميل اده.

مع أنه لا شك أن خير الدين كان أميناً دوماً للرئيس اميل اده وكان يسميه «كريستوف كولمبوس» ويقول إنه اكتشف فيه أميركا جديدة عندما اكتشفه وجاء به للحكم، ولكنه كان دوماً يقول إنه بالأحرى يتقرب ويخدم دي مارتل، ويعمل على كسب صداقته كيما يستطيع أن يزيل هذا الخلاف القائم بينه وبين الرئيس اده الذي يريد خير الدين خدمته ومن كل قلبه!

وكان نابوليون والكونت دي مارتل وخير الدين الأحدب يعرفون أكثر من جميع الناس، أن المال عصب الحرب، لذلك - كما قلنا أعلاه - رأينا المال يتدفق على صندوق الانتخابات الذي استلمه خير الدين الأحدب، وكان الشيخ فريد يقول بالمناسبة - إن خير الدين موضوع حسد لميزات كثيرة، ولكن أهم تلك الميزات أنه مستلم لأموال صندوق الانتخابات!.

وكان المفوض السامي يحث أقطاب الأعمال والمشاريع بالبلاد للمساهمة في هذا الصندوق بقوله إن رئيس الحكومة الذي يشرف على هذا الصندوق هو العامل لتأليف مجلس نيابي مؤتلف يجعل البلاد تتصالح وتتعاون، فيكون من وراء ذلك عهد ازدهار وسعة وطمأنينة وثقة للتجار وللشركات والمصانع والمعامل والمشاريع العمرانية، وحياة البلاد الاقتصادية!.

نعم، هكذا تماماً كانت دعاية المفوض السامي لصندوق الانتخابات!

وهكذا أيضاً كانت خزائن خير الدين - لزمن ما - تتفجر من كثرة ما احتشد فيها من أوراق مالية كانت تختنق فوق بعضها بعضا.

وكان أول ما عمله خير الدين، وهو عمل مطلوب من رجل كريم ونبيه ويفهم الحياة ويعرف بيت الشعر المشهور، ولا يخالف أن يردده عليه أصحابه، والقائل:

إن الكـــرام إذا مـــا أيســـروا ذكـــروا
مـــن كـــان يَأْلَفُـــهُم فـــي المركـــب الخشـــن

وكان أول ما عمله خير الدين أنه جعل أنصاره وأصدقاءه وعشراء البؤس والضائقة ينفرجون.

ثم فرج نفسه، مما هو حق له، وفعل ذلك بطريقة صريحة جلية ومعتدلة للغاية، مما جعل الناس لا يرون في ذلك أي عيب.

وبعد هذا أخذ يفرج المرشحين من الجانبين، فهو في روح الإنصاف التي تجلت فيه هذه المرة، أعطى الخصوم مثلما أعطى الأنصار، فكما أعطى مؤيديه الاديين كذلك أعطى الدستوريين. وقد كان بين هؤلاء ناس يقبضون بكل طمأنينة ووقاحة، مع كل ما عندهم من تعنت، ومع كل ما كانوا يتغنون به من تجرد وفدائية للوطن!

ولو أضفنا تلك الأموال من الشركات والمفوضية الغالية جداً في ذلك الزمان، إلى الأموال التي دفعها أيضاً المرشحون الأغنياء ثمناً لترشيحهم لقلنا إن تلك الانتخابات كانت كاليفورنيا جديدة في معادنها الذهبية!

وبهذه المناسبة يجب أن نردد ما لاحظه رياض بك الصلح يومئذٍ ـ وكان قد ابتعد عن خير الدين الأحدب العربي سابقاً، وذلك عندما صار خير الدين الأحدب لبنانياً ـ وهنا يجب أن نردد ما لاحظه رياض بك الصلح عندما قال في حديث عمومي له، وذلك بعد أن نزل للترشيح وحاربه خير الدين والمفوض السامي محاربة العدو اللدود المنتقم، ومما كلف صندوق الانتخابات مالاً كثيراً، فاضطر للانسحاب من المعركة قبل نهايتها، قال رياض الصلح يومئذٍ:

ـ لم نر فقط خير الدين الأحدب يصير لبنانياً انعزالياً، بل رأينا خصوم وأعداء خير الدين الأحدب وخصوم رئيسه الأستاذ اميل اده والقائمين على المفوضية لعبثها بالدستور، أعني بهم ثوار الباروك، يأخذون مال الشركات ومال المفوضية من يد خير الدين الأحدب، وفي مكتبه، ليتدبروا انتخاباتهم وليأتوا لمجلس عَيَّنَ المفوض السامي نوابه قبل انتخابهم، وقبلوا أن يكونوا فيه أقلية، وأن يكون خصومهم فيه أكثرية!

وكان حكم رياض الصلح هكذا قاسياً جداً. وكان ولا شك مبالغاً في قوله، إذ أن الشيخ بشارة الخوري وعدداً كبيراً من زعماء الدستوريين، مثل كميل شمعون والأمير خالد

شهاب ومحمد العبود وحميد فرنجية وسليم تقلا وغيرهم وغيرهم، ابتعدوا عن الصندوق المشترك ولم يعرفوه، كما وأن بشارة الخوري كان قد فرض مرشحيه الستة والعشرين فرضاً، ولم يقبل أية مساومة عليهم، ومن بينهم عدد كبير من السياسيين الذين عملوا مؤخراً انقلاباً عليه. وقد يكون ذلك الصندوق أخذ من هؤلاء بدلاً من أن يعطيهم.

ونحن فعلاً كنا هناك.

وكنا لربما نساعد خير الدين الأحدب في عمل حساباته مع هؤلاء ومع أولئك.

وكان قد اختَصَّنا بصداقته، وهو الذي تدبر لنا تعويضات محترمة مقابل إبعادنا من قائمة المرشحين ليأخذ مرشح الشيخ بشارة الخوري، الأستاذ سليم تقلا. مكاننا عن المقعد الكاثوليكي في قائمة الخوريين.

وكان خير الدين يُقَدِّر صداقتنا وفننا الصحفي وإعجابنا بعبقريته، لهذا كنا مقربين منه كثيراً نطّلع أكثر الأحيان على أعماله وخفاياها.

وهكذا فعلاً كنا هناك نرى أكثر هؤلاء الذين أثاروها حرباً على خير الدين الأحدب ورئيسه اميل اده، واتهموهما بكل الرزايا وبالعبث بالحريات العامة وخيانة القضية الوطنية، والاستعباد للفرنسيين ـ كنا هناك نرى أكثر هؤلاء يأتون للسراي يمشون حسيساً يحلقون الجدران حلقاً، يحاولون أن لا يستلفتوا الأنظار عندما يدخلون على خير الدين الأحدب، وبيد خجولة وبعين تتظاهر بالاستحياء، يتناول الواحد منهم الظرف الذي يكون خير الدين الأحدب قد أعده وسيعاً ملآنا!

وكانت لخير الدين عندما كان يُسَلِّم الظرف حركة جميلة بليغة تخاطب بفصاحة وبدون كلام المرشح وهو يقبض قائلاً:

ـ للحقيقة المال لا لون ولا رائحة له، وهذه اليد التي تعطيك إياه الآن هي اليد التي كنت تدعو عليها بالكسر أمس، وستدعو عليها بالكسر غداً!

وأشرقت شمس خير الدين الأحدب. ولم تستطع حملات لا الدستوريين ولا وجهاء بيروت الذين أخذوا يغارون من المكانة التي وصل إليها رئيس الوزارة، أن تقلل من زهوها، مع أنها كانت حملات محكمة تحالفت فيها جميع العناصر القوية، منها حملات رياض الصلح التي جعل قاعدتها خروج خير الدين على القضية العربية، وقد كان من جنودها الأولين.

وكان رياض الصلح قد رَشَّحَ نفسه في الانتخابات الائتلافية، كما قلنا أعلاه.

ويجب أن نعترف أنه إذا كان الجانبان ـ الجانب الدستوري وجانب الأستاذ اده ـ لم يتفقا قلباً وقالباً على جميع الأشياء؛ فقد اتفقا قلباً وقالباً على محاربة ترشيح رياض الصلح، حاشدين جميع القوى في ذلك السبيل!

فإنما الفرنسيون جعلوا قضية ترشيح رياض الصلح قضية تحدٍ وهجوم على الانتداب، مما يجب أن يجعل المؤتلفين من الجانبين يتفقون على محاربته.

وكان الفرنسيون عرضوا في البداية مالاً على رياض الصلح. وكنا كالعادة أحد الذين ذهبوا إليه ونصحوه أن يقبض، وهو يومئذٍ خالي الوفاض يعيش بضائقة معروفة. قلنا له كما قال له غيرنا أن يقبض وأن يعتبر مال المفوضية أيضاً لا لون ولا رائحة له، أو بالحري يجب أن يعتبره مال الأمة، يبتزه الفرنسيون جزية منها، فإذا هو استرجع شيئاً منه يكون عمل واجبه الوطني. ولكنه لم يفعل، وانسحب من الترشيح عندما تألبت جميع القوات عليه، بعد أن أقسم على الأخذ بالثأر.

وكنا نقول له إنه سيأسف لذلك في المستقبل وإن المال أفضل مفتاح للفرج!

وكاذبون ونمامون أعداؤه الذين قالوا بعد ذلك إن الفرنسيين استرضوه بالكثير، ورضي به وانسحب.

ولكن كان معتاداً على الضائقة منذ زمن طويل، وكان يُخَيِّلُ للناس أنه يحبها ويلتذ بها، ولا يريد التخلص منها، ولم يكن يشكو ولا مرة منها أو يقوم بأية حركة تدل على أنه متذمر منها، مما لا تستطيع أن تفهمه ليست عقليتنا فقط، بل عقلية العدد الأكبر من السياسيين في هذه البلاد، حتى عقلية المعتزين بالتجرد والنزاهة منهم، والذين كثيراً ما لا يتركون فرصاً أصغر وأحقر من هذه الفرصة تفوت ولا يتمسكون بها.

* * *

ولكن هل خير الدين الأحدب في ذكائه المفرط، كان يفتكر دقيقة واحدة أن في استلامه الرئاسة وإدارة الانتخابات وأموالها شيئاً يمس بالكرامة؟

ولماذا يكون ذلك؟

طالما أن خير الدين الأحدب ـ وأكثر الرجال الكبار الذين حكموا هذه البلاد ـ لم يجدوا أقل غضاضة لا في خدمة المفوضية السامية واحترام رغباتها والعمل بمشيئتها،

ولا في عمل الانتخابات النيابية بالشراء والارتشاء، وحسب ما تقتضيه سياسة ومصالح المناسبات والأوقات التي وجدوا فيها، ولا في الاتكال لاكتساب الشعبية والقوة على مختلف عناصر القبضايات وأهل المسدسات والخناجر؟

ولماذا التشاؤم، ولوم الكرامة، طالما أن الباروكيين أنفسهم انتهوا ووضعوا يدهم بيد الذين كانوا بالأمس يرونهم خونة ومارقين، وبعد ذلك يتعاونون ويأتلفون معهم، ويقبلون منهم المساعدة ليصيروا نواباً، فلا يبقى هناك بعد الانتخابات التي جرت، شيء لا يجعل الرئيس اده وخير الدين الأحدب ومن ورائهما دي مارتل لا ينامون على أكاليل الغار؟

والنوم هنا كلمة بالأفواه!

إذ أن دي مارتل وخير الدين الأحدب ـ على الأقل ـ لم يكونا ينامان كثيراً، لا قبل ولا بعد الفوز بالانتخابات الائتلافية، بل بالعكس كانا يسهران كثيراً، كل واحد من جانبه.

فإنما دي مارتل ازداد صداقة لصديقته.

وكان قد كتب لها على أثر فوز خطته بالانتخابات:

ـ هل تعترفين الآن أن صديقك يستطيع أن يعمل كل ما يشاء في هذه البلاد؟ لقد جعلت ذئاب الأمس نعاجاً يأتمرون بأمري ويعملون بمشيئتي. والذي تُحَدِّثُه نفسه منهم بالعصيان والتمرد، أستطيع أن أجعل أعز رفاقه ينقلبون عليه!

وهكذا كانت الأمور تجري كما يرسمها المسيو دي مارتل، وحسب أهوائه ومشيئته.

وكان دي مارتل من أغرب الرجال في أموره العاطفية، يغار على حسنائه عندما يريد إذلال الرجل الذي يكون سبب هذه الغيرة، ولا يغار عليها عندما لا يكون هناك من سبب لإذلال الرجل الذي يقاربها!

فإنما الحسناء، مع أنها كانت نوعاً ما تحت مراقبة صديقها، لم تكن تتورع عن أن تهدي نفسها من وقت لآخر، إلى هذا الفتى الجذاب أو ذاك الرجل الوَهَّاب السخي.

وكانت هناك سيدة أجنبية ـ روسية أيضاً ـ مطلَّقة أحد رجال الانتداب تتدبر لها مواعيدها السرية مع أصدقاء الصديقة، كما وأنها كانت دوماً ترافقها، وتجد لذة خاصة، وكسباً كانت بحاجة إليه وجمعت من ورائه ثروة صغيرة جعلتها تزيد في الزينة

والبهرجة اللتين كانتا تخفيان ـ إنما بطريقة قبيحة ـ تجعيد وجهها، وتعطيان لشعرها الذي كان الشيب بدأ يضرب فيه، لوناً شقراوياً باهتا.

وكان دي مارتل قطعة من أعصاب لا يعرف مطلقاً الراحة حتى عندما لا يكون عنده شيء يعمله. وكنا نسميه «الساهر رقم أول»، فهو لم يكن يحب النوم، ولا ينام. وقد كان مستهتراً بالأمور، وكانت روح المغامرة والإقدام التي اتصف بها على جميع أنواعها، وأخصها العاطفية، تعطيه نشاطاً جديداً غريباً فلا يتعب ولا يتقاعس، بالرغم مما تتطلبه تلك الأمور من القوى والإجهاد.

وكان خير الدين الأحدب يحب الظُرْفَ، ويحب الحُسْنَ، ويحب السياسة والحياة اللاهية، فلا يحتقر أي قسط من أقساط المرح والانبساط والسلوى ويدعه يفوته.

وكان يحيط نفسه بجمهرة من كبار الظرفاء والظريفات، يتدبرون له الليالي الجميلة الفتانة، في ولائم وأعياد تسطع فيها دوماً نجوم متألقة تثبت سلطانها ـ ومنها نجمة كان يخيل للناس أن نورها يشع على دولته أكثر من أنوار باقي النجوم!.

- 31 -

فردوس الكسليك: قطعة من التاريخ

نأخذ نفساً بعد هذا الفصل الطويل عن عهد دي مارتل، وهو عهد كان أكثر ضجة ومشاغبات سياسية من كل عهد عرفناه قبل الاستقلال، يؤلف أحداثاً وعظات وأمثولات كثيرة في حياتنا العامة.

ونأخذ نفساً بعد كل ذلك الشرح الحقيقي والظريف حقاً، ونتساءل:

«ترى لو كان الفرنسيون يومئذٍ ليسوا هنا، يسيطرون بجيوشهم وبأموالهم وأموالنا وبضائعهم وبضائعنا، وبصناعتهم وصناعتنا، ثم بحسانهم وحدهم...»

«ترى لو كنا في ذلك الوقت مستقلين كما نحن اليوم، ليس عندنا أجنبي يجب مداراة خاطره، واستدراك شره، هل كان خصوم الرئيس اده وخير الدين الأحدب يعملون معهما ـ باسم الإصلاح ومحاربة الفساد والرشوة والارتشاء على قارعة الطريق، ما عمله في ما بعد خصوم بشارة الخوري ـ بالأمس ـ عندما قاموا عليه باسم الإصلاح ومحاربة الرشوة والارتشاء، فعاف الرئاسة وذهب لقصر الكسليك يعتصم ويعتكف فيه؟»

وهل يعترف الناس معنا، بعد ما جئنا عليه من كشف الخفايا عن الأوضاع الشاذة والمتاجرات غير المشروعة وسياسات الاستهتار والاعتباط في عهد مارتل، أن عهد الاستقلال في أيام بشارة الخوري، الذي قامت القيامة عليه، لا يفرق كثيراً عن عهدنا في أيام المفوض السامي المهزار الهازئ؟

ولكن الجبانة التي تَميَّزْنا بها تجاه الأجنبي هي بالأحرى التي جعلتنا لا نجد في عهد دي مارتل من ينادي بالويل والثبور، ويستصرخ الأرض والسماء من مظالم الدولة وفسادها. نعم لم نجد غير الرجل الذي قمنا عليه بالأمس، وذلك عندما عادت لنا شجاعتنا ـ بعد أن استأمنت على نفسها بعد زوال حراب السنغاليين، فاتهمناه بكل القبائح والمفاسد التي كان مع حزبه يحاربها في عهد دي مارتل!

وهكذا تنقلب الأدوار وتدور الدواليب في هذه الحياة، ويذهب بشارة الخوري إلى بيته، ويأتي كميل شمعون مكانه معتزاً مفاخراً بتجرُّده ونزاهته وترفُّعه عن كل حزبيته.

ولكن من منا يضمن أن كل هذه المزايا التي يصف الناس اليوم كميل شمعون بها، لا يقلبها غداً خصومه - عندما يصير له خصوم - إلى سيئات ومفاسد فيقومون عليه كما قاموا على اده، ثم على الخوري وأيضاً على الرؤساء الآخرين من قبلهما؟

على أن الرئيس السابق إذا خسر حاضره، يبقى له ذلك الماضي في الكفاح، عندما كان يرأس تلك الجمهرة القليلة جداً في عدد رجالها، وفي واجهتها الأولية رئيس الجمهورية الحالي الأستاذ كميل شمعون.

... عندما كان بشارة الخوري مع جمهرته وحدهم، بين أهالي الجبل، يحملون راية العصيان والتمرد في وجه الاستعمار ومفاسده وعبثه بالدستور وتحقيره للبلاد!

ومن مصادفات الزمان الطيبة أن يذهب الرئيس السابق الآن إلى قصر «الكسليك» قرب جونية، الذي يعتكف فيه، مُتَّهماً بدوره بالطغيان والفساد والتحكم في الدولة والعبث بمصالحها!

وهذا القصر في الكسليك، الذي يجعله المعتكف فيه الآن يدخل ثانياً في التاريخ، يقوم على ضفة البحر، في أجمل شاطئ من هذا المشرق. وهو شاطئ كانت السماء قد جعلته ليكون بالأحرى مرتعاً للحسان ولأهل الشعر والغرام أكثر منه ملجأ للرجال السياسيين الذين يكون نجمهم السياسي أخذ يتضاءل.

فإنما شاطئ الكسليك جميل لدرجة يجعل أمواج البحر تلامسه حتى في الليالي العاصفة بحلاوة وعذوبة دائمتين، وتلبسه الشمس حلة من نور لا تعرفها باقي الشواطئ، لا في لبنان ولا في غير لبنان وتعطي السماء لأشجاره ولأرضه ولصنوبره اخضراراً ساحراً تَفَرَّد به بين سواه من اخضرار الحقول والأحراش، وبحره له زرقة لا تختلف عن زرقة السماء، فيبدو الاثنان وكأنهما على وصال غرامي دائم، يكاد الناظر إليهما لا يُفرِّق بينهما ولا يجد ما يدله على أنهما منفصلان.

هناك كان قد ابتنى الرئيس السابق منذ بضع سنوات ما يسمونه بالإنكليزية «بانغلو» جعلها دارة للراحة وللترفيه ولنظم الشعر وللاستيحاء وقت التصافي، ولمناجاة الطبيعة بأجمل منظرها وقت الخيال.

وتأخذ اليوم الدارة الجميلة الأنيقة الصغيرة - التي يخيل للناظر إليها أنها عش غرام وملتقى عشاق، لا معتكفاً سياسياً - تأخذ اليوم شهرة جديدة تذكرنا بما عرفته في السابق من شهرة.

وهذه الجنة في الكسليك لها تاريخ قديم جميل جذاب في أساطيره وحكاياته. وكانت الكسليك قد عرفت، رجالاً كباراً مشهورين قبل بشارة الخوري كانوا أيضاً نزلوا فيها معتكفين لاجئين وقت الكوارث ينشدون في جنباتها وبظلال أشجارها وتحت وارف أوراقها السلام والطمأنينة، ويحاولون أن ينسوا في جمالها وروائعها عزاً أفل وأمجاداً تمضي.

وكان الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر قد لجأ للكسليك (سنة 1937) وسكنه بإقامة جبرية، بعد أن طارده الإنكليز في فلسطين عندما كان يقود حرب العرب على اليهود، وكان أمين الحسيني يقول معتزاً بنفسه وبخدماته للعرب وتقديره لها حق قدرها :

- ليس بين لوحات نهر الكلب التاريخية التي نقر الفاتحون تواريخ أمجادهم على صخورها، وبين الكسليك حيث أنا معتكف سوى رمية حجر فقط!

وبالفعل، كانت الكسليك، قبل الحاج أمين موضوع بحث للمستشرقين القلائل الباحثين عن العبادات والديانات السالفة المنقرضة، وإنما لباقي الناس كانت اسماً مجهولاً، وبقعة غير مطروقة؛ فإذا بعيون العالم العربي والإسلامي، وبعيون الإنكليز معاً، تتجه نحو الكسليك عندما نزلها ذلك المجاهد المغامر، المفتي الأكبر، الذي لم تقو عليه عواصف الزمان وقوات الحكام وظل منتصباً أمامها يتحداها ويجابهها رغم ما نزل عليه من صواعق ورزايا.

وبعد أن أفلت طريد الإنكليز من معتقله الفردوسي في الكسليك حيث كان الفرنسيون قد أنزلوه معززاً مكرماً، وحيث استعاروا، مدة إقامته معتقلاً، نفوذه ودهاءه لاكتساب صداقة العرب في كل مكان، وخصوصاً في المغرب الأقصى والجزائر وتونس، حيث كانت شهادة الحاج أمين الحسنة بالافرنسيين وتعاونهم معه، مما كان يُسَطِّره برسائل يبعثها لزعماء الوطنيين في تلك البلدان البعيدة الهائجة طالباً الوفاق مع فرنسا وليس إعلان الثورة عليها - كانت هذه الرسائل تجعل الفتن على الفرنسيين تتوانى والعصيان يتصاغر، والتمرد يتضاءل مما قدَّره هؤلاء قدره، ومما جعلهم يحيطون لاجئ الكسليك بعناية خاصة، كانت تجعل سماحته يقول بلطافة ولباقة اشتهر بهما، وهو يعرف أن الإنكليز فرضوا على الفرنسيين يوم لجأ إلى هنا اعتقاله بمكان معلوم، حيث يستطيعون دوماً الإشراف عليه من بعيد :

- ليس في العالم شيء أفضل من الحرية، ولكن إذا كان للاعتقال درجات كما هي الحال بالفنادق والقطارات، فأنا من وراء انتقاء الفرنسيين لي هذا الفردوس أسكنه، ومن وراء حسن معاملتهم لي هنا اعتبر نفسي أنني معتقل درجة أولى!

وعندما أفلت المفتي ذات ليلة في أوائل الحرب الأخيرة، سنة 1939 ليلجأ لبغداد، يضع قواعد الثورة على الإنكليز التي قام بها رشيد عالي وصحبه، ثم يذهب بعد ذلك لبرلين وروما حيث يجد ترحيباً كبيراً، وحيث يحاول أن يتفق مع هتلر وموسوليني على ميثاق الحرية والاستقلال الكامل للبلدان العربية - عندما أفلت المفتي، بعلم الفرنسيين أو بدون علمهم، - ولكن الأرجح أن الشيء كان بعلمهم، فهو لم يكن يعمل شيئاً إلا وهم وإياه متفقون، كما وأنه كان يحترم معاملتهم له وضيافته عندهم كثيراً، فلا يعبث أو يستخف بهما - وفدت من بعده على القصر الذي كان يسكنه جماعة من المستنيرين المدهشين، يقولون بشيعة جديدة أسموها «الداهشية»، بالنسبة لاسم مبتدعها داهش بك، الذي ذكرنا شيئاً عن الرسالة السماوية التي ادعاها وعن العقاقير التي كان يبتدعها، والتي يجب أن ترجع الشيخ إلى صباه، إذا لم ترسله إلى القبر. وقد تكلمنا عنها سالفا.

وقد جعلته رسالته يقوم بتنبوءات فشارة كنا نستغربها. واشتهر يومئذٍ بأعمال الشعوذات التي كانت تجمع حوله الكثيرين من المعجبين المشدوهين. ولم تتحقق من نبوءاته غير نبوءة واحدة فقط، هي نهاية بشارة الخوري السياسية المفاجئة، والتي كان داهش ينتظرها ويتكهن عنها، متشفياً قبل الأوان، وذلك لأن حكومات ذاك الرئيس لاحقته وطاردته كثيراً ولم تستطع قواته غير المنظورة أن تنقذه منها، فترك هذه البلاد وذهب يموت قتيلاً في جبال الأذربيجان، كما زعم الداهشيون.

وأخذت هذه الجماعة التي نزلت في قصر المفتي بعد فراره، تحتفل عند انتصاف الليالي بقداديس وطقوس سوداء، مستنجدة بالأرواح تستدعيها للظهور أمامها، وتتحدث إليها وتنشد معرفة الغيب من أفواهها.

وكان من أدهش قداديسها السوداء، عندما احتفلت بمراسيم جنازة غريبة مستغربة الطرق، لفتاة مستنيرة بالداهشية لدرجة جعلتها - وهي الآنسة زينة حداد - تنتحر احتجاجاً لمطاردة الحكومة لأستاذ مما عدته تدنيساً لشخصيته الإلهية ولرسالته السماوية، وكان قد استولى عليها اليأس وقتلت نفسها ببيروت (سنة 1946)، وحملتها الجماعة بالخفاء لقصر

الكسليك، حيث احتفظت بها ليالي عديدة فوق منصة عالية مجللة بالسواد، تنيرها شموع ضئيلة يظهر المُعلّم عليها عندما يأتي منتصف الليل، ويبعثها حية لدقائق قليلة، تقول في خلالها للمؤمنين الداهشيين المذهولين أمامها، المستنيرين بأعجوبتها، ما في العالم الآخر من عجائب وغرائب، وما ينتظر الداهشيين فيه من غبطة ومباهج!.

وهكذا للكسليك تاريخ حديث خاص، يتبع الأساطير التي تروى عنه على ممر الأجيال، والتي أرادت أن تجعله موطناً للجان، تظهر فيه عند بزوغ القمر حوريات جميلات ترقص في جنباته وبين خمائله المعطرة رقصات الهياكل المقدسة في عبادة عشتروت، ربة الجمال والحب!

وبعد ذلك انقلبت تلك الهياكل، كما انقلبت جميع هياكل الديانات القديمة في لبنان، إلى أديرة وكنائس، فكان في الكسليك دار الراهبات لم تنفع رائحة قداستهن حتى الآن في طرد رائحة الشبق والاشتهاء التي ما زالت تملأ الأجواء!

وكان إبراهيم باشا المصري، بعد أن أقام معسكره على ضفاف نهر أدونيس، الذي دُعيَ من بعده باسمه، أي نهر إبراهيم، قد أشاد دارة راحة على شاطئ الكسليك يأوي إليها لينام، ويعتزل إليها ناشداً الهدوء والسكون كل ما كان عنده وقت لذلك.

وقيل إن جمال المكان وجَوَّهُ العابق بالعطور كان يجعل ملوك بيبلوس (جبيل) يجمعون فيه أجمل الحسان في مباراة للجمال العالي، وكان أولئك الملوك أول من قام بهذه البدعة - بدعة مسابقات الجمال - التي تروج اليوم في كل مكان.

وبالرغم من أن إبراهيم باشا قد اشتهر في حملته على لبنان وسوريا والأناضول بعفته وابتعاده الكامل عن النساء، كان - كما يقول العارفون - يجتمع إلى عفيفة اللبنانية، بنت الجبل الحسناء، التي لجأت إليه هرباً من مظالم والدها، الذي أراد أن يزوجها - وهي الصبية الحسناء - إلى حاكم كسروان، الشيخ الهرم المتصابي.

وقد يكون إبراهيم باشا الفاتح الوحيد في التاريخ الذي لم يستطع سياسيو وزعماء هذه البلاد إغراءه بالملاح وقضاء مصالحهم بتقديمهن له، إلى أن سحره ذات ليلة جمال شواطئ الكسليك وما يحويه من عواطف وشاعرية، فعاف - كما يقال - عفته وعرف بين الخمائل المعطرة هذه اللاجئة الحسناء التي استصحبها معه بعد ذلك لمصر، وأقام لها قصراً في سفح الأهرام.

ـ 32 ـ

الحسناء التي هدمت خير الدين

لم يكن أحد من الذين عرفوا خير الدين الأحدب في جبروته وقوته، وبعد ذلك النور الوضاح في الدولة الذي أنار به السراي عندما جاء بعد الشيخ محمد الجسر ليمثل المسلمين في الحكم بطريقة واقعية مستكملة ـ لم يكن أحد يتساءل كيف انتهى هذا الرجل الكبير فجأة وبطريقة عادية مبتذلة!

هذا السؤال لم يتساءله الكثيرون، وذلك لأنهم كانوا يعرفون بأجمعهم لماذا انتهى خير الدين تلك النهاية الزرية (ترك الوزارة نهائياً في آذار 1938)...

... نهاية ليس فيها جاه ولا تخليد حتى ولا مال، مع أن خصومه كانوا ينسبون إليه الملايين، ويتحدثون عن الثروة الطائلة التي زعموا أنه جمعها من وراء رئاسته الفردية للوزارة.

إنما الذين شاهدوه في باريس، بعد أن رأوه في أيامه السوداء جداً، وبعد أن اضطر أن يبيع سيارته التي كانت عزيزة جداً عليه، وكان قد أخذها معه من هنا، وأن يبيع أيضاً أزرار قمصانه الذهبية في ضائقة استحكمت به، وينتهي أخيراً مُعدَماً وحيداً ـ أثبتوا كذب شائعة غناه وإثرائه، وآمنوا معنا أنه عندما ترك السراي بعد ذلك العز، ترك ملايينها فيها!

وكان قد ترك لبنان، بعد أن عثر به الحظ، وعثرت به عاطفة صاخبة لم يستطع كبح جماحها. وكانت بالأحرى السبب الرئيسي للتقاعس والعبث اللذين تسلطا عليه بعد تركه الحكم. وجاءت بعد ذلك، وأخيراً، حكاية تأديب صديقته الحسناء على مصطبة الجبيلي، حيث تصدت لها سيدة محترمة كان قد امتلأ صدرها عليها غضباً وصخباً، فكانت هذه الفضيحة الأخيرة خاتمة الفضائح المتعددة من هذا النوع وهي التي أودت به إلى الرحيل وإلى تزعزع مركزه، تماماً كرجل دولة كبير، واضطراره لرمي أطماعه السياسية بالبحر والرحيل إلى الخارج!

وجيء من بعده بوزارة فرضها المفوض السامي ائتلافية بين الدستوريين والاديين، يكون من الدستوريين فيها الأمير خالد شهاب كرئيس، والأستاذ كميل شمعون كوزير (من آذار إلى تشرين الثاني 1928).

ولم يستطع الأستاذ اميل اده مع الوزارة الجديدة أن يسترجع شيئاً من سلطانه الذي كان أخذه منه المفوض السامي ليعطيه للأحدب يحكم بالسراي حكم المعلم، وكانت المفوضية السامية قد أجبرت اميل اده لأن يعمل رئيس جمهورية في بيته، وذلك تبعاً للعداء الذي يضمره له دي مارتل.

وكانت هذه الظاهرة تجعل الناس يتصورون رئيس الجمهورية مقصاصاً شأن التلميذ الذي يكون خالف معلمه.

ولكن على كل حال كان اميل اده قد أخذ مع الوزارة الجديدة، وبعد رحيل خير الدين الأحدب، يجد راحة لم يعرفها أيام وزارة هذا الأخير، الذي كان دوماً مستعداً للقيام بمغامرات سياسية، تقلق رئيس الجمهورية وتضع السراي في خطر من المشاكل والمشادات.

فإنما مع هذه الوزارة الائتلافية، وجد الرئيس اده نفسه أمام رئيس وزارة مسالم صاحب أخلاق رضية نزيهة مجردة، لا يتصف بالكثير من الدهاء، فيمكنه أن يكتسبه بشتى الطرق.

وأسرع اده إلى ذلك، وأخذ يدلل الأمير خالد حتى جعله يعمل برغباته، ويقضي له بعض الأحيان مصالح أعوانه، مما أغضب ليس دي مارتل فقط، بل أيضاً الكتلة الدستورية والأمير خالد والأستاذ كميل شمعون، ممثليها بالوزارة، الواحد رئيس الحكومة والثاني وزير المالية.

وكان أيضاً أن الأستاذ كميل شمعون رأى ـ وهو من أركان تلك الحكومة الائتلافية ـ أن صلف الكتلة الدستورية ومطامعها ومطاليبها الكثيرة تهدد هذا الائتلاف بالشقاق المريع، فوجد من جانبه ـ حباً بالتضامن والاتحاد ـ أن يماشي الأستاذ اده رئيس الجمهورية، على منوال مماشاة الأمير خالد لحضرته، فغضب الدستوريون وصخبوا على زميليهم، وأنذروهما أولاً وثانياً بوجوب السير في الوزارة بسياسة حزبية دستورية صرف ـ لا يجب أن يريا فيها غير مصلحة الحزب وأعوانه، مما لم يقبله الأستاذ كميل

شمعون على نفسه، وقد كانت أكبر الظاهرات التي أخذها الدستوريون ليبنوا زعمهم القائل أن حضرته يخرج بالوزارة على كتلته هي أنه كان يجد من الأشياء المبهجة المستحبة أن يزور الأستاذ اده، هذا الرجل الظريف الجذاب الفكه الحديث واللطيف المعشر، ويقبل دعواته المتوالية للعشاء، وللحفلات التي كان يقيمها.

ونفد صبر الكتلة بعد الإنذارات، ووجدت في مسلك وزيريها تحدياً لها. وقد أخذ الأمير خالد عن كميل شمعون أيضاً شجاعة التمرد، فاتخذت قراراً بوجوب انسحابهما من الوزارة وزوال الائتلاف، وأعلنت قرارها وأبلغتهما إياه، وهي تعتبر أنهما سيمتثلان له!

ولكنهما ـ ويا لدهشتها ـ لم يفعلا وأعلنا العصيان، ورفضا الانسحاب: الأمير خالد من الرئاسة وكميل شمعون من وزارة المالية!

فماذا تعمل الكتلة؟

غضب أعضاؤها غضباً كبيراً، وطلبوا طرد المتمردين من الحزب حالاً وبدون سؤال.

ولكن كان هناك الرجل الرابع بحيلته الواسعة وبدهائه الغريب، وهو دهاء لم يخنه ولا مرة ـ حتى ولا في اليوم الذي اعتزل فيه رئاسة الجمهورية في صيف هذه السنة 1952.

ولكن كان هناك الرجل الرابع رئيس الكتلة، فقد جارى الغاضبين في غضبهم، واشترك في الصخب والشكوى من الولدَيْن الشاطرَيْن، ولكنه قال: إن الحزب المدرك الحكيم لا يترك غيره ينال منه ويشمت به ولا يفتح باب الانشقاق في صفوفه، ومن الحكمة أن يغسل أثوابه بنفسه!

وبلع رجال الكتلة عند هذا القول الموس وسكتوا...

وعدَّ طبعاً الأستاذ الرئيس اميل اده هذا انتصاراً له، وهو الذي كان يعتز في أحاديثه هنا وهناك أن عضوين بارزين جداً من الكتلة ما كادا يدخلان بالوزارة ويتعاونان معه، حتى وجدا أين هي خدمة البلاد الحقيقية وأين هي الحقيقة، فتمردا على حزبهما وأدارا له ظهريهما!

إنما كان من صالح الكتلة الدستورية أن تتغاضى عن الأمر، بعد أن أصبح معروفاً عند جميع الناس أن الأمير خالد وكميل شمعون متمردان عاصيان. وهذا لم

يمنع رجال الكتلة من الموافقة أخيراً على رأي رئيسهم والرجوع عن تهديد زميلَيهما بالطرد والتشنيع والإعلان بأنهما كانا في كل ما عملاه وكل ما يعملانه متفقَيْن مع الكتلة، وليست أخبار الخلاف المزعوم بين الكتلة وبين ممثليها بالحكومة غير تلفيقات جرائد ومشاغبين، يريدون الإيقاع بالحزب، والعمل على التفرقة فيه!

وسكت رئيس الكتلة، والشيخ فريد الخازن والأمير مجيد وصبري حماده وحميد فرنجية وغيرهم من أركان الكتلة عن هذا التمرد غير المنتظر، ومشى الائتلاف في طريق عادية ساكتة حتى اليوم الذي أخذت فيه شائعة التجديد لاميل اده تروج هنا وهناك.

- 33 -

تمديد لا تجديد ورئاسة ليست بالسراي

لم يستغرب مطلقاً الذين يعرفون جيداً المسيو دي مارتل ونزعته نحو التشفي والتحكم والخروج على الناس بمفاجآت غير منتظرة - لم يستغربوا الشائعة القائلة بأنه سيجدد للأستاذ اده، ولكن عن طريق التعيين لمدة ثلاث سنوات.

وظل الناس يُعلِّقون على الشائعات ويتناقشون بها، حتى جاءت أخيراً حقيقة واقعية!

وطلع المفوض السامي بهذا القرار على الناس، عندما اتخذ قراراً بتعيين الانتخابات الائتلافية لمجلس الثلاثة وستين يمدد فيه رئاسة الأستاذ اميل اده للجمهورية اللبنانية ثلاث سنوات جديدة، على أن تبدأ رئاسته الثانية فوراً، أي بعد ثلاثة أشهر من صدور ذلك القرار، وفي اليوم الذي تنتهي فيه مدة رئاسته المنتخبة الأولى.

وبطبيعة الحال وجم الدستوريون وغضبوا وسكتوا في البداية، وذلك لأن التمديد كان نوعاً ما شرطاً من شروط الائتلاف، وجلب الستة والعشرين من الدستوريين لمجلس الثلاثة والستين، في الوقت الذي كان فيه أمل الدستوريين بالنيابة، عن غير طريق الائتلاف، ضئيلاً ما عدا قلائل منهم، وهكذا يكونون قد قبضوا سلفاً بالائتلاف تعويضاً عن تمديد الرئاسة لخصمهم.

وكان من الطبيعي بعد أن يجيء الدستوريون بذلك العدد الكبير من النواب إلى المجلس أن يزدادوا نشاطاً، ليس فقط لأنَّ التجديد أو التمديد لاده يجعلهم ينتظرون دورهم ثلاث سنوات يتحكم الأستاذ اده بخلالها تحكمه الحزبي، وكان قد أخذ يتمشى عليه منذ ذلك الوقت، بل أيضاً لما في ذلك القرار بتمديد مدة رئيس الجمهورية دون الرجوع للمجلس النيابي القائم غير المعطَّل من مخالفة للدستور، ومما لم يجر مثله من قبل، وهذا يعاكس تماماً مبادئ الكتلة التي قامت على أساس جعل الدستور مصاناً ومقدساً، فكان من الطبيعي - على أعين الناس على الأقل - أن يقولوا عن قرار دي مارتل إنه خرق فاضح للدستور.

فإنما التمديد بالتعيين لرئاسة منتخبة في جمهورية برلمانية، هو عمل لا يقدم عليه غير دي مارتل، الحاكم المستهتر.

وكان من الواجب هكذا على الدستوريين الذين لقَّبوا أنفسهم حماة للدستور وللنظام البرلماني أن يقوموا - ولو بالظاهر - على هذا القرار، فأخذوا بعد أن استقر لهم الأمر في المجلس وجاؤوا إليه من وراء هذه التسوية المخجلة يملأون الدنيا احتجاجات واعتراضات، مشمرين عن سواعدهم، يعملون في جميع الميادين هنا وفي باريس، في سبيل توقيف هذا القرار وإلغائه.

وقد ذهب بعضهم إلى اتهام رئيسهم الشيخ بشارة الخوري بأنه هو الذي تدبر مع دي مارتل هذه التسوية، متجاهلين تماماً أنهم هم أولاً كانوا على علم بما كان المفوض السامي يضمره، ولكنهم بأجمعهم سكتوا عن الشيء حتى تمكنوا من النيابة وجاؤوا إليها، وبعد ذلك قاموا على هذا التمديد يجمعون الأموال لمحاربته. وقد قيل يومئذٍ - كالعادة - إن تلك الأموال كانت بالأحرى أموال هنري بك فرعون، مما لم يثبت شيء من حقيقته!

وكان هذا الأخير أشد حماساً في محاربة التمديد، يحلف ويقسم في حماسه الدائم المعروف، أنه سيحاربه بكل ما عنده من قوة مادية ومعنوية ووجاهة وزعامة.

والخواجا، كان دوماً غنياً ووجيهاً وزعيما.

وكان الفرنسيون دوماً على صلات معه وكان مقره مضافة لهم ينزلون فيه نزولهم في بيوتهم. وكانت كلمته تجد عندهم آذاناً صاغية، لا سيما وهو من أنصار الانتداب الأولين، ومن أشدهم تشجيعاً للصداقة الفرنسية، يساعدها في استتاب أمرها بالبلاد بواسطة نفوذه المعروف الدائم في الأوساط الشعبية، خصوصاً عند العمال والقبضايات والسواقين، المديونين له غالباً بالكثير من المساعدات، ومنها المالية.

والخواجا كريم جداً - إنما بطريقة خاصة - عندما يكون هناك إعلان، وعندما يكون هناك اكتساب قوة جديدة له، وعندما يكون هناك سبيل لمضاعفة غناه وزعامته.

وكان كما قلنا، من أكثر أنصار بشارة الخوري حماساً ضد التمديد، يزبد ويرعد ويهدد. وظل هكذا يثير في حفيظة الدستوريين، حتى الليلة التي جاء فيها حبيب أبو شهلا من جانب الرئيس اده، يخفف من روعه وغضبه، ويفاوضه في مبدأ الاتفاق مع اده ومصادقته، مما سمعه الخواجا بكل ارتياح، حاسباً أن التجاء اده إليه يجب أن يجعله يقبل بالتمديد. وذلك أنه وجد في محاولة اده التقرب منه ما كان يرضي صلفه واعتداده بنفسه، ووجد في ذلك ما يكفيه لأن يسكت عن ذلك القرار الخارق المفاجئ!

وكان في ذلك الزمان رجلان سياسيان جديدان، ألعبانان متلاعبان، دخلا في الميدان رهوانين مغامرين، الواحد شجاع عالي الاعتداد بالنفس، والثاني ثعلب مراوغ نبيه، وقد امتلك كل منهما من الحيلة والنباهة ما ليس عند ملوك الجان.

أولهما كان الأستاذ حبيب أبو شهلا، المهر الأبجر، الذي يدخل على الدنيا السياسية بنباهة مستحبة وبوجه صبوح وبأطماع كبيرة، ويضرب المقياس العالمي بين السياسيين في السرعة التي حققها فيها، يساعده في ذلك أكثر من كل شيء أحاديثه الظريفة وأقواله النابهة، وكلمة عالية جريئة قد تذكرنا كثيراً بالفاجر الذي يأكل مال التاجر!

وإنما الأقوال الظريفة النابهة في جميع بلدان العالم، كثيراً ما ترفع صاحبها، وكثيراً ما تنقذه من المهالك، وكثيراً ما تجعله يصل إلى المعالي ويفوز بكل مبتغى، وكثيراً ما تخرج السياسيين من المأزق، وتفتح لهم باباً للنجاح والشهرة.

والأستاذ أبو شهلا قد حفظ التاريخ واجتهاداته، وهو من أهل الأدب القليلين في هذه البلاد الذين يطالعون كثيراً جداً، وذلك مع كل ما كان، وما يزال، عنده من مشاغل وأعمال سياسية وغير سياسية، وهي مشاغل مع كل أهميتها، ما أشغلته مرة واحدة عن مجونه وندماته، والاهتمام بنفسه.

أدخل الأستاذ اميل اده حبيب أبو شهلا إلى السراي كنائب في مجلس الائتلاف الكبير، وذلك بعد أن كان جعله يبدأ حياته السياسية في البلدية عندما عينه عضواً فيها، وحيث بدأ مجده حالاً يتألق خصوصاً عندما طلب تعديل امتياز شركة المياه ببيروت لصالح الأهالي، مما كان أول هجوم معروف على الشركات ذات الامتيازات. وقد كانت حتى ذلك اليوم الذي فتح فيه أبو شهلا جبهة الحرب عليها، معدودة مقدسة محترمة لا يجوز مسها والبحث بها، تحميها المفوضية بكل قواها وتستثمرها لصالحها، دون أن يكون للحكومة اللبنانية أقل حق عليها.

وعندما دخل حبيب أبو شهلا النيابة، دخل حالاً في الأستاذ اده دخول النعس، إذ أن رئيس الجمهورية أحب فيه روحه ونباهته وظرافته وقد كان الأستاذ اده معدوداً من سادة الظرفاء الأولين. وما هي إلا أيام حتى أصبح حبيب أبو شهلا مستشاره النافذ الكلمة، صاحب القول الأخير والرأي المسموع، والخصم للدستوريين الأقوى والأكثر حركة للوقوف بوجههم، مما جعل طبعاً الاديين يعززونه ويرفعون من شأنه.

ولا نقول هنا مع المثل العامي، بمناسبة المكانة التي وصل لها حبيب أبو شهلا عند الرئيس اده، وكيف أنه جعله حالاً مستشاره الأول والأقرب: «من كان الديك دالوله، كان القن مأواه!».

... إذ أن هذا الديك كثيراً ما قاد الأستاذ اده نحو الأشياء الكبيرة، وكثيراً ما جعل نفسه في حيلته ومقدرته من ضروريات بقاء اميل اده على سؤدده وقوته، اللذين كانا تحت الخطر الداهم من وراء عداء المفوض السامي له من جهة، ومن وراء حملات الدستوريين العنيفة المتواصلة عليه من جهة ثانية.

جاء حبيب أبو شهلا في مجلس الائتلاف، وحالاً أصبح يفتش عن الثروة والمعالي. وكان يعرف كيف أن جميع الصفات مع الفقر تصبح سيئات، وأن حلاوة لسانه ورشاقة قده ولطافة أقواله تكتمل تماماً وتصبح سامية إذا رافقتها راحة جيوبه، فأخذ يكدح ويجري وراء المال بسرعة. ولما كان حب المال، مثل القابلية يزداد على القبض، كما تزداد القابلية عند الأكل، فالأستاذ الحلو الطماع أصبحت له قابلية الوحوش عندما أخذ يهتم بأمر جيوبه.

وقد كان سيادته، الحامل نيشان القديس غريغوريوس الكبير الذي تعطيه الكنيسة الأرثوذكسية مكافأة للعفة والطهارة والتقى، مما ليس عنده شيء منه - كان سيادته، يجد دوماً، بالرغم من مشاغله الكثيرة وقتاً كافياً ليطالع تقريباً جميع الكتب والمجلات على اختلاف أصنافها ولغاتها. وقد كان يعد المطالعة من ضروريات الرجل الذي يريد أن يعتلي بالسياسة ويكبر. ومن أدهش ما عمله في حياته أنه في الساعة التي مشى فيها الإنكليز من فلسطين في حربهم مع الفيشيين، كان أول شيء عمله أنه أخذ يستكمل تعلم الإنكليزية، التي لم يكن يتقنها قبلاً، حتى استطاع بعد شهر واحد أن يصبح محدثاً فيها.

كما وأنه كان يجد وقتاً طويلاً أيضاً للمغازلات وأعمال الحب، التي هي جزء رئيسي أساسي من حياته. وكان يعتبر في اغتراره بنفسه أن السماء ما أعطته هذه الرجولة القوية الجذابة إلا ليجعل الحسان يستمتعن بها ويسعدن بساعات الغرام التي يغدقها عليهن، معتبراً أنه إذا لم يفعل خان الرسالة التي كلفته بها السماء، كأدونيس جديد أرسلته للأرض من أجل إرضاء الهاويات المستمتعات، وكان يجد وقتاً طويلاً أيضاً

لتدبير هندامه ولباسه وزينته بطريقة مستحبة جميلة، جعلته حسب آراء الكثيرين «بترونيوس» هذا البلد، والحكم في اللباقة.

وكان جاء النيابة كما أسلفنا واحداً من السبعة والثلاثين، حصة الرئيس اميل اده في مجلس الائتلاف المعروف.

تماماً أيضاً كما جاء في سنة 1943 من حصة بشارة الخوري في مجلس الاستقلال. فإنما هو رجل سياسي دخل الدولة وظل فيها دوماً، حتى عندما رحل بشارة الخوري من الرئاسة سنة 1952 - وقد كان أكبر المقربين إليه - ولكن بقي صديقنا «بترونيوس» اللبناني في القصر ولم يرحل معه.

بل ما كاد يغيب لساعات معدودة يوم الانقلاب عن السراي، حتى عاد إليها مع كميل شمعون!

وقيل دوماً - عند حُسّاده ومنتقديه المبتذلين العاديين - إن حبيب أبو شهلا يأتي مع أم العروس ويذهب مع أم العريس!

إنما على كل حال، لم تقم دولة بالسراي، إلا وكان أول الذين يتقبلون التهاني عنها!

ولكن ما العمل إذا كان في روحه المتلاعبة وشخصيته القوية، يجعل نفسه لا غنى عنه لأية دولة جاءت؟

فهو يفتن السرايات صغيرة كانت أم كبيرة، مثلما يفتن النساء على اختلاف حلاواتهن.

ولا شك أن هذه البراعة في التنقل والاقتران بكل حكم جديد، هي التي دعتنا ودعت الناس لتشبيهه بميكافيل. ولقد كان في ذلك الوقت، أخذ يكون معروفاً بهذا اللقب.

وميكافيل هو ذلك الإيطالي السياسي الأديب المشهور الأستاذ الداهية الذي وضع قاعدة السياسة في أن يلبس صاحبها لكل حالة لبوسها. وقد أجاز في السياسة القول المأثور المنسوب للجزويت، والقائل «الغاية تبرر دوماً الواسطة».

ولكن هل يمكننا أن ندعو أبو شهلا انتهازيا؟

نعم، لأنه ما ترك مناسبة إلا وانتهزها، حتى صار ما هو عليه الآن: حكيم عصره وقارون زمانه، وكان عند قارون كنوز لا تنتهي ولا تنضب!

كان انتهازياً، مع أن مكانته لم تكن حقيرة، وقوته لم تكن زرية يوم اعتنق السياسة ودخل إليها دخول المطمئن الأمين، يمشي على قدميه وليس على أقدام غيره!

والاديون حتى الآن، لا يزالون يُعَيِّرونه بالخيانة، عندما ترك صفوفهم والتحق ببشارة الخوري، يوم تألق نجم هذا الأخير وقالوا إنه ناكر الفضل، مدعين أن اده هو الذي عمله، ولولاه لما وصل إلى ما وصل إليه. ولكن حبيب أبو شهلا، هذا الكهل المتصابي اليوم، النائم على أمجاده السياسية والغرامية والمالية، هو الوحيد مع ذاك الذي يسميه خصومه وحساده ستافسكي لبنان - اميل البستاني - اللذان عملا نفسيهما لوحدهما، وليس لأحد أن يدعي أنه عملهما.

والأستاذ أبو شهلا عرف كيف يستنير من أنوار كل شمس جديدة تطلع فيطلع معها ويخدمها بقوة عارضة وبكلمة عالية وبأعمال ثابتة ويخلع على «الدونكشية» منها رداء من العز والقوة، يخفي معايبها ونقائصها ويفرض بعد ذلك نفسه عليها!

وهكذا، عندما تألب الدستوريون في مجلس الائتلاف على اميل اده بعد أن كان قد صدر القرار بتمديد مدته، وبعد أن استطاعوا أن يضربوا نواب اده بعضهم ببعض - شَمَّر أبو شهلا عن ساعده ونزل للميدان، يجمع نواب اده - وهم الأكثرية - في حزب ينتصر للرئيس أسماه حزب الاتحاديين وتزعمه ووضعه بالمجلس في وجه الخصوم، وجعل رجاله - وحتى بمساعدة بعض الدستوريين - يؤيدون المفوض السامي في قراره بالتمديد، ويخذلون بشارة الخوري في أكثريتهم النيابية الساحقة، وذلك بعد أن تخلى عن هذا الأخير عدد ليس بقليل من نوابه الستة وعشرين. وقد فعلوا ذلك عندما شعروا بجهة ضعف فيه جعلت المفوضية تمدد لخصمه بعد أن كان يؤكد حصوله على الرئاسة قريبا.

وكان من الطبيعي أن يحتج على قرار التمديد كل نائب ديموقراطي برلماني حقيقي، اعتباراً بأنه قرار يطيح بصلاحيات النواب الذين يجب المحافظة على صلاحيتهم، فلا يجعلونها موضوع سخرية وهزوء.

وبعد أبو شهلا، يجيء الرجل الآخر، الغزال الثاني، الأستاذ يوسف سالم من نواب الدستوريين، أو بالحري الذي كان محسوباً على الدستوريين، وقد جاء من حصتهم في مجلس الائتلاف. ولكنه كان الأكثر امتزاجاً بينهم مع الأستاذ اده؛ حتى

مراراً ما كان يخيل أنه بالأحرى من أنصار هذا الأخير، أكثر مما هو من أنصار الشيخ بشارة الخوري!.

وكان ولا شك، الانتهازي رقم أول، الألمعي في البلد.

بدأ مهندساً في شركة المياه، وما عتم حتى فرض نفسه عليها، وقبع مدير تلك الشركة وجلس مكانه يتحكم فيها، ويجعل أصحابها السيدة الجليلة مدام صباغ ونجليها الظريفين، مع كل ما عندهم من صلف وقوة، يخشونه ويعطونه من يده في إدارة شركتهم واستثمار أموالها!

وكان أول شيء عمله إقناعهم أن الشركة مطموع فيها كثيراً، وهي بحاجة دوماً لحماية الدولة ونوابها. وبدلاً من شراء تلك الحماية بالمال كما يرى أكثر الذين يجب أن يتولوا حمايتها، فإنه هو يوسف سالم يمكنه أن يعمل نائباً، وهكذا عندما يصير في السراي يستطيع أن يجعل حماية الشركة من جانب الدولة لا تكلف شيئاً...

ونزل للانتخابات، ودفعت الشركة، وصار نائباً وأخذ بعد ذلك يلعب الدور الذي يتفق مع نباهته ومصالحه وأطماعه.

فلماذا يعادي اده وهو رئيس الجمهورية، طالما أن دستوريته يمكنها أن تكون ضعيفة تجاهه وتستطيع أن تخدم حزبه وتخدم اده معاً، وطالما أنه يستطيع أن يعلن نفسه رسول السلام، دون أن يزعج الطرفين؟

وكان يقول إنه يريد أن يُوفِّق بين الجانبين، مما لا يعده شيئاً صعباً كما كان غيره يتوهم. وكان من جانب آخر يدعي أنه مضطر كمدير شركة، وكيلها المحامي مكتب الأستاذ اده، لأن يكون على أفضل العلائق وأوثقها مع الرئيس القائم!

وكان هكذا هو المدعو قبل الجميع - يوم أعلن دي مارتل التمديد وشن الدستوريون بعد ذلك هجومهم الكبير على ذلك القرار - أن يتطوع ليحاول إقناع الدستوريين بقبول هدنة يرضى بها الأستاذ الرئيس، مقابل استجابة مطالب عديدة للدستوريين ومقابل إشراكهم بالحكم بطريقة أوسع.

وطبعاً اشترك الأستاذ أبو شهلا - مستشار القصر الدائم على تتابع رؤسائه - وتطوع مع الأستاذ يوسف سالم لتنفيذ هذه الرسالة السلمية التي عدَّها أبو شهلا وسالم في أقوالهما وقتئذٍ - وقد يكونان وجداها أيضاً - رسالة وطنية مقدسة!

والأستاذ أبو شهلا، الذي أسموه بعد ذلك برنادوت، كان دوماً لا يترك أية قطيعة أو مشادة أو مساجلة سياسية حزبية إلا ويقلب نفسه حالاً إلى حمامة السلام، فيحمل جانحيه ويتأبط غصن الزيتون، ويدخل بين المتخاصمين، ويأخذ في السعي لإصلاح الحال، ولإزالة الخلافات، ويجد في ساعات الصخب، الكلمة اللازمة لتخفيف التوتر ولتذليل الصعوبات أمام الائتلاف الذي قام.

وكان ولا شك لمساعي الرَّجُلَيْن النابِهَيْن فضل أكبر من فضل الإنذار، الذي هدد فيه المفوض السامي بالتخلي عن الدستوريين وبحل المجلس، إذا عارضوا التمديد بطريقة نيابية!

ورضي النواب المحتجون بما كان، وذهب الدستوريون إلى أكثر من ذلك، إذ أنهم أخذوا يشتركون بمعظم الوزارات التي جاءت بعد التمديد حتى وصلوا إلى آخر وزارة ائتلافية بعهد مجلس الثلاثة والستين التي شَكَّلها الأستاذ عبد الله اليافي - وكانت رئاسته الأولى للحكومة - واشترك فيها من الدستوريين حميد بك فرنجية، وصبري حماده.

والدستوريون هذه المرة، اعتباراً أن وزيريهما السابقين في وزارة الائتلاف السالفة، الأمير خالد وكميل شمعون، لم يتقيدا بإرادة الكتلة وبخدمة مصالحها وهما في الحكم - قلنا والدستوريون هذه المرة وضعوا شروطهم على وزيريهما في الحكومة الائتلافية الجديدة، قبل أن يوافقوا على تعيينهما ممثلين للكتلة في الوزارة الجديدة:

1 - العمل أولاً في الوزارة لتقوية الحزب الدستوري ووجوب طغيانه على مصالح الدولة.

2 - وجوب عدم التئام وتجانس الوزيرين الدستوريين مع الوزراء الباقين، خصومهما السياسيين، على أن يبقيا مستقلين في وزارتيهما تماما.

3 - اعتبار الكتلة الدستورية معارضة دوماً حتى في قلب الوزارة - مما يدعو ممثليها في الوزارة لخلق المصاعب لرئاسة الجمهورية وللحكومة، لا لتسهيل مهمتها، كما كان يفعل كميل شمعون والأمير خالد في الوزارة الائتلافية الأولى.

4 - القيام بمساع خفية ضمن السراي لإضعاف الرئاسة المددة ولتصويرها للموظفين رئاسة هزيلة لا يجب احترامها وعمل حساب كبير لها.

5 ـ الحذر من مناورات وملاعبات حبيب أبو شهلا ـ الذي كان قد أصبح مُدَرِّبَ الرئاسة الممددة، وعدم الانصياع والانخداع بحيله وفنه في تطبيق المعارضين، يقلبهم أنصاراً للأستاذ اده كما يفعل غالبا.

* * *

هنا تدعونا المناسبة للرجوع قليلاً إلى الوراء، إلى الوزارة الائتلافية الأولى التي دخلها من الدستوريين الأمير خالد شهاب كرئيس، والأستاذ كميل شمعون وسليم تقلا كوزيرين، وكيف أن الأولين التأما مع الوزراء الاديين، مما دعا الكتلة الدستورية لإرسال ذلك الإنذار إلى وزرائها الثلاثة بوجوب الاستقالة.. فلبى سليم تقلا وحده الطلب، وعصى الأمير خالد وكميل شمعون اعتباراً أنهما دخلا في الوزارة لخدمة البلد وليس لخدمة الحزب وحده، وقد وجدا عند الاديين تعاوناً صحيحاً فلا يمكنهما أن يتنكرا لهم!

وكانت معارضة الأمير خالد شهاب لهذا الإنذار قوية غير منتظرة من رجل عرفناه لين الأخلاق يتصف بالمرونة وروح المسالمة، ولكن يظهر أن عزة نفسه استيقظت تماماً وذكر ـ كما كان من الطبيعي أن يفعل ـ أنه سليل بيت كبير قد تكون السماء اصطفته لإعادة أمجاده ولرفع شأنه وهو يعمل في هذا السبيل دوماً، ولا شك أنه استطاع كثيراً في هذا المعنى، لذلك لا يمكنه أن يأتمر هكذا بأمر الحزب، لا سيما وهو رجل عاش مستقلاً مخلصاً لوطنه، لا يخشى شيئاً ويغار جداً على سيرته وكرامته، وهو ما انضم واصطبغ بصبغة الدستوريين، إلا لأنه آنس فيهم حباً للتحرر وللاستقلال في وقت كان الانتداب فيه يتحكم بالبلد تحكماً فظيعا.

لهذا كانت معارضته لإنذار الدستوريين قوية، وهدد بالاستقالة، مما دعا الدستوريين والاديين للتوسل إليه بالبقاء.

وللحقيقة، من الواجب القول إن الأمير خالد شهاب كان بإمكانه في كل وقت الجلوس في السراي، فهو العنصر النزيه المحايد بالأحرى الذي كانت الدولة تلجأ إليه في كل مرة كانت هناك رسالة سلام واتحاد تريد أداءها.

وعلى هذا الأساس، كما جاء في كلام سابق بهذا الكتاب، جاء دولته في الانقلاب الأخير يستلم الحكم يتربع فيه اليوم، في الوقت الذي نكتب فيه هذه المذكرات ـ حازماً شديداً عنيفاً، ولكنه عادل يمشي إلى الأمام دون أن تصده العقبات والصعوبات الكثيرة التي يضعها الكثيرون أمامه، ويطمئن الناس في جميع الأمور السياسية إلى تجرده ونزاهته.

وكان قد دعاه الرئيس كميل شمعون لاستلام الحكم من الفوضية اللبنانية بعَمَّان حيث كان يقوم بوظيفته الدبلوماسية على أفضل وجه وبغيرة كاملة جعلت الملك عبد الله ـ كما يعرف الكثيرون ـ يدعوه لترك الفوضية اللبنانية ولاستلام الحكم في عمان، وتثبت جلالته في هذه الدعوة طالباً منه اعتناق الجنسية الأردنية.

واعتذر الأمير خالد، ولا سيما وأنه كان دوماً يعتبر أن عليه نحو لبنان رسالة يؤديها، خصوصاً في كل مرة تكون الأحزاب تتطاحن وتتذابح وتجد الدولة أَنْ لا بد من دعوته لاستلام الحكم لينقذ الموقف.

وقد يكون السياسي الوحيد في هذه البلاد الذي لم تُغْرِه عظمة السراي، فهو كان دائماً يدخل للوزارة هادئاً ساكناً وديعاً ويخرج منها هكذا تماما.

وفي جميع الوظائف التي تألب فيها، قد لا يكون عمل المدهشات، ولكنه كان دوماً نظيفاً ومثالاً للنزاهة، بأجمعنا نعرف أولاً موقفه تجاه اليهود في حاصبيا، ورفضه ثروات كبرى كان اليهود يعرضونها عليه مقابل تنازله عن بعض أراضيه في الجانب الآخر، ومقابل الكف عن مقاومة توسعهم في تلك المنطقة.

كما وأننا لم ننس موقفه الجازم عندما هاجم الإنكليز والديغوليون سوريا ولبنان في ربيع 1941، واستدعاه القائد الإنكليزي الذي كان يرابط مع جيشه على حدود مرجعيون وحاصبيا، وفتح له صناديقه وقال له أن يأخذ ما يريد على أن يدخل الجيش الإنكليزي ولا يعترضه رجاله في تلك المنطقة.

وكان جواب الأمير خالد أنه سيأمر رجاله باستقبال الجيش بالترحاب ولكنه يدير ظهره لصناديق القائد الكبير ويقول:

ـ تقولون إنكم تأتون بلادنا لمساعدتنا في جهادنا للاستقلال، ولم يتعود أحد منا نحن الأمراء الشهابيين الذين عملوا دوماً لاستقلال لبنان أن يساوم هكذا على ذلك الاستقلال.

وهكذا مشى دوماً الأمير خالد في حياته السياسية على هذه الوتيرة، كما وأنه كان من أكبر العاملين لليقظة المدهشة التي استيقظها الشهابيون في هذه البلاد وظهورهم القوي في عالم السياسة، بعد أن كانوا منذ عهد المتصرفين حتى هذه اليقظة الجديدة قد اختفوا عن المسرح الوطني، مما جعل الناس ينسبون إليهم الخمول والانحطاط والتلاشي مما يُكذِّبونه الآن بنشاطهم السياسي.

- 34 -

غبريال بيو يعيد الرزانة إلى الفوضية

وهنا يجب أن نلاحظ ظاهرة للشيء الذي ترتكز عليه حجة هذا الكتاب، موجهة إلى جميع الذين قاموا على العهد السابق يوم انقلابه الأخير في أيلول 1952، يتهمون رجاله بكل الرزايا والسرقات والنهب والسلب والمتاجرات - هنا يجب أن نلاحظ ونقول ما قاله المُعَلِّم: «من كان بدون خطيئة فليرجم هذه الامرأة بحجر!»

وقد كانت تعددت أسباب الثراء من وراء النفوذ الذي كان يصل إليه السياسيون من رجال الحكومة ونوابها والزعماء الموالين لها - كانت تعددت الأسباب، وكانت عقليتنا بأجمعنا في هذه البلاد - ولا تزال هكذا - نتصور أن الرجل الذي لا يستفيد من المناسبات هو رجل ساذج لا يستحق التقدير ويضحك عليه الناس.

نقول هذا بكل وقاحة ونتحدى المتظاهرين بالفضائل الذين يعرفون الحقيقة جيداً ولا يُصَرِّحون بها.

فإنما نحن في بلد، بدلاً من أن نُسَلِّم القاتل للبوليس نحميه، وبدلاً من أن نرذل السارق، نشترك معه ونعجب بمهارته!

لهذا يمكننا التأكيد أن ليس من صاحب نفوذ في هذه الدولة، إلا واستعمل نفوذه في المناسبات المؤاتية ليستفيد ويقوى مهما كانت الواسطة والسبل. إنما صادف أن بعض السياسيين تدبروا عمليات مالية مفضوحة صارخة، اغتنوا من بعدها، والبعض الآخر تدبر عمليات كتومة ساكتة خجولة اغتنى منها!

ولكن كما حكمت محكمة الجنايات الفرنسية على جان فالجان بطل رواية «البؤساء» لفيكتور هيغو بالحبس المؤبد، لأنه كان جائعاً وسرق رغيفاً، كذلك حكمنا هنا - خصوصاً في الانقلاب الأخير - حكمنا بالأحرى بالفساد والسرقة والاستثمارات فقط على الذين عملوها في وسط الشارع دون تمييز ولا تمحيص، وشاهدنا القشة في عين هذا البعض جسراً، وتحاشينا رؤية ذلك الجسر في عيون البعض الآخر.

فإنما السياسيون المفسدون المتاجرون والسياسيون الذين لم يتاجروا متشابهون أصلاً: الأولون تاجروا بوقاحة وعلناً، والآخرون عرفوا كيف تاجروا بأدب ولباقة.

ولا شك أن الاستثمارات والمتاجرات رافقت بطريقة مُبالَغٍ بها جداً تطورات الاستقلال، مما سنتحدث عنه قريباً وبتفاصيله بأجمعها مع ذكر جميع الأسماء والمئة حيلة وحيلة لفن الإثراء والسرقات الشرعية وغير الشرعية، وهو الفن الحديث الذي أتقنه السياسيون وأصدقاؤهم بعض التجار في علم النهب والسلب، وخلق موارد الرزق وافتتاح كل يوم أميركا جديدة في كل مرفق من مرافق هذه الدولة.

وليس مُستَغْرَباً أن نعرف أن معظم الرجال الذين مشوا إلى الأمام في هذه الدولة قبل الاستقلال وبعده، ليس فقط لم يتركوا باباً للإثراء إلا وطرقوه ووسيلة للغنى إلا واستعملوها واستفادوا منها، بل أيضاً فتحوا حقول استثمارات جديدة مدهشة أمامهم في دوائر الدولة بطريقة نابغة جداً تستوجب إعجاباً وإحناء رؤوسنا تقديرا!

وهناك شخصيات بلغت القمة بطريقة مدهشة وأيضاً بغفلات من الزمن، وجعلت الناس يعتبرونها بارزة قوية مُجَرَّدة نزيهة مخلصة، ليس لها عيوب ولا متاجرات في نفوذها وزعامتها، ولكن أتيح لنا ولغيرنا من أهل الفهم مراراً أن نسبر غور هذه الشخصيات وندرسها ونطاردها.

وكنا ننتهي دوماً بعد ذلك فنظفر بالنتيجة التالية القائلة: إن السياسيين الذين لم يتاجروا مباشرة بنفوذهم السياسي، والذين صبغوا أنفسهم بلون نراه نزيهاً جذاباً - تاجروا هم أيضاً بنفوذهم إلى الحد الأقصى، ولكن بطرق غير مباشرة!.

ولم تكن الصبغة النزيهة التي اصطبغوا بها سوى قشرة رقيقة خارجية، عندما نحاول في سياق هذا الحديث إزالتها، لا يبقى تحتها شيء من الفضائل التي تَوَهَّمَهَا الناس في هؤلاء الحرامية «الجنتلمان»!.

فهي فئة وجيهة كبيرة في السياسة، لم تأخذ صفقات ولم تغرف من الخزينة، ولم تتاجر بالنقد النادر، ولكنها هي أيضاً أَثْرَتْ واغتنت من وراء السراي والمقام الوجيه الذي كان لها.

ولا نتكلم هنا عن حبيب أبو شهلا مطلقاً، فهو مثلاً في كل عبقريته في القانون، ومع كل ما لمكتبه للمحاماة من منزلة، هل يمكننا أن نقول - كما يفعل الأذلاء - إنه لولا رئاسة المجلس التي انتزعها بقوة عارضته من المرشحين الكبار إليها - وهي رئاسة جعلتها التقاليد قبل ذلك للشيعة - لما صار وكيل «التابلاين» ولما سَلَّمته الشركة

مقاليدها وسياستها المحلية، ولما جعلته مستشارها المدني والاجتماعي في هذه البلاد، ولما عملت برأيه وحرمت الكثيرين من الوطنيين، النواب والصحافيين والزعماء في لبنان، من القيام بدعاية لها مرفوقة بالدولارات، ولما كان مكتب أبو شهلا بعد الاستقلال وبعد أن استوى في كل القصور، يحتكر ثلاثة أرباع قضايا الشركات، في الوقت الذي فيه محامون كثيرون لا يجدون حتى قضية خاسرة يتوكلون عنها؟.

فهل المعنى في ذلك أيضاً أن أبا شهلا استغل نفوذه السياسي، ولكن بطريقة ليست فضاحة ولا غشاشة، وجمع ثروة من وراء ذلك؟.

وهل يمكننا أن نقول إنها ثروات مشتبه بها، ثروات أولئك السياسيين الكبار من فرعون لسلام لشيحا للجنة جباية ضريبة الحرب، الذين لهم هذه الأراضي الواسعة بمئات ألوف الأمتار على طريق خلده وعلى طريق الأوزاعي وفي أعالي الحازمية وغيرها؟.

وهل كان لنفوذهم السياسي وكلمتهم الكبرى في الحكومة فضل في جعل أراضيهم أغلى أراضي بالجمهورية، وبعد أن كان متر الأرض على طريق خلده أو طريق الأوزاعي يسوى ربع ونصف ليرة، صار بعشرين وثلاثين ليرة؟.

وبعد أن كان متر الأرض في أعالي الحازمية بليرة تضاعف عشر مرات وخمس عشرة مرة؟.

كل هذا كيف جرى؟

فلو أنهم لم يكونوا من زعماء السراي وأسيادها، هل كانت السراي تفتح في أراضيهم جميع هذه البوليفارات الوسيعة الفسيحة، التي لا عداد لها والتي درزت صحاريهم الرملية درزاً؟.

وهل كانت السراي تفتح بوليفار خلده حيث فتحته - وحيث كان من اللازم - كما هي الحال في باقي بلدان العالم الواقعة على البحر أن يكون البوليفار كورنيشاً يحاذي الشاطئ رأساً حتى يصل لمطار خلده، مما كان يجعله أنفع وأجمل، حيث يمر بأراض لا قيمة لها ولا ثمن.

هكذا يعملون في نيويورك، وهكذا في الإسكندرية وهكذا في بريتون واستمبول!.

ولكن كيف تصبح أراضي الزعماء على طريق خلده عشرة وعشرين مرة أغلى مما كانت، إذا لم يجعلوا الدولة تفتح لهم بوليفار المطار العظيم يتوسط بجلال وجمال منتصف أراضيهم؟.

طبعاً، ما استبقنا هذا البحث الذي سيأتي شرحه في سياق هذه المذكرات إلا لأننا تحدثنا عن الفساد في أيام المفوضين الساميين، ولأن المناسبة جعلتنا نتكلم عن الإثراء السياسي، وأردنا بوقائع معروفة من الجميع، القول إن الإثراء السياسي لم يقتصر على الذين يتهمهم الناس علناً ويقولون إنهم هم الذين أخذوا الصفقات والقطع النادر والتعهدات المشتبه بها، وتاجروا علناً بالنفوذ، بل إن الإثراء السياسي أيضاً كان كذلك الأمر وبحيل وتدبيرات وسيعة جداً بالطرق غير المباشرة التي ذكرنا.

فهناك أصحاب ثروات كبرى جمعها السياسيون من وراء نفوذهم السياسي على النحو الذي ذكرنا دون أن يلبسوا لباس الفساد والمتاجرات والاستثمارات التي لبسها المليونيّون الذين تاجروا علناً بذلك النفوذ ومنهم، عدا النواب والزعماء، العدد الأوفر من التجار المليارين المعروفين.

وإذا توجب في المستقبل على أصحاب الثراء السياسي أن يؤدوا حساباً للناس، فهل يمكننا أن نحاسب الذين اغتنوا من وراء نفوذهم بالدولة بالطريقة غير المباشرة التي ذكرنا، في حين أن بعضهم اغتنى أكثر بكثير من جميع الذي عقدوا الصفقات المفضوحة وأخذوا ملايين النقد النادر، ومدوا أيديهم للخزينة وسيطروا على أموال اليانصيب الوطني وبلدية بيروت، يوم استلمت الدولة صلاحيات الاقتصاد والتموين والأشغال وغيرها.

فإنما قد يمكننا أن نقول أيضاً إن السياسيين اللبنانيين في أيام الانتداب كانوا يعملون ما عملوه في أيام الاستقلال، لو كانت يدهم طائلة ولو كانت المصالح الحكومية التي يمكن الإثراء من ورائها بين أيدي اللبنانيين.

ومع ذلك فالفرنسيون في المفوضية، حيث كانت المصالح المشتركة مربوطة، عملوا اللازم، وسبقونا كثيراً في هذا المضمار، ولم ننس بعد أولئك الموظفين الفرنسيين الكبار الذين حملوا لفرنسا ثروات عظيمة جداً صَبَّهَا بعضهم ذهباً في صينيات وصحون وأواني سفرة ومقاعد وغيرها.

كل هذا سيأتي بحثه عندما نصل لعهد الاستقلال، ولكننا الآن لا نزال نتكلم عن ذكرياتنا عن زمن الانتداب.

ـ 35 ـ

كلنا بالهوى سوى: «الحرامية الجنتلمان»

نعود بالقارئ الآن لرئاسة اده بعد أن تمددت، وتألفت الوزارة الائتلافية الأخيرة (في تشرين الأول 1938)، برئاسة الأستاذ عبد الله اليافي الدكتور في الحقوق، والذي طلع على السياسة يومئذٍ ببهاء وعزة لم يعرفهما بعد ذلك في رئاسته للوزارات الأخرى التي جاءت بعد رئاسته الأولى. وقد كان في وزارته الأولى لم يسترسل بعد لحزبيته ولا لسلطان الشارع والقبضايات، إذ كانت تحيط به يومئذٍ شعبية إسلامية راقية متعلمة، تستبشر فيه الخير والعزة للمسلمين في دولة مفروضة عليهم من المنتدبين، وهم يتمنون على الأقل أن يكون لهم فيها سلطان وقوة. ولكن هل يمكننا القول إن كثيرين من رؤساء الوزارات المسلمين جعلوا أبناء دينهم يعترفون لهم أنهم جعلوا الإسلام يحكم بالبلد، أو بالأحرى يكون له في الحكم الشأن الذي لغيره من الطوائف الكبيرة الأخرى؟

اعتاد الناس أن يقولوا إن المسلمين ما شعروا أنهم مشتركون في الحكم بهذا البلد إلا مع رياض الصلح.

ولكن يجب أن يعترفوا أن خير الدين الأحدب أيضاً حكم بالبلد. كما وأن سامي الصلح حكم وسيحكم أيضاً، دون أن يقول المسلمون عنه كما قالوا عن غيره من رؤساء الوزارات، أنه سكرتير لرئيس الجمهورية المارونية، وأيضاً عبد الله اليافي في وزارته الأولى حكم، إنما على طريقته، إذ كان حكمه ليناً ولطيفاً ليس فيه جلبة وضجات.

وكان المسلمون عندما استلم اليافي الحكم لم ينسوا العز الذي اقتطعه لنفسه خير الدين الأحدب عندما وصل إلى أن يتفرد في الحكم بالبلاد، واضعاً ـ بأمر المفوض السامي طبعاً ـ رئاسة الجمهورية في بيتها.

وكان المسلمون، بعد أن انتابت خير الدين تلك الأيام الهائجة التي أضاع فيها ـ من وراء عاطفة غرامية جنونية ـ المكانة التي قد عملها لنفسه عند المنتدبين، والمكانة التي كان يعملها لطائفته في السراي والبلد...

... كان المسلمون يأملون باليافي، السياسي الفتى الشاب يوم ذاك، المثقف المتنور المعتز بنفسه، أن يعيد للطائفة في رئاسة الوزارة ما كان لها عندما كان خير الدين الأحدب في تلك الرئاسة.

ولا شك أن الأستاذ اليافي عمل وحقق الكثير من هذا الشيء، ولكن بطريقة كتومة، لم يقتنع بها كثيراً أهل الشارع وزعماء الأحياء.

فإنما أظهر حالاً أنه مرن لدرجة الوداعة، ونزيه مجرد ومسالم هادئ لدرجة الاستضعاف.

وكان الفرنسيون الذين اكتشفوه قبل الجميع كرجل سياسي، يأملون منه كثيراً ويؤكدون أن سياسته ستكون متناسقة ومتجانسة مع سياستهم، ومع رغبات المسلمين أيضاً، فكانوا مطمئنين إليه، ويقولون إنهم سيجدون فيه الزعيم المسلم الذي سيرفع على البسطة الراية اللبنانية.

ذلك أنه رغم مرور خمس عشرة سنة على الحكم الوطني تحت الانتداب، لم تكن البسطة ـ حي الوجاهات وزعامات الشباب الإسلامية في العاصمة اللبنانية ـ قد رفعت الراية اللبنانية، ذات الأرزة وسط علم فرنسا، مرة واحدة حتى ذلك الوقت، رغم جميع المساعي التي قامت ورغم سلطان الشيخ محمد الجسر في البداية، ورغم دكتاتورية خير الدين الأحدب في السراي بعد ذلك، فهل يُوَفَّق اليافي إلى هذا العمل؟

لقد كان المفوض السامي واثقاً من ذلك، إنما انتظر الناس كثيراً وهم ينظرون من بعيد إلى مرتفعات البسطة، كيما يشاهدوا الراية اللبنانية تخفق فوق معالمها!

ولم يكن في أعمال اليافي ووزارته الائتلافية الجديدة شيء واقعي صريح يدل على أنه يعمل سياسة الانتداب، ولكن على قدر ما أظهره الفرنسيون من مناصرة مباشرة له، وعلى قدر ما امتدحوا من تجانس سياسته مع سياستهم، كل هذا جعل الأوساط الوطنية الإسلامية تعتبر أن اليافي لا يمكنه أن يكسب الرأي العام، طالما الفرنسيون يصورونه كما كانوا يفعلون: صديقاً وعاملاً لهم.

كما وأنه في حكمه المسالم الساكن، وفي محاولته الحياد عن الحزبية والطائفية، لم يحقق ما كان أبناء طائفته يريدونه من أن يرفع كلمة المسلمين في السراي، ويجعلهم يتحكمون فيها كما فعلوا في عهد الأحدب، ولا يكون رئيس وزارتهم عاملاً للفرنسيين، كما كان دي مارتل يقول عن رؤساء الوزارات والجمهورية بأيامه!

ومشت وزارة اليافي بهدوء وسكينة، مما يتفق مع طبيعته ورزانته، ولكن مما لا يتفق مع الدستوريين، خصوم الرئيس اده، الذين كان دأبهم الأول خلق المشاغب والمشاكل في السراي. وكذلك مما كان لا يوافق اللبنانيين بأجمعهم الذين عندما لا تكون هناك سياسة مشاكل وروايات في الدولة، يضجرون ويتذمرون.

فإنما اليافي في وزارته بأجمعها، كان دوماً للوقت الذي تكون فيه الدولة مرتاحة ليس عندها مشاكل كبيرة، ولا مشاغبات مهتاجة، ولا صفقات عظيمة من وراء التلاعب بالملايين.

وإنما اليافي متخصص لرئاسة الحكومات عندما تريد السراي أن يكون البحر هادئاً والجو صافياً، والسياسة في هدنة.

ولكن عندما تستيقظ المشاغب وتهب العاصفة كان هو يأخذ المبادرة حالاً ويعتزل الحكم. فطبيعة هذا الرجل ليست طبيعة كفاح ولا مغامرات، بل هي طبيعة رجل يعرف أين يجب أن يضع قدمه، فلا يُعَرِّضُها لأن تَزِلَّ به. وهذا ما جعل بعضهم يعتبره حكيماً وسياسياً متروياً أكثر من اللازم.

- 36 -

التوراة باليمين وغصن الزيتون باليسار!

كان المفوض السامي المسيو غبريال بيو قد خلف الكونت دي مارتل في نهاية 1938.

وكما يكون البحر بعد الليلة الصاخبة الهائجة الجامحة هادئاً ساكناً، هكذا صار البلد بعد أن وصل المسيو غبريال بيو إلى بيروت.

جاء يزيل ذلك الحكم الفضاح الصاخب المستهتر، الذي كان رافق عهد دي مارتل بأجمعه.

وكما أخرج دي مارتل قصر الصنوبر، عندما خلف المسيو بونسو، عن هدوئه وكرامته، وشق رداء جلاله وسكوته وعمله دارة متهتكة مستهترة مبعثرة - هكذا أرجع المسيو غبريال بيو حالاً بعد وصوله لقصر الصنوبر، الجلال والهيبة المفروضين فيه، وأحاطه بحجاب من السكون مضيفاً عليه حلة من الرصانة والرزانة.

وصل المسيو غبريال بيو يحمل باليمنى الكتاب المقدس، ويحمل باليسرى غصن زيتون.

لا يقدم على شيء، حتى ولا على الطعام، قبل أن يقرأ زبوراً من زبور داود، ولا ينام قبل أن يطلب لنفسه وللعالم ليلة سلام وراحة!

فهو «بروتستنتي» متقشف زاهد، يرى الأشياء من وراء التوراة واحترام الدين والنفس. وقد جاء إلى بلاد تعيش في فوضى، لا تحترم شيئاً، وتستبيح كل شيء.

جاء هذا الرجل يعيش بخوف الله وخوف ضميره، بين قوم لا يخافون شيئاً، وبين زمرة من السياسيين الأفاكين المتلاعبين الذين بإمكانهم أن يجعلوه يفقد عقله، قبل أن يعطي حكمه بأي شيء كان.

وهذا ما جعل عهد بيو عهداً متردداً، عهد درس واستقصاء، ليس فيه إقدام ولا تجديد، مما كان يوافق فقط سياسة اليافي الساكنة الهادئة أيضاً، ولا يوافق باقي السياسيين الذين يريدونها دوماً حامية صاخبة.

وعلى هذه القاعدة رأينا المسيو بيو بعد وصوله ولمسه الحالة القلقة المضطربة في كل مكان، وبعد اجتماعه بالأستاذ اميل اده الاجتماعات الكافية، وتثبته من أنه لا يمكنه - وهو المفوض السامي الهادئ البارد الساكت - التعامل والتعاون بصراحة مع هذا الجبل من النار، هذا الرئيس الذي لا يهدأ، والغني جداً في التصورات والتخيلات والمبدعات، والذي من طبيعته الحركة الدائمة والكلمة المتتابعة التي لا تتعب.

وهكذا أخذ المسيو بيو يبتعد أيضاً عن اده.

فإنما اجتماعاتهما كانت اجتماعات الضِّدَّيْن:

الهدوء والتردد وبطء الفكر والكلمة الساكنة المقلة وسياسة الانتظار وعدم فتح الأبواب عند بيو.

والنشاط الغريب، والفكر المتسارع السَّبَّاق، والكلمة الفنية المزخرفة، المترادفة المجددة الظريفة، أكثر الأحيان، وروح الإقدام والجرأة والمغامرة عند اميل اده.

فكيف يمكن التفاهم والتعاون؟

ولهذا السبب رأينا المسيو بيو، بدلاً من أن يقلع عن سياسة دي مارتل فيما يختص بالأستاذ اده، كما كان منتظراً من رجل هو عكس دي مارتل تماماً وبكل شيء، فيعيد لرئيس الجمهورية اللبنانية الكثير من صلاحياته ويخرجه من عزلته في بيته، ويأتي به إلى السراي، زاد في إبعاده وشجعه أيضاً على الزيادة في الاعتزال!

وقد أثبت بيو في المذكرات التي نشرها مؤخراً أشياء كثيرة عن الأستاذ اده في رئاسته للجمهورية اللبنانية، مما ليس فيها قصيدة تمداح بذلك اللبناني الكبير، ومما اشتممنا فيه روحاً عدائية من المفوض السامي التقي البار نحو رئيس الجمهورية العابث الصاخب.

وفي مذكرات المسيو بيو أقوال وأمور كثيرة تثبت بالأحرى تنشيطه وتشجيعه للرجل الرابع وللدستوريين أنصاره في خصومتهم للأستاذ اميل اده.

وكان كل شيء في جهاز الدولة لا يجد عند المسيو بيو تحبيذاً ولا تشجيعاً. وكان يعتبر أن الاستقرار الذي تتطلبه كل دولة في إدارتها ومصالحها لا وجود له في الجمهورية بلبنان، فإنما لم يكن هناك شيء ثابت معروف في الوزارات أو في النيابات يجعل ذلك الشيء يدوم إذا هَزَّتْهُ العاصفة مهما كانت خفيفة.

وكان بيو يؤكد بهذا الصدد أن عدم الاستقرار في مرافق وأوضاع الدولة بأجمعها متأتٍ من عدم استقرار السياسيين على مبادئ عملية معلومة، وعلى قواعد وطنية صادقة.

ولم يكن يجد من أساس متين للأحزاب وللأفراد يمكنه إذا استندوا عليه أن لا ينهار.

إنما المسيو بيو على كل حال، ومع إيمانه بعدم الاستقرار عند الجانبين السياسيين الأكبرين: جماعة اده، وجماعة بشارة الخوري، إنما كان يجد عند بشارة الخوري وصحبه برنامجاً حزبياً محدداً معيناً، قد يكون أرسخ من النزعات الحزبية المختلفة، التي عند الاديين.

وكان بطبيعة تربيته وأخلاقه يحب ويفضل الرجال الجديين الرصينين على غيرهم.

ولم يكن بروتستنتياً متقشفاً متصوفاً عن عبث، إذ أن البروتستنت المتقشفين المتصوفين يشبهون الأجاويد الدروز، يأنفون من كل خفة وكل قول مرح هزلي، وكل عمل لا تكتنفه الآداب والحشمة والكلام الرصين والفكر الصافي المرتاح.

وهكذا كان من الطبيعي أن لا يضع بيو الرئيس اده ذا النفس الثائرة على طول، وخير الدين الأحدب الذي أضاعته أهواؤه العاطفية ولا الميكافيلي اللبناني الأستاذ حبيب أبو شهلا، في صدر الواجهة.

وكان أبو شهلا منذ اعتناقه السياسة قد اقتطعه لنفسه في قصر الصنوبر عند بونسو ودي مارتل قبل المسيو بيو وعند المفوضين الساميين الذين جاؤوا بعدهما.

وكان أن المسيو غبريال بيو تجانس طبعاً مع عبد الله اليافي ومع وزارته، وتجانس بالأحرى مع الوزير الأستاذ حميد فرنجية. وقد توافقت رصانة هذا الأخير وحياته السياسية الجدية المستقيمة مع رصانة المفوض السامي الجديد وأسلوبه السياسي الواقعي.

وكان المعروف عن حميد فرنجية أنه رجل عنيد مستقل بنفسه، هو وحده بين الزعماء السياسيين في هذه البلاد لم يتنازل، ولا مرة، عن شخصيته السياسية يعيرها أو يجعلها ملكاً لغيره، أو للمفوضين الساميين مثلاً قبل الاستقلال، أو

لرئاسة الجمهورية بعد الاستقلال. كان دوماً - ولم يزل - يعتبر نفسه دولة لوحده تتعاون مع الدولة اللبنانية لمجد لبنان فقط وليس لخدمة رجال في السراي، تساعده في ذلك شعبية كبرى في منطقته بالشمال، تركها له والده، وعرف كيف يحافظ عليها وتساعده خصوصاً بلدته زغرتا البطاشة في شدة بأسها، وفي رجوليتها وفي مغامراتها، التي جعلتها الحصن الماروني الأقوى، تشرف على الساحل الإسلامي غير هيابة ولا خائفة، لها عند الطرابلسيين الأشداء والأقوياء دوماً حساب وتقدير، تخطب ودهم ويخطبون ودها، تصادقهم ويصادقونها، على طريقة مصادقة القوي للأقوياء، والأقوياء للقوي!

وهكذا كان حميد فرنجية قوياً بنفسه، تساعده بذلك وقبل كل شيء زغرتا الحربجية الواقفة دوماً تحت السلاح، مما يجعل أيضاً لكلمته مكانة عالية ومسموعة.

وجاء يومئذٍ في آخر عهد دي مارتل للوزارة الائتلافية، يشترك فيها عن الدستوريين، وليس فقط ليصبح حليفاً أو عدواً لرئيس الجمهورية الأستاذ اميل اده كما كان فعل الوزراء الدستوريون الذين جاؤوا قبله، بل ليكون مستقلاً عن الجانبين متحرراً من هذا الجانب ومن ذلك الجانب، لا يريد أن يعرف غير الخدمة المُجرَّدة كما يفهمها هو في عناده وتشبثه بآرائه.

وهذا ما أعجب بالأكثر المسيو بيو فيه ومما قربه للمفوضية السامية الجدية كثيراً، ومما جعل المفوض السامي في كل مرة تكون هناك مشكلة عويصة يستشيره بها ويسمع كلمته فيها.

وكان من الطبيعي أيضاً أن يجد الرجل الرابع عند المسيو بيو حظوة ومكانة خاصة، طالما أن الأستاذ اميل اده لم يجدها عند جنابه.

فإنما كان مفروضاً أيضاً أن يكون المفوض السامي، مهما كان متعالياً ومتحايداً، كما كان المسيو غبريال بيو - فإنما كان مفروضاً أن يكون كما هم جميع السياسيين بالبلد: أو مع الأستاذ اميل اده أو مع الأستاذ بشارة الخوري.

ولكن إلى أي حد كان يمكن للدستوريين التعاون في حكومة الائتلاف الأخيرة مع الاديين؟

طبعاً إلى الوقت الذي يكونون قد أخذوا فيه هدنة لأنفسهم. وهذا كان يصادفهم بعض الأحيان، مع كل ما كان عندهم من نشاط وأحقاد على الأستاذ اده ورئاسته، ومع عدم اغتفارهم له تمديد تلك الرئاسة - وهكذا بالرغم من الائتلافيات العديدة التي جرت.

وكانوا يظهرون بعض الأحيان سيئي النية ودجالين ومشاغبين، ولكنهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت ولا مرة سذجاً وبسيطين!

لذلك اغتنموا مناسبة ما عرفوه من حذر وتباعد عند المفوض السامي الجديد عن الأستاذ اده - وهم دوماً أثبتوا مقدرة في اغتنام المناسبات - وأخذوا يتآمرون عن جديد على التمديد، ويعملون عند المفوض السامي لإلغائه.

وتجاه الحملة التي قامت بهذا المعنى، جمع الأستاذ اده نواب حزب الاتحاديين الذي يرأسه حبيب أبو شهلا بقوة وجبروت وتفشير، وخرق هؤلاء الائتلاف، وجعلوا بقاء الوزيرين الدستوريين في الحكومة صعباً جداً، مما أسقط وزارة اليافي الائتلافية (في أيلول 1939)، ومما جعله يؤلف وزارة حزبية - ادية، يكون أبو شهلا من أركانها الأولين.

ولم يكن، لا المفوض السامي ولا الأستاذ اليافي، ينظران في روحهما المسالمة وحبهما للنظام والوئام نظرة اطمئنان لهذه الوزارة الحزبية التي لابد للدستوريين أن يخاصموها بعناد أشد وأكثر عنفاً ويخلقوا لها المشاكل والصعوبات، لا سيما ولم يعد هناك أي مانع عند الدستوريين - طالما أنهم خرجوا من السراي - أن يعلنوا ما كانوا تدبروه من تآمر على الرئاسة المُمَدَّدَةِ التي جعلوها هدفاً لجميع حملاتهم ومعارضاتهم، يطلبون ويستهدفون إلغاءها وإرسال صاحبها إلى بيته.

وهكذا استقبلت الوزارة الحزبية الجديدة من جهة إعلان الدستوريين علناً وصراحة الحرب عليها، ومن جهة ثانية ثورة الكتائب اللبنانية على الأوضاع وسياسة الحكومة وطغيان الشركات في البلاد.

- 37 -

مالك صاحب إلا بعد قتال

وكانت الكتائب اللبنانية في ذلك الوقت في أبهى أيامها، وكانت قد خرجت من عصيانها على الدولة وإضرابها على شركة الكهرباء ظافرة ووجدت عند الانعزاليين اللبنانيين وعند الفرنسيين تعاوناً وتحبيذاً، اعتباراً أنها مؤسسة لبنانية محضة، تغالط وتخالف طلاب الوحدة، طلاب الاتصال بسوريا الآن، وبعد ذلك بالحلف العربي في المستقبل.

وكانت الكتائب قد تشكلت سنة 1937 على أثر تنظيم قوي للنجادة تحت شارة الإسلام والعروبة، فكان كما هي العادة هنا، أنه أصبح من الواجب قيام منظمة أخرى تحت شارة لبنان والمارونية، لا سيما والنجادة كانت لا تخفي أنها تعتبر التسوية اللبنانية التي فرضها الفرنسيون تسوية مؤقتة، وتريد أن تصبح جميع السواحل التي انضمت إلى جبل لبنان عند إعلان لبنان الكبير، والتي أكثريتها إسلامية جزءاً من سوريا، ومن الإمبراطورية العربية بعد ذلك. فإنما أمل الإمبراطورية العربية لم يكن قد ضعف في ذلك الوقت بالضعف الذي هو فيه اليوم.

وهكذا على قدر ما كانت النجادة عربية، على قدر ما جعلت الكتائب نفسها انعزالية.

ومنذ ذلك الحين إلى اليوم، مشى لبنان الجديد كثيراً إلى الأمام، وتطورت الحال مع الكتائب حتى وصلت إلى أن ترمي اليوم الكثير من ثوبها الطائفي الذي كان تلبسه في ذلك الحين، وانقلبت أخيراً حزباً سياسياً قومياً بعد أن أصبح المسلمون لبنانيين بلبنان، بأعجوبة ذلك الاستقلال وتقديراً له، وكذلك بعد التسوية اللبنانية الدولية المعنوية التي نشعر بأجمعنا بها، ونعرف أن وراء لبنان قوات دولية أيضاً غير قوات أهله تحافظ على كيانه، وتريده كما هو الآن.

قلنا، واستقبلت الوزارة اللبنانية الحزبية الجديدة إعلان الدستوريين جديداً الحرب عليها بقوة وشدة، وقامت الكتائب بحركات استفزازية ضد الشركات وجشعها،

وأخصها شركة الترامواي، وضد الحكومة والمفوضية اللتين تشجعان أيضاً هذه الشركة، مما خلق تكاتفاً غير مقصود بين الكتائب والدستوريين.

وأراد الأستاذ حبيب أبو شهلا وزير الداخلية في الحكومة الحزبية الجديدة، ورئيس حزب الاتحاديين، الأكثرية بالمجلس، أن يثبت جرأته وقوته، فطارد الكتائب أثناء تظاهرات عدائية كانت تقوم بها، وتعاونت القوات اللبنانية مع مديرية الأمن العام الفرنسي، وفرقة سنغالية من الجيش، واشتبك الفريقان اشتباكاً قوياً في وسط محلة الجميزة، أقلق راحة المسيو بيو المسالم الهادئ، فخرج عن اعتكافه وكان ذلك في يوم أحد، وهو اعتكاف كان يقضيه في الصلاة، مكرساً كل يومه لعائلته، وأخذ يصلح الأمر بيده، مما جعل حركة الكتائب تهدأ وتسكن، بعد أن كادت تنقلب إلى اصطدامات طائفية خطرة.

- 38 -

بيو يريد تنصيب ملك أو أمير على لبنان

ومن جراء حركات الكتائب قامت بعد ذلك فوضى طائفية وقومية في بيروت وطرابلس وبعض المناطق تَعَذَّر على الحكومة معالجتها، مما جعل المفوض السامي يعطي المستشارين الفرنسيين صلاحيات كبيرة جداً بالغوا في تطبيقها، خصوصاً في منطقة الجنوب.

وكان المفوض السامي أصلاً وأساساً يعتبر - خصوصاً بعد أن درس الأوضاع في لبنان - أن النظام القائم ليس النظام الذي يتطلبه هذا البلد والذي يوافقه.

وكان في خلواته مراراً عديدة مع السياسيين الذين كان يتصل بهم، يدلي إليهم برأيه بنظام ملكي يقوم بلبنان، يرتاح إليه الأهلون، ويخلق بهذه الدولة استقراراً ترتكز عليه نهائيا.

كان المسيو بيو - كما ذكره في مذكراته - يقول إن التجارب خلال هذا النظام الجمهوري الذي فرضته فرنسا على اللبنانيين يجب أن تكون عَلَّمت هؤلاء أن النظام النيابي يجعل بلادهم دوماً في فوضى سياسية، مما يزعزع أركانه وأوضاعه، وقد عاش جبل لبنان في عهد المتصرفين سبعين سنة في نظام قريب من النظام الملكي، وكانت جميع الدول تحسده عليه، فلماذا لا يعود لذلك النظام؟.

لماذا لا يرجع لمثل تلك الأوضاع، فيقوم فيه مجلس إدارة له صلاحيات استشارية تشريعية كما كان الحال في لبنان القديم، ويكون المجلس طويل الأمد، قليل العدد، ويكون على رأس الدولة ما نسميه أميراً أو ملكاً، بدلاً ممن كنا نسميه متصرفا؟.

ويقترح المسيو بيو أن يعلن لبنان نفسه إمارة أو مملكة على هذا الأساس، ويأتي بأمير، يجب أن يكون على الأرجح من الأمراء الأسوجيين ينادي به أميراً أو ملكاً، يرث أبناؤه العرش من بعده!.

وكان يقول إن الأمير أو الملك يجب أن يكون مسيحياً ليبقى لبنان لابساً الحلة الطائفية التي جعلته يستقل وينفصل عن باقي المناطق المجاورة الأخرى.

كما وأنه يجب أن يكون الأمير بروتستنتياً، ليس لأن المسيو بيو مقترح هذا النظام بروتستنتي، بل لأن الملك أو الأمير البروتستنتي هنا يستطيع أن يوفق بين الطوائف الكبرى بالبلاد، فلا يكون من واحدة منها مما لا يمكن أن يجعله الحاكم المنصف العادل، ومما يجعل طائفته تتطلب منه أكثر مما لها، وهو لا يستطيع دوماً مخالفتها!.

ـ 39 ـ

الجنوب الذي كنا لا نعرفه كثيرا

قلنا، ضاعف المفوض السامي صلاحيات المستشارين وأخصهم مستشار الجنوب، وكان يومذاك الكونت بتشكوف: رجل حازم قوي مخيف من أصل روسي، حفيد الكاتب المشهور ليون تولتسوي، يجب أن يكون قد لجأ إلى فرنسا عن صغر، وتطوع في جيشها، وصار من ضباطهم البارزين.

وكنا نعرف عن الجنوب في جبل عامل أشياء قليلة جداً، أهمها مكارم النائب يوسف بك الزين، وولائمه واستقبالاته للمفوض السامي من وقت لآخر، تلك الولائم والاستقبالات السخية جداً والتي كانت تجمع ألوف الناس.

وكنا نعرف أن يوسف بك الزين يزرع التبغ ويربح مئات الألوف منه، ويتحدى آل الأسعد وآل الفضل وآل العبد الله وآل عسيران بنفوذه وبماله.

وكنا نعرف علي نصرت بك الأسعد، أحد أفراد تلك العائلة الزعيمة الكبرى، وذلك عندما جاء متصرفاً لجبل لبنان، وكان رجلاً طيباً مهزاراً، يحب الحياة والجاه، ولا يحب الطائفية. وهو الذي انتهر صديقه حاكم «بيبلوس» في ذلك الزمان، الشيخ وديع حبيش الذي كان قد اشتهر بظرافته وضخامة جسمه وكبر بطنه ولطافة حديثه ـ قلنا انتهره علي نصرت بك عندما جاءت مناسبة أظهر فيها الشيخ وديع حبيش قصداً، ولإثارة غضب المتصرف، نزعة مارونية طائفية، فقال له علي نصرت بك بكلامه الخليط من التركي والعربي، كما يجري بعض الأحيان مع سامي بك الصلح ـ قال له: يا شيخ وديع أفندي طائفية يوق جانم، وإذا كنت تتكلم بالطائفية فإني أعزلك!

ولما كان الشيخ وديع حبيش يحب وظيفته أكثر من اللازم، وكان يجد فيها أولاً القوة التي يريد، والمتاجرات التي لا يمكنه أن يستغني عنها ليعيش كشيخ من آل حبيش، وليس كعتال على الميناء. ولما كان يحب الوظيفة جداً، قال لعلي نصرت بك متمشياً على رأيه:

ـ أفت أفندم، طائفية يوق، متصرف حضرتلري!

وكنا نعرف من الجنوب النائب المحترم السيد نجيب عسيران الذي كان مشهوراً عندنا بثروته الذهبية وبدماثة أخلاقه وبصداقته الدائمة للفرنسيين، وهي صداقة كان يشجبها ابن أخيه كثيراً، الفتى الألمعي الناشئ، العنيد في وطنيته العربية عادل بك عسيران.

وغير ذلك لا شيء... غير نواب من الجنوب كانوا يأتون ويذهبون ولا نسمع عن عبقريتهم كثيرا!

ولم يكن أحمد بك الأسعد قد ظهر في العالم السياسي بالطريقة المنظورة التي ظهر فيها.

لقد كنا نراه من حين لآخر في سراي البرج يرافق والده عبد اللطيف بك الأسعد، ساكتاً محتشماً، ولكن خافض الرأس، ورافع الشاربين، يترك لوالده كل الكلام، ويقف إلى جانبه موافقاً محبذا.

وكان الجنوب الشيعي حتى ذلك الحين، يعيش في كنف السني البيروتي والصيداوي، بمثابة النسيب الفقير الواجب حمايته، ولم تكن الأسر الجنوبية الشيعية الكبيرة قد استوطنت بيروت بعد، حيث كانت أرستقراطية الإسلام تسيطر وتتزعم، ولم تكن في ذلك الوقت هجرة أهالي الجنوب الفقراء لبيروت، تشابه هجرة أهالي الجبال الفقراء لأميركا.

ولم يكن هؤلاء المهاجرون من الجنوب لبيروت جشعين طماعين، فإنهم اكتفوا دوماً بأن اتخذوا لهم بالمدينة مهناً متواضعة تتفق مع الجهل الشديد والفقر المدقع اللذين كانا يسيطران عليهم. وعلى هذا كانوا يكتفون بالشيء اليسير، ويقبلون أرستقراطية السنيين عليهم قبولهم لما كتب الله لهم.

ولم يكن زعماؤهم حتى ذلك الوقت قد اقتطعوا لأنفسهم مكانة قوية في هذه الدولة، جعلتهم ـ كما جرى الأمر بعد ذلك ـ يدخلون في حياة البلاد العامة بشراكة واقعية فعالة.

ولم يكن جبل عامل بنظر السلطات يمثل الشيعة في السراي والمجلس والمفوضية، بل كانت تمثلهم بالأحرى بعلبك بإبراهيم حيدر، والهرمل بصبري حماده، اللذين كانا يقولان ويتكلمان عن الشيعة في جميع الأقطار اللبنانية، إذ لم يكن لجبل عامل في بيروت زعماء معروفون أقوياء، تشركهم المفوضية والحكومة في مسؤوليات الحكم والسياسة!

وكان منصب الشيعة في الوزارة ينتقل أكثر الأحيان، حتى ذلك الوقت، بين إبراهيم حيدر وبين صبري حماده، إذا لم يكن السيد أحمد الحسيني سبقهما إليه.

وكان أكثر الأحيان يشغل ذلك المنصب نظراً لنسبه الشريف ونظراً لتأييد بكركي له في كل وقت، معتبرة إياه ابنها المحبوب، مما جعله قوياً يستقيل من الوزارة عندما يريد، عاملاً لنفسه دعاية كبيرة وجدها الناس جميلة جداً في استقالته الأولى، إذ أنه كان أول سياسي لبناني يترك الوزارة من تلقاء نفسه ولا يستقتل لأجلها.

وكان إبراهيم حيدر عميد عائلته الكبرى القوية ببعلبك صاحب نفوذ وقوة بالدولة يتمتع دوماً بصداقة المفوضين الساميين ورعايتهم. وكان صبري حماده حفيد محمد سعيد باشا حماده، زعيم العشائر في الهرمل قد انشق على إخوانه أنجال الباشا، وزاحمهم على تمثيل العائلة الحمادية في الدولة، ونجح في ذلك.

ولم يكن أتى الوقت بعد الذي وصل فيه صبري حماده لأن يقتسم مع أحمد بك حصة الأسد التي صارت للشيعة بعد ذلك عندما ظهر فجأة على المسرح الرجل الرابع الذي لم يكن منتظرا.

ظهر أحمد الأسعد يواكبه حشد عظيم من أهل جبل عامل، الذين كانوا قد صادقوه وتطوعوا لخدمته بعد أن اكتسب صداقتهم وتأييدهم في اختلاطه بهم، وتقربه منهم وتنظيم صفوفهم، والقيام بالخدمات المستطاعة لهم. وما هي شهور حتى بدأ جبل عامل يحتل بيروت وتضاعفت هجرته كثيراً للمدينة منذ ذلك الوقت، وتتابعت حتى أصبحنا الآن نجد في كل ثلاثة من سكان المدينة شيعياً واحداً والثاني جبلياً والثالث بيروتياً قديما.

ووجد الفرنسيون عند احتلالهم البلاد جبل عامل متمرداً عليهم، وقد بايع فيصل في الشام بالملك، ونظم شبابه ثورة دامية وعصابات يؤيدها العلماء واشتهر في قيادتها أدهم وصادق، وشن عليهما الفرنسيون حرباً ضروس، وقاسوا الأَمَرَّيْن حتى سيطروا أخيراً عليها ورفعوا رايتهم على جبل عامل.

كان الشيعيون في الجنوب يطيعون دوماً زعماءهم. وكان آل الأسعد يمثلهم المرحوم كامل بك الأسعد في الطيبة، فمد الفرنسيون يدهم إليه، ومدها هو إليهم، وأوعز إلى أبناء الجنوب بالسكوت فسكتوا وسكنوا، وأرضى الفرنسيين بتلك المآدب الفخمة التي كان يقيمها في الطيبة وعدلون لممثلي فرنسا، ويجمع فيها عشرات الألوف من أبناء الجنوب يحملون البيارق ويدقون الطبل، ويهتفون لفرنسا حسب أوامر البيك!.

ولما مات كامل بك آلت الزعامة إلى أخيه عبد اللطيف بك الأسعد، فتبناه الفرنسيون حالاً وساعدوه، ولكنه كان غير مستعد لتحمُّل الأعباء الشعبية الثقيلة، ومنها متاعب مالية كثيرة، وعادات خاصة به، مما أضعف كثيراً سلطان آل الأسعد على الشيعة، فضعف تأييد الفرنسيين لهم، وراحوا يبحثون عن سند جديد ووجدوه في يوسف بك الزين.

وكان الفرنسيون قد اعتمدوا في صيدا المرحوم نجيب بك عسيران لأنه رجل آدمي، لا يخالف لهم رأيهم. واعتمدوا في النبطية آل الفضل للسبب نفسه. ولكن لا عسيران ولا الفضل كانا يملكان النفوذ الشعبي على جبل عامل، الذي احتاج إليه الفرنسيون، لكي يسيطروا عليه بثمن رخيص وبأهون سبب.

وكان آل الزين منذ القديم يتقدمون لمزاحمة آل الأسعد، ولمع منهم يوسف بك الزين، فسارع الفرنسيون أمام ضعف آل الأسعد إلى تقويته وأطلقوا يده في الجنوب عدة سنوات. والمدهش أنه لما قوي يوسف بك الزين، أصبح عبد اللطيف بك الأسعد وطنياً استقلالياً، وراح يطالب بالوحدة السورية.

ولما اشتد ساعد يوسف بك الزين أكثر من اللازم، تخلى عنه الفرنسيون وعادوا يشدُّون أزر سواه في الجنوب.

وفي جميع الحالات كان نفوذ زعماء الجنوب محصوراً في الجنوب، وكان الشرط الذي وضعه الفرنسيون عليهم مقابل مناصرتهم لهم، أن يسلِّموا زمام أمورهم في بيروت للمفوضية، فينفذون أوامرها على العمياء. وهذا ما كان نواب الجنوب يفعلونه دون صعوبة شديدة!.

تلك كانت حالة الجنوب في عهد الانتداب. في وسط هذه الأوضاع كان شخصان يبرزان: عادل بك عسيران، وأحمد بك الأسعد. كان الأول قد بدأ منذ سنة 1935 ينظم حوله كتلة من الشباب تقول بكل ما يزعج فرنسا ويؤذيها، بينما كان الثاني قد بدأ يرث أمجاد عمه كامل بك (الذي تزوج كريمته) ويحاول أن ينهض بالعبء الثقيل الذي خلفه له والده عبد اللطيف، ولكن بدون نجاح صاعق ولا ذكاء مدهش، وإنما مع أخلاق رضية سلسة، إلى أن مد الفرنسيون يدهم إليه، ودفعوه إلى الأمام.

كانت السياسة تقول دوماً: «الباب الخاص، كثيراً ما يقلبه حادث مفاجئ إلى باب عام».

وعندما غضب المستشار الفرنساوي في صيدا، الكابتن بتشكوف، سنة 1936، على يوسف بك الزين، النائب الذي كان أول من دشن الانتخابات في لبنان بأكياس من الذهب - عندما غضب المستشار على يوسف بك الزين، وذلك لما أخذه من سيطرة في منطقته، ولما أعطاه الأستاذ اده صديقه يومئذٍ من سلطان، ولما أخذ يظهره من تمرد بوجه ذاك المستشار نفسه، أخذ هذا الأخير يفتش عن الرجل الذي يمكنه أن يضع يوسف بك الزين على الرف.

وعثر على أحمد بك الأسعد، سليل بيت كبير ورجل جريء مقدام، فأنزله لميدان السياسة، تحيط به هالة باهرة من أضواء عمه كامل بك الأسعد.

ودخل أحمد الأسعد المعترك السياسي، من ورائه المستشار القوي النافذ، والدكتاتور في الجنوب يفرض على الناس مرشحه الجديد.

كما وأن هذا المرشح الجديد - عرف أيضاً - ودون أن يكون ذلك منتظراً - أن يستفيد من المناسبة ومن مكانة عائلته في البلاد، وأن يفرض نفسه بجرأة وشجاعة كاملتين.

وهكذا شاهدناه ذات صباح يدخل بيروت، كما كان دخلها الأمير مجيد أرسلان قبله، دخول الفاتح الطماع، تحيط به جمهرة من أهل السيف والخنجر تأتمر بأمره وتقول قوله وتعمل ما يريد.

ومشى أحمد الأسعد بخطوات سريعة نحو المعالي، تؤيده المفوضية ورئاسة الجمهورية، وقد اعتنى بسياسته الوصولية حالاً منذ هبط العاصمة، بالانتساب إليهما، وبإظهار تأييده لهما والتعاون معهما تعاوناً وعد أن لا يكون فيه شيء من التقلب والتردد.

وفي هذا الوقت ذاته، كانت هجرة أبناء جبل عامل إلى بيروت - بعد أفريقيا - قد أخذت تشتد، وتكاثر عددهم في العاصمة، وهكذا أخذ جبل عامل الشيعي يأخذ في العاصمة المكانة التي كانت بعلبك والهرمل الشيعيتان قد احتلتهما حتى ذلك الحين.

وأخذ نجم زعماء الشيعيين الجنوبيين يتألق ببيروت. وكان كاظم الخليل قد أثبت وجوده ونفوذه أيضاً في كثير من الظروف وفي نشاطه السياسي وزعامته في صور ونيابته الجديدة.

وكان رشيد بيضون قد بدأ يلعب الدور التقدمي الذي أراد به تحرير الشيعة من الجهل ومن الاستعباد والإبعاد، وهو دور رفع به إلى مستوى كبار المصلحين في هذا الشرق.

وكان من وراء هذا الطغيان الشيعي على المدينة وفي السراي، أن استقل الشيعة عن السنة سياسياً، وأخذوا منذ ذلك الحين يؤلفون قوة كبرى تمكنوا من ورائها حتى الآن أن يعملوا كياناً لأنفسهم.

ولا شك أن القوة الشيعية هي التي كان لها الفضل الأعم في تركيز الكيان اللبناني بعد جلاء الفرنسيين، وهو كيان كان الفرنسيون - مخافة عليه - يفرضونه فرضاً على المسلمين من الطائفتين، الذين يؤلفون تقريباً نصف أهالي هذه البلاد، والذين كانوا إذا ما سكتوا عن قيام لبنان، فهم لم يعترفوا ولا مرة أنه نهاية المطاف والوطن الأخير لهم.

وهنا يجب أن نعترف للأستاذ اميل اده بأنه كان البادئ في هذه السياسة الشيعية اللبنانية التي جمعت حوله في المجلس النيابي الزعماء الشيعيين من الجنوب وبعلبك بأجمعهم، ما عدا صبري بك حماده الدستوري. وساعده الفرنسيون في استجلاب الشيعة، اعتباراً منهم أن السنيين لا يمكن اكتسابهم فعلاً وواقعياً لقضية لبنانية محضة منفصلة عن الداخل.

وهكذا كان الأستاذ اميل اده البادىء، ولكن الشيخ بشارة، والحق، كان الناهي، وشكّلت سياسته الشعبية الضمانة المحلية الرئيسية للكيان اللبناني الحالي.

- 40 -

بيوت من زجاج تتراشق بالحجارة

وفي أثناء ذلك (سنة 1939) سافر رئيس الجمهورية اميل اده لباريس مستشفياً - على ما قيل يومئذٍ - ولكن بالحقيقة مستدركاً الخطر الذي أخذ يتزايد على تمديد رئاسته، من وراء حملات الدستوريين عليه وعليها، بعد أن أعلنوا أن رئيسهم، يرافقه الأستاذ سليم تقلا، على موعد مع وزير الخارجية الفرنسية بباريس.

وكان السفر لباريس في أيام الانتداب مثل السفر لاستنبول قبله.

فكما كان الباب العالي مرجعنا الأخير نشكو إليه أمورنا وظلامتنا سابقاً، أصبحنا بعد الانتداب نشكو للوزارة الفرنسية الخارجية التي كان يرجع أمر المفوضية السامية لها.

وقيل يومئذٍ إن المسيو بيو الساكن الهادئ - ولكن مثل المياه الراكدة - هو الذي شجع زعيم الدستوريين للذهاب لباريس.

وعندما عرف الأستاذ اده بالشيء شد الرحال وسبق خصمه إلى عاصمة الفرنسيين.

وقيل يومئذٍ إن الشيخ بشارة الخوري استطاع أن يستحصل من البطريرك الماروني، الذي كان قد عاد لمحبة فرنسا، عودة الإبن الشاطر بعد ذلك الخروج الذي خرجه على الفرنسيين في مهرجان بكركي السوري اللبناني - استطاع الشيخ بشارة أن يستحصل من البطريرك على كتاب لوزارة الخارجية، يؤيد فيه باسم بكركي - صديقة الفرنسيين الدائمة - شكوى الدستوريين، ويطلب إلغاء التمديد للرئاسة.

وانتقلت هكذا المشادة السياسية وفروعها بين الرجلين الكبيرين من بيروت لباريس، حيث أخذت الأندية السياسية والجرائد الفرنسية جانب هذا أو جانب ذاك من السياسيَيْن اللبنانيَيْن الكبيرَيْن.

وأخذ أنصار الفريقين في بيروت يتراهنان على الجوادين السباقين، وأيهما سيكون الفائز في هذا السباق، الذي يثيرانه في عاصمة الانتداب، تساهم في هذا

الرهان، بطريقة صاخبة متحدية الجريدتان الفرنسيتان ببيروت «الأوريان» و«الليجور» الأولى الناطقة بلسان الأستاذ اده، والثانية الناطقة بلسان الشيخ بشارة الخوري.

وأخذ الناس يتطلعون إلى الأفق البعيد ليروا أياً من الفارسين سيأتي من وراء البحار حاملاً الراية.

تماماً مثلما جاء في الأساطير عن الأختين الشريفتين الإنكليزيتين حنة ومارتا دي لانكشاير وكانتا قد وقعتا في غرام فارس جميل ذهب للحرب، فأخذتا تنتظرانه الأيام والليالي على شرفة قصرهما، على أن يكون زوجاً للتي تشاهده قبل أختها آتياً من بعيد.

وقيل يومئذٍ إن معية الأستاذ اميل اده حملت مبلغاً كبيراً من المال للقيام بالدعاية اللازمة هناك، وكانت الرحلة من بيروت لباريس في سكة حديد الشرق، وكانت سيدة ظريفة في نادي بيروت تقول في ذلك المساء وهي تذكر المشاق التي قد يكون المسافرون الكبار يعانونها في هذه السفرة بالسكة الحديد - كانت تقول:

- يجب أن نتخيل الوزيرين ورجال الحاشية في عربة القطار يتقاسمون المال ولا يتقاتلون.

هذا إذا كانوا حكماء.

فإنما الذي يركب الحمار، لا يحب أن يسأل عن شكوى وتذمر ومسبات الذي يقود الحمار!

وبالمناسبة نأخذ شيئاً بهذا المعنى عن تقرير رفعته مصلحة الاستعلامات بالمفوضية في أواخر عهد اميل اده عن مشادة حصلت بين بعض كبار النواب الادبين يومئذٍ.

وفي هذا التقرير صورة بشعة جداً عن المتاجرات والاستثمارات والفساد أيضاً في ذلك المجلس.

هل نسمي النواب الذين كانت المشادة قائمة بينهم؟

كان المسيو بيو يومئذٍ قد أوقف الدستور في سوريا وطلب من الأتاسي استقالته.

وطبعاً، شاع في لبنان بعد ذلك - وعن حق - أن ما جرى في دمشق لابد أن يجري في لبنان.

وقد كان هناك في الجو ما يؤكد قرب وقوع هذا الحدث الحزين جداً على النواب والحكام في بيروت.

ولا عجب في ذلك، فليس حديث الفساد واقتسام أموال الدولة والاستثمارات المشبوهة والمتاجرات بالنفوذ السياسي والحكومي محصوراً فقط بالعهد الأخير، عهد بشارة الخوري الذي يسميه اليوم - وحتى أكثر الذين استفادوا منه - بالعهد البائد أو عهد الرجعيين - بل هو حديث قديم جداً، قد يرجع إلى عهد الأمير بشير والتنوخيين.

وما قاله الاديون بعد ذلك في عهد بشارة الخوري كذلك كان الدستوريون يقولونه عن عهد اميل اده.

ولم يفلت واحد من التهمة بالفساد والاستغلال، فالذين هم خارج السراي يحاربون دوماً الذين بالسراي.

والذين داخل السراي يجربون دوماً تسويد صحيفة الذين هم بخارجها.

وكان النواب - على أثر شائعة حل مجلسهم قريباً - قد أخذوا يترددون يومياً على المجلس والسراي متسائلين أي متى النهاية.

ومن حديث لحديث كانوا دوماً يصلون للجدال والتناقش وأخيراً للقتال، فيتهم كل منهم الآخر بالعاطل والفاسد، مما كان يدعو المفوضية لزيادة الازدراء بالمجلس وللتفكير بوجوب سرعة حلّه، اعتباراً أنه في الأزمة الدولية القائمة، وفي اتخاذ بيروت مركزاً لقيادة جيوش الحلفاء بالشرق من الواجب التخلص من مجلس نيابي فوضوي ضائع، قد يخلق للمفوضية وللعسكريين مشاكل كثيرة.

وذات يوم سمع مؤلف هذا الكتاب المساجلة البشعة التالية بين نواب كانوا في أروقة المجلس، يتجادلون بعضهم مع بعض، ويقولون الأشياء القبيحة التي سجلناها بالقلم والدفتر.

كان روكز أبو ناضر المتكلم أولاً مهاجماً خليل أبو جودة:

- أنت وقفت على سلم السراي وأخذت تقبض وتساوم على الوظائف والتعين في البلديات!

فَرَدَّ خليل أبو جودة قائلاً:

- وأنت اتفقت مع شركة مياه المنبوخ، وأخذت حصتك من الثمانية ملايين فرنك التي أمرت الحكومة وبعض النواب في إعطائها إياها!

وقال محمد العبود مخاطباً الشيخ فريد الخازن:

- أنت الذي لك حصة في زراعة الحشيش في عكار وبلاد بعلبك وقد اكتشف الفرنسيون أمرك!

وقال للشيخ يوسف الخازن:

- وأنت الذي قبلت المال من البنك السوري عند تجديد اتفاقيته، ولما كان هذا البنك فرنساوياً فلا شك أن مديره أعطى المفوضية قائمة بأسماء جميع النواب الذين قبضوا ثمن سكوت مقابل تصديقهم الاتفاقية مما يجعلنا بنظر الفرنسيين نواباً للسلب والنهب.

وقال يوسف الزين:

- أنت الذي طلبت من شركة البترول مالاً لتسعى لها في التصديق على امتيازها، فذهبت الشركة وقالت للفرنسيين متأسفة: «أود من كل قلبي أن أعطي الخزينة اللبنانية ما تطلبه، ولكنني لا أعرف إذا كنت مضطرة أن أعطي نواب لبنان ما يطلبونه». وبعد هذا أعطت الشركة للمفوضية أسماء النواب الذين كانوا يساومونها على المال، مقابل الموافقة على مشروعها. فقالت المفوضية للشركة: «الأفضل تأجيل البحث بضعة أشهر، إذ حينذاك لا تجد الشركة أمامها نواباً يزاحمون الخزينة...»

ويتابع أهل جهنم عتابهم وشجارهم فيقول الشيخ فريد للخباز:

- وأنت الذي جعلت المجلس مغارة للصوص... أنت علي بابا.

وعملت من جريدة الأوريان مكتب توظيف وسمسرات.

ويقول غيره وهو يتخاصم مع روكز بك:

- وأنت الذي ما تركت بلدية في منطقتك إلا ووضعت عليها جزية.. وأنت الذي بعت وظائف المخاتير والنياشين بأسعار معينة!

وقال الشيخ فريد لنائب معروف من بيروت:

- وأنت الذي أعطيت الشواطئ لعجرم بدون بدل وأنشأ فيها حماماته المعروفة. في حين أن البحر وشاطئه ملك للحكومة، وليس لأحد غيرها أن يضع يده عليهما!

وقال نائب غيره: «وأنت تحمي البانسيونات والملاهي الفاسقة وألعاب القمار، مقابل رسم تأخذه منها، كما كان يفعل آل كابوني في أميركا»!

* * *

وهكذا لا نجد فرقاً، ولا كلمة جديدة، بين ما يقوله الناس عن عهد بشارة الخوري ونوابه، وبين ما كان نواب اده يقولونه عن أنفسهم، وما كان يقوله المعارضون عنهم وعن حكومتهم.

إنما حينذاك، لم يكن بالإمكان أن يقوم انقلاب بالسيف والقوة والإضرابات. لأن الفرنسيين كانوا هنا.

فهم لو لم يكونوا هنا، وكان البلد مستقلاً كما كان بعد 1943، ولو لم يكن المعارضون يومئذٍ يخافون السنغاليين، لكانوا عملوا تماماً ما عمله بعدهم المعارضون أمس، عندما قاموا بالانقلاب على بشارة الخوري، إذ في عهده كان السنغاليون قد ضبوا حرابهم وتركوا هذه البلاد فلم نعد نخافهم ونخشى سواد وجوههم!

والأسباب نفسها التي كانت تجعل انقلاب 1952 ضرورة وطنية هي ذات الأسباب التي كانت أيضاً في ذلك الزمن تدعو للنقمة والثورة على الدولة، كما أن الوقاحة السياسية لم تكن قد وصلت يومئذٍ إلى ما وصلت إليه في هذا الوقت الذي نحن فيه، وهي وقاحة جعلت أيضاً الكثيرين من الذين كانوا العاملين الرئيسيين بالفساد والرشوة والمتاجرات يفخرون على غيرهم وبكل جراة بتجردهم، ويعدون أنفسهم في هذا العهد الجديد المصلحين والمطهرين، في حين أنهم قليلون جداً السياسيون اللبنانيون الذين يمكنهم أن يفخروا عن حق، وليس عن كذب ورياء، بتجردهم ونظافتهم!

نعم، نريد أن نقول ونؤكد أن الفساد والفوضى والسلب - هذا كله كان من شأن العهد السابق، ولكن ليس جميع الذين قالوا عنه هكذا هم بأجمعهم أيضاً غير حرامية وسارقين، وكثيرون منهم لا يمكن أن تكون ذاكرتهم خانتهم لدرجة ينسون من ورائها اليوم ما فعلوه بالأمس، فإن لم يكن هناك غير الأموال الكثيرة التي يتمتعون بها الآن مع ظواهر التجرد والنزاهة التي يستمتعون بها، فهذا كاف لأن يذكروا في كل ساعة أنهم هم كانوا أيضاً سلأبين نهّابين!.

- 41 -

في قصر الصنوبر بعد نصف الليل

كان لا بد للفرنسيين الذين أخذوا يستعدون لقيادة جيوش الشرق في حالة نشوب الحرب القريبة جداً، أن تكون يدهم طليقة في كل شيء.

وكان المسيو بيو آخر من كان يجب أن يكون مفوضاً سامياً في ذلك الوقت الحرج، وهذا لما كان عليه من روح مسالمة، ومن ضعف في الإدارة وهو في تقشفه البروتستنتي يقضي العمر في التفتيش عن راحة ضميره. والرجل الذي يعيش على هذا الطراز يتعب كثيراً وينتهي بالهزال، ولا يكون من الرجال الذين يضربون بقبضتهم على الطاولة ويقولون: نحن نريد!

وليست مساعي رئيس الدستوريين ورفيقه سليم تقلا بباريس هي التي منعت المفوضية السامية أن تقرر بطريقة مفاجئة غير منتظرة، تعطيل الدستور بلبنان، وترسل نواب المجلس إلى بيوتهم متذرعة بأن الحالة العسكرية بالبلاد توجب الحكم المباشر عن طريق السراي اللبنانية.

وكثيرون من أصدقاء الأستاذ اده، ارتاحوا واغتبطوا ضمناً يومئذٍ بذهاب المجلس بهذه الحجة، وعلى هذه الصورة وعن طريق الضرورة العسكرية، فلا يعتز بشارة الخوري عليهم، ويقول إنه هو الذي ظفر بهم، وإنه كان السبب من وراء رحلته لباريس، في إرسالهم إلى بيوتهم.

فإنما - كما قلنا أعلاه - كان طبيعياً بعد ذهاب الأتاسي والمجلس بالشام، أن يكون هكذا بلبنان، فإذا لم يذهب اميل اده فيذهب على الأقل نوابه ووزراؤه.

ولكن على كل حال، يجب القول إن تعطيل الحياة النيابية وتشليح اده أكثر ما تبقى له من صلاحيات، جعلا ولا شك بشارة الخوري وصحبه يتنفسون ويرتاحون، مع أن تعطيل الدستور هكذا مخالفة لمبادئهم وآرائهم بوجه رئيسي. ولكن قيل يومئذٍ إنهم كانوا قد اتصلوا عن طريق الأستاذ كميل شمعون بالإنكليز الذين ضمنوا لهم المستقبل القريب الذي فيه يأخذ لبنان جميع حرياته.

وكان على الإنكليز يومئذٍ أن يلعبوا دوراً رئيسياً في مقدرات هذه البلاد، إذ أن تحالفهم مع الفرنسيين واشتراكهم فعلاً في جيش الشرق يجعلان لهم كلمة عالية أيضاً في أمور بلدان المشرق التي يسيطر عليها حلفاؤهم الفرنسيون.

وهكذا هذه المرة، بعد حل مجلس الائتلاف وقيام حكومة إدارية، ليس اميل اده رئيس دولتها إلا بالاسم - أخذ الناس يقولون إن نجم بشارة الخوري بدأ يطل، وإن رأسماله السياسي أخذ يتضاعف.

فإنما، إذا كان الأستاذ اده صديقاً للفرنسيين يتكل عليهم ويأخذونه تحت رعايتهم، فالشيخ بشارة وصحبه كان مفروضاً منهم أن يكونوا أصدقاء الإنكليز المفضَّلين، دون أن يكونوا أيضاً معدودين أعداء الفرنسيين.

وحالاً، ما كادت الحرب تقوم، حتى استلم الإنكليز مبدئياً مصلحة الدعاية في بلادنا، وأخذوا يقومون بالبروبغندا القوية اللازمة للحلفاء عامة ولهم بوجه خاص، متكلين في تأييدهم على معظم السياسيين الوطنيين «الناسيوناليست» الذين أخذوا يتسارعون لخطب ودَّ إنكلترا، مما جعل قنصلية المستر هوارد تزدحم بهم ازدحاماً غريبا.

ولا نعرف على أي دليل استند الناس يومذاك عندما أخذوا يؤكدون أن كميل شمعون في صداقته مع الإنكليز استطاع أن يأخذ عهداً منهم في مساعدة هذه البلاد على الاستقلال، مما لم يكن قد اطَّلع عليه غير العدد القليل من السياسيين.

وكان يومئذٍ كميل شمعون وبشارة الخوري لا يزالان متضامنين تماماً، شريكين على السراء والضراء، في السياسة والحزبية وفي التعاون السياسي والعقائدي.

وكان من الطبيعي في بداية الحرب الجديدة، بعد ذهاب الأتاسي والكتلة الوطنية من الأحكام في الشام، أن يعين الفرنسيون الشيخ تاج الدين رئيساً بدمشق، وقد كان رجلهم الأقرب يسانده قائد الفرق الجركسية القومندان كوله المشهور.

وكان هذا الأخير قد أقام نفسه كفيلاً أمام المفوضية السامية لتاج الدين بعد أن أظهرت المفوضية قلة ثقتها بهذا الأخير.

وكان السياسيون السوريون، وأخصهم رجال الكتلة الوطنية، في ذلك الوقت، وفي إبان الانتصارات الألمانية المتوالية، قد أخذوا يديرون بوجوههم نحو برلين، أكثر مما يديرونها نحو باريس ولندن.

وهذا ما كان يدعو للاشتباه بهم، وما جعل الفرنسيين يبعدونهم من السراي والحكم، ويجعلونهم يقبعون ببيوتهم، يقطعون نفساً وينتظرون أياماً أفضل، ينتظرون مفاجآت تلك الحرب وأثر انتصارات هتلر في سياسة الحلفاء في الشرق.

ولم يكن في سوريا من رجال السياسة غير الشيخ تاج وحده لا يؤمن بانتصار ألمانيا، وكان من طبيعته النشيطة أنه عندما يستلم الحكم، يستأسد، وعندما يستأسد يضرب بقسوة وقوة.

وانتهز الفرصة، وأخذ يلاحق بعض كبار الوطنيين، واصطفى بينهم بالأكثر خصمه العنيد الأكبر رجل الدولة السوري المعروف، جميل مردم بك وأقسم على العمل لخراب بيته.

وكان ذلك سهلاً وقريب الوقوع، ولم يستدرك المسيو بيو الأمر، فقد كان الشيخ تاج الدين قد استصدر حجزاً على مزرعة جميل مردم بك الوسيعة الجميلة، القائمة كالعروس في ظاهر دمشق، وذلك مقابل دَيْن الحكومة عليه، وطرح الشيخ تاج المزرعة للبيع على أن تجري مزايدة علنية عليها بعد أيام قليلة جدا.

وتوسَّل مردم بجميع وسائله الخاصة لإنقاذ مزرعته من الضياع ولكنه لم يستطع، إذ أن الشيخ تاج كان قد سَدَّ عليه جميع الأبواب، وكان أيضاً قد جعله وجعل جماعة الكتلة الوطنية، وفي مقدمتهم شكري القوتلي، موضوع شبهة تجاه الحلفاء، ناسباً إليهم الاتصال بالعدو وتأييد النازيين.

سَدَّ الشيخ تاج الأبواب على جميل مردم، ما عدا باب المفوض السامي.

ولكن كيف يأتي جميل مردم للمسيو بيو طالباً متوسطاً المفوض السامي، وهو ورفاقه الزعماء الوطنيون أصبحوا أولاً تحت المراقبة بطريقة نوعاً ما كتومة، ولكن غير خافية عليهم، وكانوا ثانياً قد أعلنوا سياستهم السلبية وعدم تعاونهم مع الفرنسيين.

ولكن كان لجميل مردم بك ببيروت صديق أمين وفي، هو محرر هذه الأسطر.

وكان في المفوضية لهذا الصديق صديق افرنسي له نفوذ وسلطان، اسمه شامبار مدير قلم المطبوعات والإذاعة ووكيل الغرفة السياسية، وصديق المفوض السامي الخاص.

وهكذا، وعن طريق المسيو شامبار، جاء صاحب هذه المذكرات وجميل مردم بك ذات ليلة مظلمة في ساعة غير محترمة عند الناس الذين ينامون في الأوقات العادية - إلى قصر الصنوبر، حيث جرى لجميل مردم بك مع المفوض السامي حديث طويل، يجب أن

يكون المسيو بيو قد ارتاح إليه جداً، وأنس في صاحبه رجل نبالة وشرف، لأن الحديث الطويل الهام انتهى أخيراً برفع الحجز حالاً عن مزرعة جميل مردم وبدفع المتوجب عليه للخزينة السورية عن طريق المفوضية السامية، مع تَعَهُّدٍ قدمه جميل مردم للمفوض السامي بأن يقف هو ورجال الكتلة على الحياد تجاه تاج الدين وحكومته، وبالتعاون مع الحلفاء وتسهيل أمورهم بالبلاد، ومحاربة الطابور الخامس الألماني الذي كان يومياً يزداد عدداً وقوةً بين السوريين، وكان جميل مردم وصحبه من زعمائه!.

- 42 -

لبنان في المعرض الاستعماري الفرنسي

كانت سياسة بشارة الخوري منذ البداية تقوم على أن البلاد اللبنانية، مهما كانت لها صبغة نصرانية، فهي بلاد إسلامية أيضاً، وعدد المسلمين فيها يوازي تقريباً عدد النصارى.

وهكذا، يجب أن يكون للمسلمين حساب كبير. وعلى الزعيم السياسي المسيحي الفهيم أن يذكر هذه الحقيقة لنفسه بعض الأحيان، ويُذَكِّر المسلمين بها كي يكونوا أصدقاءه وأنصاره.

وكان، ولا شك، أمضى سلاح عند بشارة الخوري يحارب فيه اده، هو معرفته هذه الحقيقة وإقراره لها بالمناسبات الملائمة.

وفي سنة 1937 اعتزم السفر لأول مرة لباريس، في عهد دي مارتل كما أسلفنا. وكان البطريرك الماروني والأستاذ اميل اده رئيس الجمهورية قد سبقاه لهناك، كل منهما على حدة دون سابق ميعاد.

وكان من الضروري أن يكون بشارة الخوري هناك ليرد الغوائل عن نفسه، اعتباراً منه أن الأستاذ اميل اده لن يترك فرصة في فرنسا إلا وينتهزها للنيل منه.

وفي اليوم الذي قرر فيه الرحيل، عندما نزل إلى الميناء ليستقل الباخرة، وقد رافقه عدد كبير من الأنصار والزعماء، لاحظ الملاحظون عدداً كبيراً من ساسة وقبضايات ووجهاء مسلمين جاؤوا أيضاً يُوَدِّعُون - مما لم يسبق أن جرى سابقاً قبله بمثل المظاهرة العلنية، إذ أن السياسيين المسلمين، وفي مقدمتهم الوجيه الزعيم الكبير عمر بك بيهم ورياض الصلح وعمر الداعوق وسليم الطيارة وأبناء سليم سلام وغيرهم كانوا بالأحرى يبتعدون - وهم راضون - عن المشادة القائمة بين السياسيين اللبنانيين المارونيين اميل اده والشيخ بشارة الخوري، وينظرون إلى تقاتلهما وتحاربهما بارتياح، على قاعدة «فخار يكسر بعضه». ولقد كان في دوام هذه الحرب الحزبية المارونية مصلحة للمسلمين. ومع أنهم لم يعملوا شيئاً لزيادة الشقاق بين الرجلين الكبيرين؛ فلا نستطيع القول إنهم لم يكونوا مبسوطين من الأمر، مغتبطين كثيراً عندما يرونهما ينشقّان ويتخاصمان، مما يقلل

من قوتها ويزيد من قوة الزعماء المسلمين، وهي قوة كان المسلمون في ذلك الوقت بحاجة كبيرة لها، كيما يستطيعوا إقامة توازن بينهم وبين المسيحيين، في الوقت الذي كان فيه الانتداب يقف بطريقة غير مباشرة مع أصدقاء فرنسا التقليديين.

وفي هذا الجو، ارتأى بشارة الخوري أن يُظْهِرَ تكاتفه مع هذه العناصر الإسلامية ويخطب ودها، وكانت قد أخذت للمرة الأولى تتظاهر له وتؤيده، ومن جراء ذلك احتشدت جماهير غفيرة أكثرها مسلمة، على الميناء مُوَدِّعَةً له، فألقى عليها ذلك التصريح المشهور، وهو التصريح الأول من نوعه يتلفظ به ماروني كبير مسؤول سياسياً وحزبياً ببلد يحتلها الفرنسيون؛ أصدقاء الموارنة التاريخيون، قال:

«جاء الوقت لأن يتعاون لبنان مع البلدان العربية تعاوناً وثيقاً وإلى أقصى حد، وأن يعتبر هذه البلدان العربية شقيقات وشريكات له، يتضامن معها في مقاومة الاستعمار في الجهاد للتحرر والاستقلال».

وجاء جواب هذا الكلام من باريس حالاً بلسان الرئيس اده، محاولاً دحضه مظهراً استغرابه وشجبه، إذ لم يكن مُنتظَراً أن يصدر مثل ذلك الكلام عن سياسي لبناني كبير، ينتسب إلى طائفة تعتبر نفسها صديقة فرنسا الأمينة في الشرق وهي مرتبطة معها بميثاق تقليدي قديم، لذلك أحدث التصريح ضجة كبرى في الأندية السياسية الفرنسية، كما وإن القول بالتعاون مع العرب والاشتراك معهم في الكفاح ضد المستعمرين، كان تجاه المنتدبين يُشكِّل - انتدابياً - خيانة معنوية، تستحق الملاحقة وإبعاد قائلها، فضلاً عما يحدثه قول كهذا في الأديرة ضد الرهبان من ضجة واستنكار.

قلنا جاء الجواب حالاً من باريس، عندما وقف الرئيس اده في المعرض الاستعماري الذي كانت المدنية الكبرى قد أقامته يومئذٍ، وأكد في حديثه عن اللبنانيين أنهم من سلالة الشعوب القديمة المنقرضة التي أعطت للعالم خلال عشرين جيلاً المدنية والعلم. وجاء في ذلك الخطاب يقول بطريقة غير مباشرة وبمغامز حاذقة أن لا شيء يجمع بين اللبنانيين وبين العرب، من الجهة العنصرية والقومية فاللبنانيون فينيقيون دوما.

وعنى الأستاذ اده بكلامه هذا السلالة الفينيقية التي ملكت شواطئ البحر المتوسط الشرقي وشمال أفريقيا، وكانت حصناً حصيناً وقف دون اختراق الجهل وبداوية الصحراء حصون المدنية الضخمة التي كانت تلك الفينيقية قد أقامتها.

ولم تكن أول مرة يعتبر فيها الأستاذ اده اللبنانيين بعيدين عن العرب والعروبة، إنما كانت أول مرة يقول ذلك بخطاب رسمي، وكان ذلك في المعرض الاستعماري بباريس الذي عاب الكثيرون اشتراك لبنان به، وقيام جناح لبناني فيه، فإنما هو معرض للمُسْتَعمرات الفرنسية مثل السنغال والمدغسكر والكونغو والهند الصينية، فلم يكن للبنان أن يشيد جناحاً فيه أيضاً، إذ بذلك يعترف كذلك الأمر أنه مستعمرة افرنسية، لا بلاداً تحت الوصاية المؤقتة. وكان تشييد الافرنسيين لهذا الجناح اللبناني في معرض المستعمرات، دليلاً على أن لبنان بنظرهم لا يفرق عن باقي مستعمراتهم.

وكان أمام باب كل جناح من أجنحة هذه المستعمرات عبيد يرتدون بِزَّات المستعمرة التي يمثلونها.

ووجدت إدارة ذلك المعرض الفهيمة أن تضع على باب الجناح اللبناني عبدَيْن أكثر سواداً من باقي العبيد، يُمَثِّلان الجنس اللبناني في ذلك المعرض، ويلبسان الملابس الجبلية.

وكان البطريرك عريضة قد سافر يومئذٍ لروما، وقيل إن صديقنا القديم الأستاذ معتوق هو الذي دعاه لباريس على ضيافته. وكان هذا الأخير قد استوطن عاصمة الفرنسيين في ذلك الوقت.

ونزل البطريرك في لوكندة جورج الخامس بجناح خاص كبير، كان معتوق - «راسبوتين» بكركي - قد أعده لغبطته، وأحاطه بحاشية كبيرة من رجال الصحافة العالمية، تنشر عن غبطته أخباراً كثيرة مدهشة وعجيبة، كان معتوق هو الذي ينصها ويختلقها وفيها مبالغات كثيرة، ولكنها بأجمعها تكبير للمقام البطريركي.

حتى أنه صَوَّرَ البطريرك بأنه ملك لبنان غير المتوَّج، وزعيم البلاد الروحي والزمني، مما يجعل رئاسة الجمهورية مرتبطة فيه، تتعاون معه وتعمل بمشيئته!

وكانت وزارة الخارجية الفرنسية قد تَعَمَّدَتْ إحاطة البطريرك بأكبر مجالي التعظيم والتمجيد، مما فاق ما أحاطت به الرئيس اده.

وكان ذلك مجالاً لخصوم هذا الأخير، للتأكيد بأن وزارة الخارجية الفرنسية أرادت بذلك الحط من مكانة اده وأمره بوصفه رئيس الجمهورية اللبنانية كيما لا يطمع بها وكيما تظهر نفسها منفصلة عنه، مما أزعج ذلك الرئيس كثيراً، ومما جعله يخرج

عن هدوئه ورضاه، ويذهب لوزارة الخارجية يحتجّ أخيراً على تسمية لبنان مستعمرة افرنسية لا بلاداً مستقلة، وإقامة جناح له في معرض استعماري يجاور جناح الكونغو والغوبان ومدغسكر وبلدان الزنوج الفرنسية المختلفة.

ونشرت الصحف الفرنسية بمناسبة زيارة البطريرك قائلة إنه إذا كان جبل المونتينغرو (الجبل الأسود) قد تحرر من حكامه التقليديين المطارين، فإن لبنان لم يفعل ذلك، وما يزال تحت سيطرة الإكليروس، يحكمون فيه كما يريدون، فهو جمهورية مدنياً، مبدئياً ولكنه عملياً مملكة يجلس على عرشها البطريرك الماروني، ويضع رئاسة الجمهورية تحت وصايته!.

هكذا على الأقل ما جاء تقريباً في جرائد اليمين، مثل الفيغارو والأكسيون فرانسيز وباري سوار.

وقد تكون هذه الكتابات عن البطريرك نزيل باريس هي التي دعت الأندية الفرنسية الشعبية الكبرى والأوساط السياسية الدولية لأن تدعو البطريرك وتحتفي به احتفاءً عظيماً، طغى كثيراً - كما قلنا أعلاه - على الاحتفاء بالرئيس اده، مما اتخذه خصومه مناسبة للتحامل عليه، يؤاخذونه لأنه لم يعرف كيف يقيم لنفسه المكانة العالية التي يجب أن يقيمها رئيس بلاد ينزل ضيفاً على بلاد أجنبية ولو كانت منتدبة على بلاده.

* * *

تطورت الحالة الداخلية في لبنان من جَرَّاء الحرب، فَعَطَّل الفرنسيون المجلس كما ذكرنا، وأرسلوا وزراء الرئيس اميل اده إلى بيوتهم، واستلم المستشارون الفرنسيون الأحكام من وراء ستار المديرين اللبنانيين، وانقلبت الجمهورية اللبنانية رأساً على عقب، وَعَيَّنَ المفوض السامي عبد الله بيهم سكرتيراً عاماً ورئيساً لمجلس المديرين، يقوم مقام مجلس الوزراء ويحكم مباشرة، راجعاً بأموره ليس لرئيس الجمهورية، بل للمندوب الفرنساوي.

وعبد الله بيهم وجيه كبير المسلمين في بيروت معروف بصداقته للفرنسيين وأخصهم الجنرال ويغاند، الذي كان دوماً يعمل لدى المفوضية السامية لاستدعائه للحكم، حيث كان عبد الله بيهم يظهر حياداً طائفياً كاملاً ويشتغل بهدوء وسكينة.

- 43 -

دولة الجنرالية

وكانت كل أعمال المسيو بيو تقول يومياً لاميل اده بوجوب الاستقالة.

وكان الفرنسيون قد حاولوا أولاً تعيين حاكم فرنساوي للبنان من قواد الجيش، ولكن هذه الفكرة التي كانوا قد أعلنوها هنا وهناك لجس النبض عند الأهلين، لم تصادف غير الشجب، فاضطروا لتعيين عبد الله بيهم سكرتيراً عاماً، على أن يرجع بكل أموره للمندوب الفرنساوي في الحكومة اللبنانية، وعلى أن يبقى اميل اده رئيساً للجمهورية بطريقة تشبه بالأحرى رئاسة الشرف، لا الرئاسة الفعلية.

وكان المندوب الفرنساوي الجديد لدى الحكومة اللبنانية، الجنرال أرلابوس صعب المراس عنيفاً، يعتبر أن السياسة يجب أن تكون منتظمة وصريحة مثل العسكرية، مما جعل تفاهمه مع السكرتير العام ومجلس المديرين صعباً جدا.

ولكن أين لأحد يومئذٍ - والحكم حكم عسكري بالفعل، والجيوش الفرنسية تتدفق يومياً على هذه البلاد، وكل شيء أصبح بيد القواد - ولكن أين لأحد يومئذٍ أن يعترض أو يبدي رأياً، سواءً أكان من الاديين أو الدستوريين أو سواهم؟

ولكن لماذا نأتي على مثل هذا الحديث؟

نفعل ذلك جواباً على الذين أخذوا على الأستاذ اميل اده أنه بقي في الرئاسة يوم قلب الفرنسيون الجمهورية اللبنانية إلى حكم انتدابي مباشر.

ولكن اده أَصَرَّ على البقاء ورفض الاستقالة، بحجة أنه يجب أن يبقى لهذه الدولة اللبنانية رمز محلي ببقاء الرئاسة اللبنانية، وهي معنوياً فوق الجميع.

وفعل الأستاذ اده بالرغم من أن قرارات المفوضية السامية بأجمعها كانت تقول صريحاً، وبطرق متنوعة، إن رئاسة الجمهورية أصبحت من كل الجوانب دخيلة على السراي، لا محل لها فيها.

وحبس الرجل الكبير نفسه ببيته، وكان يقول للذين يظهرون إعجابهم أو شجبهم لموقفه:

- أليس في بقائي تحدياً للمفوضية، ودليلاً على أنني أقوى منها، فهي تنتظر استقالتي ولا تجسر على أن تقيلني؟

وكان الجيش قد استلم كل شيء تقريباً، وكان الجنرال ويغاند قد استلم القيادة العامة وأصبحت المفوضية تابعة له.

وفي أول أيلول 1939 استلمت السلطة العسكرية البوليس والجندرمة، واستلم المستشارون الوزارات.

وفي 6 أيلول استلمت المفوضية حق التشريع، وأصبحت كل مرافق الدولة تابعة لها، وهي تابعة للقيادة العسكرية..

- 44 -

الرجل الذي عرف الحقيقة قبل غيره

ما العمل، إذا كان بشارة الخوري في حزيران 1940، في الساعة التي احتل فيها الألمان فرنسا، قد عرف أن الانتداب ووجود فرنسا في الشرق انتهيا، وأن أبواب الاستقلال الكامل الناجز لهذه البلاد قد تفتحت على مصراعيها؟

ما العمل، إذا كان هو قد عرف ذلك، وإذا كان اميل اده لم يعرفه، أو بالحري تجاهله بسبب حبه لفرنسا وإيمانه بها؟

هنا كان مفرق الطريقين!

والواقع أن ما عرفه بشارة الخوري، هو ما كان يعرفه جميع الناس أيضاً، إذ لم يكن صعباً وغير معقول أن لا يعرف الإنسان أن احتلال الألمان لفرنسا وعقدها هدنة مع هتلر، إنما هو دعوة لها لِضَبِّ حقائبها في بلاد المشرق، ووضع نهاية لانتدابها ووجودها في سوريا ولبنان..

وكثيرون يتساءلون حتى الآن: ترى لو أن الأستاذ اميل أدرك هذا الشيء الذي أدركه بشارة الخوري ومشى في طريق الاستقلال الذي مشى عليها بشارة الخوري، وافترض مثل غيره بأن نهاية فرنسا أصبحت محتومة في هذا المشرق، هل كان قبل رئاسة الثلاثة عشر يوماً؟ أو بالحري، هل لم يكن هو بدلاً من بشارة الخوري رئيسا؟

* * *

قلنا سابقاً، وقف النشاط السياسي المحلي في كل مكان، وانتقل النشاط إلى راديو الشرق الذي كان يشرف عليه الفرنسيون ويديره ذلك الداهية الفهيم الألمعي المسيو شامبار، كما انتقل النشاط أيضاً للقنصلية الإنكليزية ببيروت، بيت الحليفة بريطانيا العظمى، التي أخذت لنفسها صلاحيات سياسية كثيرة في بلاد المشرق، كان من الطبيعي أن تأخذها حالاً عندما أخذت لندن تسيطر على القيادة العسكرية العليا للحلفاء في الشرق، فأصبح من البديهي أن تلعب القنصلية البريطانية دوراً كبيراً في هذه البلاد، وتتدخل بأمور داخلية سياسية كثيرة، اعتباراً منها أن في سوريا ولبنان طابوراً خامساً لألمانيا، من الأهلين، يجب وضع حد لنشاطه.

وعلى هذا كان على الكتلة الدستورية أن تتردد على القنصلية البريطانية، وتتجانس معها ومع آرائها ومقاصدها، اعتباراً أنه قد يكون جاء الوقت لإنكلترا لأن تلعب دورها المباشر في سوريا ولبنان، وهما البلدان اللذان أرغمتهما السياسة قسراً على تركهما للفرنساوي سنة 1919.

والواقع أن إنكلترا لم تغتفر أبداً ذلك الإخفاق الذي أصابها لأول مرة في المشرق، عندما جلت جيوشها عن سوريا ولبنان، تاركة البلدين للفرنسيين يتحكمون بهما. فهي قبل ذلك ما رفعت مرة رايتها على بلاد في المشرق إلا ورسخت أقدامها فيها، وظلت مسيطرة عليها أبداً. وإذا كانت بعض الأحيان جلت عن بلاد ما، فإنها كانت دوماً تترك لها شيئاً من الحقوق على تلك البلاد. ولكنها هذه المرة لم تكن مثل كل المرات، واضطرت سنة 1919 أن تترك لبنان وسوريا تماماً دون أن يبقى لها أثر ما فيهما، وذلك بعد أن كانت قد دخلتهما دخول الظافر ورفعت رايتها على مباني الحكومات، حتى أن الجنرال ويلس الأسترالي الذي كان قد دخل البقاع على رأس جيوشه، ورفع الراية البريطانية على سراي زحلة بحفلة رسمية كان قد أعلن أمام الجماهير المحتشدة التي جاءت لهذا الاحتفال بقوله: «إن هذه الراية تبقى حيث ترتفع، ولا تنزل أبداً!».

ومع ذلك، بعد أسابيع قليلة من ذلك، نزلت الراية البريطانية وارتفعت مكانها الراية الفرنساوية في كل مكان.

وهذا الشيء لم يغب طوال الثلاث وثلاثين سنة التي مضت عن بال كل إنكليزي في هذا العالم.

وكان الإنكليز الذين عرفناهم بعد استتباب الأمر لفرنسا في هذه البلاد يقولون لنا دوماً إن الوضع غير طبيعي، وإن الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان مثل رقعة مستعارة، خاطتها الأيام في الثوب الإنكليزي؛ ثوب «جون بول» الذي ترتديه جميع هذه البلدان في الشرق العربي.

قلنا، كان من الطبيعي أن يستظل الدستوريون حالاً الراية الإنكليزية، وأن يرتموا بأحضان مارون بك عرب، الملحق في القنصلية، الفهيم والخبير الذي كان ولا يزال يُخَيِّل لجميع الناس أنه النيافة الرمادية، المسموع الكلمة والرأي في القنصلية

البريطانية سابقاً، ثم في السفارة البريطانية اليوم، وذلك على قدر ما الإنكليز يستمعون لرأي غيرهم، مهما كان أميناً وفياً وصادقاً معهم، كما نفترض ذلك طبعاً في مواطننا المذكور، الذي أصبح ذات صباح من تشرين الثاني 1939 كابيتاناً في جيش صاحب الجلالة، كما أصبح قنصله العام المستر هوارد جنرالاً، وكما أصبح المستشار السياسي المستر فرلونغ كولونولاً، إذ أن الهيئات الديبلوماسية البريطانية انقلبت حالاً عند إعلان الحرب، وعلى الأخص في هذا الشرق الأوسط إلى هيئات عسكرية ديبلوماسية برتب عالية أخذتها لنفسها.

- 45 -

الطابور الخامس في بيروت الحسناء

كانت أخبار الانتصارات الألمانية التي بدأت تَرِدُ على هذه البلاد تزيد من الحماس عند المسلمين لهتلر ولجيوشه، مما كان يعرفه الإنكليز تماماً ويقلقون له، دون أن يتخذوا أية إجراءات حاسمة، لا عن طريقهم ولا عن طريق الفرنسيين لإيقاف هذا التيار، وذلك خوفاً من إثارة خاطر الألمان عليهم.

على أنهم حصروا جميع جهودهم في تنظيم دعايتهم الكبرى المعروفة في هذه البلاد، وكانوا قد دعوا رياض الصلح ليشترك فيها مقابل كل ما يريد ويطلب، معتبرين أن من الواجب اكتساب أكبر عدد من الزعماء المسلمين، وافتراضاً منهم أن رياض الصلح يملك من الميزات والقوة ما يجعل الكثيرين من أبناء طائفته يخرجون على النازية وينضمون للإنكليز.

وكان يونس البحري في راديو برلين يعرف بطريقة عجيبة كل ما يجري عندنا حالاً. وكان يتناول الموضوع في إذاعاته المسائية يومياً ويفضح كل الأمور.

ومن راديو برلين، عرفنا أن الجنرال هوارد القنصل العام البريطاني كان يجتمع سراً إلى بشارة الخوري، ثم إلى رياض الصلح، ومن بعدهما إلى عمر الداعوق وسامي الصلح وغيرهم من كبار السياسيين وأخصهم المسلمون منهم.

ولكن هل اتفق رياض الصلح مع القنصل الإنكليزي العام؟

وهل اتفق الزعماء المسلمون معه؟

يجب القول إنه لم تظهر بعد ذلك دلائل مطلقاً على اتفاقات كهذه! مع أن يونس البحري كان يؤكد الشيء في إذاعاته. ولكننا لم نكن نعرف الحقيقة بكاملها، خصوصاً عن رياض الصلح الذي كان الاتفاق معه له وزن وقيمة، بوصفه حامل لواء العروبة الأكبر يومئذٍ. ولكن رياض الصلح كان لا يتكلم، ولا الإنكليزي كان يؤكد.

ومضت سنوات بعد ذلك، وذهب الفرنسيون، وظل جميع أهل السياسة يؤكدون أن رياض الصلح كانت له دوماً صلات مع دولة كبرى. ولكن ما من أحد استطاع مرة

واحدة أن يُعَيِّن تلك الدولة، فهذا كان يقول ألمانيا، وذاك إنكلترا، وآخر يقول أيضاً فرنسا.

هل كان رياض الصلح قديراً لدرجة أنه استطاع إخفاء الأمر، أو أنه كان حراً طليقاً - كما عرفناه - ولم يتعامل ولا مرة مع أية دولة كانت؟ أو أنه على افتراض ثالث، قد يكون استطاع بنباهته أن يتعاون مع جميع الدول في آن واحد؟

ولكن، مما لا شك فيه أن الدستوريين اتفقوا سنة 1939 مع الإنكليز، وفي مقدمة هؤلاء الشيخ بشارة الخوري، اعتباراً منهم أن دور الإنكليز في السيطرة على سياسة الشرق الأدنى بكامله قد يكون قد أتى، وهم في تحالفهم مع الفرنسيين وقيادتهم العليا في مصر واشتراكهم بجيش الشرق سيكون لهم كلمة فاصلة في السياسة الداخلية بالبلدان التي تحت سلطة الحلفاء العسكرية، واعتباراً من جانب آخر أن الفرنسيين سيداومون، ولا شك، على مساندة الادين، وذلك لأنهم يعتبرون - كما كانوا يقولون في كل مكان - أن الادين هم بالأساس حزب فرنسا في لبنان.

وأيضاً كان من الطبيعي أن يطرق خصوم الادين - زبائن فرنسا - باب الإنكليز، عندما رأوا باب سوريا ولبنان قد أصبح مفتوحاً أمام الجيوش الإنكليزية!

ولم يذهب أحد للأميركان، لأن أميركا لم تكن يومئذٍ قد أخذت تسيطر على هذا الشرق، وتأخذ المكانة السياسية والسيطرة الاقتصادية المرموقة التي أخذتها بعد ذلك.

ولكن، كان هناك المسلمون أيضاً، بعددهم الأكبر والأقوى يرابطون في وسط الطريق؛ فهم ليسوا من الإنكليز ولا من الفرنسيين!

هم أنصار خصوم الإنكليز والفرنسيين، هم إذن الطابور الخامس الذي لم يتحمل هتلر الأتعاب الكثيرة في خلقه وتكوينه. هو طابور خامس يسمع كل مساء يونس البحري يعد باسم «الفوهرر» في إذاعات برلين بالاستقلال الكامل للعرب، وبتحرير الإسلام من سيطرة الغرب، وبإعادة أمجاد العرب إلى ما كانت عليه، وبإقامة إمبراطورية عربية تبدأ من شمال أفريقيا وتنتهي على حدود الأناضول وفي تخوم بلاد فارس.

ولكن، ماذا كان يمكن للدستوريين أن ينفعوا إنكلترا والمجهود الحربي في بلاد أصبحت سياسياً مجموعة عربية كبرى معادية للحلفاء، تفوق على الأربعين مليوناً ليس بينها غير بضع مئات الألوف من النصارى فقط موالين للحلفاء؟

وكان من الطبيعي أن يكون النصارى مع الحلفاء، ليس فقط لتقاليدهم المعهودة: البعض منهم مع فرنسا والآخر مع إنكلترا، بل أيضاً تبعاً للخطة التي لا تتبدل ولا تتغير في هذه البلاد، والتي تجعل المسلم يأخذ دولياً وسياسياً طريقاً غير طريق المسيحي، والمسيحي غير طريق المسلم.

وهكذا رأينا يومئذٍ في بداية هذه الحرب مهمة القنصلية الإنكليزية صعبة جداً، خصوصاً صعبة على صديقنا مارون عرب، وهو يحاول أن يأخذ له مكاناً عند هؤلاء الأربعين مليون مسلم من أنصار هتلر، ساعياً إلى تحويل ميلهم من ألمانيا إلى إنكلترا.

واستعمل البريطانيون المال والحيلة والدعوات الكبيرة والحاذقة جداً، حتى أنهم أصدروا مجلة عربية عن طريق جريدة «الأوريان» أسموها «المراحل» تعمل لهم بروبغندا بمكة والرياض. وكنا قد استلفتنا يومئذٍ انتباه القنصل الإنكليزي العام للأمر، فَذُهِلَ وأكد أنه لم يكن عالماً بما جرى، وقال تلك الكلمة الطريفة المشهورة: «إننا بنشر الدعاية عند المسلمين عن طريق المراحل التي توزعها القنصلية البريطانية بالألوف في البلاد العربية، نكون كمن يجرب بيع الخنازير في بلاد الإسلام!».

وقبض يومئذٍ بعض الزعماء المحليين من الإنكليز - أيضاً - المال الكثير، وتظاهروا بأنهم تأثروا بدعواتهم، ولكنهم ظلوا ضمناً يعطفون على هتلر.

ونذكر أن القنصلية البريطانية دعتنا حينذاك، عندما أصبحت مرجعاً سياسياً كبيراً، لها نفوذ المفوضية الفرنسية وأكثر - دعتنا لإنقاذ محاضرة في «راديو الشرق»، نثبت فيها أن بريطانيا العظمى صديقة العرب، وأنها هي التي قادت نهضتهم في الحرب الكونية الأولى ومشت بهم نحو النصر، وفصلت بلادهم عن السلطنة التركية، وأقامت لملوكهم عروشاً وابتدعت لهم الممالك!

وأجابنا يونس البحري من راديو برلين في اليوم الثاني بأننا نكذب ونلفّق، ونقول غير الحقيقة، ونخون العرب والعروبة، وتساءل حضرته في الراديو كم يجب أن تكون القنصلية البريطانية دفعت لنا يومئذٍ، وأسمى محاضرتنا «محاضرة المائة ليرة إنكليزية»، مفترضاً أن القنصلية دفعت لنا هذا المبلغ.

وبالمناسبة يجب علينا القول إنه كان مخطئاً من جهة، ومصيباً من جهة ثانية.

كانت المفوضية حقاً قد دفعت لنا أجرة تنقلات من بيتنا لدار الإذاعة، ولكن صديقنا يونس كان مخطئاً عندما افترض مقدار القيمة، وتَصَوَّرَ أن القنصلية البريطانية عندها كل هذا الكرم!

فإنما لا الجنرال هوارد القنصل العام، ولا مستشاره مارون عرب، كانا ولا مرة بهذه اليد المبسوطة الكبيرة، لا معنا ولا مع غيرنا، حتى أن الكثيرين من السياسيين المحليين كانوا يتساءلون بين بعضهم البعض، عندما كانوا يثبتون بالمناسبة أن إنكلترا ليست بذاك الكرم في دعواتها - وهو كرم كانت الأساطير تحدثنا عنه - كان كثيرون من السياسيين يتساءلون إذا كانت إنكلترا يمكنها أن تربح الحرب مع هذا التقتير الذي كانت قد أخذت تظهره في كل مناسبة.

قلنا، وانتقل النشاط السياسي إلى القنصلية الإنكليزية التي أخذت منذ ذلك الحين تتدبر أمورها في هذه البلاد التي كان الفرنسيون حتماً سيتركونها، وكأنما هي التي ستخلفهم عندنا.

* * *

كان رياض الصلح قد أخذ يخرج من «القاعة الصهيونية» التي اصطفاها خلوة له، حيث كان حتى ذلك الوقت يجتمع دوماً ويومياً بالصحافيين والسياسيين القائلين قوله والمناصرين له، يتبادلون الآراء والأخبار، ويضعون خطط المستقبل والمؤامرات والتدابير اللازمة.

وكانت القاعة التي أسماها رياض الصلح «القاعة الصهيونية» مقصورة من الخشب، خفية، تقوم في داخل مخازن التاجر المعروف الغيور صديق رياض الصلح المخلص، السيد يوسف الصدي.

وكانت «القاعة الصهيونية» قد اشتهرت في ذلك الحين بشيئين رئيسيين:

أولاً - رجال الأمن العام ورجال المعلومات الفرنسية الذين يحيطون بها دوماً متتبعين أخبارها.

وثانياً - الشائعات والدعايات والأخبار التي كانت تخرج منها وتملأ البلد في كل يوم، وهي تحمل طابع «القاعة الصهيونية» على قفاها!

وكانت قد دُعيَتْ «القاعة الصهيونية» بالنسبة للقاعة الصهيونية التي جاء ذكرها في الكتاب المقدس، والتي كان المسيح يختلي فيها.

وكما كان الإنكليز يعتبرون منذ ميونخ - عندما اشتموا رائحة الحرب القريبة - أن نهاية فرنسا في هذه البلاد قد جاءت، مع أن الألمان لم يكونوا قد أعلنوا القتال بعد، فإن رياض الصلح كان أيضاً يقول مثل هذا القول منذ ذلك الحين، ودون أن يدري لربما ما كان الإنكليز يقولونه.

وهكذا العقول الكبيرة كانت تتلاقى، وعلى أساس اعتقاد رياض الصلح بقرب نهاية فرنسا في هذه البلاد، أخذ حضرته يشتغل أيضاً منذ بداية هذه الحرب، وبعدما رآه من تدخل الإنكليز السياسي في معظم أمورنا السياسية، أخذ يشتغل بعنف في السياسة على أساس نهاية الانتداب غير المنتظرة.

وكان يأمل أن البلدان العربية التي فَرَّقَتها وجزأتها الحرب الكونية الأولى قد توحدها الحرب الكونية الثانية.

ولكن رياض الصلح لم يكن يقول، كما كان كل مسلم غيره يقول، إن الألمان هم الذين سيعملون هذا الشيء، مع كل ما كان الألمان يؤكدونه ويعاهدون العرب عليه.

نعم، كان يؤكد أن الوحدة الاستقلالية للعرب أصبحت ممكنة، ولكنه لم يكن يُعَيِّن الدولة الكبرى التي ستحققها. إنما عندما ذهب للندن بعد ثورة لبنان 1943 عضواً في لجنة الجلاء، ذكر في حديثه مع وكيل وزارة الخارجية البريطانية أنه هو أيضاً كان يعرف أن إنكلترا هي التي ستتولى تسوية قضية الاستقلال في سوريا ولبنان، وذلك على ظهر الفرنسيين وبعد إجبارهم على الجلاء عن البلدين. وأثبت قوله برسائل كان يتبادلها في صيف 1939 مع صديق له من كبار رجال البرلمان الإنكليزي.

وكانت «القاعة الصهيونية» تُوَزِّع على البلاد بطرق غير مباشرة، ولكن بارعة يديرها رياض الصلح نفسه، كلمة المرور اليومية، التي يجب على الوطنيين، طلاب الاستقلال، السير عليها...

وكان الفرنسيون يشعرون أن هناك قوات غير منظورة، ولكن منتظمة تعمل عملها، واتجهت أنظار المفوضية وشبهاتها نحو بشارة الخوري ورياض الصلح، فجعلتهما تحت المراقبة الدائمة، مما كنا قد عرفناه حالاً وأسرعنا ننبه رياض الصلح عنه.

أخذ يومئذٍ هدنة بضعة أسابيع اختفى فيها عن العيان، وعن «القاعة الصهيونية» العزيزة عليه جداً، وأوقف كل نشاط سياسي، مما جعل الفرنسيين لا يتصدون له، بعد أن كانوا مزمعين على اعتقاله.

وكان، ولا شك، جَوٌّ من الإرهاب والتردد يسود في الأسابيع الأولى لبداية الحرب، مما كان طبيعياً جداً. وكان السياسيون يتلمسون طريقهم ولا يعرفون أين يجدونها، لا سيما والسلطات الفرنسية كانت استلمت كل شيء في السرايات وأصبحت المرجع الوحيد للناس.

وهنا كان على رياض الصلح أن يعمل عمله بقوة وبحكمة، متدبراً مستقبله السياسي، وهنا كان عليه أن ينتقي حالاً بين الحزبَيْن الأكبرَيْن بالبلاد، وأياً منهما يجب أن يحالف!

وكان من الطبيعي أن تتجه أفكاره نحو الشيخ بشارة الخوري وصحبه باعتبار أن الكتلة الدستورية هي التي لم تستنكر في لبنان التعاون الكامل مع العرب، والتكاتف والتضامن والوقوف معهم في وجه الأجنبي.

وكان اميل اده حتى ذلك الوقت لم يقل في هذا الصدد أكثر من أن لبنان مستعد أن يتعامل مع البلدان العربية كتعاونه مع باقي البلدان الصديقة، ولم يكن قال، ولا مرة، إن لبنان يتعاون مع البلدان العربية ضد الأجنبي...

هكذا - كما قلنا - كان من الواجب أن يتعاون رياض الصلح مع بشارة الخوري في نهضته السياسية الجديدة، وفي مبادرته للاشتغال بالسياسة اللبنانية، بعد أن كان يشتغل دوماً في ميدان السياسة العربية جمعاء بطريقة شاملة.

ولكنه لم يفعل، ولم يكن يظن أن الوقت كان قد جاء للاتفاق مع بشارة الخوري، حتى أنه لم يكن سَجَّلَ على نفسه مرة واحدة في السابق تعاوناً ولا اختلاطاً سياسياً ببشارة الخوري، بل بالأحرى - ومع عدائه الظاهر للفرنسيين - كان أقرب للأستاذ اميل اده منه لبشارة الخوري!.

ولكن... عندما قامت الحرب...

وعندما أخذ يقول - كسياسي بصير فهيم - إن هذه الحرب أيضاً ستضع لبنان والبلدان العربية في كفة القدر عن جديد، وأية حرب خسرها الحلفاء أو ربحوها، لابد من إعادة النظر فيها عند نهايتها من جديد في مصير هذه البلدان العربية وأنظمتها

وأوضاعها. عند ذلك كان من الطبيعي أيضاً أن يفتش رياض الصلح عن زعماء سياسيين يشتركون معه بالرأي.

وكان رأي اده يخالف رأيه تماماً، وهو الرأي القائل إن فرنسا في سوريا ولبنان خالدة إلى الأبد، لا يتغير معها شيء ولا يتبدل معها شيء، رغم احتلال الألمان لبلادها. وهو لم يكن يشك مطلقاً أن انتصار فرنسا في النهاية مضمون، لذلك كان يقول إنه لا يجب التفتيش والتكهن عن أحداث جديدة تساعد على زوال النظام الانتدابي القائم...

وطبعاً، عند هذا التفاوت في الرأي والفكر بين اده ورياض الصلح، كان من البديهي أن يتقارب هذا الأخير مع بشارة الخوري. ولكنه تقارب اصطدم بين الرجلَيْن الكبيرَيْن بعقبات كثيرة، أهمها النفور الذي كان حتى ذلك الحين يستولي على أهالي المدن الساحلية المضمومة جديداً لجبل لبنان من أبناء هذا الجبل أياً كانوا، ولكن هذا النفور انقلب عند الاستقلال إلى تعاون كبير لم يسجل تاريخ الجمهورية اللبنانية أشد وأوفى وأقوى منه، خصوصاً في السنوات الأربع الأولى للاستقلال، وقبل أن يبدأ كل من هذين السياسيين الكبيرين يُجرِّب دهاءه في رفيقه، مما سنرى تفاصيله الرائعة الشيقة والتعسة معاً في أحاديثنا المقبلة، ومما كان، ولا شك، ضربة المعول الأساسية والأولى في صرح رئاسة بشارة الخوري بعد الاستقلال...

* * *

وكما قلنا سابقاً، ساد التردد والحيرة عند رجال السياسة في لبنان أثناء الأسابيع الأولى للحرب، مما جعلهم أخيراً، وقد اضطرتهم الظروف لاعتزال السياسة قدر الإمكان، يأخذون هدنة لأنفسهم، خوفاً من الوقوع في زلل، وبدافع جبن طبيعي، قضى عليهم أن يتريثوا بينما يجدون طريق السلامة يمشون عليها.

إنما بقي نشاط تلك الجماعة التي لم تتعب ولم تكلّ في التسابق والتزاحم للتقرب من السلطات الفرنسية، التي أخذت أيضاً تتغير وتتبدل في السراي الكبير من جنرال قائد عام لجنرال قائد عام، وأكثرهم شهرة الجنرال ويغاند الذي كان قد أضاع كثيراً من نشاطه وحسن بصيرته لتقدمه في السن.

وفي هذه الحالة، وقد استلم الفرنسيون كل شيء تقريباً، لم نعد نرى في سراي البرج سياسياً وطنياً واحدا!

إذ أن السياسيين بأجمعهم انتقلوا إلى حيث انتقلت السلطة الحقيقية مباشرة في سراي المفوضية، مما جعل أروقتها تضيق بهم، وتضيق بوجه خاص برجال الأعمال الذين أخذوا ينتشرون يومياً فيها، يسعون ويعللون النفس بالصفقات والتعهدات والمتاجرات التي كانت قد أخذت تتكاثر في دوائر المفوضية الاقتصادية، تلك الدوائر التي كانت تستأثر بجميع موارد ومرافق هذه الجمهورية.

وكانت الحرب قد جعلت دوائر الاقتصاد والإعاشة في المفوضية مرتعاً جذاباً فتاناً للسمسرات ولعقد الصفقات، وبيع وشراء رخص الاستيراد والتصدير، فكان من الطبيعي أن يحوم حولها غربان المتاجرات من رجال الأعمال وأهل السياسة الاستغلاليين، يحاولون الكسب والنهب بأساليب أثبتوا منذ الساعة الأولى أنها ماهرة حاذقة، فكانت هكذا نوعاً من قيام مدرسة المستقبل التي أتقنت علم الكسب والنهب، والتي أخذ عنها المتاجرون والنهابون دروساً كبيرة، نفعتهم كثيراً في عهد الاستقلال، وجعلتهم من أمهر لصوص السرايات في العالم.

هذا الفن بلغ كثيراً من الإتقان في الدوائر الاقتصادية في المفوضية في أيام المسيو ركلو، الرجل الفهيم الذكي، الذي استطاع أن ينقذ القليل من كثيرٍ من الخيرات التي كانت تتدفق على تلك المصلحة...

وكان من الطبيعي أن نرى في وزارة الاقتصاد والإعاشة عندما استلمنا بعد الاستقلال مصلحتها من الفرنسيين، ورفعناها إلى وزارة، نفس الحرامية الكبار، والمجوِّعين المخيفين ولصوص السرايات، أولئك الذين تلقنوا في مدرسة الدوائر الاقتصادية الفرنسية تلك الدروس القيِّمة، تساعدهم على نجاح عملياتهم المشبوهة الجديدة، فَيُلبِسُونها بمهارة لباساً نزيهاً جميلاً، يجعل الناس يعتبرونها أعمالاً وطنية جليلة!

كل هذا سيأتي شرحه في هذه المذكرات عندما نصل إلى بناية الدعبول بعد الاستقلال، وعندما تصطف أمامنا في هذا الكتاب أسماء اللصوص الكبار من سارقين عاديين مبتذلين، ومن حرامية «جنتلمان» من الذين يديرون اليوم قفاهم للدولة الجديدة، ولا يسألون عن التهديدات والتهم التي يسمعونها من هنا وهناك، والتي تطالب بملاحقة جميع الذين استعملوا نفوذ الدولة للإثراء. فهم مرتاحون فوق هذه الثروات التي جمعوها، يجلسون عليها، ويعتبرون عن حق أنها حصن حصين يقيهم كل عدوان،

ويرددون في كل صباح ومساء القول المأثور: «المال مهما كان قذراً يجعل صاحبه نظيفاً وقريا».

على هذا ماذا يهمهم إذا قيل عنهم كل شيء سيئ ورذيل، طالما أن صناديقهم ملأى وبيوتهم عامرة؟

فأي متى لم يغسل المالُ العارَ؟ وأي متى لم ينقذ صاحبه من جميع السيئات والمفاسد وحتى الآثام؟ وَرُبَّ بناتٍ مُستهترات جَعَلَهُنَّ المالُ عذارى!.

- 46 -

«البكاء على باريس»

وصلنا في سياق حديثنا إلى بداية الحرب، وهو وقت كان الكثيرون منا يسمُّونه «غرفة الانتظار للاستقلال» أو مرحلة ما قبل الاستقلال.

وإذا ما استعرضنا هنا حوادث ذلك الوقت، نجد أن لا فضل على الاستقلال لأحد من الذين ادَّعُوا أنهم عملوا الاستقلال. فقد كان عندنا استقلاليون، ولكن لم يكن عندنا مجاهدون عاملون للاستقلال. وحتى ولو كانوا عاملين مجاهدين، لما كان بالحقيقة يطلع بيدهم شيء، فإنما الاستقلال كحسناءٍ مُستَعْبَدَةٍ صاحبها سيد سلطان قوي، لا يمكن إنقاذها منه إلا برجل أقوى منه!

لهذا يمكننا، دون أن نخطئ، القول بأن هتلر هو الذي عمل الاستقلال عندنا، وذلك عندما احتل باريس، وجاءت أخبار هذا الاحتلال إلينا بطرق شتى وبلهجات مختلفة وابتهج الكثيرون، وكادت البسطة تُزَيِّن وتقيم المهرجانات. وقامت المناحة أيضاً في كثير من القرى والدساكر في جبل لبنان، وطبعاً ليس عند المسلمين، ولا عند التجار الذين يريدونها دوماً حرباً عنيفة يستثمرونها.

هكذا بكى الباكون، وانتحب الناحبون على الأم الحنون، وأخذت تتحقق مبدئياً نظرية بشارة الخوري ورياض الصلح، القائلة منذ اليوم الأول لبداية القتال، إن هذه الحرب مهما كانت نتائجها، لابد أنها ستجعل العالم الدولي يعيد النظر في كيان البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي.

وأدرك السياسيون والنبهاء الفاهمون من اللبنانيين والسوريين - بالرغم عن محاولة الفرنسيين هنا المكابرة، والظهور بالسؤدد والجبروت - أن الفرنسيين لن يستطيعوا البقاء أسياداً في بلدان الشرق، وقد احتل الألمان بلادهم.

أدرك الناس جميعاً هذه الحقيقة، ما عدا الأستاذ اميل اده، وبعض أنصاره الذين وحدهم لم يسمعوا - أو أنهم عملوا أنفسهم أنهم لم يسمعوا - عندما اجتاح هتلر فرنسا، أجراس الحزن تدق فيها آذنة بنهاية الانتداب في سوريا ولبنان، وقائلة إن فرنسا لا يمكنها بعد هذا أن تبقى في بلدان الشرق.

وعلى هذا الأساس، وجد بشارة الخوري ورياض الصلح ورفاقهما جلياً الميدان مفتوحاً لمعركة الاستقلال، التي كانوا حتى ذلك الوقت يخوضونها من وراء الستار، متسلّحين بمعارضات وأسلحة معنوية، ومناورات سياسية محلية، مما لم يكن يشكّل أية قوة، طالما السنغاليون كانوا هنا في الثكنات وكانت المفوضية في السراي!

فلما شاهد الرجلان الكبيران الميدان مفتوحاً أمامهما فَوَلَجَاه. وكان احتلال الألمان لباريس فاتحة صفحة الأمجاد الوطنية العظيمة التي وصلا إليها بعد ذلك، والتي رافقت رياض الصلح إلى قبره، ثم انتزعتها جماعة الانقلاب الأخير من بشارة الخوري، وهو حي:

والآن، كيما نكون صريحين وجريئين، يجب أن نتساءل ونقول:

ـ لو بقي رياض الصلح حياً، هل كان جماعة الانقلاب استطاعوا أن ينزعوا عنه الرداء الأرجواني للأمجاد الوطنية، كما انتزعوا ذلك الرداء عن بشارة الخوري، وقد كان الرجلان الكبيران حتى قبل مصرع رياض الصلح بأيام فقط يديران هذه الدولة ويحملان مسؤولياتها، ويعملان سياستها وأعمالها، ولم يكن باقي السياسيين فيها سوى جُلّاسٍ في القاطرة الثانية، وهما في صدر القاطرة الأولى؟

ويمكننا أن نتساءل أيضاً:

ـ هل لو بقي رياض الصلح حياً، فهل كان يترك لأي انقلاب يقع أنْ يجرف بشارة الخوري كما فعل؟ ألم نكن نسمعه دوماً يقول حتى في آخر أيامه بعد أن ترك الحكم وخاصم رئيس الجمهورية، ألم نكن نسمعه يقول عنه على طريقة قول المسيح عن المجدلية:

ـ هذا الرجل الكبير خدم كثيراً فيجب أن نغفر له كثيرا؟..

لهذا نعود ونتساءل: لو كان رياض الصلح بقي حياً، هل كان استطاع هؤلاء أن ينزعوا ذلك الرداء عنه، وعن بشارة الخوري أيضا؟

ثم: هل كان المعارضون أشركوا في اتهاماتهم الفظيعة رياض الصلح أيضاً، وهو الذي كان دوماً في الحكم ـ وهو الحكم الذي يسميه اليوم الانقلابيون «الحكم البائد الطاغي» ـ يحمل مسؤولياته ومسؤوليات الرئاسة بأجمعها بحرارة وشجاعة نادرتين؟

كل هذه أسئلة كبيرة جداً، جوابها عندنا في سياق هذه التذكارات التي ستستوعب كل شيء، والتي ستثبت أيضاً أن الحركة الانقلابية ضد بشارة الخوري كان موعدها الأول في صيف 1949، يوم اجتماع المعارضين الثوروي العنيف بصوفر تحت قيادة الوطني الكبير المغفور له عبد الحميد كرامه. ولكن رياض الصلح كان لا يزال يومذاك حياً وفي سؤدده وقوته، وكان خصوصاً يرفض مجاراة المعارضين في هجومهم وحملاتهم على رئاسة الجمهورية، لأنه كان يعتبر دوماً أن التجاوزات التي قامت في الدولة هي نتيجة طبيعية تأتي مع كل استقلال جديد في أية بلاد كانت.

لهذا، كان مثلنا ومثل الكثيرين غيرنا، يعتبر أن بشارة الخوري سَيُخَلَّد في الرئاسة مع أن الخلود لله وحده.

* * *

وكان من الطبيعي بعد دخول الألمان لباريس أن يعتبر الناس أن النتيجة الواقعية لذلك هي قرب فقدان فرنسا انتدابها أولاً في سوريا ولبنان، وإضعاف سيطرتها المطلقة ثانياً في إمبراطوريتها الاستعمارية، مما ولا شك يتفق حالاً مع فكرة السياسة العربية الواسعة الشاملة المتحمسة في بيروت.

وأخذ رياض الصلح مع بعض المغالين بالعروبة من أصحابه، يقودون هذه السياسة، يساعدهم ويشجعهم بوجه أولي التعاون الذي أخذوا يلاقونه عند الإنكليز، والتعاون الذي أخذ بيديه ممثلو الدولة العربية ببيروت، وَأَخَصُّهم ممثل العراق تحسين قدري، الذي كان يقوم لبلاده بدعاية وسيعة للصداقة التي تريدها للبنان. وكان من أكبر ظواهرها ونتائجها وقوف العراقيين في كل المناسبات، وعلى الأخص في المفاوضات العسكرية والدولية مع الحلفاء، بجانب اللبنانيين واستقلالهم.

وكانت ولا شك هنا الفرصة الأولية الواقعية التي انتهزها بشارة الخوري، ليفرض نفسه زعيماً سياسياً وقائداً واقعياً للتعاون اللبناني العربي، مما كان له شأن كبير عند العرب والمستعمرين، إذ أن صفة بشارة الخوري كزعيم ماروني كبير، يماشي ويريد تعاون لبنان مع العرب، قد أكسبت القضية قوة كبيرة عند الدول التي كانت الدعاية الفرنسية قد جعلتها تتصور أن لبنان أولاً ماروني، يجب أن يكون ذا طابع افرنسي، إذ ليس من ماروني كبير يريده عربياً، حتى ولا متعاوناً مع العرب!

وأخذت تقوم ظاهرات هنا وهناك في الأندية السياسية وحول القنصليات العربية، يظهر فيها مولد قضية جديدة رئيسية في لبنان، هي قضية عروبته التي كان رياض الصلح بوجه أولي يحمل رسالتها ثم جاء في ذلك الوقت بشارة الخوري يشاركه في حملها.

وكان على الأستاذ اده في هذه الحالة أن يقف في وجه هذه اليقظة العربية الجديدة، ويأخذ أكثر وأكثر جانب الفرنسيين، طالما أنه ظل يعتبرهم - رغم انكسارهم الحربي بفرنسا - القوة الوحيدة التي تنقذ لبنان مما كان يسمِّيه «طغيان البلدان العربية». وهذا الشيء كان هاجسه الأوحد، يقلق مضجعه.

على أن وجود الفرنسيين بالبلاد - بنظر المنطقيين من الناس - كان قد أصبح وجوداً مؤقتاً جداً، خصوصاً والفرنسيون هنا، بعد أن كابروا بضعة أسابيع بعد دخول الألمان لباريس، وتظاهروا بدوام السؤدد والجبروت، استضعفوا أخيراً أمام تشاؤم الأهلين، يحاولون عبثاً إخفاء وساوسهم وجهات ضعفهم ويأسهم، مما شجع الناس في البداية على إظهار استخفافهم بالانتداب، فاضطر الفرنسيون رويداً رويداً أن يتَّبعوا سياسة التقرُّب والتحبب من أهالي هذه البلاد - شأن كل الضعفاء الذين يرون أنفسهم فجأة أقوى من أسيادهم، فيستأسدون عليهم، ويجابهونهم وجهاً لوجه، ويتحدونهم، ويطالبونهم بالتخلي عن الامتيازات والصلاحيات التي لهم.

وأخذ المبادرة يومئذٍ سامي بك الصلح الزعيم السياسي المعروف.

أخذ المبادرة عندما طلع على باله - ذات مساء في اجتماع سياسي بمنزل قنصل العراق العام - فأخذ يطالب بالمصالح المشتركة التي في يد الافرنسيين، ويدعو هؤلاء لتسليمنا السراي الكبير التي كانت يومئذٍ مركز المفوضية السامية ومقر أركان حرب جيش الشرق، وهو يردد كلمته المشهورة بلهجته التركية: سراي كبير لنا، سراي كبير لنا!

وطبعاً، وقف الرجل الرابع ومعظم الدستوريين مع المطالبين بإعادة جميع الصلاحيات المحلية للبنانيين، وهي صلاحيات كان الفرنسيون قد استأثروا بها في مفوضيتهم السامية واشترك معهم بالمطالبة كبار «الناسيونالست» المسلمين اللبنانيين وأكثر عمال الإنكليز، ومنهم بعض اللبنانيين المارونيين الذين ينظرون إلى بعيد في السياسة، مما كان يجعلهم يؤمنون أن إنكلترا في النهاية هي التي ستفوز!

ولكن إذا كان اميل اده، في صراحته وطبيعته الجريئة التي لا يمكنها أن تخفي شيئاً، ظل كاشفاً عن وجهه في سياسته وفي تعاونه الكامل المطلق مع الفرنسيين، بالرغم من أنهم كانوا حينذاك قد أخذوا منه كل شيء، حتى رئاسته، فإن بشارة الخوري كان - كعادته في حالات مثل هذه - يضع قناعه التاريخي على وجهه، غير تارك لأحد مجالاً ليعرف خفاياه، فلا يظهر منه شيء يخونه في مساعيه وتدبيراته الخطرة في سبيل نجاح سياسته الاستقلالية التحريرية، وهكذا كان يحجب أعماله بستار كثيف عن أعين الفرنسيين وعمالهم وجواسيسهم.

وقيل يومئذٍ إن بشارة الخوري جبان، عندما جاء وقت الجهاد، وشاهده الناس يتوارى عن المسرح السياسي يتستَّر ويختفي ويلقي واجباته الوطنية من وراء الجدران، وكان فعلاً يفعل شيئاً من ذلك عندما شعر أن هناك بعض الخطر عليه.

ولكن الملاحظين النبهاء الأقوياء، كانوا يعرفون ما يعرفونه، ولهذا نتكلم نحن اليوم، ويتكلم اليوم خصوصاً مارون عرب المستشار الشرقي للسفارة الإنكليزية، ويقول للناس أية مفاوضات ومخابرات كانت تجري في الخفاء بين بشارة الخوري، القابع في بيته، الخائف المضطرب، كما كان أعداؤه يزعمون، وبين الحلفاء، وعلى أي أساس وطني حر كان يشتغل مع رفاقه، وفي رأسهم كميل شمعون طبعاً، الذي كان صلة الوصل الأفضل والأقوى بين «الناسيونالست» اللبنانيين وبين البريطانيين. وكان هؤلاء قد تعهدوا يومئذٍ أنهم هم الذين سيحققون لنا الاستقلال.

- 47 -

العرب في لبنان

قلنا أخذت الدعوات العربية تتسـع عندنا، وتـأخذ مكانتـها المرموقـة وتقـوم بظاهرات كبيرة تزيد من قوتها، وفيها الاستقبالات الكبرى في قنصليات مصر والسعودية، وعلى الأخص في المفوضية العراقية برأس بيروت، والعيد الرائع العظيم الذي أقامه رياض الصلح في بيته سنة 1940 لذكرى مولد ملك العراق، وصادف ذلك إبان حركة وثورة رشيد عالي الكيلاني في بغداد، وقد وجد رياض الصلح بذلك العيد المناسبة لقيام تظاهرات كبرى ضد الفرنسيين تأييداً للعرب وتقرُّباً منهم، وكان الكثيرون من الساسة المارونيين مثل اميل لحود وغيره قد جاؤوا من جبلهم يشتركون بتلك الحفلة العربية السياسية القحَّة ويُطيِّرون للملوك ورؤساء العرب تمنياتهم لإعلاء شأن العروبة، ولاستعداد لبنان للتعاون والاشتراك في سياسة عربية استقلالية قومية واحدة، مما كان معدوداً في ذلك الوقت خيانة عظمى ضد لبنان وضد الفرنسيين.

وكانت هنا تدبيرات ومشاهدات وطنية عربية متنوعة جعلت طبعاً جماعة الانعزاليين الاديين يُظهِرُون قلقهم وخوفهم على لبنانيتهم وانعزاليتهم من وراء هذه التظاهرات العربية في لبنان، التي لم يكن أحد يجسر على القيام بمثلها عندما كان الألمان لا يزالون ببرلين، وعندما كانت فرنسا حرة طليقة ودولة عظمى!

وقد كانت إذاعة برلين في مناسبة مثل هذه الظاهرات تُذكِّي هذه الدعاية العربية الكبرى بلبنان، وتزيد من حماسها، خصوصاً عندما كانت تذكر وعوداً قاطعة لهتلر بإقامة حلف عربي عظيم، يكون لبنان فيه دولة مستقلة، ولكن من أركانه!

وكانت هذه الوعود من الأسباب العديدة التي لا ترتاح لها كثيراً جماعة الانتهازيين اللبنانيين. وكانت تزيد في قلق الانعزاليين، لا سيما ووعود هتلر كانت تجد تقديراً كبيراً عند الناس، مما هو طبيعي في الوقت الذي كان فيه هتلر ينتقل من انتصار إلى انتصار.

- 48 -

زراعة الصوف في لبنان

وكان بديهياً في سوريا ولبنان، بعد احتلال الألمان لفرنسا، أن يحسب الناس حساب الأحداث المنتظرة، والتي أصبح من المحتم أن تقع. ولكن بانتظار ذلك كان بعض السياسيين اللبنانيين لا يزالون يعملون في السراي لخدمة الانتداب ولتأييده، مما كان يجعل لهم حظوة جديدة عند الفرنسيين الذين كانوا يومئذٍ بحاجة كبيرة لكل تأييد يأتيهم من الأهلين، مهما كان صغيراً، حتى أنهم كانوا يطلبونه من أي كان، ووصلوا لأن يعملوا مهرجاناً طويلاً عريضاً للأمير خليل أبي اللمع بمناسبة تصريح نشرته جريدة صغيرة تافهة، قال فيه إن لبنان يبقى مع فرنسا في السرَّاء والضرَّاء، ولن ينفصل عنها أبداً!.

قلنا، عمل الافرنسيون مهرجاناً للأمير خليل يومئذٍ في حين أنهم قبل ذلك، عندما كانوا في سؤودهم وجبروتهم، كانوا يهزأون منه ومن كل تصريح يقوله، وهو الرجل الطيب النبيل، ولكن الساذج جداً في السياسة، إنما المحب كثيراً للمعالي لدرجة جعلته يطالب اميل اده بإشراكه في حكومة جديدة كانت تتألف، وكان يهدده بقوله - الذي ذهب بعد ذلك محطاً للكلام عند الهازئين من الناس - إما بشارة. . إما وزارة!

يعني أو يعطيه وزارة، أو يمشي مع خصمه!

نعم، كان الأمير خليل محباً للمعالي ولكن حسن السريرة جداً، ومن بيت مجيد كان أمراؤه دوماً حكاماً في المتن. وكان غالباً ما تسبقه سذاجته فيقول أشياء مضحكة نوعاً ما، بالغ فيها خصومه الدستوريون، وفي رأسهم الشيخ فريد الخازن، حتى جعلوها لا تُصَدَّق - كقولهم مثلاً من أنه وقف ذات يوم أمام فلاحيه في مزرعته بجوار الجوز، يقول لهم: لماذا لا تزرعون الصوف أيضا؟

وكان في ذلك الوقت، بين المتعصبين الصميميين للفرنسيين، الشيخ توفيق عواد، يقف بجانبهم متحزباً عنيفاً. وكان حضرته - وعن عقيدة - من القلائل، بعد الأستاذ اده، الذين ظلوا حتى الأخير أمناء للفرنسيين أوفياء لهم، إذ أن أكثر

أصدقاء الفرنسيين غيرهم كانوا قد أداروا لهم ظهورهم، وأخذوا يشمتون بهم ويفتشون عن أسياد غيرهم لهم!

... تماماً كما نرى اليوم أكثر الذين عاشوا تحت شمس الرئيس السابق بشارة الخوري، هم الآن الأكثر ابتعاداً عنه من غيرهم، وأكثر تهجُّماً عليه من خصومه، يحاولون التقرب والاستظلال تحت رداء الرئيس الجديد.

وكان الشيخ توفيق عواد قد لعب دوراً كبيراً في حياة خير الدين الأحدب السياسية، ولعب دوراً كبيراً أيضاً في حياة البطريرك عريضة السياسية والمالية معاً، وهو الوحيد في هذا الشرق الذي استطاع بالحظوة التي كانت له عند غبطته، أن يعمل مال الكنيسة مالاً له، وجعل مئات ألوف البطريركية رأسمالاً لمتاجراته الخطرة، التي انتهت نهاية أفلسية سيئة جدا!

أمام هذه الأوضاع، ترك اميل اده رئاسة الجمهورية في نيسان سنة 1941.

وكان على الفرنسيين بعد أن ترك اده الرئاسة أن يجدوا خلفاً له.

كيف وأين؟

طبعاً لم يفتكروا مطلقاً ببشارة الخوري.

وكيف يفعلون والرجل أصبح معروفاً عندهم - كما كان شامبار يقوله لنا - بمثابة عَيْنِ «الدوننغ ستريت رقم 10» في لبنان.

أَوَلَمْ يكن بالإمكان استدعاء الأستاذ اميل اده عن جديد، بالرغم عن تصريحات الفرنسيين المتوالية التي كانت تقول في كل مناسبة إن اميل اده الصديق الأوفى الأمين والأقوى لفرنسا في هذه البلاد.

وأخذوا يستعرضون أسماء غير هؤلاء من كبار السياسيين، لعلهم ينتقون منهم الرجل الذي يمكنه أن يكون أولاً للفرنسيين، ثم يستطيع أن يرضي العدد الأكبر من الناس، في وقت أصبح رضا الناس عنهم ضرورياً جداً، إذ أنهم يحكمون عندنا بلاداً غريبة، بينما العدو يحكم بلادهم!

كما وأنه كان من الواجب أيضاً أن يكون الرجل الذي يفتشون عنه ليس له حزبية معروفة، لجعل خصومه يخلقون له المشاكل والمشاغب، إذ أن في ذلك الوضع

الحرج الذي كانت فرنسا والبلاد اللبنانية فيه، لا يجوز فتح المجال للحزبيات المحلية والمشاغبات السياسية تتصارع وتتذابح وتخلق الفوضى وتعبث بالأمن.

لهذا كان الفرنسيون يترددون في الانتقاء. وقد افتكروا بكثيرين، وقلَّبوا الحكاية على وجوه عديدة، حتى أنهم افتكروا برئيس لا بأس إذا كان غير ماروني...

افتكروا بسليم تقلا. ولكن سليم تقلا كان يد بشارة الخوري اليمنى، وكان من الصعب عليه أن يُطَلِّق حزبيته الدستورية. وكانوا يعتقدون أنه مع كل تعهداته التي قدمها لهم، لن يخفي شيئاً عن بشارة الخوري إذا صار رئيساً، ويكون ضمناً مربوطاً به يعمل سياسته.

وافتكروا بأبي شهلا بعد أن استأمنوا منه أنه لن يكون لا لاده ولا لبشارة الخوري. وكان عطوفته قد أعطاهم كما هو معروف فيه، جميع التعهدات والضمانات عن ذلك، ويومئذٍ قال بشارة الخوري عندما عرف بالمفاوضات القائمة بين الفرنسيين وبين حبيب أبو شهلا:

- قد يفعلون جيداً، إذ أن الصديق حبيب هو الوحيد اليوم في حذاقته «الميكافيلية»، الذي يستطيع أن يُوَفِّق بين سياسة التمسك بالبقاء التي للفرنسيين، وسياسة الجلاء التي تدفع إنكلترا بالوطنيين اللبنانيين إلى اتِّباعها.

ولكن رئاسة أبي شهلا لم تتم أيضاً، مع أنها كان بإمكانها أن تكون رئاسة جميلة ظريفة تعجب الناس، حتى أنها إذا أخطأت اغتفروا لها زلاتها، كما يغتفر العشاق للحسناء زلاتها أيضاً، إذ يكون جمالها شفيعاً لها!

وليس هناك من شيء يميز حبيب أبو شهلا عن المرأة الحسناء سوى ذلك الفارق الطبيعي المعروف. وأما من جميع الجهات الباقية فهو يشبهها تماماً في أهوائه وحيله وتقلباته وتبديل قمصانه وجواربه ويفعل ذلك بنباهة وذكاء، تجعل كل شيء يعمله ذا رداء جميل.

وقيل يومئذٍ بصدد التوجُّه نحو رئاسة أبي شهلا إنَّ البطريركية المارونية احتجَّت، وإنَّ الأستاذ اميل اده صديق الفرنسيين الدائم، وصديق أبي شهلا أيام الرئاسة، ولم يكن يعتبر أن أرثوذكسياً في البلاد من بعد الدباس، يمكنه أن يبقى مع فرنسا إلى النهاية، لا سيما وأبو شهلا كان قد اقترن - كما كان منتظراً منه أن يفعل كرجل سياسي بعيد

البصر، يراعي الظروف ويماشيها ـ بسياسة التعاون العربي الوسيع، وهي السياسة التي نبغ حضرته فيها بعد ذلك في أيام الاستقلال، وأصبح من قوادها الأولين.

قلنا إن الفرنسيين كانوا تكلموا أيضاً عن الأمير خليل أبي اللمع، ولكن حكاية زراعة الصوف المنسوبة إليه كانت من الأسباب العديدة والرئيسية لإبعاده!

ولولا القليل، لجاء الفرنسيون يومئذٍ في حيرتهم بتوفيق عواد للرئاسة، ولكن أيضاً حكاية تلك المئات من الألوف التي كان البطريرك يطالبه فيها، بعد أن كان إبنه البار والوسيط الأمين بينه وبين الفرنسيين. وقد كان هؤلاء يستخدمونه في كل مرة يريدون من البطريرك شيئاً، مما كان توفيق عواد يقضيه لهم مهما كان صعباً وعسيرا!

ولكن جميع هذه الفضائح لم تمنع الشيخ توفيق عواد أن يأتي بعد ذلك في عهد حاكمية أيوب ثابت المؤقتة سكرتيراً للدولة، ويقوم بوظيفة وزير الخارجية، حيث ذهب في سياسته الودية مع فرنسا، والعدائية مع غيرها، أمداً وسيعاً، جعل جميع دول الأرض خصوماً لنا!

وتوجهت الأنظار لوقت ما إلى الأستاذ العلاّمة المؤرخ المعروف جواد بولس الذي كان الفرنسيون يجدون فيه كل المزايا التي يطلبونها للرئاسة، صداقته مع المفوضية، مكانته المارونية القصيَّة في زغرتا، أدبه الحليم في اللغة الفرنسية، عدم تحزُّبه المحلي، ولكن كان هناك حميد بك فرنجية عقبة كأداء، لا يرضى بوجيه من زغرتا يتقدم عليه، وكان الفرنسيون يخشون حميد فرنجية ولا يريدون إغضابه، بل يعملون دوماً لاكتسابه.

* * *

وأخيراً وصل المطاف في تفتيش الفرنسيين عن رئيس جديد إلى الأستاذ ألفرد النقاش...

وللحقيقة، لم يكن في البلاد يومئذٍ مثل هذا الرجل الكبير بين الموارنة حيادياً لا حزبية له، والوحيد بين كبار رجالات هذه البلاد الذي أنقذ نفسه خلال العشر سنوات التي كانت قد مضت حينئذ على حياته السياسية من الانحياز لإحدى الجبهتين، اللتين كانتا قد شقَّتا البلاد إلى شقَّين: جبهة اده وجبهة بشارة الخوري.

والنقاش قضى حياته في القضاء نزيهاً أبيض الصفحات، وجاء الفرنسيون به للرئاسة في أيار 1941، صديقاً لفرنسا، ولكن غير مؤمن لدرجة إيمان الأستاذ اده في

بقائها قوية وجبارة، تستطيع أيضاً أن تفرض إلى النهاية انتدابها علينا، وأنها في هذه الحرب تبقى سالمة، ليس بمستعمراتها وببلاد المشرق المنتدبة عليها فقط، بل أيضاً ببلادها!

لهذا تسلَّم النقاش الرئاسة من هنا، وأخذ يعمل سياسة لبنانية محضة حالاً، بمعزل عن كل نزعة سياسية أجنبية. وكان يفعل ذلك، واضعاً أمام عينيه أن الفرنسيين لا يزالون في البلاد، وأنهم هم الذين عَيَّنُوه للرئاسة. على هذا يجب عليه أن يداري مصالحهم، وأن يحاول بكل الطرق التوفيق بين مصالحهم وبين المصالح الوطنية، وأيضاً بين بقائهم وبين ازدياد الروح الاستقلالية عند «الناسيونالست» اللبنانيين كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله!

وكان الانشقاق العام القائم بفرنسا بين الفيشيين والديغوليين قد وصل لهذه البلاد، فانْشَقَّ الفرنسيون هنا على أنفسهم... أيضا.

وهكذا، بعد أن كانت المفوضية السامية تهتم سياسياً بإيجاد أصدقاء بين الأهلين، وبرَدِّ غائلة «الناسيونالست» اللبنانيين العرب عنها أخذت أيضاً تهتم وبنوع خاص، بعدم وصول الفرنسيين أنفسهم هنا إلى التشابك والتذابح!

وكان قد ظهر ديغول وجيوشه في صحراء ليبيا، ومقره العام بلندن، وعماله في فلسطين على الحدود اللبنانية.

وهذا ما جعل بالأحرى وبطريقة خاصة، الرئيس الجديد الأستاذ نقاش يعمل في البلاد سياسة لبنانية، تفترض أن عليها وصاية فرنسية فقط، لا فيشية ولا ديغولية، مما كان في غاية الحكمة ومما جعله لا يتورط مع الفيشيين مطلقاً عندما قامت الحرب بينهم وبين الحلفاء. وأخذ الأستاذ نقاش يعمل في البلاد سياسة لبنانية، تفترض أن عليها وصاية الحلفاء بأجمعهم. وكان موقفه جريئاً جداً عندما أخذ الإنكليز يضربون بيروت جواً وجنود فيشي فيها يقابلونها بالمثل براً، فتقدَّم حضرته بمذكِّرته الشجاعة المعروفة، التي لم يكن أحد ينتظر أن تصدر عنه، والتي غامر فيها بحياته، وتعرض من ورائها لحبل المشنقة؛ وقد طالب في هذه المذكرة أن يعلن الفرنسيون بيروت مدينةً مفتوحةً، وأن لبنان لا شأن له بالحرب الواقعة في أراضيه، وأنه لا يأخذ جانب أحد من الجانبين.

وأخذ الناس عندما عرفوا بهذه المذكرة ينتظرون في كل دقيقة من الجنرال دانز القائد العام والمفوض السامي الشديد العنيد، القبض على النقاش وإحالته للمحاكم العسكرية الفرنسية، أو على الأقل فصله من الرئاسة واعتقاله.

ولكننا كنا مغشوشين كثيراً بحقيقة هذا الرجل، الجنرال دانز الذي كنا نحسبه ظالماً غداراً، فإذا به يثبت في هذه المناسبة نبالة وإخلاص القائد الصادق، الذي يحترم حريات وحقوق الغير، ولو كان في ذلك الاعتداء على حقوقه كقائد عام وكحاكم مطلق في هذه البلاد.

وهو على هذا الأساس استكبر بالرئيس نقاش هذه الجرأة، وضرب بأقوال مستشاريه السياسيين والعسكريين عرض الحائط. وقد كانوا أخذوا يطالبونه برأس النقاش، واكتفى فقط بأن أظهر غضبه عليه وامتنع عن الجواب على المذكرة.

* * *

قلنا، كان بشارة الخوري وصحبه يعرفون، قبل ذلك بوقت طويل، ما كان يتدبره الإنكليز من مهاجمة سوريا ولبنان، لهذا رأيناهم يتوارون عن الميدان السياسي خلال الأسابيع العديدة التي سبقت هجوم الحلفاء على الجنوب اللبناني والحدود السورية في حزيران 1941، فجاز عند الملاحظين عندئذٍ الاعتبار أن هناك حلقة مفقودة في نشاط بشارة الخوري أثناء اعتزاله السياسي القصير الأمد جداً وستر وجهه - الذي كان قد غطاه بقناعه المعروف للظروف القاهرة وذلك لوقت ما.

وحالاً عندما انتهت الحرب باحتلال الحلفاء للبلاد، كشف بشارة الخوري عن جبينه، ورفع قناعه المذكور ونزل مع صحبه إلى الميدان السياسي يساندهم في البداية ولكن بطريقة كتومة - الإنكليز إلى النهاية وعلى طول، والديغوليون لوقت قصير، أي إلى الوقت الذي تبلورت فيه سياسة بشارة الخوري وصحبه الاستقلالية الناجزة ومطالبتهم الصريحة بإخراج فرنسا من هذه البلاد.

- 49 -

السياسة السعودية تظهر في لبنان

لقد قاربنا من نهاية هذا الكتاب الأول، ولم نَخْشَ أن يتعب الناس من قراءتنا، إذ أننا نجيء على ذكر الأحداث والحوادث بطريقة مقتضبة ولطيفة وجذابة يجب أن تكون جعلتهم يستزيدوننا من مثل هذه المذكرات.

وقد حاولنا أن نضع في هذا الحديث الكثير من ذكرياتنا السياسية الشجية الطريفة المستغربة عن أيام الانتداب منذ سنة 1918، إلى اليوم الذي قصفت فيه طيارات الإنكليز بقنابلها العاصمة اللبنانية، معلنة باسم فرنسا الديغولية استقلال سوريا ولبنان، وانتهاء الانتداب الفرنسي فيه، مما جعلنا نقيم تظاهرات خطابية ومهرجانية للاستقلال، وللتحالف مع العراق الدولة العربية القوية التي هَبَّتْ يومئذٍ بنوع خاص لمساعدة لبنان في حركته التحريرية. وقد كانت بوادر نهضتنا الاستقلالية بدأت تظهر بدون خوف ولا وجل متحدية بشجاعة الفرنسيين الحاكمين بالبلاد حكماً عسكريا.

وطبعاً وجدت السياسة السعودية التي كانت على تزاحم متتابع مع العراق أن تكون حاضرة أيضاً ببيروت لئلا تنفرد السياسة العراقية في النهضة التحريرية القائمة بلبنان، والتي أخذت جميع الظواهر تقول بفوزها القريب جداً، لا سيما وهي قد تخلق للعراق اتصالاً سياسياً مع لبنان مما يخالف سياسة ابن السعود الأساسية، التي اشتغلت دوماً لمنع كل تقارب بين العراقيين والسوريين والأردنيين دون اتصالهم ووحدتهم، وعلى الأخص اتصالهم ووحدة لبنان معهم.

وأخذت السياسة السعودية تشتغل لكسب الزعماء ببيروت، وذلك على منوال ما كانت دولة العراق قد فعلته وأكثر، وأخذ الأمراء السعوديون لأول مرة ينزلون في هذه البلاد ويحضرون مهرجاناتها السياسية ويظهرون من ضروب السخاء، ما يكون يوماً ثروة كبرى للبنان.

ولا شك أنه كان من الطبيعي، طالما أن خصوم الأستاذ اده كانوا قد اتخذوا القنصلية العراقية ببيروت محجّة لهم وملتقى لوطنيتهم وحركتهم التحريرية، أن تكون

السياسة السعودية صائبة الفكر، عارفة للواقع لما بدأت سياستها الجديدة بلبنان في محاولتها جعل الأستاذ اده يكون من زبائنها الأولين، مما قد يتنافى مع نزعته نوعاً ما نحو الانتداب، ولكن مما لا يتنافى مع مبادئه السياسية اللبنانية الانعزالية، إذ أن السياسة السعودية بطبيعة الحال تريد لبنان مستقلاً استقلالاً تاماً عن سوريا والبلدان العربية الأخرى، مما يتوافق مع سياستها العربية العامة في محاربة كل اتحاد يقوم على حدودها، ويستطيع به خصومها الهاشميون أو السوريون التوسع والزيادة في القوة.

وجدت مفاوضة السعوديين في البداية مع الأستاذ اده ترحاباً طبعاً - وكما كان منتظراً، خابر حضرته الفرنسيين بما يعرضه السعوديون عليه وأَقَرَّ هؤلاء الرأي، وقالوا للأستاذ اده بوجوب الذهاب في تلك المفاوضات مع السعوديين إلى أقصى حد، ولا سيما وهم يزيدون في شقة التفرقة بين السعوديين وبين الهاشميين، مما كانت فرنسا تشتغل له وتريده دوماً خوفاً على انتدابها في سوريا ولبنان من وحدة عربية عسكرية وسياسية متحدة!

ولكن كان بشارة الخوري وكان رياض الصلح بالمرصاد يستكشفان الخفايا، ولا تفوتهما بادرة. وكان من المستحيل أو من الصعب جداً محاولة اغتياب هذين الرجلين، وجعل مسعى كهذا يخفى عليهما، لذلك أسرع كل منهما لوحده - إذ أن كلاً منهما كان حتى ذلك الوقت يشتغل لنفسه ومنفرداً، ولربما دون أن يكون يعرف ما يعمله الآخر.

قلنا، أسرع كل منهما إلى قطع السبيل على السعوديين وإلى استلامهم قبل أن يصلوا مع الأستاذ اده إلى أي اتفاق.

وطبعاً، كان ولا بد لبشارة الخوري ورياض الصلح أن يتلاقيا أخيراً في سياستهما المتجانسة، وفي هذا التلاقي بدأ التعاون السياسي الخارجي بينهما في البداية، إلى أن جاء الوقت الذي قام فيه ذلك الكامل التعاون المحلي، الذي جعلهما يحكمان في هذا البلد مدة ست سنوات ونيف، ذلك الحكم الذي كان يُحَطِّم كُلَّ من كان يقف بوجهه تحطيماً كاملا.

وفي ذلك التلاقي بالسياستين، صار رياض الصلح وبشارة الخوري وصحبهما سعوديين أكثر من عراقيين!

وظل اميل اده مع فرنسا وحده.

وظلت فرنسا هنا لاميل اده وحده!

إذ يجب القول إن السياسة العربية، سعودية كانت أو عراقية، التي ظهرت في البلاد عندئذٍ، بعد أن أصبح الانتداب هزيلاً لدرجة لا يستطيع الوقوف بوجهها، وبعد أن صار للقنصل العراقي أو السعودي أو المصري دولة وسلطة ضمن هذه الجمهورية.

نعم هذه السياسة العربية أزعجت الانعزاليين في أوساطهم وأديرتهم، وأخذوا ينظرون إلى كل ماروني يشتغل بالقضية العربية نظرتهم إلى رجل يخرج عليهم وينفصل عنهم، مما أدى هكذا إلى فتح هُوَّةٍ سحيقة بين الاديين والأديرة التي تساندهم طبعاً، وبين بشارة الخوري وجماعة الدستوريين، العاملين على مَدِّ جسر بين لبنان وبين العرب - إنما ليكون جسراً فقط، لا قواعد متينة له، يمكن هدمه عند الحاجة بمجرَّدِ أي اصطدام!.

. 50 .

عندما تساوى السلاح بين البطلين

في ذلك الوقت، وقد خرج اده من الرئاسة، وعاد إلى الحياة العادية، اعتبر الناس أن السلاح تساوى بينه وبين الشيخ بشارة الخوري، فلم يعد اده يسيطر على السراي وموظفيها وجنودها، ويستخدمهم بوجه خصمه.

ولكن الشيخ بشارة الخوري كان من جهة أخرى قد أخذ يزداد قوة وحصانة، بقدر ما كان يزداد حزبه عدداً، وبقدر ما أخذ المليونيرون يزدادون أيضاً حوله، وهم الذين كانوا قد راهنوا عليه، وربطوا مصيرهم بمصيره.

فإنما هنا يجب أن نأتي للقرَّاء بهذه الملاحظة الحقَّة الصادقة، ونقول بصراحة إن عدداً من كبار رجال المال والأعمال الذين كانوا يختلطون بالحياة العامة، وهم مضطرون إلى ذلك بسبب ارتباط أعمالهم نوعاً ما بالحكومة، وهم يطمعون في مضاعفة ثرواتهم، أحاطوا ببشارة الخوري، الشمس الطالعة إحاطة السوار بالمعصم، وجعلوه بمثابة فرس رهان، يقامرون عليها متوخين فوزها والربح الكثير من وراء نفوذها وقوتها.

وكان عدا عن بنك فرعون وشيحا، جماعة الكتانيين والشقيريين والفتال وغيرهم، قد كبروا جداً في الأعمال، وسيطروا عليها في البلد، وكانت مواثيق أخرى أيضاً اجتماعية وعائلية وحزبية أخذت تربط بعضهم ببشارة الخوري، مما خلق له هكذا قوة من رجال الأعمال والمال يمكن عن طريق تأييدها له أن توصله إلى أشياء كثيرة جميلة وعالية.

وكان على الأخص الشيخ فؤاد الخوري قد سجَّل لنفسه صفحة كبيرة في عالم الأشغال، فصار من أقطابها الأولين. يشرف على أكبر محلات بيع مواد البناء في البلاد، وأصبح أيضاً مساهماً محترماً في شركة ترابة شكا.

وكان عدا عن محبته الأخوية، معجباً جداً بشقيقه الشيخ بشارة الخوري، يُقدِّره، فكان من الطبيعي أن يضع تحت إمرته كل الأموال التي يحتاجها لحياته السياسية وذلك بيد مبسوطة.

فإنما عندما ظهر بشارة الخوري في الميدان السياسي لم يكن ينقصه غير السعة، كيما تمتد سيطرته ويقوى شأنه، إذ أن الله كان قد حباه بنباهة كبرى وقوة عارضة ممتازة وسعة اطلاع وحنكة، وتراه بعد ذلك يجد يومذاك هؤلاء المليونيريين بجانبه، قريبين جداً منه، كما وأنه من جاب آخر وجد وراء نفوذه السياسي الشركات والمصارف والبيوتات التجارية الكبرى المعروفة، تتخذه وكيلاً محامياً عنها، ومنها بنوع خاص وكبير بنك مصر وسوريا ولبنان، وشركة ترابة شكا، وهي شركة كان له ولشقيقه بطريقة معلومة أولية الفضل الأكبر في إنقاذها من أيدي اليهود الذين كانوا قد وضعوا عليها «أوبسيون»، أي نوعاً من الأفضلية لهم في شرائها، وذلك عندما أراد البطريرك بيعها وقت اشتداد الأزمة فيها ورزحت تحت أثقال الديون، وكادت تعلن إفلاسها.

ولكن كان في ذلك الزمان رجل أعمال اتَّصَفَ بالبصيرة الوقَّادة والخبرة التجارية الكاملة، والوطنية الوديعة الساكتة، كان هناك درويش الحداد الذي أسرع لتدبير هيئة مالية سويسرية كبرى تخصصت باستثمار شركات الترابة في العالم، وأخذت صيتاً عالياً في الاستقامة وجميل المعاملة، فجاء بها درويش الحداد إلى لبنان تشتري شركة شكا عن طريق الشيخ بشارة الخوري كوكيل محام، وعن طريق الشيخ فؤاد الخوري كأحد المساهمين بمحلات درويش الحداد.

وتكاتف الثلاثة الكبار وتضامنوا، وظلوا على البطريركية يظهرون لها الأضرار التي تنزل بالبلاد إذا تنازلت عن شركة الترابة لليهود، وجعلوا من جانب آخر الهيئة السويسرية تتقدم لغبطته بعروض موافقة جداً مما جعل البطريرك يترك اليهود ويبيع السويسريين!.

وكانت يومذاك بداية حرب بشارة الخوري لليهود والصهاينة، وهي السياسة التي تابعها بعد ذلك بكل إيمان وبشدة وعنف، وكان أيضاً شراء شركة شكا من قبل الهيئة السويسرية، فاتحة ازدهار البناء في لبنان لدرجة متناهية، إذ لولا ترابة شكا لما كانت هذه النهضة الكبرى التي جعلت عدد البنايات والمساكن في هذه البلاد يتضاعف. وكنا نريد أن نتكلم بإسهاب عن هذه الشركة، وذلك لأنها كانت نقطة الانطلاق في الحملات والتهجُّمات التي قامت على بشارة الخوري من جانب خصومه، وقد جعلوها العلام الذي

يرمونه بسهامهم مثيرين فضائح أكثرها كاذبة حول حماية مزعومة يفرضها بشارة الخوري على تلك الشركة، مما كان ملفقاً ومختلقاً، ومما كذّبته الأيام، إذ أنه لم يأت وقت من الأوقات جعلت فيه الدولة استيراد الترابة الأجنبية ممنوعاً أو أنها وضعت عليه رسوماً جمركية كبيرة، كيما لا يعود الناس يستوردونه، وكيما يخلو الجو لترابة شكا تتحكم بالبلاد، ويمكن بالمناسبة القول إن جميع الحملات التي قامت على الشركة كان المقصود منها بالأكثر النيل من بشارة الخوري، إذ أنها كانت نقطة حساسة في حياته السياسية.

* * *

وقد أردنا هنا أن نثبت أن بشارة الخوري وأخاه قد استطاعا عن طريق درويش الحداد، الذي زَوَّجَ حينذاك ابنته الكاملة الحشمة والشرف والوريثة الكبرى إلى الشيخ فؤاد الخوري - أردنا أن نثبت بالوقائع التاريخية، أن هؤلاء الثلاثة الكبار أنقذوا شركة شكا من اليهود مما يجب أن يعرفه الناس، ومما هو خدعة وطنية عظيمة كبرى، ثم وضعوا الشركة بيد هيئة سويسرية ما رأينا منها غير الحسن وجميل الاستعداد لخدمة البلد، وقد تفرَّدت هذه الشركة خصوصاً بمعاملة عمالها بطريقة جعلت هؤلاء يضمنون لأنفسهم السكن والغذاء والكساء على أفضل سبيل ووجه.

* * *

ولكن لنَعُد إلى ما كنا نريد قوله سابقا.

قلنا إن بشارة الخوري وجد نفسه قبل أشهر من بداية الحرب الأخيرة قد مشى شوطاً بعيداً في عالم السياسة، يجعله ينظر إلى رئاسة الجمهورية نظرة الرجل الذي سيأتي دوره إليها قريبا.

وهذا الاعتداد بالنفس دفع به إلى الأمام كثيراً، بعد أن خلق له جمهرة من أهل السياسة وأهل المال والأعمال كقاعدة سياسية مادية قوية جداً يرتكز عليها، وقد كان بحاجة لها ويتمناها في وقت فتحت أبواب السياسة ذراعيها لاحتضانه، ولما كان يدعوه لأن يكرِّس عقله وقلبه لها، ولكنه في الضائقة المالية التي كان يعانيها أولاً لم يكن يستطيع أن يصرف جميع جهوده لذلك الهدف، حتى جاء هؤلاء المضاربون المراهنون عليه، فأمن نوعاً ما أخطار تلك الضائقة، وأخذ يخرج من الحذر الذي كان يساوره، وحمل شجاعته بيديه، ونادى: إلى الحرب!

وكان بشارة الخوري قد مشى بعيداً في سياسته العربية على أساس أن يكون لبنان مستقلاً، ولكنْ متعاوناً إلى أقصى حد مع العرب، مما لم يكن الفرنسيون واللبنانيون المتمشُّون على سياسة الانتداب يقولونه أو يريدون استماعه.

وهذا القول لبشارة الخوري - ولربما كان نوعاً من الأساليب السياسية التي اعتاد عليها لاكتساب الأنصار - هو الذي جعل المسلمين تقريباً في كل مكان يحبِّذونه ويصبحون قريبين منه، ويريدون تأييده.

وكان رياض الصلح يقول:

- أنا لست متعصباً، ولكن إذا كان لنا أن نتحالف مع الموارنة، فالتحالف مع بشارة الخوري فيه شيء من خدمة العروبة والإسلام.

ومع ذلك لم يكن رياض الصلح قد تحالف حتى ذلك اليوم مع بشارة. وليست فقط تظاهرات الشيخ بشارة الخوري للعروبة، وقوله بالتعاون اللبناني العربي الواسع - ليس هذا فقط - جعل المسلمين يحبِّذونه ويريدون مماشاته، بل أيضاً كانت هناك ميزة استحبَّها المسلمون فيه وجعلته قريباً منهم.

كان بشارة الخوري يخطب ويتكلم العربية ببلاغة ممتازة، ويستشهد بالشعر وبأقوال كبار الكتاب، ويحفظ آيات القرآن بفصاحة كبرى، ولم يكن متفرنجاً شأن الأستاذ اميل اده، الذي كان كل شيء فيه وفي حديثه دوماً يجعل الناس يعتبرونه باريسياً محضا!

هذه الأشياء لها وزن كبير عند المسلمين، وقد جعلتهم معجبين بالشيخ بشارة الخوري، يتأسفون علناً أنه ليس مسلماً، ولم يكن خصمه يعرف العربي إلا القليل جداً، ولم يكن حافظاً للآيات الكريمة ولا للحديث الشريف، مما كان لحفظها ولترديدها عند بشارة الخوري شأن سياسي إسلامي كبير.

وهكذا أصبح بشارة الخوري بنظر الفرنسيين بعد ظهوره بمظهر الاستقلالي اللبناني العربي، رجلاً عاصياً متمرداً على تقاليد الأم الحنون.

* * *

قلنا، كان رياض الصلح من النواحي الوطنية والعربية يقول ما يقوله بشارة الخوري تماماً، مما كان يجب أن يدعوه للتحالف معه، وللابتعاد عن خصمه، ومع ذلك

لم يكن قد فعل شيئاً حتى ذلك الحين بل كان بالأحرى صديق الأستاذ اده، دون أن يشاركه بآرائه السياسية الانعزالية.

وعندما سُئِل رياض الصلح بعد الجلاء، عقب أن تحالف ذلك التحالف القوي المتين مع بشارة الخوري - عندما سُئِل لماذا كان يتباعد عنه في الوقت الذي كان فيه يشتغل بشارة الخوري للاستقلال وللتعاون مع العرب، ولجلاء الأجنبي، وهي الأشياء التي كان رياض الصلح يجاهد لأجلها، قال بظرفه المشهور ومجونه السياسي المفاجئ:

- كيف أستطيع إقناع اده بأن ينحاز إلى مبادئنا، لو تظاهرت بالتعاون مع بشارة الخوري، وكل منهما لا يقول قول الآخر، مهما كان القول منصفاً وعادلاً؟ وأية طريق مشى عليها اده ولم يمش بشارة الخوري بطريق غيرها؟ فهما يتعاكسان دوماً في كل الأشياء حتى أنه لو كان بشارة الخوري مع الفرنسيين لكان اده - لربما - أخذ مكانه مع العرب.

فإنما اده والخوري اختلفا على كل شيء واتفقا على شيء واحد: وهو اشتغال كل منهما لإقصاء وإبعاد الآخر عن كرسي الرئاسة!.

- 51 -

برافو كومندنتي

رأينا في تلك الأيام، بعد أن عقد الفرنسيون الهدنة مع دول المحور سلسلة لا عداد لها من كبار رجالات هذه البلاد الشجعان الصريحين في المناسبة، يَصْطَفُّون ساعات طويلة على مقاعد لوكندة «المتروبول» ببيروت، وكانت قد استرجعت بعد انتصار الألمان وانحلال دولة الانتداب اسمها الألماني القديم: «دويتشرهوف» أي اللوكندة الجرمانية، وهو اسم كانت هذه اللوكندة خلال الأربعين سنة الأخيرة تضعه على الرف في المرات العديدة التي كان الألمان يفشلون فيها في حروبهم أو سياستهم، ثم تعود تضعه في الواجهة في كل مرة كان الألمان يستظهرون فيها.

قلنا، رأينا ذوات البلاد يصطفون هناك بعد هدنة فرنسا مع هتلر والطليان، ينتظر كل منهم دوره ليقابل السفير الألماني، فون هنتش مبعوث هتلر السامي إلى هذه البلاد، يستقبلهم على باب قاعة الانتظار صديقنا القديم المرحوم رولاند إيلندر الملقب بأبي علي (وقد مات سنة 1948) وكان أهالي بيروت والجبال يعرفونه قبل ذلك تاجراً ألمانياً وديعاً لطيف المعشر، حسن المعاملة، قريباً للأهلين لدرجة أنه زوَّج ابنتيه لمواطنَيْن كريمَيْن أحدهما الصحفي المعروف الأستاذ عفيف الطيبي.

وكان محبوباً من الناس، وذلك من جرَّاء تصادقه مع الأهلين ومعرفته لغة البلاد، وتقرُّبه لقبضايات المسلمين الذين كان له بينهم أصدقاء عديدون. وهم الذين أطلقوا عليه لقب أبي علي تحبباً وملاطفة.

وفجأة عندما وصل الألمان لباريس، وعقدوا الهدنة يطبقونها في كل مكان فيه جندي افرنسي، وطبعاً في سوريا ولبنان، ظهر أبو علي على المسرح كضابط اتصال بين السلطات الألمانية وذوات البلاد في سوريا ولبنان وكحارس لرأس السفير وقائد لحرسه الخاص العلني والسري.

وأخذ أبو علي يحكم بأمره ويستطيع لو شاء أن يرسل للحبس وللمشنقة أَيَّهُمْ يريد من الرجال. ولكن صداقته مع الناس جعلته ينقذ الكثيرين من الحبس والاعتقال ممن كان الألمان يشتبهون بهم.

ولا نرى هنا موجباً أن نذكر أسماء، ليس الناس العاديين، بل أيضاً الأبطال الوطنيين الذين كنا نراهم قد أخذوا يحيطون بأبي علي بذلّة وتصاغر طالبين وساطته ورضاه، مكتفين بابتسامة منه خاطبين وده، يسمعون لأحاديثه الفكهة باحترام واعتبار، ولا سيما وقد كان بينهم بنوع خاص أولئك الذين كانوا قبل الهدنة ينادون بسقوط ألمانيا وهتلر.

كانت الحال هكذا مع أبي علي، فكيف مع فون هنتش سفير هتلر الذي كان أبو علي يحرس رأسه لا يدخل أحد عليه إلا بأمره وبموافقته.

ولم يكن يتراكض إلى فون هنتش فقط أصحاب الشجاعة أولئك الذين كنا نشاهدهم في وضح النهار يصطفون بلوكندة «دويتشر هوف» برعاية ومراقبة الهر إيلندر، بل أيضاً كنا نرى بعض كبار الزعماء اللبنانيين الذين كانوا يفضّلون التستّر، لربما عن خوف وحذر، حاسبين حساب المفاجآت التي قد تجيء - يأتون السفير الألماني في ظلام الليل، يفاوضون ويؤيدون ويؤكدون ولاءهم للفهرر، وأكثرهم مخلص بقوله وتأكيده، وعلى الأخص المسلمون منهم.

وكان هناك أيضاً زعماء وسياسيون ومطارين موارنة ممن عرفناهم قبل ذلك متشيّعين متعصبين للإنكليز والفرنسيين، يذهبون للسفير الألماني يقيدون أسماءهم عنده في سجل الموالين للنازية وهتلر، وقد كان فون هنتش المندوب فوق العادة، جاء إلى هذه البلاد بعد أن مهد له الطريق الممثل الألماني الاقتصادي الهر روزر، الذي كانت برلين عَيَّنَتْهُ بعد الهدنة قنصلاً عاماً لألمانيا عندنا.

وبعد مضي بضعة أسابيع على وصول فون هنتش إلى هذه البلاد، أكمل الاتصال بالشخصيات العربية والهيئات السياسية الوطنية، ورجال الدين المسلمين، وكان على الأخص يتبع بانتباه كبير أعمال الفوضية العراقية في هذه البلاد، ومهمته الأساسية مراقبة أهواء العراق وإنتفاضته على الإنكليز، وتدبير الثورة فيه على هؤلاء الأخيرين. وكان على فون هنتش مهمة كبرى في تدبير الثورة التي قامت بعد ذلك على الإنكليز بالعراق في أيام رشيد عالي الكيلاني.

وكانت هذه المهمة دقيقة جداً تدبّرها فون هنتش ببراعة مدهشة، وكان عليه أيضاً القيام بمهمة تكذيب الدعاية التي أخذت تقوم بها - على مدى واسع - لجنة الهدنة

الطليانية التي جاءت بيروت قبل ذلك. وكانت قد وصلت الأخبار لبرلين أن تلك اللجنة الإيطالية العسكرية التي كانت مهمتها الرسمية تطبيق شروط الهدنة في جيش الشرق الفرنسي ونزلت في لوكندة النورماندي، ولكنها ما كادت تستقر هناك حتى فتحت أبوابها تستقبل الناس من محبِّذين ومتودِّدين وملاحظين، وأخذ يهبط عليها من جبل لبنان رهابين الأديرة والصوامع ويجيئها من القرى السحيقة والقريبة العدد الأوفر من النصارى، يتظاهرون لها ويؤيدونها باعتبار أن روما مركز الكثلكة وعاصمة المسيحية، وباعتبار أن إيطاليا المنتصرة هي بعد فرنسا صديقة وحامية النصارى في الشرق!

وكانت دعاية موسوليني في هذه البلاد قبل الحرب عملت الكثير وأخذت مكانة مرموقة، وأصبح كثيرون هنا يتغنّون بما كانوا يرونه من عزها، وللمجالي القوية التي كانت تظهر فيها بقوة إيطاليا وجبروتها، حتى أن عدداً كبيراً من زبائن فرنسا أداروا وجوههم نحوها!

قلنا، وصلت الأخبار إلى برلين أن اللجنة الإيطالية لتطبيق الهدنة تقوم عند الناس - وعلى الأخص عند الموارنة ورهابينهم - بدعوة كبرى لتحبيذ انتداب إيطالي بلبنان، يخلف الانتداب الفرنسي، تطبيقاً لشعار موسوليني المشهور، وهو الشعار الذي كان قد وضعه قاعدة لسياسته الاستعمارية على ضفاف البحر المتوسط عامة، والقائل: «البحر المتوسط لنا».

وأخذ الدعاة يفدون على النورماندي، وبأجمعهم من المسيحيين، ولم نلاحظ أننا شاهدنا مسلماً أو درزياً واحداً دخل تلك اللوكندة يومئذ وقابل أو أظهر رغبته بمقابلة القومسيون الطلياني، بل كنا نرى أن المسلمين والدروز يتحاشون حتى الدخول للنورماندي، مع أنه فندق عام يدخله جميع الناس!

وأخذ السفير الألماني منذ ساعة وصوله وبعد أن فتح بابه على مصراعيه، يدحض بطرق عديدة الدعاية الإيطالية، بعبارات صاخبة يزدري فيها بتلك الدعاية، دون أن يداري خاطر القومسيون الإيطالي ولا عواطف الطليان!

وأخذ يؤكد لجميع زائريه أن الفوهرر يريد استقلالاً كاملاً قاطعاً للدول العربية، لا انتداب ولا حماية فيه، وأن الدعاية الإيطالية ولو كانت آتية من هيئة رسمية حليفة لألمانيا فالفوهرر لا يقرُّها ولا يرضى بها.

وقيلت يومئذٍ حول هذا أشياء كثيرة لها شأنها، وقد يكون من الواجب ذكرها، مع الاستناد على وثائق مصلحة الاستخبارات الفرنسية في صددها.

قيل إن القومسيون الإيطالي اتصل بالأستاذ اميل اده اتصالات عديدة، واقترح عليه التعاون مع إيطاليا، ففي حالة ذهاب فرنسا من البلاد تأخذ إيطاليا مكانها.

كنا نعرف هذه الأشياء من مكتب الاستعلامات الفرنسي، الذي كان المسيو شامبار صديقنا الأكبر من أركانه، وكثيراً ما كان يطلعنا على ما كان يصل إليه من أخبار هامة.

والمعلومات التي كانت عند ذلك المكتب بهذا الصدد تقول أيضاً إن الأستاذ اميل اده قال للطليان إنه في حالة ذهاب فرنسا من هذه البلاد يريد لبنان مستقلاً عن البلدان العربية ليس عليه انتداب ولا استعمار، بل تكون له ضمانة دولية، يُفَضِّل أن تكون ضمانة إيطالية، وليس ألمانية. فأهالي لبنان النصارى لا يقبلون بوجه من الوجوه أية حماية أو نفوذ ألماني في بلادهم.

وهنا نرجع إلى التعاكس والتضادّ بين الطائفتين الكبيرتين في البلاد، فإنما لو كان المسلمون أظهروا تعلُّقاً وصداقة لإيطاليا لأخذ النصارى مكانهم ولهتفوا في كل حين «هيل هتلر».

وتقول تلك المعلومات كذلك الأمر، إن القومسيون الإيطالي اتصل بالواسطة مع بشارة الخوري، وكان جواب هذا الأخير في دهائه السياسي ومعرفته التخلُّص من المواقف الحرجة قوله إنه لا يمكنه أن يجيب على شيء في هذا المعنى، فهو مرتبط بحزب طويل عريض، ولا يستطيع أن يتخذ أي قرار إلا بموافقة ذلك الحزب، وليس بالإمكان عرض مسألة مثل هذه علناً على هيئة أركان ذلك الحزب، مما قد يتصل خبره بالألمان حتماً فيُغضِبُهم من جهة، كما أنه يُغْضِبُ الفرنسيين من جهة ثانية، وهم لا يزالون منتدبين وحكام البلاد، وهذا مما يُعرِّض رجال الحزب لأخطار كبيرة أقلها الإرسال إلى المعتقل.

لذلك هو سيعمل على جس نبض حزبه بطريقة كتومة، وبعد ذلك يقول للقومسيون ما يكون الحزب قرره.

وكان السفير الألماني ـ تجاه القومسيون الإيطالي ـ صريحاً كثيراً، إذ أنه كان في مقابلته لكبار الرجال في هذه البلاد لا يتورع من تكذيب ادِّعاءات ودعاية القومسيون

التي كانت تزعم أن البلاد تريد الحماية الإيطالية. وكان فون هنتش يكذِّب هذا الزعم بطريقة قاسية، مما جعل وجوده هنا يخفف كثيراً من نشاط الطليان ومن تردد الناس عليهم، وهذا أدى بحاشية القومسيون، وفي رأسها صديقنا الظريف السنيور بنتو القنصل ببيروت سابقاً والملحق السياسي بالقومسيون، يساعده أيضاً صديقنا المعروف الأستاذ الشيخ أدمون طوبيا الذي كان مَوضعَ تقدير وثقة الطليان ـ قلنا وهذا جعل الحاشية تتجنَّد لدعوة أصدقاء إيطاليا والإلحاح على الناس بوجوب التردد على القومسيون، كيما لا يقول الألمان إنهم عندما يحضرون لا تبقى للطليان قيمة!

وكان قيل بهذا الصدد إن الطليان دفعوا كثيراً من المال هنا وهناك كيما يجعلوا الناس يتظاهرون لهم، فيكذِّبون هكذا مزاعم فون هنتش. ولكن الدفع لم يكن صحيحاً تماماً، ليس لأن الطليان لم يكونوا مستعدين له، أو أن إباءهم يجعلهم لا يعتمدون عليه، بل لأن موازنة القومسيون الهزيلة كانت وصلت إلى آخر رمق عندما وصل السفير الألماني؛ فلم تكن تسمح لهم بالتوسع والكرم. وقد اتضح هذا الأمر تماماً عندما حاول صديقنا السنيور بنتو إقناع بعض الوجهاء بنادي بيروت بتأييد الدعاية الإيطالية الآن ومساعدات مالية فيما بعد، ولكن الناس في هذه البلاد يلاحظون كثيراً في متاجراتهم السياسية القول الواقعي المعروف الدارج القائل: «مال البيض بالقبِّض».

وأقسم لنا بنتو ذات مساء عندما كنا نعاتبه ونقول له إنه المال وحده يمكنه أن يساعد القومسيون، فأكد أنه لم يبق لدى ذلك القومسيون من الفلوس غير أجرة الطريق!

وكان رياض الصلح وسامي الصلح اللذان زارهما فون هنتش في منزليهما حالاً عند وصوله من أكثر المترددين عليه صراحة وجرأة، وذلك عندما طلبا منه تسجيل العهود التي يقولها بلسان الفوهرر عن استقلال البلدان العربية في مذكِّرة يحملانها للزعماء العرب ويعلنانها على الناس.

وقالت المعلومات الفرنسية الواصلة يومئذٍ للمسيو شامبار إن السفير الألماني اكتفى بالجواب على هذا الطلب بقوله إن راديو برلين الذي يتكلم باسم الحكومة الألمانية يردد هذه العهود كل ليلة، وهذا يجب أن يكفي، كما وأن الوعد الذي أذاعه الفوهرر في تلك الإذاعة معلناً استقلال البلدان العربية يجب أن يحترمه العرب أكثر مما يفعلون.

وكان المسيو شامبار يقول أيضاً إن السفير الألماني عندما وَدَّعَ رياض الصلح في اليوم الذي اضطر فيه للعودة إلى برلين قال له:

ـ يجب أن تعتزم أخيراً ونهائياً وتجلي موقفك، فول أنت معنا أم مع الإنكليز؟

وقيل إن رياض الصلح أجاب: أنا نفسي لا أعرف هل أنا مع الإنكليز أم مع الألمان، ولكنني من المؤكد سأكون مع الذين يحررون بلادي، ويحترمون استقلالها ولو كانوا من أهل جهنم!.

حاشية ـ أمس فقط، قبل صدور هذا الكتاب بأيام في بداية هذه السنة 1953، مر السفير فون هنتش ببيروت آتياً من الشرق وذاهباً لبرلين، ونزل ضيفاً على صديقه الكبير زميلنا الأستاذ كامل مروه الذي قرأ له هذا الفصل من كتابنا، فقال له السفير عنا:

ـ هذا هو الرجل الوحيد الذي فهمني جيداً والذي عرف في ذلك الحين المهمة السرية التي كنت قد جئت لأجلها إلى هذه البلاد.

ـ 52 ـ

الحاج غليوم لا يزال حَيّاً

وطبعاً، كما هي التقاليد في هذه البلاد، عندما جاءت البعثتان لبيروت: الإيطالية في النورماندي، والألمانية في الدويتشرهوف، كنا نرى السياسيين والزعماء النصارى جهاراً أو سراً يتجهون نحو النورماندي، ونرى بطبيعة الحال الزعماء والسياسيين المسلمين يتجهون للدويتشرهوف.

وكما قلنا سابقاً إذا كان بعض النصارى زار الدويتشرهوف فلم نرَ مسلماً واحداً يزور النورماندي!

ففي ذلك الوقت الحرج جداً، كان من الواجب أيضاً أن تلعب عندنا الطائفية دورها حتى في الأمور الدولية. وكان من الواجب أيضاً أن يكون بين الطائفتين الكبيرتين، ما كان بين بشارة الخوري واميل اده، في أن يرى الواحد منهما تماماً عكس ما يراه الآخر!

وهنا لا يجب أن نتساءل كثيراً ماذا كان يومئذٍ موقف «الميكافيلي» صديقنا حبيب أبو شهلا، إذ أننا نذكر أنه عند وصول البعثتين إلى هذه البلاد استعاد ما كان يعرفه من اللغة الألمانية حالاً وأخذ يتحدث بها مع فون هنتش في مقابلاته العديدة له.

كان أيضاً يعرف «شوية» طلياني كما كان يقول، ومع هذا كان يتردد بالأكثر على فون هنتش، مع أنه كان يشترك في كل وليمة تُقام على شرف الطليان!

وكان يقول لنا إنه لا يُفَرِّق بين البعثتين، إذ أنه لا يريد أن يعمل للشقاق بين دولتي المحور العظيمتين!

وكانت المعلومات الفرنسية عند المسيو شامبار تقول إن الأستاذ أبو شهلا يزور الألمان ويختلط مع الطليان، تنفيذاً للخطة المرسومة!

وأية خطة مرسومة؟

فهل كان أبو شهلا منذ ذلك الزمان عاملاً للحلفاء وعميلاً لهم؟!.

وأما نحن شخصياً فلا شك أننا عملنا مثل غيرنا من أهل الفهم والظرافة، ومن المؤمنين بانتصار الحلفاء النهائي مع كل ما كان يصيبهم في ذلك الوقت من

انكسارات، وذهبنا مثل أبي شهلا نزور البعثتين، إذ لماذا يجب أن نكون مع الواحدة وليس مع الأخرى أيضا؟

ونذكر بالمناسبة أننا في مساء اليوم الذي زرنا فيه القومسيون الإيطالي بطريقة علنية، سَأَلَنا أهلُ نادي بيروت، حيث كنا نقضي سهراتنا، وكنا جئنا للنادي نتأبط ذراع صديقنا السنيور بنتو الذي كنا على ارتباط كبير معه؟ قال لنا أحد الأصدقاء الظرفاء:

- لا أحد يعرف أفضل منك، فهل الطليان يدفعون؟

وهكذا الروح التجارية في السياسة عندنا لا تغيب مطلقا.

ولم يكن يخطر على بال أحد من أهالي هذه البلاد أن الطليان يقومون بدعاية لهم في لبنان إلا وهناك أموال يدفعونها. وكان الناس في إيمانهم هذا غير ملامين، إذ أنهم كانوا قد اعتادوا على أموال الفرنسيين والإنكليز، كما وأنهم كانوا لا يهابون الطليان مما جعلهم لا يؤمنون أن إيطاليا يمكن أن تعمل لها حزباً في هذه البلاد إلا عن طريق المال.

قلنا إذ أن الناس كانوا قد اعتادوا على أموال الفرنسيين والإنكليز عندما أخذ كل منهم يعمل دعاية لنفسه مرفوقة بأكياس الذهب والقراطيس المالية.

فإننا في هذه البلاد احترام المال واشتهاؤه فطرة طبيعية.

وكان من الأدلة الأولية لمثل هذه الفطرة مداراة واحترام الثائرين على الفرنسيين في كل حركة وطنية قامت ضدهم وحتى في ثورة الاستقلال - للبنك - بنك سوريا ولبنان المؤسسة الفرنسية المالية - مع أن خصومها المعروفين كانوا يخلقون لها المتاعب ويروّجون الشائعات المُستغرَبة. ومن الشائعات تدخُّلها بالسياسة وتمويلها مرشحاً معلوماً لرئاسة الجمهورية، في آخر عهد الانتداب - وكان قيل يومئذٍ إنه حميد بك فرنجية ولكنه شيء ثبت كذبه بعد ذلك، وقد كان البنك دوماً يقف على حياد تام من أمورنا السياسية، مما كان يعرفه تماماً زعماء ثورة الاستقلال سنة 1943، فاستثنوا البنك من كل حملاتهم على المؤسسات الفرنسية، وعلى كل ما هو افرنسي.

وقد يكونون فعلوا ذلك خصوصاً لمعرفتهم أنه لولا البنك لما كانت هناك ضمانة للعملة اللبنانية، وبالطبع للعملة السورية أيضا.

ولكن لنرجع إلى حديثنا السابق...

وقال الناس تجاه دعاوة اللجنة الإيطالية إن التاريخ يعيد نفسه، وكما تزاحم الإنكليز والفرنسيون في آخر الحرب الأولى على هذه البلاد ودفع كل منهم الأموال لاكتساب الأنصار، هكذا يتزاحم الطليان والألمان هذه المرة. ولكن اعتقد أكثرنا، أنه إذا كان الطليان - لربما يدفعون أو يستطيعون عملياً الدفع - فالألمان عندهم من القوة والغطرسة واليد الحديدية والطابور الخامس ما يجعلهم يأنفون عن دفع المال، فضلاً عن أنهم دوماً ما عرفوا ولا تَعَرَّفوا إلى مثل هذه العادة.

وضحك أهل النادي كثيراً عندما قلنا لهم إن الطليان طبعاً يريدون أن يدفعوا ولا يؤخرهم عن ذلك عدم وجود زبائن يقبضون، بل قلة المال فقط.

والحق كانوا هكذا!

فالأخ موسوليني أرسل قومسيونه يعمل دعاية لحماية تفرضها إيطاليا على هذا الشرق المتاجر المستثمر المادي الدهري، وظن أنه يرضي بها أهالي البلاد إعجاباً به وبإيطاليا!

وطبعاً - كما قلنا - لم يصرف الألمان ماركاً واحداً، فإنما الألمان كانوا مستعدين لفرض دعاوتهم فرضاً، وهي دعاوة كانت قد عملت عملها تماماً، واحتلت منذ زمن بعيد بنوع خاص، وعن طريق غير طريق الخوف والرعبة، مكانة كبرى عند المسلمين الذين لم ينسوا، ولا مرة، أن ألمانيا الملكية، ثم القيصرية، قبل ألمانيا الهتلرية بزمان وزمان كانت دوماً تأخذ جانب الدولة العثمانية المسلمة في حروب روسيا معها، وظلت ألمانيا هكذا حتى أيامنا هذه، كما وأنها كانت دوماً تأخذ جانب المسلمين في قضاياهم الدولية، وتعمل على اكتسابهم من جانبها.

وكان إمبراطور ألمانيا الأخير ولهلم الثاني زار استنبول والكثير من بلدان إمبراطورية بني عثمان، وبنوع خاص سوريا ولبنان، وذهب من بيروت يحمل لقب الحاج غليوم، وهو لقب أعطاه إياه أصدقاؤه قبضايات الميناء في ذلك الحين، لما أظهره من صداقة للمسلمين ولزيارته المساجد.

* * *

ولم تطل المزاحمة كثيراً بين لوكندة النورماندي وبين لوكندة الدويتشرهوف، إذ ذات صباح في حزيران 1941 هرب أبو علي وسفيره والهر روزر، وهرب القومسيون الإيطالي مع كل قواده، فقد كان الإنكليز والديغوليون قد بدأوا زحفهم على لبنان، وأخذ الجنرال دانز يحاول صدَّهم باسم حكومة فيشي، الذي رأى واجبه كقائد شريف أن لا يخون عهدها وأن يحافظ على المهمة التي أناطتها به.

وما أسرع أعضاء البعثة الألمانية والقومسيون الإيطالي بالرحيل نحو تركيا إلا عندما كانت جيوش الحلفاء وصلت للدامور. وأخذ كل من كان يظن نفسه مشبوهاً تجاه الحلفاء من اللبنانيين يهرب أيضاً، كما وأن الأصدقاء المعروفين للمحور، أو الخصوم المعروفين للحلفاء، أخذوا يتراكضون نحو الشمال، وكان في مقدمتهم الأمير عادل أرسلان، وكنا قد قابلناه في مطعم العجمي ساعة رحيله، وطلب منا أن نقنع ابن عمه الأمير أمين أرسلان بالبقاء، فهو ليس عليه شيء يخشى منه. وعندما التقينا بالأمير أمين وهو يستعد مع نجله لركوب السيارة، وأخذنا نقنعه بالبقاء، ونؤكد له بضمانات معروفة كثيرة، كان الفرنسيون قد أعطونا إياها، أن ليس هناك خطر ينتظره من دخول الإنكليز والديغوليين للبلاد، قال حانقاً غاضباً:

- وهل يكون ابن عمي عادل صديق الفوهرر أكثر مني؟

- 53 -

أين أنت يا بارون ؟

وكان هجومُ الحلفاء والديغوليين، وكان هَرَبُ البعثتين الألمانية والإيطالية ورحيل الخائفين من الزعماء الوطنيين الذين كانوا قد ترددوا على البعثتين، واتصلوا بهما وقدم كل منهم التأييد والمناصرة والخدمات حسب أهوائه وميوله واعتقاده وتكهُّنه في أي من الجانبين: الطلياني والألماني هو الذي سيكون سيد هذه البلاد.

قلنا هرب هؤلاء عند الهجوم، وأخذ الحلفاء يقصفون بيروت بطياراتهم بطريقة متواصلة، والناس في قلق واضطراب يفتش كل منهم عن مارون عرب، بالرغم من أنهم يعرفون يومئذٍ أن الفرنسيين كانوا قد أبعدوه. قلنا وأخذ الناس يفتشون عن مارون عرب ليحكي لهم مع الإنكليز ليكفُّوا عن ضرب بيروت، فإنما حتى ذلك الحين أيضاً كان الناس يعتقدون أن صديقنا مارون عرب يعمل ما يريد بالإنكليز، ليس فقط في قنصليتهم السابقة وسفارتهم اليوم ببيروت، بل أيضاً في قصر بوكنغهام، وفي بناية الدوننغ ستريت بلندن رقم 10!

قلنا، كان مارون عرب بعيداً، ولكن عينه كانت دوماً ساهرة ناظرة عارفة تُسجِّل للمستقبل كل حركة من حركات السياسيين والزعماء الوطنيين أينما كانوا، في حياتهم العامة أو في خلواتهم الخاصة.

وكان هناك غير عين مارون . وكان هناك العدد المستتر المتنكِّر من عمال «الانتلجنس سرفيس» الإنكليزية الذين لا يعرفهم غير الله، وغير أساتذتهم، يراقبون وينظرون ويعرفون.

وقد ظهر بعد ذلك أنه كان عندنا عمال للانتلجنس سرفيس بين عتالة الميناء وباعة الحمُّص وتجار الخشب، وبين سماسرة الأشغال والأعمال، كما كان هناك عمال لها من النواب ورجال الأعمال، وحتى من الرهابين، ومن تجار الحشيش، والنساء الجميلات المخدرات، وبنات الرقص والملاهي، مما لم يكن أحد يشتبه بهم ولا يخطر على باله أن هذا الولد الذي يبيعك سيكارات مُهَرَّبة، وهذه الحسناء التي ترقص في

الليدو تعرض عليك محاسنها هما من جماعة مارون عرب، أو بالأحرى من جماعة مصلحة الاستعلامات الإنكليزية!

ولا شك أن كل واحد منا، مع معرفته بما هي عليه مصلحة المعلومات الإنكليزية من قوة ونشاط، وما يمكنها أن تعرفه عن كل منا، ما كان يريد أن يكون بجلد الزعماء الذين توددوا وترددوا كثيراً على البعثتين المعروفتين، وذلك في الوقت الذي كانت جيوش الحلفاء قد تخطّت الحدود السورية اللبنانية!

لهذا يجب القول إن الليالي التي قضاها هؤلاء الزعماء في اضطراب وخوف كانت قاسية عليهم جدا.

وذكروا لنا بعد ذلك عنها أشياء عديدة بعد أن اطمأنوا لأنفسهم عندما لمسوا تسامحاً غريباً عند الحلفاء بعد دخولهم البلاد. وقال لنا أولئك الحكايات الكثيرة عن لياليهم القلقة المضطربة، وأنها أخافتهم أكثر مما كانت تخيفهم قنابل الغارات الجوية، التي ظلت عشرين يوماً كاملة تقصف بيروت دون هوادة ولا هدنة.

ولا شك أننا نستطيع التساؤل عن هؤلاء الزعماء السياسيين ونقول:

- أيَهُّم عندما جاءت البعثتان، لم ينقلب من فرنساوي أو إنكليزي إلى ألماني أو إلى إيطالي؟

وأيَهُّم غير القليل جداً، لم يتوسط الهر روزر أو فون هنتش، بل يكون توسَّطَ صديقنا بنتو، سكرتير القومسيون الطلياني، ليحظى بالمقابلة ويؤكد ولاءه وإعجابه، وحتى ليقول أمام الألمان أو الطليان عن الحلفاء كل شيء ذميم وفظيع، ويقدِّم للبعثتين معلوماته التي قد يكون منها ما هو خطر على الحلفاء؟

وأيضاً أي بيت من البيوت الكبيرة التي كانت تقيم الولائم السخية اللاهية العابثة المتلونة، المتعددة التسالي الغائصة في بحور الخمرة والحسان لجمال باشا ولأنور ولعزمي ولعلي منيف من قبل، ومن بعدهم للقواد والأسياد الإنكليز والفرنسيين عند الاحتلال سنة 1918، وللمفوضين الساميين والجنرالية والساسة في عهد الانتداب، وأيضاً هذه البيوتات وهي نفسها تزاحمت لدعوة الطليان والألمان الذين جاؤوا يُطبِّقون الهدنة في هذه البلاد، وذلك في ولائم وأعياد لها ذات السخاء والمكارم والملاهي والفخفخة والحسن والجمال!

فإنما نحن من الشعوب التي يمر عليها الفاتحون مرتين وثلاثة مرات كل مئة سنة، وتجعلنا شريعة المحافظة على الحياة نستقبل كل فاتح بالترحاب والتودد وإحناء الرأس، مهما كان بغيضاً علينا.

ولا نذهب إلى أبعد من إبراهيم باشا المصري وغزوته للبنان وسوريا وبلاد الأناضول، ثم للجزّار الذي تحكَّم بجبل لبنان تحكُّماً فرعونياً، ومن بعده جمال باشا والأتراك في الحرب الماضية ثم غورو وويغاند والانتداب ثم فون هنتش وبنتو في عهد فيشي وبعد الاستقلال سبيرز وكاترو وسولود الروسي السوفياتي.

فإنما يجب أن تكون فرنسا وإنكلترا وأميركا حتى البرازيل والأكوادور، عرفت المكتسحين الفاتحين كما عرفهم لبنان يدخلونها عنوة ويتحكمون بها بالسيف والترس حتى لا تعود تستهجن عندما تعرف أن اللبنانيين اضطروا مثلاً خلال هذه الأربعين سنة الأخيرة التي مرت عليهم أن ينقلبوا من أتراك إلى فرنسيين - عن طريق الانتداب. ثم إلى إنكليز - عن طريق ثورة بشامون - ومن بعد ذلك لمدة قليلة إلى مُستَقَلِّين عن طريق الجلاء، والآن - مبدئياً وعملياً معاً ينقلبون إلى أميركان اعتباراً عند كل لبناني أن أميركا بدأت تأخذ مكان فرنسا وإنكلترا وجميع دول الأرض في هذه البلاد، وذلك في ولائم وأعياد لها ذات السخاء والمكارم والملاهي والخمرة، إذ في ذلك الوقت لم تكن الشيوعية اتخذت بيروت مقراً لقيادتها في الشرق الأوسط ولم يكن سولود ومن بعده خلفه الحاضر قد وصل إلى هنا وأخذ يشتغل وهو صامت ساكت.

واللبناني بطبيعة حاله لا يمكنه أن يؤمن نهائياً أنه مستقل، فإنما هكذا علَّمته الأجيال التي عاش فيها دوماً مستقلاً ولكن تحت رحمة غيره ودوماً تابعاً وجزءاً من غيره.

وعنده هذا الهاجس أنه لا يمكنه أن يؤمن بالاستقلال حتى في هذا الوقت الذي يفخر ويعتز فيه على جميع الشعوب العربية بأنه وحده - مع السوري - على استقلال كامل.. لا احتلال أجنبياً - حتى بالصورة الرمزية التي بالعراق والسعودية وغيرها.

ـ 54 ـ

الاستقلال الذي لا تؤمن به

أيْ متى كان الاستقلال في لبنان؟

هل في أيار 1941 عندما رمت طائرات الحلفاء الإنكليز والديغوليين على المدن والقرى بسوريا ولبنان منشور الجنرال كاترو المشهور الذي أعلن نهاية الانتداب الفرنسي في البلدين وقيام استقلالهما حالاً وبمجرَّد دخول الحلفاء ظافرين إليهما.

هل يكون بدأ الاستقلال عند ذلك التاريخ ـ في حين أنه لم يتبدل علينا شيء بعد ذلك المنشور وبعد دخول الحلفاء، وحتى خلال السنتين اللتين جاءتا بعد انكسار الفيشيين، سوى أن المفوضية السامية للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان غيَّرت اسمها وأخذت اسم المندوبية العامة للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان.

وكان الجنرال كاترو الذي استلم المندوبية العامة بعد سقوط الفيشيين كريماً جداً عندما أعلن الاستقلال، وأحبَّ أن يحيط ذلك الاستقلال الأسمى بإطار من الزهور وبجمهرة من السياسيين الدعاة وبالبروبغندا القومية، مما كان يترك بعض الظواهر الجميلة للحكومة الوطنية. وكانت عنده اللباقة أنه أخذ بكل ظرف يرفض ما يطلبه الساسة منه أن يفسِّر الاستقلال الذي أعطاه، أبى الجواب على هذا الطلب، وذلك خوفاً من أن يفسره، حسب ما يريده الفرنسيون لنا، وليس حسب ما نريده نحن لأنفسنا، مما كان يعرف جيداً أنه يُغْضِبُ الأهالي ويزيد في مخاصمتهم لفرنسا.

ظل كاترو يخادعنا ويخدعنا مكرمة منه ـ ومن الأكيد أنه لو كان الأمر بيده لكان عمل لنا أكثر مما كان يعمله لبلاده.

قلنا، وظل يخادعنا ويخدعنا، ولا يريد أن يقول ـ كما كان يفتكر فعلاً ـ أنه يتمنى لاستقلالنا استقلالاً صحيحاً، ولكن فرنسا الديغولية لا تريده هكذا، وقد أعلنته ولكن لتربطه باتفاق معنا، يترك لها جميع ميزاتها العسكرية والسياسية والاقتصادية ـ كان كاترو يعرف ذلك ولا يقوله ـ وكنا نحزر ذلك ولا نلحُّ عليه في الجواب، خوفاً من أن نضطره لأن يعمل الشيء الذي كان يتحاشاه؛ وهو إخجال نفسه أمامنا.

وظلت الحال بيننا وبين كاترو هكذا حتى جاء ديغول إلى بيروت وباض بيضته المفضوحة في خطابه الصارخ بنادي الأونيون الفرنساوي على الزيتونة، عندما أعلن أن الاستقلال لسوريا ولبنان لا يعني تخلي فرنسا عن مركزها السياسي والعسكري والاقتصادي والتقليدي في البلدين.

وبعد هذا الكلام ما عاد الجنرال كاترو صديق هذه البلاد الصادق يعرف كيف يستر خجله ويخفي رأسه. فهو ولا شك كان خجولاً مما جرى، وقد قال شيئاً من هذا في المذكَّرات التي كتبها بعد ذلك، وكان فيها صريحاً جداً.

فإنما الاستقلال في نظر ديغول كان معناه دوام الانتداب مع هذا الفارق: أن الانتداب كان تسوية بين جامعة الأمم وبيننا، وديغول أراده أن يكون تسوية بيننا وبين فرنسا لوحدها ـ على أن يسمِّيه هو ونسمِّيه نحن استقلالا.

ولكن الاستقلال الحقيقي الذي يعني السيادة الوطنية ـ وهو الاستقلال الذي أراده كاترو لنا، لم نعرفه إلا بعد ذلك بكثير، وليس في ثورة بشامون ـ كما يريد الكثيرون قوله، إذ عندما كان لبنان يستقلُّ ببشامون كان الجند الفرنسي في البلاد يحتلها من جميع جهاتها.

إنما الاستقلال الحقيقي كان في اليوم الذي جلا فيه آخر عسكري افرنسي عن هذه البلاد.

وذلك عندما ذهب الثلاثة الكبار: كميل شمعون، رياض الصلح، حميد فرنجية، يرافقهم سياسي لبناني قد لا يطيب لنا أن يرافق اسمه هذه الأسماء الصادقة الوطنية الصالحة، وذلك عندما ذهب هذا الوفد للندن وباريس ورجع إلينا يحمل وثيقة الجلاء.

وهي وثيقة الاستقلال الحقيقية التي سنتكلم عنها ملياً وعن رجالها عندما يأتي الوقت.

وهو الاستقلال الذي ما زلنا مع كل ما نتمتع به من حسنات لا نؤمن به كثيراً... كأنه ثروة هائلة سقطت فجأة على (شحاد)، فأخذ يقضي الدهر ولا يصدِّق أنها حقيقة، وهو في ضعفه وهزاله وازدرائه بنفسه لا يمكنه أن يعتبر أنها له.

ـ 55 ـ

الفصل الأخير من هذا الكتاب

رجال على الأصابع

والآن، ما الذي جعل الناس يغضبون على الدولة أمس وجعل بيروت تقفل أسواقها شاملة وتضرب أياماً وتثبت غضبتها على العهد؟

هل هو العبث بالدستور؟

أو مفاوضات صلح مع إسرائيل.

أو تزوير في الانتخابات؟

أو هو ظلم في المحاكم؟

أو عدم إعطاء المرأة حقوقها؟

أو ضرب البوليس للناس المسالمين بالنار؟

لا هذا ولا ذاك، حتى ولو أن كل هذه الرزايا كانت قائمة وموجودة؛ فهي لا تُشَكِّل السبب الذي من أجله أضربت بيروت، إضراب التهديد والوعيد، لقد أضربت بيروت لأن السياسيين المعارضين عرفوا كيف يُظْهِرون للناس في ضائقتهم وإفلاسهم أن رجال الدولة السالفة هم الذين أخذوا أموالهم وجوَّعوا البلد؟؟

لهذا، إضراب بيروت لم يكن لخدمة هؤلاء الزعماء المعارضين ضد أولئك الزعماء الحاكمين.

كانت الحكاية مثلما لو قيل لك أنت مفلس لأن الذي يحكمك أخذ مالك ورزقك.

وهكذا عندئذٍ تنظر إلى حاكمك نظرتك إلى رجل ظلمك وجَوَّعَك، وتحكَّم فيك واغتنى من فلوسك.

وعلى هذه القاعدة، ولهذا السبب، قام الإضراب الذي سبق الانقلاب.

والآن هذا الذي يجب أن نبحث فيه في كتابنا الثاني.

من هم الذين أخذوا المال؟ وجعلوا الناس مفلسين، وكيف أخذوا هذا المال؟

وسنقول الحكاية الحقيقية عن الاستغلال والسلب.

وحكايات المحظوظين والنواب والزعماء وكبار التجار المتلاعبين.

ونقول الحقيقة أيضاً عن النزاهة والتجرُّد اللذين حمل لواءهما فقط بضعة سياسيين نعدُّهم على الأصابع وقد نكون أيضاً مخطئين في تأكيدنا أنهم بأجمعهم كانوا شرفاء.

فإنما لابد للمشاة في وسط الشارع أن تبللهم الأمطار، على أن بعضهم يحمل ربما مظلة تجعل تبلُّله خفيفاً لا يصل إلى أطراف رجليه ويديه.

* * *

ولكن لماذا يتهم الأهالي الآن السياسيين وأهل الرأي وحدهم بالاستغلال؟

لماذا بالأحرى يدور أهل البلد بوجوههم نحو المستثمرين من هؤلاء التجار والصناعيين، الذين استباحوا ـ كل واحد منهم بطريقة خاصة ـ صفقات التموين والنقد النادر، وبالات النسيج وتعهدات المطار وغير المطار، وصفقات الميموزا والزيت والأرز؟.

وهي صفقات نعرف عنها الشيء الكثير الحقيقي، وكثيراً ما شكونا أصحابها لأنهم كانوا يأكلون علينا الكثير من الحصَّة التي كانت لنا، وقد كنا لا نغتفر لنفسنا ونزدري بها لو تركنا كل هذه الصفقات تتم ونحن نتفرج علينا من بعيد ونحضر السوق ولا نشتري ولا نبيع.

نعم سنبحث بكل شيء، وعندها يجد الملاحظون أن الستافسكيين عندنا كثيرون جداً.. في كل يوم يطلع علينا ستافسكي جديد، في حين أن ليس بفرنسا غير ستافسكي واحد كل عشر سنين.

حاشية ـ كانت المفوضية السامية يوم حرب لبنان حرقت أوراقها السرية في أتون الكلس بأعالي منطقة الدكوانة، وقد تناثرت أوراق عديدة هنا وهناك لم تصلها النار، ومن هذه الأوراق خلاصة ملف «دوسيه» كل سياسي لبناني كبير معروف، ورأي المفوضية السامية فيه.

ونحن الذين التقطنا أكثر هذه الأوراق وجمعناها وحفظناها، وهي التي سَتُنْشَرُ في الفصل الأول من الكتاب الثاني فيعرف عدد كبير من كبار السياسيين اللبنانيين ماذا كان رأي فرنسا فيه، ويعرف الناس كيف كانت فرنسا تنظر إلى أولئك السياسيين مما هو طريف وهام، ومما هو اكتشاف كبير لم يسبقنا أحد إليه.

فأيٌّ من الناس كان خصماً للانتداب أو صديقاً له لا يريد أن يعرف ما كان رأي الانتداب فيه؟

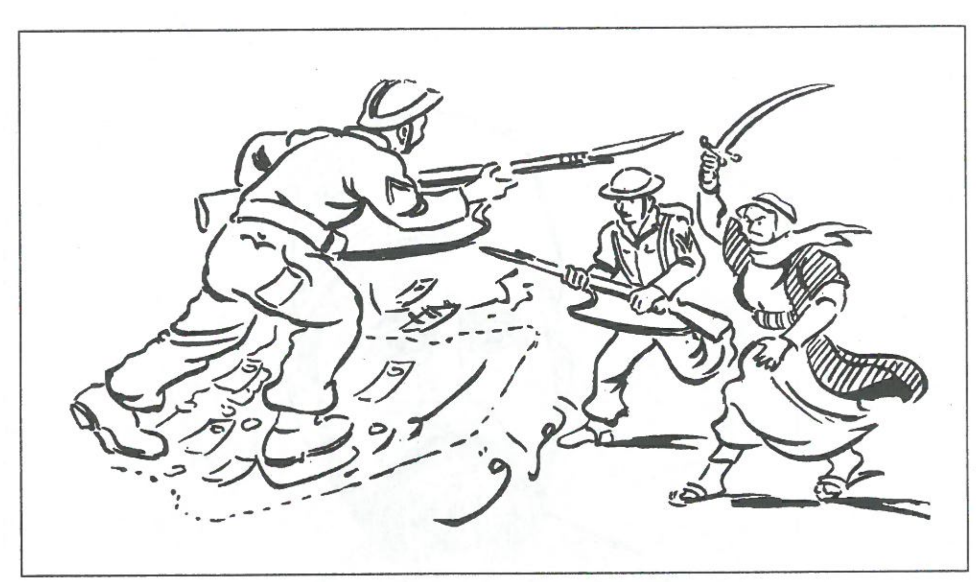
وأيٌّ لا يريد أن يعرف ماذا كان رأي الانتداب في بشارة الخوري وباميل اده وبرياض الصلح وبعبد الحميد كرامه وبكميل شمعون وبحبيب أبو شهلا وبعمر بيهم وبخير الدين الأحدب.. إلى آخره إلى آخره.. مما هو عدد كبير للسياسيين نعرف نحن، وحدنا، سِرَّهم من المصدر الأعلى، وقد كانت مقدَّراتهم بيده ومصيرهم رهن إشارته.

وإذا كان بعض السياسيين والتجار هنا لا يسلبون ولا يسرقون، فذلك ليس لأنهم لا يريدون، بل لأنهم لا يعرفون أو أن يَدَهُم قصيرة لا تطال شيئاً يسرقونه.

نعم هكذا.

هذا هو الحكم الذي نحكمه ونعلنه على الملأ.

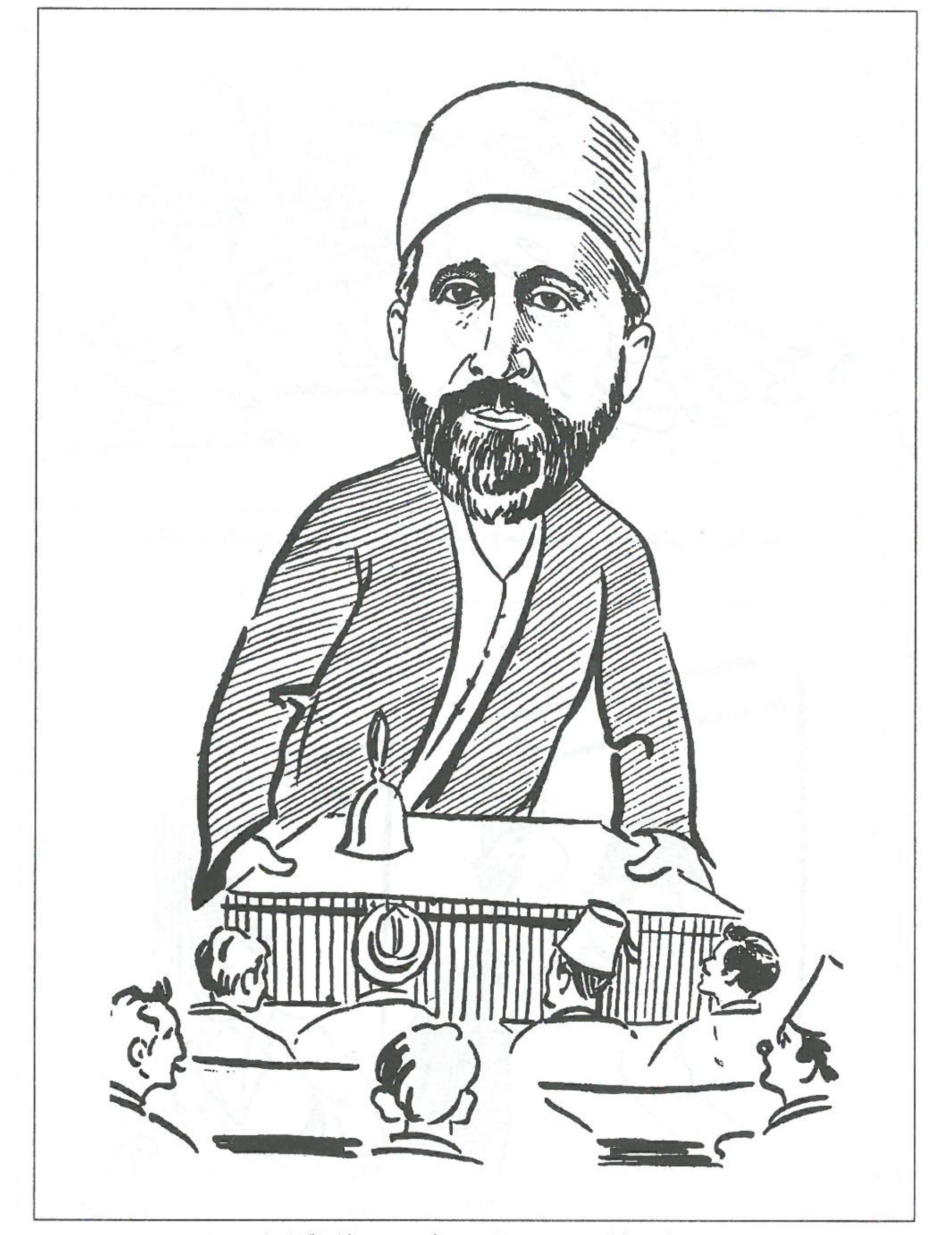
وذلك لأننا لا نريد أن نَغْتَرَّ ولا ننخدع حتى بالأكثر بالذين يفترضهم الناس أنهم فوق كل شبهة.



... لما كان الفرنسيون يتنازعون مع الشريف وحلفائه الإنكليز على سوريا ولبنان.



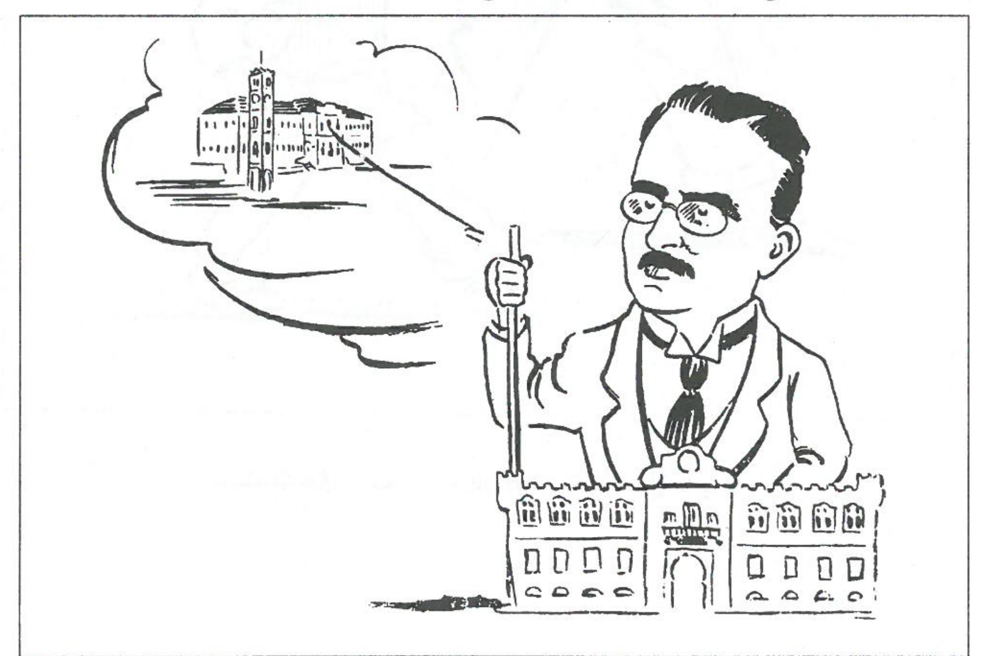
دخل رياض الصلح معنا على جورج بيكو (إلى اليسار) من باب، وخرج لوحده من باب...



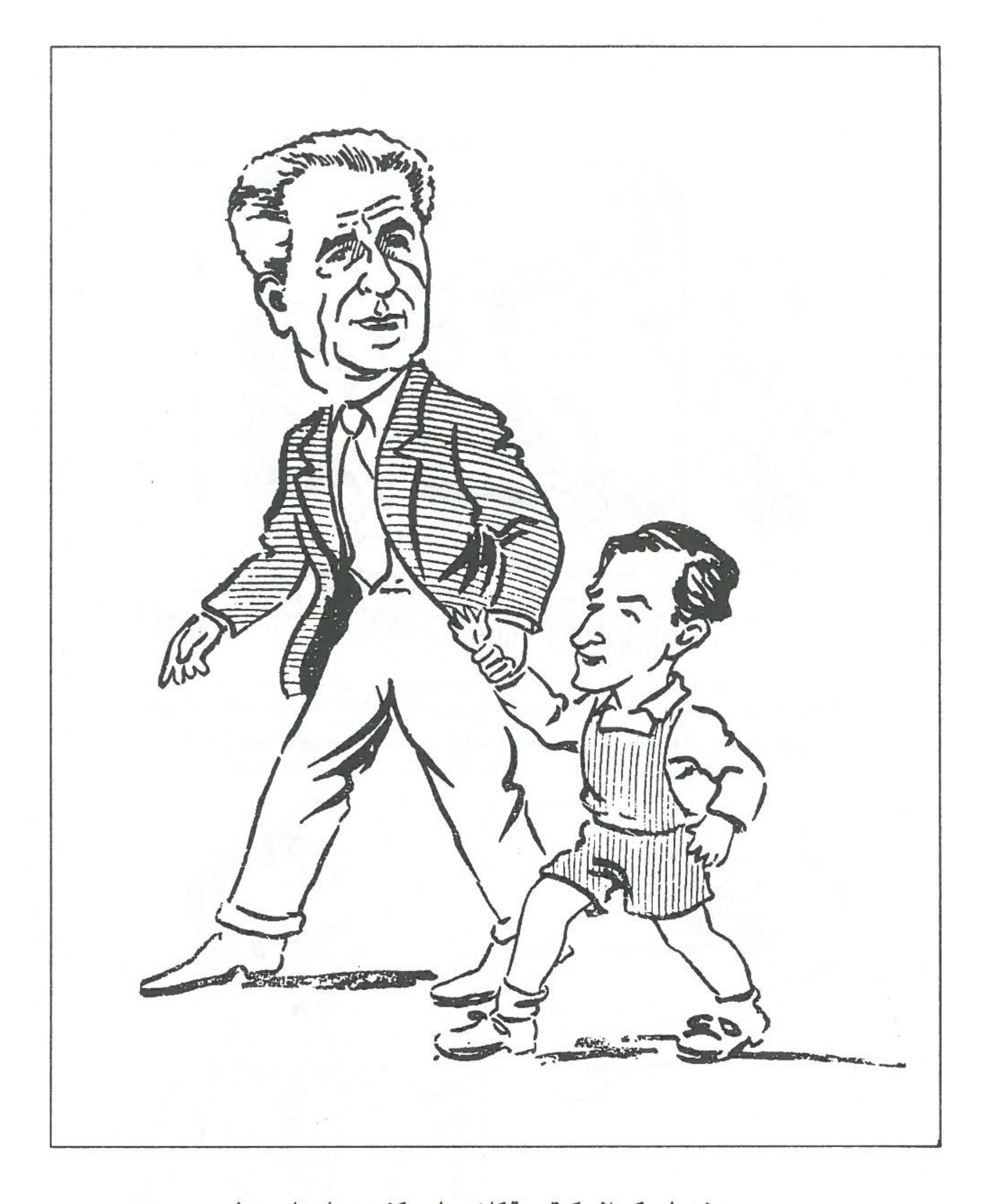
... جلس الشيخ محمد الجسر في صدر رئاسة المجلس.



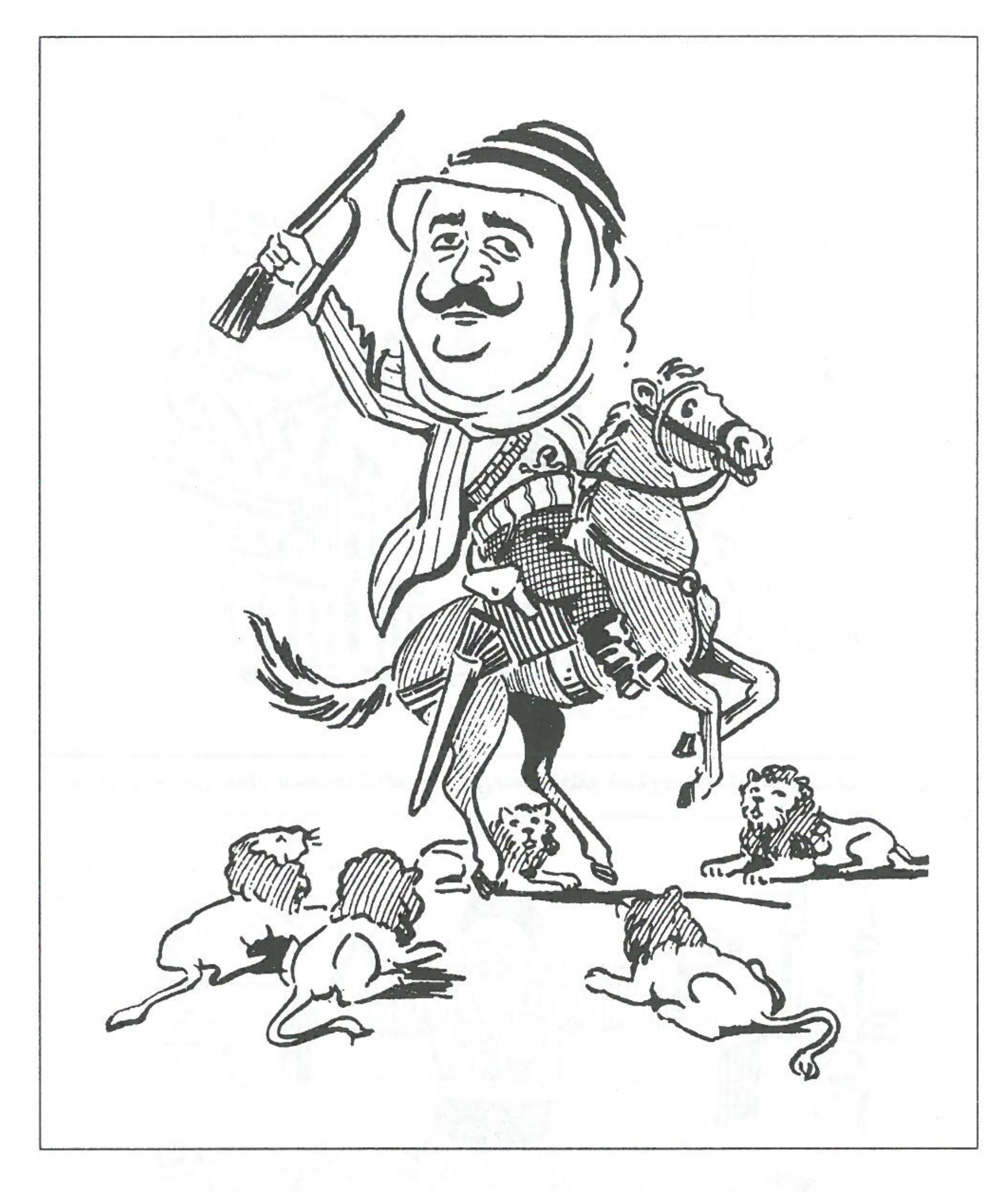
... كان في الواجهة ببيروت الثلاثة المارونيون الكبار: اميل اده وحبيب السعد وجورج ثابت،
وذات صباح هبط من جبله الرجل الرابع، ودخل عليهم بخطوات وسيعة قوية..



... لم ينقطع الخط بين سراي البرج وسراي المفوضية ولا مرة في عهد رئاسة الدباس للجمهورية



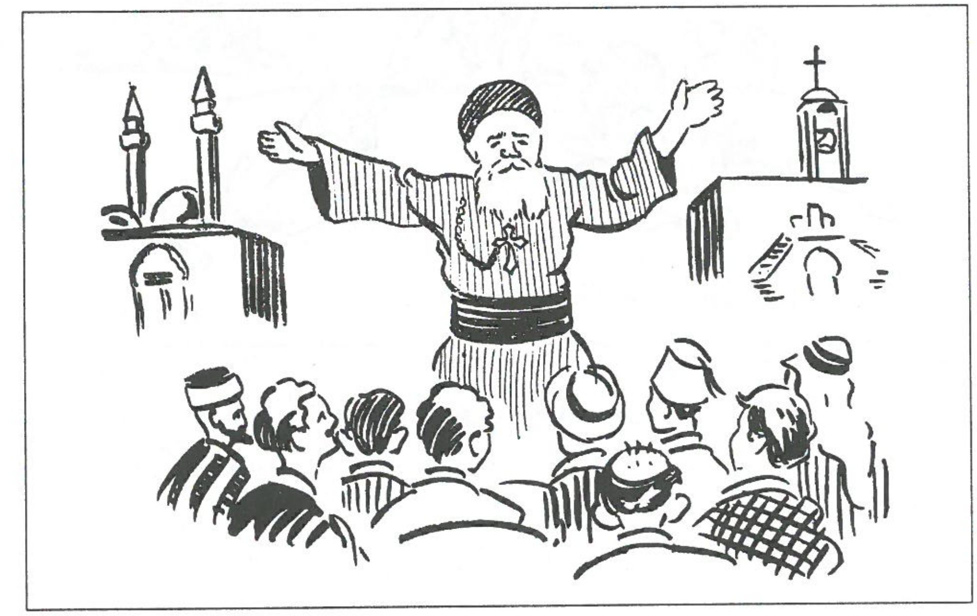
... عندما حكم السكرتيرية كان «مار روكز» يعمل ما يريد!



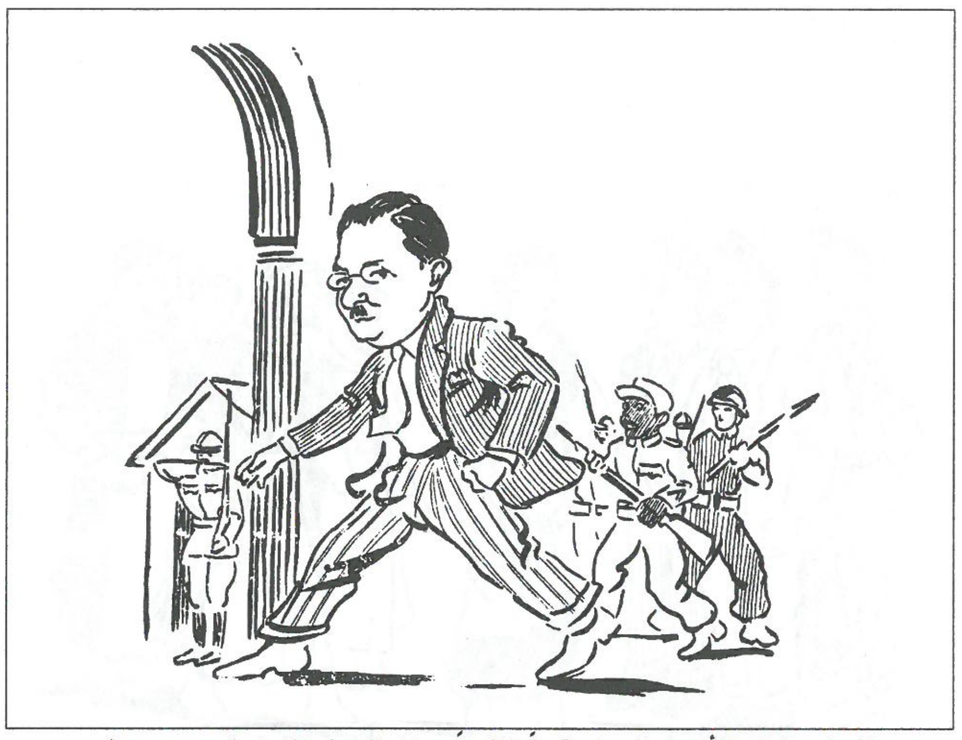
تشاهده في الصورة داخلاً إلى معركة...



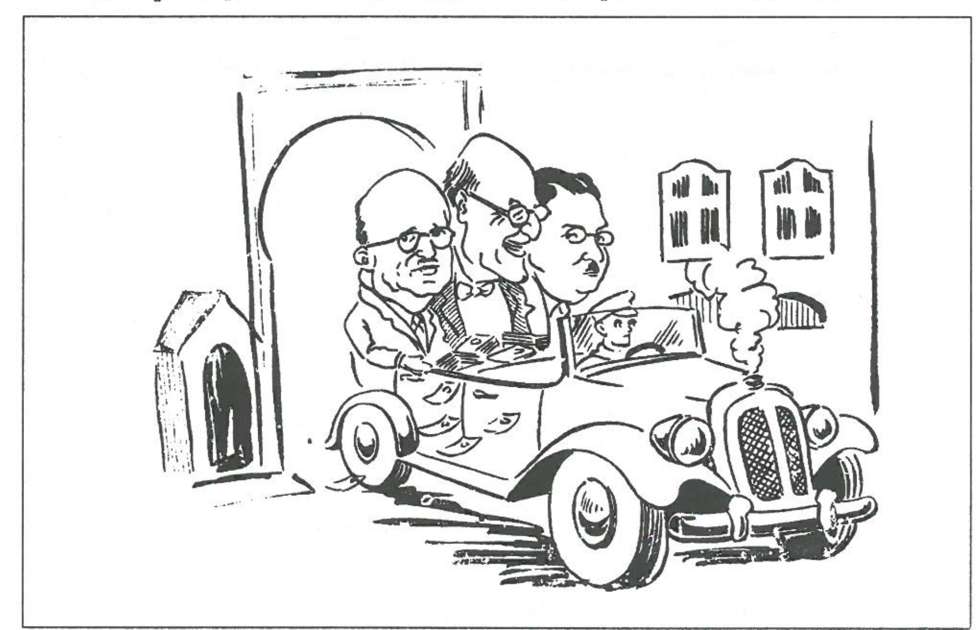
وكان دي مارتل ينظر للسابحات العاريات في بحيرة المفوضية وعيناه تنضحان شبقاً واشتهاءً



وقام المؤمنون في جامع أمية يهتفون: «لا إله إلا الله، والبطريرك عريضة حبيب الله!»



دخل خير الدين الأحدب للسراي قوياً مغامراً، ووراؤه الجيش الفرنساوي يحمي ظهره.



الفرسان الثلاثة: خير الدين الأحدب، حبيب أبو شهلا، جورج حيمري



... وراح الهاشميون يتوددون إلى لبنان، فسارع السعوديون إلى المقابلة بالمثل.

رؤساء لبنان
كما عرفتهم

إهداء
إلى الرئيس التاسع
الجنرال الأمير فؤاد شهاب

الرؤساء الثمانية قبله جاؤوا مقيَّدين حزبيين وهو جاء بدون قيد ولا شرط..

جاء سلفاؤه بانتخابات برلمانية من وراء مساومات طويلة عريضة وديون سياسية للأنصار والمؤيدين، **وجاء هو باستفتاء شعبي كامل عام، دون أية مساومات، متحرراً من كل ديون.**

وجاء شبعاناً أمجادا..

أمجاده كرجل صالح وكقائد خلق جيشاً وجعله مثالاً للتجرد والشجاعة والشرف الوطني، وأمجاده كحفيد للأمراء الحكام أجداده، إذ دخل بيت الدين دخول صاحب القصر إلى قصره.

جاء للرئاسة قديم النعمة لا حديثها.

عندما ذهبوا إليه يطلبون منه أن يكون رئيساً، فعلوا تماماً كما كان يفعل الرومانيون عندما كانوا يذهبون لسنسناتوس يطلبون منه إنقاذ روما.

جاء يحمل كبائر سلفائه ولا يحمل شيئاً من صغائرهم..

جاء بالرأسمال الأسمى الجامع الذي يجعله رئيساً أكبر.

لذلك إذا لم يصل عهده لأن يكون عهد لبنان الذهبي فمعنى ذلك أن السماء تريد خرابنا، ونهاية لبناننا.

قاعدة الحكم

هذا الكتاب عن الحكام والرؤساء ـ كما عرفتهم ـ يثبت بـالواقع أن أولئك الحكام والرؤساء حفظوا تماماً عظة «مكيافيلي» في كتابـه «الـبرنس» ـ أي الأمـير ـ الـذي يقـول فيها: «عندما يبدأ الشعب في التأفف من أميره، على ذلك الأمـير أن يعمـل كـل شـيء ـ حتى الأشياء الشريرة ـ لينقذ نفسه..».

وهكذا يجد القراء في هذا الكتاب ما يثبت أن معظم رؤسائنا وحكامنا ـ عرفوا ما قاله مكيافيلي أو لم يعرفوه ـ قد جعلوا قوله من قواعد حياتهم وحكمهم.

وذهاباً من هذا الأساس رأينا الكثيرين من حكامنـا ورؤسـائنا يُقسِّـمون أوقاتـهم إلى قسمين: قسـم لأعمال الدولة، وقسم لعمل كل شيء ـ حتى الأشياء الشريرة ـ لإنقاذ أنفسـهم وقت الحَشْرة، ويسمُّون ذلك الدفاع عن النفس.

أربعة حكّام..
لم يحكموا!

كان يمكن أن يكون عندنا ملك!

مرّ لبنان الجديد في الأربع أو الخمس سنوات الأولى للاحتلال بعد حرب 1914 في ثلاث مراحل وثلاثة أنظمة - مما ضرب الرقم القياسي - حتى وصل أخيراً للنظام الجمهوري السعيد - أو التعس - الذي نعيش فيه الآن.

ولم يكن هناك، ولا شك، من مانع أن يكون النظام ملكياً أو أميرياً، وليس جمهورياً - لو رجع الأمر للأهالي، ولو أن الفرنسيين - الذين ملكوا البلاد - لم يكونوا جمهوريين فوجدوا من الفضيحة أن يعلنوا الملكية في بلد ينزلون فيه، بعد أن حاربوا وخلعوا الملكية في بلادهم.

إنما أيٌّ من أهالي سوريا ولبنان، في بداية الانفصال عن تركيا، كان يمانع لو أن السلطات التي جاءت تحكمه، فرضت عليه النظام الأميري مثلاً؟؟

ونأتي في نهاية هذا الكتاب ببحث مستفيض عن هذه القضية.

كانت سوريا مع فيصل بن الحسين أقامت عرشاً ونظاماً ملكياً، ولكنها انتقلت للجمهورية بعد ميسلون بكل هدوء وبدون أية ضجة.

ولم يكن إعلان الملكية أو الإمارة بلبنان يلاقي عند الأهالي أية معارضة - ولا يكون لبنان فعل شيئاً فظيعاً صعباً - إذ إنه يكون هكذا رجع لأصله، فلا ينسى أنه قبل سنة 1860 كان إمارة وصاحب عرش.

ولكن الفرنسيين أرادونا جمهوريين - فصرنا جمهوريين - إنما ليس حالاً، فبين مجيء الفرنسيين وبين إعلان الجمهورية فترة أربع سنوات ونيف عرفنا فيها الأنظمة الثلاثة التي ذكرنا، وفي غير هذا المكان نبذة تاريخية جليلة جداً - غير منقولة - تقول إننا لو قيل لنا أن نكون أميريين - يوم دخول الحلفاء إلى لبنان - كنا قبلنا الأمر، كما قبلنا عندما قيل لنا أن نكون جمهوريين.

لكن على كل حال، في بداية هذا اللبنان الجديد، لم يضع أحد، سوى البعض القليل جداً من هنا وهناك، هذا الموضوع تحت البحث، حتى ولم يضع أحد النظام الجمهوري تحت البحث، وصرنا هكذا جمهوريين دون أن يسألنا أحد - ودون أن يعرف الذين فرضوا علينا الجمهورية - إذا لم نكن ملكيين ونريد عرشاً بلبنان.

وكنا قبل أن نصل للجمهورية، مررنا ـ كما قلنا ـ بثلاث مراحل متفاوتة متنوعة، عاشت قصيرة جداً لسوء أو لحسن الحظ، وكانت قد فرضتها المناسبات والحالات التي قامت.

بدأنا أن نكون من أراضي العدو المحتلة، وذلك عندما أراد الإنكليز، الذين افتتحوا هذه البلاد، أن يسيطروا عليها عسكرياً ولا يتركوا للفرنسيين مجالاً للاحتجاج والتزاحم، وكان هذا الحكم العسكري قد حلّ حالاً الحكومات المحلية المؤقتة في بيروت، والتي قامت في الفترة القصيرة التي كان الأتراك قد هربوا فيها، وكان الحلفاء لم يصلوا بعد لعندنا.

ولكن ذاك النظام العدائي للأراضي الصديقة تحت اسم العسكري ما طال كثيراً، فبعد شهر على الأكثر، صار اسمنا المنطقة الغربية، ولم نعد أراضي العدو المحتلة، وتبدّل الحكام من عسكريين إنكليز إلى عسكريين افرنسيين يحكمون مباشرة، وبالقرب منهم حكام لبنانيون للصورة والهيئة فقط، يلعبون بالأصل دور المستمع والمتفرج، ليس لهم ما يقولون، طبعاً ما عدا البعض منهم الذي كان أنْبه من الحكام الفرنسيين، واستطاع أن يحكم ضمناً عنهم.

إنما المنطقة الغربية فقدت اسمها بعد ميسلون 1920 عندما دخل الفرنسيون سوريا بأجمعها ووضعوها تحت وصايتهم.

عندئذ صار اسمنا واسم المنطقة الغربية لبنان الكبير ـ مما يأتي شرحه في المستقبل، وفيه بحث طريف جديد في بابه، لا بدّ للقارئ أن يجد فيه، كما يجد في كل شيء في هذا الكتاب، آفاقاً واكتشافات غير منتظرة وأسراراً كانت خافية عليه، ولم يكن يعرفها غير القليلين من المعاصرين.

وعندما صرنا لبنان الكبير ـ تموز سنة 1920 ـ ما عدنا لا أراضي العدو المحتلة ولا المنطقة الغربية التي كانت تتميز عن المنطقة الشرقية في سوريا، بالحكم الفرنسي المباشر عندنا والحكم الشريفي عند السوريين.

ولكن، كما قلنا، بعد معركة ميسلون وذهاب الشريف فيصل للعراق، حيث تربّع على عرش جديد كان ينتظره، قام لبنان الكبير كدولة.

الحاكم الأول: الذي كان جارنا

عيّنت السلطات الفرنسية الكابتن «ترابو» حاكماً لدولة لبنان الكبير.

والكابتن ترابو ضابط بحري افرنسي ـ كنا سمعنا عنه كثيراً قبل أن يأتي إلينا.

كان ترابو ـ أثناء الحرب ـ يحتل مع فرقة افرنسية جزيرة أرواد الصغيرة، جارتنا القريبة جداً التي يراها أهل طرابلس وزغرتا من بعيد عندما يصعدون فوق سطوح منازلهم. وكان الأتراك، أثناء الحرب، قد حاولوا طرده منها فلم يستطيعوا.

وكان الكابتن ترابو قد جعل جزيرة أرواد مقراً عاماً للاستعلامات الفرنسية، ولا نقول للجاسوسية الفرنسية، إذ أن الكلمة ليست لطيفةً، وقاسيةٌ على البعض من أهالي هذه البلاد.

هدية الجنرال المقطوع اليد

وكان الكابتن ترابو في جزيرة أرواد يجمع المعلومات العسكرية والسياسية التي يستطيع جمعها، ثم يجمع اللبنانيين الذين يستطيع جمعهم في خدمته على الشواطئ، يعطونه من جهة المعلومات التي عندهم، وهو يعطيهم من جهة ثانية المؤن وأكياس الذهب التي خصصها الفرنسيون لمساعدة اللبنانيين ـ وبنوع خاص اللبنانيون في كسروان ـ وجعلهم لا يموتون جوعا.

وكانت هذه الأموال تصل سراً لبعض الوجهاء والرهبان يوزعون منها ما تسمح به نفسهم، ثم يحتفظون بالباقي الكثير لهم ولأهلهم.

وهكذا عندما عَيَّنت السلطات الفرنسية بشخص مفوضها السامي الثاني يومئذٍ الجنرال غورو ـ المعروف باسم الجنرال المقطوع اليد ـ الكابتن ترابو حاكماً للبنان الكبير ـ بعد إعلانه بعشرة أيام فقط، وذلك في 10 تموز سنة 1920 ـ لاقى هذا التعيين استحساناً كبيراً عند اللبنانيين الجبليين ـ وخصوصاً عند الموارنة ـ لما لترابو معهم من علاقات عندما كان بجزيرة أرواد، ولما قدم لهم من خدمات ومساعدات.

وكان الكابتن ترابو رجلاً لطيفاً جداً وطائشاً كثيراً، لأنه كان حديث النعمة في الحكم، إذ إنه ما كان يتصور في حياته العسكرية البحرية المتوسطة والمحكومة، أنه سيصير ذات يوم حاكم دولة.

وعاش ترابو في منصب الحاكم سنتين ونيف، وهو لا يصدق أنه صار حاكم دولة.. وأية دولة؟

دولة اللبنانيين الذين اشتهروا منذ أيام المتصرفين بخضوعهم وانصياعهم وتقرُّبهم وتزلُّفهم للحكام، ووضع المحارم في أعناقهم عندما يزحفون للسرايات - وذلك بكل مسكنة وتخشع - فما تسلَّم ترابو كرسي الحكم حتى أحاطه اللبنانيون بمجالي التكريم والإجلال المتنوع التام.

وهكذا كان اللبنانيون على الأقل في ذلك الحين، وربما ظلوا حتى الآن، لا يصدقون أنفسهم.. كما أن ترابو لم يصدق نفسه يوم أخذ حاكمية لبنان الكبير، وذلك بعد أن مرت عليهم الأحداث المتعددة، وبعد أن تبدل حكامهم وتصاغروا، فأخذوا - كما يفعلون هذه الأيام وعلى مدى بعيد - يطمعون بأولئك الحكام ويركبون أكثر الأحيان على ظهورهم.

وعلى هذه القاعدة، ولكثرة ما تلاطف ترابو مع الناس، حتى جاء اليوم الذي انتهت فيه حاكميته اللطيفة الخفيفة الظل الكثيرة الهزار والهزل في السراي، كانت قد انتهت فيه هيبته كحاكم.

وكان ذلك في نيسان 1923.

وهو لو بقي يوماً واحداً في الحكم بعد ذلك لأصبح مهزلة بين السياسيين رواد السرايات الذين طمعوا أخيراً فيه وفي طيبة قلبه ولطافته، وكانوا أخذوا يعدونها، في سوء نواياهم، ضعفاً فيه وليست صفة إنسانية جميلة.

وساعده الحظ كثيراً في أنه ذهب في الوقت المناسب، فقد كان السياسيون، وعلى رأسهم عدوه الأكبر حبيب باشا السعد، قد تدبروا له نهاية سيئة يومئذٍ.

وما حفظ اللبنانيون عن حكم ترابو حتى الآن غير حكاية نزاهته الكاملة.

فقد ذهب من الحكم أكثر فقراً من اليوم الذي دخل إليه فيه، مع أنه كان بإمكانه - ليس في لبنان فقط، بل أيضاً وخصوصاً بجزيرة أرواد - أن يجمع ثروة طائلة من الأموال الكثيرة التي كانت تحت تصرفه يعمل فيها ما يشاء.

والنزاهة ماتت يومئذٍ، ولا تزال نادرة جداً في بلد أول ما يفكر فيه الحاكم عندما يدخل السراي أن عليه أن يجمع لنفسه ولآخرته ما يلزم أن يجمعه، ويوسّع أشغاله الخاصة أوّلا...

الموظفون الصغار الذين تحكّموا بالموظفين الكبار

وفي عهد ترابو بدأت دولة السكرتيرية.

السكرتيرية اللبنانيون عند الحكام والمستشارين الفرنسيين.

وكان معظم هؤلاء السكرتيرية هم بطبيعة الحال الذين يحكمون ضمنا.

إذ أن الحكام والمستشارين الفرنسيين الغرباء تماماً عن هذه البلاد، كانوا بطبيعة الحال يتكلون ويستندون على سكرتيريتهم الوطنيين، يتعرفون من خلال معلوماتهم وآرائهم ما يجب عليهم أن يفعلوه.

وهكذا كان السكرتيرية مستشاري المستشارين.

وكان تسعون بالمائة من السكرتيرية تلامذة الجزويت والعازاريين ومدارس الفرير، وساعد الرهبان الفرنسيون هؤلاء في توظيفهم في مكاتب الحكام والمستشارين، عندما كانوا - أي الرهبان - أصحاب الكلمة النافذة عند مواطنيهم المحتلين.

إنما في عهد ترابو، الحاكم الفرنسي الأول، كان الناس وأهل السراي والسكرتيرية لا يزالون يتلمّسون طريقهم في دولة قامت حديثاً، وفي وصاية أجنبية جعلت نفسها دولة فوق الدولة، وفي المزاحمة الإنكليزية المتتابعة مع الفرنسيين لبسط نفوذ لندن على لبنان، مع وجود الفرنسيين حكاماً فيه.

الحاكم الثاني: دوماً ضائع في كرم الرب

وما بدأت دولة السكرتيرية تعمل عملها الأكبر، وتفسد حكامها الفرنسيين، وتشتغل لمكاسبها إلاّ عندما جاء بريفا أوبوار حاكماً يخلف ترابو.

وكان بريفا أوبوار، ولا شك، إدارياً فهيماً مدركاً يحمل لقب حاكم بالمستعمرات، يعرف الأصول ويعرف كيف يحكم.

ولكنه كان أيضاً يعرف كيف يشرب.

وكان لا يعود يعرف شيئاً عندما يشرب.

لقد كان مدمناً على الخمرة أكثر من اللازم، مما كان يجعله يترك الأمر لمعاونيه - وخصوصاً سكرتيريته - الذين عرفوا كيف يأخذون حظهم وحصتهم من كل شيء.

وتذكر الموظفون اللبنانيون عند ذاك أيام الأتراك والبخاشيش والمتاجرات، فتنادوا دون كلام إلى إحياء العهد الذاهب السعيد، السهل الإثراء، ونجحوا أيضاً في إفساد مستشاريهم، الذين ما مضى عليهم وقت طويل، حتى استطابوا الكسب والربح، على أهون سبيل، دون أن يلاقوا عند أصحاب المصالح أي ممانعة أو دهشة - إذ وجد أهل المصالح أنهم عادوا إلى ما كانوا عليه في أيام الأتراك وأكثر، والقديم يتجدد غالباً وكثيرا.

ولم تطل حاكمية بريفا أوبوار كثيرا.

وكان قد دخل إليها سكراناً.. وخرج منها سكراناً..

ولا نقول إنه عمل شيئاً - لا مفيداً ولا غير مفيد - للبلاد، إذ أن المفوضية السامية كانت قد تولت عنه الحكم من الجهة المنتدبة العالية، والسكرتيرية بالسراي تولوا عنه الحكم من الجهة اللبنانية الداخلية.

وهكذا، في يوم ذهابه، انتهى كل شيء على خير في السراي ولم يشعر أحد منا بفراغ.

وكان يومذاك الجنرال ويغاند - المفوض السامي الجديد الذي خلف الجنرال غورو - قد وصل.

وكان الفرنسيون، بعد مفوضية جورج بيكو السامية المدنية، الضعيفة أمام الإنكليز، أخذوا يعيِّنون ثواراً مشهورين من منتصري الحرب، مفوضين ساميين هنا، متوخين من وراء ذلك جعل أهالي البلدين يتأثرون جداً من وجود قواد عظام من أبطال الحرب، يحكمون عندهم، مما يزيد في احترامهم وإجلالهم لفرنسا ووصايتها وسيطرتها.

الشيخ الوقور الماشي على العكاز

وعَيَّن الجنرال ويغاند صديقه القديم الجنرال «فندنبرغ» حاكماً على لبنان بدلاً من بريفا أوبوار.

وكان الجنرال فندنبرغ في عمر يليق به أن يكون حاكم شرف فقط.

كان قد جاوز الحد الأقصى في السن.

وجاء للسراي تحفة قديمة، مثل لوحة أو رسم ثمين جداً، ولكن الرسم إذا كان ثميناً فهو أيضاً من جهة أخرى جامد لا حياة فيه.

وكان الذين يعرفون الجنرال ويغاند من كبار الفرنسيين في المفوضية السامية يقولون في اليوم الذي عرفوا فيه أنه صار مفوضاً سامياً بهذه البلاد:

- هل يترك صديقه الجنرال فندنبرغ بفرنسا ويأتي وحده إلى هذه البلاد؟

وكان من المعروف أن الجنرال ويغاند أثناء الحرب العالمية من أولها إلى آخرها، يستصحب دوماً، وفي كل مكان في المعارك والقتال، وفي المجتمعات السياسية والاجتماعية، صديقه الجنرال فندنبرغ، وقليلاً ما كان الناس يشاهدون ويغاند ولا يشاهدون فندنبرغ إلى جانبه.

وعندما جاء وقت السفر لسوريا ولبنان، وجد ويغاند، الذي كان وفياً أميناً وعنده تتبع بالأفكار، أن لا يغير عاداته مع صديقه الجنرال فندنبرغ، وأن يجلبه معه أيضاً، ففعل.

ونزل ويغاند من الدارعة في مرفأ بيروت متأبطاً ذراع فندنبرغ.

وتساءل الحشريون بقولهم: «ماذا سيعمل الجنرال ويغاند بهذا الجنرال الذي جاء به إلينا - القديم جداً - في العمر والخبرة. والدون كيشوت بهيئته وهزاله وتكشيره؟».

ولما كان من الواجب أن يأخذ الجنرال فندنبرغ وظيفة ببيروت تبرر وجوده فيها، وتجعله يقبض معاشه عن حق، عينه ويغاند، بعد وصوله بقليل، حاكماً على لبنان الكبير، وانتهى الأمر.

وعرف هو، وعرف الفرنسيون، وعرف الأهالي، أن الجنرال فندنبرغ في الحكم إذا لم ينفع فهو لن يضر، إذ أنه كان قد وصل إلى وقت لا يمكنه أن يعمل لا هذا ولا ذاك.

ومع ذلك كانت هيئته وآدابه ولطافته توحي الاحترام والإجلال، وكان تَدَيُّنُه وحبه للناس من أفضل الصفات.

وكان اتكاله على معاونيه الفرنسيين وسكرتيريته اللبنانيين كاملاً، وأفضل طريقة للوصول للراحة التي هو بحاجة إليها.

ثم إنه كان يمشي على الساعة والدقيقة في كل شيء.

فكان أول ما عمله وحافظ عليه حتى النهاية، أنه عَيَّنَ موعد دخوله لسراي البرج يومياً الساعة الثامنة والربع صباحاً، وعَيَّنَ موعد خروجه من السراي الساعة الواحدة والربع ظهراً - لا دقيقة بالناقص ولا دقيقة بالزائد.

وكان المفوض السامي يكرمه أمام الناس إكراماً كبيراً، مما كان يجعلهم يشاركونه في ذلك التكريم.

وصادق فندنبرغ من اللبنانيين بنوع خاص هنري بك فرعون، وكان مثال الجندي الفرنسي القديم، من أولئك الذين كسبوا حرب القرم بروسيا، وعادوا إلى بلادهم وروح النصر تحيا في قلوبهم.

المفاجأة من باريس

وفي تلك الأيام الطيبة الهانئة الهادئة، وبينما الجنرال ويغاند المفوض السامي يقوم بأعمال كبيرة في البلاد، وبينما الجنرال فندنبرغ يحكم باسمه وبظله في سراي البرج - دون أن يعمل شيئاً - وبينما الناس بألف خير، قامت الانتخابات الفرنسية وربح فيها الشماليون المتطرفون على اليمينيين والمعتدلين الحاكمين، وجاء من وراء ذلك حزب الكارتل - الشمالي - يحكم.

وكان أول عمل قامت به حكومة المتطرفين استدعاء ويغاند من سوريا ولبنان، وتعيين الجنرال ساراي، أحد أركان الحزب المتطرف وعدو الثوب الأسود الأكبر، مفوضاً سامياً في البلدين.

وعندما وصل خبر هذا التعيين غير المنتظر، والذي جرى تحت التهديد - إذ أن الجنرال ساراي، الذي كان سريع الغضب وأكبر مشاغب عسكري سياسي بفرنسا وبطل سالونيك كما كان يدَّعي، وفعلاً هو الذي أنقذ سالونيك أثناء الحرب من الأتراك وحلفائهم الألمان - قلنا إنَّ الجنرال ساراي كان قد هدد حزبه بالخراب وإعلان الحرب

عليه إذا لم يعينه مفوضاً سامياً بسوريا ولبنان، وهي وظيفة كان أكبر الفرنسيين يتمناها إذ أنها تجعله ملكاً وبروقنصلاً ودكتاتوراً على بلدين - يدخلان بالأساطير والتاريخ والروايات وحياة الترف في الشرق البعيد - يعيش فيهما المفوض السامي كملك مُتَوَّج، مستقلاً تقريباً عن باريس، وعاملاً من البلدين دولة تخصه يحمل مقدراتها ومصيرها بين يديه يعمل بها ما يشاء.

قلنا وعندما وصل خبر تعيين ساراي إلى بيروت، يمكن القول إن جميع الفرنسيين هنا من جماعة غورو وويغاند اليمينيين أخذوا دون كلام ولا إنذار يحزمون حقائبهم، معرفة منهم أن ساراي سيطردهم بالعصا، ولربما بحراب السنغاليين، إذا وصل ووجدهم لا يزالون في هذه البلاد.

ووقع من جهة ثانية الهَمُّ بركاب السكرتيرية بأجمعهم، وهم يعرفون أن ساراي إذا لم يحبسهم حالاً فهو سيرميهم بالبحر، لأنه سيعرف أنهم صنائع الجزويت والعازاريين والفرير والمطارين والكهنة، وهو العدو رقم واحد لمن كان يسمِّيهم أهل الثوب الأسود.

وكان يصيبه، من شدة بغضه لرجال الدين، ضيق في صدره عندما يأتي ذكر هؤلاء أمامه.

فقد كان عدو الأكليروس الأقوى، والأكثر جنوناً وصخباً وحقداً، مما أثبتته وقائع مشهورة كثيرة في تلك الأيام، قامت بينه وبين الأكليروس المسيحي، وعلى الأخص بينه وبين البطريرك - وقد يأتي وقت نذكرها ونرويها للناس.

فإنما كان يكفي لأي كان من كبار السياسيين أن يذكر اسم الرهبان أمامه حتى يغضب عليه ويطرده خارجاً.

وعمل ساراي، وهو في ظهر البحر وقبل وصوله لبيروت بأربع وعشرين ساعة، ما كان الولاة والمتصرفون الأتراك يعملونه من قبله.

فقد كان الولاة والمتصرفون الأتراك المعيَّنون جديداً يبدأون وهم لا يزالون على ظهر المركب، يعزلون ويطردون الموظفين والحكام الذين في خدمة سلفائهم، ويعينون غيرهم، اعتباراً أن الموظفين الذين يكونون موالين لسلفائهم لا يمكنهم أن يكونوا موالين لهم.

وكان الولاة والمتصرفون عندما ينزلون للبر بعد ذلك لا يجدون أحداً من أولئك الذين كانوا في خدمة الحكام الذين سبقوهم.

وبدأ ساراي قبل أربع وعشرين ساعة من وصوله لبيروت بعزل الجنرال فندنبرغ بطريقة مختصرة مقتضبة عسكرية محضة، إذ أنه أبرق للمفوضية السامية يقول:

- إذا لم يترك فندنبرغ السراي حالاً فإني مستعد أن أدخلها وأطرده منها...

نعم هكذا...

وطبعاً ترك فندنبرغ السراي حالاً - ولا نعرف لماذا لم يسافر يومئذ رأساً إلى فرنسا، حيث له في مدينة انتيب قصر ومكانة محترمة وأهل ومعجبون - وذهب ينزل ضيفاً مكرَّماً معززاً على صديقه هنري بك فرعون الذي فتح له بيته، مع أنه كان يعرف أن ساراي لن يغتفر له، مما هددناه شجاعة كبرى يومئذ، إذ أن اسم ساراي كان يجعل سامعه يتهيب دوماً ويخاف.

وظل فندنبرغ شهراً كاملاً في قصر هنري فرعون لا يخرج منه خوفاً من أن يكون ساراي يكيد له المكائد ليوقعه فيها بقصد إذلاله، ولربما لإقصائه من هذه الحياة.

الذين كانوا فوق صاروا تحت

ما كان الجنرال ساراي يصل إلى البلاد حتى انقلب كل شيء إلى عكسه.

فبعد أن كنا نرى السرايات تضيق بالكهنة وصنائع الكهنة وأهل الدين، صرنا نمر بها فلا نرى فيها ثوباً أسود واحدا.

وبعد أن كان السكرتيرية يتمخطرون ويتجبَّرون فيها، صرنا نراهم ينسلُّون إليها بالخفاء، يلاصقون الجدران كي لا يُشاهدهم أحد كأنهم لصوص جاؤوا يسرقون.

وبعد أن كان الماسونيون، لا يجسرون على الظهور ويعقدون بخوف ووجل اجتماعاتهم السرية الخفية، نزلوا إلى الساحة ودخلوا السرايات وأخذوا مكانة ونفوذ الرهبان فيها، وذلك في ظل الأخ الفائق الاحترام الجنرال ساراي، الذي كان من أعلام الماسونية العالمية الكبار.

وكان ساراي كل يوم يخلق روايات جديدة، ويطرد، بوحشية وصخب، من حضرته السياسيِّين القدماء، ويعقد المؤتمرات الصحفية، يهاجم فيها الكنيسة ورهبانها، حتى أنه في المؤتمر الصحفي الأكبر الذي عقده ذات يوم، وقف في وسط الخمسين صحفياً الحاضرين، وقال للصحافي المعروف الخوري لويس الخازن الكث اللحية والكثير الجرأة:

- وأنت ما جئت تعمل هنا؟

أجاب الخوري لويس:

- جئت أسألك لماذا لا تزور البطريرك؟

وأجاب ساراي بتهكم:

- أي بطريرك؟؟ ففي هذه البلاد لا أجد غير البطاركة والمطارنة.. فإذا أخذت أزور كلاً منهم، فقد تنتهي مدتي ولا أنتهي من هذه الزيارات!..

ولما أراد الخوري لويس أن يجيب، بادره ساراي قائلاً:

- اسمع مني واشلح هذا الثوب الذي يجعلك بشعاً جداً... ولا تنسَ أن تحلق لحيتك.

وأدار أنظاره فوجد أمامه جبرائيل خباز صاحب الأوريان الذي كان أخذ جانب الأكليروس بصراحة وعنف ضد ساراي، وقال له:

- وأنت إذا كنت بحاجة لبضع لبطات في مؤخرتك، فعليك أن تأتي مرة ثانية إلى هنا...

ولما أراد الشيخ يوسف الخازن الاحتجاج، أمسكه ساراي بكتفيه ورماه خارج القاعة!..

وكانت هناك صحافية افرنسية عجوز ظهرت منها حركة تدل على نوع من الاحتجاج، فقال لها ساراي:

- لو رجعت يا سيدتي إلى الوراء ستين سنة، ولو رجعت أنا أربعين سنة، لكنت عرفت كيف أجعلك تقبلين بكل ما أريد وأقول...

وفي غضون ذلك كان ساراي قد عيَّن، في 16 كانون الثاني 1925، حاكم المستعمرات ليون دي كايلا حاكماً على دولة لبنان الكبير بدلاً من الجنرال فندنبرغ.

حاكم جميل وماسوني

وكان أول شيء عمله دي كايلا - كي ينال ثقة معلّمه - أنه أخذ يظهر عداءه للأكليروس أكثر مما كان يظهره ذلك المعلم.

وكان، كلما زاد في مطاردة الأكليروس ومصالحهم وقفل أبواب السرايات بوجههم، يزداد نفوذاً عند ساراي.

وكانت الأحزاب الأكليريكية والجزويت والعازاريون وغيرهم قد أعلنوا الحرب على ساراي ودي كايلا، بطريقة عنيفة جداً، تلك الحرب الضروس التي لم يكن أحد يفتكر أنه سيأتي وقت يربحونها، إذ أن ساراي كان قد سيطر على البلاد بعسكره وجرأته وتعاون المسلمين والعلمانيين بأجمعهم معه.

وكان دي كايلا قد أجاب بكلمته المعروفة - التي أثارت الكثير من الضحك والتأسف معاً، وذلك جواباً على مقالة نارية للشيخ يوسف الخازن يطعن بها حكم ساراي وزلته حاكم لبنان الكبير - قال دي كايلا:

- الكلاب تنبح والقافلة تمشي...

وأثارت هذه العبارة غضب اللبنانيين القدماء المارونيين حتى الدروز منهم، ومع ذلك مشت القافلة مدة في الطريق لا يجسر أحد على اعتراضها.

ولكنها لم تمش طويلاً جداً - كما سنرى - عندما لم تعد الكلاب تنبح بل أخذت تعض.

إنما لا يجب أن ننسى حسنات دي كايلا في إدارة البلاد وحسن الحكم فيها، وتقسيمه لبنان الكبير إلى 16 محافظة، وملاحقته السارقين والنهّابين ووضعه حداً لمتاجرات السياسيين، وتقرُّبه من الأهالي بطريقة أخوية، طريقة فعلية أكسبته الكثيرين من الأصدقاء.

وكان من أفضل ظواهر ذلك التقرُّب بادرته بخطوبة إحدى بنات البلد، الآنسة عكاوي، وقد تزوجها بعد ذلك، وكانت في فرنسا وفي السنغال - حيث صار دي كايلا حاكماً بعد تركه لبنان - أفضل انموذج للمرأة اللبنانية الفاضلة.

أما مقاتلة دي كايلا في ذلك الوقت العصيب، أثناء حرب ساراي مع البطريركية، والمطران أغناطيوس مبارك بنوع خاص، فلا يزال المعاصرون يتحدثون عنها لما تخللها من طرائف وفواجع، وكانت أخبارها سلوى ولهو الأندية والأوساط، وكان المطران مبارك قرماً عنيداً لا يلين، حتى أنه ذات يوم هدد علناً وأمام الجماهير أن يذهب ويصفع دي كايلا في وسط السراي.

وبدون مبالغة، يمكن القول إن الناس في هذه البلاد، على جميع طبقاتهم، انشغلوا عن كل شغل آخر، بقتال دي كايلا ومعلمه مع الأكليروس، وبقتال الأكليروس مع دي كايلا ومعلمه.

باريس تساوي قداساً

وظل الأمر هكذا حتى جاء الوقت الذي اكتشفت فيه باريس بعد ذلك، وعلى أثر الشكاوى المتعددة على ساراي ودي كايلا، وذهاب الوفود الكثيرة إليها - وعلى رأس أحد هذه الوفود اميل اده - يشرحون الحالة هناك ويقولون إن فرنسا إذا كانت لها تقاليد قديمة ومتواصلة مع لبنان، فهذه التقاليد قامت مع البطريركية ورهبانها وبواسطتهم، فإذا خاصمت فرنسا البطريركية ورهبانها الآن، فهي كأنها تلغي تلك التقاليد.

وأخيراً وجدت فرنسا - أن بضاعة محاربة الأكليروس والرهبان لم تعد صالحة للتصدير - ويجب أن تبقى بضاعة للسوق المحلي الفرنساوي - لذلك أرسلت ذات يوم وبدون تأخير تنذر مفوضها السامي بوجوب المصالحة مع البطريركية والرهبان والأحزاب التابعة لهم.

وأخذ الناس عندما عرفوا بهذه الأوامر - التي حملها علناً من باريس اميل اده وجماعته - ينتظرون أن يحمل ساراي سيفه ويذهب إلى البطريركية يقطع فيها الرؤوس، حتى أن بعضهم انتظروا أن يروا ساراي يعلن انفصاله وانفصال سوريا ولبنان عن فرنسا، والمناداة بهما دولة مستقلة علمانية عدوة لرجال الدين، يكون هو زعيمها.

وانتظروا من دي كايلا أن يفعل مثل أشيل عندما لجأ إلى مضربه في حرب طروادة، فيترك الحكم ويذهب إلى بيته صاخباً غاضباً في تظاهرة صاخبة تكريمية كان قد استعد لها الماسونيون، وخصوم الأكليروس هنا.

ولكن لا ساراي سحب سيفه.

ولا دي كايلا عمل مثل أشيل.

بل الاثنان عملا ما لم يكن أحد ينتظره منهما.

وكان ساراي قد قال يومئذٍ حكمته المشهورة لصديقه الوجيه عمر بيهم وهي:

ـ المفوضية السامية تساوي قداساً، فطالما تريد مني باريس أن أذهب للقداس فسأفعل.

ذهبا إلى بكركي يزوران البطريرك

وعلى أثر ذلك، اتفق ساراي ودي كايلا وذهبا لبكركي يحضران القداس.

وفتحا ثاني يوم أبواب السرايات أمام الرهبان الذين ما عتموا حتى عادوا أصحاب البيت، وصار جماعة العلمانيين أغراباً، وأقرَّت فرنسا أن بضاعة محاربة الأكليروس لم تعد بضاعة تصدير، وإذا كانت قائمة بفرنسا بطريقة رسمية ففي لبنان وسوريا لا يمكن أن تقوم بضاعة إبعاد الأكليروس ورجال الدين عن الدولة.

وكان من وراء ذلك أن دي كايلا جدد ولايته، كما فعل بعد ذلك الشيخ بشارة الخوري.

وقد أراد المفوض السامي وأرادت البطريركية نفسها أن يكون تجديد الولاية لصديقها الجديد بطريقة أقوى وأشد، فكلَّف المفوض السامي المجلس النيابي هذه المرة بأن يجدد لدي كايلا بطريقة برلمانية.

وتم الشيء في 16 تموز سنة 1925.

دي كايلا وساراي وقمصان الحسان

ولكن لم يطل الأمر كثيرا.

وأي شيء ـ كان حسناً أو قبيحاً ـ يطول مع الفرنسيين المعروفين بالتقلُّب وحب التغيير، وتبديل حكامهم بالسرعة التي تبدّل فيها حسانهم قمصانهن؟؟

قلنا لم يطل الشيء كثيراً، إذ جاءت انتخابات جديدة بباريس ربحت فيها الأحزاب المتوسطة اليمينية فأعادت المعتدلين للحكم.

وقبل أن يصل الأمر بعزل ساراي ودي كايلا، وتعيين غيرهما في سوريا ولبنان، كان البطلان قد تركا السرايتين، وأخذا يحزمان حقائبهما.

وعند هذا الحد انتهت ولاية الحاكم الرابع والأخير في لبنان، وانتهت معها حكاية لبنان الكبير، وصارت الدولة جمهورية.

وجاء أول رئيس للجمهورية شارل دباس، وأعلن دستور البلاد وذلك في 26 أيار سنة 1926.

أول جمهورية عربية في العالم

وقد قال العارفون يومئذ إنَّ ساراي لو لم تشغله أحقاده ضد الأكليروس، لاستطاع ـ بما كان عنده من نشاط وحب للحريات والتحرر ـ أن يعمل كثيراً في هذه البلاد.

وقد ترك في تاريخ لبنان ذكرى سعيدة ـ سجلها له ـ إذ أنه كان أول من نادى بلبنان جمهورية، عندما قام يستفتي الأهالي في وضع الدستور اللبناني وإعلان الجمهورية بموجبه. وذلك في 24 أيار 1926 وجاء بعده المفوض السامي هنري دي جوفنيل ينفِّذ هذه الرغبة ويعلن الدستور.

وكان قد طلب من المجلس النيابي الذي صادق على ذلك الدستور ـ بعد إلغاء الحاكمية الفرنسية المباشرة ـ القيام بانتخاب رئيس لبناني للجمهورية الجديدة، ولكن النواب اختلفوا فيما بينهم، مما جعل المفوض السامي يلغي مجلسهم ويعطل الدستور الجديد، ويمدد مدة الحاكمية الفرنسية، إلى أن جاء الوقت المناسب الذي أعلنت فيه المفوضية السامية الجمهورية اللبنانية الجديدة بعد انتخابات جديدة انتخب فيها المجلس الذي انبثق عنه أول رئيس لأول جمهورية في البلدان العربية من جبال طورس حتى تونس.

فإنما الجمهورية اللبنانية تستطيع أن تقول إنها كانت أول جمهورية قامت في هذا الشرق الأوسط وفي أفريقيا، وخصوصاً بين الثلاث عشرة دولة عربية ـ ممالك وإمارات ـ التي قامت بعد حرب 1914.

والآن إلى القرَّاء حديثنا الكامل المستفيض عن كل رئيس من الرؤساء التسعة الذين مرُّوا علينا حتى اليوم.

ثمانية رؤساء ..
في التّاريخ

1

شارل دبَّاس

بَدأ كَبيراً.. ثم خَانَه نجمُهُ

لقد عاصرنـا وصادقنا وتعاملنا مـع جميع رؤسـاء الجمهورية فـي لبنان، منذ اختار الفرنسيون المرحوم شارل دباس أول رئيس للجمهورية اللبنانية في 24 أيار سنة 1926، في عهد المفوض السامي الفرنسي الكونت دي جوفنيل. وقد أعددنا سلسلة من الأبحاث عن كل رئيس من الرؤساء الذيـن تعاقبوا على الحكم منذ ذلك الحين، بادئاً بالرئيس الأول شارل الدباس، ولا شك في أن هذا الموضوع الطريف يجد صدى زاهياً فـي هـذه المرحلة الجديدة من حياتنا الجديدة النيابية، ويربط الحاضر الذي نعيش بالماضي الذي نسينا.

لماذا كان الفرنسيون يلقِّبون شارل دباس أول رئيس لجمهوريـة لبنـان بملـك الداهومي؟

كان شارل الدباس يلبس فـي الحفـلات الرسـمية برنيطة «الجوبيس» السوداء، فوق رأس تزيد سمرته عن المعدل العادي، ويرتدي «الرادنكوت» فوق جسد قصير وهزيل، ذي فخذين ملتويين مترهلين، يحيط به رهط من الضباط، والمستشارين الفرنسيين البيض الوجوه، الرشيقي القامات يرتدون البزات البراقة الجميلة، الحسني الهندام. وكان الدباس يتوسطهم ويمشي أمامهم مثل ذاك الملك الأفريقي الأسود الذي يستعمرون بلاده، فلا يجدون بين انتدابهم على لبنان وبين استعمارهم للداهومي من فارق كبير، إلا الرادنكوت الذي كان يلبسه الدباس!

وكان المفوض السامي الجنرال ويغاند يقول لرجال المفوضية والجيش: «لا فرق بين الدباس وملك الداهومي سوى أنكم كنتم تضعون ملك الداهومي فـي جيبكم، في حين أن الدباس هو الذي يضعكم في جيبه!».

وفعلاً ما اختلف الدباس مرة واحدة مع الفرنسيين الذين جاؤوا به رئيساً للجمهورية، إلا وخرج فائزاً. والواقع أن الدباس لم يكن خاضعاً للفرنسيين طائعاً

يعمل لهم ما يريدون، بل كان يعرف أن يعمل ما يريد، حتى الأشياء التي لا توافق الفرنسيين. وكان في حيلته الواسعة ولباقته المأخوذة عن فن المتاجرة الحاذقة عند أهل بيروت يقنع الفرنسيين بما لا يريدون، ويجدون رأيه في النهاية موافقاً لهم!

وهكذا، طيلة الأربع سنوات التي كان فيها الدباس رئيس جمهورية لأول مرة، حكم الدباس البلاد مباشرة مع اعتنائه بإيهام الفرنسيين بأنهم هم الذين يحكمون!

وكان يصل في هذه المخادعة النبيهة إلى حد الهياج والغضب ضدّ كل من يكتشف حيلته ويقول إنه هو الذي يحكم!

كان يستنكر هذا الكلام، ويوبّخ قائله، ويعلن في كل مناسبة أن الحكم بيد الفرنسيين، وأن رئاسته للجمهورية، رئاسة شرفية تقريبا!

وكان الفرنسيون، من وراء هذا الكلام، يزيدون في تطويل الحبل له، أكثر وأكثر!

وهكذا استطاع أول رئيس جمهورية في لبنان المعيَّن من قبل الفرنسيين، أن يحكم مباشرة، بالطريقة المتلاعبة التي شرحناها.

عندما نسي الفرنسيون مار مارون

سؤال آخر...

لماذا انتقى الفرنسيون رئيس الجمهورية الأول أرثوذكسيا؟

ولماذا شارل دباس، وليس نجيب سرسق الذي كان مُقدَّراً أن يكون هو الرئيس، لما كان عليه من وجاهة وثراء ومكانة كبيرة؟

الجواب يعود إلى أوائل أيام الاستقلال عند وصول الفرقة العسكرية الفرنسية لبيروت مع المارشال اللنبي وجيشه الظافر.

وفتح الفرنسيون أبواب المفوضية السامية الفرنسية في قصر علي جنبلاط الذي لا يزال قائماً حتى الآن على محطة الداعوق...

وكان المسيو كولندر - نائب القنصل الفرنساوي ببيروت - قبل الحرب العالمية الأولى، قد جاء على رأس البعثة السياسية الفرنسية في تشرين الثاني 1918، لتكون نواة المفوضية السامية، وفي انتظار جورج بيكو كان المسيو كولندر يقوم بوظيفة المفوض السامي.

وذهب كولندر، في أول أحد من بعد دخول الفرقة الفرنسية لبيروت، ومن بعد تمركزه مع بعثته في قصر علي جنبلاط، ذهب يترأس قداساً حبرياً احتفالياً هاماً

في كاتدرائية مارجريس المارونية على البرج، وهو قداس حضره كبار الزعماء، وعظماء الموارنة بأجمعهم، وقد جاؤوا يدعون فيه بدوام النصر للأم الحنون.

وعلى أثر القداس، وقف المسيو كولندر وألقى خطاباً حيّاً فيه الموارنة، وأشاد بصداقة فرنسا لهم منذ أجيال وأجيال، وأضاف: «لقد جاءت فرنسا لعند أصدقائها التقليديين الموارنة تقف بجانبهم وتلبي نداءهم وتحافظ عليهم وعلى صداقتهم إلى الأبد».

وبطبيعة الحال، قامت قيامة المسلمين وحتى الأرثوذكس والدروز، وأخذوا يقولون في كل مكان:

- وهكذا تأتي فرنسا عندنا للموارنة فقط...

واعتبر بعض كبار الموارنة هذا الكلام خطأً سياسياً فادحاً، وفي مقدمتهم حبيب باشا السعد الذي كان يستعد للعودة إلى رئاسة مجلس الإدارة بجبل لبنان. وكان الأتراك في بداية الحرب العالمية الأولى عندما وضعوا يدهم على جبل لبنان، قد عزلوه وعزلوا المجلس بأجمعه.

وما أن وصل المفوض السامي جورج بيكو بعد أيام حتى استُدعيَ المسيو كولندر إلى باريس. وكان العارفون من الفرنسيين في غضون ذلك قد أخذوا يشجبون أمام المسلمين كلام المسيو كولندر، ويستنكرونه مما خفف رويداً رويداً من غضبةِ المسلمين. وكان الفرنسيون بحاجة إليهم، كما كانوا بحاجة للموارنة، في الاستفتاء الذي كان قد تقرر إجراؤه.

جمهورية الدباس

ثم جاء الوقت لتعيين رئيس جمهورية لبناني، في أوائل سنة 1926، بعد الثورة السورية. وكان قد توالى على لبنان منذ دخول الفرنسيين أربعة حكام هم: الجنرال ترابو، بريفا أوبوار، الجنرال فندنبرغ، المسيو كايلا...

وهكذا، عندما جاءت الوقت لتعيين رئيس جمهورية وطني، رأى الفرنسيون أن يأتوا بأرثوذكسي لكرسي الرئاسة، فيخففون هكذا من الاعتقاد الذي غرسه كلام كولندر في نفوس الناس، بأن فرنسا جاءت تخدم الموارنة وحدهم في لبنان وتستبعد ما سواهم.

وقد ظل استياء المسيحيين من غير الموارنة، والمسلمين، من كلام كولندر راسخاً في نفوسهم عدة سنوات. ولو لم يتدارك الفرنسيون هذا الاستياء، لأثر كثيراً على الاستفتاء الذي جرى سنة 1922 بإشراف لجنة كراين الأميركية، التي أرسلها الرئيس ولسون صاحب الأربعة عشر بنداً المعروفة.

وأنا ممن يعتقدون أن بنود ولسون خربت العالم وأيقظت الشعوب الصغيرة قبل أن تنضج، ودفعتها في كل مكان إلى خلع نير الدول الكبرى، مما أدى إلى قيام كل هذه الجمهوريات الجديدة العديدة، وهي جمهوريات ابتدعت الفوضى السياسية في العالم، ولا يعرف إلا الله كيف تنتهي هذه الفوضى...

ماضي الدباس

الخلاصة، لقد خفف تعيين رئيس جمهورية من الأرثوذكس سنة 1926 كثيراً من التوتر الذي كانت تصريحات كولندر قد خلقته على البسطة خاصة وعند المسلمين عموما. وتوفق الفرنسيون بهذا التعيين، لأن أيديهم وقعت على الدباس، الرجل المنشود المطلوب.

وكان الدباس مجاهداً لبنانياً قديماً، ولم يكن نكرة في أيام الأتراك، فقد سبق له أن سافر للأستانة وكسب فيها مكانة سياسية، ثم لعب بعد ذلك دوره المعروف في باريس، عندما ذهب إليها وانضم إلى اللبنانيين الذين كانوا يطالبون فيها بفصل لبنان عن الدولة العليَّة، فبعد أن قضى الدباس مدة بأستنبول، اشتبه الأتراك بنشاطه السياسي الميال لفرنسا، فأخذوا يراقبونه عن كثب، وكانت حاسة الشم قوية عنده، فاشتم الشر عند البوليس التركي، وذات ليلة هرب من استنبول لباريس، تلاحقه الحكومة العثمانية كفدائي لفرنسا وعامل لها.

وهكذا كان له حساب عندما استُدعيَ لرئاسة الجمهورية.

السيدة التي جلست على الكرسي

وكان له حساب كبير آخر لا لمعرفته اللغة الفرنسية معرفة أكثر من كاملة، ولمكانته في المحاماة العالية، بل لأن زوجته افرنسية باريسية، وكان لها شخصية اجتماعية بارزة براقة جعلت بيوتات أهل المفوضية الكبيرة تتفتح أمامها، وتتفتح بطبيعة الحال، وعن طريقها، أمام زوجها...

وكانت في درايتها ولباقتها ومعرفتها للطبقة الغنية في هذه البلاد، قد فتحت بنفسها دور السراسقة وأهل الحي الفرنسيين، حيث كانوا يلاقون الترحاب الكبير المتحمس الذي كان يلاقيه قبلهم رجال تركيا العظام، وعلى الأخص جمال باشا أيام الحرب العالمية الكبرى.

هكذا خطت هذه السيدة بزوجها الخطوة الأولى نحو رئاسته للجمهورية، وبالطريقة المدهشة، التي خطاها!

ولا ننسى سبباً آخر في انتقاء الفرنسيين لأول رئيس جمهورية في لبنان من الأرثوذكس، وهو أن الأرثوذكس أخذوا جانب فيصل والقضية العربية بحماسة كبيرة، فتعيين شارل دباس خفف من وقع غلطة كولندر الكبيرة، التي كان يجب أن يمضي وقت طويل قبل أن تمحوها الأيام.

الدباس ومار مارون

والرجل الوحيد الذي كان يستطيع أن يحتج على ذلك، ولا يرضى برئيس غير ماروني، كان مار الياس الحويك بطريرك الموارنة. ومع ذلك فإنه كان أول من وافق على تعيين الدباس، وقال يومئذ كلمته المشهورة: «الحاكم غير الماروني لا يتغنج علينا ويطمع بنا مثل الحاكم الماروني!».

وحافظ الدباس، طيلة رئاسته الطويلة على مداراة بكركي ودوام تعاونه معها، وإظهار تقديره لها، وجعلها تعتبر أنه لا يخالف لها رأياً ولا يرفض لها طلباً.. حتى أنه وصل ذات يوم في حفلة تذكار صعود البطريرك للسُّدَّة، للقول في خطابه الرسمي كرئيس للجمهورية: «نحن دوماً نستمد من غبطتك القوة والحكمة، ونسير بمشيئتك، فلا نقوم بعمل لا تكون راغباً فيه وموافقاً عليه».

واستطاع الدباس في ذلك الحين أن يتمتع عند المسلمين بكثير من التأييد، وكان الشيخ محمد الجسر يردد هازلاً ومازحاً عبارة قالها أحد وجهاء بيروت المسلمين للفرنسيين! «هاتوه زنجياً ولا تجلبوه مارونيا!»

وطبعاً أخذ الدباس بعد خطابه في بكركي يفقد كثيراً من التأييد الإسلامي. وما لبث أن اعترف بأنه أخطأ في ذلك القول، وكانت خطيئته الأولى في السياسة.

الشيخ محمد كان نصف السراي والدباس النصف الآخر

ومع هذا كان الدباس يعرف كيف يستدرك أموره. فقد كان عنده سند دائم قوي من المسلمين لا يمكن لأحد انتزاعه منه...

كان عنده الشيخ محمد الجسر!

وكان الدباس، ومن ورائه الفرنسيون، قد أعطوا الشيخ محمد الجسر من القوى والرأسمال السياسي، والمنزلة العالية والكلمة المسموعة، ما ضمن للمسلمين تمثيلاً قوياً في الحكم، وهذا ما كان ينقصهم تماماً قبل رئاسة الدباس، عندما كانت الأحكام كلها تقريباً بيد الموارنة..

وكان محمد الجسر بنباهته وشخصيته البارزة جداً، يساعد كثيراً في إظهار نفسه، ممثلاً للمسلمين بالدولة، محافظاً على جميع حقوقهم متمتعاً بجميع الميزات التي يطلبون!

وكان الدباس في دهائه الغريب، يعطي المسلمين كثيراً، على شرط أن يكون العطاء عن طريق الشيخ محمد الجسر!

وكان الدباس يقول مع دزرائيلي:

«الحاكم مهما كان قوياً، يتعب أخيراً إذا ظل يمشي وحده...»

وهذه الحكمة السياسية كان الدباس قد حفظها جيداً لذلك جمع حوله معاونين تأكد من إخلاصهم ونباهتهم، وعلى رأسهم الشيخ محمد الجسر، فساهموا كثيراً في القوة والسلطان اللذين وصل إليهما...

الحيمري الخالد

وكان الدباس ماهراً في فن الانتقاء.

وطيلة أيام حكمه، حاول أن يُبعِد عن محيطه المعاونين غير المخلصين، ولم يقرِّب إليه سوى الذين يؤمن بإخلاصهم.

وكان من أخلص وأقدر معاونيه الذين ظلوا وراء الكواليس، ولكن ساعدوه كثيراً في رئاسته، الأستاذ جورج حيمري - الذي يرجع له الفضل الأول في تنظيم ديوان رئاسة الجمهورية بلبنان، وهو تنظيم ظل وحده حتى الآن منظماً، فليس في دوائر الحكومة دائرة بقيت على قيمتها وإتقانها وحسناتها مثل دائرة ديوان الرئاسة. وقد

يكون سبب ذلك أن الحيمري ما يزال حتى الآن مسؤولاً عنها ويدير شؤونها، يعاونه الأستاذ سركيس الذي يثبت أهلية صادقة كبيرة، ويقوم بمهمة المستشار السياسي الحكيم الخبير لرئاسة الجمهورية.

سبحان الكامل

ولكن الدباس بَشَرٌ...

فالدباس الذي لا يزال الكثيرون من المعاصرين يعتبرونه المثال الأصح للحاكم ورئاسة الجمهورية، ذهب من الحكم ولم ترافقه كرامته ولا تقدير الناس له.

لأنه لم يعرف كيف يذهب مع أمجاده...

لم يذهب مثل بسمارك وجوريس وتشامبرلن...

ولم يعرف يوم ترك الحكم كيف يتركه...

تركه غاضباً ومتأسفاً وحقودا.

ترك السراي تقريباً من الشبّاك بعد أن كان قد دخلها من الباب الكبير.

تركها ليصير نائباً بالتعيين وليصبح رئيس مجلس!..

ولماذا؟.

لقد كان يوم تركه الرئاسة أكبر من الرؤساء الذين سيخلفونه، كما كان أكبر من الحكام الفرنسيين الذين سبقوه...

لماذا لم يعتكف في بيته، كما فعل الشيخ الروماني العظيم سنسناتوس؟..

لقد كان الكثيرون منا يأملون منه أن يكون كذلك الروماني العظيم الذي كان يعود كل مرة في نهاية حكمه لحقله يزرعه ثم يلجأ إليه الرومانيون كلما احتاجوا إلى حاكم صالح!..

لماذا على الأقل لم يعمل مثل بشارة الخوري الذي، بعد 25 سنة من رئاسة الدباس، ذهب من رئاسته إلى عزلته في الكاسليك وحافظ على كرامته فيها قدر ما سمحت له الأيام والأحداث والأعداء بذلك؟

لماذا قبل الدباس بعد خروجه من الرئاسة أن يصبح نائباً بالتعيين، ثم خرب الدنيا حتى صار رئيس مجلس، وكانت رئاسة المجلس أقل من مديرية، لو لم يخلق لها الشيخ محمد الجسر قدراً وقيمة.

ولما شاهد الناس الدباس ينزل هكذا، شمتوا به وأخذوا يساعدونه على النزول أكثر فأكثر...

كما وأنه هو ساعد نفسه كثيراً في ضياع كل ما بناه من أمجاد، عندما اكتشف الناس السبب، وأدركوا أنه ما عمل نائباً بعد الرئاسة، وما عمل رئيس مجلس، إلا ليجعل النواب يقررون له - كما فعلوا في الواقع - تعويضاً عن رئاسته للجمهورية، لم يكن له حق كبير فيه!

وكانت قيمة التعويض 18 ألف ليرة سورية لبنانية، أي ما يعادل يومئذ خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهبا.

الدباس بيروتي قبل كل شيء

ويظهر أن روح المتاجرة المعروفة عند البيروتيين، والتي ترافق كلاً منهم مهما كان عظيماً ومنزَّهاً وشريفاً، هي التي جعلته يشتهي هذا التعويض، يوم لم يكن يفتكر فيه أحد ويحسب له حساباً؟

وحلَّ الفرنسيون مجلس الدباس بسرعة بعد ذلك...

وذهب حاكم الأمس إلى بيته تاركاً أمجاده بأجمعها في الشارع، ومعتبراً الثمانية عشر ألف ليرة، التي دكَّت حصون تلك الأمجاد، خير تعويض على فقدانها...

2

حَبيب بَاشا السَّعْد

دخَل نظيفاً.. وخرَج نَظيفا!

خطيئة حبيب باشا السعد الأصلية، كادت تدوم بلا غفران قدر ما دامت خطيئة آدم وحواء...

ولكن حبيب السعد سارع إلى تدارك أمره، وعوَّض عن تلك الخطيئة التي أخذها عليه مزاحموه على الوجاهة المارونية، داوود عمون واميل اده ونعوم اللبكي وغيرهم، ووصفوها بأنها جريمة وخيانة...

ولو أن حبيب باشا لم يفعل ذلك ويتدارك أمره مع الفرنسيين، لما صار رئيس جمهورية طيلة حياته. فحبيب باشا منذ أول يوم دخل فيه الفرنسيون إلى هذه البلاد مع جيش الجنرال اللنبي كان الماروني المغضوب عليه رقم 1 بنظر الفرنسيين، وظل هكذا إلى الوقت الذي أخذ يعوِّض عما فات...

وخطيئة حبيب باشا السعد كانت في أنه قبل في خريف سنة 1918، عند دخول الحلفاء لسوريا ولبنان، أن يتولى حاكمية جبل لبنان عن يد شكري الأيوبي الذي كان الملك فيصل قد أرسله بسرعة، إلى بيروت، قبل أن يصل الفرنسيون إلى بيروت، وعيَّنه حاكماً عاماً للبلاد يخلف الحكومة المؤقتة المحلية التي كانت تألفت من بعض ذوات بيروت وعلى رأسهم عمر الداعوق وأحمد مختار بيهم.

وكان الملك قد أمر بإنهاء مهمة تلك اللجنة، بعد أن حكمت بيروت بضعة أيام خلال الفترة التي مرت بين انسحاب الأتراك، وبين دخول الإنكليز، وتمركز قيادتهم ببيروت.

ولكن حكم الملك في لبنان عن طريق وكيله شكري باشا الأيوبي لم يدم طويلاً، وانتهى عند دخول الفرقة الفرنسية للبنان بعد أيام، فترك الأيوبي بيروت، والفرقة الفرنسية كانت ما تزال في طريقها إليها من جهة الدامور.

استأذن الأميرال

وطبعاً، ذهبت حاكمية حبيب باشا عن جبل لبنان بذهاب حاكمية شكري الأيوبي عن بيروت وعن المنطقة الغربية بأجمعها.

وأخذ الفرنسيون، وكبار الساسة الموارنة المقربين الأخِصَّاء للمحتلين، على حبيب باشا قبوله الحكم عن يد الملك فيصل. ولكن الباشا أكد أنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن استأذن أميرال البحر الفرنساوي، الذي كان أسطوله قد رابط في عرض البحر ببيروت - مع بعض القطع البحرية الإنكليزية. وكان هذا الأميرال قد وصل للمياه اللبنانية قبل وصول جيش الجنرال اللنبي ببضعة أيام إلى المدينة.

وأكد حبيب باشا السعد أن الأميرال الفرنسي لم يحبذ فحسب قبوله حاكمية جبل لبنان ومركزها قصر المتصرفية ببعدا، بل شكره أيضاً على ذلك. ولو لم يقبل هو هذا المنصب، وهو اللبناني الماروني، لعَيَّن الأيوبي مكانه حاكماً سورياً غريباً عن لبنان، مما يخلق المشاغب والمتاعب للموارنة وللفرنسيين عندما يصلون...

ومع أن منطق هذه الادعاءات صحيح، فإنه لم يمنع الفرنسيين عند دخولهم البلد من عزل حبيب باشا من الحاكمية في بعبدا واعتباره نوعاً ما خائناً.

وقيل له إن الواجب كان يقضي عليه برفض المناصب، على اعتبار أن فرنسا هي التي ستستلم البلاد، وهي التي ستكون صاحب الأمر فيها، وأن الملك فيصل جاء قبلها يغتصب الأراضي اللبنانية، ويضع الفرنسيين أمام الأمر الواقع.

ومر بعد ذلك وقت طويل، قبل أن أخذ حبيب باشا السعد «يشتري حاله» مع الفرنسيين، وخصوصاً مع الساسة الموارنة الكبار الذين وجدوا حكاية قبوله الحاكمية من قبل الملك فيصل «شحمة على فطيرة»، استطاعوا من ورائها مزاحمة الرجل على المراكز العالية، مع أنه وحده كان مدعواً إلى التربُّع عليها دون مزاحمة!

الرجل الذي جاء من جزيرة أرواد

وجاء ترابو حاكما...

وكان بينه وبين حبيب باشا ذاك العداء الغريب، الذي جعل ترابو يحتجز حبيب باشا، في أوتيل صوفر بضعة أيام شبه معتقل، فراح حبيب باشا ينادي في كل مكان بأن ترابو أصبح مجنوناً ويجب إرساله إلى العصفورية...

ولكن كان لحبيب باشا السعد في جعبته أكثر من حيلة.

ومن يريد من الناشئة الجديدة اليوم أن يعرف تماماً حبيب باشا كرجل دولة، فليأخذ مثالاً عنه الشيخ بشارة الخوري نسيبه وابن عمه. لقد دخل الشيخ بشارة السياسة تحت شعار مخاصمته الباشا ومزاحمته. وإذا كان الشيخ بشارة لم يتعلم السياسة في مدرسة حبيب باشا مباشرة، فإنه قد أخذها عنه بطريقة غير مباشرة...

عودة الباشا

وهنا يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء أيضا.

لما قامت حرب 1914، ووضع الأتراك يدهم على جبل لبنان، عزلوا مجلس الإدارة الذي كان قائماً يومئذٍ بالمتصرفية في بعبدا، وتحت رئاسة حبيب باشا، وعيَّنوا مجلس إدارة من رجال يخصُّونهم، واعتقلوا الباشا وأكثر زملائه، ونفوهم إلى بلاد الأناضول، ولم يعودوا إلا قبيل نهاية الحرب.

وبطبيعة الحال، لما دخل الفرنسيون إلى لبنان، وجدوا أنفسهم بحاجة لمجلس إدارة شرعي يصادق ويوافق باسم الأهالي على ما يعملون، فقرروا سنة 1919 أن يبعثوا مجلس الإدارة القديم، الذي ما عزله الأتراك أثناء الحرب إلا لأن رئيسه وأكثر أعضائه كانوا معروفين بميولهم الفرنسية التقليدية الشديدة...

وهكذا وجد المفوض السامي الفرنساوي نفسه مرغماً على أن يقبل بالواقع، وأن يعيد للمجلس رئيسه حبيب باشا، المفلس الدائم!

وكان الفرنسيون في ذلك الوقت يستعملون الكثير من المال لغاياتهم السياسية ولتقوية العناصر والهيئات التي هم بحاجة إليها...

وكان حبيب باشا نظيف اليد، ونظيف الجيب، يقامر بالقليل الذي معه في لعبة «البوكر» التي كان مولعاً بها. وكان معروفاً أنه في جميع الوظائف والرئاسات التي تقلَّب فيها بعهد المتصرفية ترك الاستفادة لغيره، وأخذ لنفسه التجرُّد والإفلاس...

وكنت يومئذٍ العميل السياسي اللبناني رقم واحد عند المفوضية الفرنسية...

وأنا الذي كلفني المفوض السامي أن أعرض على الباشا 25 ألف جنيه مصري، أي 25 ألف ليرة إنكليزية ذهباً وأكثر كدفعة أولى يستعين بها حتى «يقنع» أعضاء

مجلس الإدارة بقبول المقررات التي يطلبها الفرنسيون منهم، وأهمها وضع قرار بالمطالبة بالوصاية الفرنسية في هذه البلاد وتقديمه إلى لجنة «كراين» الأميركية، التي كان الرئيس ولسون قرّر إرسالها إلينا لتستفتي الأهلين عن الدولة التي يريدونها وصية عليهم...

لما اشترى الباشا نفسه

ورفض حبيب باشا المال، وتعهَّد بإقناع مجلس الإدارة باتخاذ القرارات التي يطلبها الفرنسيون، وأهمها ذلك القرار التاريخي، دون أي مقابل.

واستكبر الفرنسيون رفض الباشا المال، مما أخذ يمحو رويداً رويداً غلطته الأولى التي كانت قد بدأت تستحق الغفران...

قلنا استكبر الفرنسيون رفض الباشا للمال، ولكنهم تأسفوا كثيراً بعد أسابيع قليلة لأنه لم يأخذه، وذلك عندما ضرب رياض الصلح ضربته السياسية الأولى وأثبت، وهو لا يزال في الخامسة والعشرين، أنه سيكون ذلك الرجل...

لقد أقنع رياض الصلح، بالطرق المعهودة المادية وبغيرها، أكثر أعضاء مجلس الإدارة، بالذهاب سراً لدمشق، ليستنكروا هناك باسم الشعب اللبناني الوصاية الفرنسية التي يريد الحلفاء فرضها على لبنان، ويعترفوا بالشريف فيصل أميراً على سوريا ولبنان، مع بقاء امتيازات جبل لبنان، كما كانت في عهد المتصرفين.

وانكشف الأمر، وأعضاء مجلس الإدارة في طريقهم إلى دمشق، فاختطفهم الجيش الفرنسي على الطرقات بين بيروت والبقاع، وأرسلهم إلى القضاء العسكري، يحكم عليهم بعد ذلك بالنفي إلى جزيرة كورسيكا، وبينهم جميع أعضاء مجلس الإدارة الموارنة، ما عدا الباشا الذي رفض رفضاً باتاً مرافقتهم، وشجب عملهم بشدة وعنف، مما جعل الفرنسيين يمحون له الغلطة المعهودة تماماً.

وبالطبع طار مجلس الإدارة بعد اعتقال معظم أعضائه، وطارت رئاسة الباشا معه...

ولكن، إذا كان الباشا خسر رئاسة مجلس الإدارة، فقد اكتسب شيئاً أغلى وأنفع: اكتسب صداقة المفوضية السامية، بطريقة حماسية، جعلتها تضعه فجأة في

الواجهة، وجعلت كلمته في البلد ذات قيمة ووزن كبيرين، وأصبح بعد سنوات في مقدمة المرشحين لخلافة الدباس في رئاسة الجمهورية...

وكان في مقدمة هؤلاء المرشحين أيضاً اميل اده وموسى نمور والشيخ يوسف الخازن. أما بشارة الخوري فلم يكن حتى ذلك الوقت قد قفز قفزته الفجائية من متخرِّج في مكتب اميل اده للمحاماة حتى اليوم الذي صعد فيه على سلم السراي بالسرعة التي فعل...

الباشا الرئيس

وجاء حبيب باشا السعد لرئاسة الجمهورية سنة 1932، بمرسوم من المفوض السامي، يخلف الدباس بدون مداورات ودسائس. جاء عَفْوَاً وبدون أن يجد هناك شيئاً يبهره!

فالرجل كان معتاداً على الرئاسات في عهد الأتراك، وكان معتاداً خصوصاً على ضبط النفس، سياسياً فقط. وما عدا ذلك فلم يكن حبيب باشا يستطيع ضبط حبه للحياة وملاهيها، وهي أشياء خاصة نوعاً ما، ولكنه كان يتمسك بها جداً!

والباشا كان يلبس دوماً «الردينكوت»، الذي اشتهر كبار رجال الدولة العثمانية بلبسه...

ولم يشاهد أحد حبيب باشا السعد بدون «الرادنكوت»، حتى ظن الكثيرون أنه لا يشلحه أبداً، وينام به في فراشه!

ولم يشاهد أحد حبيب باشا بدون صبغة، صبغة شعر الرأس وصبغة الشوارب، مما جعل شعره وشواربه تحاكي الليل في سوادها...

وكان الباشا صاحب ذوق، وذا نفس خضراء، وخضراء جداً، يحب الصبابة والمرح مع الحسان. من أية طبقة كن. فالباشا كان يقول: «الحسن مثل الذهب، والذهب يبقى ذهباً حتى لو كان في جزدان الوصيفات...»

ولم تكن مشاغل السياسة مهما كبرت وتعقدت، تشغله عن الصبغة ولعب البوكر، ومغازلة أية حسناء تقع تحت يده...

في عمر الخبز ...

وعندما جاء لسراي البرج رئيساً للجمهورية، جلب معه جميع هذه الأشياء اللطيفة الظريفة، وجلب معه أركان حكومته، وكلهم من عمر الخبز، أي من فوق الستين.

جلب عبد الله بيهم سكرتيراً عاماً، وكانت السكرتارية العامة يومئذٍ تشبه رئاسة الوزارة.

وجاء بيترو طراد رئيساً لمجلس النواب، والأمير فائق شهاب رئيساً لديوان الرئاسة، والشيخ خليل الخازن أميرالاي الجند اللبناني.

ومجموع عمر الباشا مع أعمار هؤلاء الأربعة الأكارم كان يساوي الأربعمائة سنة، ومع ذلك، فما تكونون يُولَّى عليكم...

ولم يكن الأربعة الكبار الذين جاؤوا مع فخامته أقل اخضراراً بالقلب، وأقل إعجاباً بالجمال والكلام اللطيف والخبرة السياسية من الباشا ...

وهنا يجب أن نقول إن الذين يتفلسفون ويتفذلكون، ويفترضون أن حكم الفتوة أصلح من حكم الكهولة، أو بالحري من حكم الشيخوخة، هم على خطأ تماما!

والدليل على ذلك، أنه في أيام حكم حبيب باشا السعد، ومعاونيه الكبار بالسن والقدر، كانت الأمور تسير بكل هدوء وسكينة، مما جعل الناس يطمئنون للحكومة، ويجدون بالاختبار أن حكم هؤلاء الكبار بالسن هو الأفضل، وأن الخبرة عند السياسيين العتاق أحسن وأنفع بكثير من جميع المزايا التي يتحلّى بها السياسيون الغواة، الطالعون جديداً من آذان القفة...

والحق أنه لم تعش حكومة في هذا البلد منذ عهد المتصرفية حتى الآن، بدون مشاكل، مثل حكومة حبيب باشا السعد! والمعروف أن الحكومات هي التي تخلق غالباً المشاكل لنفسها، أكثر مما يخلق لها الناس المشاكل...

وحكومة حبيب باشا، طيلة رئاسته للجمهورية، لم تعمل ولا مشكلة لنفسها!

ويجب أن تكون خبرتها القديمة ودروسها في الماضي وتجاربها الطويلة هي التي أعطتها هذه الحكمة.

وليس كما قال خصوم الباشا إنها لا تعمل المشاكل لأنها، في كبر سنها، لم تعد قادرة على ذلك!

هذا الافتراض الأخير ليس محترماً، إذ أن الباشا ومعاونيه الكبار بكل شيء، كانوا يتحدّون - بالكلام طبعاً - جميع السياسيين الفتيان، ويفخرون عليهم بنشاطهم السياسي والحكومي وحتى الجسدي، ولا نقول الجنسي، على اعتبار أن هذا النشاط الأخير كان موضوع شك عند الكثيرين، ولكن أصحابه كانوا ينكرون على الحسودين شكوكهم، ويؤكدون - بشهادة الأمير فائق خصوصاً - أنهم كانوا مثل عنترة بن شداد!

ويومئذٍ راجت سوق «حلقة بلاكو»، فأصبح الحكام لا يأتون السراي إلا وهم متمنطقون بها ...

و«حلقة بلاكو» هي جهاز اخترعه العلماء الألمان، وزعم المتاجرون فيه أنه يعيد الشباب... ولا ندري إذا كان هذا الزعم صحيحاً، ولكننا نعرف أن النشاط الذي كان يظهره حبيب باشا وربعه في السراي، كان أكبر وأقوى من نشاط الكهولة والشيخوخة!..

دخل مفلساً وخرج مفلسا!

وسيطرت النزاهة تماماً في عهد حبيب باشا السعد، ومعاونيه الذين ذكرنا.

وعندما يتجنّب الحكام التلاعب والاستثمار والمتاجرة، يحذر الموظفون والسياسيون من التلاعب والاستثمار والمتاجرة ...

دخل حبيب باشا السعد رئاسة الجمهورية - كما نذكر جيداً - خالي الجيب، وبادر بالإبراق إلى صديقه خليل معتوق، مهراجا ذلك الزمان، في طهران، واستدان منه بضع مئات من الليرات، حتى استطاع أن يواجه المصاريف الضرورية المطلوبة منه.

وإذا كان حبيب السعد قد استلم الرئاسة بخبرة واسعة، وبإخلاص وطني، وفي جيبه بضع ليرات فقط، فقد خرج من الرئاسة بدون ليرة واحدة، كما يعرف الجميع، وكما يشهد بذلك بنك طراد. وكان قد استعان به بقرض مستعجل..

وهذا شأن الأربعة الكبار الذين كانوا حوله، فلا عبدالله بيهم الوجيه الممتاز المترفِّع، وسَّخ يده، ولا بترو طراد عرف المال الحرام، ولا الأمير فائق شهاب، سيد الظرف والنباهة، عرف غير معاشه. ومما يجدر ذكره هنا أن نجله الأمير عبد العزيز شهاب نائب الشوف، قد أخذ عن والده من صفاته ما يكفيه للنيابة التي دخلها!

وكان الباشا يقول في منطقه الواقعي وخبرته السياسية:

ـ الأفضل أن تصادق الفرنسيين وتأخذ منهم للبلاد ما تستطيع أخذه، من أن تعاديهم دون أن تستطيع أن تأخذ منهم شيئا»!

وحافظ أثناء رئاسته على هذه القاعدة، فكان يساير المندوبين ويتقرَّب منهم، فيأخذ منهم الكثير ويتدبر الأمر بالوقت ذاته، فلا يعطيهم غير القليل، مع العناية بالبقاء على أحسن تعاون معهم!

ولهذا كان عهد الباشا بالرئاسة ـ وهو عهد قصير العمر ـ من أفضل العهود السياسية التي مرت على أيام الانتداب. ولا شك في أن الاختلافات اللبنانية المتعددة مع الفرنسيين في أيام الانتداب، كانت تعود على البلد بالأضرار، وتجعل الفرنسيين أخيراً يقصرون حبل الحريات الممدود للرؤساء ويزيدون في التحكّم بهم!

وكان حبيب باشا يقول إن الحاكم السعيد هو الحاكم الذي لا يحكم، أي الحاكم الذي يحبه الناس أكثر مما يخافونه!

وعمل الباشا على اكتساب محبة الناس أكثر مما جعلهم يخشون بطش الحكومة...

وهكذا فعل مع الفرنسيين، مستعيناً بجميع الوسائل حتى بصداقاته مع أكثر حسانهم...

ولعل المفوضية السامية كانت في أيام الباشا لا تحب المشاكل ولا الخلافات ـ لذلك كان لها فضل في حسن تدبير الأمور يومئذ.

وبعد ذهاب الباشا حافظت المفوضية على ذكراه كثيراً، وكم من مرة سمعنا بونسو ومن بعده دي مارتل، يقولان وهما ينتقدان تصرفات وعناد الرؤساء الذين جاؤوا بعده:

ـ لماذا لا يتعلم هؤلاء من الباشا كيف يرتاحون، ويجعلوننا نرتاح؟

* * *

واليوم، لا نعرف إذا كان الذكر الحسن يعوِّض عن الألوف والملايين التي كان بإمكان الباشا قبل رئاسته وأثنائها، أن يأخذها... ولكنه، وربما عن جنون، فضَّل الذكر الحسن عليها، فعاش بالقلب والعقل والجيب، ومات مفلساً، ولكن كبيراً جدا!

3

اميل اده

صديق الفرنسيّين وخصمهم العنيد!

في ذلك الزمان كان في بيروت مفوضان ساميان في آن واحد. فكان على رئيس الجمهورية اللبناني أن يتدبر في رئاسته وأعماله رضا ذينك المفوضين الساميين...

كان الكونت دي مارتل المفوض السامي الرسمي...

وكانت صديقته مدام دي كركوف، الشقراء الحسناء، المفوض السامي الآخر...

وقد كانت تتدخل أحياناً تدخلاً كبيراً في الحياة العامة، وبسياسة الدولة، رأساً ومباشرة، ودون أن تستشير صديقها أو تأخذ موافقته، فهي لم تكن صديقة دي مارتل، بل كانت أيضاً شريكة في حياة المفوض الرسمي، العامة والخاصة!

وهكذا كان يتوجب على رئيس الجمهورية اللبنانية أن يتدبر رضا هذين المفوضين الساميين: الذكر والأنثى، الأمر الذي كان يتقنه حبيب باشا السعد والذي خالفه اميل اده تماماً منذ الساعة الأولى التي وصل فيها للرئاسة بثلاثة عشر صوتاً ضد اثني عشر صوتاً لبشارة الخوري، وذلك يوم 20 كانون الثاني سنة 1936.

وكان المجلس يومئذٍ يتألف فقط من 25 نائباً، وهو أدنى عدد عرفه مجلس من المجالس النيابية التي قامت بلبنان، ومع ذلك لم يكن الناس يشكون كثيراً من قلة عدد النواب، ولم يعتقدوا أن زيادة عدد النواب في المجالس تزيد في الخدمة العامة وتكون أكثر نفعا...

ومنذ قامت هذه الجمهورية وعدد النواب في تراقص. فإذا كان عددهم كبيراً، قام الناس بعد حين يطالبون بتخفيض عدد النواب.. وإذا كان قليلاً قاموا يطالبون بزيادة عدده...

وعلى هذه القاعدة يمكن القول إنه لن يمضي زمن طويل على مجلسنا الجديد اليوم، أي مجلس التسعة والتسعين، إلاّ ونرى الذين صفقوا لهذه الزيادة، يطالبون بالتخفيض!

جاء اميل اده رئيساً للجمهورية بأكثرية صوت واحد، وهو صوت المرحوم الياس السكاف، والد جوزيف السكاف، زعيم الأكثرية بزحلة والبقاع في المجلس الحالي.

وجاء صوت الياس السكاف يرجح كفّة الميزان لاميل اده، في أواخر ذلك الليل الهائج، الكثير الأحداث، الذي كان ستجري انتخابات الرئاسة في صباحه.

وكان المفوض السامي الرسمي الكونت دي مارتل يريد أن يأتي اميل اده رئيساً للجمهورية.

ولكنه في روحه الساخرة، وفي سياسته المتلاعبة، وفي نزعته نحو الدكتاتورية، كان يريد أن يأتي اميل اده للرئاسة ضعيفاً، فساعد كثيراً على شطر مجلس النواب الخمسة وعشرين على نفسه، مناصفة 12 من هنا و12 من هناك، على أن يبقى نائب واحد يتخاطفه الجانبان، ولكن المفوض السامي هو الذي يتحكّم بصوته.

وكان الياس السكاف - لحسن حظه - النائب الذي أصبح موضوع التخاطف بين جماعة اده وجماعة مزاحمه في الترشيح للرئاسة، خصمه الأقوى بشارة الخوري...

وترك دي مارتل السكاف يتلاعب بالجانبين حتى آخر ساعة من تلك الليلة، ويعمل حسابه مع خليل معتوق، الذي كان في ذلك الحين في ذروة أمجاده المالية، وكان يتعهد تمويل الانتخابات لصديقه الكبير اميل اده بسخاء وإسراف.

وكان خليل معتوق في أواخر تلك الليلة شبيهاً بالحرس الخاص الذي كان يستدعيه نابوليون في آخر ساعة عندما يحتاج إلى النجدة الحاسمة.

وخرج الياس السكاف من مقابلته مع معتوق حاملاً صوته على كَفِّه، وذهب يقدمه لاميل اده على طبق من الذهب الخالص، وعاد ينقذ مزرعة «عميق» الكبرى من ديونها، ومن الذين كانوا يحومون حوله وحولها ليضعوا يدهم عليها، وينتزعوها منه...

وصار اميل اده في ذلك النهار الوضاح رئيساً للجمهورية بأكثرية صوت واحد!

لم يقعد عاقلاً!

وكانت باكورة عهد اميل اده اصطدامه مع المفوض السامي اصطداماً مضحكاً، كان فاتحة التباعد بين الرجلين.

وكان سبب ذلك الاصطدام المفوض السامي غير الرسمي...

ذلك أن اميل اده، في الوليمة الكبرى التي أقامها للكونت دي مارتل، ولأركانه ولكبار الزعماء السياسيين اللبنانيين احتفاء برئاسته، لم يَدْعُ دي كركوف إلى تلك الوليمة مع أنه دعا جميع معتمدي الدول مع نسائهم!

واعتبرت مدام دي كركوف تجاهلها في الحفلة إهانة لها، فغضبت.

وكان من واجبات الصداقة العاطفية كثيراً، أن يغضب الكونت دي مارتل معها، فجاء للوليمة - التي كان لا بدّ له من حضورها - مكشراً ساخراً لا يكترث بأحد من الحضور، ويظهر استهتاره بالسلطات اللبنانية الجديدة من رئيسها حتى آخر ممثل لها، وترك الوليمة قبل انتهائها محيياً فقط الحضور باليد، من بعيد!

واتسعت القطيعة، حتى صارت أخيراً نوعاً من العداء!

وكانت تلك الشقراء الحسناء، كلما قامت أسباب هامة تستوجب التقارب بين المفوض السامي والرئيس اده، كانت تقف حاجزاً بينهما، بعض الأحيان مسترسلة الشعر، جاحظة العينين عارية الصدر الجميل، وبعض الأحيان غاضبة صاخبة وتمنع التعاون وتعيد القطيعة!

يوم جاء اده

ولم تكن هذه أول مرة اصطدم فيها اميل اده مع الفرنسيين، بل هو اصطدم بهم منذ الساعة الأولى لمجيئهم إلى هذه البلاد!

لما دخل الفرنسيون بيروت مع جيش الجنرال اللنبي في أواخر سنة 1918 جاؤوا باميل اده من فرنسا على ظهر بارجة حربية كضيف شرف، تعزيزاً لمقامه، وإثباتاً لتقديرهم له!

لقد حكم عليه الأتراك في أيام الحرب الأولى بالإعدام بتهمة تعاونه مع الفرنسيين على تسليم سوريا ولبنان لهم، ووضعهما تحت حمايتهم.

ولمّا عرف الناس أن اميل اده آت على ظهر بارجة حربية من فرنسا لبيروت، وهو امتياز كان يتمتع به فقط المفوض السامي وقائد الجيوش، قالوا: لا شك أنه سيلعب دوراً كبيراً وسينال وظيفة عليا مع الفرنسيين!

وفعلاً في اليوم التالي لوصول اميل اده، فتحت المفوضية السامية، التي كانت ما تزال بعهدة وكيلها المسيو كولندر، في انتظار المسيو جورج بيكو المفوض السامي

الأصيل، باب المكتب الكبير لاميل اده، في البناية الصغيرة التي اتخذها المسيو كولندر مقراً له في حي مار إلياس برأس بيروت.

وجلس اميل اده بالقرب من ممثل فرنسا المنتصرة العظمى في ذلك الحين، مستشاراً للمفوضية، يحيط به رهط من السكرتيرية.

وكان من الطبيعي أن يتراكض الناس على مكتب اميل اده يتملقونه ويخطبون ودّه ويطلبون رضاه، مما جعل في البداية مكتبه يعج عجيجاً بالزعماء الكبار وأهل السياسة في البلاد. وكان يوزع الابتسامات والوعود، ويضع لنفسه الحجر الأساسي للزعامة السياسية الأولى التي كان ينشدها.

ولكنْ أيٌّ من الناس يعرف أين يصل مع اميل اده وهو على ما هو عليه في أخلاقه الصعبة واستكباره لنفسه؟

وفجأة أخذ مكتب اميل اده في المفوضية السامية يفرغ، وظل يفرغ حتى وجد الرجل الكبير نفسه وحيداً فيه، فتركه دون سؤال ولا جواب، وذهب إلى بيته!

وسبب ذلك أن المسيو كولندر لم يطق هذا التكريم لاميل اده، حتى أصبح الناس يعتبرونه الحاكم المطلق بالمفوضية السامية، فنبهه إلى أنه مستشار للمفوضية السامية، وقت الحاجة، ولكنه ليس مفوضاً سامياً ولا وكيلاً عن المفوض السامي!

وغضب اميل اده غضبته المعروفة وضرب بالأوراق التي أمامه عرض الحائط وأخذ قبّعته وذهب!

في نصف الطريق

وهكذا دام سلطانه منذ وصل على ظهر الدارعة الحربية ودخل المفوضية السامية حتى ذهب 21 يوما!

ولما كانت القابلية تأتي مع الأكل، ولما كانت السماء وحدها تستطيع أن تبدل أخلاق اميل اده، فقد أخذ بعد ذلك بقليل وفي كل مناسبة، خصوصاً لما صار وزيراً للداخلية، ثم رئيس جمهورية، يصطدم بالفرنسيين، ويتركهم بنصف الطريق، ويذهب - مثل أشيل - إلى مكتبه، ينتظر ساعته الجديدة!

ومع ذلك، كان الفرنسيون من المفوض السامي حتى مندوبيه ووكلائه، يتجنّبون الذهاب في مقاطعة اده إلى أكثر من نصف الطريق، ولا يأخذون ثأرهم منه أكثر من الربع أو الثلث...

فاميل اده كان يمثّل بنظرهم - وظل كذلك حتى وفاته - فرنسا المشرق، فرنسا مع تقاليدها وعلائقها وحمايتها للنصارى وعلى الأخص للموارنة في لبنان.

لذلك كان على الفرنسيين أن يغتفروا له كثيراً، وألا يتنكروا له كثيراً، وخصوصاً ألا يقطعوا الحبل بينهم وبينه.

وفي اعتقادهم، يبقى اميل اده، مهما قاطعهم واصطدم بهم، وقاتلهم وحاربهم، الضمانة الكبرى في هذا البلد، والمثال الأعلى لمدنيتهم وثقافتهم في الشرق الأوسط بأجمعه.

لذلك كنا نرى اميل اده والفرنسيين يرجعون سريعاً إلى سابق صداقتهم وتعاونهم. خصوصاً عندما كان الزعماء المسلمون ينتهزون اصطدامات اده مع الفرنسيين، ليكتسبوه إلى جانبهم...

ليعودوا إلى الصحراء

ومن هنا قامت تلك الشائعة الفظيعة التي كادت تودي باميل اده إلى الهلاك - السياسي على الأقل - عندما نسب إليه بعضهم أنه قال في مجلس كبير: «إذا كان المسلمون غير راضين عن قيام الجمهورية اللبنانية وانفصالها عن سوريا، وقبولها الانتداب الفرنساوي، فليس لهم إلاّ أن يعودوا إلى الصحراء، من حيث أتوا!»

وسرت هذه الإشاعة سريان البرق، واستلمتها البسطة وأخذت تهدد اميل اده وتتوعده بالمصير السيئ وبالنهاية الزرية، وكان ذلك في بداية عهد الانتداب، قبل رئاسته للجمهورية ببضع سنوات.

وتجنّد اميل اده، وتجنّد بعض أصدقائه المخلصين من الزعماء المسلمين، لتكذيب هذه الشائعة وزعم اميل اده يومئذٍ أن أصدقاء الشيخ بشارة الخوري، مزاحمة على النفوذ السياسي في البلاد، هم الذين اختلقوها ليضروا به، وليصوّروه عدواً للمسلمين.

ولكن استنكار اده للرواية، ومساعدة بعض الزعماء المسلمين من أصدقائه الدائمين أمثال عمر بيهم وعمر الداعوق والدكتور فاخوري وغيرهم، وتأكيدهم أن اميل اده لا يقول شيئاً من هذا، كل هذا خفف من الغضبة الكبرى عليه، ونسيها المسلمون لما جاء اده رئيساً للجمهورية، وجلب معه خير الدين الأحدب رئيساً للوزارة.

وكانت هذه المرة هي المرة الأولى التي يأخذ فيها المسلمون كرسي الحكم في البلد. وفيها وضع اده أساس ذلك التقليد الجديد الذي يعطي المسلمين السنيين رئاسة الوزارة. واختار اده خير الدين الأحدب تقديراً لشخصيته. ولا عجب فقد كان خير الدين رجل دولة، اتصف بالدهاء والعبقرية السياسية، وأثبت وجوده حالاً في رئاسة الوزارة، وأخذ يمثّل المسلمين تمثيلاً شاملاً، يحكم في البلاد باسمهم بالنباهة والظرافة اللتين كانتا تمثّلان دوراً أولياً متواصلاً في حياة هذه الأمة.. في التقارب والتعاون الطائفي المسلم النصراني.

ولو أن خير الدين الأحدب لم يته في عاطفة غرامية، سيطرت على حياته الخاصة والعامة، فجعلته يضيع أخيراً في ملذاتها ومباهجها، ويستسلم إليها أكثر مما يستسلم للأعمال العامة، لظل في صدر الواجهة.

وكان خير الدين الأحدب يترك اده كلما تركه المفوض السامي، ويعود إليه كلما عاد إليه المفوض السامي.

وسلط دي مارتل على الرئيس اده الأمن العام الفرنسي، يعاديه ويضع العصي في طريقه. وهكذا جاء وقت كان فيه عندنا، إلى جانب المفوض السامي الذكر والمفوض السامي الأنثى دولتان. دولة اميل اده اللبناني ودولة كولباني مدير الأمن العام الفرنساوي. وقد كان فكتور موسى، مدير ورئيس إدارة كازينو لبنان اليوم أمين سر كولباني، والمسيطر الأقوى على الأمن العام يعمل ما يشاء، ويجب الاعتراف أنه كان يخفف كثيراً من فظائع وانتقامات كولباني ويخدم ضمناً الوطنيين في كل مرة يقعون فيها بيد ذاك الكورسيكي الصارم المخيف.

لقد عمل دي مارتل من اميل اده رئيساً للجمهورية، وعمل من كولباني مدير الأمن العام عدواً لاميل اده.

وأخذ كولباني يشاغب عليه، ويساعد عدوه اللدود الشيخ بشارة الخوري.

ووصل العداء إلى الذروة، لما دس رجال الأمن العام الفرنساوي أوراق كوكايين في جيب ريمون اده النجل الأكبر لرئيس الجمهورية، وعميد الكتلة الوطنية اليوم، والسياسي المهزار الضاحك الثائر، الذي أخذ عن دي مارتل الكثير من روحه الساخرة ومن ميله إلى توليع سيكارة بحرق شارع كامل من شوارع المدينة...

وهنا يجب القول إن فضلاً كبيراً يرجع لفكتور موسى أيضاً، في تخفيف الكثير من اعتداءات كولباني على اده والاديين، وفي إبعاد تهمة الكوكايين عن ريمون اده.

واضطر اميل اده أخيراً، أمام جميع هذه الملاحقات من جانب المفوضية، ومن جانب الشقراء، ومن جانب الأمن العام، أن يترك سراي البرج، وأن يعتزل في دارته، ويعمل فيها رئيساً للجمهورية تقريباً بالاسم فقط.

أربع جبهات

لقد كان على الأستاذ اده أن يحارب على أربع جبهات:

أولاً جبهة دي مارتل، الذي كان له لذة خاصة في الاستهتار بكل شيء وحتى في مصالح الانتداب، وكان يحب أن يرى رئيس الجمهورية اللبنانية ضائعاً تائهاً لا يعرف أين يضع رأسه.

والجبهة الثانية كانت جبهة صديقة المفوض السامي الحسناء، التي داومت على خلق المشاكل والعداءات له، مع أنه جرب كثيراً بعد غلطته معها، أن يستجلبها إليه، حتى عن طريق التودد والغزل!

وكان الأستاذ اميل اده عاشقاً قديماً دائماً جذاباً حلو الكلام صبوح الطلعة، قلَّ ما استطاعت الحسان اللواتي طارحهن الغرام جفاءه وتجنُّبَ شراكه...

وكانت مدام دي كركوف مستعدة في البداية أن ترتمي بين أحضانه، ساعة يطلب منها ذلك، ولكن بعد الإهانة التي وجهها إليها، أقسمت ألا تلين - بل تحارب، وتحارب إلى النهاية.

وكانت الجبهة الثالثة جبهة كولباني مدير الأمن العام.

ثم كانت الجبهة الرابعة، جبهة بشارة الخوري وحزبه الدستوري، وهي الجبهة التي لم تكن تقل خطراً وشأناً عن الجبهات الأخرى. فقبل الرئاسة، كان اميل اده قد بدأ حربه مع بشارة الخوري ومع حزبه الدستوري، المؤلَّف من رهط من السياسيين الأقوياء البارزين، وفي مقدمتهم كميل شمعون وسليم تقلا وصبري حماده والشيخ فريد الخازن.

وعندما كان يتعب الجانبان من العراك والتقاتل ويعقدان هدنة، كان المفوض السامي في حبه للمشاغبة وسلوته بها، يحقن كلاً منهما بحقنة نشاط جديدة، فيعودان إلى الميدان في مبارزة طويلة عريضة، شقّ البلاد بعضها على بعض خلال تلك المدة.

وهنا وقعت أطرف رواية انتخابية، حين قررت المفوضية إجراء انتخابات نيابية لانتخاب ستين نائباً، ووقف المفوض السامي وسط الساحة وأعلن - على عينيك يا تاجر - تقسيم النواب، إلى ادين وإلى خوريين!

وكانت مستلزمات الشرف والرئاسة تقضي أن تكون حصة اده أكثر من حصة الخوري، فأعطاه المفوض السامي على ما نذكر 37 نائباً وأعطى بشارة الخوري 26 نائبا...

وجرت الانتخابات في 24 تشرين الأول سنة 1937، وكانت صورية، فأسماء النواب بأجمعهم كانت معروفة، ونشرتها الصحف على صفحاتها قبل الاقتراع بأيام!

نعم، كان عدد الادين أكبر، ولكن الحكاية ليست حكاية عدد بل حكاية عود...

كان الدستوريون، خصوصاً أركان حرب الحزب، أقوى وأشد، وكانوا أكثر تفشيطاً وحيلة وفجورا...

ثم جيء في المجلس الجديد بوزارة ائتلافية ثلاثة أرباعها من الادين، فسيطر الدستوريون على الادين وضايقوهم، مما حدا أخيراً بهؤلاء للاستغناء عن الوزارة الائتلافية التي كان كميل شمعون الدستوري يقود سياستها.

وجاءت بعدها وزارة ادية مائة بالمائة، ولكن أية وزارة كانت ومهما كانت قيمة رجالها ومهما كانت رسالتها وطنية، لا يُكتَبُ لها النجاح طالما أن المسيو دي مارتل يريد - كما كان صديقه المرحوم حبيب أبو شهلا يقول - أن يخرب لا أن يبني، ويريد أن يضحك أكثر من أن ينفع!

رئاسة مزعجة!

والحقيقة أن رئاسة اميل اده لم يحسده أحد عليها.

كان عليه أن يفتح عينيه دائماً، فلا ينعس دقيقة واحدة، لكي يترصدّ الضربة قبل وقوعها.

وكان عليه أن يعرف متى يكون المفوض السامي راضياً وتكون صديقته ساهية، ومتى يكون غاضباً وتكون صديقته صاخبة!..

وكان عليه أن يرد سهام كولمباني الصغيرة ولكن الكثيرة السموم...

وكان عليه خصوصاً أن يرقب ضربات بشارة الخوري الذي وصل ذات يوم في خلق المشاكل لاميل اده بأن صار عربياً، وذلك عندما ذهب لمصر ونادى بعروبة لبنان وبزعامة النحاس باشا على العرب!

ولما صار بشارة الخوري عربياً، تركت البقية الباقية من المسلمين اميل اده وحالفت بشارة الخوري. وهنا يجب أن نعترف بأن بشارة الخوري كان أول من نادى بعروبة لبنان. وإذا كان قد فعل ذلك عن إيمان وعقيدة أو رغبة في خلق المشاكل لاميل اده، فهذا لا يهم...

وتبع ذلك فتح دكان العروبة على مصراعيه في لبنان، وكان الفرنسيون منذ البداية قد أغلقوه واحكموا إقفاله!

وما تزال هذه الدكان مفتوحة إلى اليوم، وتجارتها رائجة، والنصب فيها على أشُدِّه.

وجاءت الحرب سنة 1939، وكان دي مارتل قد ترك البلاد منذ سنة، وأخذت جيوش الشرق الفرنسية تتجمّع في سوريا ولبنان، وقررت السلطات العسكرية تَسَلُّمَ مقدرات البلدين والأحكام فيها.

النهاية

وفي 21 أيلول سنة 1939 أصدر المفوض السامي المسيو بيو قراراً بتعليق الدستور، مع بقاء اده رئيساً للجمهورية. وما لبث خلفه الجنرال دنتز أن أرغم اده على الاستقالة في نيسان سنة 1940، فانتهى حكمه.

وترك اميل اده الرئاسة وترك معها أشجانه ومتاعبه، واعتكف في بيته الجميل وحوّله إلى صالون سياسي ممتاز كان يبهر الناس - وأخصهم قواد الجيوش وكبار السياسيين - بظرفه ونباهته وفكاهة قوله ومرحه الذكي، حتى خيّل إلينا أنه صار رجلاً آخر بعد أن فك القيود التي كانت الرئاسة قد قيدته بها.

واحتفظ اده بكرامته واحتفظ بأصدقائه، واحتفظ بالكثير من إعجاب الناس به حتى انتخابات سنة 1943، التي جاءت على أساس الاستقلال الذي أعطانا إياه الحلفاء عند دخولهم للبنان سنة 1941، ولكنه استقلال بقيت وراءه جيوش الفرنسيين والمندوبية الفرنسية في البلاد لزمن طويل.

وخرج اميل اده من عزلته الزاهرة الزاهية، وخاض الانتخابات سنة 1943، وحاربه يومئذٍ أيضاً بشارة الخوري، فنال الإثنان النيابة مُهَشَّمةً محطمة، وذلك في الدورة الثانية، بعد أن فشلا في الدورة الأولى، وكان الناس يعتقدون أن الإثنين سيفوزان بالتزكية.

وكان بعد ذلك ما كان، من راشيا وبشامون وغيرهما مما سيأتي ذكره الحسن والسيئ عندما نصل إلى عهد البطولات في راشيا والدكاكين في بشامون.

ومات اميل اده، وترك فراغاً كبيراً في عالم الحربيات السياسية والشخصيات البارزة جداً، والحركة الدائمة والأحداث المتوالية، واللبنانية المتعصبة.

ولقد اختص ذاك الرجل الكبير بشيء لم ينله غيره من السياسيين في هذه البلاد...

كان له أعداء أكثر مما كان له أصدقاء!

ولكن أعداءه، حتى الذين كان يبغضهم وينتقم منهم، لم يستطيعوا أن يبغضوه.

ولم يكن بإمكان أحد أن يبغض اميل اده مهما عمل، فاميل اده - كما كان رياض الصلح يقول - عدوٌّ يحمل الزهور والرياحين!.

4

ألفرد نقّاش

دخل بهدوء.. وخرج بهدوء!

في ذات ليلة من ربيع 1940 طرق طارق باب دارة القاضي الكبير ألفرد نقاش.

ومن تقاليد ألفرد نقاش وعائلته في حياته الوادعة البورجوازية المنتظمة، النوم باكراً، بحيث لا تتجاوز سهراته الحادية عشرة ليلاً على أطول معدل.

لذلك كان طرق الباب بعد تلك الساعة حدثاً مهماً في حياة أهل ذلك البيت!

وفاجأ الطارق القاضي الكبير، بعد أن استقر به المقام، بقوله:

- جئت أدعوك باسم المفوض السامي لأن تكون رئيس جمهورية، وهو بانتظارك في القصر!

وكان المتكلم رئيس الغرفة السياسية بالمفوضية السامية.

وهنا يجب أن نتصوّر دهشة القاضي الكبير لهذا الخبر!

إنه لم يسبق له أن افتكر يوماً بالرئاسة ولا سعى إليها، ولم يخطُ خطوة واحدة في سبيلها، وهو القانوني المعتصم بالكتب والشرائع البعيدة عن السياسة. لقد كان يحترم القضاء - وهو من أكبر رجاله - ويعتبره سلطة مقدسة تتدنس وتُهان إذا مزجها صاحبها بالسياسة، يؤمن بما قاله دالوز، من أن الرشوة، نعم حتى الرشوة، لا تُهين القاضي قدر السياسة!

وكان ألفرد نقاش قد اتخذ لنفسه مثالاً كبار القضاة الفرنسيين المشهورين، الذين جعلوا القانون ديناً لهم يعيشون في عبادته، ويبتعدون عن كل ما يشغلهم عنه.

وكان يقول مع القائلين الحكماء: أكبر أعداء القضاء المرأة والسياسة!

من مكتبه إلى السراي

وفي اليوم الثاني، عصفت العاصفة في حياة القاضي الكبير، فقلبتها بساعات قليلة رأساً على عقب، وأبعدته عن الألف مجلد من كتب القانون، المكدسة في مكتبته، التي كان يعتكف فيها أكثر أوقات يومه، فجاء الآن يغوص في خضم السياسة والحياة العامة في الرئاسة بالسراي الصغير على البرج!

وأصبح النقاش بين ليلة وضحاها مهراجا السراي. وكانت أول زيارة قام بها، بعد توليه الرئاسة، إلى بيت صديقه الوجيه المعروف حبيب طراد ليقول له كلمته المشهورة التي رددها الحي السرسقي ورددها البلد من بعده كثيراً: «لقد عملت معي ما عمله الشيطان مع المسيح على رأس الجبل. ولكن المسيح لم يقع بالتجربة عندما أراد الشيطان إغراءه. أما أنا فوقعت!»

البحث عن رئيس

قبل أيام من ذلك، أي في 4 نيسان سنة 1940، كان اميل اده قد استقال من رئاسة الجمهورية، تحت ضغط الفرنسيين، وراح هؤلاء يستعرضون أسماء الموارنة الكبار، لينتقوا أحدهم رئيساً، يعيِّنونه تعييناً، فالوقت كان وقت حرب وليس هناك من مجالس وبرلمانيات وما يتبعها.

وفي عشاء عند المفوض السامي، كان يحضره حبيب طراد، ذكر طراد أمام الفرنسيين اسم ألفرد نقاش.

ولم يكن ألفرد نقاش غريباً عنهم، وهو الذي عمل في بداية الاحتلال في سبيلهم، وكان من الوجهاء العشرة المشهورين الذين حملوا راية الوصاية الفرنسية عالياً بطريقة ملحَّة قوية متحمسة، وألّفوا عصبة شبه رسمية، تعمل مع المفوضية الفرنسية، تشركها هذه في قراراتها وتجعلها لسان حالها عند الناس. ومن أولئك اميل اده وألفرد نقاش وشكري الأرقش وألبير قشوع ويوسف عودة - ومن يماثلهم من ذوات بيروت الموارنة. وقد لقّبهم يومئذٍ بكل شفقة وتواضع، واكيم النجار، أظرف رجال زمانه، باسم «زبونات الفرنك»، ولقّب نفسه مع بعض أصدقائه من دعاة الوصاية البريطانية على البلاد «زبونات الاسترلينية»، على اعتبار أن الإنكليز يحسبون في مصاريف الدعاية لهم بالليرات الإنكليزية، في حين أن الفرنسيين يحسبون بالفرنكات الفرنسية.

قبض ... يقبض

وهنا نقول، كحاشية تاريخية، إن جماعة الليرات الاسترلينية - وكانوا عديدين - أخطأوا الحساب هذه المرة. وللمرة الأولى في تاريخ التزاحم البريطاني الفرنساوي في هذا الشرق الأوسط أو غيره، كان الفرنسيون أكثر كرماً وإسرافاً وسخاءً من الإنكليز،

فلقد بلغت بالقلم والدفتر القيمة التي دفعها الفرنسيون للدعاية لأنفسهم بين 1919 - 1920 رقماً قياسياً بالنسبة إليهم!

وكنت شخصياً كعامل سياسي لهم، اشتركت في هذا الدفع، كما اشتركت في القبض، وأخذت حصتي اللازمة، تطبيقاً للقول المعروف:

«من حضر السوق باع واشترى».

لقد بلغت قيمة ما دفعه الفرنسيون خمسة ملايين جنيه ذهباً، فحاربوا بنجاح الدفع الإنكليزي الذي كان شحيحاً جداً، ولم يتجاوز المليون ونصف المليون جنيه. ولما جاءت لجنة كراين التي بعثها الرئيس ولسون لتستفتي أهالي لبنان الكبير عن الوصاية التي يريدون، الإنكليزية أم الفرنسية، فتح الفرنسيون صناديقهم على مصراعيها، مما لا يزال يذكره أكثر السياسيين والزعماء الذين قبضوا، في حين أن الإنكليز لم يفتحوا غير درفة واحدة من أبواب صناديقهم!

ونستطيع القول بالمناسبة - وشهد شاهد من أهله - إن الذين لم يقبضوا في ذلك الموسم فرنكات أو ليرات استرلينية، هم الذين لم يستطيعوا القبض، أو الذين لم يفتكر أحد أن يدفع لهم شيئا!

وليس في كل يوم ينفصل لبنان عن تركيا، وليس كل يوم تتزاحم دولتان غنيتان كبيرتان منتصرتان - إنكلترا وفرنسا - على شراء الوصاية عليه من السياسيين الذين احتكروا الحق في المتاجرة بالبلد وبيعه، وليس كل يوم إلى البنك سبيلا...

صار رئيسا

لنعد الآن إلى سياق بحثنا.

يومئذٍ، أيام استقالة اده من رئاسة الجمهورية، في ربيع 1940، كان الساسة قد انقسموا إلى شطرين شبه متعادلين: اميل اده وكتلته، وبشارة الخوري وحزبه. وكان كل جانب يحارب الآخر ويعمل على الضرر به، مما شق البلاد إلى شقين متباغضين. وكان الساسة يتضاربون بالحجارة لا بالورود، في سبيل رئاسة الجمهورية والوزارات والنيابات وغيرها، مما جعل الفرنسيين المنتدبين، يفتِّشون عن رئيس جمهورية، يكون لا بالعير ولا بالنفير في هذا الانشقاق، أي لا مع هؤلاء ولا مع أولئك، فوقع اختيارهم، كما أسلفنا، على ألفرد نقاش، فجاؤوا في أواخر الليل يطرقون بابه ويقولون له إنه صار رئيس الجمهورية، وكان ذلك يوم 11 نيسان 1940.

والسياسيون في لبنان فئات وفئات، ولكنهم بأجمعهم سياسيون!

وكما يوجد في كسروان لكل مئة نفس خوري، وكما في بيروت لكل مئة قارئ جريدة، ولكل مقعد نيابي مئة مرشح، كذلك في لبنان يوجد لكل عشرة مواطنين على الأكثر سياسي واحد!

وهناك أولاً السياسيون المحترفون الذين يجعلون من السياسة مهنة وصنعة، وعددهم يتجاوز - بالنسبة لعدد سكان هذه البلاد - أضعاف عدد السياسيين المحترفين في أي بلد آخر!

ثم هناك التجار أصحاب الصفقات والاستثمارات الحكومية، فهؤلاء يصبحون حالاً سياسيين بالنسبة لتجاراتهم واستثماراتهم.

ثم يأتي بعدهم البطالون الذين لا شغل لهم، وهؤلاء بطبيعة الحال يصبحون سياسيين، لهم رأيهم ولهم قولهم، وعندهم الوقت كله للدسِّ والشغب والتآمر!

ولا ننسى الصحافيين ومحرريهم ومخبريهم وباعة جرائدهم، ثم جلاّس المقاهي ومدخني الأراكيل، ومن ثم رجال الدين بأجمعهم، فماذا يعملون في كنائسهم غير الصلاة والسياسة أو بالأصح السياسة، ثم الصلاة...

ومن ثم الأثرياء عندما يشبعون يتسلون بالسياسة أيضاً، بقدر ما يتسلون بالطقش والفقش ومغامرات الغرام، إذ أن السياسة ملهاة العظام!

ومن هنا نفهم لماذا يدخل أصحاب الملايين في الانتخابات ويدفعون مئات الألوف ليصيروا نوابا!

وبطبيعة الحال، السياسة للنائب كالفسطان للمرأة لابد لها من ارتدائه.

* * *

يومئذٍ، كان جميع السياسيين على مختلف أجناسهم وبيئاتهم، قد اصطفُّوا في أحد الصفين، صف اده وصف بشارة الخوري، يتناوشون ويتشادون ويفسدون على الدولة مصالحها وأعمالها في كل مكان، وفي كل ديوان من دواوينها.

هذا يخص بشارة الخوري، وذاك يخص اميل اده.

لذلك ارتأى الفرنسيون المجيء برئيس جمهورية مستقل حيادي، بعيد عن السياسة وعن الحزبين.

وما كاد الناس يخرجون من مفاجأة تعيين ألفرد نقاش رئيساً للجمهورية، حتى همدت بسرعة المنافسة الحزبية بين السياسيين، رغم ما كانت عليه من حدة. وقد ساعد على ذلك عاملان قويان، أولهما أن الناس أدركوا أن سوق السياسة قد أقفلت موقتاً على الأقل..

ثانياً - تصريح النقاش في الساعة التي دخل فيها للسراي بقوله: «أعرف في البلاد لبنانيين فقط، ولكنني لا أعرف خوريين واديين».

وزيادة في التأكيد، انتقى ألفرد نقاش حكومته محايدة بموافقة الفرنسيين، الذين لم يختلف معهم أثناء رئاسته غير مرة واحدة، وكانت تلك المرة صفحة البطولة الكبرى التي سجّلها له التاريخ، مما سنأتي على ذكره.

قلنا انتقى ألفرد نقاش حكومته بأجمعها، وعلى رأسها أحمد الداعوق من الحياديين المستقلين، غير المقيدين بأية حزبية كانت، وحمّل وزراءها اسم «أمناء السر».

ولأول مرة منذ قامت الدولة اللبنانية، وحتى قبل إعلانها جمهورية، أقفرت أروقة السراي الصغير ودواوينه وسلالمه وزواياه من أهل السياسة و«الحكوجية» والسماسرة، ولم تعد سوق حراج للمتاجرات والتوظيف والأخذ والعطاء، وأقفرت حتى من القوادين الذين كانوا في العهود السابقة يملأون شرفاتها وعَرَصَاتها، يتاجرون بكل شيء فيها حتى بالرقيق الأبيض!

ولم يعمل ألفرد نقاش ووزارته الأولى - حكومة أحمد الداعوق - أشياء كبيرة لها قدر ومكانة، ولكنهما لم يأتيا في الوقت نفسه بصغائر رخيصة، ومتاجرات وصفقات مشبوهة.

وقيل يومئذ في بعض الأوساط إنهما لم يفعلا شيئاً، لا من الكبائر ولا من الصغائر، لأن المثل يقول: «حاسب الحكام على قدر عقولهم»، والنقاش ورجال حكومته لم يكونوا من العباقرة، بل كانوا حكاماً عاديين متوسطين، ولكن غير مستهترين وغير حرامية!

كانوا يعملون بما يقوله القانون الموجود أمامهم، فلا يزيدون عليه شيئاً ولا يخرقون فيه شيئاً. يقضون مصالح الناس بقدر ما تستطيعه إمكانياتهم العادية.

ومما يجدر ذكره أن رئيس الجمهورية ألفرد نقاش ظل يعيش كالقاضي ألفرد نقاش، عيشته الوادعة البسيطة. وكان يظهر أمام جميع الذين يعرفونه وكأنه لم يتغير عليه شيء.

مثل أهل الضيعة

وفي تلك السنة اصطاف في بيت مري كعادته، حيث ظل يستظل أفياء الصنوبرات الباسقة في حديقة منزله العادي الصغير، الخالي من الحرس والضباط والبهرجة والمدافع، ما عدا مرافق صغير انتقاه على غرار المعاونين والأصدقاء الذين انتقاهم، أي أنه لم يكن مزركشاً بالذهب ولا بالأوسمة والطبشات البراقة اللماعة!

وكان جميع الناس مبسوطين ومرتاحين، وعرفوا أن الحكم البسيط العادي هو الحكم الأصلح!

وكانوا يقولون إن الدولة لا تحتاج لأبطال وجبابرة وعباقرة وجهابذة، ولا لنواب وسياسيين، كي تعيش مع الأهالي بسكينة وهدوء.

وكانت الأشهر الأولى من رئاسة النقاش، أفضل عهد مرّ على لبنان، نال السياسيون خلالها عزلة إجبارية اضطرارية، كادوا يعتادون عليها. فلم نعد نشاهد أحداً منهم يصعد سلّم السراي. وماذا يأتي ليفعل، ما دام كهنة السراي الجديد قد أقفلوا باب المتاجرات والصفقات والمؤامرات؟

وما لبث الإنكليز والديغوليون أن اقتحموا الحدود اللبنانية والسورية وأخذوا يضربون بيروت بالطيارات، وقد بدأوا هجومهم يوم 8 حزيران سنة 1941.

وهرب أكثر أهاليها للجبال ونحن منهم، وكنا بأجمعنا - وخصوصاً في بيروت - ننام والطناجر برؤوسنا خوفاً من شظايا القنابل التي كانت طيارات الإنكليز تلقيها ليلاً، وبعض الأحيان نهاراً، على بيروت.

وأصبح الحكم عسكرياً مخيفاً، واستلم الفرنسيون كل شيء في السراي تقريباً، وأخذ السياسيون، ومنهم النقاش وأهل السراي، يخشون على أنفسهم

ولا يعرفون أين يضعون رؤوسهم، يحسبون ألف حساب لغضب الفرنسيين «الفيشيين» الذين أخذوا يحكمون البلد بالنار والحديد.

الموقف البطولي

ولكن بينما كنا جميعاً من أهل السياسة والصحافة والوظائف الوزارية نتفقد رؤوسنا كل دقيقة لنرى إذا كانت ما تزال على أعناقنا، راح الرئيس النقاش ذات صباح، بجرأة نادرة ووطنية سامية، يتحدى الفرنسيين العسكريين وحكمهم الصارم المخيف ويذيع رسالته التي دخلت بالتاريخ، معلناً فيها بيروت «مدينة حرة»، لا شأن ولا دخل لها بالحرب القائمة بين الفيشيين وبين الحلفاء، مغامراً هكذا برأسه وبحياته!

وفعلاً أخذنا بعد إعلان تلك الوثيقة الهامة، نتخيل النقاش موثوقاً إلى عمود التلغراف في ساحة البرج الكبرى، وأمامه مفرزة من الجنود السود، تنتظر الأمر بإطلاق الرصاص عليه!

وإذا كنا جميعنا ارتعدنا وخفنا على أنفسنا وعلى النقاش، فالنقاش ما خاف ولا ارتعد!

ونام تلك الليلة في مصيفه ببيت مري، كما كان ينام كل ليلة، دون قلق ولا وجل!

الاحتلال الجديد

ودخل الإنكليز والديغوليون البلاد وأعلنوا استقلالها بتصريح صدر في 26 تشرين الثاني سنة 1941. واستبقوا طبعاً النقاش رئيساً للجمهورية. ولكنهم بدّلوا الوزارة، فأقالوا وزارة «أمناء السر»، وألّفوا في 21 كانون الأول 1941 وزارة كاملة برئاسة أحمد الداعوق.

ومرت بضعة أشهر بسلام. ولكن أزمة الإعاشة بدأت تشتد.

وكانت سوريا تحتفظ بقمحها لنفسها، وكان البحر مقفلاً تقريباً. وأخذ الناس العاديون يشعرون بالحاجة إلى الخبز.

وانشق ذات صباح حجاب الهيكل وشاهدت السراي جموعاً من الناس، وأكثرهم من النساء، يهاجمونها ويرشقونها بالحجارة، طالبين خبزا.

تماماً كما ذهبت نساء باريس تراشق قصر فرساي في أيام الثورة الفرنسية طالبات خبزا.

ودار ألفرد نقاش بنظره حول حكومته ورجالها، فلم يجد أحداً منهم يستطيع أن يأتي بالخبز المطلوب، فأعفى تلك الحكومة!

وراح مع أصدقائه ومع الفرنسيين يفتش عن حكومة يمكنها أن تأتي بذلك الخبز، وعن خبّاز يستطيع أن يأتي بحكومة الخبز!

ولكن أين هو هذا الخبّاز!

لم يجده النقاش، ولا أصدقاء النقاش، ولا الفرنسيون الذين يتمسكّون بالنقاش ورئاسته.

ظهور الخبّاز!

ولكن الخبّاز نفسه ما لبث أن دلّهم على نفسه. إنه رئيس محكمة الجنايات يومئذ، سامي الصلح، المعروف بظرفه وخدماته للناس. فقد جاء إلى السراي من تلقاء نفسه، وقال لألفرد نقاش:

- أنا هو الخباز الذي تفتشون عنه!

في ذلك الحين كان السياسيون البيروتيون غيورين على وجاهتهم البيروتية القديمة، ويستثقلون ظل السياسيين الغرباء عنهم، الذين كانوا قد بدأوا منذ أوائل الانتداب يقتطعون لأنفسهم وجاهة إسلامية في العاصمة.

وكان آل الصلح، مع أن أكثرهم كان قد استوطن المدينة منذ زمن بعيد قبل الانتداب قد أخذوا يغزون بيروت آتين من صيدا بمطامعهم وظرفهم وملاحة وجوههم وعبقرياتهم ونباهتهم، وخصوصاً بثقافتهم التي أجمع جميعهم على اقتباسها.

وأخذت أقدامهم ترسخ ووجاهتهم تستتب رويداً رويداً في مرافق عديدة، حتى أصبح لهم أخيراً حساب كبير في الأمور العامة، بالرغم من مناوأة الفرنسيين لهم سياسياً ومناوأة وجهاء بيروت لهم اجتماعياً، وصار كلٌّ منهم، وعلى الأخص رياض الصلح يتآمر على الانتداب ولا يتعب، وبرز كاظم في جريدة «النداء» رسولاً للفكرة العربية في لبنان وللكيان اللبناني العربي.

وكان الفرنسيون يحرصون على إبعاد آل الصلح عن السراي، فلا يستدعون أحداً منهم للوظائف السياسية العامة ولا للمهمات الانتدابية الكبرى.

ولكن، ونحن نتحدث عن رئاسة النقاش، كان الصلحيون قد أخذوا يطغون كثيراً على الأمور العامة والسياسية الوطنية، مما جعلهم يفرضون أنفسهم على السراي أخيراً.

وجاءت تظاهرات الخبز التي تكلمنا عنها مناسبة موفقة لذلك، فجاء سامي الصلح يعرض خبزه. وكان حضرته أقل الصلحيين مناوأةً للانتداب، فأدخلوه السراي رئيساً لوزارة الخبز، في 27 تموز 1941، مما فتح أبوابها منذ ذلك الحين لآل الصلح، وكانت قد مضت عشرون سنة على قيام هذه الدولة، ولم تكن أقدام رياض الصلح بنوع خاص قد وطئت عتبة السراي أو صعدت درجاتها!

ولكن عندما أخذ سامي الصلح يستشير الساسة لتأليف وزارته استدعى رياض الصلح - بموافقة الفرنسيين - للاستشارة، ودخل رياض الصلح لأول مرة سراي البرج، وقال وهو يصعد سلالمها للصحافيين الذين أحاطوا به:

- هو ذا نحن... عندما نحتل موقعاً يصبح من الصعب جداً بعد ذلك إخراجنا منه!

كانت الوزارة لنا

ونروي هنا على سبيل الذكرى والتفكهة أن الرئيس النقاش عندما قرر استدعاء سامي الصلح لرئاسة الوزارة دعانا - وقد كنا من المقربين إليه - لغداء منفرد معه في «الايروكلوب» لم يحضره غير الوجيه حبيب طراد، وقال النقاش إنه تقرر تكليف سامي الصلح.. وعندئذ قلنا:

- إذا لم يكن بدٌّ، بعد عشرين سنة انتداب، من تكليفِ صلحيٍ بالحكم فلماذا تأخذون «الدوبليكاتا» ولا تأخذون «الأوريجنال»؟

أي لماذا تأخذون النسخة بدل الأصل. وعنينا طبعاً رياض الصلح.

وكانت هذه الطرفة سبباً لخسارتنا المقعد الوزاري الكاثوليكي الذي كان الرئيس النقاش يريد إسناده للداعي.

إذ لمّا عرف سامي الصلح أننا أسميناه «الدوبليكاتا» غضب علينا، ورفض أخذنا في وزارته، وجعلها من حصة الأستاذ جورج كفوري!

كان سامي ... خبّازا!

وعندما جاء سامي الصلح للنقاش يقول له إنه هو الخباز الذي يفتشون عنه، لم يكن كاذباً ولم يكن مبالغاً، إذ أن «فاكونات» القمح أخذت ترد من سوريا بطريقة عجيبة، في الوقت الذي لم يكن قد بقي ببيروت غير عشاء ليلة أو ليلتين - على محطة المرفأ، وفتحت الأفران أبوابها، بعد أن كادت تقفلها!

وهكذا الخباز، كان عنده خبز!

هذا القمح الذي جاء به لبيروت، كان قد استعان على استقدامه بصديقه المزارع الأكبر رقم واحد بسوريا، نجيب آغا البرازي. وكان هذا قد اختزن منه الكثير في حواصله بحماه ملكاً شخصياً، وهو حر طليق بالتصرف به، فاستجار به سامي الصلح، واستجار خصوصاً بصداقة ابن عمه حسني البرازي الذي كان يومئذٍ رئيس الوزارة السورية، وطلب منهما أن يساعداه لكي لا يظهر كاذباً أمام الفرنسيين وأهل البلاد، ففتحا له الحواصل في حماه، وقالا له: خذ ما تريد.

وهكذا لبضعة أسابيع، استطاعت بيروت أن تأكل خبزاً سورياً، واستطاع سامي الصلح أن ينقذها من الجوع، مما فتح آفاقاً سياسية كبيرة له ولفتيان آل الصلح وزعيمهم رياض الصلح، ومما وضعهم حالاً وفجأة في واجهة الزعامات الإسلامية ببيروت.

ولكن دخول سامي الصلح أنهى مرحلة الهدوء النافع التي عرفتها البلاد مع عهد النقاش، إذ ما كاد سامي الصلح يدخل السراي من هنا، حتى دخلت معه طوابير من سماسرة السياسة والصفقات، ومن ضَرَّابي السيف والترس، ومن السياسيين والصحافيين المرتزقين، فصارت السراي لا تفرق شيئاً عن سوق النَّوَريّة المجاورة لها!

وضاع التوازن الذي كان النقاش قد جعله في البداية شعار السراي، وأصبح أصحاب المصالح فيها غرباء، وبدأت متاجرات النقد النادر والميموزا والحبوب والنسيج وفروعه وضروب الشغب السياسي، مما لم يكن سامي الصلح في طيبة قلبه وحسن ظنه يستطيع منعه، ومما انتهى أخيراً - كما هو طبيعي - باعتزام النقاش الافتراق عن سامي الصلح واستبداله!

وذات صباح حمل ألفرد نقاش شجاعته بكلتا يديه، وطلب إلى سامي الصلح الذهاب، بتقديم استقالته. فأجابه سامي الصلح بقوله الطريف المشهور:

- أنت وأنا هنا، وعندما نذهب، نذهب سوا!

ورفض سامي الصلح الاستقالة رفضاً باتاً، وصار لبضعة أيام في سراي البرج حكومتان: حكومة النقاش، وليس بيدها شيء تقريباً، وحكومة سامي الصلح وبيدها كل شيء!

ذهبا معا

وفي هذه الأثناء كان الفرنسيون قد بدأوا يعيدون تنظيم الحكم في البلاد، تنفيذاً لوعد الاستقلال. فذهب النقاش والصلح ضحية هذه العملية. ففي 25 آذار سنة 1943 أصدر المندوب السامي الفرنسي قراراً بإعادة الحياة الدستورية إلى لبنان، وبذلك انتهى حكم النقاش والصلح معاً، وتولى أيوب ثابت منصب رئاسة الدولة.

وترك النقاش السراي، بهدوء، تماماً كما دخلها.

ويمكن القول إنه رئيس الجمهورية الوحيد الذي لم يعد يفتكر بالرئاسة. وفي جميع معاملاته مع الناس، لم يَدَعْ أحداً يشعر أنه كان رئيس جمهورية، أو أنه يُوَلّي وجهه شطر الرئاسة ثانية!.

5

أيّوب ثابت

رَجُل الكَبيرة والصَغيرة!

هل سمعتم بأول مناقشة جرت في أول جلسة عادية لأول مجلس نيابي في الجمهورية اللبنانية، ثلثاه منتخبان، والثلث الباقي بالتعيين؟ وكان مجلس نواب 1922 - 1925...

كانت تلك المناقشة عن صيد الحمام، وهو موضوع لا يدلُّ اختياره على روح الجد...

وكان أول المتكلمين الدكتور أيوب ثابت، نائب الأقليات المعيَّن عن بيروت.

وقد كان أيوب ثابت بروتستنتياً عندما يريد، ومارونياً عندما يريد، كما كان في ذلك الحين الجنرال عصمت أينونو، يسمع جيداً عندما يريد - ولا يسمع بالمرة عندما لا يريد!

قلنا كانت أول مناقشة عن صيد الحمام، وافتتحها أيوب ثابت، وافتتح حياته النيابية والسياسية مع قيام الجمهورية اللبنانية، بالاعتراض على صيد الحمام، وذلك باسم جمعية الرفق بالحيوان، فقد كان هو أحد أعضائها أثناء الحرب الأولى، لمّا لجأ إلى أميركا هرباً من مطاردة الأتراك له، بوصفه من جماعة الإصلاح وطلاب الانفصال عن الدولة.

طلب أيوب في تلك الجلسة بإلحاح وحماسة كبيرين تبديل الحمام - هذا الطير الهادئ المحبوب، الحامل راية السلام - بالصحون الخزفية، فبدلاً من أن يصطاد غواة الصيد الحمام نفسه، يصطادون صحوناً خزفية تدفعها آلة ضغط في الفضاء، وعمل أيوب ثابت من هذا الطلب قضية دولية هامة!

وهنا نستطيع القول إن أيوب ثابت لم يكن الوحيد الذي بدأ حياته السياسية بموضوع خزفي... بل الجمهورية اللبنانية كلها، بشخص مجلسها النيابي الأول، دشَّنَتْ أعمالها في مناقشة حادة جدية أكثر من ساعة عن صيد الحمام!

وهكذا كان انطلاق الحياة النيابية في لبنان خزفياً، أو بالحري سخيفاً!

وإذا كان ذلك المجلس النيابي قد تناقش بعدئذٍ في أمور هامة حيوية، فمناقشاته لم تبدد الفكرة الصغيرة التافهة جداً التي أخذها الناس عنه عندما دَشَّنَ ولادته بقضية صيد الحمام!

ثلاثة أشياء

لقد بدأ أيوب ثابت حياته السياسية بمقدمات صغيرة. ولكنه كان يتطور كلما تمرَّس بالحكم، واستطاع في ما بعد أن يأتي بأعمال كبيرة تستوجب التقدير، رغم تمسكه أبداً بالأمور الصغيرة.

من ذلك، أنه في المرات الأربع التي جاء فيها أيوب ثابت وزيراً كانت باكورة أعماله فور دخوله السراي، إصدار أوامره بمنع التبويل على الحيطان. وهذا الأمر كان نصيبه نصيب الذين يكتبون بالخط العريض على جدران مخازنهم: «كذا وكذا الذي يبول هنا»!

ومنع أيوب ثابت التزمير بالسيارات، وتقديم القهوة بالسراي، مما كاد يخرب بيت رستم القهوجي المشهور، إذ كان أيوب ثابت يقطّع بذلك رزقه، فيجلس رستم طيلة النهار على درج السراي - سراي البرج - يشكو حظه وظلم أيوب ثابت، ويدعو له بالذهاب حالاً والرحيل!

صديق فرنسا الأمين

كان أيوب ثابت يبدأ بالأمور الصغيرة أولاً، ثم بعد ذلك يأتي أو يحاول أن يأتي بالأعمال الكبيرة!

وكان أيوب ثابت من أكبر وأشدّ المتشيِّعين المتحمسين للفرنسيين، منذ أيام جمعية الإصلاح التي كان من أعضائها، وهي الجمعية التي دفع رجالها حياتهم ثمناً لانضمامهم إليها، وعلَّقهم جمال باشا على أعواد المشانق سنة 1916 وسط ساحة البرج، حيث يقوم اليوم تمثال جميل يشهد بتضحيتهم.

ولكن أيوب ثابت، مثل اميل اده ومثل الدباس ومثل داود عمون وغيرهم، استطاع الهرب في الوقت المناسب وذهب لنيويورك، يدعو لفرنسا بالنصر عند المغتربين، ويتشاجر كل يوم مع الأمير سعيد أرسلان بطريقة عنيفة، تتفق مع

«النرفزة» الطبيعية التي كان قد اشتهر بها، والتي جعلت أهل المسالمة والهدوء يكفون أنفسهم شرها بترك صاحبها يقول ما يريد ولا يعارضونه شأن الفاجر الذي يأكل مال التاجر!

تلك النرفزة لم تكن مصيبة عليه وحده، بل أيضاً على الوزارات التي تولاّها، وكانت تتولد عن مرض في أمعائه يسبب له إمساكاً غريباً تعذّرت معالجته.

يحكم من بطنه

هذا الإمساك، كانت مقدّرات الوزارات التي تولاها أيوب ثابت مرتبطة به ارتباطاً صارخاً، مما جعل الناس بأجمعهم يعرفون مزاج الوزير بسهولة، فإذا كان في ديوانه هاشاً باشاً وقام بأعمال كبيرة، ظهر الدليل على أن معدته قد مشت في صباح ذلك اليوم وانفرج إمساكه!

وإذا كان عابساً منرفزاً لا يستقبل أحداً إلا بالعياط والصراخ، ويقوم بأعمال ليست أرفع مستوى من منع التبويل على الحيطان، وعدم شرب القهوة بالسراي، يغضب لأقل شيء، ويتقاتل مع زملائه في مجلس الوزراء، فذاك دليل على أن معدة أيوب ثابت في ذلك الصباح لم «تخرج»!

نسمي هذه الأشياء بأسمائها العادية، وذلك لأن الناس بأجمعهم حتى السيدات المحترمات أنفسهن، كُنَّ يعرفن أن أعمال السراي عندما يكون أيوب ثابت وزيراً فيها، متوقفة على خروج معدته أو عدم خروجها!

وكان هو يعرف ذلك، ويتجنب قدر الإمكان في اليوم الذي لا تنطلق فيه معدته عند الصباح القدوم للسراي ويجلس في غرفة نومه في بيته لا يقابل أحدا!

بوانكاريه

قلنا أعلاه إن أيوب ثابت قام ذات يوم من فرنسا، حيث لجأ في بداية الحرب الكبرى الأولى إلى أميركا، وذلك بالاتفاق مع الحكومة الفرنسية لكي يستنهض المغتربين للتطوع في الجيش الأميركي وللمطالبة بحماية فرنسا للبنان، بعد النصر، ووضعت الحكومة الفرنسية بتصرفه مبالغ يستطيع بها العيش بسعة، والقيام بمهمته على قدر ما يستطيع.

وبطبيعة هذه المهمة كان يجتمع يومياً في نيويورك إلى العدد الأكبر من المغتربين، فيجدون فيه شخصية مدهشة نشيطة قوية، تنسجم مع ميولهم السياسية الفرنسية التي جاء يستنفرها ويزيد في حماستها.

وكان أيوب ثابت يجد الجو ملائماً لكل ما يريد ولكل ما يقول، وللقيام بمهمته على أحسن وجه، وقد خلقت السماء له صديقه وعدوه الأكبر الأمير سعيد أرسلان والد صديقنا الأمير مالك أرسلان وعمّ وزير الدفاع الأمير مجيد!

خلقت له السماء الأمير سعيد ليحضر اجتماعاته يومياً ويقف بوجهه دون باقي المغتربين أجمعين!

وكان الأمير سعيد عثماني الميل، يقوم بدعاية تركية معاكسة لدعاية أيوب ثابت، خصوصاً في الاجتماعات التي كان أيوب ثابت يعقدها ويحضرها الأمير فيجادله ويناقشه ويزيده عصبية وصخبا.

وذات يوم أغضبه لدرجة جعلت أيوب يعلن أنه لن يحضر اجتماعاً يكون الأمير سعيد حاضراً فيه.

وشقّ الأمر على المغتربين الذين كانوا يتلذذون بهذه المساجلة اليومية بين أيوب ثابت وبين الأمير سعيد، فذهبوا إلى الأمير يطلبون منه أن يصالح أيوب ثابت ويسترضيه. حتى يبقى المغتربون اللبنانيون على تفاهم.

وكان الأمير مثال الظرف، وقد أخذ هو الآخر يجد لذّة خاصة في إغضاب أيوب ثابت وفي المشاجرات التي كانت تجري بينهما، فأجابهم:

- ولكن ليس بيني وبين أيوب ثابت غير خلاف واحد، فهو عندما يكف عن أن يعتبر نفسه بوانكاريه وأن يعتبرني محمد رشاد نتفاهم حالا.

وكان محمد رشاد يومئذٍ سلطان العثمانيين، وريمون بوانكاريه رئيس جمهورية الفرنسيين.

إلى الأبد يا عنبر

ولما انكسر الأتراك وعاد أيوب ثابت إلى لبنان، ترك في نيويورك ما كان يسمّيه قلبه!

وقلبه هذا كان مجسّماً في شخص فتاة أميركية حسناء، قضى حياته يحبها ويهرب منها، وقضت حياتها تلاحقه ولا يواصلها!

ذلك الرجل الأناني، والأحمق أكثر الأحيان، الكثير الغرور والبعيد عن الناس، إلى درجة أنه كان يدخل دور السينما بعد بداية الرواية ويخرج منها قبل انتهائها، حتى لا يراه أحد، وحتى لا يتحدث مع أحد.

ذاك الرجل عاش أربعين سنة عاشقاً متيَّماً ولهاناً يحب امرأة واحدة. وقد أحبته هي الأخرى كثيراً، مع أن ذلك صعب التصديق، لما كان عليه من بشاعة وأنانية وأخلاق شرسة. ومع هيامه بها كان يصدها دوماً، حتى عندما كانت تفاجئه وهي نصف عارية!

ولعلّ تلك الحسناء الإيرلندية الأميركية أحبته لأنه صدَّها، فالصدّ يثير الحفيظة، ويجرح كرامة المرأة واعتدادها بنفسها فيصبح هاجسها الأوحد جعل الجواد الحرون العصبي يرضخ لها ويستسلم إليها...

ولما عاد للبنان، تركها في نيويورك، بالرغم من جميع توسلاتها، ولكنه داوم على مراسلتها، وداومت على مراسلته ثلاثين سنة، جاءت في خلالها بالخفاء مراراً لبيروت لتشاهده وتحاول امتلاكه، ولكنه ظل حروناً حتى النهاية!

والمذكَّرات والرسائل التي تركها في ما يختص بهذه الحسناء كانت تثبت أن غرامه بها كان جارفاً مخيفاً، وأنها المرأة الوحيدة في العالم التي رفع أنظاره إليها وحرَّكت في نفسه عاطفة الحب!

... ولكن الحب العذري فقط!

وهذا الحب هو الذي كان كثيراً ما يصقل من أخلاقه ويخفف من غلوائه ويحدّ من غروره وكبريائه!

ولماذا حافظ أيوب ثابت على بتولية هذا الحب، وجعله حباً عذريا؟

هذا ما لم يعرفه أحد!

وهذا ما لم يقله هو لأحد!

حتى ولا للكاتب المعروف نجيب ليان صديقه الأقرب!

وعلى كل، يجب القول بأن ذاك الحب الذي دام أكثر من ثلاثين سنة، كان ولا شك أسمى ما عرفه ذاك الرجل!

وهذا الحب هو الذي كان يدفعه كل ليلة للاعتزال مع كأس وسكي. لقد كان مدمناً على الوسكي كثيراً، ولكن دون أن يتبذَّل أو يتسفَّه.

نزاهة أيوب

واشتهر أيوب ثابت في حياته السياسية بنزاهته وبعده عن الكسب، وكان يبالغ بنزاهته كثيراً ويفاخر بها أكثر من اللازم!

ولا شك أنه في الوزارات التي تولاّها لم يترك مجالاً حتى لأخصامه - وكانوا كثيرين جداً - لاتهامه بأية صفقة أو متاجرة قام بها وجنى منها مكسبا!

وكان حريصاً على هذه السمعة التي عملها لنفسه، لا يجد أحد مجالاً لإنكارها عليه، حتى كان ذات يوم من سنة 1936، وكان أيوب ثابت يومئذٍ وزيراً للداخلية، فتشاجر مع المرحوم الشيخ فريد الخازن، ووصل الشجار إلى الكلام الكبير. وعندئذٍ قال له الشيخ فريد:

- بعدك بتعمل نفسك ملاك طاهر وتنسى الثلاثمائة ألف ليرة التي أخذتها يوم صرت وزيراً لأول مرة، قرضاً من الدولة بفائدة مضحكة، وعملت فيها مياه صيدا، ولم تُعِدْ منها للخزينة شيئاً حتى الآن، وقد تنتهي هذه الدولة قبل أن تعيد إليها شيئا!

وفعلاً قد تكون مياه صيدا ما تزال مديونة حتى الآن للخزينة بهذا المبلغ الذي كان ضخماً جداً يوم أخذه أيوب ثابت، عندما كانت الليرة الذهبية بخمس ليرات لبنانية.

وكان الشيخ فريد يقول بعد ذلك: إن أيوب ثابت لا يحتاج لأن يعمل صفقات جديدة، فقد كفته الصفقة الأولى وَوَفَّتْ!

أيوب الرئيس

ولكن مع هذا كله، كان أيوب ثابت حتى آخر ساعة سن حياته رجلاً كبيراً في أعين الناس، وخصوصاً في أعين الفرنسيين، وكان هؤلاء يقولون إن أخطاءه السياسية وأخلاقه الشرسة، تغطي عليها وطنيته اللبنانية الصادقة وأمانته للانتداب. وهذا ما جعلهم يعيِّنونه رئيساً للدولة بعد انسحاب النقاش وسامي الصلح سنة 1943، في عهد الجنرال كاترو، المندوب السامي الذي جاء على رأس الفرنسيين الأحرار إلى سوريا ولبنان.

وأوكل الفرنسيون إلى أيوب ثابت رئيس الدولة الجديد إجراء انتخابات نيابية بلبنان تعيد الحياة البرلمانية المعطَّلة، وذلك تنفيذاً للاستقلال الذي أعلنه الفرنسيون الأحرار.

وطبعاً، لم يبدّل أيوب ثابت، يوم دخوله للسراي كرئيس دولة، شيئاً من العادات التي نهج عليها لما كان يأتي وزيرا!

ولهذا عندما استلم رئاسة الدولة حالاً، وبأمرٍ سامٍ، منع أولاً كعادته المعروفة التبويل على الحيطان، ومنع التزمير بالسيارات، ومنع القهوة بالسراي!

وعاد رستم القهوجي للصخب والدعاء على أيوب ثابت بالشر!.

ثم باشر أيوب ثابت مهمته. باشر مهمته عند مفرق خطر. عند النقطة التي تحاشى جميع الرؤساء قبله طرقها وفتح أبوابها.

كان الرجل جريئاً وجسوراً جداً، وكان في هذا المجال مجنوناً!

كانت الأيام أيام حرب، والأحكام العسكرية مفروضة، وفرنسا المنتدبة محتلة ومكسورة، والفرنسيون الأحرار حكام البلاد - ولكن تحت سيطرة الإنكليز - وهم كخشبة في البحر تتقاذفها الأمواج ولا تعرف أية ساعة تغرق، واليقظة الوطنية الاستقلالية، وخصوصاً العربية، في أشدّ حماسها وقوتها، والمسلمون في كل مكان من لبنان ينتظرون وقوع الفريسة حتى يفترسوها...

انتقى أيوب ثابت هذا الوقت العصيب لينادي بتقسيم طائفي جديد للمقاعد النيابية بالمجلس المنتظر، يكون فيه النصارى أكثر عدداً من المسلمين بنسبة غير مقبولة، وأخذ بالوقت نفسه يُعِدُّ القوائم الانتخابية الجديدة التي تساعدها الحكومة للنجاح، واختار معظم رجالها من النصارى المتعصّبين، الذين لا يجدون أيَّ عطف عند المسلمين.

اجتماع الدعبول

وقامت القيامة على أيوب ثابت، وكان يقول إنه منذ قيام هذه الجمهورية، وهو ينتظر اليوم الذي يستطيع فيه أن يفقأ الدمل، فجاء الآن يريد إفقاءها ولا يتراجع...

وكانت اجتماع بناية الدعبول، وهو الاجتماع الذي تنادى إليه جميع الزعماء المسلمين، وزعماء الدروز. وفي ذلك الاجتماع وضعوا ذاك «الفيتو» على أيوب ثابت.

ومع ذلك، ومع تدخل الفرنسيين ونصائح أصدقاء أيوب ثابت، قال إنه لن يتراجع.

وكان يبرِّر عمله بقوله إن الطابع المسيحي على لبنان، إذا زال زال معه لبنان، لذلك انتقته السماء هو رئيساً للدولة كيما يحافظ على ذلك الطابع!

ولكن الأمير مجيد أرسلان الذي تحمَّس كثيراً في اجتماع بناية الدعبول، وأكثر من اللازم، أرسل يقول لأيوب ثابت أن يتراجع وإلا «قوصه»!

وقد ذهب أيوب ثابت من رئاسة الدولة ولم يتراجع، ولم يقوِّصْهُ الأمير مجيد!

ساعة ضعف

ذهب أيوب ثابت بقرار من الفرنسيين، بعد أن كان أعدَّ قوائم انتخابية رجالُها بأجمعهم من أصدقاء الانتداب الذاهب، ومن طلاب قلب الانتداب الفرنسي إلى حماية عسكرية افرنسية تقتصر على إعطاء الفرنسيين المراكز الاستراتيجية التي يطلبونها فيحتلونها في ظل استقلال يعطي مركزاً ممتازاً لفرنسا دون باقي الدول!

ونذكر أننا دخلنا على أيوب ثابت وهو في أحسن أيامه برئاسة الدولة، ووجدنا عنده الشيخ فريد الخازن يرجوه ويتوسل إليه أن يحذف اسم الشيخ يوسف الخازن صديقه وصديق الفرنسيين من قائمة جبل لبنان الحكومية ويضع اسمه مكانه، فأجابه أيوب ثابت قائلاً:

- منذ عشر سنوات وأنا أنتظر هذه الساعة لأشاهدك فيها تتوسل وتتصاغر أمامي بعد أن أهنتني واتهمتني بالاختلاس. ومع ذلك فأنا مستعد أن أضع اسمك مكان اسم الشيخ يوسف شرط أن تكتب ورقة تتعهد فيها بقبول الحماية العسكرية الفرنسية، وإعطاء مركز ممتاز لفرنسا في لبنان!

وضرب الشيخ فريد رأسه بالحائط حينئذٍ واستيقظت كرامته، فدفع الباب بِرِجْلِهِ وذهب!

ولكن هناك «واحدة بواحدة» أخرى.

لم يشاهد أحد أيوب ثابت يتصاغر، وهو الرجل الذي عاش طيلة حياته العامة مرفوع الرأس شامخ الأنف «لا يحطها واطية» لأحد!

إنما نحن شاهدنا هذا الرجل يحطها واطية وواطية جداً، لبشارة الخوري، ويتصاغر أمامه أكثر مما تصاغر الشيخ فريد في الواقعة التي ذكرنا.

كان ذلك في سنة 1943، وقُبيل انتخابات رئاسة جمهورية الاستقلال الجديدة ببضعة أيام.

وكان قد مضت بضعة أشهر على ترك أيوب ثابت رئاسة الدولة بالطريقة الزرية التي أخرجه الفرنسيون والإنكليز بها، إذ نزل سلَّم السراي مطروداً لا معتزلاً.

وكان أيوب ثابت قد نجح في الانتخابات التي جرت يومئذٍ كنائب للأقليات عن بيروت.

وكانت علاقاتي الخاصة معه على غاية ما يرام، إذ كان وقت الصفاء من أظرف الرجال، وكان بفكاهته ومعارفه يجعل مجلسه مجلساً رفيعاً راقياً، كما أن أخلاقه المُستغْرَبة كانت، ولا شك، تجتذب إليه طلاب الجديد والمبتكر من أمثالي.

استدعاني أيوب ثابت إلى بيته، وأمام كأس الوسكي، قال لي:

ـ أنت تعرف عدائي لبشارة الخوري، وكيف أنني اتخذت دوماً جانب اميل اده ضده، وتعرف أن جميع الجسور بيني وبين بشارة الخوري منقطعة، خصوصاً بعد هذه الانتخابات التي اشتغلت فيها بكل قوتي ضدَّه، ولكن السياسة لا قلب ولا شرف لها. أقول لك هذا ولو استغرَبْتَ صدوره عني!

«الآن، هناك مساومة بيني وبين بشارة الخوري. أنا مستعد أن أعطيه صوتي وأصوات أصدقائي في انتخابات رئاسة الجمهورية على أن يتعهَّد بمساعدتي في انتخابي رئيساً للمجلس. فاذهب وقدم إليه هذا العرض!»

قلت وأنا لا أكتم دهشتي: هل تترك اميل اده وتصوِّت لبشارة الخوري؟

قال: لا بدّ من ذلك!

وذهبْتُ لبشارة الخوري أعرض عليه ذلك «البزار» غير المنتظر، ولكن بشارة الخوري الذي كان ضمن يومئذٍ أكثرية لانتخابه لرئاسة الجمهورية أجابني بمرونته المعهودة المزوجة أيضاً بروح التشفّي:

ـ ما دام يترك صديقه اميل اده بهذه السهولة فقد يتركني وقت اللازم بسهولة أكبر، لهذا لا جواب عندي على هذا العرض!

وطبعاً لم أذهب لأيوب ثابت أبلغه ما جرى، وكنت أتحاشى بعد ذلك الالتقاء به بقدر ما تحاشى هو الآخر الالتقاء بي!

كأنني كنت أخشى أن يخجل أمامي، وكأنه هو كان يخشى أن يتذكر إذا التقى بي ويضطر أن يفكّر بساعة الضعف التي ظهرت منه أمامي.

ولم يعش أيوب ثابت كثيراً بعد ذلك.

وفي ساعته الأخيرة، كان قد نسي كل شيء ما عدا المرأة التي أحب!

فقد مات وهو يضع صورتها الجميلة على فمه، ولفظ أنفاسه الأخيرة في القبلة الحارة والأخيرة التي طبعها على تلك الصورة...

6

بتْرو طرَّاد

قضى رئاستَه بلاَ عَمَل!

أوَّلُ ما فعله بترو طراد، لما تسلّم رئاسة الدولة خلفاً لأيوب ثابت في 21 تموز سنة 1943، أنه وضع على باب مطبخه نفرَيْن من البوليس، يمنعان الوقحاء من أصحابه، من دخول المطبخ!

كل شيء في منزل بترو طراد كان دوماً مفتوحاً أمام الضيوف، وبكرم كبير ووداعة جميلة، ما عدا المطبخ!

ومنذ البداية، وقبل أن يصبح بترو طراد رئيساً للمجلس مراراً، ثم رئيساً للدولة، كان المطبخ عنده ممنوعاً على سواه!

فالمطبخ عند الأستاذ بترو طراد كان بمثابة دار الحريم...

وفي الثلاثين سنة التي قضاها بترو طراد في السياسة، عفيفاً ظريفاً، خفيف الظل، صادقاً، كان يحرص على أن يجمع في مطبخه أحلى وأجمل مجموعة من الوصيفات!

قلنا «الوصيفات»، لأنه كان لا يسمح لأحد بأن يسمِّي خادماته بالخادمات، الأمر الذي كان يَعدُّه إهانة لهن، وإهانة للدور المرموق الذي يقمن به في دارته المضيافة، وللجمال الذي كن يتصفن به!

لقد نذر بترو طراد العزوبة منذ صباه، وأقسم ألا يتزوج، مع أن شخصيته ومركزه واسمه كانت تجعله في نظر المرشحات للزواج صيداً ثمينا!

ولكن، لماذا يقيِّد نفسه بالزواج، طالما يوجد في القرى اللبنانية وصيفات ـ لا خادمات ـ يتمنَّين مقابل سخائه الشهير، الدخول في حرمه الهمايوني؟

وهكذا ظلّ بترو طراد، إلى آخر عمره، مُحاطاً بالوصيفات، على طريقة عذارى الملك داود!

الليل كان له!

كان بترو طراد رجل الليل رقم واحد، ويعتبر النوم ضياعاً للوقت. لذلك كان آخر من يأوي للفراش، مع أن فراشه ـ كما ذكرنا أعلاه ـ كان دوماً ناعما!

وإلى جانب ذلك، كان بترو طراد يحبُّ لعب الورق، شأنه شأن أهل الحي السرسقي، حي ملوك الشرق كما كان اسمه قبل الحرب العامة الأولى، لما فيه من قصور ووجاهة، ولابتعاد أصحابه عن الحياة العامة، حتى صاروا يؤلِّفون ضمنه بيئة خاصة تعيش حياة الترف والورق.

ذلك أن لعب الورق، وعلى الأخص لعب البوكر، لم يكن فقط للسلوى والمقامرة واللهو، بل كان أيضاً من مستلزمات الوجاهة!

فاتح الحي

وعمل بترو طراد في صباه في ذلك الحي شيئين طريفين تفرَّد بهما:

أولاً ـ كان يربح غالباً بالبوكر تساعده بذلك نباهته ومعرفته باللعب، بعكس أهل الحي الآخرين الذين بذَّروا أكثر ثرواتهم على الموائد الخضراء، لأنهم كانوا يجهلون كيف يربحون!

وثانياً ـ فتح بطرقه الخاصة، وبصداقاته مع باقي الناس، أبواب القصور أمام أكثر ثراة البلد، مما أخرج الحي السرسقي من برجه العاجي وجعل الدخول إليه سهل المنال. وقد كان دخول الحي قبل ذلك يستلزم له براءة خاصة!

كان بترو طراد يدّعي ـ وعن حق ـ أنه ما ترك ليلة منذ سن السادسة عشرة حتى يوم ذهابه من هذه الدنيا، إلا ولعب فيها بالورق!

وبالفعل في مساء اليوم الذي عَيَّنته فيه السلطات الفرنسية رئيساً للدولة، جاء إلى «سركل» بيروت، ولعب بالورق كالعادة حتى الساعة المتأخرة من الليل التي اعتاد عليها.

ولم يتبدَّل شيء في حياته الخاصة ولا العامة سوى ما أوردناه سابقاً من أنه بدَّل حراس مطبخه من رجال الحي، بنفرين من البوليس يحفظان الحرم الهمايوني!

انتخابات غريب عنها!

وكانت مهمة بترو طراد الرئيسية عندما استدعاه الفرنسيون لرئاسة الدولة إجراء الانتخابات التي كان سلفه أيوب ثابت قد بدأها، وكان أيوب قد خلع عليها ذلك الرداء الطائفي الخَطِر، الذي كان يتوخى من ورائه زيادة عدد النواب المسيحيين في المجلس إلى 32 مقابل 22 مقعداً فقط للمسلمين، وأن يأتي بأصدقائه الفرنسيين نواباً فيه، وأمام رد الفعل الإسلامي الذي تحدثنا عنه في فصلنا السابق، تراجع الفرنسيون ودعوا أيوب ثابت للاستقالة، وعيَّنوا مكانه رجلاً مسالماً وسياسياً مرناً خالياً من تعصُّب أيوب ثابت الطائفي والفرنسي.

ولم يكن عند بترو طراد شيء يبرر مخاصمة المسلمين له. فهو كان أرثوذكسياً وليس مارونياً. والمسلمون كانوا يعتبرون كل ماروني موالياً لفرنسا.

وكان قد أصبح تقليداً بعد رئاسة الدباس الأرثوذكسية في بداية قيام الجمهورية، أن يكون رئيس الجمهورية أو الدولة مارونياً. ولكن اختيار بترو طراد أرضى بنوع خاص المسلمين الذين أغضبهم أيوب ثابت!

حيث ينفع الشِّعر!

وكان بترو طراد يتقن العربية ويتكلمها ببلاغة ويستشهد في أحاديثه العامة، وبطريقة نابهة ومدهشة، بأقوال الأئمة المسلمين وآيات القرآن وأبيات الشِّعر التي كانت ذاكرته العجيبة تحفظها وترددها في كل مجلس عام أو خاص.

وكان لهذا أيضاً شأنه عند المسلمين في رفع اسم بترو طراد، ثم في زيادة الرأسمال العربي عند خلفه الشيخ بشارة الخوري. فبينما كان خصم هذا الأخير الألدّ اميل اده لا يتكلم غير الافرنسية ويتغنى بها وبشعرها وأقوال نوابغها، كان بشارة الخوري يروي أحاديث الصحابة ويستشهد بالزمخشري وابن خلدون وينشد المتنبي وابن أبي ربيعة والفارض، مما سيأتي الحديث عنه في الفصل التالي.

حرية بترو!

قلنا إن رئاسة الدولة أُعطِيَتْ لبترو طراد كي يجري الانتخابات بطريقة لا تستفز المسلمين ولا تخلق مشادة طائفية.

وقال بترو طراد في الساعة التي دخل فيها الرئاسة: «أفضل طريقة لعمل انتخابات لا تخلق المشاكل، هي في ترك الانتخابات حرة طليقة».

ولكن، هل يمكن للدولة أن تفعل هذا؟

وكان يعرف أن ذلك غير ممكن بسبب عوامل عديدة، أولها الفرنسيون أنفسهم، وإذا كان هؤلاء قد أعلنوا استقلال البلاد، فذلك لا يعني أنهم تركوا كل شيء بأرضه ورموا سلاحهم!

وإذا كان المستشار في السراي لم يعد موجوداً، فالدوريات العسكرية الفرنسية في المدينة كانت في تزايد!

وإذا كان الأمن العام الفرنسي قد التحق بالجيش الفرنسي رأساً، فلكي يزداد قوة وعدداً، ويستطيع أن يتدخَّل بالانتخابات، بجميع طرقه ووسائله، لصالح مرشحي المندوبية.

وكان بترو طراد يعرف أن رئاسته للدولة هي «فَضَّة مَشْكَلْ»، وأنه لا يستطيع أن يتمتع إلاّ بحرية واحدة: حريته هو. فاختار هذه الحرية الخاصة وحافظ عليها حتى النهاية، وإذا كان لم يستطع أن يمنع عمال الفرنسيين ورجال أمنهم من التدخُّل، فقد استطاع أن يمنع نفسه، الأمر الذي لم يبدل شيئاً ولم ينفع أحداً...

وترك كل شيء يمشي وحده...

إن أجمل بنت في العالم لا تستطيع أن تعطي أكثر مما عندها، وبترو طراد كان أول من يعرف ذلك.

وما من مرشح زاره، سواء أكان من جماعة الفرنسيين أم من خصومهم، إلا وسمع منه تشجيعاً وترحيباً. فهو لم يصدَّ أحداً، ولم يكشّ بوجه أحد، وبضاعته اللطافة مع الناس لا تكلف شيئاً. وكان عنده الكثير منها. أو لعله لم يكن عنده سواها!

وهكذا لم يعرف السياسيون في هذه البلاد رجل دولة كلمته حلوة للجميع، ككلمة بترو طراد، الفكه اللسان، اللطيف المعشر، الظريف القول!

كان يقول لكل مرشح: «هذا الذي عندي أعطيك إياه»...

ولا حياء في الدين!

وكان المرشَّحون يعرفون جيداً أنه لا يملك غير هذه البضاعة، لذلك عندما جاء وقت المسبات والحملات والتهجّم وفش الخلق عند المرشحين الخاسرين في

الانتخابات، لم نسمع أحداً منهم يسبُّ بترو طراد أو يتجهَّم عليه، بل شهدوا بأجمعهم ببراءته التي لم تنفع أحداً!

الملكة أليزابيث

كان بترو طراد مثل ملوك الإنكليز، أي مثل جورج السادس يومئذٍ، ومثل الملكة أليزابيث اليوم، يملك ولا يحكم. وهذا ما جعله الرئيس اللبناني الوحيد الذي لم يكن له أنصار سياسيون ولا خصوم.

وفي الوقت الذي وصل فيه بترو طراد إلى رئاسة الدولة كانت السلطات العسكرية تقبض بيدها على كل شيء، ولا تترك لرئيس الدولة وللسلطات اللبنانية غير صلاحيات محددة معينة، صلاحية الإشراف من بعيد لبعيد على نواطير الكروم، وعلى أمور لا شأن لها بسياسة الدولة الداخلية والخارجية بها.

ولهذا السبب توفَّر عند بترو طراد كل يوم الوقت الكافي للسهر ولعب الورق، ولإحاطة مطبخه الهمايوني بذاك «الكوردون» من الحراس!

اضحك يضحك لك العالم!

وكانت السراي ضاحكة، والناس يضحكون معها خلال ذلك الوقت القصير الذي كان فيه بترو طراد رئيساً للدولة، بالرغم من مخازي الحرب ومخاوفها.

وعندما يضرب ربُّ البيت بالدف، يكون الرقص شيمة أهل ذلك البيت.

وطالما أن الحكم ليس من شأن الحكومة، بل من شأن السلطات المحتلة، وليس بيد الرئيس اللبناني شيء، فإنه لم يبق عليه إلا أن يأتي لسراي البرج، كل يوم قبل الظهر وبعد الظهر شكلا.

وأصبحت السراي في ذلك العهد نوعاً من «الأوبرا - كوميك» تجتذب السياسيين إليها، يرتادونها ويلعبون أدوارهم بها، ولم يترك لهم الفرنسيون في تلك الحقبة أية مناسبة لكي يشاغبوا ويتآمروا ويستوزروا، فأصبحوا هم الآخرون بطَّالين، لا شغل عندهم. وقامت بين الخصمين العنيدين بشارة الخوري واميل اده هدنة إجبارية قصيرة، شبيهة بالاستراحة التي تعطيها المسارح للنظارة بين فصل وفصل!

رئاسة بدون عمل

واختار بترو طراد أفضل السبل لتمضية هذه التجربة التي وقع فيها بسلام.

كان يعرف ـ كما كان يقول ـ أن كرامته في أن لا يعمل شيئاً يُغْضِبُ الفرنسيين فلا يضطرونه لترك الرئاسة شحطاً وطرداً، فيما لو وقف في وجه الفرنسيين مطالباً بصلاحيات الرئاسة. كان يريد أن يخرج من تلقاء نفسه ساعة يريد، مُحاطاً بالفرنسيين يودِّعونه ويكرِّمونه!

وكان بترو طراد يعتبر مع ميكافيلي ـ وكان دوماً يحمل كتابه بجيبه ويردّد أقواله ـ أن الحاكم الذي لا يستطيع أن يحكم ويضع مسؤوليات الدولة على عاتق غيره، هو الحاكم السعيد!

موعد دائم

وكنا كل ليلة على موعد مع بترو طراد في «سركل» بيروت على العشاء أولاً، ثم في مجلس الأنس، وفي لعب الورق!

وفي كل ليلة كان بترو طراد، عندما تطأ قدماه السركل الساعة السابعة مساءً، يخلع عدة الحكم في المصعد، ويضعها على الدرج ويدخل النادي متناسياً تماماً أنه رئيس الدولة، ليس فقط بلطافته ووداعته المشهورتَيْن فحسب، بل أيضاً بابتعاده عن كل بحث بالسياسة العامة أو الخاصة، فلا يسمح لنفسه التكلم بها.

ولأول مرة في حكومات الجمهورية، كان عندنا حكومة واحدة لا حكومتان. كان عندنا حكومة فرنسية تحكم في السراي الكبير. أما حكومة السراي الصغير الوطنية فكانت صورية من نوع رفع العتب، حتى لا يُقال أمام الناس إن الاستقلال الذي أعطاه الفرنسيون الأحرار، هو استقلال بالكلام.

وأخيراً حكومة واحدة!

وقبل ذلك، منذ قامت الجمهورية، كان لنا دوماً حكومتان: حكومة المفوضية وحكومة السراي، وكلٌّ من الحكومتين تضع مسؤولية أخطائها على الأخرى!

وكما قلنا سابقاً فإنّ أول ما يتقنه الحكام التهرُّب من المسؤوليات.

وأي منا ذهب للحاكم اللبناني يشكو ظلامة، ولم يقل له الحاكم اللبناني إن الخطأ من المستشار الفرنسي؟ وإذا ذهب للمستشار، قال له إن الخطأ من الحاكم اللبناني!

مدة خمس وعشرين سنة قضاها اللبناني هكذا!

هذا يقول له شغلك مع المستشار، والمستشار يقول له شغلك مع حكومتك.

وبالغ الفريقان في تبادل التهرُّب من التبعة، حتى أخذ الناس يفضّلون حلَّ مشاكلهم فيما بينهم بأية طريقة كانت..

أما في عهد بترو طراد، فإنه كان يقول للذين يراجعونه بالسراي الصغير:

ـ شغلكم مع السراي الكبير!

وهنا كان يقول الحق بكامله، ويدلهم على المرجع الحقيقي!

سامي الصلح نابوليون

وعلى ذكر السراي الكبير في ذلك الحين، نذكر أن سامي الصلح فجّر قنبلته الأولى بعد طول الغياب، وذلك عندما انقضت المئة يوم التي وعده الفرنسيون بإعادته بعدها إلى الحكم، إثر إقالته مع الرئيس النقاش، ولم يعيدوه، وكانت تلك المئة يوم مثل مئة يوم نابوليون، لما هرب من جزيرة ألبا وعاد للعرش!

فجّر سامي الصلح قنبلته في مهرجان أقامه يومئذٍ معتمد العراق. وكانت المعتمدية تفتح أبوابها على جميع مصاريعها، وتماشي اللبنانيين علناً وبطريقة استفزازية في مطالبهم الاستقلالية وتشجِّعهم على التظاهر والعصيان.

ويومئذٍ، على أثر ذلك المهرجان الذي جمع، علناً، العناصر الوطنية بوجه الفرنسيين، صرخ سامي الصلح صرخته المعروفة، باللهجة العربية التركية التي اشتهر بها، قائلاً:

ـ السراي الكبير لنا!

وأرسل مذكّرة للجنرال كاترو يطالب بتسليم بناية السراي الكبير للحكومة اللبنانية حالاً.

وأحدث ذلك الطلب ضجة كبرى عند الفرنسيين، وعند رئيس الدولة بترو طراد، الذي أجاب بقوله:

ـ إذا أراد الفرنسيون أن يعطونا السراي الكبير، فلست أنا الذي سيتسلّمه...

قال هذا لأنه يعرف أن الفرنسيين لن يغتفروا له مطلقاً مثل ذلك الطلب إذا طلبه.

ميعاد الرحيل

وحان موعد الانتخابات، وأصدر بترو طراد مرسوماً بتعيين موعد الدورة الأولى في 29 آب سنة 1943، والدورة الثانية في 5 أيلول، وكان الفرنسيون قد قرروا توزيع مقاعد المجلس كما يلي: 30 للمسيحيين و 25 للمسلمين.

واشتدّت الحركة بالبلد، واستيقظ السياسيون وأهل الشغب وطلاب المناصب الوزارية، ودخلت المعركة الانتخابية بفوضاها وحركاتها، فوجد بترو طراد أن الزمان الأول قد تحوّل، وأن الهدوء الكامل الذي رافق حكمه قد انتهى، فاستعدّ للرحيل، وأخذ يترقّب الفرصة المناسبة لذلك!

بظهور نتائج الانتخابات، بدأت معركة رئاسة الجمهورية بين بشارة الخوري واميل اده. وحاول الفرنسيون زجّ بترو طراد فيها وترشيحه رئيساً حسماً للخلاف بين العدوّين المرشحين الكبيرين، فلم تنجح المحاولة.

ويوم 21 أيلول سنة 1943، أصبح الشيخ بشارة رئيساً للجمهورية، فحمل بترو طراد أكاليل غاره وحقيبته - التي كان من جملة محتوياتها دائماً زجاجة كولونيا معطرة وزجاجة صبغة للشعر - يوم 25 من أيلول وذهب للمندوبية الفرنسية يشكر ويحمد ويودّع!

7

بِشَارَة الخُوري

أول رئيس لمْ يَأْتِ سِكرتيراً لِلمفوّض السَامي

هل كان بشارة الخوري محامياً ملازماً «ستاجيير» في مكتب اميل اده للمحاماة؟

كثيرون يقولون ذلك، وهو الآخر يقوله.

ولكن يومئذٍ، لم يكن أحد يعرف بشارة الخوري إلا باسم والده الشيخ الجليل خليل الخوري، الكبير بين كبار الموارنة في جبل لبنان، ومدير القلم العربي النزيه الوقور في المتصرفية، الذي ابتعد عن السياسة والحزبيات قدر استطاعته ولمّا دخل أخيراً فيها، كان مُرْغَما!

فهو لم يستطع التهرُّب من الخصومة لما قام نسيبه وابن عمه ومواطنه في رشميا وعين تراز، حبيب باشا السعد، في أواخر عهد المتصرفية، يناوئه ويسعى للحلول محله في وظيفته المحترمة، وقد توارث أبناؤه هذا العداء من بعده، على رأسهم بكره بشارة الخوري!

وفي الوقت الذي تبدأ فيه هذه السيرة العجيبة، أي في العام 1922 تقريباً، كان بشارة ملازماً في مكتب اميل اده. ومن ذلك المكتب ركّب ذات يوم جناحين كبيرين، وانطلق كالطير نحو السياسة ومغامراتها...

أجل، كانت نقطة الانطلاق من وراء طاولة متواضعة، تحمل بضع مجلدات قانونية، كان يجلس إليها بشارة الخوري برصانة وقناعة مستغربين بعض الشيء في فتى يافع، عنده كل ما يدفعه للهوى والشباب والأمل المنشود، من سعة واسم محترم وصبوة نشيطة!

ولكنه لم يفعل ولم يستسلم لأي طيش، ولم يكن يهتم لغير شغله ودروسه، وهو من الرجال القلائل في هذه البلاد الذين شاخوا وما يزالون يدرسون، ويقولون مع سقراط «مهما عرفنا تبقى أشياء كثيرة لا نعرفها!»

غير «السعد» و «اده»!

جاءت نقطة الانطلاق، لما اكتشف فجأة بشارة الخوري بعد حين من بداية عهد الانتداب الفرنسي أنه من الساسة الموارنة المدعوين لأن يلعبوا الدور الأول في البلاد، في الوقت الذي أخذ فيه نجم الرعيل السابق من الزعماء الموارنة، أمثال داود عمون وأديب باشا ونعوم اللبكي بالأفول.

وكان موسى نمور والشيخ يوسف الخازن وجريس زوين وجورج ثابت وأمثالهم من الوجهاء المارونيين المشتغلين بالسياسة والبرلمان والزعامات يعتبرون يومئذٍ أن العين لا ترتفع فوق الحاجب، وأن حبيب باشا السعد واميل اده هما السبّاقان الماشيان في المقدمة، نحو الرئاسات والحكم في السراي.

ولا شك أن بشارة الخوري قال في نفسه حينئذٍ:

- ولو... ألا يوجد بالطائفة غير هذين الكبيرين؟

وكان بشارة الخوري يخدع الملاحظين بمظاهره البسيطة الهادئة التي تدل على قناعته بمركزه المتواضع في مكتب اميل اده، في الوقت الذي كان فيه يمشي حبيب باشا السعد واميل اده في الذروة.

ولكن بشارة الخوري كان يعرف - وحده - أن وراء هذه المظاهر الوادعة الهادئة التي له تكمن آمال كبيرة لا بدّ من السعي لتحقيقها، وأنه يملك شخصية قوية يجب أن تلعب دورها، يزيدها إلحاحاً وجاهة مارونية متأصلة لا تقبل أن تسير بركاب غيرها، خصوصاً بركاب حبيب السعد واميل اده، وذلك عن عداء عائلي للأول وعن حقد غريزي للثاني!

وهكذا، ودون سابق إنذار وانتظار، دون أن يكون أحد قد حسب حساب ذلك المحامي الملازم المتدرِّج في مكتب اده، نزل بشارة الخوري للميدان، يضرب الطبول وينادي بقطع الرؤوس، ويقول:

- سأُريهم أن عند الموارنة غير حبيب السعد واميل اده!

هكذا صار بشارة الخوري فجأة الرجل الثالث، وأخذ يشقّ طريقه بذلك الهدوء والثبات اللذين ما يزال يتّصف بهما حتى الآن، واللذين تغلّب بهما على المصاعب والمخاطر التي كانت تنتظره هنا وهناك...

بشارة الشاب

وفي نزول بشارة الخوري للساحة، نزل بشخصه عنصر الشباب. وكان الفرنسيون في ذلك الوقت يأتون بالحكام الوطنيين من الجياد العتيقة القديمة، وكان قد جاء وقت جمعت السرايا جميع هذه الجياد مرة واحدة، وذلك يوم صار حبيب باشا السعد رئيس جمهورية وبترو طراد رئيس مجلس النواب، وعبد الله بيهم السكرتير العام للدولة، والأمير فائق شهاب رئيس الديوان، والشيخ خليل الخازن أميرالاي الجند اللبناني، وكان كلٌّ من هؤلاء قد مشى بالعمر مسافة طويلة!

وعاشت حكومة هذه الجياد العتيقة زمناً بحكمة الشيوخ، ولكن بوهنهم! ووقارهم.

وجاء ذاك الرجل الثالث الشاب يحكم في تلك الجياد ويضعها على الرف الواحد تلو الآخر.

ومشى بشارة الخوري نحو السراي بخطوات واسعة، وظهرت فجأة عنده حيلة سياسية غريبة وسيعة لم تكن تنمُّ عنها ظواهره البارَّة الطاهرة، ولم يكن أشد الناس نباهة يفترض وجودها فيه!

وانتقل بشارة الخوري سريعاً من مكتب المحاماة إلى القضاء سنة 1922، وجلس على منصته برهة قصيرة، ومن تلك المنصة قفز في سنة 1926 رأساً إلى الوزارة!

سلاح فعّال!

وكان بشارة الخوري تلميذ الجزويت وخريج كليَّتهم المفضَّل، يعرف عنهم بنوع خاص أمرين هامين، يكفي أن يتسلَّح بهما لكي يتوصل إلى ما يريده!

كان يعرف سيطرة الجزويت، وعلى رأسهم رئيسهم الأب شانتور، على الفرنسيين، وكان يعرف خصوصاً كيف يعبئ تلك السيطرة لمصلحته عن طريق التقرب إليها بتقشفه وقداديسه وتأدبه وتفوقه في دروسه، خاصة في التعليم المسيحي، مما جعله عند الجزويت الإبن البار يحمل الرسالة التي يحملونها.

وكانت خطوته السياسية الأولى خطوة كبيرة دلت على أن الخطوات التي ستتبعها ستكون أكبر وأكبر!

واتكالاً على الله وعلى الجزويت، وعلى الفرنسيين من ورائهم، دخل السراي رأساً وزيراً للداخلية في وزارة أوغست باشا أديب، أول حزيران سنة 1926، وكان الاستقبال الذي لاقاه بالسراي في البداية استقبالاً هازلاً فاتراً، وتساءل السياسيون الكهول والشيوخ الذين كان الفرنسيون قد جمعوهم فيها حكاماً وموظفين كباراً:

ـ كيف يستطيع هذا الشاب الساكن البارد المتعثر أن يمشي لوحده؟

ولكن المثل العامي القائل: «الناس مختبئون بأثوابهم» لم ينطبق على أحد قدر ما انطبق هذه المرة على بشارة الخوري، إذ ما كاد يجلس على كرسي وزارة الداخلية حتى خلع ثوب السذاجة والمسكنة، وأخذ يثبت وجوده بطريقة صارخة.

وما مضت بضعة أيام حتى كان هو الوزارة، ولم يترك لرئيسها ولزملائه غير القشور. وتوصلّ إلى ذلك، بطرق هادئة ساكنة وديعة، وبورع غريب، وبفرك اليدين، وفرك اليدين عادة ظلت تتملك فيه حتى اليوم!

وراح الشيخ بشارة الخوري يُشَلّح الفرنسيين وأهل السراي صلاحياتهم ويقبض عليها بين يديه. وكان يفعل ذلك بطريقة لبقة، استطاع بفضلها أن يكتسب دهشة رئيس الجمهورية يومئذٍ شارل الدباس، مع أن الدباس لم يكن راضياً تماماً عن إدخاله بالوزارة، وعن إعطائه وزارة الداخلية لأنه، لفرط ذكائه، أدرك أنه الرجل الذي سيمشي إلى الأمام أكثر من اللازم والمطلوب!

الجسر ومبارك

ومنذ الساعة الأولى في الوزارة وضع بشارة الخوري نصب عينيه هدفين:

الأول: اكتساب الشيخ محمد الجسر رئيس المجلس ورجل الساعة وممثل المسلمين في السراي، والرجل الذي يصغي له الدباس رئيس الجمهورية ويخافه.

الثاني: اكتساب مندوب المفوض السامي لدى الحكومة اللبنانية، والحاكم الحقيقي في السراي، وذلك عن طريق سكرتيره ورئيس ديوانه موسى مبارك، الذي كان في نباهته ولباقته، يسيطر على المندوب الفرنسي، ومما سَهّل الجمع بين بشارة الخوري وموسى مبارك تحالفهما مع الأب شانتور رئيس الجزويت، والأب سارلوت رئيس العازاريين في مدرسة عينطورة، وكليهما يملكان نفوذاً كبيراً في المفوضية.

وإذا كان بشارة الخوري إبن الجزويت البار، فقد كان موسى مبارك ابن مدرسة عينطورة العازارية البار أيضا!

وقد أدرك بشارة الخوري، بعد أن لمس سيطرة موسى مبارك على مندوبية المفوضية السامية بسراي البرج، أن المندوبين يذهبون ويتبدلّون، ولكن سكرتيرهم الوحيد يبقى.

وهكذا، لما اكتسب بشارة الخوري موسى مبارك، اكتسب جميع المندوبين الذين توالوا في سراي البرج!

وإذا كان بشارة الخوري قد اكتسب موسى مبارك، فالسياسيون الموارنة الكبار طلاب الحكم والرئاسات، الذين أخذوا يستثقلون ظل بشارة الخوري بالسراي ويخافون مزاحمته القوية، وعلى رأسهم اميل اده وحبيب السعد، أعلنوا الحرب على هذا السكرتير للمندوبية الفرنسية واعتبروه عدواً يجب التخلص منه!

ولكن ـ كما قلنا ـ كان موسى مبارك في المندوبية أقوى من المندوب، لذلك تحطّمت جميع مساعي أولئك الكبار للتخلص منه على أبواب المندوبية، وزادته تهجماتهم عليه تقرباً وخدمة لبشارة الخوري.

وعرف بشارة الخوري في الوقت نفسه كيف يكتسب صداقة المندوب الفرنساوي، فأخذ يراوده ويدلله ويرضى بكل ما يقوله، وضمناً يفعل ما يريد، يأخذ من المندوب ولا يعطيه!

ولما سافر رئيس الوزارة أوغست باشا أديب مندوباً عن لبنان لتصفية الديون العمومية التركية، انتهز بشارة الخوري المناسبة بوكالته لرئاسة الوزارة، وجلس فيها أصيلاً مستعملاً طرقه النابهة المختصة به، وكان ذلك في أيار 1927.

غلطة الشاطر

والسياسي، مهما كان نابغاً وداهية يصل إلى وقت يتملّك به الغرور، فيأخذ في ارتكاب الأخطاء...

وارتكب بشارة الخوري، بعد أن صار رئيس الوزارة، الخطأ الذي كان يتحاشاه منذ الساعة الأولى التي دخل فيها للسراي.

أخذ بشارة الخوري يحكم مباشرة، متناسياً سلطة الفرنسيين، وهنا عاد اميل اده من رحلته إلى باريس، واكتشف أن هذا الخصم الجديد يأخذ الكثير من طريقه، فذهب يوقظ المفوض السامي المسيو بونسو، ويقنعه بأنه إذا ترك الفرنسيون الحكم للبنانيين، كما يفعل مندوب المفوضية وسكرتيره موسى مبارك في السراي مع بشارة الخوري، فلن يبقى للمنتدبين من شأن وتستيقظ عند الأهلين روح الوطنية، تتبعها الفتن والثورات، لذلك يجب حالاً وضع حد لحكم بشارة الخوري ورئاسته للوزارة!

ونجح اميل اده في مناورته، ورأينا بشارة الخوري بعد أربع وعشرين ساعة من ذلك يضب شنطه ويستعد لترك السراي.

ترك السراي في شتاء 1928، ولكنه ترك أيضاً على برطاشها آثار قدميه محفورة على الحجر، كأنها عربون عودته إليها، وكأنه ارتبط معها للرجوع ارتباطاً لا يُمحى...

ولم يترك بشارة الخوري وزارته الأولى والوزارات الأخرى التي جاءت بعدها إلاّ بعد أن أثبت قوة تمسّكه أيضاً بروح العائلة، وهي تلك الروح التي جعلته يفقد بعد ثلاثين سنة من ذلك، وفي عهد الاستقلال، رئاسته للجمهورية.

صار وجيهاً ببيروت

وكان الشيخ بشارة الخوري يومئذٍ أخذ «يتبورت» وانضم إلى الفئة الوجيهة في المدينة، أولاً بطبيعة أخلاقه وتربيته العالية وسكناه ببيروت، أو بالحري بفرن الشباك، في ذلك البيت المضياف المفتوح، ثم زواجه بفتاة من أعرق وأيسر الأسر النصرانية البيروتية.

على أن هذا الانضمام لم ينتقص شيئاً من جبليته اللبنانية التي كان دوماً يفاخر بها، والتي ما يزال يقدِّسها. وهذا الانضمام لم يزده مكانة عائلية؛ لأن مكانته العائلية في جبل لبنان لم تكن بحاجة للمزيد، غير أن السياسيين البيروتيين، وخصوصاً الموارنة منهم، كانوا قد أخذوا يتخوفون من بيروتيته!

يأخذ ويعطي

كان من قواعد حياته السياسية أنه لا يأخذ شيئاً إلا ويعطي مثله وأكثر منه، مما اشتهر به شهرة وسيعة، ومما تراخى فيه كثيراً بعد ذلك بربع قرن لما صار رئيساً للجمهورية، وقت أخذ أكثر الذين ماشوه يحاسبونه ويعدُّونه مديناً لهم أبدا.

قلنا ولما كانت قواعد حياته أن يعطي أكثر مما يأخذ فإنه لم يترك وزارته الأولى إلا بعد أن حقق بعض الصفقات لأصدقائه هؤلاء. ولعل هذه الصفقات لم تكلِّف الدولة شيئاً، ولكنها ما كانت لتتم لو لم يتدبرها رئيس الحكومة، ومنها عملية بناية سكة حديد الحجاز على البرج المعروفة الآن ببناية قهوة النجار ثم بناية النجمة.

وتبعها بعد ذلك وعلى مرور الزمن فتح البوليفارات والطرق الوسيعة تشق أراضي الجمهرة المعلومة التي أسماها الناس بعد ذلك «كونسورسيوم» ساحة النجمة. وهذا «الكونسورسيوم» إذا كان قد ساند بشارة الخوري سياسياً ومادياً فإن بشارة الخوري لم يترك عليه شيئاً، ورد التحية بتحيات عديدة أغلى وأحسن منها.

وبالمناسبة، كان بشارة الخوري يقول، وهو المعجب جداً بالأمثال العامية الجبلية:

«إذا لم تلبس صبّاطك فاجعل على الأقل غيرك يلبسه!»

وكان من الضروري أصلاً فتح هذه البوليفارات في الأراضي النائية، وفتح هذه الشوارع بالمدينة، ولكن لولا بشارة الخوري لما جرى فتحها حتى الآن، لِمَا نعرفه من تباطؤ هذه الدولة، عندما تكون المشاريع العامة مفيدة للبلاد دون الحكام أو أصدقائهم.

وليس الخطأ من بشارة الخوري إذا صادف أن أكثر تلك البوليفارات مرت في أراضي أصحاب الكونسورسيوم، الذين تجمعه معهم قرابة وصداقة كبيرتين.

مبارزة الثلاثين سنة!

ثم جاء وقت ترك بشارة الخوري الوزارات وصار بعد ذلك أكبر منها لا يرضى بها، ويجدها صغيرة عليه. وفي أقصر وقت ممكن قامت تلك المبارزة العلنية بينه وبين اميل اده، وهي مبارزة طال عهدها، ولم تنته إلا بانتهاء اميل اده.

وقد ضرب بشارة الخوري المقياس العالمي بين السياسيين في اشتغاله بالسياسة بلا انقطاع وبالرئاسة دون أن يتعب لا ليلاً ولا نهاراً، يحمل المكاره بالأناة التي يحمل فيها المحاسن. يصبر على ضاربيه ويعمل بسكون وهدوء ليضربهم، وكثيراً ما كان يشدُّ لهم الحبل حتى يأتي وقت يتراخى ذلك الحبل فيضربون أنفسهم؟!.

المناورة بالعروبة

ولا نعرف إذا كان الجزويت حقاً هم أصحاب القاعدة المنسوبة إليهم، والقائلة بأن الغاية تبرر الواسطة، ولكننا نعرف أن بشارة الخوري - تلميذهم النجيب - لم يكن

يحتقر هذه القاعدة، ولم يتباعد كثيراً عنها، فقد كانت جميع الوسائل تقريباً عنده صالحة إذا كانت توصله إلى غايته.

وقيل كثيراً في هذا الصدد يوم أعلن نفسه عربياً، وهو أول زعيم لبناني ماروني عامل نادى بالعروبة، يوم كانت المناداة بها طريق الموت بنظر الفرنسيين. وقيل إنه لم يتبنَّ العروبة إلا نكاية بهم عندما فضّلوا عدوّه اميل اده عليه.

وهكذا قيل إنه ما ذهب لمصر لعند مصطفى النحاس، ونادى به زعيم العروبة، ونادى بعروبة لبنان، إلا نكاية باميل اده وفرنسيوته، وليجد مسنداً وراء ظهره يسانده.

ومشت حكاية العروبة بلبنان الماروني بعد ذلك بطريقها، حتى أن البطريرك عريضة نادى هو الآخر بعروبة لبنان، وجاء بزعماء العروبة من سوريا، من كبار جماعة الكتلة الوطنية، يهنئونه بعيده في بكركي بمئات السيارات، وفي مقدمتهم الأتاسي والقوتلي وجميل مردم وفوزي البكري وفخري البارودي والدكتور شيشكلي وغيرهم من العصاة الثائرين على الافرنسيين، وأقاموا ذلك المهرجان العربي العظيم في أحضان بكركي، بعد أن كانت حتى ذلك الوقت حصن الانتداب وقلعة الفرنسيين!

وكان يوم العروبة اللبنانية في بكركي يوم بشارة الخوري وكتلته الدستورية السعيدة الذكر!

وبينما كان اميل اده عند المفوض السامي في قصره يؤكد ولاءه كان السوريون الوطنيون في بكركي ينادون بالبطريرك حبيب الله، وببشارة الخوري حامل علم العروبة بلبنان، يساعده في ذلك فصاحة لسانه وقوة استشهاداته التاريخية العربية وترديد الآيات الكريمة عند المناسبات والتجاوّه للقصائد العالية، في الوقت الذي كان فيه اميل اده يجهل العربية تقريباً ويستعمل الافرنسية في أقواله وكتاباته، مما كان المسلمون هنا وفي سوريا يعتبرونه استعباداً للاستعمار وتنكُّراً للغتهم المقدسة.

وقال كثيرون يومئذٍ إن الفرنسيين لو كانوا أخذوا بشارة الخوري وأبعدوا اده لكان اميل اده هو الذي سافر لمصر لعند النحاس باشا وأعلن عروبة لبنان، ولكان هو الذي اشترك بمهرجان بكركي عندما غضب البطريرك على الفرنسيين من أجل إعلان حصر الدخان، ودعا السوريين الوطنيين إليه!

وترددت ذات المقابلة يوم أخذ اميل اده رئاسة الدولة في سنة 1943، عندما أبعد الفرنسيون بعد إعلان الاستقلال بشارة الخوري وحكومته إلى قلعة راشيا، وأنشأ الأمير مجيد ببشامون خط ماجينو!

أول انتصار

ونال بشارة الخوري أول انتصار على اميل اده يوم انتخاب الأخير رئيساً للجمهورية في 20 كانون الثاني 1936، ولكنه كان انتصاراً رائعاً لبس رداء الانكسار.

وكان المجلس مؤلفاً من خمسة وعشرين نائباً - الثلثان منتخبان والثلث الآخر مُعَيَّن - فنال اميل اده 13 صوتاً وبشارة الخوري 12 صوتا.

هكذا أراد دي مارتل المفوض السامي، المستهتر الساخر الذي جعل خليلته المعروفة الفتَّانة، ذات الشعر الأحمر بومبادور عصرها، وصاحبة الأمر والكلمة المسموعة، وجعل صالونها ملتقى أهل السياسة وسماسرتها، يذهبون إليها يحملون الهدايا والقرابين، يتوسطونها لقضاء مصالحهم وأطماعهم، وهي لا ترد طالباً أياً كان عندما يعمل واجبه نحوها!

أراد دي مارتل أن يفوز اميل اده بصوت واحد، حتى يجعل انتخابه للرئاسة انتخاباً هزيلاً ويمنعه من أن يتباهى عليه، ولكي يجعل الرئاسة نفسها مبتذلة وليست ذات احترام.

وحسب دي مارتل - وقد كان ذكياً - أن خسارة بشارة الخوري للرئاسة بصوت واحد، هي انتصار له على اميل اده!

ذلك أن جميع العوامل وسلطات الفرنسيين اشتغلت لاميل اده من جهة، واشتغل بشارة الخوري لنفسه، وطبعاً بمساعدة الكتلة الدستورية التي كان رئيسها، وخصوصاً بمساعدة كميل شمعون، الذي كان يومئذٍ أقرب وأقدر وأدهى وأنفع صديق له!

قلنا إنه مع جميع القوى التي سلّطتها السلطات الفرنسية، ولكن بالكذب، لمحاربة بشارة الخوري، استطاع أن يأخذ نصف النواب، ما عدا صوت واحد، الصوت الذي عمل الرئاسة!

واستأسد بشارة الخوري يومئذٍ وتنمّر، وقال كلمته المشهورة: «هذه الأولى لاميل اده، وستتبعها الثانية والثالثة!»

وحسب بشارة الخوري يومئذٍ أن الطريق التي كان الفرنسيون قد سدُّوها بوجهه قد تفتَّحت لـه برضاهم أو بالرغم عنهم، وأنَّ الذي تتفتح الطريق أمامه، ويعرف كيف يمشي، يصل إلى آخرها سالماً وفائزا...

دور شمعون

قلنا انتصر اميل اده بالرئاسة بصوت واحد، وانتصر بشارة الخوري بالزعامة السياسية الوطنية.

وهنا يجب القول إن مؤازرة كميل شمعون لـه، وكان يعتبر شمعون صديق الإنكليز المقرب، خدمته كثيراً، وعمَّدت بشارة الخوري بمعمودية القنصلية البريطانية!

وجدير بنا أن نذكر هنا الكلمة التي قالها بشارة الخوري يومئذٍ في هذا الصدد:

- لولا كميل شمعون لكنا تركنا المعركة منذ البداية، فإن عناده واعتبار الناس أن الإنكليز وراءه، استطاعا أن يجمعا الإثني عشر نائباً الذين صوَّتوا لنا!

ويجب أن نفترض أن ستة على الأقل من هؤلاء الإثني عشر كانوا موضوع مساومة من جانب الاديين، فرفضوا. وقد جاؤوهم بأكياس الذهب عن طريق خليل معتوق، ذاك المثري الفجائي الذي جاءنا ذات يوم بجواهره وملايينه من وراء دجلة والفرات - من بلاد الشاهنشاه - حيث كان قد جمع بالسحر والشعوذة ثروة كبيرة ذهبت كلها في هذه البلاد على بهجات صاحبها وأطماعه الاجتماعية والسياسية، وعلى الحسان اللواتي سرن بركابه واكتسب بهن الوجاهة!

وكان معتوق قد أقسم عندما كان مفلساً متضايقاً يعاشر السراسقة معاشرة المعتَّر الفقير قبل رحلته لبلاد الشاهنشاه ليجمع ثروته الكبيرة، لقد أقسم أنه ذات يوم سيدخل حي السراسقة دخول الفاتحين!

وفعلاً، لما عاد من إيران السعيدة دخل الحي دخول أحد كبار أصحابه.

وهنا نستطيع أن نقول إن بشارة الخوري لم ينتصر في أصواته الإثني عشر فقط على دي مارتل واميل اده وحدهما، بل انتصر أيضاً على الشيء الذي كان يصعب دوماً الانتصار عليه: انتصر على الذهب!

ما دمنا نتكلم عن بشارة الخوري في أيام دي مارتل (1933 - 1938) وما ناله من ضرر ومن مكاسب في عهده يجب علينا أن نقول إن دي مارتل، في خططه الخاطئة،

كان يساعد بشارة الخوري بصورة غير مباشرة على تعزيز زعامته الوطنية. ولمّا فرض دي مارتل على رئيس الجمهورية اده وعلى بشارة الخوري في خريف 1937 عقد ائتلاف إجباري على مجلس نيابي جديد، يكون فيه للاديين 37 مقعداً و26 للخوريين، اعترف علناً بزعامة بشارة الخوري السياسية في الكتلة الدستورية التي كان هذا رئيسها، وهي الكتلة التي كانت تناوئ الانتداب.

ولم يستغرب يومئذٍ الكثيرون من السياسيين رواية الائتلاف الإجباري التي خلقها مبتدع الروايات الساخرة وأستاذها الأكبر الكونت دي مارتل، ولكنهم استغربوا كيف قبل بشارة الخوري بمثل ذلك الائتلاف، الذي أعطاه الحصة الصغرى في عدد النواب مع أنه كان يدَّعي أنه سيربح 95 بالمئة في أية انتخابات جديدة.

ونسب السياسيون القدم قبول بشارة الخوري بهذا الائتلاف البرلماني مع عدوه إلى شهوة للحكم، وإلى نظريته القائلة بأن نوابه في الداخل، ولو كانوا قلائل، يستطيعون أن يفعلوا أكثر من أنصاره الكثيرين في الخارج.

وهنا وضع السياسيون القدم نقطة سوداء تحت اسم بشارة الخوري، ولكن بشارة الخوري، كان هو الآخر ككل رجل مدرك وظريف، يحب روايات دي مارتل ويماشيها، حتى إذا لم تتفق كثيراً مع مصالحه ومصالح كتلته الدستورية العامة والخاصة.

وماذا يستطيع أن يطلب من دي مارتل أكثر مما فعله دي مارتل لـه، وهو يعارض سياسة الانتداب!

ثورة الباروك!

كان بشارة الخوري يشكو من استهتار دي مارتل من جهة، ويعترف لـه بحسنات كثيرة من جهة ثانية.

ففي الوقت الذي كان فيه دي مارتل يسخر من كل شيء، كان ينفِّذ المشاريع الكبيرة.

كان قديراً على تحويل المآسي إلى مهازل، والثورات إلى جبال تلد الفئران. ولكنه كان في الوقت نفسه قديراً على تحويل البحر إلى بر، والأقزام إلى جبابرة، وبنات الأوادم إلى بنات حرام!

وما يزال بشارة الخوري يذكر في أحاديثه هنا وهناك، كيف حوّل دي مارتل ثورة الباروك لصالحه، أي لصالح بشارة الخوري، وكيف قلبها من مهزلة مضحكة إلى قضية حكومية جديّة، وذلك قبل فرض مهزلة الائتلاف الانتخابي.

اغتنم اميل اده ورئيس وزرائه خير الدين الأحدب فرصة وجود دي مارتل في باريس، وراحا يحرجان بشارة الخوري وكتلته الدستورية والكبار من السياسيين الذين معه، أمثال هنري فرعون وغيره، يفسدون عليهم مصالحهم وينزلون الأذى بهم. فتصدى بشارة الخوري وصحبه لمناوأة الحكومة بطريقة قوية، ونادوا بالعصيان والثورة!

وذات يوم في أيلول سنة 1937، حملوا سلاحهم وراحوا يعتصمون في حرش الباروك، يتنادون للحرب بقيادة المارشال الأمير مجيد أرسلان، وينذرون اميل اده ورئيس وزرائه بوجوب الذهاب من الحكم، وبإجراء انتخابات جديدة يقودونها.

فعلوا ذلك مع معرفتهم ومعرفة الناس أن العصيان على السلطات، وأخصها السلطات المنتدبة في ذلك الحين، كان ضرباً من الجنون.

لهذا بعد ذلك «الأولتيماتوم» من الباروك، أخذنا ننتظر بين دقيقة وأخرى أن يذهب السنغاليون ويجرُّوا الأسُوُدَ من آذانهم إلى السجون!

الرجل الساخر

ولكن دي مارتل فعل عكس ذلك تماماً، وكان قد عاد من باريس على جناح السرعة، فأبلغ اميل اده وخير الدين الأحدب بأنه لا يوافق مطلقاً على ملاحقة صديقه بشارة الخوري، بل بالعكس، يريد أن يفاوضه ويعقد صلحاً معه!

وطبعاً تساءل اميل اده وخير الدين الأحدب من أين جاءت هذه الرعاية لبشارة الخوري دون أن يفهما شيئاً، وقام دي مارتل يرسل رسله يفاوضون أهل الحرب في الباروك!

ولا شك أن الأمير مجيد أرسلان القائد العام لثورة الباروك، وكنا قد سميناها في ذلك الحين «الثورة البيضاء» لأنها كانت والحمدلله ثورة بدون دم - أظهر امتعاضه كثيراً لمشروع المفاوضة، فهو كرجل حرب، يصبح عاطلاً عن العمل في أوقات السلم!

وطبعاً بعد أن فاوض دي مارتل الأبطال على الصلح، زادت كتلة بشارة الخوري قوة.

وأسفر الصلح عن قيام الانتخابات الجديدة التي تكلمنا عنها سابقاً، على أساس الائتلاف.

وعندما عاد المحاربون البيض في اليوم الثاني إلى بيروت، قامت التظاهرات لاستقبالهم، وظهروا بأجمعهم أمام المتظاهرين ظهور الأبطال، ورؤوسهم لاحقة بالسحاب، يمشي الأمير مجيد بالطليعة بسلاحه الكامل، لابساً السروال والكوفية والعقال، وجزمة تصل إلى فوق ركبته!

ولكن أين كان كميل شمعون؟

إنه لم يكن مع هذه التظاهرات، مع أنه لعب دوراً كبيراً في المفاوضات، ومع أنه هو الذي جعل بشارة الخوري والدستوريين يرفضون التفاوض مع حكومة اده والأحدب.

وكان دي مارتل قد أراد تكليف الحكومة بمفاوضة أبطال الباروك، ولكن كميل شمعون ضغط على الخوري حتى رفض ذلك، وأصر على المفاوضة مع الفرنسيين رأساً ومباشرة.

جاءت الحرب

وقامت الانتخابات بالتفاهم والمساومات، وأخذت الأيام تتوالى بعد ذلك، وأخذ مجلس المؤتلفين وحكومات الائتلاف تذهب مع الريح الواحدة وراء الأخرى: ريح الحرب التي كانت على الأبواب، وذهب معها أخيراً دي مارتل من المفوضية السامية، وذهب بعده اميل اده من الرئاسة، وجاء المسيو بيو مفوضاً سامياً.

وأخذت الجيوش الفرنسية تتدفق على البلاد، وأخذ العسكر الفرنساوي يستلم رويداً رويداً الصلاحيات العامة. وأخذت الأحزاب السياسية اللبنانية، وأخصها حزب بشارة الخوري وحزب اده، رويداً رويداً تتهادن في استراحة اضطرارية حتى كان احتلال الحلفاء لهذه البلاد وإعلانهم استقلالها وذهاب الفيشيين منها، وذلك في صيف 1941.

ومشت الأيام مع أحداثها المتوالية، حتى انتخابات 1943، التي قرر الحلفاء إجراءها لتأليف أول مجلس للاستقلال ولانتخاب رئيس جمهورية استقلالية.

وقد تدخلت المندوبية الفرنسية في هذه الانتخابات بشدّة لأنها كانت تريد أن يفوز فيها أكثرية من أنصارها ترضى بعقد معاهدة مع فرنسا، تعطيها مركزاً ممتازاً ومواقع استراتيجية في لبنان.

ومقابل ذلك كان بشارة الخوري وحليفه الجديد رياض الصلح وجماعة الكتلة الدستورية يريدون اعتبار الاستقلال الذي أعلنه الحلفاء يوم دخولهم البلاد استقلالاً صحيحاً كاملاً، فأرادوا إجراء الانتخابات النيابية على هذا الأساس. ولكن الأكثرية الناخبة لم تكن استقلالية استقلالاً صحيحاً ناجزاً من نوع الاستقلال الذي يطلبه بشارة الخوري وصديقه رياض الصلح، لذلك سقط بشارة الخوري في الدورة الأولى من الاقتراع في جبل لبنان.

ولكي لا يختلَّ التوازن، سقط اميل اده في الوقت نفسه. وكان كلٌّ منهما يترأس قائمة حزبه. ودُهِشَ الناس من سقوط اميل اده في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون قد عبأوا جميع إمكانياتهم لمساعدته مع مرشحيه.

ولكن الجنرال سبيرز المعتمد الإنكليزي، لم يكن نائماً، وفعل هو الآخر ضد اده كل ما يستطيع عمله. وقد كان قادراً أن يعمل كثيرا...

ولكنه لم يفعل ذلك رغبة بمجيء الخوري للرئاسة، بل قيل يومئذٍ وفي كل مكان إن مرشحه كميل شمعون. ولو كان كميل يومئذٍ مع اميل اده، لا مع بشارة الخوري لكان سبيرز ماشى اميل اده وخذل بشارة الخوري، ولكان اميل اده، كما قال كميل شمعون بعد ذلك، ترك الفرنسيين ومشى مع الإنكليز...

معركة الرئاسة

ولكن كميل شمعون كان مع بشارة الخوري!

إنما يجب أن نقول هنا إن مماشاة الإنكليز في ذلك الحين كانت تعني مماشاة الاستقلال اعتباراً أنهم كانوا يريدونه لهذه البلاد.

وطبعاً في اليوم الثاني للانتخابات التي جرت في 6 أيلول 1943 بدأت معركة الرئاسة.

وطبعاً، أخذ الفرنسيون يشتغلون لاميل اده بجميع وسائلهم.

وأخذ الإنكليز يشتغلون لبشارة الخوري، لا إكراماً لشخصه بل لأنه يرأس الكتلة الدستورية، ويرأس جماعة «الناسيونالست» الوطنيين طلاب الاستقلال الناجز!

وكان همّ الإنكليز يومئذٍ إبعاد الفرنسيين عن هذه البلاد. وليكن ما يكون بعد ذلك.

وقال الجنرال كاترو بالمناسبة عن هذا في مذكّراته «المعركة في البحر المتوسط» ما يلي:

«إن اشتغال الإنكليز ضد الفرنسيين في الانتخابات اللبنانية وفي انتخابات رئاسة الجمهورية، وسعيهم لإبعادهم عن هذا الشرق الأوسط، ليس جديداً، بل يرجع إلى مائة وعشرين سنة إلى الوراء، لما جاء نابوليون لمصر وفلسطين ووصل لعكا، فوقف الإنكليز بوجهه وردُّوه مع جيشه عن دخول لبنان ومنعوه من اكتساح سوريا والوصول للأناضول.

وعندما جاء إبراهيم باشا المصري يفتح هذه البلاد، كان الإنكليز وراءه، فهم الذين أرسلوه لاستباق الفرنسيين الذين كانوا يحشدون أسطولهم سراً لاحتلالها.

ثمّ عندما أرسل نابوليون الثالث جيوشه سنة 1860 لإيقاف المذابح الطائفية في لبنان وسوريا، طلب الإنكليز في مؤتمر باريس الذي عقدته الدول الكبرى انسحاب الفرنسيين حالاً من هذين البلدين، بعد أن هدأت الحالة. وكان ما أرادوا..

وهذا تماماً ما جرى سنة 1943، بشخص الجنرال سبيرز ممثل إنكلترا الكامل الصلاحيات، فالإنكليز هم الذين تابعوا رسالتهم التقليدية وعملوا على إبعادنا عن هذين البلدين».

هكذا تكلّم كاترو في كتابه، وكان صريحا!

كاترو والخوري

وبين الفرنسيين الذين حكموا هذه البلاد كان الجنرال كاترو أقلهم انتحاباً على فقدان فرنسا لسوريا ولبنان، إذ أنه كان يعتبر أن الفرنسيين فقدوا البلدين نهائياً منذ الساعة التي دخل فيها هتلر لباريس سنة 1940، إذ لا تستطيع دولة تخسر بلادها أن تحتفظ ببلاد سواها!

وهنا كان بشارة الخوري يتلاقى مع الجنرال كاترو في الرأي ويؤيد مع حزبه سياسة الجلاء.

ولم يكن بشارة الخوري أيضاً أكثر نباهة من خصمه اميل اده، فرغم تلاقي اده مع الجيش الفرنساوي وقواده والمندوبية العامة في بقاء الاحتلال، كان يعتقد إلى حد ما أن استمرار الوضع السابق أصبح مستحيلاً، ولكن كان عليه أن يلعب ورقته، ولا يستطيع أن يلعبها إلاّ على طاولة الفرنسيين الذين دفعوه إلى الميدان ووقفوا وراءه سداً منيعاً يمنعه من التراجع!

رئاسة ليلة واحدة

ولنعد إلى المناورات والمداورات التي رافقت انتخاب بشارة الخوري رئيساً لجمهورية الاستقلال، بعد أن قذف الفرنسيون في وجهه اميل اده.

ثم وضعوا بعد ذلك «فيتو» أمام سبيرز على بشارة الخوري وقالوا:

- طالما اده لا يكون، فبشارة الخوري يجب ألا يكون!

فأيَّد سبيرز في حيلته الوسيعة طلب الفرنسيين، ثم استدعى حالاً كميل شمعون وأعلن ترشيحه للرئاسة ووجوب انسحاب اميل اده وبشارة الخوري من الميدان!

ولمدة 24 ساعة - كما يذكر القراء - وضع كميل شمعون الرئاسة بجيبه.

وما كان الفرنسيون ينتظرون مثل هذه اللعبة والتحدي من المعتمد الإنكليزي، إذ أنه قد انتقى آخر سياسي يمكنهم أن يقبلوا به!

وتشبَّثَ سبيرز بكميل شمعون، فتراجع الفرنسيون، وانتقوا أهون الشرَّين وأخذوا يطلبون بشارة الخوري بعد أن كانوا يرفضونه تماما.

وهكذا صار بشارة الخوري رئيساً، وبرضا الإنكليز والفرنسيين معاً: الأولون عن تحبيذ، والآخرون على طريقة «أخوك مكرهٌ لا بطل»، وللتخلُّص من رئاسة كميل شمعون!

أيام العز والولائم والمراجل

وكانت الأيام الأولى لرئاسة بشارة الخوري العصر الذهبي الكبير، فالأحداث التي توالت والتي عرف بشارة الخوري كيف يستثمرها، جعلت من عصره يومئذ عصر الأمجاد!

جاء بشارة الخوري أول رئيس مستقل لأول جمهورية لبنانية مستقلة، وكان أول رئيس مدعو ليمشي على قدميه، لا على أقدام المنتدبين والجيش الفرنساوي، كما كان مفروضاً في الرؤساء الذين سبقوه في عهد الانتداب، والذين كانوا بالحقيقة - مع احترامنا لهم، ومع شخصياتهم البارزة - سكرتيرية للمفوضين السامين الفرنسيين!

جاء بشارة الخوري رئيساً للاستقلال وليس عندنا شيء من عدة ذلك الاستقلال!

كانت الجمهورية اللبنانية في أيام الانتداب فرنسا وجيشها، أما جمهورية لبنان في عهد الاستقلال فلم يكن عندها شيء من هذا، وكان على بشارة الخوري وصحبه أن يخلقوا هذه المقومات، وخلقوها فعلا.

وعندما نقول بشارة الخوري فإننا نعني جميع الزعماء الذين التفُّوا حوله وحول رئاسة الاستقلال، من عبد الحميد كرامه، لرياض الصلح، لأهل البسطة والجميزة.

هذا التكاتف قام لوقت ما مقام قوات عسكرية تحفظ البلاد من الفوضى، إذ لو نزلت عناصر الشغب يومئذٍ للشارع، لما وُجد من يمنعها من ذلك.

ولكن روح الاستقلال كانت قد دبَّت في كل مكان، فعاش الناس في أمجادها، مما أعطى بشارة الخوري وحكومته الجديدة الكبرى الوقت الكافي لخلق قوات من العدم معظمها قوات روحية تستطيع أن تساند السراي الوطنية وتحمي استقلالها.

كان على الرئاسة الجديدة بوجه أولّي أن تعدِّل الدستور تعديلاً استقلالياً، فتحذف منه كل ما كان يربطه بالانتداب وكل ما يجعله دستوراً افرنسياً أكثر مما هو لبناني.

وكان على الرئاسة الجديدة أن تفصل عن الجيش الفرنساوي الفرق الخاصة المدعوة بالفرق اللبنانية، وأن تجعلها وتنظمها جيشاً وطنيا.

وبينما كانت المفاوضات جارية مع الفرنسيين لإعطائنا الفرق الخاصة، وبينما كان الإنكليز يضغطون على الفرنسيين بقوة ليلبُّوا الطلب، وبينما كانت السلطات اللبنانية تدعو الفرنسيين لترك السراي الكبرى وإعادتها لأصحابها اللبنانيين، وبينما كانت الحماسة للاستقلال تزداد يوماً عن آخر، يساعد في ذلك سبيرز ومعاونوه، وبينما أخذنا نطالب بالجلاء - كان رياض الصلح يتقدم للمجلس النيابي بمشروع تعديل الدستور، وحذف كل ما فيه من مواد افرنسية، حتى المادة التي تجعل اللغة الفرنسية لغة رسمية.

وهنا وقعت الواقعة، وفي 11 تشرين الثاني سنة 1943 أطبق الجنود السود على بيت بشارة الخوري ورياض الصلح رئيس وزارته وبعض وزرائه والزعماء الاستقلاليين الذين يماشونه مثل عبد الحميد كرامه وصحبه، فاعتقلوهم وأرسلوهم إلى قلعة راشيا.

ودعا الأمير مجيد وحبيب أبو شهلا وصبري حماده الفرنسيين لاعتقالهم فلم يفعلوا، فخلق الأمير مجيد بشامون، وذهب يعتصم مع صحبه - وفي مقدمتهم صبري حماده وحبيب أبو شهلا.

عندما عمل صائب سلام بشامون ثانية ببيروت

وفي ذلك الوقت، زمن الرعب والهلع، وبينما كل سياسي استقلالي يتفقد رأسه، والسنغاليون في كل مكان يكشِّرون عن أنيابهم البيضاء، تحدى البيت الكبير - بيت أبو علي سلام - الفرنسيين وعساكرهم، وهو البيت الذي اعتاد منذ قديم الزمن أن يفتح أبوابه دوماً أمام المجاهدين العاملين على محاربة الاستعمار منذ أيام الأتراك حتى الانتداب ويقف بوجه الظلم والجور ويخاطر بسلامته وحياته.

وفي ثورة الاستقلال تلك، بينما كان معظم الزعماء السياسيين من الذين لم يعتقلهم الفرنسيون ولم يلجأوا إلى بشامون خائفين وَجِلين، وضع صائب سلام روحه وروح عياله على كفه، وفتح أبواب دارة آل سلام العامرة، وجعلها ملتقى الناقمين على السلطات الفرنسية، وقد كانت العساكر السنغالية تطاردهم، ثم جعل الدارة من جهة ثانية مجلساً للنواب يحتمون فيها، ويتخذون قراراتهم التاريخية للثورية ضد الفرنسيين وانتدابهم، وقد كان هؤلاء يحاصرون مجلس ساحة النجمة ولا يسمحون لأحد بالدخول إليه أو الخروج منه، ويطلقون النار على كل من يقترب منه.

قلنا، وجمع صائب سلام في دارته النواب في الوقت الذي كان فيه كلٌّ منهم يضع رأسه تحت الخطر.

وأثبت صائب سلام يومئذٍ جراة وطنية سياسية غريبة أكسبته تقدير الناس واحترام الفرنسيين أنفسهم لتلك الجرأة.

كان في الوقت نفسه قد وضع تحت تصرُّف البشامونيين من زعماء ومتطوعين كل ما استطاع وضعه من مؤن وملابس ومآكل وغيرها، ساعدت كثيراً في سد عوز المجاهدين في معقلهم، الذي اتخذوه قاعدة لثورتهم الوطنية العالية.

وكان عندئذٍ ما كان.

واعتلت راشيا إلى السحاب، واعتلت بشامون معها، ودُعي بشارة الخوري بأبي الاستقلال، وقامت الجماهير تحجُّ إلى راشيا، تقف خاشعة أمام قلعتها الحصينة، كما قامت بشامون تحيي المحاربين الأبطال، الذين لم يحاربوا أحدا!

وأخيراً فعل الإنكليز ما فعلوه!

وفعل اللبنانيون أيضاً ما فعلوه!

وتفتَّحت أبواب قلعة راشيا، ودخل المعتقلون التاريخ، ودخلوا بيروت دخول الظافرين!

وذهب اميل اده واعتكف في بيته.

وكان قد قبل من الفرنسيين رئاسة الدولة، يوم اعتقلوا بشارة الخوري وحكومته.

وتربَّع بشارة الخوري بالرئاسة ذاك التربُّع الكامل القوي يسانده رياض الصلح، رئيس حكومته.

الرجل القوي

دخل صائب سلام السراي لأول مرة من الباب الكبير. جاء وزيراً للداخلية، وكنا نسمع بشارة الخوري يقول في كل مناسبة إن يده كانت سعيدة عندما استدعى صائب سلام للوزارة، إذ أن هذا الأخير أثبت حالاً أنه رجل دولة من طراز أول، وأن التعاون معه يمشي دوماً نحو الأشياء الكبيرة.

«فصائب سلام - والكلام دوماً لبشارة الخوري - لا يمكنه أن لا ينجح، إذ أن عنده كل المزايا والمقدرة والشخصية ليسير في الطريق الواسعة، ويكون فيها في المقدمة».

وجاء في مكان آخر أيضاً، قول جديد للشيخ بشارة الخوري:

«وعندما تركت الحكم، كان صائب سلام أول من حاربني ولعب دوراً أولياً في جعلي أستقيل من رئاسة الجمهورية، وكنت قد وجدت له وحده بعض العذر بين جميع السياسيين الذين قاموا ضدي يومئذٍ، وهو أنه وحده تقريباً كان يعتقد - وعن حق لربما - أنني تركت بعض الزعماء يذهبون في النفوذ والسيطرة لدرجة لم يعد يمكنني معها أن أكبح جماحهم، فكان يعتبر من جهة ثانية أن بعض المقرَّبين طمعوا فيَّ أكثر مما كان يلزم وأنني كنت ضعيفاً دوماً أمامهم».

وسمعنا أخيراً من الشيخ بشارة الخوري شهادة أكبر وأقوى بصائب سلام، عندما صرَّح أمام جمهرة من زائريه؛ وكان ذلك عند نهاية الثورة:

- لقد قلت دوماً إن صائب سلام اشترك بالثورة وقادها لخدمة لبنان وكيانه، وليس - كما قال الكثيرون - لخدمة جمال عبد الناصر وجمهوريته العربية المتحدة.

وفي بداية حكم شمعون لا ننسى ما قاله حضرته عن صائب سلام يوم استدعاه وزيراً للدولة بوزارة اليافي.. قال:

«هذا هو العربي اللبناني الصحيح، فكم أودُّ أن يكون السياسيون اللبنانيون والزعماء عندهم الأيمان بلبنان الذي لصائب سلام به».

ومشت الأيام وهالات الاستقلال تحيط بالبلاد، وتم في أول 1946 الجلاء - جلاء آخر عسكري فرنسي وإنكليزي عن البلاد، ومشى الاستقلال في طريقه المنشود حتى جاء التجديد، سنة 1950.

ذاك التجديد الذي أجمعت البلاد في البداية على تحبيذه وقبوله، إذ كان بشارة الخوري في ذلك الوقت قد وصل إلى ذروة أمجاده واعتبر الناس التجديد أمراً طبيعياً.

ولكن بعد التجديد أخذ الناس يتوقعون من بشارة الخوري أمجاداً وطنية جديدة، إذ أن أمجاد راشيا وبشامون كانت قد دخلت في خيوط العنكبوت.

وبعد أشهر من التجديد، رأى الناس أمجاد راشيا وبشامون تختفي تحت أمجاد فرن الشباك!

وأنشأ السلطان سليم - شقيق الرئيس - دولة ضمن دولة، أسماها الناس دولة فرن الشباك.

وكانت أمجاد التجديد الإثراء لمن يماشي القصر، والفقر لمن لا يماشيه. وأخذت الشكوى تزداد على مدى الأيام، وأخذ الذين يعرفون بشارة الخوري داهية السياسة يتساءلون: لماذا لا يعيش الرئيس مع أوراق الغار التي ربحها، ويمنع هذه الموبقات التي بدأت تفسد عهده.

وكان الشيخ سليم الخوري قد نقل نصف السراي تقريباً إلى مقرِّه العام بفرن الشباك، تعمل بإدارته ومشيئته، وبقي للدولة النصف الآخر من السراي الذي راح يعمل في مناوأة الشيخ سليم ومحاربته!

وكان الشيخ بشارة الخوري يتذمَّر من دولة فرن الشباك، ولكنه، لأسباب لا تزال حتى الآن مجهولة، لم يعمل شيئاً لزوالها في الوقت الذي كان فيه الجميع يعتبرونه قادراً على ذلك.

وزاد في الأزمة طغيان الأهل والأنصار على المتاجرات والصفقات، يعقدونها جهاراً لصالحهم، وكان رياض الصلح يدعوها مستلزمات الاستقلال وضرورياته، ولكنها كانت مسلتزمات كثيرة جداً أخذت تثير غضب الناس وصخبهم إلى درجة أنه عندما أراد بشارة الخوري وضع حدٍّ لها، كان الوقت قد فات ومضى.

وكان السياسيون الذين قوّاهم جداً، وأكثر من اللازم، قد أخذوا ينشقُّون عليه ويناهضونه ويخلقون له المصاعب مما دفعه إلى الاستغناء عنهم.

وأعفى أولاً رياض الصلح من رئاسة الحكومة، وكان قبل ذلك يقول مع الناس: إذا افترق بشارة الخوري ورياض الصلح ضاع الإثنان، فالواحد منهما يكمل الآخر!

وفي اليوم الثاني، عندما خاف الرئيس من عواقب معاداة الرجل الكبير، أرسل بعده بالمئة يوم المشهورة، مئة يوم نابوليون عندما عاد من جزيرة ألبا وارتقى العرش ثانية!.. فقد قطع بشارة الخوري على نفسه عهداً بإعادة رياض الصلح للحكم بعد مئة يوم، تاركاً السياسي الكبير يستريح فيها دون أن يعاديه.

ولكن رياض الصلح لم يؤمن بالمئة يوم، ولم يساعده نشاطه السياسي الطبيعي على الانزواء والاعتكاف ومشاهدة خصومه يتربَّعون بالحكم في دولة الاستقلال التي كان من أكبر صانعيها!

وأخذ بشارة الخوري يُبعِد أحمد الأسعد وصبري حماده، بعد أن كان كل منهما قد اقتطع لنفسه دولة.

ولكن صبري حماده وأحمد الأسعد لم يكونا مستعدين للنزول عن عرشيهما بهذه السهولة مع البقاء على إخلاصهما للرئيس الذي أعطى كلاً منهما دولته. وكان مستهدفاً بواسطتهما تعقيد أمر التعاون بين السُنَّة والشيعة خشية أن يتآمر الفريقان على لبنان.

وهنا يجب أن نعترف أن بشارة الخوري سعى دوماً لمنع هذا التعاون السياسي الشيعي - السني الخطر، ظناً منه أن قيام كتلة إسلامية تامة يهدد كيان هذه الجمهورية.

وهكذا أبعد الرئيس أصدقاءه الكبار، وجاء بسامي الصلح رئيساً للوزارة ناسياً أن سامي الصلح لا يدخل السراي ليخرج منها لوحده ودون أن يخرِّب فيها شيئاً.

جاء سامي الصلح للحكم، وجاء معه نشاطه الغريب ومشاريعه وجرأته، وقال في المجلس إنه قرر أن يبقى في رئاسة الوزارة ست سنوات متوالية! وأخذ يتعاون مع بشارة الخوري بكل قلبٍ وربٍّ، ولكن على شرط أن يبقى بالحكم، وربط إخلاصه لرئيس الجمهورية ببقائه معه. أما إذا أُخرِجَ من الحكم انقلب إلى عدوه الأزرق الذي لا ينام.

واشتدت رغبة سامي في البقاء حين شعر أن رئيس الجمهورية أخذ يتدبَّر له مزلقا...

وفي اليوم الذي عرف فيه أن بشارة الخوري قرر استبداله، كان يؤكد له أنه لن يستغني عنه أبداً وسيبقى وإياه في السراي إلى النهاية!

ولما أدرك سامي الصلح اللعبة، جاء إلى المجلس وألقى قنبلته المشهورة في خطاب اتهم فيه بشارة الخوري بأنه يخرِّب الدولة، واتهم أهل بشارة الخوري وأنصاره بالنهب والسلب، وهدد وتوعَّد وترك المجلس، وذهب إلى بيته حيث وجد جميع السياسيين الغاضبين بانتظاره، يتفقون معه على المؤامـرة التي أودت ببشارة الخوري بوقت قصير جدا!..

وقد كان كبار السياسيين المسلمين ومنهم رئيس الوزارة صائب سلام، قد وقّعوا عريضة يطلبون فيها من بشارة الخوري الذهاب، ويتهمونه بأنه جعل الدولة مزرعة لأصحابه وأصدقائه وأهله... وقد أنستهم المزرعة كل ما عمله الرجل من كبائر لهذه البلاد.

وردد بشارة الخوري يومئذ قول ديكنز الكاتب الإنكليزي المشهور: «عندما تخسر بيوم واحد ما كسبته بشقِّ النفس على مدى الأيام، وتبقى ضابطاً نفسك والابتسامة على فمك، عندئذ تكون ذاك الرجل الذي يصغر الرجال أمامه».

وفي ذلك اليوم الذي ترك به بشارة الخوري الرئاسة في 19 أيلول سنة 1952، تجسَّم فيه ذاك الرجل الذي تكلَّم عنه ديكنز.

ولم تمضِ على اعتزاله الرئاسة اثنتا عشرة ساعة حتى أخذ المقرَّبون الذين لم يخونوه قبل صياح الديك، يأتون إلى قصره بعاليه، يؤاسونه، بعد أن استعار كلٌّ منهم قناع الألم والأسف.

جاؤوا يُعزُّون ويؤاسون، ثم يستعدون بعد ذلك بسرعة لنقل البندقية من كتف إلى كتف، ولتركه وطرق أبواب الشمس الجديدة الشارقة!

وكنا بين الذين جاؤوا إلى عاليه، ورأينا بشارة الخوري قد نام على جراحه وضمَّدها وأخفاها، وبدا أمامنا أكثر ارتياحاً وطمأنينة وترحاباً من كل وقت آخر، ولم يَبْدُ على ملامحه ولا في أحاديثه الظريفة ما يدلُّ على أنه لم ينَمْ ليلته بكاملها في سبات الأبرار!

وكان هدوؤه يوحي بأن رسالته الكبرى قد انتهت، وجاء الوقت لكي ينام على أمجاده...

وها قد مضت الآن على اعتكافه في منسكه بالكسليك سبع سنوات ونيف، ولم يسمع أحد من فمه كلمة تدل على ضعف أو أسف... أو شعور بأن رسالته قد انتهت!.

8

كميل شمْعُون

الرئيس الذي حكم ست سنوات لوحده

لمَّا أخذ كميل شمعون رئاسة الجمهورية يوم 24 أيلول سنة 1952 لم يدخل عليها كغريب، بل دخل إلى شيء يعرفه، معتبراً أن الرئاسة كانت ملكاً له لمدة ثمان وأربعين ساعة فقط.

لقد نام ذات ليلة من أيلول سنة 1943 رئيساً للجمهورية لما قامت المشادة بين الفرنسيين والإنكليز: أولئك يؤيدون اميل اده، وهؤلاء بشارة الخوري، فرفض الفرنسيون بشارة الخوري، ورفض الإنكليز اميل اده، وجاء الجنرال سبيرز بحيلته الوسيعة وبعظمة بريطانيا وجيشها المرابط في سوريا ولبنان يحل المشكلة بقوله:

- لا اميل اده ولا بشارة الخوري، ولكن كميل شمعون.

والذي كان يقوله سبيرز في ذلك الحين، هو الذي كانت تقوله البلاد.

لذلك لمدة ثمان وأربعين ساعة، صار كميل شمعون رئيساً اسمياً في انتظار أن ينتخبه المجلس النيابي، وكان سبيرز يسيطر على أكثر النواب مما وضع الرئاسة في جيب كميل شمعون، إذا تمسك به الإنكليز.

ولكن في خلال ذلك الليل الذي نام فيه كميل شمعون رئيساً، بعد أن تقاطرت الجماهير لتهنئته، في خلال ذلك الليل، عاد الفرنسيون يفاوضون سبيرز ليبعد عنهم تلك الكأس، كأس عدوهم الأكبر كميل شمعون، المريرة عليهم، واختاروا أهون الشرَّين في نظرهم، وقبلوا ببشارة الخوري رئيسا.

فعلوا ذلك طبعاً بعد أن اتصلوا ببشارة الخوري. وقد كانوا يقاطعونه قبل ذلك مقاطعة كاملة وقالوا له - مع كل ما في الشيء من خداع ظاهر - إنهم أرادوه دوماً رئيساً، وإنهم يؤيدون ترشيحه، شرط ألا يعاديهم في سياسته.

وأعار بشارة الخوري نفسه للفرنسيين في تلك الليلة، عملاً بوحي مرونته وخدعته السياسية، فالرئاسة تسوى مثل هذه الإعارة والتأجير مع حفظ الكرامة.

واستيقظ كميل شمعون صباح يوم 18 أيلول 1943 على نبأ اتفاق الفرنسيين والإنكليز على بشارة الخوري...

شمعون على سلاحه

وهنا يجب أن نقول إنه تلقى نبأ انتزاع الرئاسة منه بعد أن كانت قد صارت بين يديه لمدة 48 ساعة بروح رياضية، ودون أي امتعاض، واصطف حالاً مع كتلته الدستورية ورئيسها بشارة الخوري. واعتبر طبعاً أنه منذ ذلك الحين وضع رجله في الرئاسة المقبلة - بعد رئاسة بشارة الخوري، وأصبح المرشح الأكبر والأقوى لها، على مسافة طويلة - وقبل كل مرشح آخر!

وهكذا لما جاء شمعون للرئاسة سنة 1952، بعد انسحاب بشارة الخوري، اعتبر أنه جاء إلى شيء كان له، وعاد الآن يسترده.

ولكن إذا كان كميل شمعون قد اعتبر نفسه يومئذٍ صاحب الحق بالرئاسة، فإن حميد فرنجية وصحبه لم يشاطروه ذلك الاعتبار، فنزل حميد فرنجية إلى الميدان يزاحم كميل شمعون، ويطلب الرئاسة لنفسه.

وكانت هناك عقبات عديدة تعترض هذا الترشيح، أهمها - وهذه نقطة أدركها القليلون - أن حميد فرنجية هو من زغرتا وهو نائبها. وأن زغرتا، مع كل ما عندها من مراجل، لم تصل بعد إلى حدٍّ تزاحم فيه دير القمر عاصمة جبل لبنان السياسية وبنت الرؤساء والقواد، بلد كميل شمعون. ثم إن الطرابلسيين المسلمين، جيران زغرتا، كانوا يرفضون رئيساً من قصبة تناوئهم وتخاصمهم.

وقد سمعنا حرفياً يومذاك أحد كبار ساسة طرابلس يقول:

- نحن ما ارتضينا بلبنان لنجلب إبن زغرتا يترأس ويتمقطع بنا!

هذه أشياء لها أهميتها الكبرى في لبنان لا يعرفها الكثيرون. والذين يعرفونها يحجمون عن قولها. ولكن كاتب هذه المذكرات عاهد نفسه أن يقول الواقع وألا يستحي من أن يقول كل شيء.

لماذا انسحب؟

وحميد فرنجية إبن زغرتا لما رشح نفسه، أو بالحري رشحه أصدقاؤه من النواب السياسيين خلفاً لبشارة الخوري ومزاحمةً لكميل شمعون، كان يملك جميع

الميزات السياسية والوطنية والشخصية البارزة المنشودة لرئاسة الجمهورية، ومع ذلك فإن ترشيح حميد فرنجية لم يطل أكثر من 48 ساعة، فهو نفسه فاجأ مريديه بالانسحاب، مع أن المجال كان لا يزال مفتوحاً أمامه. والنواب الذين كانوا يماشونه، إن لم يكونوا أكثرية، فإنهم لم يكونوا أقلية.

كانت عنده ولا شك ممكنات تجيز له أن يجرِّب حظه، وأن يمشي في ترشيحه إلى النهاية. وكان له أصدقاء أقوياء، نسمِّي منهم بوجه خاص الشيخ بطرس الخوري، التاجر السياسي الذي لا تفوته معركة إلا ويلعب دوره فيها، ويقدم كل ما يمكن أن تتطلبه المساومة مع النواب لاكتسابهم.

ولا شك أن شخصية هذا العصامي الكبير الذي وصل بِجِدِّه ومقدرته إلى أن يكون صاحب الكلمة الأولى في عالم التجارة والمال، مما جعله سيد السوق، وصاحب الكلمة الفصل عند التجار، ولا شك أن شخصية هذا العصامي الكبير هي التي جعلته يلعب أدواراً رئيسية في انتخابات الرؤساء وانتخابات أكثر النواب، ومما جعل كل رئيس حكومة ابتداءً من رياض الصلح يتكل عليه في حل مشاكل السوق التجارية في كل مرة تكون هناك مشاكل.

وقد عرف دوماً كيف يتصرف، وكيف يخدم كل عهد خدمات كثيرة.

فإنما ما هو مدهش بهذا الرجل الفهيم أنه وحده بين أهل السياسة والزعامة العامة، استطاع أن يمشي مع كل العهود، واستطاع أن يكتسب صداقة جميع الرؤساء، ويكون عندهم مستشاراً لبقاً يلعب دوره في كواليس القصر بكل مهارة.

وهكذا في الساعة التي ترك فيها حميد فرنجية ترشيحه للرئاسة وقدم أكبر مناصر له هدية لكميل شمعون، فأصبح عنده صاحب قوة كبيرة يستند ويتكل عليها.

وفي الساعة التي ترك فيها حميد فرنجية ترشيحه ردد تقريباً العبارة التي سبق أن قالها وجيه بيروت الأول والأغنى نجيب يوسف سرسق قبل ربع قرن، لما جاءه نواب أول مجلس نيابي قام بالبلد، يعرضون عليه الرئاسة، شرط أن يدفع ثمنها:

- «ستين سنة على رئاسة تجعلني أخجل من نفسي ومنها، ومن النواب الذين ينتخبونني إليها بالأجرة...».

ولنفترض أن حميد فرنجية ما انسحب إلا بعد أن تأكد من أن الأكثرية ليست معه، ورغم ذلك يجب أن نصدِّقه عندما قال بعد إعلان انسحابه إنه يريد الرئاسة

بالإجماع، إما له أو لكميل شمعون، ويعتقد أن الرئاسة لا تكون محترمة وقوية إلا إذا جاءت بأصوات الجميع.

وما إن انسحب حميد فرنجية حتى وضع نفسه والنواب الذين يماشونه في خدمة شمعون، لانتخابه بالإجماع الكامل.

وتحقق ذلك، وجاء كميل شمعون للرئاسة باتفاق الجميع بالمجلس.

واعتبر الناس بأجمعهم، ومعهم كميل شمعون، أن موقف حميد فرنجية النبيل، دليل ساطع على حسن وطنيته وصدقها.

وكان كمال جنبلاط أكبر مناصر لكميل شمعون في انتخابه للرئاسة، فقد تطوَّع بملء رضاه في هذا السبيل، مخالفاً بذلك تقاليد وحزبية شوفية بين دير القمر والمختارة ترجع إلى مئات السنين.

ففي كل وقت، كانت دير القمر لا تتعاون مع المختارة، والمختارة لا تتعاون مع دير القمر.

ولكن هذه المرة التي تطوَّع فيها كمال جنبلاط لمساعدة كميل شمعون، كانت المرة الأولى التي تتعاون فيها المحلتان.

وكان موقف كمال جنبلاط في انتخابات الرئاسة موقفاً حاسماً، ولا شك، جعل الرئاسة الجديدة تتسم بطابع نبذ الزعامات القديمة في المنطقة اللبنانية الأكثر إحساساً والأعلى مكانة سياسية من جميع المناطق.

وهلل الناس المخلصون وصفقوا لهذا التعاون الذي جعله كمال جنبلاط، بسمعته الكبيرة، وبزعامته المحترمة، وبإخلاصه الكامل، أكبر حدث في تاريخ الشوف، وفتح الباب لنبذ خصومات قديمة كانت دوماً دموية بين دير القمر والمختارة.

وبعد هذا انتظر الناس أن يروا كمال جنبلاط يجلس عن يمين الرئيس الجديد، وتكون له الكلمة المسموعة في القصر، ورجوا ذلك معتبرين وطنية زعيم المختارة الصادقة، ونباهته المحترمة، ستجعلانه يقوم بمصالحة عامة بين أسياد دير القمر وموارنته، وأسياد المختارة ودروزها، مما يمحي دماء سنة الستين وتوابعها.

ولكن فجأة، وقبل أن يصير الرئيس الجديد في القصر من مبارح العصر، وجد الناس الرجلين الكبيرين يقفان على سلاحهما الواحد بوجه الآخر، ويتفارقان مفارقة

قلبت التعاون الحديث السن بين دير القمر والمختارة إلى عداوة خربت الأرض، وجعلت - ليس أرض الشوف فقط - بل أرض لبنان بأجمعه أرض قتال وتناحر.

ويقول العارفون إن تلك المفارقة - ولا نعرف من هو الذي بدأ بها - دقت المسمار الأول ولكن الكبير جداً، في عهد كميل شمعون، الذي أخذ يصطدم على جميع مفارق الطرق مع كمال جنبلاط، حتى جاءت الثورة ووقف كمال جنبلاط فيها وقفة العدو الأكبر لكميل شمعون.

ولا شك أن التعاون بين كميل شمعون وكمال جنبلاط، لو عاش، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، في الثورة وقبلها وبعدها، ولا إلى الاضطرابات التي عرفنا، وإلى الفوضى التي خربت المناطق في باقي الدولة، وإلى قيام زعماء آخرين من هنا وهناك، يحاربون كميل شمعون وعهده، وينقلونه من عهده الذهبي إلى عهده الدموي.

وذهب شمعون، وجاء كمال جنبلاط يتعاون مع العهد الجديد - وهو عهد يعتبره سيد المختارة دعامة من أكبر دعائمه لما للرجل من مكانة ورجال وقواعد وطنية لا يحيد عنها، وتجرُّد غريب يذهب إلى حد التعصب.

ولكن على كل حال، يمكن القول إنَّ كمال جنبلاط أخطأ ويخطئ بأشياء كثيرة، ولكنه، ما أخطأ ولن يخطئ في لبنانيته، وفي التوفيق بين زعامته السياسية العشائرية، وبين اشتراكيته الاجتماعية - وهو توفيق يعاكس بعضه - إذ كيف تتفق الزعامة العشائرية مع الاشتراكية الاجتماعية؟؟

إنما كمال جنبلاط وحده عرف كيف يفعل ذلك.

شهر العسل

ومن جانب آخر، كان من المفروض منذ الساعة الأولى لرئاسة شمعون ألا يقطع الرئيس الجديد - بعد الذي جرى - خيط قطن دون التفاهم عليه مع فرنجية، وأن يتعاون وإياه إلى الحد الأقصى.

وافترض الناس أنه إذا كان شمعون رئيس الجمهورية الرسمي فمن الطبيعي أن يكون حميد فرنجية صاحب الكلمة والنفوذ الأول من وراء الستار، والمستشار الدائم للرئاسة.

إنما كان الحال هكذا تقريباً لوقت قصير...

عندما كان مكتب حميد فرنجية على بوابة إدريس يعج بذوي المصالح وأهل المشاريع والسياسيين، قدر ما كان يعج بهم القصر!

وكان ظاهراً للجميع أن كلمة حميد فرنجية في القصر هي الكلمة المسموعة، وما كان عليه أن يطلب أي شيء، حتى يُجاب طلبه حالا.

وكان أكثر النبهاء من السياسيين يعتبرون أن صداقته والتعاون معه شبيهان تماماً بمصادقة القصر والتعاون معه.

وكان كميل شمعون من هذا الجانب، وفي مناسبات عديدة يؤكد ذلك، ويقول في كل مناسبة إن تعاونه مع حميد فرنجية واجب وطني ومن مستلزمات الرئاسة!.

وكان معروفاً يومئذٍ أن حميد فرنجية، هو السياسي الوحيد في البلد الذي يستطيع، أية ساعة يريد، أن يختار الوزارة التي يريدها وأن يتربَّع فيها. وكان القصر في كل مناسبة يقدِّم الوزارات لحميد فرنجية على طبق من فضة.

انقطاع الحبل

ولكن فجأة، وبدون أقل إنذار، انقطع الحبل بين الرجلين واتهم حميد فرنجية كميل شمعون بأنه هو الذي قطعه.

واستغرب الناس تلك القطيعة، وهم يعرفون أن تعاون الرجلين كان لمصلحتهما معا.

ولكن الواقعة وقعت فجأة كما قلنا، دون أن يعرف الناس أسبابها، فأخذوا يتجادلون ويتكهنون، ويفسرونها بافتراضات شتى نحفظ منها افتراضاً واحداً أو افتراضين فقط.

أولهما اتهام كميل شمعون أنه يقوِّي خصوم حميد فرنجية في زغرتا ويساندهم.

وكانت زغرتا عندئذٍ - كما هي اليوم - منقسمة إلى فئتين تتقاتلان وتتذابحان، ولا تنفع فيهما جميع المساعي للسلام. وكان حميد فرنجية يعلِّق كثيراً من الأهمية على الاحتفاظ بزعامته على زغرتا، وهي زعامة محلية لها قيمتها الرئيسية عند الذين يريدون أن يكونوا أسياداً في بلدهم، وأشد قوة من خصومة خصومهم.

أما الافتراض الثاني - ولكن الباكر جداً - فإنه كان يقول إن حميد فرنجية اشتد لدرجة أصبح من ورائها يشكل خطراً على رئاسة كميل شمعون القادمة، فصار من الواجب العمل لإضعافه ولتكسير أجنحته.

وهذا الافتراض الثاني كان يمكن أن يكون له شأنه، لولا أن النزاع قد وقع ورئاسة شمعون ما تزال في أشهرها الأولى.

ولكن، هل كان كميل شمعون في ذلك الحين، ولم يكن قد مضى عليه بالرئاسة غير بضعة أشهر فقط، قد أخذ يفكر بالمستقبل بعد ست سنوات، ووجد بهذه السرعة أن حميد فرنجية عقبة في الطريق الكبرى التي يسير عليها؟

هل كان شمعون يحسب هذه الحسابات الطويلة الأمد؟

لا نعرف. ولكن الذي نعرفه أن الأشهر الأولى لرئاسة شمعون مع تعاونه مع حميد فرنجية، كانت أحسن أيام ولايته، فقد كان سلطان زمانه وحاكم نفسه وسيد الموقف لا يخشى مزاحمة!

كان هناك رجلان اثنان يستطيعان أن يعكِّرا عليه الماء: حميد فرنجية وبشارة الخوري.

وحميد فرنجية كان متعاوناً وإياه تعاوناً مطلقاً، بينما بشارة الخوري راح بعد انسحابه الإجباري من الرئاسة يتنسَّك في بيته يطلب السترة - كما يقول - فلا يفتح نافذة واحدة يراه الناس من خلالها، حتى أنه كان يوصي أصدقاءه - وكنا من أقربهم إليه - أن يساعدوا شمعون ويتعاونوا معه!

كل يوم في بلد

وكان مطلوباً من كميل شمعون في ذلك الوقت، وخلال تلك الأشهر الأولى لرئاسته، أن يعمل أشياء عديدة ومفيدة جدا.

كل شيء كان قد دان له: إجماع المجلس على انتخابه، والتفاف الشعب من جميع الطبقات حوله، وتراكض كبار السياسيين والموظفين لتأييده، وإجماع إسلامي يكاد يكون كاملاً يسانده.

والإجماع الإسلامي له شأن كبير في هذا الصدد، فكميل شمعون كان في ذلك الوقت قد زاحم بشارة الخوري كثيراً في العروبة، وسبقه فيها أشواطاً بعيدة، فإذا كان بشارة الخوري قبل رئاسته ذهب إلى القاهرة وأعلن عروبته أمام النحاس، فنحن لا ننسى رحلات شمعون المتوالية الأسبوعية تقريباً للبلدان العربية من مصر للعراق للسعودية للأردن، وكنا نسمع أن كميل شمعون اليوم في عمَّان، وأمس في بغداد،

وأول أمس في القاهرة، حتى وصل إلى ليبيا، يقابل الملوك والحكام - ويتباحث وإياهم بالأمور العربية العامة - وكانت عروبته تجد عندهم كل تحبيذ وتشجيع. وكانت الصحف في تلك البلدان تتحدث عن هذه الرحلات.

تلك الرحلات جاءت بذلك الإجماع الإسلامي حول كميل شمعون يوم رئاسته، وهكذا كان له وراء ذلك رأسمال كبير عند المسلمين، فإذا أضفنا إليه تأييد مؤتمر دير القمر وزعمائه، تكتمل الأسلحة التي كان يحملها كميل شمعون يوم دخل القصر رئيسا!

الشوف رأس المعاصي

من التقاليد المرعية، عندما يقوم عصيان أو فتنة على الحكم في لبنان، أن تبدأ الحركة في الجبل وفي الشوف خاصة.

فالشوف كان دوماً السبّاق في العصيان والفتنة، والسبّاق في قلب الحكام، والسبّاق أيضاً في إعطائنا الحكام.

وفي زمن المتصرفين وفي أيام الانتداب، إلى أيام كميل شمعون، كان الشوف أكبر مصدر للحكام في هذا البلد. وبشارة الخوري كان من الشوف بوجه خاص، ومن قرية رشميا. وكان من الطبيعي أن يحتفظ الشوف بهذا الحق ويجدده عندما اجتمع المعارضون في مؤتمر دير القمر، ونادوا بالثورة على بشارة الخوري، ووضعوا كميل شمعون في الواجهة للرئاسة المنتظرة.

ولا نقول إن مؤتمر دير القمر - الذي اجتمعت فيه أول مرة المختارة ودير القمر يتعاونان ويثوران معاً - هو وحده الذي دبّر المؤامرة على بشارة الخوري، كما يزعمون، ولكننا نقول إن الناس لما جاؤوا لمؤتمر دير القمر، كانوا قد تعبوا من رئاسة بشارة الخوري، كما اعتادوا أن يتعبوا من كل رئاسة أو حكومة تقوم.

وقد تعلمنا منذ رئاسة اميل اده في أيام الانتداب، ثم في رئاسة بشارة الخوري، وبعدها رئاسة كميل شمعون، أن الناس يبدأون في السنة الثالثة بالتعب من الرئيس القائم، مهما كان كبيراً ومهما كان صالحاً ومصلحا.

أول مرة...

قلنا إن المختارة تعاونت مع دير القمر في المؤتمر الذي أعلن العصيان على بشارة الخوري.

وقلنا أيضاً إن المختارة لم تتعاون قبلاً مع دير القمر إطلاقاً وإنما كانت تتحاشى دوماً التعاون معها، ولا تريد وضع دير القمر، عدوتها التاريخية، في الواجهة ومنصة الأحكام.

وكانت دير القمر تسلك هي الأخرى المسلك نفسه وتبذل جهدها لمنع المختارة من لبس زنار السيادة عليها.

والعداء بينهما عداء تاريخي.

وقد كان بعد حوادث سنة 1860 عداءً طائفياً كبيراً، ثم انقلب مع الأيام إلى عداء سياسي لا دواء له، لذلك كانت دهشة الناس كبيرة لما رأوا المختارة في مؤتمر دير القمر توجِّه شمعون، ابن الدير، للرئاسة، وتتطوَّع لمساعدته أثناء انتخاب المجلس له أكثر من أية جهة.

وكنا نحن قدماء أهل السياسة في جبل لبنان، نجد هذا الأمر غير عادي، ونستغرب كيف تتعاون المختارة ودير القمر، حتى ولو كان ذلك لخدمة البلاد.

ومع ذلك وقع هذا التعاون!

وكان كمال جنبلاط - كما قلنا سابقاً - في الاقتراع على الرئاسة بعد ذهاب بشارة الخوري، أول من حمل ورقته للصندوق في المجلس يُصوِّت فيها لكميل شمعون، وأخذ بعد ذلك يتقبل التهاني برئاسة إبن دير القمر!

ولكن القدماء - كما قلنا - وأخصهم قدماء السياسيين الدروز، كانوا مثلنا لا يرون هذا التعاون طبيعياً ولا يتوقعون له عمراً طويلا!

إن سيد المختارة يحب في طبيعته وخلقه التغيير والتبديل، ويحب المعارضة حتى ولو كان الحاكم الذي يعارضه من أصدقائه، كما أن العداء بين دير القمر وبين المختارة - ومن ورائهما بين دير القمر وبعقلين - عداء أزرق على مدى الأجيال ما خففت الأزمان ولا الأحداث منه شيئا.

جاء والجميع حوله!

الخلاصة، جاء كميل شمعون للرئاسة وعلى يمينه كمال جنبلاط وعلى يساره - كما ذكرنا سابقاً - حميد فرنجية، وأمامه السياسيون السنيون بأكثريتهم المطلقة.

وقال الناس يومئذ إن هذه الرئاسة تأتي تحت شارة التوفيق والسعد، وإنها انتقت «الزهرة» كوكباً وهَّاجاً لها!

وتألق العهد الجديد بالأضواء النيرة، وقال الكثيرون إن الدنيا أصبحت بألف خير.

أما نحن فلم نقل إن المستقبل أصبح لشمعون، لأن الزعماء السياسيين بأجمعهم وقفوا إلى جانبه، وأخذوا يحملون رايته، بل قلنا:

- إلى متى يطول هذا الإجماع؟

ففي هذا الجو الذي صفا لشمعون في الأسابيع الأولى لرئاسته كانت هناك غيمة سوداء - بين ألف غيمة بيضاء - لم تنقشع.

كان الوضع شيئاً غير راكب في موضعه العادي، فأخذنا ننتظر مفاجآته دون أن نتميَّزها!

عادت المياه إلى ...

وذات صباح انفخت الدف، الدف الذي كان يخفي «الشيء» الغريب الذي كنا ننتظره.

ذات صباح وبعد رئاسة شمعون بأسبوع فقط، طلب كمال جنبلاط رأس بشارة الخوري ورؤوس معاونيه المقرَّبين، والذين جمعوا الثروات في أيامه.

طلب كمال جنبلاط ذلك على صفحات جريدته وبتصريحات متتابعة للصحفيين وبعزم لا يقبل الجدل. فإما أن تتدركب الرؤوس أو ينقطع الحبل بين دير القمر والمختارة، وكما ربطه كمال جنبلاط في مؤتمر دير القمر بطرفيه يمكنه أن يقطعه ساعة يريد.

أما كميل شمعون فإنه اتَّبع منذ بلغ الرئاسة سياسة نسيان وتجاهل تجاه بشارة الخوري ورجال عهده، والعفو عما مضى.

وكان أهل السلام وحسن الدراية يماشونه في هذه السياسة ويشجعونه عليها، خصوصاً أن بشارة الخوري وصحبه كانوا قد انسحبوا من الميدان السياسي تماماً واعتزلوا وعاهدوا الأيام على التنسُّك والصلاة والصوم.

وكان البادئ السلطان سليم، فأقفر مقره العام في فرن الشباك بعد أن كان يعج بثلاثة أرباع أهل السياسة وسماسرتها ونوابها ووزرائها وحكامها، وإذا به في الساعة التي ترك فيها بشارة الخوري الرئاسة يقفل أبوابه بأقفال محكمة، ولم يعد يسمع له أحد صوتا.

إذا فتح الباب ...

وكان كميل شمعون يعرف أنه إذا فتح الباب على بشارة الخوري وصحبه، فإنه يعرف كيف يبدأ، ولكنه لا يعرف كيف ينتهي!

ووراء ذلك الباب أمور لا أول ولا آخر لها، فإذا تناولت بشارة الخوري وصحبه فإنها تتناول في الوقت نفسه أكثر زعماء دير القمر، عندما كانوا أصدقاءه، وقبل أن يتآمروا عليه ويخلعوه!

وطبعاً كان كمال جنبلاط يعرف هذا كله، وهو الفهيم النبيه، وكان يعرف أن كميل شمعون لا يستطيع أن يفتح الأبواب التي أغلقها. ورغم معرفة جنبلاط بذلك أخذ يطالب برأس يوحنا كما فعلت «يهوديت» في ذلك الزمان وبرؤوس جميع الذين أخذ يسألهم «من أين لك هذا؟».

وجماعة من أين لك هذا؟ كانوا عديدين، وكانوا مصمِّمين على المحافظة على الثروات التي جمعوها؛ فلمَّا رأوا شمعون يرفض فتح الباب عليهم، ارتموا «على العمياء» بين أحضانه، يملأون كل صباح قصر الرئاسة وأدراجه وجنباته وحدائقه.

وما أن ظهرت معارضة كمال جنبلاط، حتى شاهدنا جميع زبائن العهد السابق يشدُّون الرحال نحو القصر الشمعوني ويقيدون أسماءهم في دفتر المحسوبية!

والذين كانوا بالأمس مع الرئيس الراحل، ينتحبون لانسحابه ساروا في ركب الرئيس القادم يهللون لمقدمه.

وكان كميل شمعون يرحب بهم ترحيباً خاصاً اعتباراً منه أنه ينتزع من غريمه زله.

وغضب كمال جنبلاط لما رأى شمعون يجمعهم حوله بدلاً من أن يقطع رؤوسهم، واعتبر ذلك تحدياً له.

وذات صباح استيقظت عنده حكاية العداء الدائم بين المختارة ودير القمر، خاصة لما رأى شمعون أخذ يكبر أكثر مما يلزم، وأن دير القمر أخذت تكبر معه، وأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ستذوب المختارة في دير القمر.

وعلى الأثر، تنادى مع أعوانه، وأعلن الحرب جهاراً على شمعون، وهي حرب ضروس دامت طيلة الرئاسة، ولم تنفع جميع الوسائل في إطفاء نيرانها!

لا شريك له!

وكان كميل شمعون منذ الساعة الأولى التي تسلّم بها الرئاسة قد قرر الاستئثار بها لنفسه، وتجنُّب الشركاء فيها. لقد اتعظ بما جرى لبشارة الخوري، فقرر أن يتجنب الوقوع في خطأ تكبير الزعماء!

واختار شمعون حالاً وزارة حيادية من رجال طيبين وأوادم، ولكنهم يقبلون الواقع ويتركون الأمر لمن له الأمر أفندم!

وأخذ شمعون يحكم مباشرة من الكواليس. وكان هو من وراء تلك الحكومة - الدولة بأسرها.

وارتضت الوزارة التي جاء بها يحكم باسمها، بإبعاد جميع السياسيين والزعماء الكبار عن القصر، مستعملاً في ذلك السبيل وسائل ذكية، عاملاً بطرق شتى على تصغير أولئك الزعماء السياسيين وتجريدهم أمام الناس من القوة والزعامة!

وسارع بعض هؤلاء بطبيعة الحال يشتركون بالمعارضة مع كمال جنبلاط، وذهب آخرون إلى بشارة الخوري يشكون، فكان يصغي ويفرك يديه ولا يتكلم، ويقول ضمناً مع ديموستين: «اترك عدوك يكبر، فكلما كبر، كبر عدد أعدائه»!

أين هرب السياسيون ؟...

وهكذا بعد بضعة أشهر من رئاسة شمعون، لم يعد الناس يشاهدون في القصر زعيماً سياسياً، إلا نادرا!

ولم يكتفِ كميل شمعون بإبعاد الزعماء من القصر، بل راح يلاحقهم بشتى الطرق، حتى في بيئاتهم وأوساطهم، عاملاً على التقليل من قيمتهم ومكانتهم، وبطرق شيطانية لا يتقنها أحد مثله!

وكان في الوقت ذاته يخلق لنفسه هالة من النور والإشعاع يساعده وجه صبوح ورجولة جميلة وحيلة وسيعة وظرف متلاعب. فقد كان ولا شك - وما يزال - صورة سينمائية للأمير الفتان الذي تنشده الحسان في أحلامهن الروائية.

وخلق له حسن هندامه وطريف أحاديثه وحلاوة ابتسامته ذاك الإغراء الغريب الذي ساعده كثيراً جداً على اجتذاب الملوك والرؤساء، حتى الكبار منهم، فأنزلوه عندهم منزلة خاصة. وعندها أخذ يبهر أبصار اللبنانيين بعلاقاته وصداقاته مع أولئك

الملوك والرؤساء الذين أخذوا يؤكدون علناً هنا وهناك صداقتهم له، مأخوذين بسحر هذا الرجل من جهة، ومعجبين من جهة أخرى بالسيدة الرفيعة الأدب عقيلته، وهي التي وجد الأعداء والأصدقاء من واجبهم إنزالها منزلة عالية، إذ أن شخصيتها الرفيعة فرضت على الجميع احترامها.

وكانت الصحف الأجنبية عندما تتحدث غالباً عن شمعون وعقيلته، تقول إنهما أجمل وأحلى رئيسين في العالم!

مجد لبنان أُعطيَ له!

وفي ذلك الوقت، أي لمدة سنتين ونصف تقريباً، كان يمكن القول إن مجد لبنان أُعطيَ لشمعون، فقد دانت له الدولة بأجمعها، وأسقط بأيدي أعدائه خصومه، مع أنه ضرب الرقم القياسي بين الرؤساء الذين توالوا على هذه الجمهورية بكثرة عددهم وبثقل وزنهم!

ولكنه لم يكن ينزعج منهم، ولم يكن يقيم لهم وزناً، ووصل إلى وقت صار يعتبر نفسه أعلى من أن تطاله أي يد في البلد، ولم يعد يتردد في معاداة كل من يريد العداء،

وكان يقول لكل من ينصحه باسترضاء هذا الزعيم أو ذاك الكبير:

- ليبلِّط البحر، فلا أهمية له، وعلى ظهري لا يعلق..

ولم يكن يقول ذلك ظاهرياً فقط، بل كان يقوله عن إيمان واعتقاد بأن المكانة التي وصل إليها أصبحت فوق متناول الخصومات والحزبيات؟

هل كان ذلك عن غرور؟

ربما، ولكن يجب القول إن السياسيين الزعماء الذين خاصموه - وأكثرهم كانوا من الذين رفعوه بعد مؤتمر دير القمر للرئاسة - هم الذين كانوا يساعدونه على زيادة هذا الغرور، بتراجعهم أمامه، وحذرهم منه والعمل ضمناً لاكتساب رعايته والسير معه!

لا يصالح أحدا!

ولكن هو الذي كان لا يريد...

وهو الذي كان يرفض...

وبالطرق المتعددة المتنوعة التي كان يتميز بها ويحتكرها، وأخصها قبول عروض المصالحة ثم خلق الصعوبات لها، بطرق غير مباشرة، فلا يكاد الخصم يتنفس، حتى

يأتيه شيء من الوراء يقطع عليه تنفسه. وبعد أن تكون قدمه صارت بالقصر، يجدها تعود إلى حيث كانت.

ذلك أن كميل شمعون، كما أسلفنا، لا يريد شركاء له، لذلك أبعد عنه جميع الذين يملكون ميزات الشراكة!

مستشارون سماسرة!

وإذا كان قد أبعد الزعماء السياسيين وأخذ على نفسه أن يصغِّرهم، بعد أن كانوا من الجبابرة في أيام بشارة الخوري، فهذا لا يعني أن القصر صار قفراً خاوياً خاليا!

ومما زاد في استفزاز الزعماء السياسيين المبعدين أن شمعون استبدلهم في القصر ببضعة عمال عاديين جداً، كان يخيل أنهم - مع صغر وزنهم وشدة مباذلهم - هم المستشارون أصحاب الكلمة عنده.

وأزعج هذا المسلك أهل الحصافة والرصانة، فلم يستطيعوا أن يفهموا كيف جمع الرئيس اللامع الفذ هذه المجموعة المضحكة من سماسرة السياسة في قصره، واكتفى بهم، يأخذون معظم أوقاته بينما يقف الوزراء والنواب وأهل المكانة على الباب ينتظرون...

قلنا سابقاً إنه كان يقف إلى جانب كميل شمعون أصدقاء يدَّعون أنهم مستشاروه. ولكن كميل شمعون كان يحكم في الواقع بدون مستشارين متفلسفين.

فكميل شمعون كان الرجل الذي لا يسمع إلا لكميل شمعون، وكان يعتبر أن نباهته تفوق نباهة الآخرين، لذلك كان يستسلم إليها وحدها في جميع أعماله.

ولكن رجلاً فهيماً مثله مهما كان يفترض رأيه فوق كل رأي، لا يمكن أن يتكل على نفسه حتى ذلك الحد، إذا لم يكن مستنداً إلى قوى كثيرة تسانده، وتمكِّنه من اتباع أساليب خاصة لا يمكن لرجل واحد - مهما كان كبيراً - أن يستأثر بها. وفي مقدمة تلك الأساليب استقلاله بنفسه وبرئاسته لدرجة ما عاد يسأل بعدها عن أحد، ولا يكترث لما يقوله الناس ولا لما يفعله خصومه.

الأسطول السادس من هنا
والأسطول البريطاني من هناك

وهنا يجب أن ندخل في صلب القضية، وأن نسبر غورها، ونردد ما كان كثيرون من الساسة الأصدقاء أو الخصوم يرددونه في قرارة أنفسهم، ولكن لا يرددونه لبعضهم البعض!

كان يخيَّل للكثيرين أن شمعون يحكم والأسطول السادس على يمينه والأسطول البريطاني على يساره، وسفارتا الدولتين العظيمتين ببيروت من ورائه تساندانه وتؤيدانه وتقودان خطواته.

وكان هذا الافتراض راسخاً عند الكثيرين من السياسيين، ولا يجدون افتراضاً آخر يبرر القوة التي كان يحكم كميل شمعون فيها، وبالطريقة الاستقلالية الشخصية التي كان ينتهجها.

وهنا يجوز ترداد ما قاله كثيرون:

- أي رئيس تقول له أميركا وإنكلترا إنهما وراء ظهره ولا يعمل مثلما عمل شمعون وأكثر؟

وبالمناسبة، يمكن أن نعود هنا ببضعة أسطر إلى اليوم الذي قبل فيه اميل اده الحكم من الفرنسيين، في تشرين الثاني سنة 1943 بعد أن اعتقلوا الحكومة الشرعية الاستقلالية القائمة، أي بشارة الخوري ورياض الصلح وصحبهما وأُرسِلوا إلى قلعة راشيا.

قال اميل اده على أثر ذلك للذين استغربوا قبوله الحكم:

- لو كنت أنا رئيساً للجمهورية وكان بشارة الخوري مكاني بالبيت، وجاءه الفرنسيون بعساكرهم السنغالية يعطونه رئاستي بعد أن يكونوا اعتقلوني وأرسلوني إلى راشيا، فإني أراهن مئة بالمئة بأنه كان قبل ما قبلت أنا تماما.

هكذا كان اميل اده يدافع عن نفسه، ولم يكن وحده يفكر بذلك، بل كان السياسيون إجمالاً يرتأون هذا الرأي. وهذا ما يجعلنا نقول مع الذين قالوا كثيراً:

- عندما يكون الأسطول السادس والأسطول البريطاني والسفارتان الكبيرتان ببيروت وراء أي رئيس جمهورية لبنانية، حتى ولو كان أقل وزناً بكثير من كميل شمعون فإنه يفعل مثلما فعل، ولاستبد وصار دكتاتوراً يحكم كما يريد ويشاء!

المال الذي ارتدى اللباس العربي

ولكن هل كانت الدولتان الكبيرتان فعلاً وراء شمعون ترسمان الخطط، وهو ينفذها؟ جميع الظواهر كانت توحي بذلك.

وإذا كانت السفارتان ببيروت لم تتظاهرا علناً وبطريقة مباشرة بمساندة شمعون، فإن الدول المجاورة التي كانت أميركا وبريطانيا تحالفانها مثل تركيا والعراق والأردن كانت تتظاهر علناً بتأييده تأييداً كاملاً مطلقا.

وكان المفترِضون يفترضون أن هذه الدول تفعل ذلك بناءً على رغبة الأميركان والإنكليز.

وجاء العراق علناً تقريباً، يقول على لسان رجاله، إنه يؤيد التجديد لشمعون.

فقيل عندئذٍ إن جميع دول حلف بغداد، ومن ورائها الأميركان والإنكليز، تريد التجديد وتطلب إلى شمعون أن يعمل له.

ومن الأكيد ـ كما نعرف ـ وكما سمعنا سفير العراق يومئذ ببيروت يقول:

ـ نحن الذين طلبنا من شمعون أن يعمل للتجديد، وكان ذلك قبل أن يكون افتكر هو به، ولا شك أنه ما كان افتكر به لولانا.

ويجب أن نقول إن الأميركان ـ كما ورد علناً من مكتب الاستعلامات في السفارة العراقية ببيروت في ذلك الحين ـ كانوا قد خصصوا عشرة ملايين دولار، سلفوها للجهات المختصة بالعراق ترسلها مالاً عربياً وتباعاً لشمعون لأجل تجديده.

حكاية عشرة ملايين دولار فقط

وعرف كاتب هذه السطور بأمر هذه العشرة ملايين دولار، عندما سمع سفير العراق بطريق الصدفة يعتذر عند مقام عال قريب جداً لشمعون ويقول مجيباً على سؤال:

ـ كان من الواجب أن يصل اللازم هذا الأسبوع، ولكن الأميركان تأخروا في دفع باقي العشرة ملايين دولار المخصصة لتلك الغاية.

وكان الأميركان في هذا الصدد ـ وكما قلناه سابقاً ـ أرادوا غسل أيديهم من دم ذلك الصديق ـ مع العمل للتجديد ـ وأرادوا صبغ هذه العشرة ملايين دولار صباغاً عربياً محضاً، فيساعد بالحقيقة العراق التجديد بمال يلبس رداءً عراقياً ـ في الوقت الذي كان فيه مالاً أميركياً ألفاً بالألف ـ كما قلنا أعلاه.

نعم هكذا...

ولكن ما ليس هكذا هو أن العراقيين أخذوا يرسلون مبالغ نقدية زهيدة من تلك العشرة ملايين دولار، واحتفظوا بالباقي الكبير مع الادّعاء بأنه ثمن عتاد ومواد متنوعة كانوا يرسلونها يومئذٍ حسب ادّعائهم للبنان.

وكان سامي الصلح رئيس الوزارة يسمع بهذه المبالغ ويتحدث عنها، ولكنه كان يقول إنه لم يشاهدها ولم يصل لدوائره منها شيء.

آخر واحد عرف بالتجديد

ولكن شمعون كان لا يجهر بالتجديد.

وليس من يستطيع الادّعاء أنه سمعه يؤيد التجديد أو ينفيه، حتى سامي الصلح نفسه رئيس وزارته، لم يسمع كميل شمعون مرة واحدة يقول إنه يريد التجديد أو إنه لا يريد التجديد مع أنه كان من الواجب، إذا كانت ثمة مساعٍ للتجديد، أن يعرف بها سامي الصلح قبل الجميع.

ولعله، وبنسبة تسعين بالمئة، كان كميل شمعون ينشد التجديد ويعمل له. ولكنه لم يقل شيئاً من هذا الأخذ والعطاء، وترك السر بينه وبين ربه!

حيث يدخل الجنرال شخصاً ثانيا

وذات يوم، إثر مقابلة له مع الجنرال فؤاد شهاب القائد العام للجيش يومئذٍ، وكان ذلك في الأسابيع الأولى التي بدأت فيها القنابل تنفجر هنا وهناك ببيروت، قال للذين دخلوا عليه بعد ذهاب الجنرال من ديوانه:

ـ يقولون إنني سأجدد، وقد أفعل ذلك إنما بعد رئاسة الجنرال شهاب!

وهذا القول الذي جعل السامعين يعتبرون أن كميل شمعون كان يتوقع منذ ذلك الحين رئاسة الجنرال، معتبراً إياه الخلف الوحيد الذي يصلح لها من بعده، مع أن الجنرال كان في ذلك الوقت لا يفكر بالرئاسة إطلاقاً ويغضب على من يحدثه عنها.

وفي اليوم نفسه أجاب عندما سأله أحدهم عن المقصود من كلام شمعون، فأجاب الجنرال: من أين جاء الرئيس شمعون بهذه «الخبرية»؟

ومن الأكيد أن الجنرال لم يبحث معه في هذا الصدد مطلقا.

الوحدة التي لم يصدقها أحد!

بدأت تنفجر القنابل في بيروت في الوقت الذي كانت بدأت فيه أخبار سوريا تتحدث عن الوحدة مع مصر.

ومع أن أخبار هذه الوحدة كانت بدأت تشغل السفارات وبعض الأندية السياسية ببيروت، فإن السلطات اللبنانية كانت تمر بها مرور الكرام، ولا تسأل عنها، ولا تحسب أي حساب لنتائجها ولا تصدق أنها يمكن أن تتم!

ونذكر ذات ليلة في نادي بيروت، أن سفير العراق جميل عبد الوهاب وسفير مصر اللواء عبد الحميد غالب كانا مدعوَّين للعشاء ففتح الحضور حديث حكاية

الوحدة، وما سيترتب عليها من نتائج خطيرة، خاصة في لبنان والأردن، فاعتبر معظم الحضور، ومنهم سفير العراق، الخبر من اختلاقات الصحف وفوق التصور. واتجهت الأنظار عندئذٍ بأجمعها صوب سفير مصر، وهو المشهور ببرودة أعصابه دائماً. اعتصم طبعاً بسكوت لطيف باسم، ولم يستطع أحد أن يقرأ على ملامحه أي جواب.

وطويلاً بعد ذلك، ظللنا نعتبر حكاية الوحدة السورية مع مصر من مختلقات الصحف ومشاغبات السياسيين، حتى فوجئنا ذات يوم بخبرها وقيامها.

واعتبر أكثرنا أن هذه الوحدة ستفتح آفاقاً جديدة عندنا، وفي جميع الدول العربية المجاورة لسوريا. ولكن السلطات اللبنانية بقيت بعيدة عنها، حتى بعد قيامها، تعتبرها شيئاً لا شأن لها فيه، ولا علاقة لها بلبنان وأهله!

ولكن، هل كان شمعون، مع ذكائه ونباهته، غير آبه للوحدة حقاً، أم أنه كان يتظاهر بتجاهلها؟

وعلى كل، حين أخذت تلك القنابل تنفجر بكثرة، وأخذت السلطات اللبنانية تنسبها للمكتب الثاني السوري، كان يجب على هذه السلطات أن تشعر بما قد ينتج عن تلك الوحدة!

الحلم الكبير

وقامت الوحدة في شباط سنة 1958، وكانت بمثابة نداء صارخ للتكاتف بين جميع العناصر المعادية لشمعون، وفي طليعتها الزعماء السياسيون المحمديون الكبار الذين كان شمعون - أو بالحري الانتخابات التي أجراها قبل ذلك - قد أبعدتهم عن النيابة، بعد أن كانوا قد وضعوها في جيوبهم منذ سنين، وبعد أن كان الناس بأجمعهم يعتبرونها مضمونة لهم أبدا.

ومن منا كان يومئذٍ يعتقد أن كمال جنبلاط وصائب سلام وأحمد الأسعد وعبد الله اليافي سيفشلون في انتخابات عام 1957 التي أشرف عليها كميل شمعون ورئيس وزارته سامي الصلح، ثم يأتي بدلاً عنهم نواب لم يكن أحد من الناس يعتقد بمقدرتهم على أن يأتوا للمجلس مكان الذين دعوا أنفسهم ودعاهم الناس بالجبابرة.

وكانت سوريا المتحدة مع مصر، ومكتبها الثاني، يفتشان عن قوة لبنانية قوية كبيرة غاضبة، يمكنها أن تحارب شمعون وتماشي عبد الناصر، ما دام شمعون يماشي

الجانب العربي الآخر الذي يعاكسه ويعاديه، فوجدا حالاً تلك القوة حاضرة مستعدة متراصةً تحت الطلب، مسلحة بالسلاح القومي الأكبر الذي جاء به عبد الناصر، وقد بدأ فيه بضم سوريا ومصر وجعلهما دولة واحدة، يحقق حلم الوحدة، الذي يحلمه كل عربي، وخصوصاً كل مسلم عربي نشأ على حلم الوحدة العربية الجامعة الكبرى.

على هذا الأساس نشبت الثورة بلبنان، في جو الساعة الأولى للوحدة، وأمام الحماسة القومية والطائفية الكبرى التي عمَّت بعض أجزاء لبنان، وكانت في متناول السوريين، وكان السوريون قادرين عندئذٍ أن يعملوا كل شيء.

ولكنهم تأخروا حتى فاتهم القطار.

ولكن هل كان تأخرهم وترددهم عن إهمال وخطأ، أم أنهم بالحقيقة، لم يفتكروا ببسط اليد على لبنان، إلا إذا طلب لبنان بأجمعه، بمسلميه ومسيحييه، تلك اليد - كما قال عبد الناصر بعد ذلك في تصريحات كثيرة؟

على كل حال، وجد كميل شمعون ذات صباح نفسه أمام ثورة مسلحة طويلة عريضة أخذت تمتد بسرعة البرق إلى جميع المناطق اللبنانية.

وحتى آخر ساعة، ما كان كميل شمعون، ولا غير كميل شمعون من مريديه، وحتى من غير مريديه، يعتقد أن الثورة قد تقوم!

نبوّة سليمان العلي

ولهذه المناسبة يجب هنا أن نذكر ما قاله لنا الوزير سليمان العلي قبل قيام الثورة ببضعة أشهر، قال:

- لم يبق بالبلد غير شمعون لا يؤمن بأن الثورة عليه ستقوم!

وهنا نتساءل ثانية: هل كان كميل شمعون يعتبر أن التهديد بالثورة عليه مستحيل، رغم التهديدات التي كان يسمعها قبل قيامها بأشهر، ورغم القنابل التي كانت مقدمة لها، أم أنه كان يعرف أنها ستقوم ولم يعمل شيئاً - عمداً - لاستدراك وقوعها؟

هذا تقدير خطير، ومهما تغرضنا لا نستطيع إثباته، فنحن نسرد التاريخ ولا نتغرض.

ولما وصلت تكهُّنات سليمان العلي إلى الرئيس شمعون، وكان سليمان العلي يطالب في ذلك الحين بإطلاق سراح أخيه مالك عن طريق العفو عنه من الحكم الذي صدر عليه بمقتل المرحوم محمد العبود، قال شمعون:

- التهديد بالثورة مثل باقي تهديداتهم: حكاية تفشير وشغب، لا أهتم لها مطلقا.

وظل شمعون لا يتعرف أبداً إلى قيام ثورة، حتى قامت الثورة، أو العصيان، كما كان يسميه!

كان يقول ذلك بالرغم من أن جميع العوامل كانت - وأخصها القنابل المتواصلة - تنذر بيوم الدم!

قامت الثورة فجأة، وفي وقت واحد، في جهات لبنان الأربع، وأخذت في خلال أسبوع، تنشئ، في كل مكان هبت فيه، دولة وحدها!

وتساءل الناس، وأخصُّهم اللبناني العادي: كيف ظلَّت السلطات تجهل - أو تتجاهل - الأخطار التي كانت تعصف قبل اندلاع النار، مع كل ما ظهر من بوادر، ولم تأخذ حذرها من الحدث المخيف المنتظر، وتركته يقع في كل منطقة لها زعيم يعادي الرئيس شمعون؟

ولم يدخل في روع أحد أن السلطات لم تكن تعرف أن الثورة ستقوم حتما.

ولكن لماذا لم تتخذ احتياطاتها للوقوف في طريقها؟

ثم هل كان بإمكان السلطات أن تستدرك استفحال الأمر لما بدأت الثورة تقوم؟ وهل كان لديها القوات والإمكانيات الكافية لذلك؟

هنا، يجب أن نقول إن الرئيس شمعون لعب أخطر لعبة في حياته، بجرأة نادرة.

من المؤكد أن شمعون كان يعرف أن الجيش اللبناني لا يقع إلا بالاسم تحت سيطرة الدولة. فالجيش الذي يشكّل أقوى سلطة بالبلاد، كان قد استقل يومئذٍ وأنشأ لنفسه دولة ضمن الدولة، بعيداً عن كل مساومة وحزبية وسياسة، واستطاع قائده الأمير فؤاد شهاب ضبط أمور الجيش كلها في يده. وكان اللواء يحاذر دوماً، ومنذ تسلم القيادة، زج جيشه في السياسة ومشاغباتها وتآمرها.

وعلى هذا اعتبر اللواء أن الثورة التي وقعت كانت داخلية، أي ثورة لبنانيين محكومين على لبنانيين حاكمين، يجب أن يتدبر الجانبان أمرها دون جر الجيش إليها.

شبح الطائفية المخيف

وكان الثائرون، بنسبة 95 بالمئة، من المسلمين، والفئة التي يثورون عليها كانت بنسبة 95 بالمئة نصارى، فكيف كان يمكن للجيش أن ينتصر لأحد من الجانبين، دون أن تنقلب الثورة إلى تذابح طائفي، لا أول له ولا آخر؟

واتضح هذا الموقف جلياً للرئيس شمعون، وقد كان ضمناً يعرفه قبل وقوعه، لما اتخذ الجيش موقف الدفاع عن الناس، لا الهجوم على الثائرين، وذلك في الوقت الذي أخذت المتفجِّرات تعمُّ البلد وحفر الخنادق والاستعداد للمعارك واستيراد الأسلحة - في البسطة وبعض أنحاء بيروت، وفي المختارة وبعض أنحاء الشوف، وعند شبلي العريان في البقاع الجنوبي وفي جبال الهرمل، وعكار في الشمال، وفي طرابلس الفيحاء بنوع خاص - ولا ننسى عند أحمد الأسعد في الجنوب.

وكان من الطبيعي أن يعتقد اللبنانيون العاديون، عندما بدأ إطلاق النار وضرب المتفجرات، أن الدولة ستقمع تلك الثورة بالحديد والنار، لأنهم لم يكونوا يعلمون أن الجيش اتخذ موقف الحكم الفاصل بين المتقاتلين.

ويأتي الغد، وبعد الغد، والحكومة لا تقمع شيئاً، مع كل ما كانت تؤكده من أنها ستفعل، حتى أخذ اللبنانيون يتساءلون: ماذا سيعمل الجيش؟

وكان الجيش لا يجيب ولا يقول شيئا!

كان يقف في الوسط، يمنع - على قدر الإمكان - التشابك المسلَّح في بيروت بين الأحياء الإسلامية وبين الأحياء المسيحية، وفي المحافظات بين المناطق الثائرة والمناطق غير الثائرة..

هدية لسوريا على طبق من فضة

وأخذ اللبنانيون العاديون، وأكثرهم من عشاق النظام والمحافظة على النفس، يعلِّقون أسنانهم بالسقف وينتظرون الفرج والفرج لا يأتي!

وأخذت الدعاية الحكومية تقول إن الثورة تقوم لحساب عبد الناصر، وإن أسلحتها الكثيرة تأتي من سوريا ومصر، وإن أكثر المقاتلين فيها مصريون وسوريون، وإن زعماء الثورة قطعوا عهداً بتسليم لبنان لعبد الناصر، على طبق من فضة!

وسرت هذه الدعاية عند النصارى لدرجة جعلت من شمعون ولياً، ومن الثوار أعداء للبنان واستقلاله وكيانه.

ولكن، إذا كان زعماء الثورة - كما اتضح بعد ذلك من أقوالهم وتأكيداتهم - لم يعلنوا الثورة إلا لقلب الحكم القائم، ومنع شمعون من التجديد، فإنهم كانوا، بمعرفة دمشق أو بغير معرفتها، يعملون تحت شارة الحركة العربية الخاصة بالجمهورية المتحدة.

وليست خصومة زعماء الثوار مع السلطات القائمة هي التي تستطيع استفزاز نصف أهالي البلاد، يثورون ويقاتلون ويقفون وراء المتاريس، وإنما هي فكرة الوحدة فقط والذين اعتقدوا أن الثورة هي ثورة على استقلال لبنان، وأكثريتهم المطلقة من النصارى، جعلوا الرئاسة مرجعهم ومشوا بركابها، واعتبروا أنها تمثّل لبنان المستقل الذي يريد الثوار تسليمه لعبد الناصر!

ورسخ ذلك الاعتقاد في نفوسهم رسوخاً قوياً، بالرغم من موقف البطريرك الماروني وصداقته للثوار، وهو موقف كان من الواجب أن يجعل الموالين يقلعون عن ذلك الاعتقاد، فالبطريركية لا تتساهل باستقلال لبنان وسيادته.

وكانت جهات موالية للسلطات تغذي عند غير الثائرين اشتباههم هذا بموقف البطريركية وتتهمها بأنها تماشي عبد الناصر ضد استقلال لبنان.

وفتح هذا التعاون، بين بعض زعماء الثوار وبين البطريركية أبواب بكركي أمامهم يتسابقون على زيارتها، وفي مقدمتهم بعض كبار رجال الدين المسلمين - مما كان يلطّف كثيراً من حالة التوتر الدامية القائمة من جهة أولى، بينما يثير من جهة ثانية حفيظة خصوم البطريركية، وفي مقدمتهم كبار رجال الدولة، الذين كانوا يعتبرون أن من واجب البطريركية ورهبانها النزول للشارع والمحاربة ضد الثوار!

ثلاثة أمور منعت الخراب

ونستطيع القول إن ثلاثة أمور حالت دون تحويل الثورة إلى حرب أهلية تخرب البلاد، وأبقت المجال مفتوحاً للمصالحة في ما بعد.

أولاً - وقوف الجيش بين الجانبين المتقاتلين، ومنعه إياهما من الاشتباك اشتباكاً فاصلا.

ثانياً - تعاون البطريركية مع بعض الزعماء المسلمين والثوار الكبار.

ثالثاً - تعب الناس أخيراً، من ثائرين وغير ثائرين، من تلك الحالة اليائسة الفظيعة.

لم يكن عبد الناصر في وادي الحرير

وفي هذا أيضاً، وصلنا إلى وقت أخذ يتعذّر فيه على شمعون إثارة أنصاره للدرجة القصوى. فقد قيل لهم في البداية إن عبد الناصر على الأبواب، وكانت ظواهر

كثيرة تجعلهم يصدّقون هذا القول. ولكن الأيام كانت تمضي، وعبد الناصر لا يدخل، مما جعل الجماعة يشتبهون بما كانت السلطات تقوله لهم.

وكان من المحتم تقريباً أن تزداد الحالة خطورة، وأن ينشق الموالون، كما كان الثائرون بدأوا ينشقّون، وأن تعم الفوضى في البلاد، حتى نزل الأميركان فجأة على رمال خلده.

وهذا النزول يأتي حديثنا عنه بعد هنيهة.

وأما الآن، فالشيء الثابت الحقيقي الواقعي الذي لم يذكره كاتب في جريدة أو كتاب عن الثورة بلبنان، هو أن سامي الصلح هو الذي مكّن شمعون من البقاء إلى نهاية مدته، فلا يترك الرئاسة مضطراً قبل ذلك.

فلو أن سامي الصلح استجاب لطلب زعماء المسلمين وعلمائهم وترك رئاسة الوزارة، لما وجد شمعون مسلماً واحداً يقبل تأليف وزارة جديدة.

ولكن سامي الصلح رفض الطلب الذي أجمع عليه أهل الثورة المسلمون، وطلبوه منه، فكان بقاؤه سبباً في بقاء شمعون.

ولا نعرف أيضاً كيف استطاع سامي الصلح - بجرأة نادرة وبمخاطرة مخيفة - أن يرفض الاستقالة، وأن يخرج على طائفته بالطريقة الحازمة التي فعل، مما جعل الثوار يستبيحون دمه، ويحاولون مراراً اغتياله ويسمّونه بالمنبوذ، ولكننا نعرف أن موقفه هذا ترك عند المسيحيين أثراً حسناً شبيهاً بالأثر الذي تركه موقف البطريرك عند المسلمين.

زاد الأميركيون الطين بلّة!

جاء الأميركان ذات صباح، أو بالحري ذات ظهيرة!

وكانت واشنطن، في الوقت الذي كانت الجيوش الأميركية تنزل فيه على شاطئ خلده والأوزاعي، قد أذاعت تصريحاً لوزير خارجيتها يقول إن الأميركان يحتلّون لبنان محافظة على الوضع القائم فيه للرئيس.

ونزل الأميركان، ووقف أسطولهم السادس، في عُرض البحر أمام بيروت، وانتشر جنودهم وأعتدتهم ومدافعهم ودباباتهم وطياراتهم على الشاطئ، من خلده حتى صربا، ثم جمدوا!

وكانت فرقة من الجيش اللبناني قد وقفت رمزياً في وجه هذا النزول بأمر قائدها، ولم يكن عند الحكومة خبر واحد عنها.

وأخذ الناس ينتظرون ما سيفعله الأميركان.

والغالبية من غير الثائرين، اعتبروا أن الحكاية حكاية ساعات، ثم يدخل الأميركان البسطة والمنطقة المحرَّمة ويجرِّدون الثوار من السلاح!

وأكثر الثائرين أيضاً كانوا قد اعتقدوا هكذا.

حتى أن سامي الصلح رئيس الوزارة أذاع نداءً للثوار، يدعوهم فيه لرمي السلاح والعودة إلى أعمالهم.

ولكن الأميركان ظلوا واقفين حيث هم.

وبعد أن كانوا قد أعلنوا بصوت وزير خارجيتهم أنهم يحتلُّون لبنان لتأييد شمعون وحكومته، صرَّحوا في اليوم الثاني لوصولهم أنهم جاؤوا للمحافظة على كيان لبنان من الخطر المجاور له: خطر احتلال الجمهورية العربية المتحدة، أو خطر الثورة العراقية الجديدة التي قامت في اليوم السابق لنزول الأميركان.

قلنا وقف الأميركان حيث هم، ولم يتقدموا ولا خطوة إلى الأمام، وأخذوا يعرضون علينا في الجو والبحر والبر استعراضات عسكرية تسحر الألباب طبعا!

وتجاه هذا الموقف، اشتد الثوار بدلاً من أن يُستضعَفوا، واستمرت الثورة إلى النهاية.

ولم يكن قد بقي لها من أسباب يمكن التصريح بها غير سبب واحد كان زعماؤها ينادون به في كل مناسبة: «لا نلقي السلاح إلا بذهاب شمعون وسامي الصلح!»

ووضع شمعون رأسه بالحائط وقال إنه لن يترك الرئاسة إلا في آخر دقيقة من مدته. وساعدته في ذلك ثورة مضادة قامت بها الكتائب ني الحي الشرقي من بيروت.

وطلع بيد شمعون، وما ترك الرئاسة إلا في الساعة الأخيرة من مدَّته، وأثبت، ولا شك، في تلك الأيام العصيبة، جرأة سياسية غريبة لم يعرفها غير القليلين من رجال السياسة في هذه البلدان الشرقية.

وكان مقدَّراً لشمعون قبل الثورة أن يكون رئيساً كبيراً جداً لو أنه لم يستأثر بالأمر والحكم، ويستخف ويستضعف باقي الزعماء السياسيين.

ثم جاءت حركة الرئيس عبد الناصر العربية تخلق معسكراً معادياً للمعسكر العربي الذي كان يعمل شمعون معه وتزيد له عدد خصومه في لبنان، وهم خصوم كان هو المسؤول عن تضامنهم وتكاتفهم في محاربته.

وجاء من بعده الجنرال شهاب الرئيس بطلب شعبي إجماعي عام يُصلِح بين خصوم شمعون الذين عملوا الثورة، وبين أصدقاء شمعون الذين وقفوا في وجه الثورة؛ فعمل هذه الدولة القائمة الآن.

أمامه المستقبل

وعلى كل حال، يجب القول إن شمعون لم ينتهِ بعد، والظواهر تدل على أنه سيلعب دوراً كبيراً يتناسب مع قوته المدهشة في حمل المسؤوليات، فهو رجل رضع حليب السياسة منذ الولادة، ولا شيء في العالم يجعله يطلِّق السياسة مهما تكاثرت حوله الرزايا والكوارث.

ونهاية لهذا البحث نقول: لو لم نجد الرجل الذي يُجمِع عليه الجميع، لشخصيته الفذة أولاً ولأنه ثانياً لم يكن مع الثورة، ولا ضد الثورة، لما تحققت سياسة اللاغالب واللا مغلوب، تصلح بين الفريقين، ولما كنا انتهينا على خير!

وكان ذاك الرجل الأمير فؤاد شهاب وحده يستطيع أن يُصلِح بين الفريقين، يساعده بذلك، وبطريقة جازمة، معرفة الناس أن جيشه لا يمشي إلا معه ولا ينصت إلا له.

وهكذا كانت أكبر مصيبة على شمعون أن الجيش لم يكن معه!

الرجُل التّاسِع

في يوم من أيام تشرين الثاني 1939 كانت قافلة من الفرسان تتسلّق السفح اللبناني من جبل الشيخ ثم تضرب مضاربها في القمة العالية التي وصلت إليها، والتي كانت بقايا ثلوج الشتاء الغابر استقرت في طياتها وملفاتها، وقد صعب على أشعة الشمس الإشراق عليها وتذويبها.

وكان جميلاً وفتياً صبوح الوجه ذاك الشاب الذي كان يتكلم كلام السيد بين الفرسان، مما يجعل الملاحظ يعرف أنه وجه القافلة وزعيمها، ولا شك أنه كان من المُستغرَب مشاهدة هذه القافلة ترتكز فوق الجبل في فصل كان البرد فيه قارصا.

وكان ولا شك من الصعب على الغريب معرفة ما جاءت تفعل تلك القافلة هناك، وما جاء يفعل هذا السيد ورفاقه الفرسان الأشاوس الجميلون الذين تبدو عليهم دلائل البأس والقوة، وقد ارتدوا ألبسة الحرب وصعدوا الجبل بارتياح وحبور يوافون ذاك الموعد الذي تنادوا إليه في وديانهم وقراهم بجبل لبنان، وجاؤوا يقفون على رأس ذلك الجبل ينظرون إليه بحب وشغف، وكل شيء فيهم يقول إنهم يحسبون أنفسهم أسياده وأصحابه..

فرسان نبلاء

وكان الرعاة الذين التقوا بهم في مدارج الجبل العالي على خطأ عندما تهرَّبوا من طريقهم وظنوهم من العصابات النهَّابة، وقد كان يكثر أمثالها بذلك الوقت في مجاهل ومفاوز تلك المنطقة..

وكان الشيء بالعكس، فإنما جميع ملامح وكبرياء وظرافة حركات وتعابير ولطافة أولئك الفرسان كانت تدل على أنهم من طبقة خاصة عالية، فهم محاربون ومقاتلون ولكن ليس بينهم قُطّاع طرق وأهل شقاوة.

موعد الأمراء

كان جميعهم أحفاد أمرائنا الذين حكموا وملكوا جبل لبنان مئات السنين، وكانت دولتهم قد دالت منذ مائة سنة تقريباً، وذلك عندما قامت المذابح الطائفية في بلادهم، وقامت الدول العظمى السبع يومئذٍ تضع للبنان بروتوكوله الذي أنهى ملك

الأمراء الشهابيين وجعل لجبل لبنان حكاماً متصرفين أغراباً توافق الدول السبع على انتقائهم وتعيينهم!

جاء هؤلاء الأمراء في بداية الحرب الجديدة الكبرى الثانية بعد مائة سنة من شقاق وتفرقة وتيه، وحتى من فقر وانشقاق، جاؤوا يتعاونون ويتضامنون ويتكاتفون هناك، حيث أجدادهم المالكون كانوا يسيطرون على جميع الطرق ويقفون في أعلى الجبل الراسخ يدافعون عن جبل لبنان وعرشهم فيه.

وانتقى الأمراء الفرسان جبل حرمون يزحفون منه لاستعادة ما يطلبونه من حقوقهم الضائعة وما سلبته الأيام والبروتوكول اللبناني من مكانة كانت لهم، ولم يكن في ذلك الوقت قد بقي منها شيء، إذ أن البروتوكول اللبناني أولاً، ثم الفرنسيين الذين جاؤوا بعده حكاماً منتدبين تناسوا وأهملوا هؤلاء الأمراء بطريقة مقصودة معروفة يساعدهم انشقاق وتَفرُّق وتباعد الأمراء عن بعضهم بعضاً، وقد حرمتهم السلطات من مراكز كان معظمهم يمكنه أن يبرز فيها، وكان عدد كبير منهم امتهن مهناً صغيرة بسيطة وهو فخور بأنه يكسب عيشه من عرق جبينه؛ فلا يتدنى ولا يتذلل ويحفظ كرامته إلى النهاية دون صغائر ولا عار.

ومن أعالي حرمون تنادى الشهابيون للموعد في ذلك الشهر من أول السنة، سنة الحرب الجديدة، ولبّى الفتيان منهم بأجمعهم النداء، وما تخلَّف عن الموعد غير الذين لا يستطيعون الوصول إليه.

ليس هناك عرش

وما جاؤوا للاجتماع يقررون المطالبة بعرشهم والعودة إلى حقهم فيه، فقد ظلت هذه الفكرة بعيدة عنهم حتى النهاية، جاؤوا عن يقظة جديدة.. جاؤوا يثورون على تجاهل السلطات منذ مائة سنة حتى ذلك اليوم، لوجودهم وما لهم من حقوق ومكانة، وما أوصلتهم إليه السلطات من ضعف لم يعرفه أمراء مالكون قبلهم، في كل البلاد التي تداعت فيها عروشهم وضاعت حقوقهم.

لقد كان أمراؤنا، ولا شك، يوماً ما مسؤولين عن الحالة المؤلمة التي وصلوا إليها، وذلك لانشقاقهم على بعضهم بعضاً، وفي تفتيش كل واحد منهم على رزقه بعيداً عن الآخر، وفي تجاهله أصله وفصله تجاهلاً ضائعاً مرتجفا.

اليقظة التي جاءت بوقتها

إنما فجأة ـ ولا شك أن الحرب التي كانت قد بدأت أوحت لهم بما فعلوا ـ إنما فجأة رأينا أولئك الأمراء الفتيان الأشاوس يتنادون ويتواعدون ويلبُّون الطلب ويلتقون في المكان الذي اجتمع فيه أجدادهم منذ ثلاثمائة سنة عندما زحفوا على جبل لبنان يسودون عليه ويقيمون عروشهم فيه.

جاء أولئك الفرسان إلى رأس الجبل يتعاهدون على العمل لإثبات وجودهم عن جديد، وللخروج عن الإهمال الكامل الذي وصلوا إليه، وللقول للسلطات إنهم يريدون لهم مكانة تحت الشمس تتفق مع ما لأجدادهم من فضل وخدمات عظيمة للبنان!..

ووصلت حالاً أخبار مؤامراتهم إلى السلطات.

قلنا مؤامرة لأنه بالحقيقة كان هناك شيء من ذلك، وكان خبر اجتماعهم قد جعل عددهم يزداد، فالأمراء الذين كانوا لا يعرفون شيئاً في البداية عن ذلك الاجتماع جاؤوا إليه شيباً وشُبَّاناً، مما جعل السلطات الفرنسية تهتم للأمر اهتماماً كبيراً، وتأخذ في المفاوضة معهم.

وأنا، كاتب هذه السطور، كنت قد دُعيت أيضاً ـ من جانب الفرنسيين ـ لِتَسلُّق جبل سليمان الحكيم أو جبل حرمون كما هو اسمه أيضاً، ولعب الفرنسيون دوراً مرموقاً في هذه المفاوضات التي قامت بينهم وبين الفرنسيين. وانتهى الأمر بأن وافق الفرنسيون على الكثير من مطالب الأمراء، وخصوصاً على عدم تجاهل وجودهم وحقوقهم في الاشتراك بالأعمال والوظائف العامة!

وإنما كان الناس في تخيُّلاتهم العنترية في كل مكان ينتظرون أن يروا هؤلاء الفرسان الأشاوس الذين أحاطت بهم بعد يقظتهم هذه، جميع أمجاد أجدادهم، كان الناس ينتظرون من الأمراء الأشاوس أن يغيروا على المعاقل والحصون يكتسحونها ويسيروا في أمجاد جديدة تكون نهايتها إعادة عرشهم من جديد.

ولكن الأمراء اكتفوا بما كان وجرى وما تعهد به الفرنسيون والسلطات المحلية لهم، فهم ما كانوا ولا شك يطالبون بحقهم بعرش جديد، ولم يكن هذا الشيء خطر على بالهم، وخصوصاً لم يكن خطر وقد لا يخطر على بال قائد حركتهم الشاب الذي أخذت حينذاك ترعاه عاطفة شعبية كبيرة وجدت في قيادته لفرسان الجبل الأبيض أسطورة روائية تدغدغ

وترعى التصورات الخصبة، تخيلات العظمة والجاه، يساعده بذلك شبابه اليافع والوداعة النبيلة والفتوة البارَّة الورعة التي كانت ولا تزال من محاسن وميزات الأمير فؤاد شهاب...

أمير الأمراء...

وقامت السلطات الانتدابية والوطنية ببعض تلك التعهدات حالاً، ففتحت أبواب الوظائف الكبرى والرتب العسكرية العالية لبعض الأمراء، يتحلى بينهم بجميع المزايا ذاك الذي قاد حركتهم وأثبت وجودهم وأحيا ذكرى أمجادهم وجعل أمامه وأمام ماضي أجدادهم جميع الأبواب تتفتَّح، وقد كان المتصرفون والمفوضون الساميون من بعدهم أقفلوها بوجوه أولئك الأمراء وساعدوا على تفرقة شملهم وزيادة تشريدهم وضياعهم.

أعطتهم السلطات بعض الوظائف مع كل تحفُّظ وبطريقة لا تجعلهم يتكتلون ولا يسيطرون على مراكز حساسة كبرى يستطيعون بها السير في الأطماع التي كان بعض الفرنسيين يظنون أن الأمراء يحملونها ويحلمون بتحقيقها، إذا سنحت لهم الفرصة انتهزوها وعملوا على إعادة الإمارة إلى البلاد التي كانت لأجدادهم، والتي ولا شك كانت أيامها أمجد أيام عرفها هذا الجبل.

دعوة بشارة الخوري

ولكن إذا كان الفرنسيون ـ حتى عندما حَلُّوا عن هذه البلاد ـ حددوا وخصصوا بعض الأمراء بمراكز معينة لا يمكن اجتيازها أو تجاوزها، فإن الرئيس بشارة الخوري ما كاد يعتلي الرئاسة سنة 1943 حتى جعل الأمراء يجتازون تلك الحدود فاتحاً لهم في السراي مجالاً أكبر للتوسع والتبَسّط.

وكان ذاك الرئيس حكيماً جداً في تقرُّبه من الأمراء الشهابيين الذين أخذوا في الوظائف والمقامات الكبرى والمجالات الوسيعة التي فتحت أمامهم يثبتون أنها حكاية كذب واختلاق حكاية الضعف التي كان الناس يلصقونها بهم، ويقولون إنه لن تقوم لهم بعد ذلك الحين قائمة.

القائد الذي أحبه جنوده

فإنما عندما استدعى الرئيس بشارة الخوري عن رأي فهيم نبيه، وعن معرفة بالرجال وعن محافظة على كرامته وكرامة جمهوريته المستقلة، فإنما عندما استدعى

قائد أولئك الفرسان - الذين تواعدوا سنة 1939 على رأس جبل الشيخ - لتولّي قيادة الجيش اللبناني الجديد الذي كان يؤلف ما يسمونه الفرق الخاصة في أيام الفرنسيين - عندما استدعى بشارة الخوري الأمير فؤاد شهاب لقيادة الجيش الجديد، استدعى أفضل ما عنده وما عند البلاد وما عند الأمراء، وكانت يده موفقة ونعمة من السماء.

استدعى بشارة الخوري فؤاد شهاب لقيادة الجيش الذي خرج حديثاً جداً عن الوصاية والقيادة الفرنسية، وهو خليط لا تربط بين أفراده لا عاطفة وطنية ولا قومية، بل قواعد وتنظيمات عسكرية، استدعى بشارة الخوري فؤاد شهاب قائداً للجيش الجديد وقال له، وهو أمين من هذا القائد، أن يجعل هذه العناصر المتفرِّقة المتنازعة الخارجة عن قيادة أوروبية قاسية كبرى لا تعرف لها قيادة جديدة، قال له: اعمل من هذا الخليط جيشاً لبنانياً صحيحاً قوياً وطنيا.

وكان ما أراد وبأقصر مدة عرفها الناس وبطريقة كاملة عجيبة، وما مضى زمن وجيز إلا وكان الجيش اللبناني وحدة وطنية كاملة قوية منتظمة نظيفة موحَّدة في كل شيء، خصوصاً في محبة - وأقول في عبادة - قائدها الممتاز تدين له بالولاء والاحترام؛ وهو يدين لأقل عسكري فيها بالرعاية والعطف والمحبة.

وبينما كان السياسيون في كل مكان ينتظرون الفوضى بعد جلاء الأجانب، وينتظرون التفرُّق بين الفرق الخاصة، إذا بقائدها الجديد الأمير الشهابي يكذِّبهم ويشكِّل منهم بأقصر وقت ممكن - كما قلنا - جيشاً جعله ضمانة لاستقرار الجمهورية الجديدة المستقلة يحفظ كيانها ويحافظ على حياتها.

الجيش وليس النواب!

ليس النواب ولا الوزارات المتتابعة ولا الأحزاب الوطنية على جميع أصنافها وأسمائها هي التي جعلت لهذه الدولة كيانها ولهذه السراي قوتها وهيبتها - بل هو الجيش.

وقد رأيناه في الثورة عندما أراد عن حكمة عالية ووطنية كبرى عند قائده أن لا يُوَرِّط البلاد بحرب أهلية فلا يأخذ مع جيشه جانباً من الجانبين، جانب الثائرين أو جانب السراي والموالين، وقد رأينا الجيش وقائده عند ذلك، يسيطران على الموقف، وهما اللذان، باعتراف جميع الناس اليوم، أنقذا البلد من التذابح الطائفي، وهما

اللذان بموقفهما المحايد المحافظ بين المتحاربين، أعادا الاستقرار والتآخي وكانا لوحدهما، دون غيرهما، صاحبي الفضل ببعث حياة جديدة، منتظمة حسنة، كريمة، لهذا البلد، وأثبتا هكذا أن السراي التي لا تحكم على جيشها لا تستطيع أن تعيش، وأن الرئاسة التي ليس الجيش وراءها، يساندها ويؤيدها، نهايتها الفشل والخذلان.

الذي لا يريد عرشا

وجاء فؤاد شهاب رئيساً للبلاد في سنة 1958 بطريقة فريدة من نوعها لم يعرفها غيره بين الرؤساء.. ليس هنا فقط، بل في كل البلدان.

جاء بالرغم عنه...

جاء والشعب بين يديه والجيش حواليه، وما قام أحد بالبلاد يقول بغير مجيئه، وكنا مع بعض السياسيين الكثيري التصوُّرات تساءلنا إذا كان هذا الأمير، عندما وصل إلى هذا العز، وعندما أوصل البلاد إلى هذه الأمجاد، لا يخطر على باله أن يبعث إمارة أجداده.

ولكنَّ تساؤلَنَا كان عقيماً، فإنما أول كلمة ابتدرنا بها عندما نشرنا نبذة تاريخية، عن بعض الوقائع التي حاول فيها سياسيون إعادة فكرة الإمارة للبنان، فإنما أول كلمة قالها لنا:

- أنا جمهوري مائة بالمائة وديموقراطي ألف بالمائة.

ولو أراد فؤاد شهاب له عرشاً، فقد جاء يوم كان العرش قريباً منه لدرجة أنه لم يكن عليه إلا أن يمد يده حتى يلتقطه ويجلس فوقه.

كان ذلك يوم استقال في صيف عام 1960..

يوم جاء النواب من جهة وجاء الأهالي بأجمعهم من جهة ثانية، وبطريقة لم يسبق لها مثيل، يطلبون منه ويرغمونه على سحب استقالته.

وهكذا يمكن للتاريخ اللبناني أن يقول:

- لو أراد فؤاد شهاب أن يقيم له عرشاً ويلبس التاج ويعمل ملكاً على لبنان لفعل ذلك، ولوجد الجيش والشعب دوماً حوله وأمامه.

عندما فتح الفرنسيّون صَنَاديق الذَهب

كانت مهمتنا أن نستجلب للفرنسيين أكبر عدد ممكن من الأهلين!

وكنا نحن، سماسرة هذه السياسة الجديدة، نتولاها بصورة تشبه التزام طريق، فنتفق مع الفرنسيين على تكاليفها، وننفذها دون أن يتوجَّب علينا تقديم أي حساب فيما بعد عن النفقات!

وهذا الاتفاق هو الذي قطع الطريق على الشكاوى الكثيرة التي كانت تتوارد إلى المفوضية السامية ضدنا، من قبل السياسيين الحسودين، الذين كانوا يزعمون أننا نبتلع الأموال المقبوضة ولا نوزع إلا الجزء الضئيل منها، في حين أنهم لو كانوا مكاننا، لفعلوا أكثر مما فعلنا!

ولكن طالما كنا نقوم بالمهمة المنوطة بنا. فلم يكن علينا أيُّ حرج، في أن نحتفظ لأنفسنا بأي مبلغ من الأموال المخصصة لتلك المهمة!

ومنذ الساعة الأولى لدخول الحلفاء إلى هذه البلاد في خريف 1918، بدأ «البازار» السياسي، الذي ما يزال قائماً حتى الآن في جميع البلدان العربية، رغم تطور الأحوال وتبدل السلطات وتغير الأنظمة.

إنه بازار - أو بالحري سوق حراج - صال وجال فيه النبهاء من الناس في لبنان، الذين أدركوا أن الحرب العامة لا تقع كل يوم، وليس في كل يوم تنكسر تركيا، وتنفصل البلدان العربية عنها، وتقوم المزايدات بين الإنكليز والفرنسيين للوصاية أو الحماية لمشترى هذه البلدان العربية!

إنها لفرصة عجيبة نادرة، تقع مرة كل مائة أو مائتي سنة، والشاطر الحاذق هو الذي يعرف كيف يفيد منها. والشُطّار الحاذقون لم يكونوا قليلين في لبنان!

جزية البلاد العربية على الدول الكبرى

هذا «البازار» كان، وما يزال، ضريبة الدخل الكبرى، تستوفيها البلدان العربية من الدول التي استولت عليها، ثم جلت بعد ذلك عنها مرغمة، ومع هذا ما زالت تطمع بها وتأمل بالعودة إليها.

وضريبة الدخل هذه، التي وضعناها على تلك الدول الكبرى الطامعة فينا، بدأت تدفعها نقداً منذ أول يوم دخلت فيه هذه البلاد، ويمكن تقديرها بمئات الملايين من الليرات. وهي تشكِّل حسب قول العارفين ثلاثة أرباع ثروة هذه البلدان العربية، قبضناها تحت أسماء متعددة، ولكن النتيجة واحدة، كحكاية مرتا.

وجاءت هذه السوق في أعقاب الحرب الكبرى الأولى، الناس في لبنان خارجون منها جياعاً عراة، يفتشون عن اللقمة فلا يجدونها، ففقدوا توازنهم لما رأوا الفلوس تُرمى أمامهم من الشبابيك...

سكوت الإنكليز وثرثرة الفرنسيين

والإنكليز الذين وصلوا إلى لبنان قبل وصول الفرقة الفرنسية بأسبوع واحد، لم يقولوا شيئاً عن المصير المقرَّر لهذه البلاد، وتركوا الأهلين يتساءلون: ماذا يكون يا ترى ذلك المصير؟!

أيتبع اللبنانيون الشريف حسين وأنجاله، أم يصبحون فرنسيين وإنكليز، أم أميركان؟

وما انجلى الأمر نوعاً، وعرفنا أن مصيرنا جالس على كف عفريت، إلا عندما وصلت الفرقة الفرنسية وعلى رأسها البعثة السياسية برئاسة المسيو كولندر وكيلاً عن المفوض السامي المسيو جورج بيكو. عندئذٍ عرفنا أن الحكاية هي حكاية مساومة على بلداننا.

ومع كل الغموض الذي كنّا فيه، كان المسيحيون في سوريا ولبنان على يقين من أن فرنسا هي التي ستتسلم البلدين. وكان المسلمون على يقين من أن إنكلترا لن تترك للفرنسيين هذه الغنيمة الكبرى، فإذا لم تأخذ منها البلدين، فالأرجح أن تتقاسم وإياها تلك الغنيمة فيكون لبنان لفرنسا وسوريا للإنكليز!

قلنا لم نعرف شيئاً عن هذه الحالة إلا عندما وطأت أقدام البعثة الفرنسية بيروت، وتكلم الفرنسيون.

والفرنسيون يختلفون عن الإنكليز كثيراً في هذا الصدد، فالإنكليز بئر عميقة، دأبهم الصمت وكتمان أمورهم. والفرنسيون مفضوحون ليس عندهم مستور!

يوم جاؤوا يغنون: بلدي يا بلدي!..

وأستطيع القول إنني بعد حبيب باشا السعد، أو مع حبيب باشا السعد وبضعة سياسيين موارنة، كنت أول من عرف أن الإنكليز والفرنسيين الذين تقاسموا البلدان العربية سنة 1915 في معاهدة سايكس بيكو، قد مسحوا تلك المعاهدة بأحذيتهم بعد النصر، وعادوا يتنافسون عليها من جديد.

وفي صيف 1918، خرج الحلفاء في حملتهم الكبرى من مصر، يدفعون الأتراك والألمان أمامهم في صحراء سيناء، وكانت الحملة إنكليزية مؤلَّفة من ستين ألف جندي، ترافقها فرقة افرنسية رمزية لا تَعُدُّ أكثر من عشرة آلاف رجل، ووراء الحملة كان يسير عشرة آلاف عامل مصري.

وما زلنا حتى الآن نذكر أغنية العمال المصريين، تتردد في كل مكان:

بلدي يا بلدي	وأنا عاوز روح بلدي
بلدي بطنطا	يا ماما ضبي الشنطة
والحرب فيها أوَنطة	أنا عاوز روح بلدي!

وكان الجنود الإنكليز يشتركون مع العمال المصريين في هذه الأغنية التاريخية، التي أصبحت بعد حين أغنية وطنية شبيهة بأغنية العسكر الفرنساوي المشهورة باسم «المادلون»، أو بأغنية العسكر الإنكليزي «الطريق طويلة إلى تيباراري».

كنت صديقاً للمستر كولندر قبل الحرب

في أول يوم وصلت فيه البعثة الفرنسية السياسية لبيروت، وذلك في تشرين الثاني سنة 1918، استدعى المسيو كولندر حبيب باشا السعد، بوصفه رئيس مجلس إدارة لبنان، وقال له:

ـ الحكاية كذا وكذا...

وكان حبيب باشا السعد قد دعاني لمرافقته، على اعتبار أنني أعرف كولندر جيداً، فقبل الحرب كان كولندر قنصلاً ثانياً لفرنسا ببيروت، وكنت أشد الناس تقرُّباً منه، وعرف الباشا أيضاً أن كولندر، في اليوم الذي وطأت فيه قدماه بيروت، استدعاني من زحلة حيث كنت لاجئاً، وأرسل لي سيارة «فورد» لتأتي بي، وكانت أول

سيارة افرنسية دخلت زحلة وعليها العلم المثلث الألوان، فقامت المدينة بأسرها، بالرغم من احتلال الإنكليز، تستقبلها وتحيط بها، وتهلل لفرنسا وتنشد المارسلياز!

قال لنا كولندر:

ـ الحكاية أصبحت بعد دخول الإنكليز بجيشهم الكبير حكاية تزاحم بيننا وبينهم على هذه البلاد، فهم أخذوا ينكرون علينا معاهدة سايكس بيكو ويتمسَّكون بحق الفتح، اعتباراً أن جيشهم هو الذي فتحها.

ولماذا طول الحديث؟

فَهِمَ الباشا من كولندر أن الفرنسيين يريدون إعادة مجلس الإدارة القديم إلى مركزه، وأنهم يطلبون من ذلك المجلس وضع مذكّرة بطلب الحماية الفرنسية للبلاد!

وكنت قد سمعت قبل ذلك كولندر يقول إنه إذا كان الإنكليز قد ملأوا سوريا ولبنان بجيوشهم، وليس عند الفرنسيين غير تلك الفرقة الصغيرة من الجنود، فإن فرنسا ما تزال تملك وسائل أخرى لمنافستهم!

الصندوقجي كان اسمه .. ماسينيون!

وهكذا كانت الحالة: المارشال اللنبي وجيشه من جانب، والمصاري الفرنساوية من جانب آخر، يدعمها ما كان للفرنسيين من روابط وتقاليد في هذه البلاد، ومن اتفاقات لم يستطع الإنكليز التملُّص منها.

والصندوقجي، هو الآخر، كان حاضراً، ويعرف العربية جيداً، حتى يستطيع أن يفهم على الناس وأن يفهموا هم عليه، إذا كانوا لا يعرفون الافرنسية...

وكان الصندوقجي الكابتن ماسينيون، الذي عرفه العالم العربي بعد حين مستشرقاً عالماً كبيراً، وقد زار لبنان وسوريا فيما بعد مراراً عديدة، واجتمع إلى أدبائها كثيراً في الأندية والجمعيات والكليات العلمية.

وهكذا بدأ ذلك البازار الدولي بين الحليفتَيْن الكبيرتَيْن، وأخذت الأموال الإنكليزية والفرنسية تتدفق على البلدين للدعاية...

وأخيراً جاء دور الرجل الثالث!

جاء الرجل الثالث من وراء الرئيس ولسون الأميركي!

ولم يكن أحد في هذه البلاد يعرف في ذلك الحين أميركا سياسياً!

كان الناس، وأخَصُّهُم أهل جبل لبنان، يعرفون الدولار الأميركي بفضل العدد الكبير من المغتربين الذين هاجروا لأميركا وأخذوا منذ مئة سنة ونيف يرسلون إلى أهلهم ذاك المكتوب المسوكر الشهري المُنْتَظَر على أحرّ من النار...

وأيُّ بيت في أية قرية من جبل لبنان، لم يكن لـه مكتوب مسوكر ينتظره بفارغ الصبر وبشوق زائد؟

وكنا في ذلك الحين نعرف أميركا إنسانياً واجتماعياً، مما أرسلته إلينا أثناء الحرب الأولى من ملابس وأغذية عن طريق جمعية مساعدة الشرق الأوسط التي أنشأتها في هذه البلاد، برعاية الجامعة الأميركية، وكان مركزها الأساسي بيروت!

ولكن، كان مبدأ مونرو يومئذٍ ما يزال القاعدة الأساسية لسياسة أميركا الخارجية، أي قاعدة العزلة التامة، واكتفاء أميركا بأميركا والأميركيين بالأميركيين، فلا تَدَخُّلَ في البلدان الأخرى، لا في أوروبا ولا في آسيا ولا أفريقيا!

حرب الكتلتَيْن وحرب المذهبَيْن

وفجأة سمعنا أن الرجل الثالث سافر لباريس حيث كان مجلس الأربعة يقتسم العالم، برئاسة الرئيس ولسون الأميركي.

ولم يكن أحد يتصوَّر أن ذاك الرجل الصارم العالم، المعتكف في مكتبه ببيروت سيخرج هكذا، ويعلن الحرب على فرنسا.

كان الرجل الثالث هو المستر بلس - رئيس الجامعة الأميركية ببيروت يومئذ - وآخر من يتوقعه الناس أن يشتغل بالسياسة الدولية!

ماذا ذهب يعمل المستر بلس بباريس عند مجلس الأربعة: ولسون الأميركي وكليمنصو الفرنساوي ولويد جورج الإنكليزي وأورلندو الإيطالي؟

ذهب بلس يعمل لمدِّ إصبع أميركا إلى سوريا ولبنان وليمنع الفرنسيين من الحصول على الوصاية أو الحماية أو الانتداب عليهما.

فالمستر بلس بوصفه رئيس الجامعة الأميركية الإنجيلية البروتستنتية، كان يفترض أن واجبه يدعوه إلى اعتبار الفرنسيين أكبر أعداء له!

وكانت الحرب الصامتة بينه وبينهم - ترجع في ذلك الوقت أكثر من ستين سنة إلى الوراء - ترجع إلى يوم جاء الجزويت والعازاريون يفتحون المدارس الفرنسية في

بيروت وجبل لبنان وطرابلس وصيدا ودمشق وحلب وغيرها، ثم جاء الأميركان يفتحون كليَّتَهم ببيروت وما يتفرع عنها من إرساليات بروتستنتية في الجبل ومدن الساحل.

وكان من الطبيعي مذهبياً أن تبدأ بين الفريقين مزاحمة شديدة منذ الساعة الأولى، وأن تزداد يوماً عن آخر.

كانت حرباً عواناً بين البروتستنتية والكثلكة، ودام التزاحم أكثر من قرن!

كان الجزويت والعازاريون وغيرهم من ممثلي الإرساليات الفرنسية المعتمدة، رهباناً وراهبات، يزدادون قوة ونشاطاً، وكان الأميركان عند المستر بلس يزدادون مالاً وتوسعاً، على أن زبائن الأولين وأصدقاءهم كانوا 95 بالمئة من الموارنة والكاثوليك واللاتين. وكان أكثر زبائن الأميركان من المسلمين يؤيدهم الأرثوذكس نكاية بالموارنة!

الرجوع إلى كاتدرائية مار جرجس المارونية!

وفي أوائل الاحتلال، لمَّا وصلت الفرقة الفرنسية للبلاد وسَلَّمها الإنكليز في المنطقة الغربية السلطات المحلية، ريثما يتقرر مصيرها النهائي، برز الأب شانتور رئيس الجزويت والأب سارلوت رئيس العازارية ومدرسة عينطورة. وكان هذا يومئذٍ محارباً بالجيش الفرنسي. وقد امتلأ صدره بالأوسمة والنياشين!

برز الإثنان إلى الميدان وصار لهما بطبيعة الحال الكلمة الأولى عند البعثة الفرنسية، يعملان ما يريدان في الأمور العامة. ويملآن السرايات. وأخصُّها سراي البرج والمفوضية السامية بتلامذة مدارسهما. ويسدّان سبل الوظائف والأندية السياسية على كل من له علاقة بالمستر بلس وجامعته وفروعها المباشرة في هذه البلاد.

وأصبح بين كل عشرة موظفين، كباراً وصغاراً، ثمانية على الأقل يعملون بوحي الأب شانتور أو الأب سارلوت.

ووصل استياء المستر بلس إلى حلقه، خصوصاً عندما أعلن المسيو كولندر، في أول قداس رسمي حضره بكاتدرائية مار جرجس المارونية، بعد أسبوع من وصول البعثة الفرنسية: «أن فرنسا تأتي إلى هذه البلاد لتحمي الموارنة وتحافظ على صداقتهم لها، ولن تتراجع!».

وجعل الأب شانتور والأب سارلوت ومئات الرهبان والراهبات الفرنسيات وغير الفرنسيات قول المسيو كولندر هذا شعاراً في مدارسهم ومعاهدهم ومحطَّ كلام عام.

وكان من الطبيعي أن يفور دم المستر بلس من هذه التحديات غير المعقولة من جانب البعثة الفرنسية، ولكن هذه التحديات كانت تشفي غليل شانتور وسارلوت.

وحمل بلس حقيبته وسافر إلى باريس قاصداً المستر ولسون ومشى في ركابه المستر أوليفر، رئيس جمعية «الفرندس» الأنكلو أميركية.

وكان مقره العام في رأس المتن، وكان نجيب صالحة من تلامذته.

وكان ولسون يومئذ قد أعلن في جنونه الديمقراطي بنوده الأربعة عشر المشهورة، والتي كانت السبب منذ ذلك الحين حتى الآن في فقدان التوازن السياسي في العالم، وفي قيام هذه الفوضى الاستقلالية عند الشعوب بأسرها، وبنوع خاص عند الشعوب الصغيرة المتعددة الألوان والأجناس!

وكان أول ما يجمع بين ولسون وبلس الزمالة في التعليم، فالإثنان كانا معلِّمَي مدرسة، ثم رئيسي جامعتين: جامعة بيروت لبلس وجامعة برنستون لولسون.

وكانت فرحة ولسون كبيرة لما وصل هذا الزميل من الشرق البعيد إلى باريس، فأنزله منزلة الرفيق وأخذ يصغي إليه.

وكان ولسون معروفاً باقتناعه بأقوال مُحَدِّثيه، خصوصاً إذا كانوا من زملائه معلمي المدارس، وكان الحديث عن مساعدة الشعوب الضعيفة وإعطائها حقها بانتقاء مصيرها!

ولسون يقرر إرسال لجنة تحقيق

وقرر ولسون حالاً، لوحده، وبالطبع خدمة لزميله في بيروت المستر بلس، إجراء استفتاء في هذه البلدان العربية المنفصلة عن تركيا.

فلماذا يتقاتل الفرنسيون والإنكليز عليها، وكلٌّ يدَّعي حقَّه فيها؟

لماذا لا تقول هي كلمتها في مصيرها ؟؟

وبين هذا السؤال، وبين فكرة إرسال لجنة تستفتي أهل سورية ولبنان، كان ولسون قد أعدَّ مشروعه وقدمه لمجلس الأربعة!

وتظاهر لويد جورج بالصم والبكم!

وغضب كليمنصو غضبة فرنسية، فهدَّد وتوعَّد!

وقال الطلياني إنه مستعد لأن يرضى بما يقرره الذوات!

وأخيراً قال الإنكليزي والفرنساوي لولسون إنه حر في أن يرسل اللجنة التي يريدها، ولكن فرنسا وإنكلترا تحتفظان بحقوقهما ومصالحهما واتفاقهما، ولا تعترفان بما تقرره اللجنة ولا بما ستفعله. وأما الاستفتاء الذي ستجريه، فيكون استفتاء أميركياً ولسونياً فقط!

ولكن ولسون كان قد وعد بلس بإرسال لجنة، ضارباً باحتجاجات لويد جورج وبتهديدات كليمنصو عرض الحائط!

وحالاً انتقى ولسون لجنة من قريبه تشارلس كراين، وهو الآخر معلِّمُ مدرسة سابق، وأحد كبار الساسة الأميركيين الذين استصحبهم معه إلى باريس، وأرفقه بالمستر جون كنغ - ولعل هذا كان هو الآخر معلِّمَ مدرسة سابقاً - المندوب السياسي المعاون للرئيس ولسون بباريس وقال لهما:

- اذهبا إلى تلك البلاد واسألا أهلها ماذا يريدون، وأية دولة يطلبونها وصية عليهم، إذا كانوا يريدون وصايا ما!

وكان ولسون يريد أن يضمن الحلفاء استقرار البلدان الخارجة من السلطنة العثمانية، بموجب احتلال عسكري وسياسي لوقت ما.

ولم يكن عند ولسون، في حماسته وخيالاته التحررية، وقت يضيعه، فأوفد لجنته حالاً إلى هذه البلاد، وكان ذلك في 10 حزيران 1919.

لجنة كراين من القدس إلى بيروت

وكان عيداً كبيراً في الكلية الأميركية ...

وأخذ الأهالي هنا وفي سوريا، يتساءلون إذا كان ولسون، بإرساله هذه اللجنة، يود أن يأخذ لأميركا الوصاية على هذه البلدان!

وانتصر بلس بإرسال اللجنة، وأسقط في يد شانتور، وسارلوت، وجميع زبائن فرنسا!

ولكن الانتصار كان قصير الأمد، ولم يدم رعب سارلوت وشانتور طويلاً. فقد ذهبت اللجنة أولاً إلى القدس، حيث تركت كلمة الإنكليز تعلو على كل كلمة، واكتفت بما سمعت، ولم تقم باستفتاء جدِّي. ثم جاءت إلى بيروت على الرحب والسعة، حيث كان ميدانها أوسع وأكبر، وحيث كانت مهمتها أصعب، وحيث كانت الجامعة

الأميركية وحواشيها تنتظرها لتُهلِّل لها ولتنتصر على الجزويت والعازاريين باستفتائها، وحيث كان الفرنسيون قد أعدُّوا العدة لهذا الاستفتاء، وحيث كان الفرنسيون قد أعدُّوا العدة عند معظم الأهالي لإفساد الأمر على اللجنة!

وفي ذلك الحين كان الشريف فيصل في باريس يفاوض الأربعة الكبار على إنشاء سوريا كبرى مستقلة حرة طليقة، على أن يكون للحلفاء فيها مركز ممتاز.

وقبل سفره لباريس جمع مؤتمره السوري الشهير المؤلف من كبار الزعماء الوطنيين في سوريا وفلسطين والأردن وغيرها وبينهم بعض الموارنة والأرثوذكس من لبنان، واتخذ المؤتمر قراراً قبل أن تصل لجنة كراين إلى بيروت ودمشق يقول: «إذا كان لا بد من وصاية فأميركا أولاً، وإنكلترا ثانياً، أما فرنسا فلا تكون! »

... أما نحن فقد كنا في الجيبة

وكان الموارنة والكاثوليك في لبنان قد قالوا كلمتهم منذ البدء: فرنسا أولاً وآخرا.

ولكن كان من الواجب في نظر الفرنسيين، وقد ظهر أن المستر كراين يهتم كثيراً بنتيجة الاستفتاء بلبنان، أن يتقدم الموارنة والكاثوليك وأن يقولوا له: فرنسا أولاً وآخرا!

وعندئذٍ كما استدعى نابوليون في معركة واترلو، في آخر ساعة، حرسه ليقف بوجه الانكسار، استدعى الفرنسيون الذهب الذي كانوا قد جاؤوا به في صناديقهم...

بطبيعة الحال، كان من الضروري يوم وصول كراين إلى بيروت أن نسارع إلى مشاهدته والتعرف إليه.

وتذكَّرْنا عندما استطعنا الوصول إليه صديقنا القديم المستر جسب، راعي الكنيسة الإنجيلية سابقاً في زحلة، فقد كان كراين يشبهه بحركاته، وخصوصاً بأحاديثه البارابولية الرمزية ذات التعابير العامة المستعارة. فتشارلس كراين هو مثال تام للقس البروتستنتي الكلاسيكي!

وكان تشارلس كراين يؤمن بأنه يحمل رسالة سماوية يجب عليه أداؤها، وهي رسالة تحرير هذه الشعوب العربية التي صوَّرها رئيس الجامعة الأميركية للرئيس ولسون نعاجاً بيضاء مُهَدَّدة بأن ترسف قريباً في سلاسل الفرنسيين وقيودهم الحديدية، وأخصها طبعاً قيود الجزويت والعازاريين.

وقال تشارلس كراين لنا بالطريقة التي يقرأ فيها مزامير داوود:

- حكِّموا ضميركم في هذا الاستفتاء، واعلموا أن الشعب الأميركي الحر ينتظركم على مفرق الطرق ليحكم لكم أو عليكم!

وفي اليوم الأول لوصوله بدأ استفتاءه بمعزل عن السلطات الفرنسية واللبنانية الحاكمة، التي كانت تحيط لجنته بالاحترام والعناية ولكنها لا تعترف بها ولا بمهمتها!

بدأ كراين استفتاءه بدعوة وجَّهها للأهلين يقول لهم فيها ما معناه: «أنا انتظركم جميعاً، فتعالوا وادخلوا فرح ربكم!»

ولكن فرح ربهم لم يكن عنده، بل كان عند الفرنسيين، وكانوا قد تدبروا أمره مع الكثيرين من الزعماء، وجعلوهم يطلبون الوصاية الفرنسية.

وطبعاً، لم يطلبوا هذا الطلب مجاناً، بل دفع الفرنسيون ثمنه غالياً، حتى أن عملاءهم كانوا يقفون على أبواب دار استفتاء لجنة كراين، كما يقف عملاء المرشحين للانتخابات النيابية على أبواب مكاتب الاقتراع، يشترون الناخبين لمرشحيهم.

كان الإنكليز يشتغلون من بعيد لبعيد!

وعمل الإنكليز من جانبهم أيضاً، ولكن بطريقة غير مباشرة ومستورة، أولاً لأنه كانت توجد بينهم وبين الفرنسيين اتفاقات رسمية تقول بترك البلاد للفرنسيين، وثانياً، وعن حكمة كبيرة منهم ليست موجودة عند الفرنسيين، كانوا يعرفون أن استفتاء كراين لا يؤمن به غير كراين والرئيس ولسون الذي أرسله والمستر بلس الذي طلبه، فلن يكون له شأن، مهما كانت نتائجه. أما الفرنسيون، وعلى الأخص الأب شانتور والأب سارلوت، فقد كانوا يحسبون مائة حساب لهذا الاستفتاء، ويعتقدون أنه إذا جاء لجانبهم ساعدهم كثيراً في الوصاية التي يطلبونها على هذه البلاد من مؤتمر الصلح في فرساي.

لذلك بذلوا جميع جهودهم في الأمر، وفتحوا - كما قلت سابقاً - جميع صناديقهم، وكانوا في بيروت العاصمة قد نظَّموا قبل كل شيء عرائض تحمل عشرات الألوف من التواقيع، وأكثرها طبعاً تواقيع لا أصحاب لها!

وليس أهون، كما كان صديقنا وعشير الصبا المرحوم أبو علي سلام يقول، من أن توصي الحفَّار على أن يَصُبَّ لك عشرين ألف ختم من النحاس، لعشرين ألف اسم، تختم بها العريضة!

ولم يتمالك تشارلس كراين نفسه من الدهشة لما رأى هذه العرائض وطبعاً كانت أكثر تواقيعها محمد ومحمود وعلي وحسين، ولما رأى مئات الوجهاء والتجار وكبار رجال الأعمال يأتون إليه ويقولون له: «بدنا فرنسا! بدنا فرنسا!»

وفي الوقت نفسه كان القرويون والرهبان من الجبل يحتشدون حول مكتب كراين يهزجون ويغنون الأغنية الجديدة التي ملأت القرى والدساكر الجبلية يومئذ:

فرنسا أم الدنيا عموم   اعتزوا يا لبنانية

ومنذ الساعة الأولى داخ تشارلس كراين، وكان جماعة الإنكليز والأميركان قد قالوا له في البداية إنه لن يجد أحداً يطلب فرنسا غير بطريرك الموارنة والمطران عبد وشكري الأرقش وألبير قشوع ويوسف عودة والرهبان والراهبات وخدمة الكنائس والأديرة!

وكانوا قد أكدوا له أنه لا يوجد مسلم واحد أو درزي واحد يريدها!

لذلك فوجئ كراين بهذه العرائض كدسات كدسات، ومعظم تواقيعها ـ كما قلنا ـ من المسلمين ومن الدروز، ومنها بعض الزعماء والساسة، وعلى الأخص من الدروز: ومنهم من جاؤوا بأنفسهم يطلبون فرنسا!

ومجيء بعض زعماء الدروز لم يُدهِش تشارلس كراين فقط، بل أدهش الإنكليز بأجمعهم!

كل طائفة كانت معلّقة بقنصليتها!

ألم تكن القنصلية البريطانية قبل الحرب، وقبل فصل البلدان العربية عن تركيا، المرجع الرئيسي للدروز؟

ألم يكونوا كذلك عندما تقاسمت في بداية قيام المتصرفية كل دولة كبرى من الدول السبع الضامنة امتيازات جبل لبنان طائفة من طوائفه فأخذ الفَرنسيون الموارنة، وصارت القنصلية العامة ببيروت مرجعهم وصاحبة الأمر فيهم، وأخذ الإنكليز الدروز وصارت قنصليتهم العامة ببيروت وإسبر شقير ترجمانها المشهور مرجعهم وحجتهم؟

أَوَلَمْ يأخذ القيصر الروسي الروم الأرثوذكس تحت حمايته ويجعل قنصليته العامة ببيروت بيتهم ومقرّهم العام ومرجعهم الأساسي ومصيرهم؟

ونحن الكاثوليك، وكنا قد ضعنا في هذا المعترك، انتهينا بطلب حماية القنصلية الإمبراطورية النمساوية، التي فتحت لنا ذراعيها وأصبحت مرجعنا وحامية ديارنا.

وهنا يجب أن نعترف أن النمسا، في الحرب العالمية الأولى، وقفت بجانبنا وتوسّطت لنا لدى الأتراك حتى لا يقسوا علينا.

الفاجر أكل مال التاجر!

وهكذا بين ضجة الفرنسيين وزبائنهم، وبين رصانة الإنكليز وزبائنهم، ضاعت الطاسة عند المستر كراين وفازت فرنسا!

واستكمالاً للمعلومات، لا نريد أن ننسى أن معظم الذين استفتاهم تشارلس كراين من الوجهاء والتجار والزعماء السياسيين كانوا يبدأون أمامه بطلب أميركا وصية على البلاد، يفعلون ذلك تزلُّفاً، مع أن لجنة الاستفتاء كانت أعلنت بشتى الطرق وعلى علم من العموم، أن أميركا خارجة عن موضوع الوصاية، لا تقبلها ولا تريدها، ولو أجمع الجميع على طلبها فهي تشتغل فقط لوجه الله ولحرية الشعوب.

إنما، طالما يجب لهذه البلاد وصاية، فعلى الأهلين أن يطلبوا فرنسا أو انكلترا!

ومع ذلك كان اللبنانيون يبدأون أمام كراين بطلب أميركا، طبعاً عن مجاملة وتقرُّب هما من طبيعتنا، فيقولون: «بدنا أميركا»، ثم يردفون بقولهم: «وإذا كانت أميركا لا تريد فنطلب فرنسا أو انكلترا!»

ولم يطل الأمر مع تشارلس كراين ببيروت، فأنهى فجأة استفتاءه فيها، وعمل حسابه فنالت فرنسا نقاطاً أكثر بكثير من نقاط إنكلترا!

وانتقل بعد ذلك لجبل لبنان حيث كان المكتوب معروفاً من عنوانه، وحيث طلب الموارنة والكاثوليك واللاتين فرنسا، وطلبت الأكثرية الأرثوذكسية إنكلترا.

وترك كثيرون من الدروز أصدقاءهم التاريخيين وطلبوا فرنسا. ووقعت انقسامات وانشقاقات متعددة في هذا الصدد حتى ضمن كل عائلة من العائلات الكبرى، فانشقّ الأمراء الأرسلانيون بعضهم على بعض، كما انشق المشايخ الجنبلاطيون. واختلف الأخ مع أخيه: هذا طلب إنكلترا وذاك طلب فرنسا!

الوجاهة عند المستر كراين!

وبدأ تشارلس كراين يتعب من كثرة ما استقبل من الناس، فكل واحد من الأهالي كان يعتبر أن زيارته لكراين نوع من الوجاهة، فلماذا لا يكون وجيهاً مثل غيره؟

وبدأ تشارلس كراين يتعب أيضاً من التدجيل والكذب والوشايات وتبييض الوجه وشكوى الزعماء بعضهم على بعض مما لم يكن له شأن فيه، ولكن مما كان يحرص اللبنانيون دوماً على عمله!.

ولما جاء دور الجنوب استفتاه كراين من بعيد لبعيد، وكان الشيعة يومئذٍ لم ينالوا المكانة الاجتماعية والسياسية التي بلغوها بعد ذلك. وكانوا في أيام الأتراك تقريباً مُبْعَدين عن الحياة العامة. فقد كانت الأرستقراطية السنية حتى ذلك الوقت، بتأثير تركيا، لا تعطي للشيعة المكانة المساوية لها في الهيئة الوطنية والقومية.

ولما عرف الشيعة أن السنيين بطبيعة الحال يُفضِّلون إنكلترا ووصايتها، طلبوا تقريباً بأجمعهم وصاية فرنسا!

وعند هذا، وجد المستر بلس وأصدقاؤه والمستر كراين ولجنته أنفسهم في وضع صعب جداً تجاه الأب شانتور والأب سارلوت وأعوانهما!

وكان تشارلس كراين قد أجَّل زيارته للأقضية الأربعة (حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك)، على اعتبار أن هذه الأقضية تشكِّل أكبر معضلة بين الفرنسيين وبين الإنكليز، وحليفهم الشريف فيصل أمير دمشق، وكان فيصل قد استبق الفرنسيين واحتل الأقضية الأربعة قبل وصولهم إليها.

وفي انتظار سفره إلى الأقضية الأربعة، استمع كراين إلى رأي الطرابلسيين. وكانت طرابلس المدينة الوحيدة في المنطقة الغربية التي قالت لكراين:

إذا كان الاستقلال التام المطلق للبلاد العربية مستحيلاً، فنحن نطلب إنكلترا، بعد أميركا طبعاً!

ولكن طلب طرابلس جاء متأخراً جداً، لأن المناطق الأخرى في لبنان كانت قد رفعت، بدون استئذان، وقبل أن يقرر مجلس الأربعة الكبار شيئاً، الراية الفرنسية على دورها ومعاهدها وأديرتها وأنديتها...

الأقضية الأربعة وأنا!

وهنا حان الوقت لكي أتكلم عن نفسي قليلاً، بوصفي مَثَّلت دوراً كبيراً مع لجنة تشارلس كراين في الاستفتاء الذي جرى في الأقضية الأربعة.

كانت لجنة كراين قد سَلَّمَتْ بطلب الوصاية الفرنسية ببيروت والجنوب وجبل لبنان، وإنما كان يصعب عليها التسليم بطلب الوصاية الفرنسية على الأقضية الأربعة. وأدرك الفرنسيون هذه النقطة، لذلك عقدوا العزم على بذل أكبر مجهود ممكن، لكي تنادي الأقضية الأربعة بالوصاية الفرنسية، بأيِّ شكل كان!

مُرَّ بطريقك على الكابتن ماسينيون!

وقبل سفر لجنة كراين إلى الأقضية الأربعة بيومين، استدعاني الكابتن دام، الذي خلف المسيو كولندر في وكالة المفوض السامي جورج بيكو، وما يزال في بيروت كثيرون يعرفون ذلك الضابط الشاب، الصبوح الوجه، الظريف الكلام الذي استطاع بالرغم من حداثة سنه، ولم يكن قد بلغ الثلاثين، احتلال هذا المركز العالمي، واستلام مقدرات الوصاية الفرنسية المنشودة، واستلم معها طبعاً أموال المكتب السياسي!

وكان الكابتن دام رئيس المكتب السياسي المباشر، ويحمل تذكرة بيضاء من وزارة الخارجية بباريس، يستطيع بواسطتها صرف ما يشاء من الأموال في السبل التي يرتئيها، ولم يكن يعرف مقدارها غير القليلين من كبار موظفي البعثة الفرنسية!

وقد استعمل عملاء «الانتلجنس سرفيس» وسائلهم الخاصة لمعرفة قيمة الأموال الفرنسية المخصصة للدعاية في سبيل الوصاية الفرنسية على البلاد، ولعل الإنكليز فعلوا ذلك ليقابلوا بالمثل في سبيل الدعاية للوصاية لهم.

ولكن سر صناديق الكابتن ماسينيون ظل مكتوماً عن الإنكليز حتى آخر ساعة، ولم يعرف أحد عنه شيئاً حتى بعد ذهاب لجنة كراين بزمن طويل. عندما جاء غورو مفوضاً سامياً يرافقه المسيو روبير دي كه، سكرتيراً عاماً، فنظر في حسابات البعثة الفرنسية لسوريا ولبنان يوم الاحتلال، واتضح أن الأموال المصروفة سياسياً بلغت خمسة ملايين جنيه مصري. وكان سعر الجنيه المصري يومئذٍ يساوي ليرة إنكليزية ذهباً مع قرشين ونصف القرش ذهبا.

قلنا، استدعاني الكابتن دام وقال لي:

- يجب أن نكسب استفتاء اللجنة في الأقضية الأربعة بأية طريقة كانت، فنحن نعلِّق أهمية رئيسية على ذلك. إن اللجنة استفتت حتى الآن المناطق التي نحتلها نحن، فافترضَتْ أننا نحن الذين دبَّرنا الأجوبة. ولكن هذه الأقضية الأربعة يحتلها الشريف

فيصل بالرغم عنا، ونريدها أن تقول لكراين إنها تطلب الوصاية الفرنسية، حتى تأتي نتيجة الاستفتاء بجانبنا رغم السلطات الشريفية والإنكليز.

وبما أن البعثة الفرنسية كانت قد كلفتك منذ الساعة الأولى للعمل في الأقضية الأربعة، فإنها تريدك الآن أن تتابع العمل فيها...

وما أن فتحت فمي للكلام، حتى قاطعني بقوله:

- أعرف تماماً ماذا تريد أن تقول، فلا تتعب نفسك. إن الحكاية حكاية مال أولاً لذلك أعددنا المبالغ اللازمة، وهي حاضرة!

ولا شك أن المهمة كانت والله صعبة، ولكن لم يكن، في ذلك الحين، من صعب على المصاري...

وكان مفروضاً أن أسأل عن مقدار المبالغ المخصصة لتلك المهمة، ولكنني لم أسأل، فقد خشيت أن أطلب أقل مما يكون رصده الكابتن دام في إسرافه المدهش وسخائه المفرط، وفي رغبته في الفوز على الإنكليز بهذه المنافسة في الأقضية الأربعة. تلك المبارزة التي كلّفني بها ولم يَزِدْ شيئاً عما قاله بعد هذا سوى قوله لي عند الباب:

- لا أريدك أن تعود إلى هنا إلا وأنت ناجح في مهمتك، فقد كلّفتني الحكومة الفرنسية بها وجعلتها مهمتي الشخصية، وأنا ما اعتدت الفشل!

وصمت قليلاً ثم أضاف:

- لا تنس أن تمر بطريقك على الكابتن ماسينيون!

عندما أصابني الهبل...

وكيف أنسى المرور على ماسينيون، خازندار البعثة الأعلى وعنده كل ما كنت أحلم به في زمن الصبا.

وقال لي ماسينيون، وكان قد أنزلني عنده منزلة الصديق كما كان يطيب له محادثتي واستظراف أقوالي:

- يجب أن يكون الكابتن دام شديد الثقة بك حتى يخصص لك هذا المبلغ الكبير دفعة أولى تقبضها الآن، ودفعة ثانية لحين الطلب إذا ما احتجت إليها...

وفتح الصندوق، وبدأ يُخرِج منها الأموال، ويقول: قيمة الدفعة الأولى خمسون ألف ليرة مصرية..

وحالاً شعرت برأسي يتزعزع، وتذكرت كلمح البصر جميع أصدقائي الكبار المفلسين، كيف سيصيبهم الهبل عندما يعرفون أنني أحمل خمسين ألف جنيه، أنا الذي اضطربت عندما استدعاني المسيو كولندر من زحلة في اليوم الذي وصل فيه على رأس البعثة لبيروت أن أستدين، أو بالحري أن أشلّح المرحوم يوسف البريدي وجيه زحلة الأكبر، ليرة عثمانية ذهباً، وكان قد مضى عليّ زمن طويل لم أشاهد لها وجهاً، وتذكرت كيف كان أهلي ورفاقي ويوسف البريدي على رأسهم يأسفون في كل مناسبة، ويقولون عني:

- يا ضياع الذكاء والنباهة بهذا الإفلاس، وحياة الخلط التي يعيشها هذا الفتى!

وأعترف أنني ما وعيت إلى نفسي أمام ماسينيون إلا بعد برهة، وكانت أكداس أوراق المائة جنيه قد تعالت أمامي أعمدة أعمدة!

الرفيق الذي نزل على الطريق...

وكان عليّ أن أسافر حالاً لزحلة، إذ لم يبق لوصول اللجنة إليها غير يومين.

ولكن كان عليّ أيضا أن «أتشبرق» قبل ذلك، وأن أشتري ما يخطر على بالي.

وكان عليّ خصوصاً أن أقلب الجنيهات المصرية الورق إلى ليرات ذهبية، إذ أن ملحم قاسم في قرية حرتعلا، ومحمد شمدين دندش على العاصي وإبراهيم شمص وزملائه زعماء العشائر الحمادية في غربي بعلبك وجبال الهرمل - ووجوه البقاع وعلى الأخص ما وراء النهر والقرى السحيقة مثل النبي عثمان والمرج وسحمر ويحمر، لا يعترفون بالليرات الورق!

وعندما هممت بركوب السيارة التي كانت البعثة قد وضعتها تحت تصرفي، إذ بسكرتير الكابتن دام يقترب مني ويقول:

- لقد استحسن الكابتن دام أن يرافقك سليمان بك كنعان (عضو مجلس الإدارة الماروني) في هذه الرحلة، فله في البقاع الجنوبي والغربي، وفي بعض قرى راشيا أصدقاء وزعامة، ويستطيع أن يساعدك في مهمتك، فمرَّ عليه في لوكندة أميركا على البرج، حيث ينتظرك وخذه معك!

هل كان في استطاعتي إظهار الامتعاض أمام هذه المفاجأة؟ كلا.. فالأمر كان لمن له الأمر، أفندم!

وكان الفرق كبيراً بين مروري على الكابتن ماسينيون، وبين مروري على سليمان كنعان..

وهنا لا أتكلم عما يصيب أي رجل معتاد على الإفلاس الدائم، عندما يصبح في جيوبه خمسون ألف جنيه، وله بعض الحرية للتصرُّف بها..

يجب أن يكون ذا عقل راجح، أو بدون عقل بالمرة، هذا إذا لم يشعر بضياع توازنه إلى حين!

ودُهِشْتُ كثيراً لما شعرت أن هذه الرحلة لم تكن تروق كثيراً لصديقي سليمان بك كنعان، فهو ما كاد يركب السيارة وتتجاوز فرن الشباك، حتى قال لي:

ـ ما لهم وما لي؟ أنا رجل تعبان، وكثير الأشغال، وكان يمكنهم أن يستغنوا عني!

حتماً كان هناك سبب آخر، إذ أن سليمان بك كنعان، على غرار إبنه الحبيب مارون، كان لا يتعب، وكانت صحته مثل الصخر!

لماذا إذن لا يريد هذه الرحلة، مع أنه كان قد عرف أن هناك أموالاً طائلة يمكنه أن يغرف منها؟

ولم أقل إنَّ الفرنسيين مخطئون في افتراضهم من أنه يستطيع في تلك الرحلة أن يجد أصدقاء وزعماء بين أهالي جنوبي وغربي البقاع يتفقون معه ويصغون إليه...

كلا، لم أقل له شيئاً من ذلك، ولكننا عندما وصلنا لصوفر ونزلنا إلى حديقة الفندق نشرب القهوة، وحيث كان بعض كبار أصدقاء سليمان بك يجلسون، يتنادمون ويستعدون للعبة بوكر لا أول لها ولا آخر، رأيت سليمان كنعان ينظر بقلق نحو أولئك الأصدقاء، فقلت له:

ـ بالحقيقة أرى أنك تَعِبٌ، وأن هذه الرحلة قد لا تلائم صحتك وفيها حركات كثيرة وفيها بعض الأخطار..

فأجاب حالاً: أقول لك الحق، إنني أفضل أن أبقى هنا وإذا سألك الفرنسيون، فقل لهم إن الحمى أصابتني، فاضطررت أن ألازم الفراش في الفندق!

لقد كان سليمان بك يومئذٍ موضع ثقة الفرنسيين، ولكنه كان يضمر في نفسه شيئاً آخر. فبعد مدة قصيرة، تركهم وحاول مع أكثر أعضاء مجلس الإدارة الذهاب إلى الشريف فيصل في دمشق، لعقد اتفاق معه على استقلال لبنان بالتعاون مع سوريا، بدلاً من فرنسا.

وأقنعت صديقي سليمان بك بعد إلحاح شديد، أنه يستحق له «خرج راح» عن هذه الرحلة، يكون من قيمته ومكانته الكبيرتَيْن، ووضعت أمامه الحقيقة، وقلت له:

ـ خذ ما تشاء!

وهنا يجب عليَّ أن أعترف وأعلن أن سليمان بك أظهر قناعة مدهشة لم تكن بالحسبان مطلقاً!

وأنا الآخر كنت وجيهاً كبيرا!..

وهكذا بدلاً من أن يذهب معي يلعب لعبة كراين، دخل مع أصدقائه إلى صالة فندق صوفر وجلس يلعب لعبة البوكر وعرفت بعد ذلك أن «البارتية» دامت ليلتين متواليتين، خسر فيها سليمان بك الخرج راح المعلوم...

ركبت السيارة من فندق صوفر متجهاً نحو زحلة. وعلى الطريق تذكرت أنني أنا الآخر استحق «خرج راح». وتذكرت أن المال الذي أحمله معدٌّ لإقناع وجهاء الأقضية الأربعة بوجوب الاقتراع أمام تشارلس كراين للوصاية الفرنسية. ولكن، ألست أنا الآخر وجيهاً من هؤلاء الوجهاء؟

وأخذت وجاهتي تكبر رويداً رويداً، وتكبر معها أطماعي طول الطريق!

وكنت كلما شعرت بوجاهتي تكبر، أتناول كمشة من الحقيبة وأضعها بجيبي. وما أن وصلت إلى زحلة، إلا وكان مبلغ كبير، يتجاوز عُشْرَ الخمسين ألف ليرة، قد انتقل إلى جيبي وذلك لإثبات وجاهتي الكبرى أولاً، ثم لإثبات حقي بخرج راح أكبر من خرج راح سواي، بوصفي موفد الكابتن دام الأصيل إلى الأقضية الأربعة!

كراين من جهة والذهب من جهة أخرى

كان عليَّ أن أجعل الأكثرية في تلك الأقضية تصوِّت لفرنسا.

ولكن كيف السبيل إلى اكتساب أهل الأقضية للوصاية الفرنسية مع كل ما تدبِّره الإنكليز والشريف من مصاعب لنا.

قلت في نفسي: في بيروت كما في الأقضية الأربعة..

بعد تجارب عديدة تعلَّمنا في بيروت أن نكتسب الكبار والصغار عن طريق القبضايات..

هذه الطريقة نجحت معنا لما أردنا جعل الدعاة يطلبون فرنسا. وتم ذلك قبل مجيء لجنة كراين، وبعد مجيئها. وهي طريقة يمكن - كما برهنت الأيام والأحداث - تطبيقها حين تجد السياسة نفسها مضطرة لإقناع الزعماء بالعمل لها..

وكان الفرنسيون قد جرَّبوا في البداية كسب الزعماء السياسيين مباشرة ظناً منهم أنه يكسبون بذلك أنصار هؤلاء الزعماء أيضاً، كان ذلك عندما طلبوا من الزعماء - بعد أن استرضوهم بطريقة «خذ وبارك» - وضع العرائض بطلب الحماية الفرنسية - فأخذ الزعماء وباركوا - ولكنهم لم يفعلوا شيئاً، أو بالحري لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، إذ تمرَّد عليهم قبضاياتهم وزلمهم وراحوا يقولون عكس قولهم، ويتهمونهم بأنهم باعوهم للفرنسيين، واستأثروا بالثمن!

وقد سبق لي، قبل وصول بعثة كراين، أن اتَّبعْتُ الأسلوب ذاته مع بعض الزعماء البارزين في الأقضية الأربعة - بناءً على إشارة السلطات الفرنسية ومصلحة الاستعلامات - فتصرَّف هؤلاء تصرُّف ذاك الذي شرب من البئر ورمى بها حجرا..

أخذوا المصاري ليعطوا رجالهم، ولكنهم لم يعطوا أحدا...

- إنما، أعطوا الكثير لأشخاص لا وجود لهم في هذا العالم، كما جرى مثلاً مع زعيم زحليٍّ كبير عرض على الفرنسيين خدماته الجليلة العالية، مؤكداً أنه يملك عدداً محترماً من الأهلين في رياق والقرى المجاورة لها، وَهُمْ مستعدون لماشاة الدعاية الفرنسية إلى النهاية وقَبَضَ مبلغاً كبيراً ليوزِّعه - حسب زعمه - على أهالي تلك القرى...

وكان حضرته رجلاً كبيراً، له أكثر أملاك بعض تلك القرى، ويظنه الناس زعيماً مطاعاً، فإذا به يتضح بعد حين أنه أكل الطعم وترك السنارة...

ظهر ذلك وقت ارتابت الجهات المختصة بأمره، فأمرت بفحص جدول الأسماء التي ادعى أنه وزع المال على أصحابها فوجدت أن ثلاثة أرباعهم تركوا هذا العالم منذ زمن بعيد ولم ينتظروا مجيء الفرنسيين لهذه البلاد ليقبضوا!

وطبعاً سكت الفرنسيون على مثل هذه الاختلاسات ولكنهم تعلَّموا - وتعلَّمت أنا معهم - ألا نأمن للوجهاء والزعماء المحليين كثيراً، فهم ما صاروا وجهاء وزعماء إلا لأنهم يأكلون أموال الذين يدَّعون الزعامة عليهم..

من هذه الأمور تلقنت عبرة، لم أنسها وأنا في طريقي إلى الأقضية الأربعة...

أصدقائي أهل السيف والترس...

كان أول ما فعلته عند وصولي للأقضية الأربعة أن اتصلت بطريقة خفية جداً، وفي ظلام الليل، مع قبضايات تلك المنطقة المعروفين بأنهم حملة السيوف والبنادق، أولئك الذين يخافهم زعماؤهم ويدارون جانبهم، ولا يجسرون على إغضابهم، لئلا ينقلبوا عليهم فتذهب زعامتهم ووجاهتهم مع الريح.

دعوت هؤلاء وعقدت معهم «بازاراً». وكان البازار في غاية الصدق والإنصاف: هم يمشون مع فرنسا أمام لجنة كراين، وأنا أدفع لهم.

على أنني كنت أكرم منهم، فأعطيت كلاً منهم سلفة، كانوا ولا شك بحاجة قصوى لها.

وَفتَّشْتُ بين العشائر في بلاد بعلبك فوجدت حالاً الطلب. وجاءني أولئك الذين أخذت أسميهم بزعماء ووجهاء من أهل السيف والترس الذين يهابهم الناس ويحسبون حسابهم، والذين يتحكمون بزعمائهم ووجهائهم كما يريدون.

وفي اليوم الثاني وصل كراين لزحلة. ولم يحتج هنا أحد من الناس للكلام والسلام، إذ تجمهروا حشوداً كبيرة، وحملوا الرايات الفرنسية ومشوا ليستقبلوه بها! إلا نفراً من الأرثوذكس الذين كانوا يماشون الشريف فيصل، فهؤلاء زاروا كراين بعد ذلك، وعلى رأسهم إلياس بك بحمدوني العضو بالمؤتمر السوري يومئذٍ، وطلبوا الشريف فيصل.

وكان كراين ورفاقه يريدون قضاء ليلتهم بزحلة، فلمَّا شاهدوا ذلك الملقى الغريب، بدون سلام ولا كلام، تركوها حالاً واتجهوا صوب بلاد بعلبك. وهناك قال لهم محمد شمدين دندش: فرنسا أم الدنيا عموم!

وكان جباراً بين الرجال، يحمل دوماً سيفاً صقيلاً يزن أربعة أرطال!

مار يوحنا يرثه محمد شمدين!

وكان من خصائصه الأساسية وميزاته الكبرى التي أدخلته في التاريخ، أنه جعل دير مار يوحنا مارون، القائم في وسط الجبل، على رأس نبع العاصي في أسفل جبل الهرمل، مقراً عاماً له، يحتله في ذلك الوقت كما احتله والده ووالد والده قبله، وهو عبارة عن بضعة غرف منقورة بالصخر في منتصف جبل عالٍ، يقوم بهيئة جدار

جبّار لا يمكن الوصول إليه إلا بسلالم خشبية طويلة جداً تقود الصاعد إلى تلك الكهوف الصغيرة الضيقة المنقورة بالصخر، كما قلنا، والتي تشبه بالأحرى المغائر، وقد كانت قبل أن تصير ديراً، كهوفاً لا يصل إليها غير الماعز!

وكان علي محمد شمدين وربعه يلجأون إلى تلك المغاور، عندما يطاردهم مطارد، ويسحبون بعد ذلك السلم الطويل، فلا يبقى سبيل للوصول إليهم، حتى ولا عساكر الأتراك، الذين كانوا يجرون الحملات المتتابعة على الدنادشة، فيلجأ هؤلاء لدير مار يوحنا مارون صديقهم، فيعجز الجيش المظفر عن الوصول إليهم!

المستر كراين عند مار يوحنا مارون

وهنا يجب أن نذكر على سبيل الطرافة، ما قاله محمد شمدين للمستر كراين بهذا الصدد!

ولا ننسى أن تشارلس كراين أميركي قبل كل شيء، ويحب الأشياء المُستغرَبة، والمغامرات الطريفة.

ورأيناه يقف مدهوشاً في وسط ساحة مدينة بعلبك، وهو يشاهد عملاقاً مخيفاً يشق طريقه بسيفه بين الجماهير التي اجتمعت حول اللجنة، يرافقه بضعة فرسان من جماعته مُسلَّحين من الرأس حتى القدمين!

وكان محمد شمدين يلوّح بسيفه بين تلك الجماهير، مهدّداً من لا يقول قوله، ويمشي برأيه.

ولما وصل مع ربعه أمام الأميركي، وطلب بصوت كالرعد فرنسا أم الدنيا عموم، سأله تشارلس كراين بحشرية أميركية اعترته أمام هذا المشهد المستظرف المستغرب:

- أنت من تكون، حتى تتكلم باسم هؤلاء الناس؟

فأجاب أنه صاحب قلعة نهر العاصي التي حاصرها الأتراك والتي ردت جميع الفاتحين على أعقابهم، وقد عجزوا عن اكتساحها!

وطبعاً سأل كراين ما هي قلعة العاصي، وأين هو ذاك النهر الذي جاء اسمه في التوراة التي يحفظها كراين عن ظهر قلبه، فدعاه محمد شمدين لزيارته، وقال إنه مستعد لمرافقته إلى قلعته ويدعوه لأن ينزل ضيفاً عليها حيث يُغدّيه من سمك ذاك النهر المشهور المدعو باسم «الترويت»، والذي كان السياح يستطيبونه جداً ويدفعون ثمن أكلة منه ثقلها ذهبا!

ووعده كراين أن يأتيه إلى قلعته ويشاهد بخشوع النهر المقدس، ويتعرَّف إلى تاريخ تلك القلعة، وفعلاً بعد انتهاء أعمال لجنته في بعلبك، توجه مع رفاقه إلى نبع العاصي، واستحمَّ بالنهر متباركاً ووقف مبهوتاً أمامه، ثم صعد السُلَّم الخشبي - وهو سُلَّمٌ لا يختلف بشيء عن السلالم العادية الجبلية - ودخل تشارلس كراين المغائر الواحدة تلو الأخرى، واستمع إلى الأساطير التي تحكي عن ذاك الدير الذي كان مرعى للماعز، وكيف أن مار يوحنا مارون جاء من مدينة حماه على الأكثر لاحقاً بأبي الطائفة مار مارون الكبير، وتحصَّن في ذلك الجبل القائم جداراً من الصخر على ضفة النبع المقدس، هارباً من الاضطهادات التي كان تلاحقه وتلاحق رفاقه!

ولما لجأ مار يوحنا مارون إلى تلك المغاور، فأخذ مع رفاقه في نقر جوانبها وسقوفها وفتح الثغرات فيما بينها، حتى اتسعت نوعاً ما، فاعتصموا بها إلى أن فُتِحَتْ أمامهم أبواب لبنان فدخلوه وهجروها!

وقال محمد شمدين للمستر كراين الذي كان قد أصبح بعد بضع ساعات صديقه الأعز:

- وهذا ما فعلت أنا الآخر. لقد علَّمني مار يوحنا مارون، ذاك الرجل الصالح، حكاية السُلَّم الخشبي الطويل، أصعد عليه إلى الدير، واسحبه من ورائي، فلا يستطيع أحد بعد ذلك غير العقاب والنسر الوصول لعندي...

وبعد ذهاب لجنة كراين كافأ الفرنسيون محمد شمدين وإبراهيم شمص وغيرهما من زعماء العشائر الذين طلبوا فرنسا بإنشاء كتيبة عسكرية من رجالهم وجعلوهم قواداً عليها، فشاهدناهم بعد ذلك على رأس الفرقة، يرتدون البزَّات العسكرية المتعددة الشرائط والطبشات الذهبية البراقة، مما كان يعطي لمحمد شمدين هيئة المارشال بلسودسكي البولوني، وإبراهيم شمص هيئة الأميرال زعور باشا التركي، وكان شمص قد شلَّحَ الأميرال بزَّته التي يلبسها مع جميع أوسمتها لمَّا هجم رجال العشائر على المعسكر التركي وهو منسحب من لبنان نحو حلب.

وكنت قد حرصت على أن ينتقل تشارلس كراين من زحلة إلى بلاد بعلبك قبل سواها من الأقضية الأربعة، حيث كنت قد تدبَّرت كما قلت أعلاه، جميع حَمَلَةِ السيوف والتروس وهكذا كان...

وكان الحيادرة من جهة، والحمادية من جهة ثانية قد انشطروا بعضهم على بعض، فمنهم من طلب إنكلترا ومنهم من طلب فرنسا، وكان أسعد بك حيدر والد إبراهيم بك حيدر عضواً في المؤتمر السوري بالشام، وكان محمد سعيد باشا حماده عضواً في ذلك المؤتمر، بينما كان إبراهيم حيدر بك على صداقة وصلات متينة مع الكولونيل نيجر حاكم المنطقة الغربية ومع البعثة الفرنسية، رغم صداقته للشام، وكان صبري حماده الشاب اليافع يومذاك، وإبن بنت محمد سعيد حماده صديق الكولونيل نيجر أيضاً، وصديق البعثة الفرنسية ببيروت.

وكان يوسف نمور من معلقة زحلة عضواً في المؤتمر السوري، وشقيقه موسى نمور أحد المقربين جداً للبعثة الفرنسية وديوان المفوض السامي ببيروت.

غير أن «الباش بزوق» بأجمعهم أولئك الذي اكتسبناهم رأساً، هم الذين عملوا الاستفتاء، وهم الذين أعطوا الأكثرية لفرنسا في منطقة كانت معدودة من أصعب المناطق على الفرنسيين.

ولما رأى أهالي البقاع وحاصبيا وراشيا أن بعلبك تماشي فرنسا، تراخى الأمر مع طلاب غير فرنسا فيها، وتركوا جماعة الفرنسيين يعملون ما يريدون فيهم.

وهكذا جاء الاستفتاء لصالح فرنسا في الأقضية الأربعة، يدحض الحجة الكبرى التي تذرَّع فيصل بها والتي جعلته يحتل تلك الأقضية قبل وصول الفرنسيين، إذ كان يقول إن أهالي تلك الأقضية لا يريدون الفرنسيين ولا الالتحاق بلبنان.

ومقابل ذلك كان الفرنسيون يحرصون على تكبير جبل لبنان وإضافة الأقضية الأربعة وطرابلس وعكار والساحل وصيدا وصور وجبل عامل إلى جبل لبنان.

وطبعاً لم يقدم استفتاء كراين في مصير الأقضية الأربعة، ولن يؤخر شيئاً، إذ لم تكن فرنسا وإنكلترا تعترفان به رسمياً، وكان معروفاً أن مجلس الأربعة الكبار في باريس هو الذي يتخذ القرار الأخير عندما يقرر مصير سوريا ولبنان.

ولكن مجيء ذلك الاستفتاء لصالح فرنسا، جاء يعاضد مشروع قيام لبنان الكبير الذي كان يقضي بضم الأقضية الأربعة وسواها لجبل لبنان مما سيأتي تفصيله في سياق هذه المذكرات.

هدية ملكية من الفرنسيين

ولنعد إلى تشارلس كراين، الذي مَرَّ مرور الكرام، ومن بعيد لبعيد، في البقاع وحاصبيا وراشيا، بعد استفتاء بعلبك.

والآن، كتصفية للحساب، يجب أن نقول إننا طلعنا شخصياً من ذلك الاستفتاء بالغنيمة.. والقيمة التي حملناها من صناديق الكابتن ماسينيون كدفعة أولى كانت كافية، ولم نطلب الدفعة الثانية التي كان الفرنسيون قد أعدُّوها إذا احتجنا إليها، ولكننا لم نكن صفيقي الوجه إلى حد الطمع، فجعلنا الخمسين ألفاً كافية للفرنسيين ولأهل السيف والترس ولنا!

ونقول «لنا» أيضاً، لأنه كان من السذاجة والتياسة ألا نحسب حساب أنفسنا.

وطبعاً أخذت ترد على المفوضية السامية شكاوى ضدنا من الزعماء الذين لم يستطيعوا المتاجرة هذه المرة، وقد جعلنا زلمهم وأنصارهم بعيدين عنا. فكانوا يزعمون أننا أخذنا الأموال الكثيرة لأنفسنا، ولم نصرفها على المهمة الملقاة على عاتقنا.

وكان الكابتن دام يعيد كل برقية شكوى علينا لصاحبها مع كلمة مرتجع مع الشكر ورفض الشكوى، تماماً كما يعيد أحدنا الجريدة الجديدة التي يرسلها صاحبها له مع عبارة «مرتجع مع الشكر».

وعمل الكابتن دام أكثر من ذلك.

استدعاني إليه بعد الاستفتاء بأيام، وكان المستر كراين قد عاد إلى أوروبا، وكان المستر بلس رئيس الجامعة الأميركية أقفل باب مكتبه لا يريد أن يرى أحداً، وكان شانتور رئيس الجزويت وسارلوت رئيس عينطورة العازارية يتبادلان التهاني - استدعاني الكابتن دام إليه، وأسمعني كلاماً لطيفاً جداً - ثم أرسلني إلى الكابتن ماسينيون، فنقدني مكافأة ملوكية كريمة.

وكنت حتى ذلك الحين، وحتى قبيل أن انكسرت تركيا وجاء الحلفاء إلى هذه البلاد، وماشيت الفرنسيين، كنت أعتقد أن الدنيا تنقلب رأساً على عقب يوم يصير معي خمسمئة ليرة عثمانية...

حيث كراين لم يسمع ولم يقشع!

كما كانت الرايات الفرنسية تنتظر قدوم كراين بزحلة لصالح فرنسا، كان المؤتمر السوري ينتظر قدومه لدمشق لصالح فيصل، ليقطع عليه الكلام...

جابهه المؤتمر السوري بالقرار التاريخي الذي كان قد اتخذه قبل وصوله لهذه البلاد، وخلاصته: استقلال عربي شريفي أولاً، وإذا لم يكن بُدٌّ من وصاية أو مركز ممتاز، فأميركا ثم إنكلترا، ولكن فرنسا لن تكون على جميع الأحوال!

وكانت بعض العناصر المسيحية بدمشق، وخصوصاً بحلب، وقليل من الأوساط الإسلامية في المدينتين الكبيرتين، يميل إلى المطالبة بإعطاء فرنسا مركزاً ممتازاً، ولكن القائلين بذلك كانوا أقلية ضئيلة. ولما نادوا بهذا الطلب لم يسمع لهم أحد!

وكانت المدارس الفرنسية في المدن السورية عديدة أيضاً، وكان عدد كبير من رجال السياسة السورية قد تعلّموا في تلك المدارس.

وللتدليل على مدى انتشار اللغة الفرنسية في سوريا في ذلك الحين، نذكر أن عدد التلاميذ في المدارس الفرنسية كان تسعين ألفاً. وهو رقم يستلفت النظر؛ في بلد كان 80 بالمئة من أهله أميين!

وكان تعليم اللغة الفرنسية إجبارياً في بعض تلك المدارس، كما كانت الحال بلبنان بوجه عام، حتى أن المدارس العلمانية الوطنية في دمشق وحلب جعلت، هي الأخرى، تعليم اللغة الفرنسية تقريباً إجباريا.

جيوش اللنبي الفرنساوية

والجدير بالذكر أن اللغة الفرنسية كانت يومئذٍ تَعمُّ جميع بلدان الشرق الأوسط، فضلاً عن اليونان والبلقان وتركيا وإيران، وحتى في مصر التي كان الإنكليز يحتلونها ويعملون على ترويج لغتهم فيها.

وكانت اللغة الفرنسية لغة المجتمع العالي والأوساط البورجوازية في هذه البلدان، ولغة المعاملات الرسمية مع الأجانب على اختلاف أجناسهم.

ودلت الأرقام على أن عدد المدارس والمستشفيات والملاجئ والأديرة الفرنسية في لبنان كان يفوق عدد جميع المدارس والمستشفيات والملاجئ والمياتم الوطنية والأجنبية مرارا!

وكما كانت الفرنسية في استنبول اللغة الثانية في ذاك الزمان كانت كذلك في بخارست. وكما كانت في بخارست كانت في أثينا وبيروت، وحتى في دمشق وحلب!

وانتشار اللغة الفرنسية أعطى فرنسا في هذا البلدان مركزاً اجتماعياً وثقافياً، وأعطى فرنسا المركز السياسي الذي كانت قد اكتسبته، وأنشأت لنفسها تلك المكانة المرموقة العالية بين الدول في هذا الجزء من العالم.

ثم جاء جيش المارشال اللنبي، وجاءت بعده لجنة كراين ومن ورائها ولسون وبلاده، لا بالسلاح والعتاد والقوة والأغذية فحسب، بل أيضاً باللغة الإنكليزية، تحتل رويداً رويداً مكان اللغة الفرنسية، وساعد على ذلك طول إقامة الجنود الإنكليز في كل مكان من بلادنا أثناء الحرب الثانية، يختلطون بالناس بطريقة عامة، مما ساعد على انتشار لغتهم خصوصاً في بيئة العامة من الناس، وبنوع خاص في كل دسكرة كان فيها محطة عسكرية إنكليزية وأسترالية ومستودعات الأغذية واللباس والمآكل، وحيث كانت المتاجرات المشروعة وغير المشروعة رائجة جدا!

ولا شك، كما يعترف المستشرقون بأجمعهم، أن قوة اقتباس اللغات في بلادنا نوع من الأعجوبة، لهذا لم يمض وقت طويل على وجود الجيوش الإنكليزية هنا حتى صار أكثرنا يتكلم الإنكليزية، إن لم يكن مثل شكسبير! فعلى الأقل كما كان الجنود السنغاليون يتكلمون الفرنساوي!

عرب قبل كل شيء...

تركنا كراين في دمشق يتابع استفتاءه، ويأخذ علماً بقرار المؤتمر السوري أولاً، ثم بعروبة بطريرك الأرثوذكس الكبير غريغوريوس حداد، الذي ماشى منذ الساعة الأولى مع مطارينه وزعماء طائفته الشريف فيصل بلا قيد ولا شرط.

وفي المقابلة التي جرت بينه وبين كراين أدلى بذاك التصريح المعروف الذي نادى فيه بالعروبة، بينما كان كراين يُظْهِر دهشته لسماعه حَبْراً عظيماً نصرانياً يطالب بدولة شريفية عربية في سوريا ولبنان. ومما قاله البطريرك:

- نحن النصارى الأرثوذكس في هذا البلد عرب غساسنة تدعونا عروبتنا لنكون يداً واحدة مع أبناء قومنا، ومع الدولة العربية الشريفية التي ارتضيناها وقبلناها!

واهتم كراين جداً لهذا التصريح الخطير.

وبعد هذا التصريح لم يعد كراين يُصَدِّق أن نصارى الشرق هم جميعاً مع فرنسا، واكتشف في سوريا نصارى كثيرين مع الشريف، فأرسل برقيته المشهورة للرئيس ولسون يخبّره فيها أن القضية العربية ليست قضية إسلامية - كما كان كليمنصو يصوِّرها له - بل هي قضية وطنية، والدليل على ذلك أن بطريرك الأرثوذكس الذي هو بابا الروم في هذه البلاد، عربي أكثر من كثيرين من كبار الشريفيين العرب!

حكاية الجسر المضحكة

وسافر كراين ولجنته إلى باريس، قبل عودة الأمير فيصل منها ببضعة أيام. ولمّا وصل الأمير فيصل لبيروت عائداً من باريس ـ استقبله الفرنسيون يومئذٍ استقبال الملوك ـ ونزل ضيفاً على الجنرال الإنكليزي كليتون، قائد الحلفاء في المنطقة الغربية، وذلك في قصر المرحوم إلياس إبراهيم سرسق.

وفي الأيام الأربعة التي قضاها الأمير فيصل ببيروت تدفق الناس عليه، من جميع الطوائف، وكان الأمير يجتذبهم كالمغناطيس، ويسحرهم، بما هو عليه من رقّةٍ ونبل، وبالبريق الفاتن الذي كان ينبعث من عينيه، وبشدة إيمانه بالقضية العربية التي أخذ على نفسه تحقيق أهدافها.

وتجلّت لباقته لمّا اختصَّ كبار النصارى والأحبار الموارنة الذين زاروه بعناية عالية، جعلتهم يؤخذون به.

وخلال تلك الأيام الأربعة ببيروت، ظل الشريف على اتصال دائم بالمفوضية السامية الفرنسية. وكان قد رَشَحَ من ديوانه ورجال حاشيته أن الرئيس كليمنصو قد عقد سراً مع الأمير فيصل اتفاقية «جنتلمن» تقضي بإعطاء سُمُوِّه عرشاً على مملكةٍ سوريةٍ كبرى، يكون لبنان جزءاً منها.

هذا الخبر الخطير أقلق بال السياسيين اللبنانيين الموارنة، فأسرعوا يستفسرون المفوضية السامية عن صحته، فاصطدموا بسكوت تام جعلهم يعتقدون أن الخبر ليس عارياً من الصحة.

وفي اليوم التالي لسفر فيصل إلى دمشق، أخذ المفوض السامي يستدعي كبار المسؤولين اللبنانيين، الواحد تلو الآخر، ويفهمهم أن الحكومة الفرنسية تتمنى أن يقوم بين سوريا ولبنان جسر للتعاون...

وقد استعمل المفوض كلمة «جسر» حرفياً. ولما سأله السياسيون عن معناها، قال:

ـ يعني أن يكون فيصل ملكاً علـى سوريا ولبنان، تحت الضمانة الفرنسية «ولم يقل الحماية أو الوصاية» على أن يحتفظ لبنان بجميع ميزاته وامتيازاته واستقلاله الداخلي.

عدنا إلى كراين مرة أخرى

لِنَعُدْ قليلاً إلى صديقنا المستر تشارلس كراين. بعد وصوله لدمشق أمضى جميع أوقاته في زيارة الأماكن الأثرية، وحضر صلاة الجمعة في الجامع الأموي، وقال لفخري البارودي، الذي كان قد أصبح صديقه الأعز:

ـ ما رأيته عند هذه الألوف من المُصلِّين في الجامع من الإيمان والتقشُّف يجعلني متأكداً من أنهم سيصلون بعد عمر طويل إلى الجنة رأساً!

وفي اليوم الثامن، خلق الله العالم، وترك تشارلس كراين هذه البلاد، وذهبت جميع أعمال لجنته بالبحر!

ذلك أن مؤتمر الصلح تَسَلَّمَ مباشرة قضية سوريا ولبنان، وأقنع الحلفاءُ الأميركان بضرورة احتلالهم لهذه البلاد.

وعرف الناس في كل مكان، وأخصُّهم الجزويت والعازاريون، أنهم تخلَّصوا من كراين!

ولكن الخلاص من كراين لم يكن سهلاً!

لقد غادر كراين هذه البلاد وهو يتلفَّت وراءه ويتوق إليها. وظل يتلفَّت وراءه من نيسان 1919 حتى نيسان 1922، حين ظهر كراين فجأة في سوريا، بعد أن كان الناس قد نسوه تماماً.

ودُهِشَ أهالي تلك البلاد من هذا الظهور المفاجئ.

وكانت سوريا ولبنان قد أصبحتا تحت الانتداب الفرنسي بالاتفاق مع إنكلترا وجمعية الأمم بجنيف، ومن وراء مؤتمر سان ريمو. ولم يبق لكراين ما يفعله عندنا.

أما هو فكان له رأي آخر. إنه لم ينس أن الفرنسيين لعبوا عليه في لبنان وسوريا، وخصوصاً في بعلبك والأقضية الأربعة، فعاد إلى هذه البلاد بعد سنتين ليرى كيف يثأر لنفسه منهم!

ووجد كراين أن الفرنسيين ما يزالون أحياء في سوريا ولبنان، وأن انتدابهم عَمَّ المنطقتين، وأنهم استطاعوا استرضاء الكثيرين من الأهالي؛ وقد كانوا ثائرين عليهم في السابق.

ولكن، ماذا عمل كراين، حتى قامت الثورة في اليوم الثالث لوصوله في طرابلس وفي بعلبك ودير الزور، وفي جبل الدروز، وفي كل مكان أخذ يزوره. مما اضطر القوات الفرنسية التي كان يقودها الجنرال دي لاموت لاستعمال القوة بشدّة لإخماد تلك الفتن؟!..

وكان الجنرال غورو يومئذ مفوضاً سامياً، فاتهم الإنكليز بأنهم دبروا، مع كراين، هذه الفتن لإشعال ثورة ضد الفرنسيين في سوريا.

وزعم الجنرال غورو أن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر هو الذي أوقد تلك الفتن بالاتفاق مع كراين ومع أصدقائه الإنكليز.

وفي الوقت الذي كان فيه الجنرال دي لاموت يخمد الفتن بسوريا، كان كراين يضبُّ شنطه ويترك هذه البلاد، دون أن يلتفت هذه المرة وراءه. وقد مضت على ذلك أربعون سنة، ولم نعد نسمع عنه شيئا!

نوري السَّعيد بَين الثلوج والذهب

كتب القدر منذ البداية أن ينتهي نوري السعيد حيث بدأ.. بدأ مع فيصل الكبير وانتهى مع فيصل الصغير!

بدأ مع الجد وانتهى مع الحفيد!

ولو لم ينته نوري بانتهاء العائلة التي كرَّس حياته لخدمتها لما كان المكتوب قد تحقق!

كان مكتوباً له أن يعيش معها، وأن يموت معها، منذ الساعة الأولى التي تولى فيها فيصل الأول قيادة جيوش الصحراء العربية، الثائرة على الدولة العثمانية في سنة 1916. وكان أول من وقف بقربه نوري السعيد!

وتعود بي الذكريات إلى اليوم الأول الذي عرفت به نوري السعيد - في ليلة عاصفة من شهر شباط عام 1920.

ولكي يتبعنا القارئ بطريقة واضحة، ويلمَّ بالمقدمات السياسية والعسكرية التي جرت قبل ذلك التاريخ، نجد أنفسنا مضطرين للعودة إلى بداية انسحاب الأتراك من الشرق العربي، أي من فلسطين ولبنان والجزيرة والعراق، ودخول الأمير فيصل لدمشق باسم والده الملك حسين، وذلك في أواخر النصف الثاني من العام 1918.

ونحن في هذه البلاد كنا لا نعرف شيئاً عن الوضعية الدولية التي كان الحلفاء قد رسموها لنا.

كنا قد سمعنا من بعيد بشيء اسمه معاهدة سايكس بيكو، تعيِّن حدود الأقطار العربية التي سيتقاسمها الإنكليز والفرنسيون بعد انتصارهم على ألمانيا وحلفائها. ولم يكن هناك من ذكر للأميركان أو الروس في ذلك الحين.

وكنا نحن في جبل لبنان، نعتقد اعتقاداً راسخاً أننا سنكون من حصة الفرنسيين، عندما يجري اقتسام الغنائم.

ومع ذلك كنا على استعداد لوضع رقابنا بين أيدي أي فاتح يفتح بلادنا. ولمّا دخلت قوات الشريف فيصل دمشق يوم 27 تشرين الأول عام 1918، وعلى رأسها نوري السعيد، كنت أقيم في بلدتي زحلة، لاجئاً ومتخفياً من ملاحقة الأتراك لي.

ثم جاءنا رسل من دمشق يقولون إن البلاد ستكون للملك حسين ولأبنائه، وإن الملك حسين سيصبح ملك البلدان العربية، وفي مقدمتها لبنان. ويومذاك أقمنا في تلك المدينة النصرانية بكاملها مهرجاناً عربياً عظيماً. وأظهرنا للملك حسين وللشريف فيصل من الحماسة ما لم يُظهِره المسلمون. ونمنا ليلة كاملة عرباً هاشميين، من رعايا شريف مكة وتحت إمارة نجله فيصل الفاتح!

عندما انتصرت زحلة على الإمبراطورية

ولكن كان لذلك الليل من آخر...

وفي الصباح الباكر دخلت كتيبة إنكليزية إلى زحلة، آتية من دمشق. وكانت أول قوة من الحلفاء تدخل جبل لبنان من جهة الشمال، فحلَّت في أعالي الوادي الظليل، ورفعت الراية البريطانية على دار «الحكومة المؤقتة»، التي كانت قد تألَّفت من بعض وجهاء زحلة لتحكم البلد في الفترة التي مرت بين انسحاب الأتراك وبين وصول الحلفاء للبقاع، ودخولهم وادي البردوني.

ونذكر جيداً - أنا والمعاصرون - لما رفع القائد الإنكليزي الراية البريطانية بمهرجان كبير، بحضور أعضاء الحكومة المؤقتة؛ وكانت الحكومة الزحلاوية المؤقتة قد عينتني مدير البوليس في البلدة، فأخذت أربعين أسيراً كانوا عند الأتراك في معتقل رياق، وألَّفت منهم قوة بوليس محترمة، كان لها الفضل في صيانة الأمن في زحلة في فترة الانتقال.

ولما رفع القائد الإنكليزي العلم البريطاني فوق السراي المؤقتة وأدى التحية، صاح بصوت كالرعد: «حيث يرتفع هذا العلم يبقى طيلة الدهر ولا ينزل».

ولكن، ولأول مرة في تاريخ الإمبراطورية البريطانية، وقد كانت الشمس في ذلك الحين لا تغرب عن ممتلكاتها، ارتفع علمها على أرض كسبتها دون أن يرفرف أكثر من ثلاثة أيام، إذ عاد القائد ذاته وطواه بنفسه بعد ثلاثة أيام ووضعه في حقيبته!

ذلك أن الفرنسيين الذين كانوا قد وصلوا لبيروت في ذلك الحين طالبوا بالحق الذي أعطتهم إياه معاهدة سايكس بيكو، واعترف لهم الإنكليز بهذا الحق! وأنزلوا علمهم عن المنطقة التابعة للاحتلال الفرنسي.

هكذا تكون زحلة، المدينة الضائعة في هذا الكون، التي لم يكن قد سمع باسمها أحد من ملايين المحاربين، هي التي بدأت في هذا الشرق بإنزال العلم الإنكليزي...

وأخذ العلم منذ ذلك الحين ينزل كل يوم عن أرض من أراضي الإمبراطورية العظمى، حتى أصبحنا الآن في هذا الشرق الأوسط نتفقده فلا نجده في مكان واحد!

وهنا لا بد من القول إن معاهدة سايكس بيكو كانت تقسِّم سوريا ولبنان إلى منطقتين: المنطقة الشرقية يحتلها الشريف فيصل وهي سوريا، والمنطقة الغربية يحتلها الفرنسيون ويحكمونها، وهي مؤلفة من جبل لبنان، ومن الأراضي التي ضُمَّت إليه بعد ذلك، أي الجنوب وطرابلس وعكار والأقضية الأربعة.

فيصل يحتل الأقضية الأربعة

ولما دخل فيصل دمشق، أوفد حالاً، بناءً على رأي مرافقه نوري السعيد، جيشاً شريفياً بقيادة الركابي باشا واحتل الأقضية الأربعة: حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك، مخالفاً هكذا منطوق معاهدة سايكس بيكو.

وكانت هذه الأقضية حسب منطوق المعاهدة جزءاً من منطقة الفرنسيين.

ولكن الشريف فيصل، ودوماً برأي نوري السعيد - كما اتضح بعد ذلك من مذكَّرات الركابي باشا وشكري الأيوبي باشا - انتهز تأخُّر الفرنسيين مع الجيش الإنكليزي في جنوبي لبنان بضعة أيام، فاحتل الأقضية الأربعة واضعاً الفرنسيين - وطبعاً بمعرفة الإنكليز - أمام الأمر الواقع.

فيصل وصورة المسيح

وفعل يومئذٍ فيصل أكثر من ذلك:

فبعد يومين فقط من احتلاله الأقضية الأربعة، جاء بحاشية كبيرة - وإلى جانبه مرافقه ورفيقه الدائم نوري السعيد - يزور الأقضية الأربعة ويثبِّت وضع يده عليها!

وكانت أول محطة نزلها هي معلقة زحلة.

ومثلنا يومئذٍ بين يدي الشريف، فأدهشنا سكوته ومهابته، وأخذنا بقامته المديدة وسمرته الساحرة وعينيه السوداوين العميقتين ولحيته الحالكة السواد، فتراءى لنا بثوبه الأبيض الفضفاض، وعباءته الحمراء، وهو جالس في صدر قاعة الاستقبال، في منزل الوجيه الماروني الكبير بمعلقة زحلة، يوسف بك نمور، تراءى لنا الشريف وكأنه صورة عن المسيح، إنما صورة سمراء بدلاً من أن تكون شقراء، كما يرسمون السيد المسيح في الصور المقدسة!

أخوان، لا مسلم ولا نصراني...

وحرص فيصل في زيارته هذه للأقضية الأربعة، التي يكثر فيها النصارى، على أن يحيط نفسه بعدد كبير من معاونيه من الموارنة والكاثوليك، ومنهم الشيخ فريد الخازن، وكان قد استنفرهم من مصر وغيرها قبل أن يخوض حرب الصحراء، وجعلهم حاشية قوية تحيط به، لهم ما لغيرهم من كبار المرافقين المسلمين.

وحرص وهو في الأقضية الأربعة على النزول ضيفاً على بيوتات كبار النصارى، مظهراً هكذا تجرُّداً طائفياً كبيراً جداً كان له تأثير عظيم على أهالي جبل لبنان.

وكان من الواجب على الحكام الذين جاؤوا من بعده في سوريا ولبنان، أن يعتبروا به، وبالأخوّة التي جعلها رائد النصارى والمسلمين معاً، وأن يتخذوا من مسلكه الوطني قاعدة لحياتهم السياسية، ولعدم التفرقة الطائفية من أية جهة كانت، خاصة في بيروت، حيث كانت الدكاكين الطائفية - وما تزال - المصيبة الكبرى، وأصل المشاكل والتناحر!

وأخذت الأيام ثم الأسابيع تمر، والمفاوضات قائمة في باريس ومع فيصل، لكي تجلو الجيوش العربية عن الأقضية الأربعة، وذلك بانتظار ما يقرره مؤتمر الصلح، قلنا أخذت الأيام والأسابيع تمر، والشريف يزداد قوة ونشاطاً في سوريا ويزداد تمسكاً بالأقضية الأربعة، والفرنسيون يزدادون مطالبة بها ويحجمون عن احتلالها بالقوة خوفاً من المشاكل التي قد تسفر عن ذلك، ولكنهم كانوا في خلال ذلك يحشدون في زحلة وجوارها فرقاً عديدة تنتظر...

كانت تنتظر الأمر بالهجوم، يقودها أحد كبار قادة النصر الجنرال دي لاموت، الذي اتخذ زحلة مقراً له، وعيَّن على رأس مكتبه الثاني القومندان أرلابوس المشهور بحيلته ونباهته، وقد عاد إلينا بعد عشرين سنة من ذلك، في بداية الحرب الكبرى الثانية، وعينه الجنرال ويغاند لبضعة أسابيع حاكماً عاماً على الجمهورية اللبنانية!

وكانت تربطني بالقومندان أرلابوس، لما كان في زحلة رئيساً للمكتب الثاني سنة 1920، رابطة الصداقة من جهة، ثم رابطة التعاون السياسي السليم المعقول، الذي كانت قاعدته الأساسية التفاهم مع فيصل بأية طريقة كانت، وبذل كل جهد لتجنُّب الحرب معه، الأمر الذي لم يكن الجنرال دي لاموت «الحربجي» العسكري يقبله!

إنه رابَطَ مع عساكره بزحلة ليحارب، لا ليصالح ويتعاون، وكان القومندان أرلابوس يرسل للقائد العام وللمفوضية السامية في بيروت تقاريره - التي كنا نضعها معاً - مثبتاً بأدلة كبيرة وبراهين حاسمة ضرورة التفاهم مع فيصل سلمياً، إذ أن الحرب معه، وهو في ذلك الحين معبود العرب، والمُسمَّى بالمنقذ والبطل، يجعل العرب في كل مكان، حتى في الجزائر ومراكش وتونس، يتألبون على الفرنسيين ويثورون عليهم!

ينتظرون رسولاً من بين العواصف والثلوج

وكانت تلك الليلة الحالكة العاصفة في شباط 1920، التي ثارت فيها العوامل الطبيعية ثائرة هوجاء، تتفق مع روح الحرب التي كانت تسيطر على ذاك الجنرال الفرنسي وأركان حربه، في مقر القيادة العام، بفندق قادري المعروف في زحلة.

كانوا ينتظرون فيها قدوم رسول يجب أن يكون ذا شأن ويجب أن تكون رسالته ذات أهمية كبرى...

وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وكانت العاصفة المطرة انقلبت إلى عاصفة ثلجية، اشتد فيها البرد لدرجة الصقيع لما جاء «خزمتجي» القومندان أرلابوس رئيس المكتب الثاني يوقظني من نومي، ويطلب مني الالتحاق حالاً بسيده!

وطبعاً لم أكن أعرف شيئاً مما كان مرتقباً، ولم تكن هناك أية ظاهرة تدل على أن هناك أمراً هاماً سيكون في ذلك الليل، فالقائد الجنرال دي لاموت وضباطه كانوا بعد العشاء في مقرهم العام قد ذهبوا لأسرَّتهم، ولم يبق منهم غير القومندان أرلابوس ساهراً، وأنا بقربه حتى الساعة الحادية عشرة، عندما سمح لي بالذهاب إلى بيتي قائلاً:

كنت بحاجة إليك لأمر هام، ولكن الوقت قد فات!

لم أفهم شيئاً، وبطبيعة الحال لم أسمح لنفسي بالاستفسار، إنما تذكَّرت كلامه لما استدعاني بعد ذلك الساعة الواحدة والنصف، وهي الساعة التي عرف فيها أن الرجل الذي كان ينتظره مع الجنرال دي لاموت وأركان حربه قد تأخر عن القدوم، ولكنه لن يتخلف عن الموعد!

لقد وصل الرجل عندئذٍ إلى معلقة زحلة، حيث التجأ إلى بيت القائمقام، حاكم البقاع الشريفي، يعتني بنفسه قرب نار هائجة، بعد أن كادت العاصفة الثلجية تذهب به وتقتله برداً، وهو في طريقه إلى الموعد المضروب مع الفرنسيين بزحلة!

جنرال في السادسة والعشرين!

إنه موعد خفي لم يكن يعرف سره غير الجنرال دي لاموت والكولونيل جيزار رئيس أركان حربه والقومندان أرلابوس.

وفعلت النار في بيت القائمقام فعلتها، واستعاد الرسول حالته الطبيعية، يساعده بذلك شبابه الغض ونشاطه العسكري الصارم.

كان ذلك الرسول الذي ينتظره قائد الجيش الفرنسي وضباطه هو الجنرال نوري السعيد أصغر الجنرالية سناً في العالم!

ترك دمشق سراً عند عتمة المساء، بالرغم من الأمطار الغزيرة التي كانت تهطل، ولكن كان لابد من تلك الرحلة.

وأخذ يطوي الوديان والبطاح مع الضابطين الصغيرين مرافقيه، يحارب العواصف والعواصف تحاربه - حتى وصل في تلك الساعة المتأخرة إلى زحلة، وكانت القيادة الفرنسية تنتظر وصوله قبل الساعة العاشرة:

وكان كل شيء في لوكندة قادري تحت الحراسة الصارمة، وكان بعض الجنود حول الفندق يرتجفون برداً ولكنهم يسهرون على منع أيٍّ كان من الاقتراب.

وبعد دقائق قليلة من وصولي للفندق شاهدت من وراء النافذة مع سواد الليل، نوري السعيد يترجّل بقوة من السيارة، ويصعد السلم بسرعة الشباب ويصافح الجنرال دي لاموت وضباطه الذين خَفُّوا إلى استقباله على أعلى الدرج غير عابئين بالثلوج التي كان تتساقط، ولا بالظلام الحالك الذي ساد تلك الليلة.

وكانت الأنوار طبعاً بأجمعها مطفأة...

إذ أن كل شيء كان يجب أن يجري بالسر والخفاء الكاملين، وكان أول شيء قاله لي القومندان أرلابوس أن أضبط لساني وأنسى كل ما جرى وكل ما سيجري في تلك الليلة!

المترجم الذي استدعوه كان أنا!

وبعد بضع دقائق من دخول نوري السعيد إلى مكتب دي لاموت استدعاني القومندان أرلابوس لمرافقته إلى ديوان الجنرال، وكان الضباط الفرنسيون يحيطون بنوري السعيد، ودلائل الدهشة ظاهرة على وجوههم، وكأنهم يتساءلون كيف أن

الشريف فيصل الرصين الحكيم يُسلِّم أموره الهامة ومهماته الكبرى إلى هذا الضابط الصغير السن اليافع.

وكانت مهمتي الترجمة:

ومع أن نوري السعيد كان ملمَّاً بالافرنسية نوعاً، ومع أن الضابطين مرافقيه كانا يعرفانها تماماً، ولكنه كان من الواجب أيضاً أن يكون هناك مترجم يحمل ثقة المكتب الثاني الفرنسي ولا يتلاعب بالألفاظ والمعاني، في اجتماع هام كالاجتماع الذي يقوم.

كانت هذه المهمة منتهى المهمات بين الفرنسيين والشريف فيصل.

كان فصل الخطاب ومفرق الطرق.

وكان الفرنسيون هم الذين طلبوا من الشريف إرسال رسول يفاوضهم ويكون مفوَّضاً تفويضاً مطلقاً للاتفاق معهم إذا أمكن، ولتجنُّب الحرب والحؤول دون احتلال الأقضية الأربعة بالقوة، وكان الفرنسيون قد حشدوا جيوشهم في زحلة وعلى حدودها.

رجل سيف وسياسة وبهلوانيات!

وبعد أن بدأت المناقشة زال استغراب الجميع مما كنا نسمِّيه استسلام الشريف فيصل إلى نوري السعيد - إذ أن هذا الأخير أثبت في مناقشته ومباحثاته دهاءً سياسياً ممتازاً ومقدرة بليغة في حججه ونظرياته:

تذرَّع الجنرال دي لاموت بمعاهدة سايكس بيكو التي نصَّت على ضم الأقضية الأربعة إلى المنطقة الغربية الفرنسية، فقال له نوري السعيد:

- ولكن هذه الأرض عربية، وهي جزء من سوريا التي يحكمها الشريف فيصل بن الحسين، فهل على معاهدة سايكس بيكو توقيع الشريف أو توقيع جلالة والده الملك حسين كي نعمل بها؟ إن معاهدة سايكس بيكو بنظرنا هي اتفاق جانبَيْن مغتصِبَيْن لبلد لا يخصهما، لذلك نحن لا نعترف بها!

ولما بدأ الجنرال دي لاموت تهديده من طرف خفي قال نوري السعيد:

- إذا كنا قد دخلنا في طور التهديد فإني أفضِّل الانسحاب..

ولم تكن التعليمات الواردة من بيروت تسمح للجنرال بقطع المفاوضات على هذا الشكل، لذلك عاد دي لاموت يقول:

ـ نحن هنا لنتفاهم لا لنتخاصم، فعلى أية طريق يريد فيصل أن يمشي معنا؟

قال نوري السعيد: على طريق المناداة به ملكاً على سوريا ولبنان معاً، مع الاحتفاظ بكل امتيازات جبل لبنان وحكمه الذاتي، والمحافظة على المصالح الفرنسية في البلدين.

وقال أرلابوس:

ـ نحن مستعدون أن نعطي فيصل ما يريد، ولكن هل هو مستعد أن يعترف بنفوذنا العسكري على البلدين؟

قال نوري السعيد:

ـ أوصاني سيدنا لما ودَّعته قائلاً: «إذا ألقوا عليك مثل هذا السؤال فاعتصم بالخرس وتظاهر بالصم. وهكذا أفعل الآن. ولكنني أريد أن أقول لكم إن هذا الأمر ليس بيد فيصل ولا بيد الفرنسيين، بل هو بالأحرى بيد الأهالي وبيد مؤتمر الصلح، الذي سنشترك به كجانب من الحلفاء».

وقال الجنرال دي لاموت: «ولكن يا حضرة الجنرال نوري السعيد، ما هو التفويض الذي تحمله على التمام؟»

قال نوري السعيد:

ـ هو أن أقول لكم إنكم إذا احتللتم الأقضية الأربعة، كما أنتم مستعدون أن تفعلوا، فإنكم تخسرون النفوذ الذي تطلبونه بسوريا. إذ أن سوريا تعتبر نفسها عندئذٍ في حالة حرب معكم...

فتح صناديق الذهب في اللحظة الأخيرة

وهنا لم يبق مجال لمناقشة عقيمة لا فائدة منها بهذا الصدد، لذلك رأى الجنرال دي لاموت أن يدخل حالاً في صلب الموضوع، لتطبيق خطة أشار بها عليه بعض الساسة اللبنانيين البيروتيين، ومنهم اميل اده وألبير قشوع وخير الدين الأحدب وبعض زعماء الساحل المسلمين الموالين للفرنسيين، وهو الالتجاء للذهب، عندما لا يبقى باليد حيلة!

قال الجنرال دي لاموت:

ـ نحن نعرف أنك تتمتع بنفوذ قوي كبير على فيصل سيدك، فدعنا نتفاهم معك وبعد ذلك كل شيء يهون!

وظهرت دلائل الدهشة على ملامح نوري السعيد، ولكنه كان يريد أن يعرف تماماً ما هنالك، فأجاب:

ـ أنا جئت لهنا بأمر سيدنا لأتفاهم معكم، فلماذا لا أفعل؟!

وهنا أشار عليَّ الجنرال دي لاموت وعلى الضباط الباقين بالخروج، وبقي مع نوري السعيد والقومندان أرلابوس لوحدهم.

وحاول أن يفهم على نوري السعيد، وأن يفهم نوري السعيد عليه ببعض الافرنسية التي يعرفها، فلم يستطيعا التفاهم فاستدعاني أرلابوس من جديد لأترجم، وقال لنوري السعيد بطريقة فجائية ودون أن تكون هناك مقدمات.

هل مائة ألف ليرة افرنسية ذهبية تكفيك؟ إن أردتها فستكون بعد دقيقة في صندوق سيارتك.

وظهرت على وجه نوري السعيد دلائل الارتباك، وتابع أرلابوس قائلاً:

ـ وهناك نصف مليون ليرة افرنسية ذهبية تنتظر إشارة منك لإرسالها للأمير بدمشق، وهناك غيرها وغيرها مخصصة له وللحاشية الشريفية!

هنا أخذ الارتباك ينقشع رويداً رويداً عن وجه نوري السعيد، وشاهدت عينيه تبرقان من جديد بحبور، فتصوَّرت أنا والجنرال وأرلابوس أنه وقع بالفخ وقبل الصفقة.

وطلب نوري السعيد فنجاناً من القهوة وجلس يفكر ثم قال:

ـ غداً في مثل هذه الساعة إذا كنت عندكم هنا يكون كل شيء تم كما تريدون، وإذا لم أحضر فاعملوا ما تشاؤون.

ولم يزد كلمة بالرغم من إلحاح الجنرال دي لاموت والقومندان أرلابوس، ولم يقبل أن يعطي أيَّ وعد، وقال فقط:

ـ لا تضعوا شيئاً في صندوق السيارة!

وفجأة ارتدى معطف الفرو الجميل وودَّع بطريقة عسكرية، وهو يقول:

ـ قد أرجع إليكم غداً في مثل هذا الوقت لهنا!

ولكن مَرَّ الغدُ ومرَّ بعد الغد، واحتل الفرنسيون الأقضية الأربعة وحاربوا الشريفيين بعد ذلك بميسلون، حيث حضرت المعركة بنفسي، وترك فيصل دمشق وانهار عرشه فيها، ونوري السعيد لم يرجع لزحلة..

لم يرجع للموعد الذي كان قد ضربه للجنرال دي لاموت وللقومندان أرلابوس..

عندمَا ذهبنا للحرب في ميسَلون

كانت حالة المتطوعين وجنود الجيش الشريفي كحالة المسيحيين الأولين الذين رماهم نيرون قيصر الرومان، في جب الأسود، فمشوا أمامه، وهو جالس بجلاله ووحشيته على عرشه في مسرح الألعاب الأكبر، وحوله ألوف الرومانيين القادمين ليحضروا استشهاد المسيحيين الأولين بين أنياب الأسود الضارية..

مشى المسيحيون برباطة جأش وشجاعة أمام المنصة رافعين الأيدي قائلين: «السلام عليك يا قيصر! الذاهبون إلى الموت يُحَيِّونك!»

أولئك استشهدوا لدينهم أمام قاتلهم قيصر روما...

والمتطوعون جنود الجيش الشريفي استشهدوا أمام فيصل لما مشوا إلى مجزرة ميسلون، فداء للوطن والعروبة.

ولكن.. مع فارق هام، وهو أن فيصل لم يرسل أولئك المتطوعين إلى ميسلون. إن فيصل لم يكن يريد ميسلون. ولكن الفرنسيين هم الذين أرادوها، مع بعض زعماء دمشق!

كان بين أولئك الزعماء قلائل متحمسون يريدون ميسلون عن استشهاد وطني وعن فدائية مدهشة...

وكان بينهم آخرون يريدون ميسلون تواطؤاً مع المؤامرة الفرنسية!

انتقلت أكياس الذهب من زحلة إلى دمشق!

ذلك أن ميسلون كانت في جزء كبير منها مؤامرة فرنسية استخدم الفرنسيون في سبيلها تلك الأموال التي عرضها الجنرال دي لاموت على نوري السعيد وعلى سيده الشريف فيصل في تلك الليلة الدهماء في زحلة، كما تحدثنا سابقا.

كانت معركة ميسلون مؤامرة لدكِّ عرش فيصل بعد أن عاش طويلاً حتى ذلك الحين.

وعندما كانت الجيوش الشريفية تحتشد في الجانب الشرقي من تلة ميسلون، اشتمَّ فيصل رائحة المؤامرة، ولكن متأخرا!

وهنا تجب الملاحظة أن الكثيرين من الجانب السوري قد كتبوا بعد ذلك عن ميسلون، وكشفوا عن مقدمات معركتها أو بالحري مجزرتها، ونشروا بعض خفاياها وأسرارها، ولكن ما من أحد من الجانب الفرنسي الذي حارب بميسلون، قال ما يجب أن يُقال!

وظلت أسرار المعركة سراً في سجلات المكتب الثاني للقيادة العامة الفرنسية!

عندما عملني الفرنسيون مقاتلاً في ميسلون!

وأنا كنت بميسلون مع الجانب الفرنسي...

وكنت ملحقاً بالمكتب الثاني الفرنسي...

وكنت مطَّلِعاً بعض الاطلاع على ما كان وعلى ما جرى، أثناء تهيئة المعركة وأثناء وقوعها.

وكنت أعرف أن الفرنسيين وشركاءهم في دمشق جَرُّوا فيصل إلى المعركة جَرًّا...

تلك المعركة التي كان شهيدها الأكبر والمقدس والأغر المرحوم يوسف العظمة: يوسف العظمة الذي ذهب للمعركة وحده دون سائر القادة، مؤمناً بها وبوجوب خوضها، يتوقع هبوط قوة سماوية - قوة الحق الوطني - لتساعده على كسبها!

وكان فيصل وأكثر الأعوان وغير الأعوان، يسعون حتى آخر ساعة لتجنُّب المعركة مع الفرنسيين، وهم يعرفون حق المعرفة أنها إذا وقعت، فسيخسرونها تماماً، وذلك لتفاوت القوى بين الجانبين تفاوتاً لا يمكن تجاهله. فمن جهة الفرنسيين كان الجيش المنظم القوي المسلَّح بالأسلحة الضخمة. ومن جهة الجيش الشريفي كان الجنود والمتطوعون غير المنظمين وغير العديدين، وغير المسلَّحين إلا بسلاح بقايا الحرب العامة وجفوت الصيد والبنادق القديمة!

وإذا كان أمل يوسف العظمة في قوة من السماء تساعده على النصر، فأمل فيصل وأعوانه كان في تدخُّل الحلفاء وأخصهم الإنكليز في آخر دقيقة.

ولكن لا السماء أرسلت يومئذٍ قواتها تناصر الحق والوطنية اللذين كان بطل ميسلون يوسف العظمة يمثلهما بإيمان راسخ كالجبال، ولا الحلفاء تدخلوا. وقد كان

للفرنسيين الصوت الأعلى والمقام الأسمى عند المنتصرين في الحرب العامة، التي لم يكن مضى على نهايتها غير 18 شهراً فقط.

والفرنسيون ما حاربوا في ميسلون إلا بعد أن ضمنوا وقوف الحلفاء جانباً، وخاصة الجيوش الإنكليزية، التي كانت ما تزال تحتل بِخَيْلِها ورجالها سوريا ولبنان. وكان الشريفيون يتكلمون عليها ويفترضون أنها لن تتركهم في ميسلون يُحيّون قيصر ويموتون!

بل قد يكون الإنكليز ـ كما جاء في مذكرات الركابي باشا بعد ذلك ـ هم الذين دفعوا بالشريفيين إلى القتال...

ولكن إلى أين ذهبت أكياس الذهب؟

وهنا نرجع إلى تلك الأكداس الذهبية التي جمعها الجنرال دي لاموت بزحلة، بكميات كبيرة برسم نوري السعيد وسيده الشريف.

كان المقدَّر لتلك الأموال أن تذهب لدمشق، وبعد أن رفضها نوري السعيد كما أسلفنا، أو بالحري بعد أن وعد بالعودة لزحلة ولم يَعُدْ، صار من الضروري أن يقبضها غيره من الذين يستطيعون خدمة الفرنسيين في مشكلتهم ضد الشريف فيصل، فهي أموال كانت مخصصة لهذه الغاية، أياً كان الذي يقبضها!

وإذا كان نوري السعيد والعراقيون والحجازيون الذين رافقوا فيصل وكانوا درعه الأقوى لا يقبضون، فهناك ذوات كبار، وكبار جداً قبضوا!

فالقبض، خصوصاً القبض السياسي، يجد في كل حين له زبائن ـ حتى بين الذين يتصوَّرُهم الناس ملائكة لا يقبضون أبداً، ولو كانوا يتضوَّرون جوعا!

فتش الفرنسيون، وفي مقدمتهم الكولونيل كوس معتمدهم في دمشق تجاه الشريف وحكومته عن الساسة المتنفذين الذين يملكون زعامة الشارع، وانتقوا من بينهم أصحاب الكلمة المسموعة، وقالوا لهم أن يفتحوا جيوبهم!

وكثيرون من هؤلاء فتحوا جيوبهم، ثم أسرعوا ينادون بالحرب ويستفزون الشارع لوطنيته وكرامته، ويفرضون على فيصل القتال، مما لم يجد سيادته بداً منه، فهبَّت على سوريا روح الاستشهاد والفداء، وتوارد على مكاتب التطوُّع ألوف الشبان من أهل المدن والقرى، تتبعهم العشائر من البدو الرحل تلبي الدعوة على العمياء.

وأخذت الحماسة تطغى على كل حساب، حتى راح أكثر الناس تَعَقُّلاً ينادون هم الآخرون بالحرب متجاهلين ما كانوا يعرفونه من أن هذه الحرب ستنتهي بكارثة، وأن القائلين بها يحققون ما يتمناه الفرنسيون!

وكنا في المكتب الثاني للقائد الفرنساوي نراقب نجاح هذه المؤامرة على الشريف وعرشه وعلى استقلال سوريا، ونعرف أنه سيضطر إلى حشد جيوشه ومتطوعيه، فيكون هو البادئ المعتدي، ويكون الفرنسيون في حالة الدفاع عن النفس، يساعدهم على ذلك أولئك الساسة الذين ملأوا جيوبهم من ذاك الذهب الذي كان الجنرال دي لاموت قد أعدَّه.

وافتضح أمر المؤامرة وأمر بعض الساسة الذين أخذوا أكياسها الذهبية، بعد بضعة أسابيع فقط من معركة ميسلون، وذلك لمَّا شكَّل الفرنسيون بعد دخولهم لدمشق حكومة سورية معظمها من أولئك الذين اشتركوا معهم بالمؤامرة، فهبَّت العناصر الوطنية وأرسلت بعض الفدائيين يتربَّصون بأعضاء تلك الحكومة وبالساسة الذين رافقوهم لتدشين أحد المشاريع في حوران، في محطة خربة الغزالة، أو بالحري في قلعة الغزالة. وهناك صرع الفدائيون من صرعوا من الوزراء وغيرهم...

العشرة الذين لن أنساهم ما حييت!

ولكن ماذا جرى بميسلون؟

وماذا جرى قبل ذلك في الأقضية الأربعة؟

مشى الجيش الفرنسي بعد أن أخفقت محادثات زحلة، عندما ذهب منها نوري السعيد ولم يعد... ليحتلَّ الأقضية الأربعة.

وكان من الواجب قبل ذلك، أن يكون هناك استفزاز جديد من الجانب الشريفي، فوجد الجنرال دي لاموت حجة في حادث وقع في قرية تمنين التحتا، المجاورة لرياق، وكانت رياق مفترق الخطوط الحديدية وملتقى الطرق ومكتب قيادة المتطوعين الشريفيين، والمقر العام للمائة وخمسين عسكرياً شريفياً الذين كانوا يؤلفون نواة الجيش الفيصلي.

اعتدى أهالي تمنين التحتا، أو بالحري زعم الفرنسيون أن أهالي تمنين التحتا قد اعتدوا على المفرزة الفرنسية التي كان الجنرال دي لاموت قد أرسلها بالاتفاق نوعاً مع السلطات الشريفية لاحتلال مطار رياق العسكري. وكان الألمان قد أنشأوه أثناء

الحرب. ولما هربوا أمام الحلفاء وتركوا جميع أرزاقهم فيه ومنها بضعة سحاحير ملأى من العملة التركية الورق، وتركوا معها أسطورة تنكات الليرات العثمانية الذهبية والتي قيل إنهم لم يستطيعوا حملها معهم. فدفنوها في المطار أو حواليه، وظل السحرة والمنجِّمون والمغامرون وأهل الطمع إلى يومنا هذا ينقِّبون أرض ذاك المطار وجواره يفتشون عنها، وقيل إن بعضهم وجد قسماً منها وأخفاه، كما قيل إن لا بعضهم، ولا غير بعضهم، وجد منها حتى الآن شيئا!

وقرية تمنين التحتا قرية فقيرة، تقع على مفرق رياق واحتلها دون مقاومة، وكان المتطوعون الشريفيون من أهالي البقاع وسرغايا وبعلبك قد تجمَّعوا في مواقع جبلية يصعب الوصول إليها.

وفي رياق بدأت «العظة» الفظيعة الأولى..

كان من اللازم - بنظر القوات الفرنسية - أخذ المبادرة حالاً بإعطاء درس مخيف للمتطوعين ولأهالي الأقضية الأربعة الثائرين، ولكل من تحدثه نفسه بالوقوف بوجه الكاسحين.. وكان كاتب هذه السطور أول من اتَّعظ وارتجف وخاف واحتجَّ، مع أن الاحتجاج كان يمكنه أن يجر حالاً صاحبه للحبس وأكثر من الحبس...

لكن الكابتن هاك مندوب المكتب الثاني، والذي تولى إعطاء ذلك الدرس بأمر القيادة العامة، ضحك من احتجاجي، وخصوصاً من حالتي الزرية جداً، وأعطاني فرصة 24 ساعة، أعود بها لزحلة أرتاح، لعلي أنسى أثناءها الرعب الذي أصابني...

لقد أمر الكابتن هاك كوكبة من الجيش بالسير على تمنين التحتا، والقبض على أول عشرة رجال يلتقي بهم الجنود!

واستاق الجنود هؤلاء العشرة إلى رياق، وأمروهم أن يحفروا قبورهم، وذلك على جانب السكة الحديدية في منتصف النهار.

وعلى مشهد من مئات الأهالي، كان يقف كل واحد من أولئك العشرة المساكين في وسط حفرته، يتلقى الرصاص الذي أمر الكابتن هاك مفرزة افرنسية بإطلاقه.

ولم يطمر الفرنسيون الحفر العشر بالتراب، بل استدعوا جماعة من تمنين، وفرضوا عليهم طمرها بالتراب....

ومضت الآن أربعون سنة، ومنذ ذلك الحين حتى اليوم حَرَّمْتُ على نفسي التطلُّع إلى رياق، لأنني لم أستطع أن أنسى ذلك المشهد وتلك الفظاعة!

«الدرس» الثاني كان أشدَّ هولاً وفظاعة!

إنما كان ينتظرني بميسلون أكثر من ذلك...

مشى الجيش الفرنساوي بعد احتلال الأقضية الأربعة والمناوشات التي وقعت بين بعض الفرق وبين المتطوعين الشريفيين على طريق بعلبك، وفي وهاد راشيا وتلال البقاع الشرقي - مشى إلى حيث كان الجيش الشريفي والمتطوعون وأهل العشائر يتربَّصون له.

مشى بهيئة جناحين متصلين أحدهما بالآخر، من رؤوس الجبال في سفح جبل الشيخ حتى وادي الحرير ثم وادي القرن يسوق أمامه كلَّ من وقعت عليه عينه من محاربين أو غير محاربين، من رعاة أو من رجال العصابات يشدُّ عليهم الكماشة حتى جمعهم بالمئات في منفرج وادي الحرير المطل على وادي القرن.

كان عليه أن يلقي الدرس الثاني، طالما أن الدرس الأول في رياق قد نفع كثيراً، وجعل أكثر القرى في الأقضية الأربعة التي كانت تستعد للعصيان تلتزم السكينة والهدوء، وتذكَّر أهلها المثل الذي يعرفه القرويون جيداً في تلك الأصقاع الدائمة الحوادث والكوارث: «عند تغيير الدول احفظ رأسك».

وفي أعالي وادي الحرير، أي في فم وادي القرن المطل على هضاب ميسلون، كان الجيش الشريفي والمتطوعون السوريون يتربَّصون للفرنساويين، ليجعلوهم هدفاً لنيرانهم، وقد كان موقعهم أفضل «موقع استراتيجي» يمكن معه الدفاع عن طريق دمشق وعن دمشق نفسها، ولكن ذاك المركز الاستراتيجي المخيف لا يستطيع أن يدافع كثيراً إذا لم تكن مدفعيته كاملة، وعتاده كافيا!

والمدفعية والعتاد وأدوات الحرب والطيارات والأسلحة الحديدية كانت مع الفرنسيين مئة مرة أكثر مما كانت مع الشريفيين!

أضف إلى ذلك النظام العسكري الفرنساوي وشموخ أنف الفرنسيين المنتصرين رقم أول في الحرب الكونية، التي لم يكن مضى على انتهائها 8 أشهر.

صَفُّوهم على الطريق

قلنا، أراد الجيش الفرنسي إعطاء الأهلين «الدرس» الثاني الذي يجب أن يَتَّعِظَ به المتطوعون وأهالي القرى والدساكر الواقفون على سلاحهم الضئيل بين وادي الحرير ودمشق من وراء الأقضية الأربعة.

وعندما دفع الجناحان الفرنسيان هؤلاء الناس من متطوعين وغير متطوعين من أهل القرى الساكنة، من عصابات الجبال الهائجة، أصدر القومندان أرلابوس رئيس المكتب الثاني أوامره للجيش الفرنسي المحارب بأن يصطف جميع هؤلاء الواحد جنب الآخر على طول طريق ذاك المضيق المخيف، مضيق وادي القرن...

وهنا قضت الحاجة الاستعانة بترجمان يترجم، فالتفت القومندان أرلابوس نحوي، ولا شك أنه رأى في عيني شعور الخوف والرعب، وأنا أرتجف بحيث لا أستطيع أن أفتح فمي أو أن أقف على قدمي، فأشفق علي ولم يستدعني، مع أنه كان دوماً في أموره العسكرية بدون شفقة. واستدعى مكاني الكابتن خوري قائد مفرزة الجندرمة اللبنانية التي كانت قد أُلحِقَتْ به لمهمات تختصُ بالأمن العام اللبناني التابع للمكتب الثاني الفرنسي ثم قال له:

- قل لهؤلاء المصطّفين صفاً واحداً أن يقفوا حيث هم. وكل من يأتي بأية حركة، أو يحاول تبديل موقفه يطلق الجنود الرصاص عليه حالاً!

وهكذا كان، ولم يتحرك أحد!

وشعر المصطّفون، وشعرنا معهم، بطير الشؤم يحوم فوق رؤوسهم، وعرفوا أن المصير المخيف ينتظر أكثرهم..

درس في المدنية: الإعدام بالقرعة!

وهنا عمل الفرنساوي ما كان يزعم أن الألماني وحده يعمله، وألقى على الأهلين «الدرس» المخيف المطلوب!

أصدر أرلابوس أمره للكابتن خوري بأن يَعُدَّ الأسرى من الواحد للعشرة، وكل حادي عشر يضعه إلى جانب.

وظل القومندان خوري يعد العشرة والحادي عشر يفصله عن الصف ويضعه إلى جانب؛ حتى صار عنده من هؤلاء خمسين، فأحاط بهم حالاً الجنود الفرنسيون من كل جانب، وقال أرلابوس للباقين أن ينظروا ماذا سيكون..

ووقع عندئذٍ الشيء الفظيع! رشَّ العسكر الفرنساوي برصاصه الخمسين الذين وقعت عليهم القرعة، ودرزهم درزاً فسقطوا جميعا..

وبعد ذلك قال أرلابوس للباقين:

الآن أنتم أحرار فاذهبوا وخَبِّروا بما شاهدتم ورأيتم وسمعتم..

وعندئذٍ ما عاد أحد من هؤلاء يعرفُ كيف يتسلَّق الجبل ويهرب، وبعد ذلك يجب أن يكونوا خبَّروا بما شاهدوا وسمعوا ورأوا..

وبعد أن دكَّ الجيش الفرنسي بمدافعه وقنابله وطياراته هضاب ميسلون، لم يجد في طريقه من وادي القرن لدمشق شخصاً واحداً في القرى والدساكر التي مرَّ بها. لقد هجرها أهلها..

وماذا جرى ذلك المساء في دمشق!

وفي ذلك المساء، مساء 24 تموز 1920 احتفل الفرنسيون بدمشق بانتصارهم.

وفي ذلك المساء كان أصدقاؤهم من السوريين، الذين كانوا قبلاً يتظاهرون بالسباب والوعيد والتهديد، كان هؤلاء يتقرَّبون بالخفاء إليهم..

وفي ذلك المساء كان فيصل، الملك المخلوع، ولكن سيد العرب يومئذٍ بالرغم من الكارثة، يرحل في الطريق التي قادته إلى عرشه الجديد في بغداد!

وفي اليوم الثاني أو الثالث، كان أكثر السوريين الذين دعوا لحرب ميسلون وأقسموا على موت الفرنسيين يتعاونون مع المحتلين البغيضين، يقبلون الوزارات والحاكميات، ويقبلون خصوصاً الأموال والعطايا..

ويحضرني لهذه المناسبة حديث سمعته بعد عشرين سنة. فقد أقام رياض الصلح رئيس الوزارة اللبنانية، مأدبة على شرف زميله العراقي نوري السعيد في فندق نورماندي سنة 1944. وتناول الحديث ذكريات دمشق وميسلون، فسمعت نوري يقول لرياض:

- لمَّا غُلِبَ فيصل على أمره ونادى بالحرب بالرغم من كل ما عملناه لمنعه من إعلانها، كان هَمِّي الوحيد مع بعض رفاقي من الضباط العراقيين والحجازيين أن نتدبر له ولنا سبيل الانسحاب نحو العراق، وكنّا، بالوقت نفسه، نهيئ له عرشاً جديداً في بغداد يكون حاضراً عندما يصل إليها!.

مشايخ عن صحيح .. ومشايخ عن كذب!

المشيخة بلبنان عند النصارى والدروز لقب شرف، ولكن بدرجات متفاوتة جداً، تنحدر نزولاً ولا تصعد صعودا.

وهذه المشيخة بلبنان لها تاريخ، وقد كان أصحابها الأوَل نوعاً من الإقطاعيين الأقدمين من أصحاب الوجاهة والمقام. وكان بعضها مغتصباً ومضحكاً لا يمت للنبلاء بشيء.

والمشيخة بأجمعها - صحيحة كانت أو كاذبة - لا تميِّز اليوم حاملها بشيء عن باقي الناس سوى باسمها، وهي في جبل لبنان على أربعة أنواع، أولها «مشيخة السيف»، أي التي كسبها أصحابها بقوَّتهم وتاريخهم في النضال اللبناني والأعمال العنترية والغزو العشائري:

ومشايخ السيف لا يزيدون عن العشرة في لبنان، ومنهم مشايخ آل الخازن في كسروان، الذين كانوا منذ ثلاثة أجيال قناصل فرنسا الفخريين، ويحملون من الملك لويس الرابع عشر لقب الكونتية.

ومشايخ آل حبيش الموارنة من كسروان أيضاً، وهؤلاء كانوا مقرَّبين للعثمانيين، وكان أحدهم الشيخ طالب حبيش، جد الرئيس الجنرال فؤاد شهاب لأمه ياورا عند السلطان عبد الحميد، وكان أخوه قنصلاً عاماً للسلطان بباريس.

ومشايخ السيف عند الدروز هم آل جنبلاط بوجه أولي ثم آل العماد، ثم آل تلحوق وآل القنطار والعريان ونكد.

وليس بين السنيين المسلمين ولا عند الشيعة بجبل لبنان مشايخ سيف.

مشايخ العلم

والنوع الثاني من المشيخة هو مشيخة العلم. ومشايخ العلم كثيرون ولقبهم موروث أباً عن جد أيضا.

ومنذ مئة سنة كان يكفي أن يعرف الإنسان الكتابة والقراءة، أو أن يكون معلم مدرسة، أو يطبع كتاباً، حتى ينال لقب شيخ ويرث أولاده وأحفاده هذا اللقب بطريقة أوتوماتيكية.

يجب القول إن معظم العائلات التي تحمل لقب مشيخة العلم، لم تتمتع في عهد العثمانيين ومتصرفية لبنان الممتازة بأية ميزات سياسية واجتماعية، ولكنها كانت تجعل حاملها على نوع من الوجاهة بين أقرانه وأهل بلده.

مشايخ الأكل

والنوع الثالث من المشيخة هو مشيخة «الطبق». وكلمة طبق تعود إلى طبق الطعام المدود، والمقصود بها مشايخ الكرم والجود.

ففي الماضي كان أهل الدار الأثرياء يصفّون ألوان الطعام على طبق ويجلسون على السجاجيد حوله. والبيوت التي كانت تفتح أبوابها أمام الضيوف وتُجْلِسهم حول طبقها، نال أصحابها على مدى الأيام لقب مشايخ طبق.

والبيوت التي لا تزال تحمل حتى الآن لقب مشيخة طبق موجودة بكثرة في قرى ودساكر جبل لبنان، ومنها مشايخ آل الجميل، ومنهم بطرس الجميل مثلاً، رئيس الكتائب والوزير ادمون كسبار وسعيد طوق وحبيب كيروز النائبان الجديدان عن بشرّي، وبشارة الخوري رئيس الجمهورية الأسبق. وقد كان أجداده يحملون لقب مشيخة طبق ومشيخة العلم معا.

ومشيخة الطبق أضاعت منذ زمن بعيد شأنها ووجاهتها.

وكثيرون من أصحابها تخلَّوا عن حمل لقبها وأهملوها حتى عهد الانتداب، عندما برز الشيخ بشارة الخوري، وأخذ يرفق اسمه في كل مكان بالكتابة والحديث بلقب شيخ، بعد أن كان والده خليل بك الخوري، وأهل أسرته في عهد الأتراك، قد تخلَّوا عن هذا اللقب ونسوه تماما.

وحتى الشيخ بشارة، الذي أحيا من جديد لقب المشيخة لم يكن يهتم بهذا اللقب، حتى اليوم الذي جاء فيه رئيساً للوزارة في بداية عهد الانتداب حوالي سنة (1925) أو بعدها بقليل، فكان أول من عاد إلى لقب الشيخ وبطريقة لبقة وشخصية بارزة جعلتا للقب مكاناً وجلالاً لم يكن يعرفهما من قبل حتى في أيام عز المشايخ.

وبعد أن رفع الشيخ بشارة قيمة المشيخة بشخصه ومنصبه، فتَّش كل لبناني بين أهله وأقربائه عن أجداده من المشايخ وراح يبحث عن أية مشيخة يحمل لقبها.

ومنذ ذلك الحين أخذ عدد المشايخ على أنواعهم الأربعة يزداد يوماً عن يوم؛ حتى أصبح اللقب منتشراً بكثرة تكاد تجعل الناس يحارون!

وعلى كلّ، فالبلاد لن تخسر شيئاً بعودة المشيخة لجميع هؤلاء الذين يحملونها الآن، كما وأنها لم تربح شيئاً؛ فلقب شيخ مثل وسام الاستحقاق اللبناني تماماً لا يعطي حامله أقل ميزة عن غيره، سوى أن غيره لا يحمل زراً في عروة جاكيته وهو يحمل الزر.

مشايخ القرى

وفي كل هذا لا ننسى النوع الرابع من المشايخ، وهم مشايخ الصلح، والمشايخ من هذا النوع هم العدد الأكبر بين حملة اللقب.

كان شيخ الصلح في أيام العثمانيين في عهد متصرفية جبل لبنان الممتازة نوعاً من عمدة الضيعة، أو ما نُسمِّيه نحن الآن مختار الضيعة، موظفاً يجبي الضرائب ويبلِّغ المذكَّرات، ويفض المشاكل باسم الحكومة، ويشترك بانتخاب أعضاء مجلس الإدارة.

وكان أغلب الأحيان أولاد شيخ الصلح - عندما يموت يرثون بطرقهم الخاصة لقب والدهم، ويأخذ الناس ينادونهم مشايخ، دون أن تكون لهم وظيفة والدهم، شأنهم هكذا شأن عائلات آل الخوري المتعددة جداً والكثيرة الأجناس والطبقات في جبل لبنان، والتي لا تمتُّ الواحدة منها إلى الأخرى بصلة.

وما من قرية إلا وفيها على الأقل ثلاث أو أربع عائلات «خوري» لا نسب بين بعضها البعض، فكل خوري متزوج وعنده أولاد تصبح عائلته بعد ذلك معروفة بآل الخوري، لهذا، فكل عائلة تحمل اسم «خوري» في لبنان، تكون قد أخذت كنيتها على الخوري المتزوج الذي تنحدر منه، ومثل ذلك يكون معظم الذين يحملون كنية شيخ في جبل لبنان، من أحفاد مشايخ الصلح السابقين في القرى.

* * *

وبعد أن صنَّفنا المشايخ إلى أربعة أصناف، نقول إن هناك مشايخ ومشايخ، كما أن هناك حلوات وبشعات، وكما أن هناك حريراً وخاما!

ويجب الملاحظة أن أكثر هؤلاء الذين يحملون لقب شيخ بافتخار واعتزاز، ويتظاهرون بأنهم لم يسمعوك إذا ناديتهم بدون أن ترفق النداء باللقب، يجب الملاحظة أن هؤلاء معظمهم وأكثريتهم من المشايخ «الأكنجي» من المشايخ العيارة.

ولا شك أن المشايخ الأصليين الذين أخذ أجدادهم المشيخة بحدِّ السيف وبالزعامات يفوقون كثيراً في أطباعهم، وحتى في هيئاتهم وعاداتهم، أولئك الذين يحملون لقب شيخ عن وجاهة مستحدثة، أو لأنهم أحفاد مشايخ الصلح في القرى.

فالمشايخ الخازنيون مثلاً، لهم بوجه خاص ملامح تختص بهم، يتشابهون فيها بين بعضهم البعض، وعندهم الكلمة الحلوة الظريفة كشيء طبيعي يكتمل فيهم، وقلَّما تجد بينهم من ليس حديثه فكهاً ولسانه طروباً وقوله مستظرفا.

وهناك شيء أكثر وأغرب من ذاك: هناك السمنة في الجسم التي تمتاز بها الشيخات، كأن السمنة أو البدانة من مستوجبات المشيخة، تزيدها وقاراً وجلالا!

والشيخة التي ليست ضخمة الجسم نوعاً، مع حلاوة طبيعية تكون عادة من الأهالي لا من المشايخ!

وطبعاً هناك بعض الشيخات الشاذات عن هذه القاعدة.

والشيخات الأصليات، الخازنيات والحبيشيات والجنبلاطيات وغيرهن، هُنَّ أول من أخرج المرأة من وراء الحجاب والحريم وأدخلها في الحياة العامة، وكان ذلك قبل أن تعرف اللبنانيات شيئاً من مشاركة الرجال بالحياة العامة كما وصلت الحال بالنساء اليوم.

ومنذ مئة سنة ونيف، عندما كانت المرأة العادية اللبنانية متعة وخادمة بالمطبخ والتنور، كانت الشيخة عمشة القنطار تحكم زحلة والبقاع بالسيف والنار، وكانت سعدى بنت المير بشير تشارك والدها بالحكم، وكانت الخازنيات في كسروان يظهرن مع المشايخ في التجمعات العامة، ويعطين آراءهن ويجادلن ويناقشن الرجال مناقشة الند للند.

وكان كل شيخ يحرص على الزواج بشيخة تعرف كيف تجابه الرجال والسياسة، وتحمل السيف والرمح عند اللزوم. وتجعل كلمتها الكلمة المسموعة!

قلنا، كان ذلك عندما كانت المرأة اللبنانية خادمة قعيدة في البيت، لا شأن لها اجتماعياً ولا وطنيا.

وهكذا يمكن الجزم أن أول من حرر المرأة اللبنانية العادية هُنَّ شيخات البيوت اللبنانية الكبرى القديمة.

وقد كانت الست نظيرة شيخة قصر المختارة، ووالدة الزعيم كمال جنبلاط، آخر وأقوى وأقدر وأنبغ من عرفنا بين الشيخات، وقد تركت لنجلها ولنساء لبنان إرثاً عظيماً من الشجاعة والجرأة جعلت الكثيرين من الزعماء الدروز يَستظِلُّون ظلَّها، بعد أن كسفت هي شموسهم وخفت أقمارهم.

* * *

ومع الزمن، وبعد هذه الفوضى القائمة الآن في الألقاب أصبح لقب شيخ تقريباً مثل لقب «بيك» يحمله كل من أراد، ويجد أناساً ينادونه به، ومع الزمن يلتصق اللقب به.

وهذه حال المشيخة مع خمسةٍ وتسعين بالمائة من الذين يحملون لقبها، منهم مشايخ مزيفون، ولكن على طول الزمن أصبح اللقب لاصقاً بهم!

* * *

والألقاب في لبنان مدعاة للتلاعب، خصوصاً منذ عهد الانتداب حتى الآن.

ومن منا يعرف أي المشايخ هو شيخ حقيقي، وأي البكاوات بيك حقيقي...

ولا نتكلم عن الأمارات على اعتبار أنها من الألقاب التي لا يمكن التلاعب بها بسهولة.

فالأمارات في لبنان معدودة محدودة متأصلة لا يمكن الزيادة فيها أو الانتقاص منها بسهولة.

فهناك الأمراء الشهابيون، والأمراء اللمعيون والأرسلانيون وهناك أمراء الحرفوش في بلاد بعلبك.

والأمارة، هي الأخرى متنوعة كالمشيخة.

فالأمراء الشهابيون مثلاً كانوا حكاماً، وكان الأمراء من الأسر الأخرى رعايا عندهم. وكان أمراء الحرفوش وحدهم حكاماً في بلادهم بعلبك.

والآن يمكن القول إن المشايخ - مشايخ السيف أو الطبق أو العلم أو الصلح، الذين دخلوا هذا المجلس سيجدون في النيابة قوة تجعلهم يُبرزون مشيختهم الخارجة من سباتها عن جديد، ليجعلوها ذات قيمة ومنزلة، كما فعل بشارة الخوري عندما جاء بها إلى السراي وأسبغ عليها بشخصيته القوية مكانة عادت بها إلى منزلتها الأولى أيام الأمراء التنوخيين والشهابيين، عندما كانت المشيخة رتباً رسمية ترفع صاحبها عن العامة وتجعله في صفوف النبلاء والأمراء وأرباب الدولة.

ولا شك في أن الشيخ النائب الذي يريد أن يعزز مشيخته كما عززها بشارة الخوري، لن يترك وسيلة لتعزيزها إلا ويتبعها.

ولا يمكننا القول إن جميع المشايخ الذين دخلوا المجلس النيابي سيلبسون عباءة المشيخة «فتلبق» لهم ولا تظهر وكأنها مستعارة وفضفاضة عليهم. ولكن على كل حال، يمكن القول إن الكثيرين من المشايخ الذين صاروا نواباً سيُثْبِتون أنهم مشايخ من صحيح.

كلامٌ عَن عرشٍ في لبنَان

منذ سنة 1935، لم نسمع بحديث الملكية في لبنان، حتى لما تولى رئاسة الجمهورية عندنا اللواء الشهابي، حفيد الأمير بشير...

جميع النواب الذين حملتهم الانتخابات عام 1960 إلى المجلس ينتمون إلى كتل متضاربة في الميول، ما ظهر منها وما خفي. ولكن يجمعهم أمر واحد: هو أنهم يدخلون المجلس تحت لواء الجمهورية، هذا إذا كانت الجمهورية تجمع شيئاً!

ولمّا خطر لي هذا الخاطر، لحقه خاطر آخر: أتراهم حقاً جمهوريين؟ أم يكون بينهم ملكيون، وهم لا يدرون؟

وجرّني هذا الخاطر إلى خاطر ثالث، إلى ذكرياتي عن المحاولات التي جرت قبل اليوم في لبنان لإنشاء نظام ملكي!

الحزب الملكي الأول

وأول مرة تحدث فيها الناس هنا عن عرش بلبنان، كان ذلك في سنة 1924، لما شكل حبيب البستاني، ذاك السياسي المرن، الموصوف بالأديب الكبير، الحزب الملكي في لبنان، وهو حزب اقتصر كثيراً لدرجة كنا نهزأ به، ونقول إن حبيب البستاني هو رئيس الحزب وهيئته وأعضاؤه.

وربما كنا مخطئين في قولنا هذا لدرجة ما، إذ كان هناك عدد من السياسيين وأهل القلم، ومنهم الشاعر والكاتب الكبير شارل قرم يشارك حبيب البستاني فكرة إقامة عرش بلبنان، دون أن يشترك بحزبه، وذلك لأن شارل قرم كان يومئذٍ حاملاً لواء «الفينيقية» وصاحب مجلتها المشهورة والقائل بلبنان الفينيقي مباشرة، لا صلة له بالفرنجة ولا بالعرب!

وكان شارل الفينيقي يُحبِّذ قيام الملكية بلبنان ويفتش عن أصحابه الأصليين.

وكان أيضاً اميل اده وأيوب ثابت، وحتى الأمير فؤاد أرسلان والشيخ يوسف الخازن، وحتى اميل ثابت وحبيب طراد، يفتشون مع شارل قرم على سليل لحيرام ملك جبيل الفينيقي، ينادون به ملكاً على لبنان.

وكان حبيب البستاني رئيس الحزب الملكي يقول مع حزبه بقيام عرش في لبنان يعتليه أجنبي من أمراء الدول الغربية المحايدة.

وكان بعضنا يتساءل، إنما من بعيد جداً:

- إذا صار عندنا عرش، فلماذا نذهب بعيداً، وماذا يعمل أحفاد أمرائنا الشهابيين؟

وكان بعضنا يقول وأخصهم من المسلمين:

- إذا صار في لبنان عرش فلماذا لا نأخذ أحد الأمراء العرب؟

وهنا كانت الأنظار تتجه بالأكثر نحو أمير من الشرفاء أبناء الملك حسين الذي كان يوزِّع أبناءه بكل سهولة ملوكاً في البلدان العربية، دون منازع ولا صعوبة.

وظللنا نسمع من هنا وهناك، ولكن بصورة متقطعة حديث قيام عرش بلبنان، حتى مات حبيب البستاني، ومات حزبه الملكي معه، فانطفأ خبر العرش، مما أثبت أننا كنا نقول الحقيقة عندما نقول إنه هو رئيس الحزب وأعضاء الحزب وهيئة الحزب!

إبن عياد

ومضت بعد ذلك أربع سنوات، مشت فيها الجمهورية اللبنانية إلى الأمام، وما عدنا سمعنا في خلالها أي شيء عن عرش في لبنان، حتى طلع علينا الفرنسيون المنتدبون ذات يوم من شهر نيسان سنة 1927 بحكاية إبن عياد، الأمير التونسي العربي الأرستقراطي، يريدون التخلص منه في تونس ومن مطالبته بعرش، حيث كان يناوئ سياستهم، فرشّحوه لعرش أميري بلبنان.

وأخذت دوائر الاستخبارات والدعاية بالمفوضية السامية تجسُّ النبض وتدعو لمشروعها بالخير، محاولة إقناع السياسيين اللبنانيين باعتناقه. وهكذا فتح باب العرش في لبنان من جديد، إنما هذه المرة على نطاق أوسع!

نابليون الثالث الجديد

وقال الأمير جورج لطف الله، سيد قصر الجزيرة بمصر، والحديث النعمة في الثروة والجاه والإمارة الحجازية وقال: لماذا إبن عياد، وليس أنا؟

وجاء للبنان بجنيهاته وعبيده السود وحاشيته التي تأكل الأخضر واليابس، وجواريه المتعددات الجنسيات والألوان، وأطماعه السياسية البعيدة المدى، ونزل في

قصر الوجيه السرسقي إلياس إبراهيم سرسق، فجعله ملتقى الشعوب والأمم الطامعة بأمواله الكثيرة.

وكان صديقه الصحفي الفرنساوي الذائع الصيت بمصر والبلدان العربية المسيو انكيري قد قرأ عليه تاريخ لويس نابليون بونابرت وقال له أن يعمل مثله، أي يعمل رئيس جمهورية بلبنان، وبعد أن يستتب له الأمر يقلب الرئاسة إلى إمارة وملكية، ويقيم له عرشاً في هذا البلد يخلفه فيه أولاده وأولاد أولاده مدى الدهور.

وكان الأمير جورج لطف الله قد امتلأ بفكرة العرش، وتيقّن من إقامته له والتربُّع فيه، لدرجة جعلتنا نحن الصحفيين والسياسيين الذين كنا نحوم كالنحل حول صناديقه، نغدق عليه جميع الألقاب الملكية، حتى وصل الداعي بنوع خاص لإعطائه لقب صاحب السمو الملكي المونسنيور جورج لطف الله مما كلَّفه مبلغاً محترما.

وعلى الأغلب أنه بعد أن أخفق وفشل في كل شيء، تعزى عن الملايين التي دفعها في سبيل العرش الموهوم بهذه الألقاب الجميلة التي ظل حتى آخر ساعة من حياته يحتم على المتحدثين معه مخاطبته بها!

الخديوي عباس

ولما كانت القابلية تأتي مع الأكل، جاءت قابلية الخديوي عباس حلمي، وكان الإنكليز في بداية الحرب الأولى قد خلعوه عن عرش مصر، وأخرجوه من أراضيها فالتجأ لسويسرا مع ملايينه المتعددة الكثيرة، ومع أمجاده الماضية.

جاءت القابلية مع سموه، وقيل يومئذٍ إن صديقه ومستشاره الخاص الكاتب اللبناني المعروف اميل الخوري ناسك برمّانا اليوم هو الذي لوّح له عن بعيد بعرش لبنان فتراءى لسموه براقاً باهراً سهل المنال!

ولكن حين سألنا الأستاذ الكبير عن حقيقة هذا الخبر، فأجاب أنه بالعكس أجهد نفسه لإقناع الخديوي عباس بالرجوع عن فكرة المطالبة بعرش له بلبنان، ولكن سموه لم يقتنع!

وهكذا ذات يوم من سنة 1938 شد سمُوُّه الرحال من جنيف لبيروت ينزل فيها على الرحب والسعة في فندق «نيو رويال»، فوق مربع الكيت كات، حيث جعل مقره العام.

وتغدينا مراراً مع سموه خلال الأيام الثمانية التي قضاها هنا، وذلك على مائدة الأريحي الكبير وصديقه الحميم المرحوم نقولا إبراهيم سرسق في قصر الأخير، وهو القصر الذي وهبه في وصيته لبلدية بيروت لتجعله متحفاً، فجعلته السلطات اليوم قصر الضيافة.

وتحدث سمُوُّه أمامنا عن أطماعه بعرش في لبنان، يساعده الفرنسيون والأهالي على إقامته، وأفهم الجميع أنه جاء للبنان يقيم استفتاء فيه، يطلب من الأهالي ترشيحه للعرش، لا أن يرشح هو نفسه له!

وعندما جئنا أمامه على ذكر مغامرة الأمير جورج لطف الله وفشله فيها قال بكبر وعزة:

- ولكن السي جورج لطف الله (ولم يقل الأمير) كان أحد رعايانا العاديين، ونحن تعوَّدنا على العرش!

وطبعاً اجتمع حول سمُوُّه عدد من السياسيين والصحفيين يشجعونه على المضي في مشروعه، وهو يتساءل ويتساءل، حتى جاءت حكاية المال وما يتوجب على سموه صرفه. وكان سموه يحب الحسابات كثيراً، ويحب المال أكثر وأكثر، فلا يجازف بجنيه واحد، مع كل ما عنده من ملايين وملايين الجنيهات. وأخيراً وعندما رأى بفكره الثاقب وتقديره السامي أن الحكاية حكاية مال، وأنه إذا صرف منه ليس هناك ضمانة مسوكرة توصله للعرش، أخذ يتراجع!

ولما وجد أنه لم يعد بالإمكان إلا فتح الجزدان، ضَبَّ شنطه ذات ليلة وسافر سراً عند الفجر، قبل طلوع الشمس، ودون أن يودع أحداً، وبعد أن كان قد أعطى مواعيد لمقابلته قبل ظهر ذاك الصباح، صباح السفر.

ومع ذهاب الخديوي من هنا انتهى، من جديد، حديث العرش بلبنان، وهرب الخديوي من الطامعين بفلوسه!

وهكذا يكون سمُوُّه في مغامرته هذه قد فعل بعكس سلفه السي جورج لطف الله، إذ جاء للبنان ولم يعط جنيهاً واحداً في سبيل ذلك العرش الخيالي. ولم يتكلف سمُوُّه غير مصاريف السفر بين جنيف وبيروت، وبين بيروت وجنيف.

ولم يتعرف أحد من الأهالي هنا، من سماسرة السياسة وغيرهم، على فلوسه!

حكاية العرش جدية!

وأخذت الأيام تُطوى والجمهورية اللبنانية، السعيدة حيناً والتعيسة أحياناً، تمشي ساعة ركضاً وساعة زحفاً، حتى عيَّنت باريس عندنا مفوضاً سامياً اسمه المسيو غبريال بيو. وقد كان نجله سنة 1957 سكرتيراً أول ممتازاً ومحبوباً بالسفارة الفرنسية ببيروت.

وكان غبريال بيو متزناً هادئاً رصيناً، يحكم بسكون وطمأنينة، ويعيش بالعكس عن سلفه المسيو دي مارتل، عيشة عزلة واعتكاف في مكاتبه بقصر الصنوبر أو بالسراي الكبير.

وكان بيو بروتستنتياً، لا طائفياً فقط، بل اجتماعياً وأدبياً. يتكلم قليلاً، ولا يهزل بالمرة، مفتش عن التقشف والعيشة البسيطة، معتكف في منصبه العالي الذي كان قد بقي فيه طويلاً لولا أن الحرب العالمية جعلت الحكومة الفرنسية تستدعيه لباريس لترسل إلينا مفوضاً سامياً عسكرياً، هو الجنرال دانز.

وفي باريس، وفي عزلة ريفية، كتب غبريال بيو مذكَّراته عن سوريا ولبنان، وقد صدرت أخيراً وهي تعد أكثر المذكَّرات السياسية عن بلادنا حقيقة وصحة.

وقبل نشر هذه المذكَّرات وعنوانها «سنتان في سوريا ولبنان»، لم يكن غير القليلين من الناس يعرفون أن غبريال بيو كان أيضاً ملكياً، وكان يريد ويعمل لإقامة عرش في لبنان!

وجاءت مذكراته تعطي الناس فكرة عن هذا المشروع القَيِّم الرصين، الذي وضعه ذلك المفوض السامي القَيِّم الرصين أيضا!

ملك أسوج!

ويقول غبريال بيو المفوض السامي الفرنسي في مذكَّراته صفحة 67، ما يلي:

«اضطررت بدافع الحرب التي قامت أن أترك لبنان قبل أن أحقق فيه وفي سوريا النظام الملكي الذي كنت أجده الأفضل لهذه البلاد، وهو النظام الذي يوافقهما موافقة أكيدة. ففي سوريا ولبنان تلاقت على مرور العصور منذ العهد الفينيقي حتى الآن جميع الشعوب من يونانية وفرعونية وفارسية ويهودية وتركية، ثم افرنسية ونوعاً ما إنكليزية، فكانت سوريا ولبنان تلبسان على التتالي لباس تلك الشعوب، مما جعلهما

دوماً حائرتين مترددتين غير مستقرتين. وهذا يدعو، ولا شك، لإقامة نظام مستقر جامد فيهما، أي نظام ملكي محض، وليس نظاماً جمهورياً يتبدل ويتغير بتبدل رؤسائه وحكوماته!».

«بهذا كنت بالاتفاق مع بعض الأوساط الفرنسية العليا قررت أن أقلب الجمهورية في البلدين إلى ملكية، أو على الأقل إلى إمارة لا يعتلي عرشها في لبنان لا هاشمي ولا سعودي، ولا أمير من مصر ولا باي من تونس، ولكنْ ملك مسيحي، إذ أن السبب الحقيقي في وجود لبنان منفصلاً عن البلدان المجاورة له هو أنه أصبح آخر ملجأ للمسيحية في هذا الجزء الكبير من العالم وملتقى الطرق بين الشرق والغرب».

«إنني بروتستنتي المذهب ولكنني لست مُستَعْبَداً للطائفة ولا مسوقاً بتقاليدي وارتباطاتي المذهبية الطائفية. ومع ذلك كنت أفضّل أميراً أو ملكاً بروتستنتياً يعتلي عرش لبنان مثلاً أحد أمراء برنادوت الأسوجيين. ذلك لأن البروتستنتي بطبيعة معتقداته الحرة الطليقة، يستطيع أن يكون الحكم بين أهالي هذين البلدين، اللذين يضرب فيهما الانشقاق الطائفي والديني ضرباً ذريعا».

«ولقد أثبتت لي خبرتي، وأنا ألعب دور الحكم في هذا الشرق، ضرورة استدعاء أمير يتولى حكمه، على أن يكون أميراً طليقاً حر المعتقد، يكون بعيداً عن الأكثرية الطائفية كالموارنة والمسلمين، فوق المنازعات الطائفية المتعصبة الشديدة، في حين أن ملكاً أو أميراً كاثوليكياً - مهما كان طليقاً - يبقى يفضِّل أبناء طائفته على أبناء الطوائف الأخرى!»

«وكذلك لو جاء ملك أو أمير مسلم سُنِّي، فإنه يبقى هو الآخر تحت تأثير طائفته، ويكون مضطراً عند الحاجة أن ينحاز إلى المسلمين، يفضِّلهم على باقي رعاياه. ويمكن قول الشيء ذاته عن أي ملك أو أمير أرثوذكسي».

«ونص مشروعي على أن يتحالف ذاك الملك أو الأمير بلبنان أو بسوريا مع فرنسا تحالفاً دائماً، ويستعين بالأخصائيين السياسيين والماليين والعسكريين والفرنسيين لإدارة الأحكام».

«وقد اعتقدت، وما أزال أعتقد، أن نظاماً من هذا الشكل هو الطريق الوحيد للاستقرار في البلدين، يضمن لهما مستقبلاً باهراً جميلاً وتعاوناً كاملاً بين جميع طوائفهما، ويؤكد تآخي الإسلام مع المسيحية تآخياً صادقاً مخلصا».

أما اليوم..

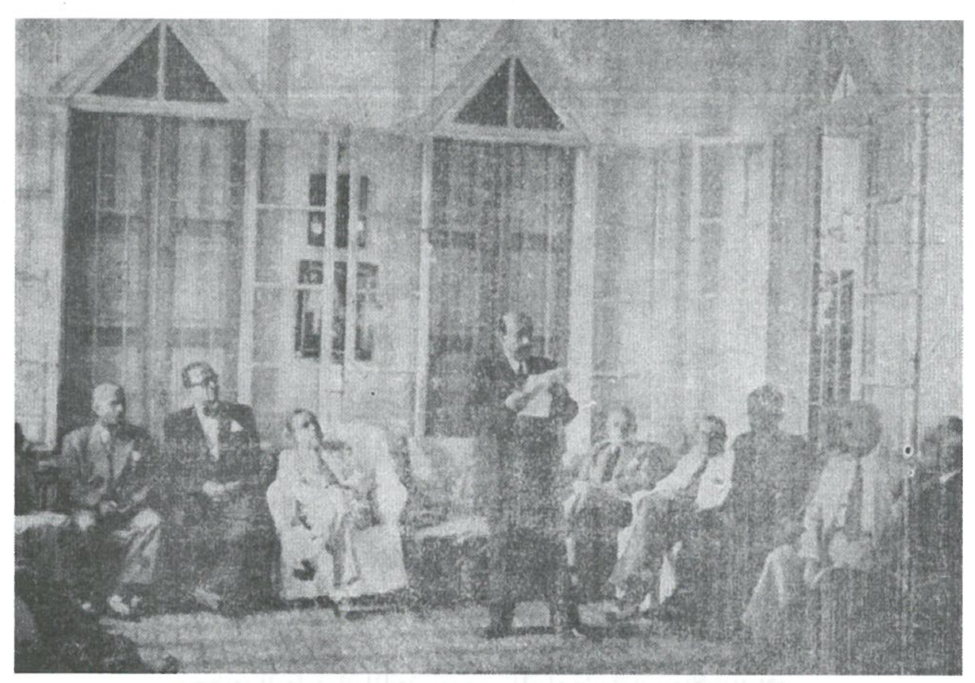
ولا شك أن حكومة باريس كانت على اطّلاع بمشروع ذلك المفوض السامي. من كلامه، وما كتبه بهذا المعنى، يتضح أنه لولا وقوع الحرب، فإنه كان يأمل كثيراً في تحقيقه!

كيف؟ وبأية طريقة؟

هذا ما لم يقله في كلامه، وما لا يمكننا أن نعرفه تماماً. لقد كنا نسمعه حيناً - وقد كنا من المقربين إليه - يتكلم عن مشروعه الملكي هذا، ولم يكن يتحفظ فيه، ولكننا لم نكن على اطلاع تام، لا نحن ولا أخصّاؤه، فيما إذا كانت حكومة باريس تعرف بهذا المشروع وتصادق نوعاً ما عليه أو على جزء منه.

والآن، وبعد عشرين سنة من ذلك، هل في لبنان حديث عن نظام ملكي من جديد؟

لا أظن، آخر من تكلم عن مثل هذا النظام في سوريا ولبنان هو فقط المسيو غبريال بيو. وبعد ذلك ما عدنا سمعنا شيئاً عنه.

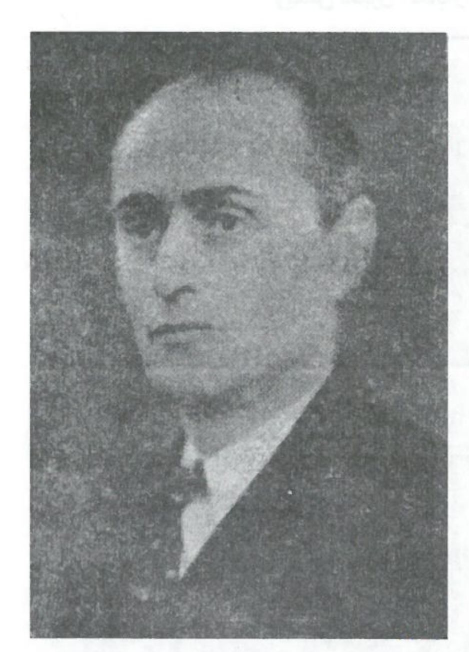


المفوض السامي الكونت دي مارتل يلقي خطاباً بمناسبة انتخاب اميل اده رئيساً للجمهورية.



فخامة الرئيس اللواء فؤاد شهاب

الذي يأمل اللبنانيون أن يكون عهده عهد لبنان الذهبي



الرئيس ألفرد نقاش جاءته الرئاسة

دون أن يطلبها



الجنرال غورو يعلن قيام لبنان الكبير في تموز 1920 على مدخل قصر الصنوبر
بحضور البطريرك الماروني ومفتي المسلمين وكبار رجالات البلاد،
ويعلن تعيين الكابتن ترابو حاكماً للبنان الكبير.



المفوض السامي الجنرال ويغاند الذي صادق الجميع.



الجنرال سرايل الذي حارب الأكليروس والبطريركية



الجنرال سرايل على درج قصر الصنوبر في طريقه لحضور القداس ومصالحة البطريرك



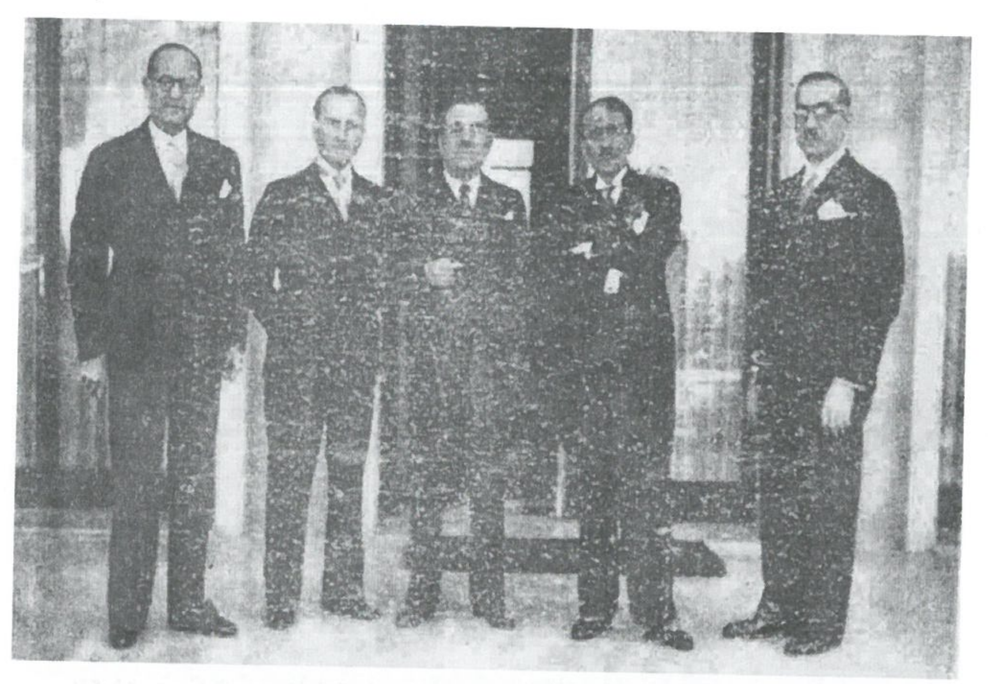
المفوض السامي الكونت دي جوفنل الذي أذاع الدستور وأعلن الجمهورية



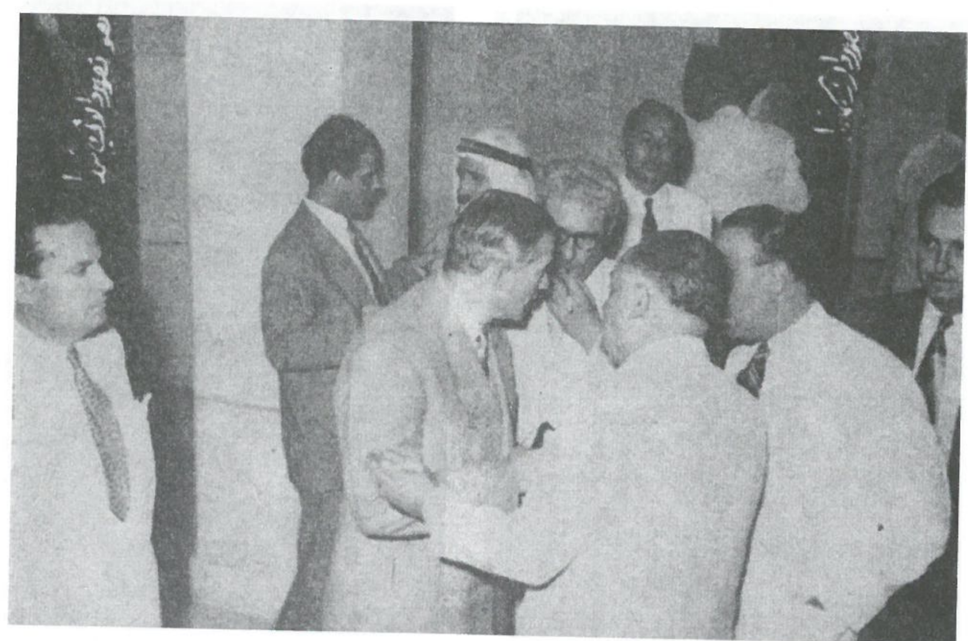
شارل الدباس الملقب بملك الداهومي



حبيب باشا السعد



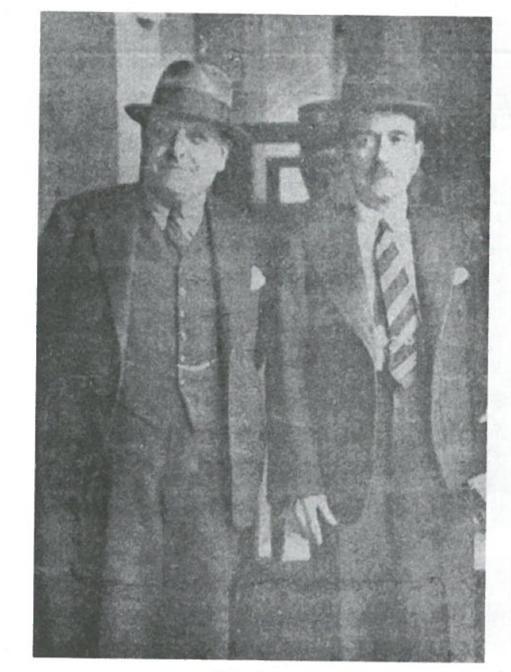
اميل اده أكثر الرؤساء نشاطاً وحركة بين رئيس المجلس بترو طراد وعبد الله اليافي رئيس الوزارة وحبيب أبو شهلا الوزير الممتاز من جهة وجبرائيل خباز من جهة أخرى.



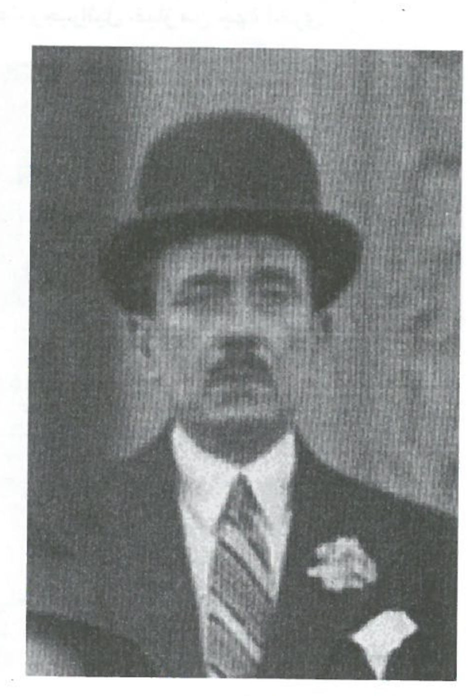
الرئيس كميل شمعون يتحدث إلى أنصاره النواب يوم انتخابه رئيساً للجمهورية



الكونت دي مارتل مع خليل كساب



الشيخ بشارة الخوري
وبترو طراد رئيس الحكومة 1943



بترو طراد



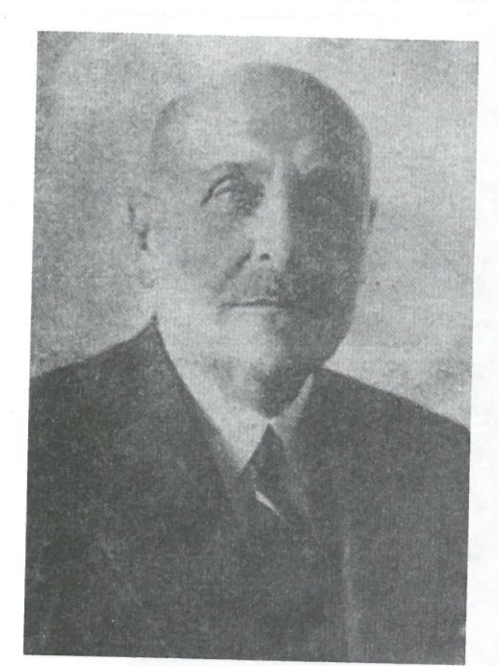
أيوب ثابت



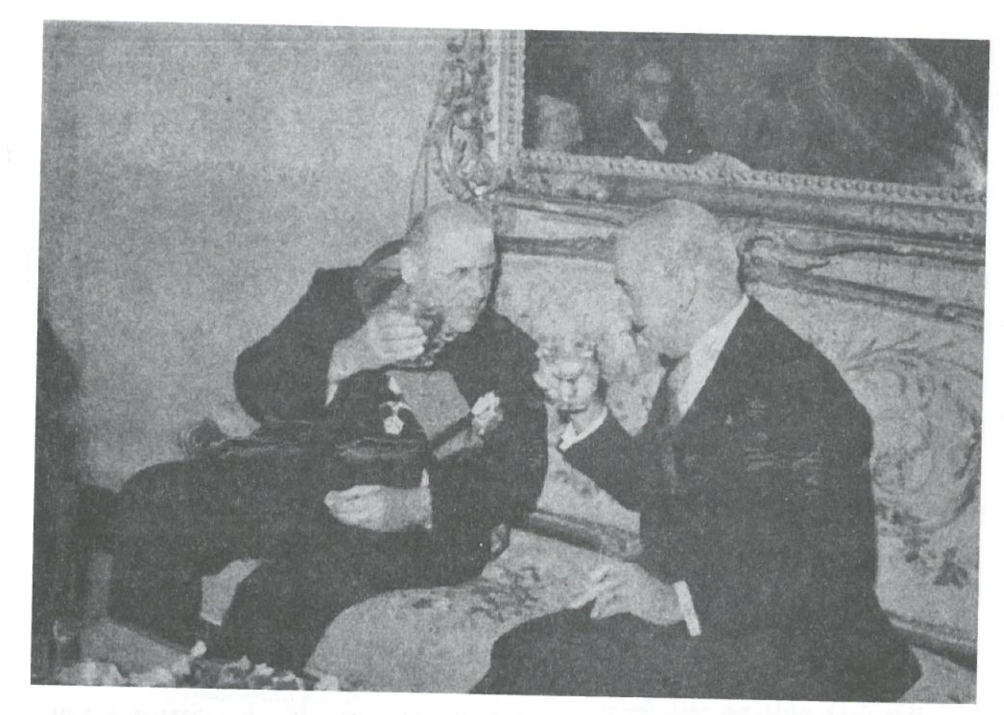
الرؤساء الثلاثة: صائب بك سلام، رياض بك الصلح، وسامي بك الصلح، يتصادقون ويضحكون



الرئيس كميل شمعون



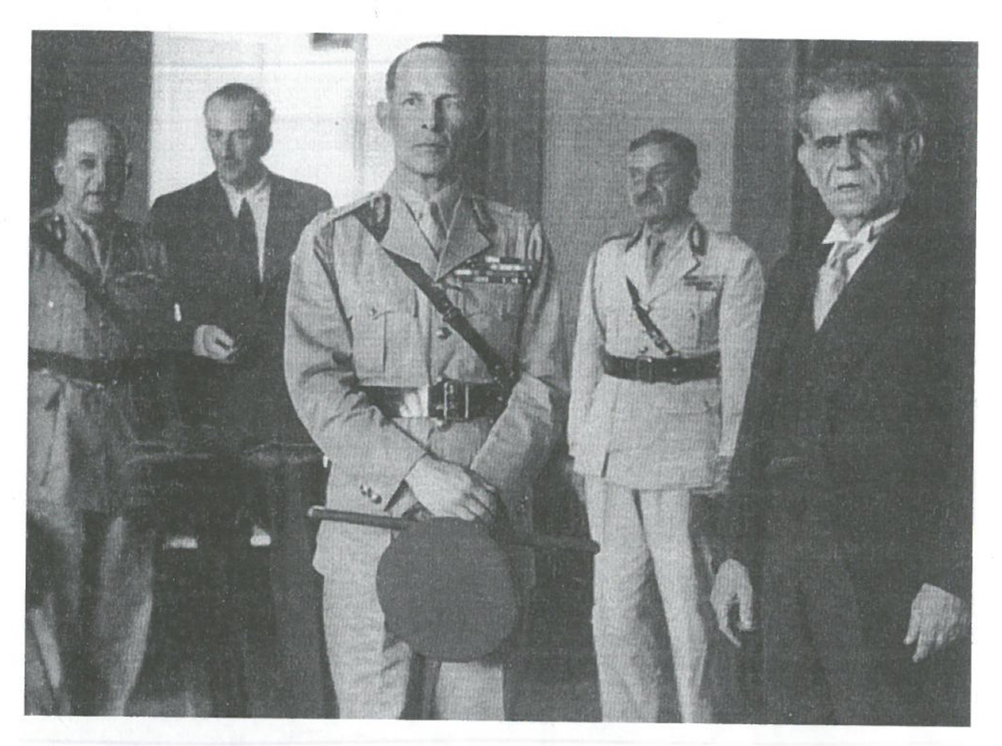
الرئيس الشيخ بشارة الخوري



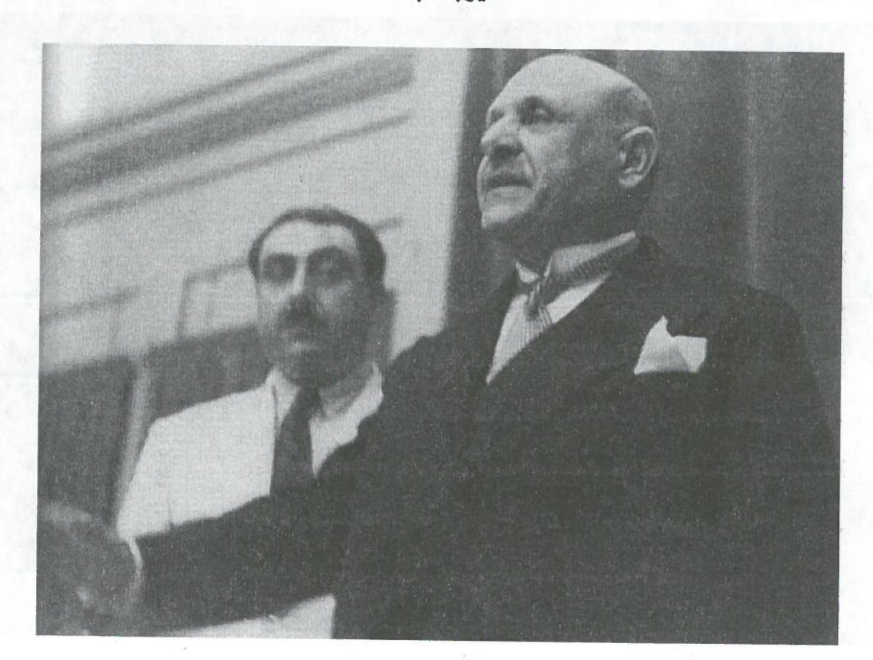
الرئيس بشارة الخوري مع رئيس الحكومة التركية



الرئيسان بشارة الخوري ورياض الصلح عقب خروجهما من راشيا يحيط بهما قادة الجيش والدرك



أيوب ثابت



الرئيس الشيخ بشارة الخوري



ده جوفنيل



الرئيس شمعون



الرئيسان بشارة الخوري ورياض الصلح

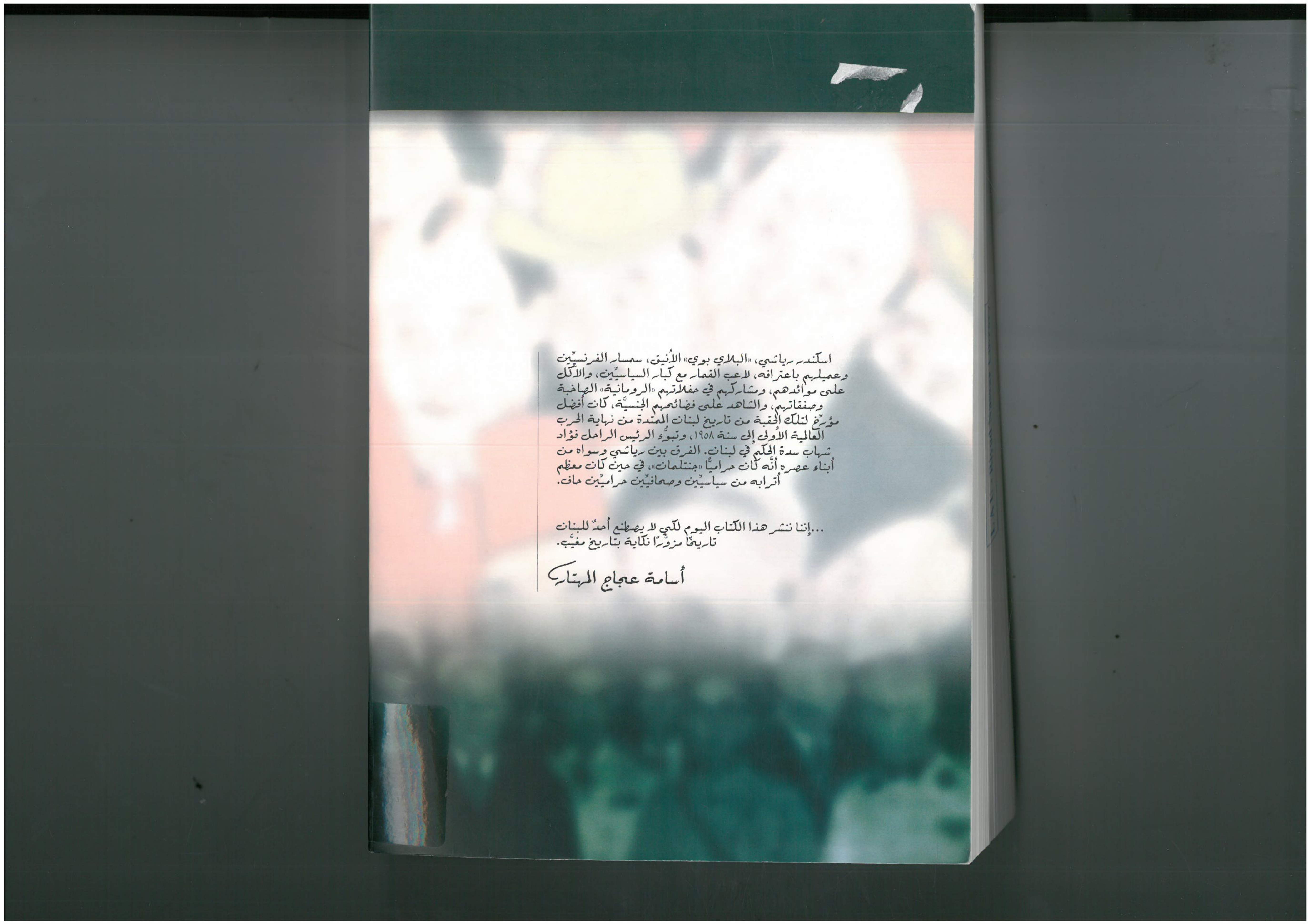
فهرست

صفحة

قبل وبعد

رؤوساء لبنان كما عرفتهم

مطابع ألف باء - الأديب
دمشق


اسكندر رياشي، «البلاي بوي» الأنيق، سمسار الفرنسيّين
وعميلهم باعترافه، لاعب القمار مع كبار السياسيّين، والآكل
على موائدهم، ومشاركهم في حفلاتهم «الرومانية» الصاخبة
وصفقاتهم، والشاهد على فضائحهم الجنسيَّة، كان أفضل
مؤرّخ لتلك الحقبة من تاريخ لبنان الممتدة من نهاية الحرب
العالمية الأولى إلى سنة ١٩٥٨، وتبوُّء الرئيس الراحل فؤاد
شهاب سدة الحكم في لبنان. الفرق بين رياشي وسواه من
أبناء عصره أنَّه كان حراميًّا «جنتلمان»، في حين كان معظم
أترابه من سياسيّين وصحافيّين حراميّين حاف.
...إننا ننشر هذا الكتاب اليوم لكي لا يصطنع أحدٌ للبنان
تاريخًا مزوَّرًا نكاية بتاريخ مغيَّب.
أسامة عجاج المهتار